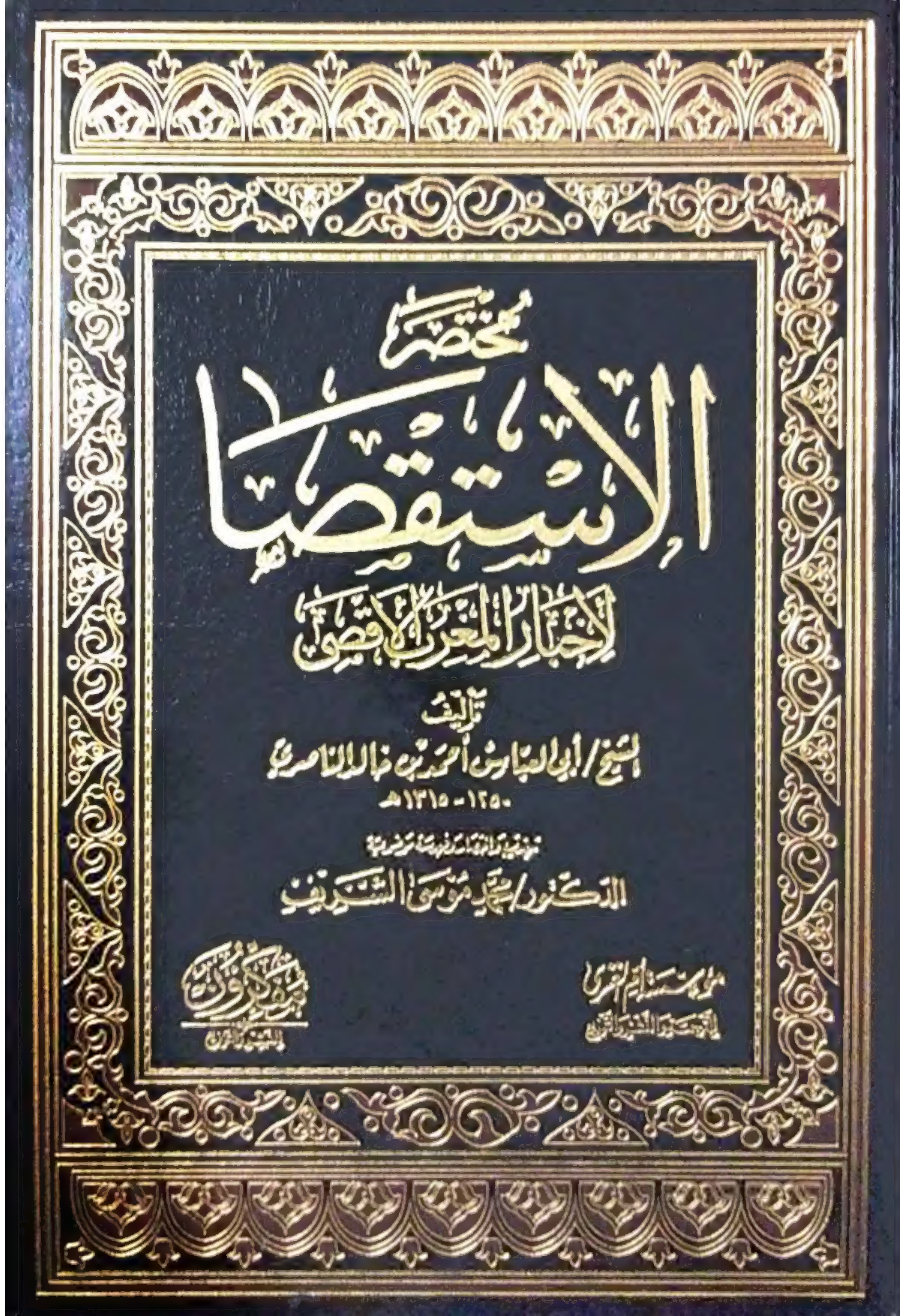

مختصر
الاستقصا
لأخبار المغرب الأقصى
تأليف
الشيخ/ أبي العباس أحمد بن خالد الناصري
١٢٥٠ - ١٣١٥هـ
الدكتور/ محمد موسى الشريف

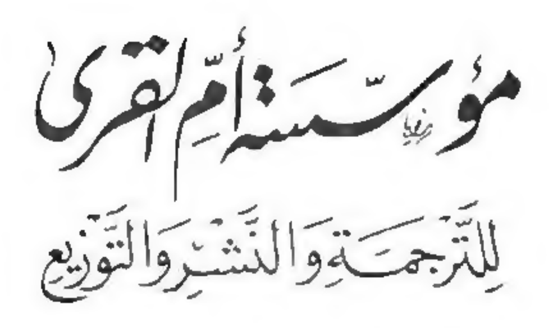
مختصر الاستقصا

لأخبار المغرب الأقصى

الطبعة الأولى

٢٠١٨م / ١٤٣٩ هـ

رقم الإيداع : ٢٠٥٦٤ / ٢٠١٧



المنصورة – توريل الجديدة – ش الإمام محمد عبده

تليفون : ٠٥٠٢٣٢٥٩١٥

محمول : ٠٠٢٠١٠٠٧٩١٢٧٤٦ – ٠٠٢٠١٠٥٧٢٥٢٢٢

ummalqura2005@yahoo. com



القاهرة : ٠٠٢٠١٠٠٨٥٢٦٠٧٢

السعودية : ٠٠٩٦٦٥٤١٢٩٧٩٨٢

المغرب : ٠٠٢١٢٥٢٢٤٥٢٠٨٤

mofakroun@gmail.com



تأليف

الشيخ / أبي العباس أحمد بن خالد الناصري

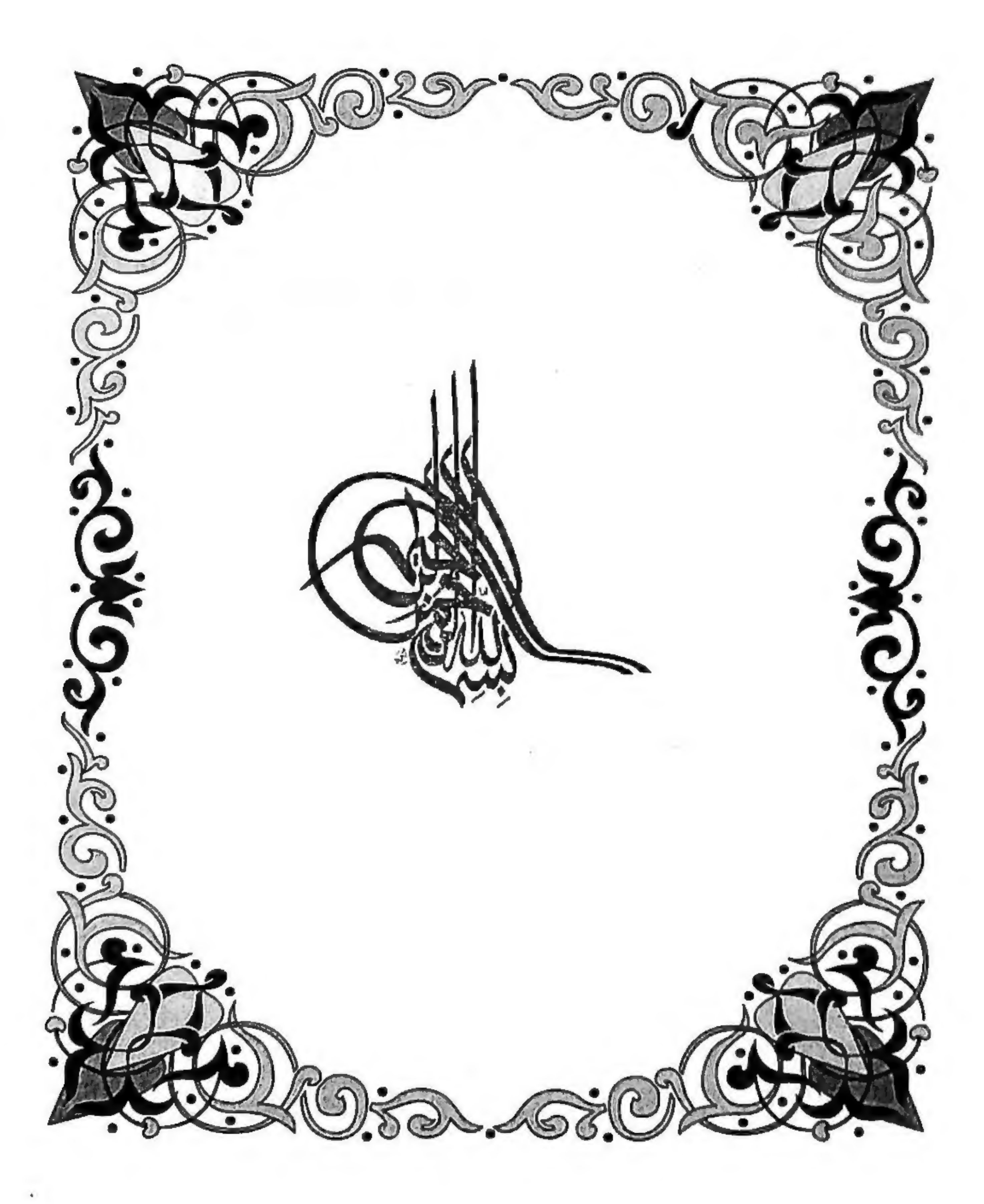
١٢٥٠ - ١٣١٥هـ

ترتيب واختصار وفهرسة موضوعية

الدكتور / محمد موسى الشريف



مؤسسة أم القرى
للترجمة والنشر والتوزيع



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فإن التاريخ علم يصل الحاضر بالماضي، والمدنيّ بالبادي، ويستضيء به مستشرف المستقبل الآتي.

وفيه عبر جليلة، وعظات كثيرة، وقصص معبرة، وأخبار مفصلة، يستقي منها المرء ما يريد بل يغترف، ولا يسع المنصف بعد ذلك إلّا أن يقرّ بذلك ويعترف، وكذلك يرعوي المتعظ عما يريد أن يجترح ويقترف.

وكتب التاريخ كثيرة متشعبة، بل أزعم أنه ليس من أمة من أمم الأرض لديها عشر معشار ما لدينا من كتب التاريخ، ولذلك حديث آخر، له تفصيل لا يسعه هٰذا المقام.

وأكثر التواريخ المتداولة بين الناس اليوم وأشهرها إنما مؤلفوها مشرقيون، وقلّ أن تجد كتابًا في التاريخ المغربي العام يُتداول بين الناس ويشتهر، ويُعرف ما فيه من كنوز، وهٰذا أمر متصل بمسألة أخرىٰ شكا منها ابن حزم وابن خلدون قديمًا؛ ألا وهي أن أخبار المغرب وأحوال أهله قَلّ أن يطّلع عليها أهل المشرق، وكلامهما فيه من التوجع والتألم ما فيه لكنه حق لا ريب فيه، وهو باق إلىٰ زماننا هٰذا، فليت شعري مَن من أهل المشرق مطلع علىٰ أحوال أهل المغرب، عارف - ولو في الجملة - بأخبارهم علىٰ مَرّ تاريخهم، عالم بأحوال رجالهم من علماء وزهاد وصالحين وأولياء ومجاهدين وأبطال؟

بل دع عنك هٰذا، وخبرني هل من عارف بأسماء الدول التي تعاقبت علىٰ حكم المغرب ولو دون تفصيل، وأخبار جهادها الجليل؟

يوجد من أهل المشرق مَن خبر هٰذا أو شيئًا منه لكنهم اليوم أقل من القليل، بينما كثير من أهل المغرب عارف بكثير من أخبار أهل المشرق وسير دولهم

ورجالهم.

ومن الكتب التي عَرَّفت بتفاصيل أخبار أهل المغرب ودولهم ورجالهم وأحداثهم: كتاب جليل جامع، أَلَّفه رجل مغربي من أهل العلم، ألا وهو الشيخ: أحمد بن خالد الناصري الذي عاش في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، وبتاريخ النصارىٰ القرن التاسع عشر والعشرين الميلاديين، وسمىٰ كتابه «الاستقصا بأخبار المغرب الأقصىٰ» وهو اسم طابق مسماه، وأضاف إليه علىٰ ما سيأتي من بيان ووصف لهٰذا الكتاب.

لكن الكتاب لم يشتهر بين أهل المشرق ومِن ثم لم ينتشر الانتشار اللائق به، وهو به حقيق، فصح العزم مني علىٰ تقريبه للقراء، وتهذيبه، واختصار كثير من أخباره، علىٰ الطريقة التي اخترتها لنفسي منذ زمن طويل، وارتضيتها علىٰ ما فيها من جهد وتعب كثير لكني أراها طريقة مناسبة لتقريب الكتاب إلىٰ مَن يقتنيه، ويشجعه علىٰ قراءته والاستفادة مما فيه؛ إذ ليس أهل هٰذا الزمان من القادرين علىٰ هٰذه القراءة الطويلة، وهم عازفون عنها أشد العزوف، راضون بما يطلعون عليه في وسائل الاتصال الحديثة من فتات الأخبار والحوادث التاريخية، استوىٰ في ذلك العزوف أهل العلم وغيرهم، والمثقفون ومن لَفّ لفهم، إلَّا قليلاً ممن صبر علىٰ القراءة الطويلة، وهٰذا في الناس اليوم كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، فلذلك عزمت علىٰ تقريب ما أراه نافعًا للقراء، واختصار تلك الأخبار الطويلة تشجيعًا علىٰ الاقتناء، ولست ببدعٍ من طلبة العلم في هٰذا الباب، فقد قام جماعة من العلماء وطلبة العلم سلفًا وخلفًا باختصار كثير من الكتب الطويلة بطرق عديدة، وليس هٰذا مكان تفصيلها.





مزايا كتاب
«الاستقصا بأخبار المغرب الأقصى»

لهٰذا الكتاب مزايا جليلة وفوائد عديدة، منها:

■ **أولاً: الاستقصاء في إيراد أخبار المغرب الأقصى:**

أورد المصنف أخبار المغرب الأقصىٰ منذ قبل تشرفه بالإسلام إلىٰ أوائل القرن الرابع عشر الهجري/ العشرين الميلادي؛ فلم يترك شاردة ولا واردة مهمة إلَّا وأوردها، ولم يدع دولة إلَّا وأورد أخبارها علىٰ هيئة مفصلة، فجاء الكتاب في ٩ أجزاء حافلة.

■ **ثانياً: سهولة اللغة التي كتب بها الكتاب وسلامتها:**

مؤلف الكتاب شيخ عالم، وكتبه بلغة عربية سليمة غالبًا، وبأسلوب سهل سلس لا تعقيد فيه ولا غموض، ولا تقعر ولا جمود، وهٰذا يجعل قارئه لا يمل منه، ولا يتجافىٰ عن متابعة قراءته.

■ **ثالثاً: كثرة أخبار الجهاد والمجاهدين:**

المصنف محب للجهاد، سائر علىٰ نهج المسلمين في هٰذا الباب، قبل أن يوجد جماعة من العلماء والمثقفين ممن ابتلينا بهم في القرن الرابع عشر/ العشرين ممن أنكروا الجهاد وتنكروا له، وأولوه تأويلاً ذهب بجلاله وعظمته، فالقارئ لكتاب «الاستقصا» يلفت نظره الكثرة الكاثرة من أخبار الجهاد التي أوردها المصنف ـ رحمه الله تعالىٰ ـ فهي مبثوثة في كل أجزاء كتابه لا تخطئها العين، فما أحسن ما أورد، وما أعظم ما نقل، من جهاد صحابة رسول الله ﷺ ورضي عنهم وأخبار جهاد التابعين، ومن تبعهم إلىٰ زمان المصنف، وأخص بالذكر أخبار المجاهدين العظماء من المرابطين والموحدين وبني مرين، فما أحلاها وما أجملها، تستدر شؤون العيون، وتخفق لها قلوب المشتاقين للجهاد، الذين يمنون النفوس بالاستشهاد، ونيل أعلىٰ الدرجات في جنات النعيم، وأورد المصنف أخبار الجهاد والمجاهدين علىٰ وجه التفصيل الجليل الذي هو مطلوب في مثل تلك الأخبار، مستحسن في القلوب والعقول، لا يمل منه

القاري، فينتقل من روضة إلى روضة، ومن خبر جليل إلى خبر أجل، فما أحسن ما صنعه رحمه الله تعالى.

■ **رابعاً: تأليف الكتاب على سنن أهل العلم:**

المصنف عالم جليل، ألف كتابه على قواعد أهل العلم، فلم يلو عنق النصوص، ولم يجامل دولة من الدول ـ إلَّا النادر الذي لا حكم له ـ وعندما تعرض للحكم على المشايخ والعلماء حكم عليهم بإنصاف وتُؤَدة، وأعطى كل ذي حق حقه.

ولما تعرض المصنف لذكر أخبار المنازعين الأمر أهله من المشايخ المتطلعة نفوسهم له وفّاهم حقهم، وذكر ما ينبغي أن يذكر من أحوالهم، وقوّمها على سنن شرعي حسن.

والحاصل: أن القارئ للكتاب لا يفجؤه تلون ولا تأويل بعيد، ولا يُفجع بتقرير باطل، ولا يُصدم بمخالفة شرعية إلَّا في النادر؛ ولله الحمد، فالمصنف حسن التصور لعلاقة الإسلام بالحياة، وذلك نادر في زمانه، رحمه الله تعالى.

■ **خامساً: العاطفة الجميلة:**

في كتاب «الاستقصا» عاطفة ظاهرة، مزج بها المصنف أخبار كتابه على عادة قدماء المؤرخين، فما أحسن ما صنع، وإذا قرأ المرء كتابًا في التاريخ لأحد المحدثين فإنما يروعه منه جفاف أسلوبه، والجفاء الظاهر في كثير من عباراته، فيما سموه بالأسلوب العلمي الأكاديمي الذي يصرفك صرفًا عن متابعة القراءة، ويصدك عن الاستفادة، بينما يشعر قارئ «الاستقصا» أن المصنف شاركه قلبه في قلمه، وعاطفته في تقريره، ويكاد يشعر المرء بدموع المصنف ولو لم ير آثارها في الكتاب، وهذا لعمر الحق هو التصنيف المؤثر، والتأليف المغيِّر، الذي يلج القلوب قبل الأسماع، ويخاطب العقل والعاطفة معًا.

■ **سادساً: الاستطراد النافع:**

لم يكتف المصنف بأخبار المغرب الأقصى، بل أضاف إليه جملة وافرة كبيرة من أخبار المغرب الأوسط «الجزائر» وكذلك أخبار تونس، وهذا أمر مهم ـ وإن خالف فيه المصنف عنوان الكتاب ـ لأن الحاجة ماسة لمعرفة أخبار هذين القطرين، ثم إن

المصنف أورد أخبارهما بما له صلة بأخبار المغرب الأقصىٰ فهو استطراد قائم علىٰ القواعد العلمية وليس استطراداً ناشئًا عن حب التوسع والإطالة المملة .

وكذلك ذكر المصنف بعض أخبار مصر بإيجاز وما جرىٰ عليها من غزو فرنسا لها، وغير ذلك، وذكر بعض أخبار جهاد الشيخ محمد أحمد المهدي السوداني الذي كان معجبًا به إلىٰ حد كبير، وذكر بعض أحوال أمراء الحجاز، وكل ذلك علىٰ وجه الإيجاز الذي لم يصل إلىٰ حد الإخلال لأنه لم يرد أن يؤرخ لتلك الأحداث إنما أشار إليها إشارة سريعة نافعة .

■ **سابعًا: عقيدة المصنف السليمة:**

كان المصنف مائلاً إلىٰ عقيدة السلف، محبًا لها، ناصرًا لها بوضوح - كما سيأتي في صلب الكتاب، إن شاء الله تعالىٰ - .

وقد نعىٰ علىٰ صوفية زمانه سؤالهم غيرَ الله تعالىٰ من أصحاب القبور من الأولياء والصالحين، وقد أطال النفَس في الرد عليهم - بما سيجده القارئ في صلب الكتاب، إن شاء الله تعالىٰ - وهٰذا كله أكسب الكتاب قوة وجلالة .

■ **ثامناً: النص علىٰ كثير من العبر والعظات:**

كان من منهج المصنف - رحمه الله تعالىٰ - أن يورد الحدث ويتبعه بعبره وعظاته غالباً، وهٰذا ظاهر مبثوث في كتابه لا تخطئه العين، وهٰذا أكسب الكتاب جودة وثروة في باب التربية وتنشئة الأجيال علىٰ الاستفادة من تجارب الآباء والأجداد .

■ **تاسعاً: التوسع في إيراد أخبار الفقهاء المنكرين للمظالم والخارجين بسببها:**

أورد المصنف بتوسع أخبار عدد من العلماء والفقهاء الذين أنكروا مظالم السلاطين والولاة، وأدىٰ بهم هٰذا الإنكار إلىٰ الخروج المسلح علىٰ الدولة، وفند المصنف حججهم بتوسع، وأفاض في ذكر أخبارهم، وما انتهت إليه هٰذه المحاولات، وتلك الأحداث التي بينها المصنف هي ثروة فقهية وتاريخية واجتماعية أكسبت الكتاب جودة فوق جودته، وقوة إلىٰ قوته .

وأيضا كانت تلك الأحداث علىٰ غاية من الأهمية لدعاة اليوم الراغبين في مقاومة الظلم ودعوة الناس إلىٰ الهدىٰ والرشاد؛ إذ تبين لهم عاقبة منهج العنف وجدْواه في نقض الباطل ومقارعة الظالمين، ومدىٰ موافقته أو مخالفته لمنهج السلف

في التغيير.

■ **عاشراً: معايشة الأحداث في القسم الأخير من الكتاب:**

عاش المصنف في مدة حرجة؛ وهي التي كان فيها المغرب مهدداً من قبل الدول الاستخرابية خاصة فرنسا، فذكر المصنف في ذلك القسم مقاومة المغرب لمحاولات تلك الدول التدخل في شأنه بشتىٰ صنوف التدخلات والمسوغات الباطلة، وذكر في ذلك أخباراً مهمة وقف عليها بنفسه، بل خبرها وشارك في بعضها.

هـٰذا، وقد عاش المصنف في زمن أربعة سلاطين: السلطان عبد الرحمن، وولده محمد الرابع، وولده الحسن الأول، وولده عبد العزيز، فكان بذلك شاهداً علىٰ أحداث عصره ومصره، ومشاركاً في بعضها كما سلف، وأورد في القسم الأخير من كتابه هـٰذه المشاهدات، وتلك المشاركات، علىٰ وجه أكسب الكتاب جودة وقوة.

ولكل تلك المزايا عُني بالكتاب عناية فائقة، واستُقبل استقبالاً حسناً من قبل مؤرخي ذلك الزمان ومثقفيه، وترجم إلىٰ الفرنسية ونشر، وتُرجم أجزاء منه إلىٰ البرتغالية والإيطالية والإنجليزية.

۞۞۞

● **طريقة المصنف في كتابه:**

■ جرىٰ المصنف ـ رحمه الله تعالىٰ ـ علىٰ عادة كثير من قدماء المؤرخين في إيراد أخبار كتبهم تحت أخبار الدول والسلاطين، وبمعنىٰ آخر أن كل أخبار الكتاب تدور في فلك الدول والسلاطين، فليس هنالك تقسيم موضوعي إلَّا ذلك، وهـٰذه الطريقة تحرم القارئ من النظر إلىٰ أحداث التاريخ بمنظار جامع؛ إذ الأحداث تورد متفرقة في أخبار السلاطين والدول، فرب حادث ذي طبيعة متصلة الحلقات فُرق في أخبار السلاطين والدول حتىٰ لا يكاد القارئ يتذكر جزئيات الحادث ولا مبادئه، لكن لا حرج عليه في هـٰذا، فهو قد جرىٰ علىٰ سَنن المصنفين المتقدمين في التاريخ فلم يكن بدعاً منهم.

■ وقد استعان المصنف ـ رحمه الله تعالىٰ ـ بجملة من المصادر التاريخية المغربية،

وأدرج نصوصها في كتابه إدراجاً حسناً غير متكلف، وليس فيه حشو ولا استطراد، وكذلك استعان بمصدر غربي مؤلفه مؤرخ إسباني يُدعىٰ مانويل، وهو صليبي الهوىٰ، أثرت صليبيته علىٰ سوقه للأحداث، واسم كتابه «الوصف التاريخي للمغرب ولمحة عن دوله» ولعله أول مؤرخ مغربي يستعين بمؤرخ غربي.

■ لكن المصنف لم يكتف بأخبار مانويل التي استفاد منها، بل أضاف إليها ـ غالباً ـ ما يكمل النقص، ويصلح الخطأ، ويصوب المبالغات.

❂❂❂

• **عملي في الكتاب:**

حاولت أن أقرب الكتاب إلىٰ القراء قدر الإمكان، وأجمع بين أجزائه التسعة ليكون في مجلد واحد لا يستثقله قارئه، ولا يمله، ومن أجل هـٰذا صنعت التالي:

١ - حذفت كل ما يمكن حذفه من أخبار لا تعود علىٰ قارئها اليوم بالنفع، وذلك نحو الأخبار الكثيرة التي ساقها المصنف في المشكلات التي كانت تحدث بين البادية من عرب وبربر، والغارات الكثيرة جدًا التي كان يقوم بها سلاطين المغرب لتأديبهم؛ فإنها أخبار علىٰ نسق واحد، ليس في إيرادها اليوم كبير فائدة، ثم إن الصدور تضيق بذكرها والتطويل ـ الذي جرىٰ عليه المصنف ـ في إيرادها.

وهـٰذا مما ساعدني كثيراً علىٰ تقليل صفحات الكتاب، وتقريب مادته إلىٰ القراء، فإني ما أبقيت منها إلَّا ما كان مهمًا لفهم الأحداث، أو ما كان جزءًا متصلاً بما لا بد من ذكره.

٢ - حذفت كل ما يمكن حذفه من أخبار تونس والجزائر مما ليس هنالك كبير فائدة في إيراده، خاصة ما كان من الغزو المتكرر لتلك الديار، والأحداث الطويلة التي أطال في وصفها الكاتب.

٣ - حذفت من أخبار الدول والسلاطين ما جرت عادة كثير من المؤرخين بذكره والإشادة به من الآثار التي تركوها، والمدن التي شيدوها، والقصور التي بنوها مما هو اليوم يكاد يكون أثرًا بعد عين، ولا فائدة في إثباته، ولم أبق منه إلَّا أقل من القليل.

٤ - حذفت كثيراً من أخبار الخروج المتكرر علىٰ سلاطين المغرب من أبنائهم أو

إخوانهم أو قراباتهم أو من غير هـٰؤلاء مما لا يعود ذكره بفائدة على القارئ، خاصة أن المصنف أكثر من إيراد أخبار ذلك الخروج بل استقصاه، وقد كان ذلك الخروج ظاهرة واضحة في تاريخ المغرب، ولم أبق من تلك الأخبار إلَّا ما كان فيه عبرة أو عظة لقارئ هـٰذا الزمان.

والحاصل: أن الكتاب الأصل موجود ولا يضره ما صنعته في اختصاره، فمن أراد الوقوف على تلك الأخبار فليرجع إليه.

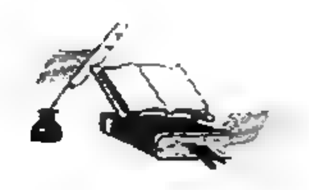
٥ - علَّقت على بعض كلام المصنف، وأبقيت على بعض عبارات المحققيْن ـ وهما ابنا المصنف ـ فما كان من المحققين سقته وصدرته بـ: قال المحقق.

والحق أن الكتاب يخْلو من التحقيق وإن ادعى ابنا المصنف أنهما حققاه، فليس فيه من التحقيق قليل ولا كثير اللَّهم إلَّا ضبط بعض النص وجودة الفهرسة، فالكتاب مفتقر إلى تحقيق جيد، والله المستعان.

● **الطبعة التي اعتمدت عليها في الاختصار:**

طبع الكتاب مطبعة دار الكتاب في الدار البيضاء، سنة ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤م، والطبعة سقيمة، وقد قام على التحقيق والتعليق عليها ولدا المصنف: جعفر الناصري ومحمد الناصري، والحقيقة أنه لا تحقيق، وهناك بعض التعليقات النافعة، ومن أجلّ ما صنعاه الفهارس العلمية التي ختما بها كل جزء، فجزاهما الله ـ تعالى ـ خيراً.





ترجمة المصنف

هو: الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، ولد سنة ١٢٥٠هـ بمدينة سلا، الموافق سنة ١٨٣٥م، ونشأ فيها، وقد كانت زاهرة بالعلوم والعلماء، فقرأ القرآن العظيم بالقراءات السبع، وقرأ متونًا من العلم الشرعي متنوعة، وقرأ العربية والأدب، ودرس المنطق والتصوف، وحلّ كثيرًا من مشكلات العلم على أشياخه، وأخلص للعلم نفسه، وأقبل عليه بكليته.

ودرس علم التاريخ، والرياضيات، والطبيعيات، وعلم الجغرافيا، واطّلع على العلوم العصرية والمخترعات الأوروبية الحديثة، واطلع على المجلات العلمية باللغات الأجنبية؛ فصار بذلك متميزًا على أقرانه.

ثم تفرغ لنشر العلم وتدريسه أزيد من ٤٠ سنة، واشتغل بالتأليف، وكان يمزج تدريسه وتأليفه بواقعه الاجتماعي وأحوال زمانه، وختم تفسير القرآن مرتين في أسلوب جديد على أهل المغرب.

• **عقيدة المصنف:**

قد كان المصنف على مذهب السلف في العقيدة ـ كما يظهر ذلك في صلب كتابه هذا وفي غيره خاصة «تعظيم المنة بنصرة السُّنة» وكان ينكر على أهل البدع من الصوفية إنكارًا لا يُعرف في زمانه مما وصلنا وعرفناه من آثار أقرانه حتى شنع عليه جماعات من أرباب الطرق وبعض علماء زمانه.

• **وظائفه:**

قبل على مضض بعض الوظائف الحكومية في المغرب مثل: الشهادة في الأحكام القضائية والقيام على الأوقاف والحسبة وإدارة المراسي البحرية، وبعض الوظائف المالية، وغير ذلك.

• **مؤلفاته:**

ناهزت مؤلفاته سبعة وعشرين مؤلفًا عدا المسودات التي لم يبيضها، وهي باقية في خزانته.

- **وفاته:**

كان قد انقطع عن الناس والوظائف، ولم يخرج إلّا للصلوات حتى فجأه المرض ثم الوفاة سنة ١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م ـ رحمه الله تعالى ـ وكانت جنازته على السنة، ورثي بمراثٍ عديدة [1] .





(١) مصدر الترجمة ما ساقه ولدا المصنف في بداية كتابه من ترجمة طويلة هذه خلاصتها .



الجزء الأول

مقدمة المؤلف

الحمد لله الملك المعبود، الرءوف الرحيم الودود، المخرج للخلق من ظلمة العدم إلىٰ نور الوجود، الفاتح عليهم بمعرفته، والتحقق بوحدانيته كل باب مسدود، الدال لهم علىٰ باهر حكمته، وعظيم قدرته بالمعنىٰ المعقول والحس المشهود، فلا يرتاب في أنه الواحد القدير، العليم الخبير إلَّا الكفور الكنود.

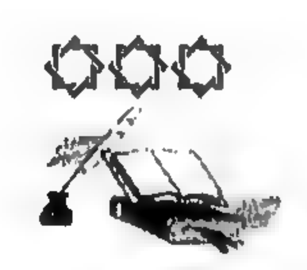
ونشهد أن لا إلـٰه إلَّا الله وحده لا شريك له شهادة نتبوأ بها من الجنان السدر المخضود، والطلح المنضود، والظل الممدود.

ونشهد أن سيدنا ونبينا ومولانا محمداً عبده ورسوله أكرم مبعوث وأشرف مولود، صاحب المقام المحمود، واللواء المعقود، والحوض المورود، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه الذين هم في محافل السلم بدور وفي جحافل الحرب أسود، ولهم في أتباعه ونصرته اليد البيضاء والباع الممدود.

وبعد:

فيقول مؤلفه أحمد بن خالد الناصري السلاويّ عفا اللَّه عنه:

هـٰذا ـ بعون الله ـ كتاب الاستقصا، لأخبار دول المغرب الأقصىٰ، كتاب جمعته لنفسي، ولمن شاء الله من أبناء جنسي، ذكرت فيه دول هـٰذا القطر المغربي من لدن الفتح الإسلامي إلىٰ وقتنا هـٰذا الذي هو آخر القرن الثالث عشر، سالكًا فيما أنقله من ذلك سبيل الاختصار، آتيًا منه بما تسمو إليه النفوس من حوادث الأعصار، ملمعًا بما لابد منه من وفيات بعض الأئمة المقتدىٰ بهم في الدين، متبركًا أولا بذكر رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين، متحريًا من النقول أصحها، ومن العبارات أفصحها، والله تعالىٰ المسؤول، في بلوغ المأمول، فمنه سبحانه المنة والطول، وبيده تعالىٰ القوة والحول.



القول في نسب البربر وبيان أصلهم

اعلم أن الناس اختلفوا في تحقيق نسب البربر وإلىٰ أي أصل من أصول الخليقة يرجعون.

وقال أبو عمر ابن عبد البر في كتاب التمهيد له: «اختلف الناس في نسب البربر اختلافا كثيراً، وأنسب ما قيل فيهم أنهم من ولد قبط بن حام، وأنه لما نزل مصر خرج بنوه يريدون المغرب فسكنوا من آخر عمالة مصر وذلك فيما وراء برقة إلىٰ البحر الأخضر مع بحر الأندلس(١) إلىٰ منقطع الرمل متصلين بالسودان.

واعلم أن الخلاف في نسب البربر طويل، وقد تركنا جله اختصاراً، وأشبه هٰذه الأقوال بالصحة: أن جيل البربر من ولد حام؛ وأنهم جيل قديم سكنوا المغرب عندما تناسلت ذرية نوح عليه السلام وانتشرت الخليقة علىٰ وجه الأرض، ثم تلاحقت بهم بقية بني كنعان من الشام عندما أجلاهم يوشع بن نون عليه السلام أولا ثم داود عليه السلام ثانياً.

قال ابن خلدون بعد تزييف القول بأن البربر من ولد جالوت بالخصوص أو من العرب ما نصه: «والحق الذي لا ينبغي التعويل علىٰ غيره في شأنهم أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح عليه السلام وأن اسم أبيهم مازيغ».

ومما يستملح من النوادر المقولة في نسب البربر، قول خلف بن فرج السميسير من شعراء الأندلس يهجو البربر:

رأيت آدم في نومي فقلت له	**أبا البرية إن الناس قد حكموا**
إن البرابر نسل منك، قال إذاً	**حواء طالق إن كان الذي زعموا**

وهٰذا من ملح الشعراء وشيطنتهم، وإلا فالبربر جيل معروف من أعظم الأجيال وأعزها، ولهم الفخر الذي لا يجهل، والذكر الذي لا يهمل، وقد تعددت فيهم الدول، وكثرت فيهم الملوك العظام، وكان لهم القدم الراسخ في الإسلام،

---

(١) قلت: البحر الأخضر هو المحيط، وبحر الأندلس هو البحر المتوسط.

واليد البيضاء في الجهاد، ومنهم الأئمة والعلماء والأولياء والشعراء، وأهل المزايا والفضائل، وستقف على كثير من ذلك عن قريب إن شاء الله.

القول في تقسيم شعوب البربر على الجملة

اعلم أن أمة البربر أمة عظيمة قد ملأت ما بين برقة والبحر المحيط شرقًا وغربًا، وما بين بلاد السودان والبحر الرومي جنوبًا وشمالاً؛ ومع عظمها فيجمعها شعبان عظيمان بحيث لا يخرج بربري عنهما.

قال ابن خلدون: علماء النسب متفقون على أن البربر يجمعهم جدان عظيمان وهما: برنس ومادغيس، ويلقب مادغيس بالأبتر فلذلك يقال لشعوبه البُتر. ويقال لشعوب برنس: البرانس. وبين النسابين خلاف: هل هما لأب واحد أم لا؟ فعند ابن حزم أنهما لأب واحد والجميع من نسل كنعان بن حام.

فالحق أن الشعبين معًا عريقان في البربرية، وأن الجميع من ولد مازيغ، ومازيغ هو من ولد كنعان بن حام كما مر.

فأما البرانس فتنقسم إلى سبع قبائل: أوربة وصنهاجة وكُتامة ومصمودة وعجيسه وأوريغة وأرداجة، ويقال ورداجة بالواو بدل الهمزة، وزاد سابق المطماطي وغيره ثلاث قبائل أخر وهم: لمطة وهسكورة وجزولة فتكون عشراً.

فأما أوربة فكان منهم: كسيلة بن أغز الأوربي قاتلُ عقبة بن نافع ﷺ زمان الفتح، ومنهم: إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي القائم بدعوة إدريس بن عبدالله ﷺ.

وأما صنهاجة فهم أكبر قبائل البربر حتى زعم كثير من الناس أنهم مقدار الثلث منهم، وكان منهم بنو زيرى بن مناد ملوك إفريقية، والملثمون ملوك مراكش والأندلس.

وأما كتامة فهم القائمون بدعوة العبيديين بإفريقية ومصر.

وأما المصامدة فمنهم غمارة، وكان منهم يليان النصراني صاحب سبتة وطنجة أيام دخول عقبة بن نافع للمغرب الأقصى، وهم القائمون أيضا بدعوة بني إدريس

في دولتهم الثانية بعد بني أبي العافية، ومن المصامدة أيضًا برغواطة أهل تامسنا وما اتصل بها، ومنهم أهل جبل درن القائمون بدعوة محمد ابن تومرت: مهدي الموحدين.

وأما باقي قبائل البرانس فلم يكن لهم ملك يذكر.

وأما البُتر وهم بنو مادغيس الأبتر فينقسم شعبهم إلى أربع قبائل وهم: ضريسة ونفوسة وأداسة وبنو لوي وهم: لواتة.

فأما ضريسة فمنهم مكناسة، ومن مكناسة بنو مدرار ملوك سجلماسة، وبنو أبي العافية ملوك فاس.

ومن ضريسة أيضًا زناتة كلها ومن زناتة جراوة قوم الكاهنة داهيا صاحبة جبل أوراس التي أوقعت بحسان بن النعمان عامل الخليفة عبد الملك بن مروان.

ومن زناتة أيضًا بنو خزر المغراويون ملوك تلمسان والمغرب الأوسط، ومنهم مغرواة ملوك فاس، وبنو يفرن ملوك سلا وتادلا، ومنهم بنو زيان ملوك تلمسان، وبنو مرين ملوك فاس أيضًا، فهـٰؤلاء كلهم من زناتة. وزناتة هو زانا بن يحيىٰ بن ضرىٰ بن زجيك بن مادغيس الأبتر.

وأما نفوسة وأداسة ولواتة فلم يكن لهم ملك يذكر.

واعلم أن كل قبيلة من هـٰذه القبائل الأربع عشرة تشتمل علىٰ عمائر وبطون وأفخاذ وقبائل لا حصر لها، وفيما ذكرناه كفاية، وبالله التوفيق.

❊❊❊



الخبر عن حال البربر قبل الإسلام

لما أخذ الروم بدين النصرانية في زمن قسطنطين الملك، وكانت لهم اليد العالية على من جاورهم من الأمم، مثل الحبشة والقبط والفرنج والقوط وغيرهم، حملوهم على الأخذ به فدانوا به معهم وتلقوه عنهم وبثوه في بلادهم ورعاياهم، وكان الفرنج مجاورين للبربر في المغرب الأدنى، والقوط مجاورين لهم في الأقصى، ليس بينهم وبينهم إلَّا خليج البحر، فحملوا أهل السواحل منهم على الأخذ بذلك الدين فدانوا به أيضاً، ونظر القياصرة يومئذ منسحب على الجميع وأمرهم نافذ في الكل، واستمر الحال على ذلك حتى جاء الله بالإسلام وأظهره على الدين كله، فدانت به البربر - على ما نذكره إن شاء الله - فلهذا السبب كان كسيلة الأوربي ويليان الغماري وغيرهما من كبار البربر نصارى.

وقال ابن خلدون:

«كان للبربر في الضواحي وراء ملك الأمصار المرهوبة الحامية ما شاء الله من قوة وعدة وعدد وملوك ورؤساء وأقبال وأمراء لا يرامون بذل، ولا تنالهم الروم والفرنج في ضواحيهم تلك بمسخطة ولا إساءة».

ثم قال:

«وكانوا يؤدون الجباية لهرقل - ملك القسطنطينية - كما كان المقوقس صاحب مصر والاسكندرية وبرقة يؤدي الجباية له - وكما كان صاحب طرابلس ولبدة وصبرة وصاحب صقلية وصاحب الأندلس من القوط لما كان الروم قد غلبوا على هؤلاء الأمم أجمع وعنهم أخذوا دين النصرانية، وكان الفرنجة هم الذين ولوا أمر أفريقية ولم تكن للروم فيها ولاية وإنما كان كل من كان منهم بها جند للفرنج ومن حشودهم.

وما يسمع في كتب الفتح من ذكر الروم في فتح أفريقية فمن باب التغليب، لأن العرب يومئذ لم يكونوا يعرفون الفرنج وما قاتلوا في الشام إلَّا الروم فظنوا أنهم هم الغالبون على أمم النصرانية، فإن هرقل هو ملك النصرانية كلها فغلبوا اسم الروم على جميع أمم النصرانية، ونقلت الأخبار عن العرب كما هي فجرجير المقتول عند الفتح

من الفرنج وليس من الروم، وكذا الأمة الذين كانوا بأفريقية غالبين على البربر ونازلين بمدنها وحصونها كانوا من الفرنجة».

القول في تحديد المغرب
وذكر حال البربر بعد الإسلام

اعلم أن لفظ المغرب يطلق في عرف أهله على ناحية من الأرض معروفة بعينها، حدها من جهة مغرب الشمس البحر المحيط المعروف بالكبير، ومن جهة مشرق الشمس بلاد برقة وما خلفها إلى الإسكندرية ومصر، فبرقة خارجة عن بلاد المغرب بهذا الاعتبار، وبلاد طرابلس وما دونها إلى جهة البحر المحيط داخلة فيه، وحدها من جهة الشمال البحر الرومي المفترع عن المحيط ويعرف هذا الرومي بالصغير، ومن جهة الجنوب جبال الرمل الفاصلة بين بلاد السودان وبلاد البربر، وتُعرف عند العرب الرحالة هنالك بالعرق.

ثم هذا المغرب يشتمل على ثلاث ممالك:

مملكة أفريقية: وهي المغرب الأدنى ـ وقاعدتها في صدر الإسلام مدينة القيروان وفي هذا العصر مدينة تونس ـ وسُمي أدنى لأنه أقرب إلى بلاد العرب ودار الخلافة بالحجاز.

ثم بعد أفريقية، مملكة المغرب الأوسط: وقاعدتها تلمسان وجزائر بني مزغنة وهذه المملكة اليوم في يد فرنج افرانسة ملكوها في سنة ست وأربعين ومائتين وألف، وأهلها مسلمون.

ثم بعد ذلك مملكة المغرب الأقصى، وسُمي الأقصى؛ لأنه أبعد الممالك الثلاث عن دار الخلافة في صدر الإسلام، وحد هذا الأقصى من جهة المغرب البحر المحيط، ومن جهة المشرق وادي ملوية مع جبال تازا، ومن جهة الشمال البحر الرومي، ومن جهة الجنوب جبل درن. قاله ابن خلدون.

وفي تقسيم الفرنج: أن المغرب الأقصى يشتمل على خمس عمالات: عمالة فاس، وعمالة مراكش، وعمالة السوس، وعمالة درعة، وعمالة تافيلالت.

ودار الملك به تارة فاس وتارة مراكش، وهو في الأغلب ديار المصامدة من البربر

ويساكنهم فيه عوالم من صنهاجة ومضفرة وأوربة وغيرهم لكنهم قليل بالنسبة إلى المصامدة، ويساكنهم فيه أيضًا عالم من العرب أهل الخيام، انتقلوا من جزيرة العرب إلى أفريقية ثم من أفريقية إليه أواخر المائة السادسة أيام الخليفة يعقوب المنصور الموحدي، وهم اليوم قبائل عديدة يرجعون في نسبهم إلى رياح وجُشَم، فأما رياح فهم من بني هلال بن عامر بن صعصعة، وأما جشم فهم بنو جشم بن معاوية بن بكر وكلهم ينتهي نسبهم إلى مُضر، ويضاف إليهم قبائل أخر.

ثم قد علمت أن كلامنا بالقصد الأول في هـٰذا الكتاب إنما هو على المغرب الأقصى، لكنا نتكلم أولا على أخبار المغرب مطلقًا، ونذكر أمراءه الموجهين من قبل الخلفاء بالمشرق على التفصيل ما دام نظرهم منسحبًا عليه وظلهم ممتدًا إليه؛ إذ كان أمر الخلافة في صدر الإسلام متحدًا، وحكمها مجتمعًا، وكلمتها نافذة في جميع ممالك الإسلام شرقًا وغربًا، بحيث لا يخرج قطر من الأقطار ولا مصر من الأمصار فيما بَعُد أو دنا من الأرض عن نظر الخليفة الأعظم، وقد كان ذلك دينًا متبعًا وحكمًا مجمعًا عليه، ولا تصح لأحد إمارة أو ولاية إلّا بالاستناد إليه، حتى إذا طال العهد وضعف أمر الخلافة وتقلص ظلها عن القاصية، تفرقت ممالك الإسلام البعيدة عن دارها وتوزّعتها الثوار من بني هاشم وغيرهم، واستبد الأمراء النازحون عنها كلٌّ بما غلب عليه وسار أمر الوحدة إلى الكثرة وحكم الاجتماع إلى الفرقة، فلهـٰذا نتكلم الآن على أخبار المغرب مطلقًا، ونذكر ولاته الموجهين إليه من قبل الخلفاء واحدًا بعد واحد إلى زمن إدريس بن عبد الله المستبد بملك المغرب الأقصى، والمقتطع له عما عداه من الممالك الإسلامية، فحينئذ نفرد الكلام عليه بخصوصه على ما شرطناه، فأما الآن فلا يمكننا الكلام عليه وحده لأنه ـ والحالة هـٰذه ـ مندرج في غيره من ممالك المغرب، إذ الوالي الموجه من قبل الخليفة في صدر الإسلام كان يكون واليًا على أفريقية وما بعدها من بلاد المغرب إلى البحر المحيط، وقد تضاف إلى نظره الأندلس، بل كان الوالي بمصر قد يكون نظره شاملاً لجميع بلاد المغرب حسبما نقف عليه، فاعرف هـٰذه الجملة، ولتكن منك على بال.

وأما حال البربر بعد الإسلام، فيعرف من أخبار الولاة التي نسردها الآن، وبالله التوفيق.

ولاية عمرو بن العاص ﷺ وفتحه برقه وطرابلس

لما كانت خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ وفتح عمرو بن العاص مصر والإسكندرية وفرغ منها سار في سنة إحدىٰ وعشرين من الهجرة إلىٰ برقة ـ وكانت تسمىٰ في القديم انطابلس ـ فصالحه أهلها علىٰ الجزية، ثم سار بعدها إلىٰ طرابلس فحاصرها شهراً، وكانت مكشوفة السور من جانب البحر وسفن الروم في مرساها، فحسر الماء في بعض الأيام وانكشف أمرها لبعض المسلمين المحاصرين لها، فاقتحموا البلد فيما بين البحر والبيوت فلم يكن للروم ملجأ إلَّا سفنهم، وارتفع الصياح فأقبل عمرو بعساكر، فدخل المدينة ولم يفلت الروم إلَّا بما خف في المراكب، وكمل الفتح، ورجع عمرو إلىٰ برقة فصالحه أهلها علىٰ ثلاثة عشر ألف دينار جزية، وكان أكثر أهل برقة لواتة وهم بنو لوي الأكبر، وأكثر أهل طرابلس نفوسة وكلتا القبيلتين من البُتر.

ولما فرغ عمرو ﷺ من أمر طرابلس وما معها استأذن عمر بن الخطاب ﷺ في التقدم إلىٰ أفريقية فمنعه وقال: تلك المفرقة وليست بإفريقية، أو كلامًا هـٰذا معناه، فامتثل وعاد إلىٰ مصر، فكان عمرو بن العاص أول أمير للمسلمين وطئت خيله أرض المغرب لكنه لم يصل إلىٰ إفريقية ولا كان من البرابر إسلام.

ولاية عبد الله بن سعد بن أبي سرح وفتحه إفريقية

لما كانت خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ عزل عمرو بن العاص عن مصر، وولىٰ عليها عبدالله بن سعد بن أبي سرح العامري ـ أخاه من الرضاعة ـ وأمره بغزو إفريقية سنة خمس وعشرين من الهجرة فجهز العساكر من المدينة ـ وفيهم جماعة من الصحابة منهم: ابن عباس وابن عمرو بن العاص وابن جعفر والحسن والحسين وابن الزبير ـ وقيل: لحقهم مدداً ـ وساروا مع عبدالله بن سعد سنة ست وعشرين، ولقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين ببرقة، ثم ساروا إلىٰ طرابلس فنهبوا الروم عندها، ثم تجاوزوها إلىٰ إفريقية وبثوا السرايا في كل ناحية وكان ملكهم

جرجير الفرنجي يملك ما بين طرابلس وطنجة تحت ولاية هرقل ويحمل إليه الخراج، فلما بلغه الخبر جمع مائة وعشرين ألفًا من العساكر ولقيهم على يوم وليلة من سبيطلة ـ دار ملكهم ـ وأقاموا يقتتلون، ودعوه إلى الإسلام أو الجزية فاستكبر. ولحقهم عبدالله بن الزبير مددًا بعثه عثمان رضي الله عنه لما أبطأت عليه أخبارهم، وسمع جرجير بوصول المدد ففت ذلك في عضده.

[١] وشهد ابن الزبير معهم القتال، وقد غاب ابن أبي سرح فسأل عنه فقيل له: إنه سمع منادي جرجير يقول: من قتل ابن أبي سرح فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتي فخاف وتأخر عن شهود القتال، فقال له ابن الزبير: تنادي أنت: بأن من قتل جرجير نفلته مائة ألف وزوجته ابنته واستعملته على بلاده، فخاف جرجير أشد منه، ثم أشار ابن الزبير على ابن أبي سرح أن يترك جماعة من أبطال المسلمين المشاهير متأهبين للحرب ويقاتل الروم بباقي العسكر إلى أن يضجروا فيركبهم بالآخرين على غرة، قال: لعل الله ينصرنا عليهم، ووافق على ذلك أعيان من الصحابة ففعلوا وركبوا من الغد إلى الزوال، وألحوا عليهم حتى أتعبوهم ثم افترقوا، وأركب عبدالله الفريق الذين كانوا مستريحين فكبروا وحملوا حملة رجل واحد حتى غشوا الروم في خيامهم فانهزموا وقتل كثير منهم، وقتل ابن الزبير جرجير وحيزت ابنته سبية فنفلها ابن أبي سرح ابن الزبير، ثم حاصر ابن أبي سرح سبيطلة ففتحها وخربها، وكان سهم الفارس فيها ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألفا، وبث جيوشه في البلاد إلى قفصة فسبوا وغنموا، ثم صالحه أهل إفريقية على ألفي ألف، وخمسمائة ألف دينار.

وأرسل ابن الزبير بخبر الفتح وبالخمس إلى المدينة فاشتراه مروان بن الحكم بخمسمائة ألف دينار.

وانحاز الفرنجة ومن معهم من الروم بعد الهزيمة والفتح إلى حصون إفريقية، وانساح المسلمون في البسائط بالغارات ووقع بينهم وبين أهل الضواحي من البربر زحوف وقتل وسبي حتى لقد أسروا يومئذ من ملوك البربر صولات بن وزمار الزناتي ثم المغراوي ـ جد بني خزر ملوك تلمسان ـ فرفعوه إلى عثمان رضي الله عنه فأسلم على يده فمن عليه وأطلقه وعقد له على قومه.

ثم رغب الفرنج والبربر في السلم وسألوا الصلح وشرطوا لابن أبي سرح ثلاثمائة قنطار من الذهب على أن يرحل عنهم بالعرب ويخرج من بلادهم ففعل، ورجع المسلمون إلى المشرق بعد مقامهم بإفريقية سنة وثلاثة أشهر، ولما بلغ هرقل ملك الروم أن أهل أفريقية صالحوا المسلمين بذلك المال الذي أعطوه غضب عليهم، وبعث بطريقًا يأخذ منهم مثل ذلك، فنزل قرطاجنة وأخبرهم بما جاء له فأبوا وقالوا: قد كان له أن يسعدنا فيما نزل بنا، فقاتلهم البطريق وهزمهم وطرد الملك الذي ولوه عليهم بعد جرجير، فلحق بالشام وقد اجتمع الناس على معاوية بن أبي سفيان ﷺ فاستجاشه على إفريقية فبعث معه معاوية بن حديج السكوني على ما نذكره.

ولاية معاوية بن حديج على المغرب

هو معاوية بن حَديج الكندي ثم السكوني، له صحبة وممن شهد مع عمرو بن العاص فتح مصر وقدم بخبر الفتح على عمر بن الخطاب ﷺ ولما قدم علج إفريقية على معاوية بن أبي سفيان ﷺ وشكا إليه ما ناله من صاحب قيصر بعث معه معاوية ابن حديج هذا في عسكر ضخم سنة خمس وأربعين، فلما وصل إلى الإسكندرية هلك العلج ومضى معاوية فقدم إفريقية في عشرة آلاف فنزل قمونية فسرح إليه البطريق ثلاثين ألف مقاتل كان قيصر قد وجهها من القسطنطينية في البحر لمدافعة العرب عن إفريقية فلم تغن شيئًا، وقاتلهم معاوية فهزمهم عند حصن الأجم ثم بث السرايا ودوخ البلاد، فبعث عبدالله بن الزبير إلى سوسة فافتتحها، ثم بعث عبدالملك بن مروان إلى جلولاء فافتتحها كذلك، وقال ابن خلدون: «ان معاوية حاصر حصن جلولاء فامتنع عليه حتى سقط ذات يوم سوره فامتلكه المسلمون وغنموا ما فيه».

ثم وجه جيشًا في البحر إلى صقلية في مائتي مركب فأثخنوا فيها، ثم فتح بنزرت وظهر الإسلام في البربر، ثم عاد إلى مصر بعد أن خلد آثارًا حسنة، وبنى بمحل القيروان آبارًا ثم عزله معاوية بن أبي سفيان عن إفريقية وأقره على مصر فقط، ثم عزله عنها.

ولاية عقبة بن نافع الفهري
على المغرب وبناؤه مدينة القيروان

هو: عقبة بن نافع بن عبد القيس القرشي الفهري صحابي بالمولد وهو آخر من ولي المغرب من الصحابة، وكان عمرو بن العاص وهو أمير على مصر قد استعمل عقبة هـٰذا وهو ابن خالته على إفريقية فانتهى إلى لواتة ومزاتة، فأطاعوا ثم كفروا فغزاهم وقتل وسبى، ثم افتتح سنة اثنتين وأربعين غدامس من تخوم السودان، وفي السنة بعدها افتتح ودان وكُوراً من كور السودان وأثخن في تلك النواحي، و كان له فيها جهاد وفتوح فظهر غَنَاؤه و عُرفت نجدته و كفايته، فلما كانت سنة خمسين ولاه معاوية ﷺ على إفريقية استقلالاً و بعث معه عشرة آلاف فارس فدخل عقبة إفريقية بعد رجوع معاوية بن حَدِيج عنها، و انضاف إليه مسلمة البربر فكثر جمعه.

ثم رأى عقبة - رحمه الله - أن يتخذ مدينة يعتصم بها جيش المسلمين من البربر و تقام بها الجمع والأعياد فاستشار من معه فقالوا: نحن أصحاب إبل و لا حاجة لنا بمجاورة البحر فتسطوا علينا الفرنج فانظر لنا بنظر الله.

[٢] قال صاحب الجمان: «وكانت بقعة القيروان غيضة لا يأوى إليها إلا الوحوش والسباع فصاح بها عقبة: أن اخرجي أيتها الوحوش و الهوام بإذن الله - عز و جل - فبقيت أرض القيروان أربعين سنة لا يرى فيها شيء من الهوام المؤذية و لا السباع العادية، ثم شرع في بنائها و قال هـٰذه أوسع لإبلكم وآمن عليكم من روم القسطنطينية و إفرنج الجزيرة».

و عن الليث بن سعد أن عقبة - رحمه الله - غزا إفريقية فأتى وادي القيروان فبات عليه هو وأصحابه حتى إذا أصبح وقف على رأس الوادي فقال: «يا أهل الوادي اظعنوا فإنا نازلون»، قال ذلك ثلاثًا، فجعلت الحيات تنساب والعقارب وغيرها مما لا يُعرف من الدواب تخرج ذاهبة - وهم قيام ينظرون إليها - من حين أصبحوا حتى أوهجتهم الشمس، وحتى لم يروا منها شيئًا فنزلوا الوادي عند ذلك، قال الليث: فحدثني زياد بن عجلان أن أهل إفريقية أقاموا بعد ذلك أربعين سنة و لو التمست

حية أو عقرب بألف دينار ما وجدت.

وقال ابن خلدون: اختط عقبة ﷺ القيروان، وبنى بها المسجد الجامع، وبنى الناس مساكنهم ومساجدهم.

ودخل أكثر البربر في الإسلام، واتسعت خطة المسلمين ورسخ الدين.

وقال صاحب الخلاصة النقية: اختط عقبة بن نافع القيروان سنة خمسين و جعل دور سورها اثني عشر ميلاً، وبنى بها الجامع الأعظم و قاتل البربر و شردهم، ثم عزله معاوية عنها، والله أعلم.

ولاية أبي المهاجر دينار وفتحه المغرب الأوسط (١)

كان معاوية ﷺ قد ولى على مصر و إفريقية مسلمة بن مخلد (بوزن محمد) الانصاري، فاستعمل مسلمة على إفريقية مولاه أبا المهاجر المذكور- و يقال مولى بني مخزوم- فقدمها سنة خمس وخمسين.

وكان كسيلة بن أغز البرنسي ثم الأوربي من أهل المغرب الأقصى من عظماء البربر، وكان نصرانيًا قد جمع الجموع من البربر والفرنج وزحف إلى المسلمين، فزحف إليهم أبو المهاجر فهزمهم حول تلمسان وتمكن من البلاد وظفر بكسيلة فأظهر الإسلام فاستبقاه أبو المهاجر واستخلصه.

فهو أول أمير للمسلمين وطئت خيله المغرب الأوسط.

ولاية عقبة بن نافع الثانية
وفتحه المغرب الأقصى ومقتله

لما توفي معاوية بن أبي سفيان ﷺ وولي بعده ابنه يزيد، بعث عقبة بن نافع واليًا على المغرب، فاستخلف زهير بن قيس البلوي على القيروان وخرج في جيش كثيف ففتح حصن لميس ومدينة باغانة المطل عليها جبل أوراس، وفتح بلاد الجريد فتحًا ثانيًا، وصالح أهل فزان، وسار إلى الزاب وتاهرت فشتت جموع البربر ومن انضم اليهم من الفرنج؛ ثم تقدم إلى المغرب الأقصى فأثخن في أهله إلى إن وصل إلى

(١) قلت: هو الجزائر.

البحر المحيط فكان عقبة ـ رحمه الله ـ أول أمير للمسلمين وطئت خيله المغرب الأقصى.

وقال صاحب الجمان:

افتتح عقبة المغرب، و نزل على طنجة، فحاصرها واستنزل ملكها يليان الغماري ـ وكان نصرانيًا ـ فنزل على حكمه بعد أن أعطاه أموالا جليلة، ثم أراد عقبة اللحاق بالجزيرة الخضراء من عدوة الأندلس، فقال له يليان: أتترك كفار البربر خلفك وترمي بنفسك في بحبوحة الهلاك مع الفرنج ويقطع البحر بينك و بين المدد؟

فقال عقبة: وأين كفار البربر؟

قال: ببلاد السوس وهم أهل نجدة وبأس.

قال عقبة: وما دينهم؟

قال: ليس لهم دين ولا يعرفون أن الله حق، و إنما هم كالبهائم ـ و كانوا على دين المجوسية يومئذ ـ فتوجه عقبة نحوهم فنزل على مدينة و ليلى بإزاء جبل زرهون وهي يومئذ من أكبر مدن الغرب فيما بين النهرين العظيمين سبو وورغة ـ وهذه المدينة هي المسماة اليوم في لسان العامة بقصر فرعون ـ فافتتحها عقبة وغنم وسبى؛ ثم توجه إلى بلاد درعة والسوس فلقيته جموع البربر فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم انهزمت البربر بعد حروب صعبة، وقتلهم المسلمون قتلاً ذريعًا وتبعوا آثارهم إلى صحراء لمتونة لا يلقاهم أحد إلّا هزموه.

[٣] ثم عطف عقبة على ساحل البحر المحيط الغربي، فانتهى إلى بلاد آسفى؛ و أدخل قوائم فرسه في البحر، ووقف ساعة، ثم قال لأصحابه: ارفعوا أيديكم، ففعلوا، وقال: «اللّهم إني لم أخرج بَطَرًا ولا أَشَرًا وإنك لتعلم أنما نطلب السبب الذي طلبه عبدك ذو القرنين، وهو أن تُعبد و لا يُشرك بك شيء، اللّهم إنا معاندون لدين الكفر، ومدافعون عن دين الإسلام، فكن لنا ولا تكن علينا يا ذا الجلال والإكرام»، ثم انصرف راجعًا.

[٤] قال ابن خلدون أيضًا:

كان كسيلة الأوربي في جيش عقبة قد استصحبه في غزواته هذه، وكان

يستهين به، ويمتهنه، فأمره يومًا بسلخ شاة بين يديه فدفعها كسيلة إلىٰ غلمانه، فأراده عقبة علىٰ أن يتولاها بنفسه وانتهره، فقام إليها كسيلة مغضبًا وجعل كلما دس يده في الشاة مسح بلحيته، والعرب يقولون: ما هٰذا يا بربري؟ فيقول: هو أجير! فيقول لهم شيخ منهم: إن البربري يتوعدكم، وبلغ ذاك أبا المهاجر - وهو معتقل عند عقبة - فبعث إليه ينهاه، ويقول: «كان رسول الله ﷺ، يستألف جبابرة العرب، وأنت تعمد إلىٰ رجل جبار في قومه وبدار عزه حديث عهد بالشرك فتستفسده، وأشار عليه بأن يتوثق منه، وخوفه غائلته، فتهاون عقبة بقوله، فلما قفل من غزاته هٰذه وانتهىٰ إلىٰ طبنة من أرض الزاب - وكسيلة أثناء هٰذا كله في صحبته - صرف العساكر إلىٰ القيروان أفواجًا، ثقة بما دوخ من البلاد وأذل من البربر حتىٰ بقي في قليل من الجند، فلما وصل إلىٰ تهودة، وأراد أن ينزل بها الحامية نظر إليه الفرنجة وطمعوا فيه فراسلوا كسيلة، ودلوه علىٰ الفرصة فيه فانتهزوها وراسل بني عمه ومن تبعهم من البربر فاتبعوا أثر عقبة وأصحابه حتىٰ إذا غشوهم بتهودة ترجل القوم وكسروا أجفان سيوفهم، ونزل الصبر، واستلحم عقبة وأصحابه فلم يفلت منهم أحد، وكانوا زهاء ثلاثمائة من كبار الصحابة والتابعين استشهدوا في مصرع واحد، وفيهم أبو المهاجر كان عقبة قد استصحبه في اعتقاله - كما قلنا - فأبلىٰ ﷺ في ذلك اليوم البلاء الحسن.

ذكر اختلاف العلماء في أرض المغرب هل فتحت عنوة؟ أو صلحًا؟ أو غير ذلك؟

قال الشيخ أبو الحسن القابسي - رحمه الله - في شرح الموطأ في كتاب الجهاد منه: اختلف الناس في أرض المغرب هل فتحت عنوة أو صلحًا أو مختلطة: أي البعض عنوة والبعض صلحًا على ثلاثة أقوال:

الأول: وهو الذي يظهر من رواية ابن القاسم عن مالك أنها فتحت بالسيف عنوة؛ لأنه جعل النظر في معادنها للإمام، ولو صح ذلك لم يجز لأحد بيع شيء منها كأرض مصر لأنها فتحت بالسيف.

الثاني: أنها فتحت صلحًا صالح أهلها عليها، فإن كان كذلك جاز بيع بعضهم

من بعض.

الثالث: أنها مختلطة هرب بعضهم عن بعض وتركوها، فمن بقي بيده شيء كان له، وهو الصحيح، والله أعلم.

ثم زحف كسيلة بعد الوقعة إلى القيروان فاستولى عليها في المحرم سنة ٦٤، واستمر أميرًا على البربر ومن بقي بها من العرب خمس سنين.

ولاية زهير بن قيس البلوي على المغرب ومقتل كسيلة، وما يتبع ذلك

لما استقلَّ عبد الملك بن مروان بالخلافة كان زهير مقيمًا ببرقة منذ مهلك عقبة بن نافع كما مر، فبعث إليه عبد الملك بالمدد وولاه حرب البربر وأمره باستنقاذ القيروان ومن بها من المسلمين من يد كسيلة المتغلب عليها، وحضه على الطلب بدم عقبة، فراجعه زهير يعلمه بكثرة الفرنج والبربر فأمده بالمال ووجوه العرب وفرسانها، فزحف زهير إلى المغرب سنة تسع وستين في آلاف من المقاتلة، وجمع له كسيلة البرانس وسائر البربر ولقيه بِمَمْس من نواحي القيروان، واشتد القتال بين الفريقين ثم انهزمت البربر بعد حروب صعبة، وقتل كسيلة ووجوه من معه من البربر ومن لا يُحصى من عامتهم، واتبعهم العرب إلى مرماجنة، ثم إلى وادي ملوية.

وفي هذه الوقعة ذل البربر وفنيت فرسانهم ورجالهم، وخضدت شوكتهم، واضمحل أمر الفرنجة فلم يعد، وخاف البربر من زهير والعرب خوفًا شديدًا فلجؤوا إلى القلاع والحصون، وكسرت شوكة أوربة من بينهم، واستقر جمهورهم بديار المغرب الأقصى، وملكوا مدينة وليلى وكانت فيما بين موضع فاس ومكناسة بجانب جبل زرهون، ولم يكن لهم بعد هذه الوقعة ذكر إلى أن قدم عليهم إدريس بن عبدالله رضي الله عنه فقاموا بدعوته على ما نذكره إن شاء الله.

[٥] وأما زهير فإنه لما رأى ما منحه الله من الظفر والنصر، وساق إليه من العز والملك خشي على نفسه الفتنة - وكان من العباد المخبتين - فترك القيروان آمن ما كانت وارتحل إلى المشرق، وقال: إنما جئت للجهاد في سبيل الله، وأخاف على نفسي أن تميل إلى الدنيا! فلما وصل إلى برقة وجد أسطول الروم على قتالها في جموع عظيمة

من قبل قيصر وبأيديهم أسرىٰ من المسلمين، فاستغاثوا به وهو في خف من أصحابه، فصمد إليهم فيمن معه، وقاتل الروم حتىٰ قتل وقتل معه جماعة من أشراف أصحابه ونجا الباقون إلىٰ دمشق فأخبروا الخليفة عبد الملك بما وقع فأسفه ذلك.

ولاية حسان بن النعمان على المغرب وتخريبه قرطاجنة

لما رحل زهير بن قيس إلىٰ المشرق واستشهد ببرقة كما قدمنا اضطربت بلاد المغرب بعده، واضطربت نار الفتن، وافترق أمر البربر وتعدد سلطانهم في رؤسائهم، وكان من أعظمهم شوكة يومئذ الكاهنة داهيا الزناتية ثم الجراوية صاحبة جبل أوراس وكبيرة قومها جراوة والبُتر، فبعث عبد الملك بن مروان إلىٰ عامله علىٰ مصر حسان بن النعمان الغساني -وكان يقال له الشيخ الأمين- يأمره أن يخرج إلىٰ جهاد البربر، وبعث إليه بالمدد، فزحف إليهم سنة تسع وستين في أربعين ألف مقاتل، ولما دخل القيروان سأل الأفارقة عن أعظم ملوكهم، فقالوا: صاحب قرطاجنة وهي المدينة العظمىٰ قريعة رومة وضرتها وإحدىٰ عجائب الدنيا، وكان بها يومئذ من جموع الفرنج أمم لا تحصىٰ، فصمد إليها حسان وافتتحها وقتل أكثر من بها ونجا فُلّهم[1] في المراكب إلىٰ صقلية والأندلس، ولما انصرف حسان عنها دخلها أقوام من أهل الضواحي والبادية وتحصنوا بها فرجع إليهم وقاتلهم أشد قتال، فافتتحها عنوة وأمر بتخريبها وإعفاء رسمها وكسر قنواتها فذهبت كأمس الدابر، ولم يبق بها الآن إلّا آثار خفيفة تدل علىٰ ما كان بها من عجيب الصنعة وإحكام العمل، وبأنقاضها عمرت مدينة تونس.

ثم بلغ حسان أن البربر والفرنج قد عسكروا في جموع عظيمة ببلاد صطفورة وبنزرت، فصمد إليهم وهزمهم وشرد بهم من خلفهم وانحاز فُلّهم إلىٰ باجة وبونة، ورجع حسان إلىٰ القيروان فأراح بها أيامًا، ثم سأل عن بقية الملوك المخالفة، فدلوه علىٰ الكاهنة داهيا وقومها جرواة وهم ولد جراو بن الديديت بن زانا، وزانا هو أبو زناتة، وكان لهٰذه الكاهنة بنون ثلاثة ورثوا رياسة قومهم عن سلفهم وربوا في

---

(١) قلت: أي بقاياهم.

حجرها فاستبدت عليهم واعتزت على قومها بهم وبما كان لها من الكهانة والمعرفة بغيب أحوالهم وعواقب أمورهم فانتهت إليها رياستهم ووقفوا عند إشارتها، قال هانئ بن بكور الضريسي: ملكت عليهم خمسًا وثلاثين سنة وعاشت مائة وسبعًا وعشرين سنة، وكان قتل عقبة بن نافع وأصحابه في البسيط قبلة جبل أوراس بإغرائها برابرة الزاب عليه، وكان المسلمون يعرفون ذلك منها، فلما قتل كسيلة وانفضت جموع البربر رجعوا إلى هذه الكاهنة بمعتصمها من جبل أوراس، وقد انضم إليها بنو يفرن ومن كان بإفريقية من قبائل زناتة وسائر البتر، فسار إليها حسان حتى نزل وادي مليانة وزحفت هي إليه، فاقتتلوا بالبسيط أمام جبلها قتالاً شديدًا، ثم انهزم المسلمون وقتل منهم خلق كثير وأسر خالد بن يزيد القيسي في ثمانين رجلاً من وجوه العرب، ولم تزل الكاهنة و البربر في اتباع حسان العرب حتى أخرجوهم من عمل قابس، ولحق حسان بعمل طرابلس فلقيه هناك كتاب عبد الملك يأمره بالمقام حيث يصله كتابه، فأقام ببرقة وبنى قصوره المعروفة لهذا العهد بقصور حسان.

ثم رجعت الكاهنة إلى مكانها من الجبل وأطلقت أسرى المسلمين سوى خالد فإنها اتخذت عنده عهدًا بإرضاعه مع ولديها و صيرته أخًا لهما، وأقامت في سلطان إفريقية والبربر خمس سنين بعد هزيمة حسان، ونفت العرب عن بلاد المغرب، وقالت لقومها: «إنما تطلب العرب من المغرب مدنه وما فيها من الذهب والفضة، ونحن إنما نريد المزارع والمراعي فالرأي أن نخرب هذه المدن والحصون ونقطع أطماع العرب عنها».

قال ابن خلدون: وكانت المدن والضياع من طرابلس إلى طنجة ظلاً واحدًا! في قرى متصلة فخربت الكاهنة ديار المغرب، وعضدت أشجاره ومحت جماله، وجاست بالفساد خلاله، فشق ذلك على البربر واستأمنوا إلى حسان، وكان عبدالملك قد بعث إليه بالمدد فأمنهم و وجد السبيل إلى تفريق أمرها، ثم دس إلى خالد بن يزيد يستعلمه أمرها فأطلعه على كنه خبرها واستحثه فزحف إلى المغرب سنة أربع وسبعين وبرزت إليه فأوقع بها وبجموعها وقتلها واحتز رأسها عند البئر المعروفة بها لهذا العهد من جبل أوراس، ثم اقتحم الجبل عنوة واستلحم فيه زهاء مائة ألف من البربر واستأمن إليه باقيهم على الإسلام والطاعة وشرط عليهم حسان

أن يكون معه منهم اثنا عشر ألفًا لا يفارقونه في مواطن جهاده، فأجابوا وأسلموا وحسن إسلامهم، وعقد للأكبر من ولدي الكاهنة على قومه من جراوة وعلى جبل أوراس.

وانصرف حسان إلى القيروان مؤيدًا منصورًا وثبت ملكه واستقام أمره فدون الدواوين وكتب الخراج على عجم إفريقية ومن أقام معهم على النصرانية من البربر، ثم أوعز إليه الخليفة عبد الملك باتخاذ دار الصناعة بتونس لإنشاء الآلات البحرية حرصا على مراسم الجهاد ومنها كان فتح صقلية أيام زيادة الله الأول من بني الأغلب على يد أسد بن الفرات شيخ الفتيا وصاحب الإمام ابن القاسم بعد أن كان معاوية بن حديج أغزى صقلية أيام ولايته على المغرب فلم يفتح الله عليه وفتحت على يد ابن الأغلب وقائده ابن الفرات كما قلنا.

[٦] واستمر حسان واليًا على المغرب إلى أن عزله عبد العزيز بن مروان صاحب مصر، وكان أمر المغرب إذ ذاك إليه فاستخلف حسان على المغرب رجلا من جنده اسمه صالح وارتحل إلى المشرق بما جمعه من ذريع المال ورائع السبي ونفيس الذخيرة؛ فلما انتهى إلى مصر أهدى إلى عبد الله [1] مائتي جارية من بنات ملوك الفرنج والبربر فلم يقنعه ذلك وانتزع كثيرًا مما بيده؛ ولما قدم على الخليفة بدمشق وهو يومئذ الوليد بن عبد الملك شكا إليه ما صنع به عمه عبد العزيز فغاظه ذلك وأنكره، ثم أهدى إليه حسان من غريب النفائس التي أخفاها عن عبد الله ما استعظمه الوليد وشكره عليه ووعده برده إلى عمله فحلف حسان أن لا يلي لبني أمية عملا أبدًا.

ولاية موسى بن نصير على المغرب وفتحه الأندلس

لما ارتحل حسان بن النعمان إلى المشرق اختلفت أيدي البربر فيما بينهم على إفريقية والمغرب، فكثرت الفتن وخلت أكثر البلاد حتى قدم موسى بن نصير فتلافى أمرها ولم شعثها.

قال الحافظ أبو عبدالله الحميدي في جذوة المقبس: ولي موسى بن نصير إفريقية والمغرب سنة سبع وسبعين. وقال غيره: سنة سبع وثمانين.

---

(١) قلت: هو عبد الله بن عبد الملك بن مروان، ولي مصر بعد عمه عبدالعزيز بن مروان.

[٧] وقال ابن خلكان: كان موسى بن نصير من التابعين. وروى عن تميم الداري ﷺ وكان عاقلاً كريمًا شجاعًا ورعًا متقيًا لله ـ تعالى ـ لم يهزم له جيش قط، ولما قدم المغرب وجد أكثر مدنه خالية لاختلاف أيدي البربر عليها وكانت البلاد في قحط شديد فأمر الناس بالصوم والصلاة وإصلاح ذات البين، وخرج بهم إلى الصحراء ومعه سائر الحيوانات ففرق بينها وبين أولادها فوقع البكاء والصراخ، وأقام على ذلك إلى منتصف النهار، ثم صلى وخطب الناس ولم يذكر الوليد بن عبدالملك، فقيل له: ألا تدعو لأمير المؤمنين؟ فقال: هذا مقام لا يدعى فيه غير الله ـ عز وجل ـ فسقوا حتى رووا.

ثم خرج موسى غازيًا وتتبع البربر وقتل فيهم قتلاً ذريعًا وسبى سبيًا عظيمًا، وتوغل في جهات المغرب حتى انتهى إلى السوس الأدنى، ثم تقدم إلى سبتة فصانعه صاحبها يليان الغماري بالهدايا وأذعن للجزية ـ وكان نصرانيًا ـ فلما رأى بقية البربر ما نزل بهم استأمنوا لموسى وبذلوا له الطاعة، وأخذ رهائن المصامدة فأنزلهم طنجة وولى عليهم طارق بن زياد الليثي.

ولما استقرت القواعد لموسى بالمغرب كتب إلى طارق ـ وهو بطنجة ـ يأمره بغزو الأندلس، فغزاها في اثني عشر ألفًا من البربر وخلق يسير من العرب، وعبر البحر من سبتة إلى الجزيرة الخضراء، وصعد الجبل المنسوب إليه ـ المعروف اليوم بجبل طارق ـ سنة ٩٢ هـ.

[٨] وبلغ الخبر لذريق فنهض إليهم يجر أمم الأعاجم وأهل ملة النصرانية في زهاء أربعين ألفًا، فالتقوا بفحص شريش فهزمه الله ونفلهم أموال أهل الكفر ورقابهم، وكتب طارق إلى موسى بالفتح والغنائم فحركته الغيرة وكتب إلى طارق يتوعده إن توغل بغير إذنه، ويأمره أن لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به، واستخلف على القيروان ولده عبد الله وخرج معه حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري، ونهض من القيروان سنة ثلاث وتسعين في عسكر ضخم من وجوه العرب والموالي وعرفاء البربر فوافى خليج الزقاق ما بين طنجة والجزيرة الخضراء فأجاز إلى الأندلس، وتلقاه طارق فانقاد واتبع.

[٩] ويقال: إن موسى لما سار إلى الأندلس عبر البحر إليها من ناحية الجبل

المنسوب إليه ـ المعروف اليوم بجبل موسىٰ ـ وتنكب النزول علىٰ جبل طارق وتمم الفتح وتوغل في الأندلس إلىٰ برشلونة في جهة الشرق وأربونة في الجوف وضم قادس في الغرب، ودوخ أقطارها وجمع غنائمها وأجمع أن يأتي المشرق من ناحية القسطنطينية ويتجاوز إلىٰ الشام دروب الأندلس ودروبه ويخوض إليه ما بينهما من بلاد الأعاجم وأمم النصرانية، مجاهداً فيهم ومستلحماً لهم إلىٰ أن يلحق بدار الخلافة من دمشق. ونمىٰ الخبر إلىٰ الخليفة الوليد فاشتد قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب، ورأىٰ أن ما هم به موسىٰ تغرير بالمسلمين، فبعث إليه بالتوبيخ والانصراف، وأسرّ إلىٰ سفيره أن يرجع بالمسلمين إن لم يرجع هو، وكتب له بذلك عهده، ففت ذلك في عزم موسىٰ وقفل عن الأندلس بعد أن أنزل الرابطة والحامية بثغورها واستعمل ابنه عبد العزيز لسدها وجهاد عدوها وأنزله بقرطبة فاتخذها دار إمارة، واحتل موسىٰ بالقيروان سنة خمس وتسعين، وارتحل إلىٰ المشرق سنة ست بعدها بما كان معه من الغنائم والذخائر والأموال علىٰ العجل والظهر، يقال إن من جملتها ثلاثين ألف رأس من السبي، وولىٰ علىٰ إفريقية ابنه عبد الله واندرجت ولاية الأندلس يومئذ في ولاية المغرب، فكان صاحب القيروان ناظراً في الجميع.

قال الشيخ أبو محمد بن أبي زيد القيرواني:

ارتدت البربر اثنتي عشرة مرة من طرابلس إلىٰ طنجة، ولم يستقر إسلامهم حتىٰ عبر موسىٰ بن نصير البحر إلىٰ الأندلس، وأجاز معه كثيراً من رجالات البربر برسم الجهاد، فاستقروا هنالك، فحينئذ استقر الإسلام بالمغرب وأذعن البربر لحكمه، وتناسوا الردة، ثم نبضت فيهم عروق

الخارجية بعد علىٰ ما نذكره.

ولاية إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر على المغرب

[١٠] لما توفي سليمان بن عبد الملك رحمه الله وولي الخلافة بعده عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه استعمل علىٰ المغرب إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر مولىٰ بني مخزوم، فقدم القيروان سنة مائة وكان خير أمير وخير وال، ولم يزل حريصاً علىٰ دعاء البربر إلىٰ الإسلام حتىٰ تم إسلامهم علىٰ يده وبث فيهم من فقههم في دينهم.

وذكر أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم في تاريخ إفريقية: أن عمر بن عبدالعزيز ﵁ أرسل عشرة من التابعين يفقهون أهل المغرب في الدين.

ولاية عبيد الله بن الحباب على المغرب

عبيد الله هذا هو مولى بني سلول، وكان رئيسًا نبيلاً وأميرًا جليلاً وخطيبًا مِصْقعًا، ولاه هشام بن عبد الملك على المغرب بعد عزل عبيدة بن عبد الرحمن عنه، وأمره أن يمضي إليه من مصر، فاستخلف عبيد الله على مصر ابنه أبا القاسم وسار إلى المغرب، فقدم القيروان في ربيع الآخر سنة أربع عشرة ومائة، واستعمل عمر بن عبيد الله المرادي على طنجة والمغرب الأقصى، واستعمل ابنه إسماعيل بن عبيد الله معه على السوس وما وراءه، واستعمل على الأندلس عبدالرحمن بن عبدالله الغافقي فكانت له في الفرنجة وقائع، وأصيب جيشه في رمضان من السنة المذكورة في موضع يعرف ببلاط لشهداء وبه عرفت الغزوة.

[١١]وكان عمر بن عبيد الله في هذه المدة بطنجة قد أساء السيرة في برابرة المغرب الأقصى وأراد أن يخمس من أسلم منهم وزعم أنه الفيء، فنفرت قلوب البربر عنه وأحسوا بأنهم طعمة للعرب، وثقلت عليهم وطأة عمال ابن الحبحاب جملة بما كانوا يطالبونهم به، فكثر عيثهم بذلك في أموال البربر فأجمعوا الانتقاض، وبلغهم مسير العساكر مع حبيب بن أبي عبيدة إلى صقلية فجرأهم ذلك على مرادهم.

وكانت بدعة الخارجية يومئذ قد سرت في البربر وتلقنها رؤوسهم عن عرب العراق الساقطين إلى المغرب نزعوا بها إلى الأطراف داعين أغمار الأمم إليها عسى أن تكون لهم دولة، فاستحكمت صبغتها في طغام البربر ووشجت فيهم عروقها فكان ذلك من أقوى البواعث والأسباب في خرق حجاب الهيبة على الخلفاء وانتقاض البربر على العرب ومزاحمتهم لهم في سلطانهم.

[١٢]وكانت خوارج المغرب إباضية وصفرية، فلما كانت ولاية عبيد الله بن الحبحاب ونال عماله من البربر ما نالوا من الجور والعسف انتقضوا عليه وثار ميسرة المضغري -المعروف بالخفير- بأحواز طنجة، وكانوا على رأي الصفرية، وكان

شيخهم ميسرة المذكور مقدمًا في ذلك المذهب، فحمل البربر على الخروج عن الطاعة، وزحف إلى عمر بن عبيد الله بطنجة فقتله سنة اثنتين وعشرين ومائة، وولى عليها من قبله عبد الأعلى بن جريج الإفريقي - رومي الأصل ومولى للعرب - كان إمام الصفرية في انتحال مذهبهم، فقام بأمرهم مدة ثم تقدم إلى السوس فقتله عاملها إسماعيل بن عبيد الله، وكان ميسرة لما استولى على طنجة والمغرب الأقصى قد بايعه البربر بالخلافة وخاطبوه بأمير المؤمنين؛ إذ الخوارج لا يشترطون في الإمام الأعظم القريشية محتجين بقوله: «اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة» - وهو مؤول - واضطرم المغرب ناراً وفشت نحلة الخارجية في جميع قبائله، وانتقض أمره على خلفاء المشرق فلم يراجع طاعتهم بعد.

ثم إن ابن الحبحاب بعث إلى ميسرة خالد بن حبيب الفهري فيمن كان قد بقي عنده من الجيش، واستقدم أباه حبيب بن أبي عبيدة من صقلية فقدم فيمن معه من عساكر المسلمين وبعثه في أثر خالد ونهض إليهم ميسرة في جموع البربر، فلقيهم بأحواز طنجة فاقتتلوا قتالاً شديداً ثم تحاجزوا.

[١٣]ورجع ميسرة إلى طنجة فساءت سيرته في البربر ونقموا عليه ما جاء به فقتلوه، وولوا عليهم مكانه خالد بن حميد الزناتي، فقام بأمرهم واجتمع إليه البربر، فزحف إلى العرب وسرح إليه ابن الحبحاب عساكر الخليفة هشام بن عبدالملك وعلى مقدمتها خالد بن حبيب الفهري، فكان اللقاء على وادي شلف فانهزم المسلمون وقتل خالد بن حبيب ووجوه من معه من العرب، فسميت الوقعة: وقعة الأشراف؛ وانتقض المغرب على ابن الحبحاب من سائر جهاته وبلغ الخبر إلى أهل الأندلس فعزلوا عامله عقبة بن الحجاج السلولي، وولوا عليهم عبد الملك بن قطن الفهري ومرج أمر الناس وانتهى الخبر بذلك كله إلى الخليفة هشام بدمشق فعزل ابن الحبحاب عن المغرب.

وقال صاحب الخلاصة: لما اختلت الأمور على ابن الحبحاب اجتمع الناس وعزلوه فبلغ ذلك هشاما فغضب وكتب إلى ابن الحبحاب بالقدوم فخرج في جمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين ومائة، والله أعلم.

ولاية كلثوم بن عياض على المغرب ومقتله

لما انتهى إلى الخليفة هشام ما كان من أمر خوارج البربر بالمغرب والأندلس وخلعهم للطاعة، شق ذلك عليه، واستضعف ابن الحبحاب فكتب إليه يستقدمه، وولى على المغرب: كلثوم بن عياض القشيري، ووجه معه جيشًا كثيفًا لقتالهم كان فيه - مع ما انضاف إليه من جموع البلاد التي مر بها - سبعون ألفًا على ما قيل.

[١٤] ولما انتهى كلثوم إلى القيروان أساء السيرة في أهلها، فكتبوا إلى حبيب بن أبي عبيدة وهو يومئذ بتلمسان مواقفٌ للبربر يشكون منه إليه، وكان لآل عقبة بالمغرب وجاهة لم تكن لغيرهم، فكتب إليه حبيب ينهاه ويتوعده فاعتذر كلثوم وأغضى له عليها، ثم استخلف على القيروان عبد الرحمن بن عقبة وسار يؤم المغرب في جموعه، وانتهى إلى تلمسان فلقي حبيب بن أبي عبيدة فاقتتلا ثم اصطلحا، وزحفا جميعًا إلى المغرب الأقصى فنهضت إليهم البربر وكان اللقاء على وادي سبو من أعمال طنجة.

وقال ابن خلدون في أخبار البربر: «إن الخليفة هشام ولى كلثوم بن عياض على المغرب سنة ثلاث وعشرين ومائة وسرحه في اثني عشر ألفًا من أهل الشام، وكتب إلى ثغور مصر وبرقة وطرابلس أن يمدوه فزحف إلى إفريقية ثم إلى المغرب حتى بلغ وادي سبو فبرز إليه خالد بن حميد الزناتي فيمن معه من البربر - وكانوا خلقًا لا يحصون - فلقوا كلثوم بن عياض بعد أن هزموا مقدمته فاشتد القتال بينهم وقتل كلثوم وحبيب بن أبي عبيدة وكثير من الجند وافترقت العساكر فمضى أهل الشام إلى الأندلس مع بلج بن بشر ومضى أهل مصر وإفريقية إلى القيروان».

ولاية حنظلة بن صفوان على المغرب

[١٥] لما سمع الخليفة هشام بما جرى على كلثوم وأصحابه قامت قيامته، فوجه حنظلة بن صفوان الكلبي - وهو أخو بشر بن صفوان المتقدم - واليًا على المغرب، فقدم القيروان سنة أربع وعشرين ومائة فوجد هوارة - وهم ولد هوار بن أوريغ بن برنس - خوارج على الدولة ورئيساهم عكاشة بن أيوب الفزاري وعبد الواحد بن زيد الهواري وكانا على مذهب الصفرية.

فلما استقر حنظلة بالقيروان، لم يلبث إلّا يسيراً حتى زحف إليه عكاشة وعبدالواحد في هوارة ومن تبعهم من البربر، فخرج إليهم حنظلة، والتقوا على القرن من ظاهر القيروان، فهزمهم بعد قتال صعب واستلحمهم، وقتل عبد الواحد وأخذ عكاشة أسيراً، ولما جيء إليه بعكاشة وبرأس عبد الواحد، سجد شكراً لله تعالى على ما منحه من الفتح، وأمر بعكاشة فقتل، وأحصيت القتلى في ذلك اليوم فكانوا مائة وثمانين ألفًا، وكتب حنظلة بذلك إلى الخليفة هشام، وسمعها الليث بن سعد فقال: «ما غزوة كنت أحب أن أشهدها بعد غزوة بدر أحب إليَّ من غزوة القرن والأصنام».

ولم يزل حنظلة على المغرب في أحسن حال إلى أن طرق الخلل الخلافة بالمشرق وخفت صوتها لما حدث في بني أمية من فتنة الوليد الفاسق، وما كان من أمر الشيعة والخوارج مع مروان الحمار آخر خلفائهم، وأفضى الأمر إلى الإدالة منهم ببني العباس، فأجاز عبد الرحمن بن حبيب الفهري من الأندلس إلى المغرب، وغلب حنظلة عليه سنة ست وعشرين ومائة.

[١٦] ذكر صالح بن طريف البرغواطي المتنبي

وفي هذا التاريخ، كان ظهور صالح بن طريف البرغواطي الذي ادعى النبوة بتامسنا من بلاد المغرب الأقصى على ساحل البحر المحيط فيما بين سلا وآسفي، وبرغواطة: بطن من المصامدة على ما حققه ابن خلدون.

وكان أبوه طريف يكنى أبا صبيح وكان من قواد ميسرة الخفير القائم بدعوة الصفرية [١]، ولما انقرض أمر ميسرة بقي طريف قائماً بأمر برغواطة بتامسنا ويقال إنه تنبأ أيضاً وشرع لهم الشرائع ثم هلك وولى مكانه ابنه صالح هذا، وقد كان شهد مع أبيه حروب ميسرة.

قال ابن خلدون:

«وكان من أهل العلم والخير ثم انسلخ من آيات الله وانتحل دعوى النبوة وشرع لهم الديانة التي كانوا عليها من بعده وهي معروفة في كتب المؤرخين».

---

(١) قلت: أي الخوارج.

ولاية محمد بن الأشعث على المغرب

وفد جماعة من رجالات العرب على الخليفة المنصور واستصرخوه على الخوارج، وشكوا إليه تسلقهم على كرسي الإمارة بالقيروان، فوجه المنصور محمد ابن الأشعث الخزاعي واليًا على مصر وأمره باستنفاذ إفريقية من البربر، فوجه محمد ابن الأشعث أبا الأحوص عمرو بن الأحوص العجلي سنة اثنتين وأربعين ومائة، فخرج إليه أبو الخطاب المعافري وهزمه بِسرْت[1] قريبًا من طرابلس واستولى على عسكره.

ورجع أبو الأحوص مفلولاً إلى مصر، فكتب المنصور إلى ابن الأشعث يأمره بالمسير إلى المغرب بنفسه، فسار إليه في أربعين ألفًا ـ ومعه الأغلب بن سالم التميمي ـ فلقيهم أبو الخطاب بسرت أيضًا فأوقع به ابن الأشعث وقتله واستلحم جموعه.

[١٧] وطار الخبر بذلك إلى عبد الرحمن بن رستم بمكانه من القيروان فاحتمل أهله وولده ولحق بإباضية المغرب الأوسط[2]، فالتفوا عليه وبايعوا له بالخلافة، وتفاوضوا في بناء مدينة تكون كرسيًا لإمارتهم ـ شأن الصفرية من بني مدرار ـ فشرعوا في بناء مدينة تاهرت سنة أربع وأربعين ومائة، فعمرت واتسعت خطتها وتوارثها بنو رستم واقتطعوها عن نظر ولاة المغرب.

وكان يسلم عليهم بالخلافة ـ على ما هو المعروف من ذهب الخوارج ـ إلى أن انقرضت دولتهم على يد العبيديين أواخر المائة الثالثة.

وأما ابن الأشعث فإنه استقر بالقيروان غرة جمادى الأولى سنة أربع وأربعين ومائة، وشرع في بناء سورها في ذي القعدة من السنة وتم في رجب سنة ست وأربعين ومائة، وضبط المغرب أحسن ضبط، وخافه البربر.

ثم ثار عليه عيسى بن موسى بن عجلان الخراساني أحد الجند في جماعة من قواد مضر ونفوه عن القيروان، فقفل إلى المشرق ربيع الأول سنة ثمان وأربعين ومائة فكانت ولايته نحو أربع سنين.

---

(١) قال المحقق: سرت مدينة على ساحل البحر المتوسط بين برقة وطرابلس الغرب.

(٢) قلت: أي الجزائر.

ولاية الأغلب بن سالم التميمي على المغرب

لَمَّا قفل ابن الأشعث إلى المشرق ولى جند مضر عليهم عيسى بن موسى الخراساني واتصل بالمنصور ما فعله قواد مضر من ذلك، فبعث إلى الأغلب بن سالم التميمي ثم السعدي بعهده على المغرب - والأغلب هذا هو جد الأغالبة ملوك أفريقية من بعده، وكان من ذوي الشجاعة والرأي ومن أصحاب أبي مسلم بخراسان - فدخل المغرب مع ابن الأشعث، فلما وافاه عهد الخليفة أواخر جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين ومائة انتقل إلى القيروان وأمنها واستقام أمره.

وفي سنة خمسين ومائة خرج الأغلب لقتال الصفرية فأصابه سهم فقتله، وكان مقتل الأغلب في شعبان سنة خمسين ومائة.

[١٨] ولاية عمر بن حفص هزارمرد على المغرب

لما بلغ الخليفة المنصور مقتل الأغلب بن سالم وجه مكانه عمر بن حفص - من ولد قبيصة بن أبي صفرة أخي المهلب بن أبي صفرة - فقدم القيروان في خمسمائة فارس سنة إحدى وخمسين ومائة، فاستقامت أموره ثلاث سنين ثم خرج إلى طبنة لإدارة السور عليها، واستخلف على القيروان حبيب بن حبيب المهلبي، فثار البربر بإفريقية - لما علموا من بعد الحامية عنها - وغلبوا على من كان بها، وزحفوا إلى القيروان فخرج إليهم حبيب فهزموه وقتلوه، وثار البربر الإباضية بطرابلس وولوا عليهم أبا حاتم يعقوب بن لبيب المغيلي مولى كندة.

وتسامعت به خوارج المغرب فانقضوا من كل ناحية ونبغت رؤوس الفتنة من كل وجه.

ثم سار أبو حاتم يعقوب بن لبيب إلى القيروان وحاصرها ثمانية أشهر حتى أكل أهلها الميتة، ولما اشتد الحصار على أهل القيروان خرج عمر بن حفص من طبنة يريد أبا حاتم الإباضية الذين معه، ثم جاء إلى القيروان فدخلها واستعد للحصار وشحنها بالأقوات والرجال، وأتبعه أبو حاتم والبربر وأبو قرة معهم في قومه - وكانوا في ثلاثمائة وخمسين ألفًا، الخيل منهم خمسة وثمانون ألفًا، والباقي رجالة وأحاطوا

بالقيروان - وعمر بن حفص داخلها - وطال الحصار ثم بلغه الخبر أن المنصور وجه لاستنقاذه ابن عمه يزيد بن حاتم المهلبي فأنف من ذلك وقال: لا خير في الحياة بعد ان يقال: يزيد أخرجه من الحصار إنما هي رقدة ثم أبعث إلى الحساب! وخرج عمر فقاتل حتى قتل أواسط حجة سنة أربع وخمسين ومائة.

وكان عمر هذا بطلاً سمحًا، يلقب هزارمرد، وهو لفظ فارسي معناه ألف رجل.

ثم ولى الناس عليهم أخاه لأمه حميد بن صخر، وانقضى الحصار وأحرق أبو حاتم أبواب القيروان وثلم سورها، وخرج أكثر الجند إلى طبنة، ودخل أبو حاتم القيروان فاستولى عليها.

ولاية يزيد بن حاتم على المغرب

لَمَّا بلغ المنصور انتقاض إفريقية على عمر بن حفص وحصاره بطبنة أولاً، ثم بالقيروان ثانيًا، بعث إليه يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة في ستين ألفا، وبلغ خبره عمر بن حفص فحمله ذلك على الاستماتة كما تقدم.

وبلغ أبا حاتم وهو بالقيروان مسير يزيد بن حاتم إليه فخرج للقائه، فلقيه يزيد بن حاتم بنواحي طرابلس؛ واقتتلوا قتالاً شديدًا فانهزم البربر وقتل أبو حاتم في ثلاثين ألفًا من أصحابه، وتتبعهم يزيد بالقتل طلبًا بدم عمر بن حفص.

ثم ارتحل إلى القيروان فدخلها يوم الاثنين لعشر مضت من جمادى الأولى سنة خمس وخمسين ومائة فمهدها ورتب أسواقها وأفرد لكل صناعة مكانًا، وجدد بناء جامعها وضبط الأمور أحسن ضبط.

وبعث يزيد المخارق أيضا على الزاب فنزل طبنة وأثخن في البربر وأوقع بهم وقائع عظيمة.

[١٩] وكانت حروب الخوارج مع العرب منذ انتفضوا على عمر بن حفص إلى انقضائها ثلاثمائة وخمسًا وسبعين حربا، قاله ابن خلدون.

قال ابن خلدون:

«لم يزل أمر الخوارج بالمغرب - يعني أيام يزيد هذا - في تناقص إلى أن

اضمحلّت ديانتهم، وافترقت جماعتهم».

واستمر يزيد بن حاتم ضابطًا لأمر إفريقية والمغرب إلى أن توفي بها سنة ١٧٠هـ في خلافة هارون الرشيد، فكانت ولايته خمس عشرة سنة وثلاثة أشهر.

وكان يزيد ـ رحمه الله ـ من السمحاء الأمجاد والفضلاء الأنجاد وكل بني المهلب كذلك.

فأما يزيد هذا من بينهم، فحاله في الشجاعة وجودة الراي كما رايت، وأما الجود والسخاء فهو فيهما المثل السائر.

ولاية روح بن حاتم على المغرب

لَمَّا بلغ الرشيد وفاة يزيد بن حاتم ـ وكان أخوه روح واليًا على فلسطين، وكان أسن من يزيد ـ استقدمه وعزاه في أخيه وولاه على المغرب، فقدم القيروان منتصف سنة إحدى وسبعين ومائة، وكان يزيد قبله قد أذل الخوارج ومهد البلاد كما قلنا، فكانت أرض المغرب ساكنة أيام روح، ورغب في موادعته عبد الوهاب بن عبدالرحمن بن رستم صاحب تاهرت فوادعه.

قال ابن خلدون: «وفي أيام روح انخضدت شوكة البربر واستكانوا للغلب وطاعوا للدين، فضرب الإسلام بجرانه وألقت الدولة المضرية على البربر بكلكلها» اهـ كلام ابن خلدون.

ولم يزل واليًا بها إلى أن توفي بها لإحدى عشرة ليلة بقيت من رمضان سنة أربع وسبعين ومائة.

ثم ولي المغرب من قبل الرشيد حبيب بن نصر المهلبي ثم عزله سنة سبع وسبعين ومائة.

وولي على المغرب الفضل بن روح بن حاتم وقتله عبد الله بن الجارود منتصف سنة ثمان وسبعين ومائة، وانقرضت بانقراضه دولة آل المهلب من المغرب.

ثم ولى الرشيد على المغرب هرثمة بن أعين، فبنى القصر الكبير بالمنستير، وبنى السور على طرابلس من جهة البحر، ولما رأى هرثمة ما بالمغرب من كثرة الثوار والخلاف استعفى الرشيد من ولايتها فأعفاه لسنتين ونصف من ولايته.

ثم ولى الرشيد على إفريقية محمد بن مقاتل العكي - وكان رضيعًا له - فاضطربت عليه إفريقية، وبلغ الرشيد ذلك.

وطلب أهل إفريقية من إبراهيم بن الأغلب - وكان من عمال محمد بن مقاتل - أن يكتب إلى الرشيد في الولاية عليهم، فكتب إلى الرشيد في ذلك على أن يترك المائة ألف دينار التي كانت تحمل من مصر إلى إفريقية إعانة للولاة بها، وعلى أن يحمل هو من إفريقية إلى الخليفة أربعين ألفًا، وبلغ الرشيد غَنَاؤه وكفايته فاستشار فيه أصحابه، فأشار هرثمة بن أعين بولايته، فكتب له بالعهد على إفريقية منتصف أربع وثمانين ومائة، فقام إبراهيم بالأمر وضبط البلاد فسكنت واستراحت من الفتن وابتنى مدينة العباسية قرب القيروان، وانتقل إليها بجملته وأورث بإفريقية ملكًا لبنيه من بعده. وفي هذه المدة انقسم المغرب إلى ثلاث ممالك فكان بنو الأغلب بإفريقية والقيروان، وبنو خزر المغراويون بالمغرب الأوسط وتلمسان، وبنو إدريس بالمغرب الأقصى.

وقبل أن نفرد الكلام عليه، نذكر فصلاً نشير فيه إلى مذاهب أهل المغرب ونحلهم على الجملة، والله الموفق.

[٢٠] القول في مذاهب أهل المغرب أصولاً وفروعًا وما يتبع ذلك

قد تقدم لنا ما قاله الشيخ ابن أبي زيد - رحمه الله - من أن البربر ارتدوا اثنتي عشرة مرة، وأنه لم تستقر كلمة الإسلام فيهم إلَّا لعهد موسى بن نصير وبعد فتحه الأندلس، ثم كمل إسلامهم على يد إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر؛ وتقدم أن عمر بن عبد العزيز ﷺ أرسل عشرة من التابعين يفقهون أهل المغرب في دينهم؛ فكان المغاربة في صدر الإسلام لذلك على مذهب جمهور السلف من الأمة واعتقادهم - وهو المذهب الحق - إلى أن حدثت فيهم بدعة الخارجية لأول المائة الثانية من الهجرة، نزع إليهم بها بعض أهل النفاق من خوارج العراق وبثوها فيهم فتلقوها منهم بالقبول وحسن موقعها لديهم بسبب ما كانوا يعانونه من ثقل وطأة الخلافة القريشية وجور بعض عمالها حسبما تقدمت الإشارة إليه، فلقنهم أهل البدع أن

الخلافة لا تشترط فيها القريشية بل ولا العربية وأن كل من كان أتقى لله كان أحق بها ولو عبداً حبشياً على ظاهر الحديث، ودسوا إليهم مع ذلك بعض تشديدات الخوارج وتعمقاتهم، وأروهم ما هم عليه من التصلب في دينهم فظهر للبربر ببادئ الرأي أن تعمقهم ذلك إنما هو أثر من آثار الخشية لله والخوف منه وأن ذلك هو عين التقوى المأمور بها شرعاً: وغاب عنهم أن الدين يسر كما قال ﷺ وأن ملة الإسلام عُرفت من بين الملل بالحنيفية السمحة لذلك والله تعالى يقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ...﴾ [الحج: ٧٨] ومن أمعن نظره في نصوص الشريعة من الكتاب والسنة علم يقيناً أن طريق النجاة إنما هي سلوك الوسط وأن كلا من التعمق والانحلال ضلال، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ...﴾ الآية [الأنعام: ١٥٣] وقد قرر جمع من الأئمة المقتدى بهم - كالغزالي في الإحياء وغيره - أن المحمود في أمور الديانات كلها إنما هو سلوك الوسط بين الإفراط والتفريط، وبه يتم مراد الله من خلقه، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم، وهذا مبحث طويل نفيس وقد رمزنا إليه بهذه النبذة اليسيرة والتوفيق بيد الله.

وقد رسخت هذه البدعة الخارجية في البربر زماناً طويلاً إلى أن اضمحلت في أواخر المائة الثانية وما بعدها ومع ذلك فقد بقيت منها آثار في أعقابهم من أصحاب الأطراف - كما ذكره ابن خلدون - والناقد بصير.

[٢١] ولما طهر الخلفاء من بني العباس المغرب من هذه النزعة الشيطانية أخذ أهله بعدها بمذاهب أهل العراق في الأصول والفروع؛ لأن ذلك المذهب يومئذ هو مذهب الخلفاء بالمشرق والناس على قدم إمامهم.

قال عياض في المدارك: ظهر مذهب أبي حنيفة بإفريقية ظهوراً كبيراً إلى قرب أربعمائة سنة فانقطع منها، ودخل منه شيء إلى ما وراءها من المغرب قديماً بمدينة فاس وبالأندلس.

وكذا ظهر بالأندلس أيضاً مذهب عبد الرحمن الأوزاعي من أهل الشام.

[٢٢] واختلف الناس في السبب الذي انتقل به أهل المغرب عن مذهب أبي حنيفة وغيره إلى مذهب الإمام مالك بن أنس - الذي هو مذهب السلف من أهل الحجاز - فقال ابن خلكان في ترجمة المعز بن باديس الصنهاجي المتوفى في أواسط المائة

الخامسة ما نصه:

«كان مذهب أبي حنيفة ﷺ بإفريقية أظهر المذاهب، فحمل المعز المذكور جميع أهل المغرب على التمسك بمذهب الإمام مالك ﷺ وحسم مادة الخلاف في المذاهب واستمر الحال من ذلك الوقت إلى الآن» اهـ.

قلت: كان المعز هذا وأسلافه من صنهاجة بإفريقية على مذهب الرافضة من الشيعة أخذوه عن خلفائهم العبيديين [١] أيام استيلائهم على المغرب في صدر المائة الرابعة وحملوا الناس عليه وامتحنوهم وطارت بدعتهم في أقطار المغرب كله، فلما أفضى الأمر إلى المعز بن باديس المذكور قطع دعوة الشيعة من إفريقية ودعا لبني العباس، وحمل الناس على التمسك بمذهب مالك عالم المدينة وإمام دار الهجرة.

هذا والمعروف أن مذهب مالك ظهر أولاً بالأندلس، ثم انتقل منها إلى المغرب الأقصى أيام الأدارسة، وكذا ظهر بإفريقية ظهوراً بيناً قبل وجود المغرب بكثير، بل قبل استيلاء صنهاجة والعبيديين على المغرب وذلك على يد أسد بن الفرات وعبدالسلام بن سعيد التنوخي المعروف بـ«سحنون» وغيرهما من أئمة المغاربة، ثم لما ظهرت دولة الشيعة بإفريقية حاولوا محوه فلم يتيسر لهم ذلك، وكان فقهاء المالكية في ذلك العصر معهم في محنة عظيمة منهم ابن أبي زيد والقابسي وأبو عمران الفاسي وطبقتهم، ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن نصره المعز المذكور جزاه الله خيراً.

قالوا: وكان ظهوره بالأندلس على يد الفقيه زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون فهو أول من أدخله الأندلس، وكانوا قبل ذلك يتفقهون على مذهب الأوزاعي - إمام أهل الشام - لمكان الدولة الأموية منهم، فلما ظهر مالك ﷺ بالمدينة وعظم صيته وانتشرت فتاويه بأقطار الأرض رحل إليه جماعة من أهل الأندلس والمغرب كان من أمثلهم وأسبقهم شبطون المذكور وقرعوس بن العباس وعيسى بن دينار وسيعد بن أبي هند وغيرهم أيام هشام بن عبد الرحمن الداخل، فلما رجعوا وصفوا من فضل مالك وسعة علمه وجلالة قدره ما عظم به ذكره بالأندلس فانتشر يومئذ علمه ورأيه بها.

---

(١) قلت: وهم الذين يقال فيهم الفاطميون.

وكان رائد الجماعة في ذلك هو شبطون كما قلنا وهو أول من أدخل كتاب الموطأ المغرب، أتى به مكملاً متقنًا فأخذه عنه يحيى بن يحيى الليثي ثم رحل بعد ذلك إلى مالك فقرأه عليه وعاد إلى الأندلس فتمم ما كان قد بقي من شهرة المذهب المالكي.

قال ابن حزم: «مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرئاسة والسلطان: مذهب أبي حنيفة فإنه لما ولى الرشيد أبا يوسف خطة القضاء كانت القضاة من قبله من أقصى المشرق إلى أقصى عمل إفريقية، ومذهب مالك عندنا بالأندلس؛ فإن يحيى بن يحيى كان مكينًا عند السلطان مقبول القول في القضاة، وكان لا يلي قاض في أقطار الأندلس إلَّا بمشورته واختياره، ولا يشير إلَّا بأصحابه ومن كان على مذهبه، والناس سراع إلى الدنيا فأقبلوا على ما يرجون به بلوغ أغراضهم، على أن يحيى لم يل قضاء قط ولا أجاب إليه، وكان ذلك زائدًا في جلالته عندهم وداعيًا إلى قبول رأيه لديهم» اهـ.

ومما يناسب هنا ما نقله المؤرخون أن أبا عبد الله محمد بن خيرون الأندلسي الأصل القيرواني الدار رحل إلى المشرق في صدر المائة الرابعة فأخذ عن علمائه وقرائه وعاد إلى إفريقية بقراءة نافع بن أبي نعيم ـ وكان الغالب عليهم القراءة بحرف حمزة ـ فشاع حرف نافع من يومئذ في أقطار المغرب بعد أن كان لا يقرأ به إلَّا الخواص واستمر الحال على ذلك إلى اليوم، فهذا حال أهل المغرب في الفروع.

وأما حالهم في الأصول والاعتقادات فبعد أن طهرهم الله تعالى من نزعة الخارجية أولاً والرافضية ثانيًا أقاموا على مذهب أهل السنة والجماعة مقلدين للجمهور من السلف ﷺ في الإيمان بالمتشابه وعدم التعرض له بالتأويل مع التنزيه عن الظاهر ـ وهو والله أحسن المذاهب وأسلمها ولله در القائل (١):

عقيدتنا أن ليس مثل صفاته ... ولا ذاته شيء، عقيدة صائب
تسلم آيات الصفات بأسرها ... وأخبارها للظاهر المتقارب
ونؤيس عنها كنه فهم عقولنا ... وتأويلنا، فعل اللبيب المراقب
ونركب للتسليم سفنًا فإنها ... لتسليم دين المرء خير المراكب

---

(١) قال المحقق: قد انتصر المؤلف ـ رحمه الله ـ لهذا المذهب في تأليفه المسمى: تعظيم المنة بنصرة السُّنَّة، بما لا مزيد عليه.

واستمر الحال على ذلك مدة إلى أن ظهر محمد بن تومرت مهدي الموحدين في صدر المائة السادسة، فرحل إلى المشرق وأخذ من علمائه مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري ومتأخري أصحابه من الجزم بعقيدة السلف، مع تأويل المتشابه من الكتاب والسنة وتخريجه على ما عرف في كلام العرب من فنون مجازاتها وضروب بلاغاتها مما يوافق عليه النقل والشرع، ويسلمه العقل والطبع، ثم عاد محمد بن تومرت إلى المغرب ودعا الناس إلى سلوك هذه الطريقة، وجزم بتضليل من خالفها بل تكفيره، وسمى أتباعه الموحدين - تعريضًا بأن من خالف طريقته ليس بموحد - وجعل ذلك ذريعة إلى الانتزاء [1] على ملك المغرب - حسبما تقف عليه مفصلاً بعد إن شاء الله - لكنه ما أتى بطريقة الأشعري خالصة بل مزجها بشيء من الخارجية والشيعية حسبما يُعلم ذلك بإمعان النظر في أقواله وأحواله وأحوال خلفائه من بعده، ومن ذلك الوقت أقبل علماء المغرب على تعاطي مذهب الأشعري وتقريره وتحريره درسًا وتأليفًا إلى الآن، وإن كان قد ظهر بالمغرب قبل ابن تومرت فظهوراً ما، والله أعلم.

وقد كان عبد المؤمن بن علي وبنوه من بعده منعوا الناس من التقليد في الفروع، وحملوا الأئمة على أخذ الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة مباشرة على طريق الاجتهاد المطلق، وحرقوا شيئًا كثيراً من كتب الفروع الحديثة التصنيف، ووقع ذلك من بعض علماء عصرهم موقع الاستحسان، منهم الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي فقد ذكر في كتاب «القواصم والعواصم» له ما يشعر ذلك، قال بعد ذكره ما وقع بالمغرب من الفتن ما نصه:

«عطفنا عنان القول إلى مصائب نزلت بالعلماء في طريق الفتوى لما كثرت البدع وذهب العلماء، وتعاطت المبتدعة منصب الفقهاء، وتعلقت أطماع الجهال به فنالوه بفساد الزمان، ونفوذ وعد الصادق ﷺ في قوله: «اتخذ الناس رؤوسًاء جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا» [2] وبقيت الحال هكذا فماتت العلوم إلَّا عند آحاد الناس، واستمرت القرون على موت العلم وظهور الجهل وذلك بقدرة الله تعالى، وجعل الخلف منهم يتبع السلف حتى آلت الحال إلى أن لا ينظر في قول

---

(١) قلت: أي القفز والوثوب على المرابطين.

(٢) قلت: قطعة من حديث مخرج في الصحيحين.

مالك وكبراء أصحابه، ويقال: قد قال في هذه المسألة أهل قرطبة وأهل طلمنكة وأهل طليطلة، وصار الصبي إذا عقل وسلكوا به أمثل طريقة لهم علموه كتاب الله ـ تعالىٰ ـ ثم نقلوه إلىٰ الأدب، ثم إلىٰ الموطأ، ثم إلىٰ المدونة، ثم إلىٰ وثائق ابن العطار، ثم يختمون له بأحكام ابن سهل، ثم يقال قال فلان الطليطلي وفلان المجريطي وابن مغيث ـ لا أغاث الله ثراه ـ فيرجع القهقرىٰ، ولا يزال يمشي إلىٰ وراء، ولولا أن الله تعالىٰ مَنّ بطائفة تفرقت في ديار العلم وجاءت بلباب منه كالقاضي أبي الوليد الباجي وأبي محمد الأصيلي فرشوا من ماء العلم علىٰ هذه القلوب الميتة، وعطروا أنفاس الأمة الذفرة[1] لكان الدين قد ذهب ولكن تدارك الباري تعالىٰ بقدرته ضرر هؤلاء بنفع هؤلاء، وربما سكنت الحال قليلاً والحمد لله» اهـ والله تعالىٰ ولي التوفيق.

[٢٣] تتمة مهمة [في أحوال صوفية المغرب]

قد ظهر ببلاد المغرب وغيرها منذ أعصار متطاولة ـ لا سيما في المائة العاشرة وما بعدها ـ دعوة قبيحة وهي اجتماع طائفة من العامة علىٰ شيخ من الشيوخ الذين عاصروهم أو تقدموهم ممن يشار إليه بالولاية والخصوصية، ويخصونه بمزيد المحبة والتعظيم، ويتمسكون بخدمته والتقرب إليه قدراً زائداً علىٰ غيره من الشيوخ بحيث يرتسم في خيال جلهم أن كل المشايخ أو جلهم دونه في المنزلة عند الله ـ تعالىٰ ـ ويقولون: نحن أتباع سيدي فلان وخدام الدار الفلانية، لا يحولون عن ذلك ولا يزولون خلفًا عن سلف، وينادون باسمه ويتسغيثون به ويفزعون في مهماتهم إليه، معتقدين أن التقرب إليه نافع والانحراف عنه قيد شبر ضار، مع أن النافع والضار هو الله وحده، وإذا ذُكر لهم شيخ آخر أو دعوا إليه حاصوا حيصة حمر الوحش من غير تبصر في أحواله هل يستحق ذلك التعظيم أم لا؟ فصار الأمر عصبيًا، وصارت الأمة بذلك طرائق قددًا، ففي كل بلد أو قرية عدة طوائف، وهذا لم يكن معروفًا في سلف الأمة الذين هم القدوة لمن بعدهم، وغرض الشارع إنما هو في الاجتماع وتمام الألفة واتحاد الوجهة، وقد قال تعالىٰ لأهل الكتاب: ﴿ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا

---

(١) قلت: أي الرائحة السيئة.

وَبَيْنَكُمْ...﴾ الآية [آل عمران: ٦٤] وقد ذم قومًا فرقوا دينهم وكانوا شيعًا، وإنما الشأن في أهل الخصوصية والدين أن يكونوا عند العاقل المحتاط لدينه كأسنان المشط بحيث يحبهم لله وفي الله ويستشفع بهم إلى الله، ويسأله تعالى أن يكرمه بما أكرمهم به من الخير والهدى والدين وليحبهم حب التشرع لا حب التشيع، وليتأدب معهم، ولا يقدم على مفاضلتهم بالهوى والرجم بالغيب، فإن ذلك متوقف على الاطلاع على منزلتهم عند الله، وذلك محجوب عنا، وإذا نزلت به حاجة فليفرغ في قضائها إلى مولاه الذي خلقه ورزقه، مستشفعًا إليه بنبيه الذي هداه للإيمان على يده، ثم بخواص الأمة الذين هم آباؤنا في الدين، فإن المطلوب من العبد أن يصرف وجهته وقصده في جميع أموره، ويتعلق فيها بالله بحيث لا يطلبها إلَّا منه، ولا يتكل فيها إلَّا عليه قاطعًا للنظر عن كل ما سواه اللّهم إلَّا على سبيل التوسل والاستشفاع كما قلنا (١)، هذا هو التوحيد الذي بعث الله به محمداً ﷺ، وإليه دعا، وعليه قاتل، وسواه شرك ومنابذا لما جاء به: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ...﴾ الآية [آل عمران: ٦٢].

ثم استرسل هؤلاء الطغام في ضلالهم حتى صارت كل طائفة تجتمع في أوقات معلومة من مكان مخصوص - أو غيره - على بدعتهم التي يسمونها الحضرة! فما شئت من طست وطار، وطبل ومزمار، وغناء ورقص، وخيط وفحص! وربما أضافوا إلى ذلك ناراً أو غيرها يستعملونه على سبيل الكرامة بزعمهم! ويستغرقون في ذلك الزمن الطويل حتى يمضي الوقت والوقتان من أوقات الصلوات! وداعي الفلاح ينادي على رؤوسهم - وهم في حيرتهم يعمهون - لا يرفعون به رأسا! ولا يرون بما هم فيه من الضلال بأسًا بل يعتقدون أن ما هم فيه من أفضل القرب إلى الله! تعالى الله عن جهالتهم علواً كبيراً.

ولا تجد في هذه المجامع الشيطانية غالبًا إلَّا من بلغ الغاية في الجفاء والجهل، من لا يحسن الفاتحة فضلاً عن غيرها، مع ترك الصلاة طول عمره أو من في معناه من معتوه ناقص العقل والدين، فما أحوج هؤلاء الفسقة إلى محتسب يغير عليهم

---

(١) قلت: التوسُّل بالأنبياء والصالحين محل خلاف.

ما هم فيه من المنكر العظيم واللبس المقيم، وأعظم من هـٰذا كله أنهم يفعلون تلك الحضرة غالبًا في المساجد، فإنهم يتخذون الزاوية باسم الشيخ، ويجعلونها مسجدًا للصلاة بالمحراب والمنار وغير ذلك، ثم يعمرونها بهـٰذه البدعة الشنيعة، فكم رأينا من عود ورباب ومزمار على أفحش الهيئات في محاريب الصلوات!

ومن بدعهم الشنيعة: محاكاتهم أضرحة الشيوخ لبيت الله الحرام من جعل الكسوة لها وتحديد الحرم على مسافة معلومة بحيث يكون من دخل تلك البقعة من أهل الجرائم آمنًا، وسوق الذبائح إليها على هيئة الهدي، واتخاذ الموسم كل عام! وهـٰذا وأمثاله لم يشرع إلَّا في حق الكعبة، ثم يقع في ذلك الموسم - ولا سيما مواسم البادية - من المناكر والمفاسد العظام واختلاط الرجال بالنساء باديات متبرجات - شأن أهل الإباحة وشأن قوم نوح في جاهليتهم - ما تصم عنه الآذان ولا منكر ولا مغير ولا ممتعض للدين! لا! بل للحسب! فأما الدين عند هـٰؤلاء فلا دين! فإنا لله وإنا إليه راجعون على ضيعة الدين وغفلة أهله عنه، ويالله ويا للمسلمين لهـٰؤلاء الهمج الرعاع! الذين سُلبوا المروءة والحياء والغيرة والعقل والدين والإنسانية جملة! فليسوا في فطنة الشياطين! ولا في سلامة صدور البهائم! ولا في نخوة السباع فيغضبوا لدينهم ومروءتهم!

ومن جهالاتهم الفظيعة: جمعهم بين اسم الله تعالىٰ واسم الولي في مقامات التعظيم - كالقسم والاستعطاف وغيرهما - فإذا أقسموا قالوا: «وحق الله وحق سيدي فلان»! وإذا عزموا على أحد قالوا: «دخلت عليك بالله وسيدي فلان» وإذا سألوا قالوا: «من يعطينا على الله وعلى سيدي فلان»! فيعطفون اسم العبد على اسم مولاه بالواو المقتضية للتشريك والتسوية التامة! في مقام قد حظر الشارع أن يُتجاوز فيه اسم الله إلى غيره! وهـٰذا هو صريح الشرك.

ومن مناكرهم الجديرة بالتغيير: اجتماعهم كل سنة للوقوف يوم عرفة بضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش رحمه الله، ويسمون ذلك حج المسكين! فانظر إلى هـٰذه الطامة التي اخترعها هـٰؤلاء العامة.

ومن اختراعاتهم: تسميتهم لبدعتهم بالحضرة - كما قلنا - أخذًا من اسم حضرة الله تعالىٰ في إصلاح الأئمة العارفين من الصوفية! كأهل رسالة القشيري ومَن في

معناهم فأوهم هؤلاء الشياطين بهذه التسمية أنهم يكونون في حال اشتغالهم بتلك البدعة في حضرة الله تعالى؛ ثم يذهبون فيسمون جنونهم وتخبطهم على تلك الطبول والمزامير بالحال! أخذًا من الحال التي تعتري السالك إلى الله ـ تعالى ـ في حال ترقيه في درجات المعرفة والوصول، وهذا لعمر الله من أقبح الضلالات وأشنع الجهالات إلى غير هذا مما أغنى فيه العيان عن الخبر، وعرفه الخاص والعام في حالتي الورد والصدَر.

ولسنا ننكر على أولياء الله وأهل الخصوصية منهم أو على من يسلك سبيلهم على الوجه المقرر في كتب الأئمة المقتدى بهم منهم، وإنما نشرح حال هؤلاء الجهلة الذين لم يأتوا الأمر من بابه، ولا أخذوه عن أربابه، وإنما حالهم ما رأيت وعلمت، وهذه نفثة مصدور، صاحبها عند المنصف معذور، فنسأل الله العظيم، المولى الكريم، أن يحرك همة مَن له القدرة والتصرف إلى حسم هذه الضلالات وقطعها، عسى أن يرحمنا ربنا ويجبر كسرنا ويكبت عدونا إذا نحن راجعنا ديننا وسنة نبينا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

وقد آن أن نفرد الكلام على المغرب الأقصى عند ما استولى عليه المولى إدريس ابن عبد الله وبنوه من بعده، واقتطعوه عن نظر الخلفاء بالمشرق، وصيروه مملكة مستقلة، إذ كان ذلك من شرط كتابنا هذا، حسبما تقدمت الإشارة إليه، مقدمين لذلك ما يجب تقديمه من الإشارة إلى أمر الخلافة وتنازع أهل الصدر الأول في استحقاقها ومن هو أولى بها، ثم نتخلص منه إلى المقصود بالذات، والله الموفق.





الدولة الإدريسية

الخبر عن دولة آل إدريس بالمغرب الأقصى وذكر السبب في أوليتها

لما كانت سنة تسع وستين ومائة في أيام موسى الهادي بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور خرج بالمدينة الحسين بن علي بن الحسن المثلث بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب ﷺ ، وكان معه جماعة من أهل بيته منهم إدريس ويحيى وسليمان بنو عبد الله بن الحسن المثنى - وهم إخوة محمد النفس الزكية - فاشتد أمر الحسين المذكور بالمدينة وجرى بينه وبين عامل الهادي على المدينة - وهو عمر بن عبد العزيز بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب - قتال، فانهزم عمر المذكور، وبايع الناس الحسين المذكور على كتاب الله وسنة نبيه للمرتضى من آل محمد وأقام الحسين وأصحابه بالمدينة يتجهزون أيامًا، ثم خرجوا إلى مكة يوم السبت لست بقين من ذي القعدة فانتهى الحسين إلى مكة، وانضم إليه جماعة من عبيدها.

وكان قد حج تلك السنة جماعة من وجوه بني العباس وشيعتهم، فمنهم سليمان بن أبي جعفر المنصور ومحمد بن سليمان بن علي والعباس بن محمد بن علي وانضم إليهم من حج من قوادهم ومواليهم، واقتتلوا مع الحسين المذكور يوم التروية - الثامن من ذي الحجة - فانهزم الحسين وأصحابه وقتل فاحتزوا رأسه وأحضروه أمام بني العباس وهو مضروب على قفاه وجبهته، ثم جمعت رؤوس أصحابه فكانت مائة ونيفًا وكان فيها رأس سليمان بن عبد الله بن الحسن المثنى في قول، واختلط المنهزمون بالحاج فذهبوا في كل وجه وكان مقتلهم بموضع يقال له فخ على ثلاثة أميال من مكة سنة تسع وستين ومائة كما قلنا، وفي ذلك يقول بعض شعراء ذلك العصر:

فلا بكين على الحسين بعولة، وعلى الحسن
وعلى ابن عاتكة الذي واروه ليس له كفن

تُركـوا بـفـخ غُـدوةً　　في غـيـر منـزلة الوطـن

في أبيات، والحسن الذي ذكره في هذه الأبيات هو: الحسن بن محمد بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب، وكان أُسر في ذلك اليوم فضربت عنقه صبراً، وابن عاتكة الذي ذكره هو عبد الله بن إسحاق بن إبراهيم بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب، ثم حمل رأس الحسين ومعه باقي الرؤوس إلى الهادي فأنكر عليهم حمل رأس الحسين، ولم يعطهم جوائزهم غضبًا عليهم.

دخول إدريس بن عبد الله أرض المغرب الأقصى

[٢٤] قد تقدم لنا أن يحيى وإدريس ابني عبد الله حضرا وقعة فخ مع الحسين بن علي المذكور آنفًا، فأما يحيى فإنه فر من الوقعة المذكورة إلى بلاد الديلم في جهة الشرق ودعا الناس إلى بيعته فبايعوه واشتدت شوكته، ثم إن الرشيد جهز إليه الفضل بن يحيى البرمكي في جيش كثيف فكاتبه الفضل وبذل له الأمان وما يختاره فأجابه يحيى بن عبد الله إلى ذلك وطلب يمين الرشيد وأن يكون بخطه ويشهد فيه الأكابر ففعل ذلك وحضر يحيى بن عبد الله إلى بغداد فأكرمه الرشيد وأعطاه مالاً كثيراً، ثم حبسه حتى مات في السجن.

[٢٥] وأما إدريس فإنه فر من الوقعة المذكورة ولحق بمصر وعلى بريدها يومئذ واضح مولى صالح بن المنصور ويعرف بالمسكين، وكان واضح يتشيع لآل البيت فعلم شأن إدريس وأتاه إلى الموضع الذي كان مستخفيًا به، ولم ير شيئًا أخلص له من أن يحمله على البريد إلى المغرب ففعل، ولحق إدريس بالمغرب الأقصى هو ومولاه راشد، فنزل بمدينة وليلي ـ قاعدة جبل زرهون ـ سنة ثنتين وسبعين ومائة، وبها يومئذ إسحاق بن محمد بن عبد الحميد أمير أوربة من البربر البرانس فأجاره وأكرمه وجمع البربر على القيام بدعوته، وخلع الطاعة العباسية وكشف القناع في ذلك، وانتهى الخبر إلى الرشيد بما فعله واضح في شأن إدريس فقتله وصلبه.

وكان دخول إدريس المغرب ونزوله على ابن عبد الحميد بمدينة وليلى غرة ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين ومائة.

بيعة الإمام إدريس بن عبدالله رضي الله عنه

لما استقر إدريس بن عبد الله بمدينة وليلى عند كبيرها إسحاق بن محمد بن عبدالحميد الأوربي أقام عنده ستة أشهر، فلما دخل شهر رمضان من السنة جمع ابن عبد الحميد عشيرته من أوربة وعرفهم بنسب إدريس وقرابته من رسول الله ﷺ وقرر لهم فضله ودينه وعلمه واجتماع خصال الخير فيه، فقالوا: الحمد لله الذي أكرمنا به وشرفنا بجواره، وهو سيدنا ونحن العبيد، فما تريد منا؟

قال: «تبايعونه».

قالوا: «ما منا من يتوقف عن بيعته»، فبايعوه بمدينة وليلي يوم الجمعة رابع رمضان المعظم سنة اثنتين وسبعين ومائة.

وكان أول من بايعه قبيلة أوربة على السمع والطاعة والقيام بأمره، والاقتداء به في صلواتهم وغزواتهم وسائر أحكامهم.

وكانت أوربة يومئذ من أعظم قبائل البربر بالمغرب الأقصى وأكثرها عدداً، وتلتها في نصرة إدريس والقيام بأمره مغيلة وصدينة، وهما معًا من ولد تامزيت بن ضرى.

ولما بويع إدريس - رحمه الله - خطب الناس فقال بعد حمد الله والصلاة على نبيه ﷺ: **«أيها الناس لا تمدن الأعناق إلى غيرنا، فإن الذي تجدونه من الحق عندنا لا تجدونه عند غيرنا»**.

ثم بعد ذلك وفدت عليه قبائل زناتة والبربر مثل زواغة وزواوة وسدراتة وغياثة ومكناسة وغمارة وكافة البربر بالمغرب الأقصى فبايعوه أيضًا، ودخلوا في طاعته فاستتب أمره وتمكن سلطانه وقويت شوكته.

غزو إدريس بن عبدالله بلاد المغرب الأقصى وفتحه إياها

ثم إن إدريس بن عبد الله رضي الله عنه اتخذ جيشًا كثيفًا من وجوه زناتة وأوربة وصنهاجة وهوارة وغيرهم، وخرج غازيًا بلاد تامسنا، ثم زحف إلى بلاد تادلا ففتح

معاقلها، وحصونها، وكان أكثر أهل هذه البلاد لا زالوا على دين اليهودية والنصرانية وإنما الإسلام بها قليل، فأسلم جميعهم على يده.

وقفل إلى مدينة وليلى مؤيداً منصوراً فدخلها أواخر ذي الحجة سنة اثنتين وسبعين ومائة، فأقام بها شهر محرم فاتح سنة ثلاث وسبعين ريثما استراح الناس، ثم خرج برسم غزو من كان بقي من قبائل البربر بالمغرب على دين المجوسية واليهودية والنصرانية، وكان قد بقي منهم بقية متحصنون في المعاقل والجبال والحصون المنيعة، فلم يزل إدريس ـ رحمه الله ـ يجاهدهم في حصونهم ويستنزلهم من معاقلهم حتى دخلوا في الإسلام طوعًا وكرهًا، ومن أبى الإسلام منهم أباده قتلاً وسبيًا.

ثم عاد إلى مدينة وليلى فدخلها في النصف من جمادى الآخرة من السنة المذكورة.

غزو إدريس بن عبد الله

أرض المغرب الأوسط وفتح مدينة تلمسان

لَمَّا قفل إدريس ﷺ من غزو بلاد المغرب الأقصى سنة ثلاث وسبعين ومائة أقام بوليلى بقية جمادى الآخرة ونصف رجب التالي لها ريثما استراح جيشه، ثم خرج منتصف رجب المذكور برسم غزو مدينة تلمسان ومن بها من قبائل مغراوة وبني يفرن فانتهى إليها ونزل خارجها فخرج إليه صاحبها محمد بن خزر من ولد صولات المغراوي مستأمنًا ومبايعًا له فأمنه إدريس وقبل بيعته.

ودخل مدينة تلمسان فأمن أهلها، ثم أمن سائر زناتة وبنى مسجد تلمسان وأتقنه، وأمر بعمل منبر نصبه فيه وكتب عليه: «بسم الله الرحمٰن الرحيم هذا ما أمر به الإمام إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي ـ رضي الله عنهم ـ وذلك في شهر صفر سنة أربع وسبعين ومائة» ثم رجع إدريس رحمه الله إلى مدينة وليلى فدخلها مؤيدًا منصوراً.

[٢٦] وفاة إدريس بن عبد الله والسبب في ذلك

لَمَّا حصل لإدريس ـ رحمه الله ـ ما حصل من التمكن والظهور اتصل خبر ذلك بالخليفة ببغداد وهو هارون الرشيد العباسي، وبلغه أن إدريس قد استقام له أمر المغرب، وأنه قد استفحل أمره وكثرت جنوده وقد فتح مدينة تلمسان وبنى مسجدها وأنه عازم على غزو إفريقية، فخاف الرشيد عاقبة ذلك وأنه إن لم يتدارك أمره الآن ربما عجز عنه في المستقبل مع ما يعلم من فضل إدريس خصوصًا ومحبة الناس في آل البيت عمومًا، فقلق الرشيد من ذلك واستشار وزيره يحيى ابن خالد البرمكي، وقال: «إن الرجل قد فتح تلمسان وهي باب إفريقية ومن ملك الباب يوشك أن يدخل الدار وقد هممت أن أبعث إليه جيشًا ثم فكرت في بعد الشقة وعظم المشقة فرجعت عن ذلك».

فقال يحيى: «الرأي يا أمير المؤمنين أن تبعث إليه برجل داهية يحتال عليه ويغتاله وتستريح منه» فأعجب الرشيد ذلك؛ فوقع اختيارهما على رجل من موالي المهدي والد الرشيد ـ واسم الرجل سليمان بن جرير ـ ويعرف بالشماخ ـ فأحضره يحيى وأعلمه بما يريد منه، ووعده على قتل إدريس الرفعة والمنزلة العالية عند الرشيد، وزوده مالاً وطُرَفًا يستعين بها على أمره، وأصحبه الرشيد كتابًا منه إلى واليه على إفريقية، فوصل الشماخ إلى والي إفريقية بكتاب الرشيد فأجازه إلى المغرب.

وقدم الشماخ على إدريس بن عبد الله مظهراً النزوع إليه فيمن نزع إليه من وحدان العرب متبرئًا من الدعوة العباسية منتحلاً للدعوة الطالبية، فاختصه إدريس ـ رحمه الله ـ وحلا بعينيه وعظمت منزلته لديه.

وكان الشماخ ممتلئًا من الأدب والظرف والبلاغة، عارفًا بصناعة الجدل فكان إذا جلس الإمام إدريس إلى رؤساء البربر ووجوه القبائل تكلم الشماخ فذكر فضل أهل البيت وعظيم بركتهم على الأمة ويقرر ذلك ويحتج لإمامة إدريس وأنه الإمام الحق دون غيره، فكان يعجب إدريس ويقع منه الموقع، فاستولى الشماخ عليه حتى صار

من ملازميه ولا يأكل إلّا معه.

وكان راشد [١] كالئًا لإدريس ملازمًا له أيضًا، قلما ينفرد عنه لأنه كان يخاف عليه من مثل ما وقع فيه لكثرة أعداء آل البيت يومئذ، وكان الشماخ يترصد الغِرة من راشد ويترقب الفرصة في إدريس إلىٰ أن غاب راشد ذات يوم في بعض حاجاته فدخل الشماخ علىٰ إدريس فجلس بين يديه علىٰ العادة وتحدث مليًا.

ولما لم ير الشماخ راشداً بالحضرة انتهز الفرصة في إدريس فقيل إنها كانت مع الشماخ قارورة من طيب مسموم فأخرجها وقال لإدريس: «هـٰذا طيب كنت استصحبته معي وهو من جيد الطيب فرأيت أن الإمام أولىٰ به مني وذلك من بعض ما يجب له علي، ثم وضع القارورة بين يديه، فشكره إدريس وتناول القارورة ففتحها واشتم ما فيها، فصعد السم إلىٰ خياشيمه وانتهىٰ إلىٰ دماغه فغشي عليه، وقام الشماخ للحين كأنه يريد حاجة الإنسان، فخرج وأتىٰ منزله فركب فرسًا له عتيقًا كان قد أعده لذلك، وذهب لوجهه يريد المشرق، وافتقد الناس الإمام إدريس فإذا هو مغشي عليه لا يتكلم ولا يعلم أحد ما به، وقيل إن الشماخ سمه في سنون ـ والسنون بوزن صبور ما يستاك به ـ وكان إدريس يشتكي وجع الأسنان واللثة وقيل سمه عنب أهداه إليه في غير إبّانة [٢]، والله أعلم.

ولما اتصل خبر إدريس بمولاه راشد أقبل مسرعًا فدخل عليه وهو يحرك شفتيه لا يبين كلامًا قد أشرف علىٰ الموت، فجلس عند رأسه متحيراً لا يدري ما دهاه، واستمر إدريس علىٰ حالته تلك إلىٰ عشي النهار فتوفي في مهل ربيع الآخر سنة سبع وسبعين ومائة، وتفقد راشد الشماخ فلم يره فعلم أنه الذي اغتال إدريس.

ثم جاء الخبر بأن الشماخ قد لُقي علىٰ أميال من البلد، فركب راشد في جمع من البربر واتبعوه، وتقطعت الخيل في النواحي وطلبوه ليلتهم إلىٰ الصباح فلحقه راشد بوادي ملوية عابراً فشد عليه راشد بالسيف وضربه ضربات قطع في بعضها يمناه وشجه في رأسه شجاجًا، ونجا الشماخ، وأعيىٰ فرس راشد عن اللحاق به فرجع عنه، ويقال: إن الشماخ رُئي بعد ذلك ببغداد وهو مقطوع اليد.

---

(١) قلت: هو مولاه الذي فرّ معه من وقعة فخ. وكالئًا: أي حافظًا.

(٢) قلت: أي في غير أوانه وزمانه.

ولما رجع راشد إلى منزله أخذ في تجهيز الإمام ﵁ وصلى عليه ودفنه بصحن رابطة عند باب وليلى، رحمه الله ورضي عنه.

أمر البربر بعد وفاة إدريس بن عبد الله رحمه الله

قالوا: إن الإمام إدريس لما توفي لم يترك ولدًا إلّا حملاً من أمة له بربرية اسمها كنزة، فلما فرغ راشد من جهازه ودفنه جمع رؤساء البربر ووجوه الناس فقال لهم إن إدريس لم يترك ولدًا إلّا حملاً من أمته كنزة وهي الآن في الشهر السابع من حملها، فإن رأيتم أن تصبروا حتى تضع هذه الجارية حملها فإن كان ذكرًا أحسنا تربيته حتى إذا بلغ مبلغ الرجال بايعناه تمسكًا بدعوة آل البيت وتبركًا بذرية رسول الله ﷺ، وإن كان جارية نظرتم لأنفسكم.

فقالوا له: أيها الشيخ المبارك! ما لنا رأي إلّا ما رأيت، فإنك عندنا عوض من إدريس تقوم بأمورنا كما كان إدريس يقوم بها، وتصلي بنا وتقضي بيننا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ونصبر حتى تضع الجارية حملها ويكون ما أشرت به، على أنها إن وضعت جارية كنت أحق الناس بهذا الأمر لفضلك ودينك وعلمك، فشكرهم راشد على ذلك ودعا لهم وانصرفوا، فقام راشد بأمر البربر تلك المدة.

ولما تمت للجارية أشهر حملها وضعت غلامًا أشبه الناس بأبيه إدريس، فأخرجه راشد إلى رؤساء البربر حتى نظروا إليه فقالوا: هذا إدريس بعينيه كأنه لم يمت، فسماه راشد إدريس ونشأ الصبي نشأة حسنة إلى أن كان من أمره ما نذكره.

الخبر عن دولة إدريس بن إدريس رحمه الله

كانت ولادة إدريس بن إدريس بن عبد الله يوم الاثنين ثالث رجب سنة سبع وسبعين ومائة فكفله راشد مولى أبيه، وقام بأمره أحسن قيام، فأقرأه القرآن حتى حفظه وهو ابن ثمان سنين، ثم علمه الحديث والسنة والفقه في الدين والعربية، ورواه الشعر وأمثال العرب وحكمها، وأطلعه على سير الملوك وعرفه أيام الناس، ودربه على ركوب الخيل والرمي بالسهام وغير ذلك من مكايد الحرب، فلم يمض له من العمر مقدار إحدى عشرة سنة إلّا وقد اضطلع بما حمل وترشح للأمر، واستحق

لان يبايع، فبايعه البربر وآتوه صفقتهم عن طاعة منهم وإخلاص.

قال ابن خلدون: بايع البربر إدريس الأصغر حملاً ثم رضيعًا ثم فصيلاً إلىٰ أن شب فبايعوه بجامع مدينة وليلىٰ سنة ثمان وثمانين ومائة وهو ابن إحدىٰ عشرة سنة، فصعد إدريس المنبر وخطب الناس فقال:

«الحمد لله أحمده وأستغفره وأستعين به وأتوكل عليه، وأعوذ به من شر نفسي ومن شر كل ذي شر، وأشهد أن لا إلـٰه إلَّا الله وأن محمداً عبده ورسوله المبعوث إلىٰ الثقلين بشيراً ونذيراً، وداعيًا إلىٰ الله بإذنه وسراجًا منيراً، صلَّىٰ الله عليه وعلىٰ آل بيته الطاهرين الذين أذهب الله عنهم الرِّجس وطهرهم تطهيراً، أيها الناس: إنا قد ولينا هـٰذا الأمر الذي يضاعف فيه للمحسن الأجر، وعلىٰ المسيء الوزر، ونحن والحمد لله علىٰ قصد، فلا تمدوا الأعناق إلىٰ غيرنا، فإن الذي تطلبونه من إقامة الحق إنما تجدونه عندنا»، ثم دعا الناس إلىٰ بيعته، وحضهم علىٰ التمسك بطاعته، فعجب الناس من فصاحته وقوة جأشه علىٰ صغر سنه، ثم نزل فتسارع الناس إلىٰ بيعته وازدحموا عليه يقبلون يده، فبايعه كافة قبائل المغرب من زناتة وأوربة وصنهاجة وغمارة وسائر قبائل البربر فتمت له البيعة، وبعد بيعته بقليل توفي مولاه راشد، والله أعلم.

وفود العرب على إدريس بن إدريس رحمه الله

لَمَّا استقام أمر المغرب لإدريس بن إدريس وتوطد ملكه وعظم سلطانه وكثرت جيوشه وأتباعه، وفدت عليه الوفود من البلدان، وقصد الناس حضرته من كل صقع ومكان، فاستمر بقية سنة ثمان وثمانين يصل الوفود ويبذل الأموال، ويستميل الرؤساء.

ولما دخلت سنة تسع وثمانين ومائة وفدت عليه وفود العرب من إفريقية والأندلس نازعين إليه وملتفين عليه، فاجتمع لديه منهم نحو خمسمائة فارس من قيس والأزد ومِذْحج ويحصب والصدف وغيرهم، فسر إدريس بوفادتهم وأجزل صلتهم وأدنىٰ منزلتهم وجعلهم بطانة دون البربر، فاعتز بهم وأنس بقربهم، فإنه كان غريبًا بين البربر، فاستوزر منهم.

[٢٧] بناء مدينة فاس

لَمَّا كثرت الوفود من العرب وغيرهم على إدريس رحمه الله وضاقت بهم مدينة وليلى أراد أن يبني لنفسه مدينة يسكنها هو وخاصته ووجوه دولته.

ثم بعث وزيره عمير بن مصعب الأزدي يرتاد له موضعًا يبني فيه المدينة التي عزم عليها، فسار عمير حتى انتهى إلى موضع مدينة فاس اليوم، فنظر فإذا ما بين الجبلين غيضة ملتفة الأشجار، مطردة العيون والأنهار، وفي جانب منها خيام من شعر يسكنها قوم من زواغة يعرفون ببني الخير، وقوم من زناتة يعرفون ببني يرغش وكان بنو يرغش على دين المجوسية، وكان البعض منهم على دين اليهودية، والبعض على دين النصرانية، وكانوا قلما يفترون عن القتال لاختلاف أهوائهم وتباين أديانهم، فرجع عمير إلى إدريس وأعلمه بما رأى من الغيضة وساكنيها، وما وقع عليه اختياره فيها، فجاء إدريس لينظر إلى البقعة فألفى بني الخير وبني يرغش يقتتلون؛ فأصلح بينهم وأسلموا على يده.

واشترى منهم الغيضة بستة آلاف درهم فرضوا بذلك، ودفع لهم الثمن وأشهد عليهم، ثم شرع في بناء المدينة.

وذكر ابن غالب في تاريخه أن الإمام إدريس لما فرغ من بناء مدينة فاس وحضرت الجمعة الأولى صعد المنبر وخطب الناس ثم رفع يديه في آخر الخطبة فقال: «اللَّهم إنك تعلم أني ما أردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة ولا رياء ولا سمعة ولا مكابرة، وإنما أردت أن تعبد بها ويتلى بها كتابك وتقام بها حدودك وشرائع دينك وسنة نبيك محمد ﷺ ما بقيت الدنيا، اللهم وفق سكانها وقطانها للخير وأعنهم عليه واكفهم مؤنة أعدائهم وأَدِرَّ عليهم الأرزاق، واغمد عنهم سيف الفتنة والشقاق، إنك على كل شيء قدير».

فأمن الناس على دعائه فكثرت الخيرات بالمدينة وظهرت بها البركات.

ومن محاسن فاس أن نهرها يشقها بنصفين وتتشعب جداوله في دورها وحماماتها وشوارعها وأسواقها وتطحن به أرحاؤها ثم يخرج منها، وقد حمل أقذارها وأزبالها، إلى غير ذلك من عيون الماء التي تنبع بداخلها وتتفجر من بيوتها

تجاوز الحصر كثرة.

غزو إدريس بن إدريس المغربين واستيلاؤه عليهما

لَمَّا فرغ إدريس من بناء مدينة فاس وانتقل إليها بحلته واستوطنها بحاشيته وأرباب دولته واتخذها دار ملكه أقام بها إلىٰ سنة سبع وتسعين ومائة، فخرج غازيًا بلاد المصامدة فانتهىٰ إليها واستولىٰ عليها، وعاد إلىٰ فاس فأقام بها إلىٰ سنة تسع وتسعين ومائة، فخرج في المحرم برسم غزو قبائل نفزة من أهل المغرب الأوسط ومن بقي هناك علىٰ دين الخارجية من البربر، فسار حتىٰ غلب عليهم ودخل مدينة تلمسان، فنظر في أحوالها وأصلح سورها وجامعها وصنع فيها منبراً.

وأقام إدريس بمدينة تلمسان وأحوازها يدبر أمرها ويصلح أحوالها ثلاث سنين، ثم رجع إلىٰ مدينة فاس.

[٢٨] قال داود [(١)] بن القاسم الأوربي:

شهدت مع إدريس بن إدريس بعض غزواته مع الخوارج الصفرية من البربر، فلقيناهم وهم ثلاثة أضعافنا، فلما تقارب الجمعان نزل إدريس فتوضأ وصلىٰ ركعتين ودعا الله - تعالىٰ - ثم ركب فرسه وتقدم للقتال، قال: فقاتلناهم قتالاً شديداً فكان إدريس يضرب في هذا الجانب مرة! ويكر في هذا الجانب الآخر مرة! ولم يزل كذلك حتىٰ ارتفع النهار، ثم رجع إلىٰ رايته فوقف بإزائها والناس يقاتلون بين يديه، فطفقت أتأمله وأديم النظر إليه وهو تحت ظلال البنود يحرض الناس ويشجعهم، فأعجبني ما رأيت من ثباته وقوة جأشه! فالتفت نحوي، وقال: يا داود ما لي أراك تديم النظر إلي؟

قلت: أيها الإمام! إنه قد أعجبني منك خصال لم أرها اليوم في غيرك.

قال: وما هي؟

---

(١) قال المحقق: هو داود بن القاسم بن إسحق بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الجعفري يكنىٰ أبا هاشم المتوفىٰ سنة إحدىٰ وستين ومائتين، انظر ترجمته في: ص ٦٥ من كتاب طلعة المشتري في النسب الجعفري للمؤلف بسطها هناك، وأما قوله الأوربي هنا فصوابه الجعفري وإنما تصحفت علىٰ صاحب تاريخ القرطاس الذي ساق المؤلف نقله هنا.

قلت: أولاها ما أراه من ثبات قلبك وطلاقة وجهك عند لقاء العدو!

قال: ذاك ببركة جدنا ﷺ ودعائه لنا وصلاته علينا، ووراثة من أبينا علي بن أبي طالب.

قلت: وأراك تبصق بصاقا مجتمعًا، وأنا أطلب قليل الريق في فمي فلا أجد.

قال: يا داود ذاك لقوة جاشي واجتماع لبي عند الحرب، وعدم ريقك لطيش عقلك وافتراق لبك.

قلت: وأنا أيضًا أتعجب من كثرة تقلبك في سرجك، وقلة قرارك عليه!

قال: ذاك مني زَمَعٌ إلى القتال وصرامة فيه، فلا تظنه رعبا، وأنشأ يقول:

أليس أبونا هاشم شد أزره وأوصى بنيه بالطعان وبالضرب

فلسنا نمل الحرب حتى تملنا ولا نشتكي مما يؤول من النصب

وفاة إدريس بن إدريس رحمه الله

قال ابن خلدون:

انتظمت لإدريس بن إدريس كلمة البربر وزناتة ومحى دعوة الخوارج منهم، واقتطع المغربين [١] عن دعوة العباسيين من لدن السوس الأقصى إلى وادي شلف، ودافع إبراهيم بن الأغلب [٢] عن حماه بعد ما ضايقه بالمكايد واستفساد الأولياء حتى قتلوا راشدًا مولاه وارتاب إدريس بالبربر فصالح ابن الأغلب وضرب السكة باسمه.

وعجز الأغالبة بعد ذلك عن مدافعة هؤلاء الأدارسة، ودافعوا خلفاء بني العباس بالمعاذير الباطلة، وصفا ملك المغرب لإدريس واستمر بدار ملكه من فاس ساكنًا وادعًا مقتعدًا أريكته، مجتنيًا ثمرته إلى أن توفاه الله ثاني جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة ومائتين، وعمره نحو ست وثلاثين سنة، ودفن بمسجده بإزاء الحائط الشرقي منه.

---

(١) قلت: أي المغرب والجزائر.

(٢) قلت: هو والي العباسيين على تونس، وصاحب دولة الأغالبة.

وكان سبب وفاته أنه أكل عنبًا فشرق بحبة منه فمات لحينه، وخلف من الولد اثني عشر ذكرًا، وولي الأمر منهم بعده محمد وهو أكبرهم.

الخبر عن دولة محمد بن إدريس رحمه الله

لَمَّا تُوفي إدريس بن إدريس ـ رحمه الله ـ قام بالأمر بعده ابنه محمد بعهد منه إليه، ولما ولي قسم بلاد المغرب بين إخوته ـ وذلك بإشارة جدته كنزة أم إدريس ـ فاختص القاسم منها بطنجة وسبتة وقصر مصمودة وقلعة حجر النسر وتطوان وما انضم إلى ذلك من القبائل والبلاد.

واختص عمر منها بتيكساس وترغة وما بينهما من قبائل صنهاجة وغمارة.

واختص داود ببلاد هوارة وتسول وتازا وما بين ذلك من قبائل مكناسة وغياثة.

واختص يحيى بأصيلا والعرايش وبلاد ورغة وما والى ذلك.

واختص عيسى بسلا وشالة وآزمور وتامسنا وما انضم إلى ذلك من القبائل.

واختص حمزة بمدينة وليلى وأعمالها.

واختص أحمد بمدينة مكناسة ومدينة تادلا وما بينهما من بلاد فازاز.

واختص عبد الله بأغمات وبلد نفيس وجبال المصامدة وبلاد لمطة والسوس الأقصى.

وأبقى الآخرين في كفالته وكفالة جدتهم كنزة لصغرهم.

وبقيت تلمسان لولد عمه سليمان بن عبد الله، فإن إدريس بن إدريس لما غزا تلمسان وأقام بها ثلاث سنين كما سبق ودوخ بلاد زناتة واستوسقت له طاعتهم عقد عليها لبني عمه سليمان بن عبد الله، فلما توفي إدريس واقتسم بنوه أعمال المغرب كانت تلمسان في سهم عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان بن عبد الله واستمرت بأيديهم إلى أن تلاشى أمرهم بدخول العبيديين عليهم، قاله ابن خلدون.

وأقام محمد بن إدريس بدار مكة من فاس مقتعدًا على أريكته، وإخوته ولاة على بلاد المغرب قد ضبطوا أعمالها وسدوا ثغورها وأمنوا سبلها وحسنت سيرتهم في ذلك إلى أن كان ما نذكره.

حدوث الفتنة بين بني إدريس

ثم خرج على محمد بن إدريس أخوه عيسى بمدينة آزمور ونبذ طاعته وطلب الأمر لنفسه، فكتب محمد إلى أخيه القاسم صاحب طنجة يأمره بحرب عيسى فامتنع من ذلك، فكتب محمد إلى أخيه عمر صاحب تيكساس بمثل ما كتب به إلى القاسم فامتثل أمره وزحف إلى عيسى في قبائل البربر وأمده محمد بألف فارس من زناتة فأوقع عمر بعيسى وهزمه وطرده عن عمله، وكتب إلى الأمير محمد بالفتح، فشكره على ذلك وولاه على ما فتحه من عمل عيسى، وأمره مع ذلك بالمسير إلى قتال القاسم الذي عصى أمره أولاً، فزحف عمر إلى القاسم ونزل عليه بظاهر طنجة فخرج إليه القاسم ودارت بينهما حرب شديدة هزم فيها القاسم واستولى عمر على ما بيده من البلاد، فصار الريف البحري كله في عمل عمر من تيكيساس وبلاد غمارة إلى سبتة ثم إلى طنجة وهـٰذا ساحل البحر الرومي، ثم ينعطف إلى آصيلا والعرايش ثم إلى سلا ثم آزمور وبلاد تامسنا وهـٰذا ساحل البحر المحيط، وتزهد القاسم بعد هـٰذه الحرب فبنى مسجداً بساحل البحر قرب آصيلا بموضع يعرف بتاهدرات على ضفة النهر هناك، وأعرض عن الدنيا وأقام يعبد الله إلى أن مات رحمه الله.

واتسعت ولاية عمر بن إدريس وخلصت طويته لأخيه محمد الأمير إلى أن توفي عمر بموضع يعرف بفج الفرس من بلاد صنهاجة في دولة أخيه محمد سنة عشرين ومائتين، فحمل إلى فاس وصلى عليه الأمير محمد ودفن مع أبيه (وعمر هـٰذا هو جد الأشراف الحموديين المالكين للأندلس بعد بني أمية).

وعقد الأمير محمد على عمله لولده عليّ بن عمر، إلى أن كان من أمره ما نذكره.

وفاة محمد بن إدريس رحمه الله

وأقام الأمير محمد بن إدريس بعد وفاة أخيه عمر سبعة أشهر وتوفي بمدينة فاس في ربيع الثاني سنة إحدى وعشرين ومائتين، ودفن بشرقي جامعها مع أبيه وأخيه بعد أن عهد بالأمر لابنه علي بن محمد المعروف بحيدرة على ما سيأتي.

الخبر عن دولة علي بن محمد بن إدريس

لَمَّا توفي محمد بن إدريس بايع الناس لابنه علي بن محمد بعهد منه إليه ويلقب علي هـذا بحيدرة على لقب علي بن أبي طالب ﷺ وهو جد الأشراف العلميين، أهل جبل العلم ومنهم المشيشيون أولاد مولانا عبد السلام بن مشيش ﷺ، والوزانيون أولاد مولانا عبد الله الشريف، وينتهي نسب هـؤلاء إلى المولى يملح بن مشيش أخي المولى عبد السلام بن مشيش.

وكان سن علي حيدرة يوم بويع تسع سنين وأربعة أشهر فقام بأمره الأولياء والحاشية من العرب والبربر، وأحسنوا كفالته وطاعته، وكانت أيامه خير أيام.

وقال ابن أبي زرع: ظهر لعلي هـذا من الذكاء والفضل ما يقتضيه شرفه، وسار بسيرة أبيه وجده في العدل، فكان الناس في أيامه في أمن ودعة، إلى أن توفي في شهر رجب سنة أربع وثلاثين ومائتين، وعهد بالأمر لأخيه يحيى بن محمد على ما سيأتي.

الخبر عن دولة يحيى بن محمد بن إدريس

قال ابن خلدون: «قام يحيى بن محمد بن إدريس بالأمر وامتد سلطانه وعظمت دولته وحسنت آثار أيامه، واستبحر عمران فاس وبنيت بها الحمامات والفنادق للتجار وبنيت خارجها الأرباض، ورحل إليها الناس من الثغور القاصية».

وقال ابن أبي زرع: «قصد إليها الناس من الأندلس وإفريقية وجميع بلاد المغرب».

بناء مسجد القرويين بفاس

قال ابن أبي زرع:

كان موضع مسجد القرويين أرضًا بيضاء لرجل من هوارة كان والده قد حازها أيام بناء فاس، ولما قدم وفد القيروان على إدريس الأصغر ـ حسبما تقدم ـ كان فيهم امرأة اسمها فاطمة بنت محمد الفهري ـ وتكنى أم البنين ـ فنزلت في أهل بيتها

بالقرب من موضع المسجد المذكور، ثم مات زوجها وإخوتها فورثت منهم مالاً جسيمًا وكان من حلال، فأرادت أن تنفقه في وجوه الخير وكانت لها نية صالحة فعزمت على بناء مسجد تجد ثوابه عند الله، فاشترت البقعة من ربها، وشرعت في حفر أساس المسجد وبناء جدرانه، وذلك يوم السبت فاتح رمضان المعظم سنة خمس وأربعين ومائتين.

[٢٩] وكانت الطريقة التي سلكتها في بنائه أنها التزمت أن تأخذ التراب وغيره من مادة البناء من نفس البقعة دون غيرها مما هو خارج عن مساحتها، فحفرت في أعماقها كهوفًا وجعلت تستخرج منها التراب الجيد والحجر وتبني به، وأنبطت بها بئرًا يستقى منها الماء للبناء والشرب وغير ذلك، وكان ذلك كله تحريًا منها ألَّا تدخل في بناء المسجد شبهة، فعادت بركة نيتها وورعها على المسجد المذكور حتى كان منه ما ترى.

قالوا: ولم تزل فاطمة المذكورة صائمة من يوم شُرِع في بنائه إلى أن تم وصلّت فيه شكرًا لله تعالى.

الخبر عن دولة يحيى بن يحيى بن محمد بن إدريس

[٣٠] لَمَّا توفي يحيى بن محمد الذي بنى مسجد القرويين في أيامه وولي الأمر من بعده ابنه يحيى بن يحيى بن محمد بن إدريس، فأساء السيرة وكثر عيثه في الحُرَم، ودخل على جارية من بنات اليهود في الحمام - وكانت بارعة في الجمال - فراودها عن نفسها فاستغاثت، وبادر الناس إليها بالإنكار وثابت العامة عليه، وتولى كبر ذلك عبد الرحمن بن أبي سهل الجذامي، وكانت زوجة يحيى المذكور - وهي عاتكة بنت علي بن عمر بن إدريس صاحب الريف والسواحل - أشارت عليه بالاختفاء ريثما تسكن الفتنة، فتوارى بها فمات من ليلته أسفًا على ما صنع بنفسه وما وقع فيه من العار.

واستولى عبد الرحمن بن أبي سهل على فاس وقام بأمرها، فكتبت عاتكة بنت علي إلى أبيها تعلمه بالخبر، واستدعاه مع ذلك أهل الدولة من العرب والبربر والموالي فجمع حشمه وجيشه وجاء إلى فاس فاستولى عليها.

وانقطع الملك من عقب محمد بن إدريس وصار بعد هذا تارة يكون في عقب عمر بن إدريس صاحب الريف، وتارة يكون في عقب القاسم بن إدريس الزاهد على ما نذكره.

الخبر عن دولة علي بن عمر بن إدريس

[٣١] لما دخل علي بن عمر مدينة فاس واستقر بها بايعه الناس ودخلت الكافة في طاعته وخُطب له على جميع منابر المغرب، واستقام له الأمر إلى أن ثار عليه عبدالرزاق الفهري ـ وكان من الخوارج الصفرية وأصله من وشقة بلد بالأندلس ـ فقام بجبال مديونة من أعمال فاس على مسيرة يوم ونصف منها، فتبعه خلق كثير من البربر من مديونة وغياثة وغيرهم، فبنى قلعة منيعة ببعض جبال مديونة وسماها وشقه باسم بلده. قال ابن أبي زرع: «وهي باقية بتلك الناحية حتى الآن».

ثم زحف إلى قرية صفرون (١) فدخلها وبايعه كافة البربر الصفرونية ثم زحف بهم إلى فاس فخرج إليه علي بن عمر بن إدريس في عسكر ضخم فكانت بينهم حرب شديدة كان الظفر في آخرها لعبد الرزاق، فانهزم علي بن عمر وقتل خلق كثير من جنده وفر بنفسه إلى بلاد أوربة، فدخل عبد الرزاق مدينة فاس وملك عدوة الأندلس وخطب له بها، وامتنع منه أهل عدوة القرويين وبعثوا إلى يحيى بن القاسم الزاهد وكان ما نذكره.

الخبر عن دولة يحيى بن القاسم بن إدريس

لَمَّا فر علي بن عمر عن فاس واستولى عبد الرزاق الصفري على عدوة الأندلس بعث أهل فاس إلى يحيى بن القاسم بن إدريس ـ ويعرف يحيى هذا بالعداء ـ فوصل إليهم فبايعوه وولوه على أنفسهم.

ولما استقل يحيى بن القاسم بالأمر قاتل عبد الرزاق حتى أخرجه من عدوة الأندلس فدخلها وبايعه أهلها وجميع من نزل بها من أهل الأندلس.

وخرج الأمير يحيى بن القاسم إلى قتال الصفرية، فكانت له معهم حروب

---

(١) قال المحقق: هي مدينة صفرو الموجودة اليوم، وبينها وبين فاس ثلاثون كيلو.

ووقائع كثيرة ولم يزل أميراً على فاس وأعمالها إلى أن اغتاله الربيع بن سليمان سنة اثنتين وتسعين ومائتين.

الخبر عن دولة يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس

ولي الأمر من بعده يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس، فبايعه أهل عدوة فاس وخطب له بهما، وامتد ملكه على جميع أعمال المغرب، وخطب له على سائر منابره.

وكان يحيى هذا واسطة عقد البيت الإدريسي: أعلاهم قدراً، وأبعدهم ذكراً، وأكثرهم عدلاً، وأغزرهم فضلاً، وأوسعهم ملكًا، وكان فقيهًا حافظًا للحديث ذا فصاحة وبيان، بطلاً شجاعًا حازمًا ذا صلاح ودين وورع.

قال ابن خلدون: لم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه في الدولة والسلطان إلى أن طما على ملكه عباب العبيديين القائمين بإفريقية فأغرقه.

[٣٢] استيلاء العبيديين من الشيعة(١) على المغرب الأقصى وقدوم قائدهم مصالة بن حبوس إلى فاس

قد قدمنا عند ذكر ولاة المغرب أن إبراهيم بن الأغلب كان آخرهم، وأنه أورث بإفريقية ملكًا لبنيه فاستمرت دولتهم بها إلى أواخر المائة الثالثة، وانقرضت على يد أبي عبد الله المحتسب داعية العبيديين من الشيعة، فإن المحتسب حج في بعض السنين واجتمع بمكة بحجاج كتامة من أهل المغرب فتعرف إليهم، ووعدهم بظهور المهدي من آل البيت على يدهم، ويكون لهم به الملك والسلطان، فتبعوه على رأيه وصحبهم إلى بلادهم، ورأس فيهم رئاسة دينية، وقرر لهم مذهب الشيعة فاتبعوه وتمسكوا به، ثم بايعوا مولاه عبيد الله المهدي أول خلفاء العبيديين فاستولى على إفريقية في خبر طويل.

ثم سمت همته إلى تملك المغرب الأقصى فأغزاه قائده مصالة بن حبوس

(١) قلت: هم اللذين يسمون زوراً وبهتانًا بالفاطميين.

المكناسي صاحب تاهرت والمغرب الأوسط، فزحف مصالة إلى المغرب الأقصى سنة خمس وثلاثمائة وانتهى إلى فاس فبرز إليه يحيى بن إدريس لمدافعته في جموع العرب والبربر والموالي، والتقوا بقرب مكناسة فانهزم يحيى وعاد مفلولاً إلى فاس، ثم تقدم مصالة إلى فاس وحاصرها إلى أن صالحه يحيى على مال يؤديه إليه، وعلى البيعة لعبيد الله المهدي فقبل يحيى الشرط وخرج عن الأمر وأنفذ بيعته إلى المهدي وأبقى عليه مصالة في سكنى فاس وعقد له على عملها خاصة، وعقد لابن عمه موسى بن أبي العافية المكناسي على ما سوى ذلك من بلاد المغرب.

وكان موسى هذا صاحب تسول وبلاد تازا، وكان كبير مكناسة بالمغرب الأقصى على الإطلاق، وكان قد خدم مصالة حين قدم المغرب وتعرف إليه وهاداه وقاتل معه في جميع حروبه بالمغرب، فحسنت منزلته لديه وولاه بلاد المغرب كلها عدا فاسا وأعمالها فإنه تركها للأمير يحيى كما قلنا.

[٣٣]وصار المغرب الأقصى في ملكة العبيديين، واندرجت دولة الأدراسة في دولتهم، فكان موسى بن أبي العافية بعد ذهاب مصالة كلما أراد الظهور بالمغرب والاستبداد به غمره يحيى بن إدريس بحسبه ونسبه وفضله ودينه، فقطع به كلما كان يريده فكان على قلب موسى منه حمل ثقيل، فلما قدم مصالة المغرب في كرته الثانية ـ وذلك سنة تسع وثلاثمائة ـ سعى موسى بن أبي العافية عنده بيحيى بن إدريس حتى أوغر صدره عليه، فلما قرب مصالة من فاس خرج إليه يحيى للقائه والسلام عليه في جماعة من وجوه دولته، فقبض مصالة عليهم وقيد يحيى بالحديد وتقدم إلى فاس فدخلها ويحيى بين يديه موثقًا على جمل، ثم عذبه بأنواع العذاب حتى استصفى أمواله وذخائره، ثم نفاه إلى نواحي آصيلا وقد ساءت حاله وانفض جمعه.

فأقام عند بني عمه ببلاد الريف مدة فأعطوه مالاً ووصلوه بما يقيم به أَوَدَه ويستعين به على أمره، فلم يرض ذلك وارتحل عنهم يريد إفريقية فعرض له موسى بن أبي العافية في طريقة فقبض عليه وسجنه بمدينة آلكاي قريبًا من عشرين سنة ثم أطلقه بعد ذلك، قالوا: وكان أبوه إدريس بن عمر قد دعا عليه أن يميته الله جائعًا غريبًا، فاستجيب له فيه، فخرج يحيى من سجن ابن أبي العافية إلى إفريقية وهو في

فقر وذلة قد بلغ سوء الحال منه كل مبلغ، فوصل إلى المهدية على تلك الحال، فمات بها جائعاً غريباً سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة رحمه الله.

عود المغرب الأقصى إلى الأدارسة وظهور الحسن الحجام بن محمد بن القاسم بن إدريس

لَمَّا قبض مصالة على يحيى بن إدريس واستصفى أمواله ـ كما قلنا ـ استعمل على فاس ريحان الكتامي وعاد إلى القيروان، فأقام ريحان عاملاً على فاس وأحوازها نحو ثلاثة أشهر، وثار عليه الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس المعروف بالحجام، وعُرف بذلك لأنه كان بينه وبين عمه أحمد بن القاسم بن إدريس حرب فحمل الحسن على فارس من أصحاب عمه فطعنه في موضع المحاجم، ثم فعل ذلك بثان وثالث لا يطعنهم إلا في موضع المحاجم! فقال عمه أحمد: إن ابن أخي لحجام، فلزمه ذلك اللقب.

وكانت ثورة الحجام على ريحان سنة عشر وثلاثمائة، أتى إلى فاس في جمع من شيعته وأنصاره وكان مقداما شجاعًا فدخلها على حين غفلة من أهلها فاستولى عليها وقتل ريحان وقيل نفاه عنها، واجتمع الناس على بيعته ودخل في طاعته أكثر قبائل البربر بالمغرب، وملك عدة مدن مثل مدينة لواتة وصفرون ومدين ومدائن مكناسة، واستقام له الأمر بالمغرب إلى أن كان منه مع موسى بن أبي العافية ما نذكره.

خروج الحسن الحجام إلى قتال موسى بن أبي العافية

قال في القرطاس: وفي سنة إحدى عشرة وثلاثمائة خرج الأمير الحسن الحجام إلى قتال موسى بن أبي العافية، فالتقى معه بفحص الزاد على مقربة من وادي المطاحن ما بين فاس وتازا، فأوقع الحجام بابن أبي العافية وقعة عظيمة لم يقع في دولة الأدارسة مثلها، قتل فيها من عسكر ابن أبي العافية نحو ألفين وثلاثمائة من جملتهم ابنه منهال بن موسى بن أبي العافية، وقتل من عسكر الحجام نحو السبعمائة.

[٣٤] ثم كانت العاقبة لموسى على الحجام فانفض عسكر الحجام وعاد مفلولاً إلى فاس، فعجل الحجام ودخل فاسًا وحده وترك عسكره خارج المدينة فغدر به عامله عليها حامد بن حمدان الهمداني، ويقال الأوربي من قرى إفريقية: دخل عليه ليلاً في داره فقيده وأخذه إليه وأغلق المدينة في وجه الجند، وطَيّر إلى موسى بن أبي العافية يستدعيه إلى فاس وكان ما نذكره.

الخبر عن دولة آل أبي العافية المكناسيين الناسخة لدولة آل إدريس بفاس وأعمالها

كان موسى بن أبي العافية متمسكًا في هذه المدة بدعوة العبيديين من الشيعة، فلما قبض حامد بن حمدان على الحسن الحجام واستدعى ابن أبي العافية بادر نحوه فدخل عدوة القرويين واستولى عليها، ثم قاتل أهل عدوة الأندلس حتى ملكها، فلما ملك المدينتين معًا طالب حامد بن حمدان بإحضار الحسن الحجام وقال أقتله بولدي منهال.

وكان حامد قد ندم على فعلته تلك، فدافع موسى وَسوّفه وكره المجاهرة بسفك دماء آل البيت، ولما جن الليل خالف حامد إلى الحسن ففك عنه قيده وأرسله فتدلى الحسن من السور فسقط وانكسرت ساقه فتحامل حتى انتهى إلى عدوة الأندلس فاختفى بها إلى أن مات لمضي ثلاث من سقطته -رحمه الله- وذلك سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة، وأراد ابن أبي العافية قتل حامد بن حمدان لعدم تمكينه إياه من الحجام ففر إلى المهدية وكانت دولة الحسن الحجام بفاس نحو سنتين.

وانقرضت دولة آل إدريس من فاس وأعمالها وتداول المغرب الأقصى العبيديون أصحاب إفريقية والمروانيون أصحاب الأندلس، مرة لهؤلاء ومرة لهؤلاء، وتجددت للأدارسة دولة أخرى ببلاد الريف نذكرها عن قريب إن شاء الله.

وصفت فاس وأعمالها لابن أبي العافية وملك معها كثيرًا من أعمال المغرب وبايعته القبائل والأشياخ، وهو في ذلك كله متمسك بدعوة الشيعة كما قلنا فكان كالنائب عنهم بالمغرب، والله غالب على أمره.

طرد موسى بن أبي العافية آل إدريس

من أعمال المغرب وحصره إياهم بحجر النسر

لَمَّا استولى موسى بن أبي العافية على فاس والمغرب شمر لطرد الأدارسة عنه فأخرجهم من ديارهم وأجلاهم عن بلادهم من شالة وآصيلا وغيرهما من البلاد التي كانت في أيديهم، ولجأوا بأجمعهم إلى قلعة حجر النسر مغلوبين على ملكهم مطرودين عن دار عزهم التي أسسها سلفهم.

[٣٥] وكانت قلعة حجر النسر حصنًا منيعًا بناه محمد بن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس، شامخًا في عنان السحاب، فنزل عليهم موسى بن أبي العافية وشدد عليهم الحصار وأراد استئصالهم وقطع دابرهم، فعذله على ذلك أكابر دولته، وقالوا له: أتريد أن تقطع دابر أهل البيت من المغرب وتخليه منهم، هذا الشيء لا نوافقك عليه، ولا نتركك له، فاستحيا عند ذلك وارتحل عنهم إلى فاس، وخلف على حصارهم قائده أبا الفتح التسولي في ألف فارس، يمنعهم من التصرف، وكان ذلك سنة سبع عشرة وثلاثمائة.

استيلاء موسى بن أبي العافية على تلمسان وأعمالها

لَمَّا ارتحل موسى بن أبي العافية عن حجر النسر سار إلى فاس فأقام بها أيامًا، واستعمل موسى على المغرب الأقصى ولده مدين بن موسى بن أبي العافية، وأنزله بعدوة القرويين، ثم نهض إلى تلمسان سنة تسع عشرة وثلاثمائة فملكها وأعمالها.

ثم عاد إلى فاس وقد دوخ البلاد والأقطار، وانتظم المغربان الأقصى والأوسط في ملكه.

انحراف موسى بن أبي العافية

عن الشيعة إلى بني مروان، وما نشأ عن ذلك

كان عبد الرحمن الناصر الأموي صاحب الأندلس قد سما له أمل في التملك على المغرب الأقصى، لما بلغه من تراجع أمر بني إدريس به وإشراف دولتهم على

الهرم، فملك سبتة من يد بني عصام القائمين بها بالدعوة الإدريسية.

ولما استولى موسى بن أبي العافية على المغرب خاطبه الناصر في القيام بدعوته ووعده الجميل على ذلك، وأتاه من بين يديه ومن خلفه حتى أجابه إلى مراده، ونقض طاعة الشيعة وخطب للناصر على منابر عمله، فاتصل الخبر بعبيد الله المهدي صاحب إفريقية، فسرح إليه قائده حميد بن يصليتن المكناسي صاحب تاهرت في عشرة آلاف فارس - وهو ابن أخي مصالة بن حبوس المقدم الذكر - فالتقى حميد وموسى فانهزم موسى وأصحابه.

وتقدم حميد إلى فاس فلما شارفها فرّ عنها مدين بن موسى ولحق بأبيه فدخلها حميد واستعمل عليها حامد بن حمدان الهمداني - وكان في جملته - ثم عاد إلى إفريقية وقد قضى أربه من المغرب وكان ذلك سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة.

ولما اتصل ببني إدريس المحصورين بحجر النسر خبر هزيمة موسى بن أبي العافية وفرار ابنه عن فاس وولاية حامد بن حمدان عليها قويت نفوسهم، وتظاهروا على أبي الفتح التسولي، فنزلوا إليه وقاتلوه وهزموه ونهبوا معسكره وخرجوا إلى الفضاء بعد انحصارهم بالقلعة المذكورة أربع سنين.

ثورة أحمد بن بكر الجذامي بدعوة المروانيين بفاس، وما نشأ عن ذلك

وأقام حامد بن حمدان واليًا على فاس من قبل الشيعة إلى أن ثار عليه أحمد بن بكر بن عبد الرحمن بن سهل الجذامي، وذلك عقب وفاة عبيد الله المهدي سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة فقتل حامد بن حمدان وبعث برأسه وبولده إلى موسى بن أبي العافية، فبعث به موسى إلى عبد الرحمن الناصر بقرطبة، واستولى على المغرب وعادت الدعوة به إلى بني مروان.

ولما اتصل الخبر بصاحب إفريقية أبي القاسم بن عبيد الله المهدي - المتولي بعد أبيه - سرح قائده ميسوراً الخصي إلى المغرب، فقدمه ميسور سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة وخام [1] ابن أبي العافية عن لقائه واعتصم بحصن آلكاي.

---

(١) قلت: أي جبن وتراجع.

وتقدم ميسور إلى فاس فحاصرها أيامًا إلى أن خرج إليه أحمد بن بكر مبايعًا، وقدم بين يديه هدية نفيسة ومالاً جليلاً، فقبض ميسور الهدية والمال، ثم تقبض على أحمد بن بكر وقيده وبعث به إلى المهدية.

ولما نذر أهل فاس بغدره امتنعوا عليه وأغلقوا أبوابهم دونه، وقدموا على أنفسهم حسن بن قاسم اللواتي، فحاصرهم ميسور سبعة أشهر، ولما طال عليهم الحصار رغبوا في السلم فصالحهم على أن أعطوه ستة آلاف دينار وأنطاعًا ولبودًا [1] وقِربًا للماء وأثاثًا، وكتبوا بيعتهم إلى أبي القاسم الشيعي وكتبوا اسمه في سكتهم وخطبوا له على منابرهم، فقبل ميسور ذلك منهم، وأقر عليهم حسن بن قاسم اللواتي، وارتحل عنهم، واستمر حسن عاملاً على فاس إلى أن قدم أحمد بن بكر من المهدية مطلقًا مكرمًا، فتخلى له عن ما كان بيده، وذلك في سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة، فكانت ولاية حسن بن القاسم على فاس ثمان عشرة سنة.

حرب ميسور مع موسى بن أبي العافية

لَمَّا صالح ميسور أهل فاس نهض إلى حرب ابن أبي العافية فدارت بينهم حروب كان الظهور في آخرها لميسور، وأسر البوري بن موسى بن أبي العافية وغربه إلى المهدية، وطرد موسى على أعمال المغرب إلى نواحي ملوية ووطاط وما وراءها من بلاد الصحراء ثم قفل إلى القيروان.

وقال ابن أبي زرع في كتاب القرطاس: «إن بني إدريس تولوا معظم الحروب التي دارت بين ميسور وبين ابن أبي العافية، وإنهم قاتلوا ابن أبي العافية حتى فر أمامهم إلى الصحراء».

قال: «وتملك الأدارسة أكثر ما كان بيد ابن أبي العافية قائمين بدعوة الشيعة، فلم يزل ابن أبي العافية شريدًا في الصحراء وأطراف البلاد التي بقيت بيده، وذلك من مدينة آكرسيف إلى مدينة نكور إلى أن قتل ببعض بلاد ملوية، وذلك سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة.

---

(١) قلت: الانطاع هي الجلود، واللبود: الصوف.

بقية أخبار آل أبي العافية بالمغرب

قال ابن أبي زرع: «لما هلك موسى بن أبي العافية ولي بعده ابنه ابراهيم إلى أن توفي سنة خمسين وثلاثمائة، فولي بعده ابنه عبد الله ويقال عبد الرحمن بن إبراهيم بن موسى بن ابي العافية إلى أن توفي سنة ستين وثلاثمائة، فولي عمله من بعده ابنه محمد وعليه انقرضت دولة آل أبي العافية سنة ثلاث وستين وثلاثمائة.

وذكر بعض المؤرخين لأيامهم «أنه لما توفي محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن موسى بن أبي العافية ولي بعده ابنه القاسم بن محمد المحارب للمتونة، فكانت بينه وبينهم حروب إلى أن غلب عليه يوسف بن تاشفين فقتله واستأصل شافة ذرية موسى بن أبي العافية بالمغرب، وكانت دولتهم مائة وأربعين سنة من سنة خمس وثلاثين إلى سنة خمس وأربعين وأربعمائة» اهـ ولكن دولتهم بفاس انتهت إلى قدوم ميسور الخصي ـ كما مر ـ وبقيت رياستهم بالأطراف إلى دولة اللمتونيين، والله أعلم.

الخبر عن الدولة الثانية للأدارسة ببلاد الريف

هذه الدولة التي كانت للأدارسة ببلاد الريف لم تكن لهم على سبيل الاستقلال والاستبداد كما كانت لهم أولاً بفاس والمغرب، إنما كانوا فيها تحت نظر المتغلب على بلاد المغرب إما من الشيعة أصحاب إفريقية، وإما من المروانيين أصحاب الأندلس.

واعلم أنا قد قدمنا أن بني إدريس كانوا قد اقتسموا أعمال المغرب بعد وفاة أبيهم إدريس ـ رحمه الله ـ وذلك بإشارة جدتهم كنزة، وأن بلاد الريف منها كانت في سهم عمر بن إدريس وأنه قاتل أخويه عيسى والقاسم، وأضاف أعمالهما إلى عمله، فبقيت بلاد الريف بيد بني عمر بن إدريس يتوارثونها خلفاً عن سلف، فلما انقرضت دولة آل إدريس بفاس على يد موسى بن أبي العافية انحازوا إلى بني عمهم وعشيرتهم ببلاد الريف وتحصنوا بقلعة حجر النسر كما سبق.

ولما قدم ميسور الخصي من إفريقية وأجلىٰ موسىٰ بن أبي العافية إلىٰ الصحراء، أقام بنو إدريس بريفهم يتداولون رياسته تحت نظر الشيعة تارة، وتحت نظر المروانيين أخرىٰ، إلىٰ أن انقرضت دولتهم وذهبت رياستهم من المغرب بالكلية، والله غالب علىٰ أمره.

الخبر عن رياسة القاسم كنون بن محمد بن القاسم بن إدريس

لَمَّا فر موسىٰ بن أبي العافية أمام القائد ميسور إلىٰ الصحراء صارت الرياسة في المغرب بعده لابني محمد بن القاسم بن إدريس، وهما: القاسم الملقب بكنون، وشقيقه إبراهيم، وهما معا أخوان للحسن الحجام الذي تقدم ذكره، فاجتمع بنو إدريس وبايعوا القاسم المذكور، فملك أكثر بلاد المغرب إلا فاسًا فإنه لم يملكها، وكان سكناه بقلعة حجر النسر، واستمر علىٰ إمارته مقيمًا لدعوة الشيعة إلىٰ أن توفي سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة فولي بعده ابنه أبو العيش.

الخبر عن دولة أبي العيش أحمد بن القاسم كنون

كان أبو العيش هـٰذا فقيهًا ورعًا، حافظًا للسير، عارفًا بأخبار الملوك وأيام الناس وأنساب قبائل العرب والبربر، شجاعًا جوادًا، وكان يعرف في بني إدريس بأحمد الفاضل، وكان مائلاً إلىٰ بني مروان.

ولما ولي بعد أبيه قطع دعوة العبيديين في جميع عمله، وبايع لعبد الرحمـٰن الناصر صاحب الأندلس وخطب له علىٰ جميع منابر عمله، وبايع أبا العيش كافة أهل المغرب إلىٰ سجلماسة.

[٣٦] وكان السواد الأعظم من أهل المغرب الأقصىٰ لهم محبة من جانب آل إدريس وإيثار لهم لا يبغون بهم بدلاً مهما وجدوا إلىٰ ذلك سبيلاً.

تغلب عبد الرحمن الناصر على بلاد المغرب ومضايقته لأبي العيش بها.

لما بايع أبو العيش لعبد الرحمـٰن الناصر وخطب له اقترح عليه أن ينزل له عن

طنجة ليضيفها إلى سبتة التي كان استولى عليها من قبل، فامتنع أبو العيش من ذلك فبعث إليه الناصر بالأسطول والمقاتلة، فحاصره وضيق عليه، ولما رأى أبو العيش أنه لا طاقة له بحربه أجابه إلى ما سأل ونزل له عن طنجة.

وبقي أبو العيش مع إخوته وبني عمه من الأدارسة بمدينة البصرة وآصيلا تحت بيعة الناصر وفي كنفه متمسكين بدعوته، وكانت قواد الناصر وجيوشه تجيز من الأندلس إلى العدوة، يقاتلون من خالف الأدارسة من البربر ويستألفونهم، والناصر يمد لمن عجز منهم برجاله، مقوٍّ لمن ضعف بماله، حتى ملك أكثر بلاد المغرب وبايعته قبائله من زناتة والبربر، وخطب له على منابره من تاهرت إلى طنجة - ما عدا سجلماسة - فإنه قام بها في ذلك الوقت منادر البربري.

وبايع الناصر أهل فاس فيمن بايعه من بلاد العدوة فولى عليهم محمد بن الخير المغراوي، وكان من أبسط ملوك زناتة يداً وأعظمهم شأناً وأحسنهم إلى ملوك بني أمية انحياشاً وأخلصهم طوية.

[٣٧] فأقام محمد بن الخير والياً على مدينتي فاس نحو سنة وارتحل عنها إلى الأندلس برسم الجهاد، واستخلف عليها ابن عمه أحمد بن أبي بكر بن أحمد بن عثمان بن سعيد الزناتي.

[٣٨] هجرة أبي العيش إلى الأندلس بقصد الجهاد

لَمَّا رأى أبو العيش غلبة الناصر على بلاد العدوة هانت عليه رياستها، فكتب إليه بقرطبة يستأذنه في الجهاد فأذن له، وأمر أن يُبنى له في كل منزل ينزله قصراً - وذلك من الجزيرة الخضراء إلى الثغر - وأن يجري له فيها ألف دينار في كل يوم ضيافة له، ومن الفرش والأثاث والطعام والشراب ما يقوم بالقصر، فلم يزل على ذلك حتى وصل إلى الثغر فكانت منازله من الجزيرة إلى الثغر ثلاثين منزلاً ومات أبو العيش - رحمه الله - شهيداً في جهاد الفرنج سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة.

الخبر عن دولة الحسن بن كنون

لَمَّا خرج أبو العيش من الأندلس برسم الجهاد استخلف على عمله أخاه الحسن ابن كنون، وهو القاسم بن محمد بن القاسم بن إدريس، وهو آخر ملوك الأدارسة

بالمغرب، ولم يزل مواليًا للمروانيين متمسكا بدعوتهم إلى أن كان ما نذكره.

[٣٩] قدوم القائد جوهر الشيعي من إفريقيا إلى المغرب واستيلاؤه عليه

لَمَّا اتصل بخليفة الشيعة ـ وهو المعز لدين الله معد بن إسماعيل العبيدي ـ غلبة الناصر على بلاد العدوة وأن جميع من بها من قبائل زناتة والبربر رفضوا دعوتهم ودخلوا في دعوة بني أمية عظم الأمر عليه، وبعث قائده جوهر بن عبد الله الرومي ـ المعروف بالكاتب (١) ـ في جيش كثيف يشتمل على عشرين ألف فارس من قبائل كتامة وصنهاجة وغيرهم، وأمره أن يطأ بلاد المغرب ويذللها ويستنزل من بها من الثوار ويشد وطأته عليهم.

فخرج جوهر من القيروان سنة سبع وأربعين وثلاثمائة يؤم بلاد المغرب فاتصل خبره بيعلى بن محمد اليفرني صاحب طنجة وخليفة الناصر على بلاد العدوة، فحشد قبائل زناتة ونهض إلى القائد جوهر فكان اللقاء على تاهرت، فالتحمت الحرب بين الفريقين فأخرج القائد جوهر الأموال وبذلها في قواد كتامة فضمنوا له قتل أمير زناتة يعلى بن محمد، فلما اشتد القتال صممت عصابة من قواد كتامة وأنجادها وقصدوا إلى يعلى بن محمد فقتلوه واحتزوا رأسه وأتوا به إلى جوهر فبذل لهم مالاً جليلاً بشارة عليه وبعث بالرأس إلى مولاه المعز فطيف به بالقيروان.

ثم تقدم جوهر إلى سجلماسة، وكان قد قام بها محمد بن الفتح بن ميمون بن مدرار المعروف بالشاكر لله، وكان سنيًا مالكي المذهب قد خالف سلفه في مذهب الصفرية، فنزل عليه جوهر وحاصره بسجلماسة ثم اقتحمها عنوة بالسيف، وأفلت الشاكر ثم عاد بعد يومين أو ثلاثة فدخل سجلماسة متنكراً فعرف وقبض عليه وأتي به إلى جوهر فأوثقه في الحديد وساقه أسيراً بين يديه حتى نزل على فاس بعد أن أفنى حماة الصفرية ورجالها بالسيف.

وكان نزوله على فاس سنة تسع وأربعين وثلاثمائة فحاصرها وأدار بها القتال من كل جهة قريبًا من نصف شهر، ثم اقتحمها عنوة بالسيف على يد زيري بن مناد

(١) قلت: وهو المشهور بجوهر الصقلي فاتح مصر.

الصنهاجي. فإنه تسنم أسوارها ليلاً ودخلها فقتل بها خلقًا كثيراً، وقبض على أميرها أحمد بن أبي بكر الزناتي الذي ولاه الناصر عليها، ونهب المدينة وقتل حماتها وشيوخها وسبى أهلها، وهدم أسوارها وكان الحادث بها عظيمًا، وكان دخول جوهر إياها عنوة يوم الخميس الموفي عشرين من رمضان سنة تسع وأربعين وثلاثمائة.

ثم سار جوهر في بلاد المغرب يقتل أولياء المروانيين ويسبي ويفتح البلاد والمعاقل. وخافته البربر وفرت أمامه قبائلها، فأنفذ الأمر في المغرب الأقصى ثلاثين شهراً وانتهى إلى البحر المحيط وصاد من سمكه وجعله في قلال الماء وأرسله إلى مولاه المعز. ثم انصرف راجعًا بعد أن دوخ البلاد وأثخن فيها وقتل حماتها وقطع دعوة المروانيين منها. وردها إلى العبيديين فخطب لهم على جميع منابر المغرب، وانتهى القائد جوهر إلى المهدية - دار المعز لدين الله - وقد حمل معه أحمد بن أبي بكر اليفرني أمير فاس، وخمسة عشر رجلا من أشياخها، وحمل أيضا محمد بن أبي الفتح أمير سجلماسة، ودخل بهم أسارى بين يديه في أقفاص من خشب على ظهور الجمال وجعل على رؤوسهم قلانس من لبد مستطيلة منبتة بالقرون، فطيف بهم في بلاد إفريقية وأسواق القيروان، ثم ردوا إلى المهدية وحبسوا بها حتى ماتوا في سجنها.

قدوم بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي الشيعي من إفريقيا إلى المغرب

كان الأمير الحسن بن كنون قد بايع العبيديين فيمن بايعهم عند غلبة جوهر على المغرب، فلما انصرف جوهر إلى إفريقية أواخر سنة تسع وأربعين وثلاثمائة نكث الحسن بن كنون بيعة العبيديين وعاد إلى المروانيين فتمسك بدعوة الناصر ثم بدعوة ابنه الحكم المستنصر خوفًا منهم، لا محبة فيهم، لقرب بلاده من بلادهم، وأقام على ذلك إلى أن قدم الأمير بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي من إفريقية إلى المغرب لأخذ ثأر أبيه فقتل زناتة واستأصلهم وملك المغرب بأسره وقطع أيضًا منه دعوة الأمويين، وقتل أولياءهم وأخذ البيعة على جميع أهل المغرب للمعز معد بن

إسماعيل كما فعل جوهر قبله، فكان أول من سارع إلى بيعته ونصرته وقتال أولياء المروانيين معه الحسن بن كنون صاحب مدينة البصرة، وكشف وجهه في ذلك وأعمل فيه جهده فاتصل خبره بالحكم المستنصر فحقد عليه لذلك.

فلما انصرف بلكين بن زيري إلى إفريقية بعث الحكم المستنصر صاحب الأندلس قائده محمد بن القاسم بن طملس في جيش كثيف إلى قتال الحسن بن كنون، فأجاز إليه من الجزيرة الخضراء إلى سبتة في عدد كثير وعدة كاملة، وذلك في شهر ربيع الأول سنة اثنتين وستين وثلاثمائة فزحف الحسن إلى قتاله في قبائل البربر، فكان اللقاء بأحواز طنجة بموضع يعرف بحفص بني مصرخ، فكانت بينهما حرب شديدة قتل فيها محمد بن القاسم قائد الحكم المستنصر وقتل معه خلق كثير من أصحابه، وفر الباقون فدخلوا سبتة وتحصنوا بها وكتبوا إلى الحكم يستغيثون به فبعث إليهم صاحب حروبه غالبًا - مولاه البعيد الصيت المعروف بالشهامة والنجدة والدهاء - وأعطاه الحكم أموالاً جليلة وجيوشًا كثيرة، وعدداً وافرة وأمره بقتال آل إدريس واستنزالهم من معاقلهم، وقال له عند وداعه: يا غالب سر مسير من لا إذن له في الرجوع إلا حيًا منصوراً أو ميتًا معذوراً، ولا تشح بالمال وابسط يدك به يتبعك الناس.

قدوم غالب الأموي إلى المغرب وتغريب آل إدريس إلى الأندلس

ثم خرج غالب من قرطبة في آخر شوال سنة اثنتين وستين وثلاثمائة فاتصل خبر قدومه بالحسن بن كنون، فخاف منه وأخلى مدينة البصرة وحمل منها حرمه وأمواله وذخائره إلى قلعة حجر النسر القريبة من سبتة واتخذها معقلاً يتحصن بها، وأجاز غالب البحر من الجزيرة الخضراء إلى قصر مصمودة، فلقيه الحسن بن كنون هناك في جموع البربر، وقاتله أيامًا وسرب غالب الأموال إلى رؤساء البربر الذين مع الحسن ابن كنون ووعدهم ومناهم، فانفضوا عن الحسن حتى لم يبق معه إلا خاصته ورجاله، فلما رأى ذلك سار إلى حجر النسر فتحصن به، واتبعه غالب فحاصره به

ونزل عليه بجميع جيوشه وقطع عنه المواد، وأمده الحكم بعرب الدولة الذين بالأندلس ورجال الثغور، فوصل المدد إلى غالب غرة المحرم سنة ثلاث وستين وثلاثمائة، فاشتد الحصار على الحسن بن كنون، فطلب من غالب الأمان على نفسه وأهله وماله ورجاله وينزل إليه فيسير معه إلى قرطبة فيكون بها، فأجابه غالب إلى ذلك وعاهده عليه، فنزل الحسن بأهله وماله ورجاله وأسلم الحصن إلى غالب فملكه، واستنزل غالب جميع العلويين الذين بأرض العدوة [1] من معاقلهم وأخرجهم عن أوطانهم ولم يترك بالعدوة رئيساً منهم.

وسار إلى مدينة فاس فملكها واستعمل عليها محمد بن أبي علي بن قشوش بعدوة القرويين، وعبد الكريم بن ثعلبة بعدوة الأندلس، فلم تزل فاس بيد بني أمية إلى أن غلب عليها زيري بن عطية المغراوي.

وانصرف غالب إلى الأندلس، وساق معه الحسن بن كنون وجميع ملوك الأدارسة، وقد وطأ جميع بلاد المغرب وفرق العمال في نواحيه وقطع دعوة بني عبيد من جميع آفاقه ورد الدعوة إلى الأموية، فخرج بهم غالب من فاس آخر رمضان سنة ثلاث وستين وثلاثمائة ووصل إلى سبتة فركب البحر منها واستقر بالخضراء.

وكتب إلى مولاه الحكم المستنصر بالله يعلمه بقدومه وبمن قدم معه من العلويين، فلما وصل كتابه إلى الحكم أمر الناس بالخروج إلى لقائهم وركب هو في جمع عظيم من وجوه دولته، فتلقاهم فكان يوم دخولهم قرطبة يوماً مشهوداً، وذلك أول يوم من المحرم سنة أربع وستين وثلاثمائة وسلم الحسن بن كنون على الحكم فأقبل عليه وعفا عنه، ووفى له بعهده وأوسع له ولرجاله في العطاء، وأجرى عليهم الجرايات الكثيرة وخلع عليهم الخِلَع الرفيعة، وأثبت جميع أهله ورجاله في ديوان العطاء وكانوا سبعمائة رجل أنجاد يعدون بسبعة آلاف وأسكنه قرطبة، وأقام الحسن وعشيرته في كنف الحكم في أمن وغبطة إلى أن كان ما نذكره.

---

(١) قلت: العدوة هنا شاطئ الوادي وجانبه؛ وذلك أن مدينة فاس بنيت على نهر، ووفد إليها أناس كثيرون سكنوا جانبي النهر، وأول حي فيها سمي بعدوة القرويين، وهناك عدوة أخرى على الجانب الآخر تسمى عدوة الأندلسيين نشأت فيما بعد عندما هاجر إليها أهل الأندلس.

[٤٠] حدوث النفرة بين الحكم والحسن والسبب في ذلك

لَمَّا استقر الحسن بن كنون وعشيرته بقرطبة تحت كنف الحكم المستنصر بالله الأموي ـ على ما وصفناه ـ استمر الحال على ذلك إلى سنة خمس وستين وثلاثمائة.

وكان للحسن قطعة عنبر غريبة الشكل كبيرة الحجم ظفر بها في بعض سواحله من بلاد العدوة أيام ملكه بها فبلغ أمير المؤمنين الحكم خبرها فسأله حملها إليه وضمها إلى ذخائره، على أن له حكمه، فامتنع الحسن من ذلك وأبى أن يسلمها إليه، فنكبه عليها وسلبه جميع أمواله وسلبه القطعة أيضًا، فبقيت في خزانة الأمويين إلى أن غلب ابن حمود الإدريسي على ملك الأندلس، ودخل قرطبة واستقر بالقصر منها فألفى تلك العنبر لا زالت قائمة العين قد عقبتها الأيام حتى صارت إلى أيدي العلوية أربابها.

ولما نكب الحكم الحسن أمر بإخراجه وإخراج عشيرته من قرطبة وإجلائهم إلى المشرق، فركبوا البحر من المرية إلى تونس سنة خمس وستين وثلاثمائة، وكان قصد الحكم بتغريبهم التخفف منهم والراحة من نفقاتهم مع ما كان قومه يعذلونه عليهم، فسار الحسن بن كنون وعشيرته إلى مصر فنزلوا بها على خليفة الشيعة وهو العزيز بالله نزار بن المعز العبيدي ـ وكان العبيديون قد ملكوا مصر يومئذ ونقلوا كرسي خلافتهم إليها ـ فأقبل العزيز نزار على الأدارسة وبالغ في إكرامهم ووعد الحسن النصر والأخذ بثأره ممن غلبه على ملك سلفه.

عود الحسن بن كنون إلى المغرب
وما كان من أمره إلى مقتله وانقراض دولته

لَمَّا استقر الحسن بن كنون بمصر عند العزيز نزار أقام عنده مدة طويلة إلى أن دخلت سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة في أيام هشام المؤيد بالله الأموي، فكتب نزار للحسن بعهده على المغرب وأمر عامله على إفريقية بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي أن يقويه بالجيوش فسار الحسن إلى بلكين فأعطاه عسكرًا يشتمل على

ثلاثة آلاف فارس، فاقتحم بهم بلاد المغرب فسارعت إليه قبائل البربر بالطاعة فشرع في إظهار دعوته.

واتصل خبره بالمنصور بن أبي عامر - حاجب هشام المؤيد والقائم بملكه - فبعث إليه ابن عمه الوزير أبا الحكم عمرو بن عبد الله بن أبي عامر - المعروف بعسكلاجة - في جيش كثيف وقلده أمر المغرب وسائر أعماله وأمره بقتال الحسن بن كنون فنفذ لوجهه وركب البحر إلىٰ سبتة وخرج إلىٰ حرب الحسن فأحاط به وحاصره أيامًا، ثم أجاز المنصور بن أبي عامر ولده عبد الملك في أثر الوزير أبي الحكم في جيش كثيف ممدًا له.

[٤١] فلما رأىٰ ذلك الحسن بن كنون سقط في يده، ولم يجد حيلة فطلب الأمان علىٰ نفسه علىٰ أن يسير إلىٰ الأندلس كمثل حالته الأولىٰ، فأعطاه الوزير أبو الحكم من ذلك ما وثق به، وكتب إلىٰ ابن عمه المنصور يخبره بذلك فأمر بتعجيله إلىٰ قرطبة موكلاً به فبعث به إليه.

ولما انتهىٰ الخبر إلىٰ المنصور بقدوم الحسن لم يمض أمان ابن عمه، وأنفذ إليه من قتله في طريقه وأتاه برأسه، ودفن شلوه بمكان مقتله، وذلك في جمادىٰ الأولىٰ سنة خمس وسبعين وثلاثمائة، وركدت ريح العلوية بالمغرب، وتفرق جمعهم، وانقرضت دولتهم، وتفرقت الأدارسة في قبائل المغرب ولاذوا بالاختفاء إلىٰ أن خلعوا شارة ذلك النسب الشريف واستحالت صبغتهم منه إلىٰ البداوة.

واستمر الحال إلىٰ أن أشرفت دولة بني أمية بالأندلس علىٰ الانقراض، وكان بالأندلس رجلان من آل إدريس دخلوها في جملة البربر الذين كانوا هناك، وهم علي والقاسم ابنا حمود بن ميمون بن أحمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن إدريس، فطار لهما ذكر في الشجاعة والإقدام، ثم ترقت بهم الأحوال إلىٰ أن ورثوا خلافة الأندلس من يد الأمويين بها في خبر طويل.

ولما قتل الحسن بن كنون هبت ريح عاصف احتملت رداءه فلم يوجد بعد، قالوا: وكان الحسن هذا فظًا غليظًا قاسي القلب، كان إذا ظفر بعدو أو سارق أو قاطع طريق أمر به فطرح من ذروة قلعته المسماة بحجر النسر فيهوي منها إلىٰ الأرض مد البصر يدفع الرجل بخشبة تمد إليه فلا يصل إلىٰ الأرض إلا وقد تقطع.

قال ابن أبي زرع: كانت مدة ملك الأدارسة بالمغرب ـ من يوم بويع إدريس بن عبد الله وذلك يوم الخميس السابع من ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين ومائة إلى أن قتل الحسن بن كنون وذلك في جمادى الأولى سنة خمس وسبعين وثلاثمائة ـ مائتي سنة وثلاث سنين سوى شهرين تقريباً.

وكان عملهم بالمغرب من السوس الأقصى إلى مدينة وهران، وقاعدة ملكهم مدينة فاس ثم البصرة، وكانوا يكابدون دولتين عظيمتين: دولة العبيديين بأفريقة ودولة بني أمية بالأندلس، وكانوا يزاحمون الخلفاء إلى ذروة الخلافة ويقعد بهم عنها ضعف سلطانهم وقلة مالهم، فكان سلطانهم إذا امتد وقوي ينتهي إلى مدينة تلمسان، وإذا اضطرب الحال عليهم وضعفوا لا يجاوز سلطانهم البصرة وأصيلا وحجر النسر إلى أن انقضت أيامهم وانقرضت مدتهم، والبقاء لله وحده.

الخبر عن دولة زيري بن عطية المغراوي بفاس والمغرب

هو: زيري بن عطية بن عبد الله بن خزر المغراوي، قال في القرطاس: ملك على زناتة سنة ثمان وستين وثلاثمائة، فقام في المغرب بدعوة هشام المؤيد بالله وحاجبه المنصور بن أبي عامر، وذلك بعد انقراض دولة الأدارسة، منه وبني أبي العافية المكناسيين، فغلب زيري أولاً على جميع بوادي المغرب، ثم ملك مدينتي فاس دخلها سنة سبع وسبعين وثلاثمائة فاستوطنها وصيرها دار ملكه واستقام له أمر المغرب فعلا قدره وقوي سلطانه وارتفع شأنه وهو في ذلك متمسك بدعوة بني مروان أصحاب الأندلس، والله غالب على أمره.

[٤٢] وفادة زيري بن عطية على المنصور بن أبي عامر بالأندلس

لَمَّا كانت سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة استدعى المنصور بن أبي عامر زيري بن عطية أن يقدم عليه بقرطبة فاستخلف على المغرب ولده المعز بن زيري وأمره بسكنى تلمسان، وسار إلى الأندلس وقدم بين يديه هدية عظيمة، من جملتها طائر فصيح يتكلم بالعربية والبربرية، ودابة من دواب المسك، ومهاة وحشية تشبه الفرس،

وحيوانات غريبة، وأسدان عظيمان في قفصين من حديد، وشيء كثير من التمر في غاية الكبر الواحدة منه تشبه الخيارة عِظَمًا، وحمل معه من قومه وعبيده ثلاثمائة فارس وثلاثمائة راجل، فاحتفل المنصور لقدومه احتفالاً عظيمًا، وبرز الخاصة والعامة للقائه، وأنزله بقصر جعفر الحاجب وتوسع له في الجرايات والإكرام، ولقبه باسم الوزير وأفاض عليه أموالاً جسيمة وخلعًا نفيسة، وعجل بسراحه إلىٰ عمله بعد أن جدد له عهده علىٰ المغرب وعلىٰ جميع ما غلب عليه منه، فعبر البحر واحتل بمدينة طنجة، فلما استقر بها وضع يده علىٰ رأسه وقال: «الآن علمت أنك لي» فاستقل ما وصله به المنصور واستقبح اسم الوزارة الذي سماه به، ولقد خاطبه به بعض رجاله فنهاه عن ذلك، وقال: «وزير من يالكع! لا والله إلا أمير ابن أمير واعجبًا لابن أبي عامر ومخرقته؛ لأن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه! والله لو كان بالأندلس رجل ما تركه علىٰ حاله، وإن له منا ليومًا»، وبلغت مقالته المنصور فصر عليها أذنه، وزاد في اصطناعه إلىٰ أن كان ما نذكره.

[٤٣] بناء مدينة وجدة (١)

لَمَّا صفا له أمر المغرب ولم يبق له به منازع، وهابته الملوك وبقي الأمر مستقيمًا بينه وبين المنصور في الظاهر سمت همته إلىٰ بناء مدينة تكون خاصة به وبقومه وأرباب دولته، فبنىٰ مدينة وُجدة وشيد أسوارها وأحكم قصبتها وركب أبوابها وسكنها بأهله وحشمه، ونقل إليها أمواله وذخائره، وجعلها قاعدة ملكه لكونها واسطة البلاد وثغرًا للعمالتين: المغرب الأقصىٰ والأوسط، وكان اختطاطه إياها في شهر رجب سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، ولم يزل زيري بن عطية في علو سلطان وارتفاع شأن إلىٰ سنة ست وثمانين وثلاثمائة ثم حدث ما نذكره.

حدوث النفرة بين زيري بن عطية والمنصور بن أبي عامر، وما نشأ عن ذلك

ثم فسد ما بين المنصور وبين زيري بن عطية، واتصل بالمنصور أن زيري يتنقصه

---

(١) قلت: هي اليوم مدينة مغربية علىٰ حدود الجزائر.

ويعرض في شأنه وحجره على المؤيد، ويتكلم فيه بالقبيح، فقطع المنصور عنه رزق الوزارة الذي كان يجريه عليه في كل سنة، ومحى اسمه من ديوانه، ونادى بالبراءة منه فعزم زيري على خلافه، فقطع ذكره من الخطبة، واقتصر على ذكر هشام المؤيد، وطرد عماله من المغرب وألجأهم إلى سبتة، فأنفذ إليه المنصور بن أبي عامر مولاه واضحًا الفتى في جيش عظيم وأمده بالحماة من سائر الطبقات وأزاح عللهم وأفاض عليهم الأموال للنفقات وأنواع السلاح والكُسى، فعبر واضح البحر واستقر بمدينة طنجة فانضم إليه بعض قبائل البربر من غمارة وصنهاجة وغيرهم، وبايعوه على قتال زيري بن عطية ومن معه من قبائل زناتة فأفاض عليهم الخلَع والأموال.

ثم أمد المنصور بمن كان معه بالأندلس من ملوك البربر النازعين عن زيري بن عطية إليه فتكاملت جيوشه وخرج بهم واضح من طنجة يؤم فاسًا، فاتصل خبره بزيري بن عطية فخرج إليه من فاس في عساكر زناتة فالتقى الجمعان فكانت بينهما حروب بعد العهد بمثلها مدة من ثلاثة أشهر إلى أن انهزم واضح وقتل أكثر جيشه وفر واضح إلى طنجة فدخلها منهزمًا وكتب إلى المنصور يطلب منه المدد.

وخرج المنصور من قرطبة فوصل إلى الجزيرة الخضراء ثم أجاز ابنه عبد الملك المظفر بجميع عسكر الأندلس وقوادها حتى بقي المنصور وحده، وأمره بحرب زيري ابن عطية فركب المظفر البحر من الجزيرة الخضراء إلى سبتة.

واتصل خبر المظفر بزيري بن عطية فخافه وأخذ في الاستعداد لملاقاته، وكتب إلى جميع قبائل زناتة يستصرخهم فأتته الوفود من بلاد ملوية وتلمسان والزاب وسائر بوادي زناتة، فنهض بهم إلى قتال عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبي عامر، وبرز عبد الملك من طنجة ومعه واضح الفتى في جيوش لا تحصى، والتقى الجمعان بوادي منى من أحواز طنجة فكانت بينهم حرب أعظم من الأولى، ودام القتال بينهم يومًا إلى الليل.

وكان في عسكر زيري بن عطية غلام أسود اسمه سلام، كان زيري قد قتل أخاه فوجد الفرصة إليه فانتهزها وضربه بسكين في نحره ثلاث ضربات فأشواه - أي لم يصب مقتله - ومرّ الأسود يشتد نحو المظفر وبشره بقتل زيري فاستكذبه، ثم سقط إليه الخبر الصحيح بأن زيري قد أثبت، فشد عليهم عبد الملك - وهم في حال دهشة

ويعرض في شأنه وحجره على المؤيد، ويتكلم فيه بالقبيح، فقطع المنصور عنه رزق الوزارة الذي كان يجريه عليه في كل سنة، ومحى اسمه من ديوانه، ونادى بالبراءة منه فعزم زيري على خلافه، فقطع ذكره من الخطبة، واقتصر على ذكر هشام المؤيد، وطرد عماله من المغرب وألجأهم إلى سبتة، فأنفذ إليه المنصور بن أبي عامر مولاه واضحًا الفتى في جيش عظيم وأمده بالحماة من سائر الطبقات وأزاح عللهم وأفاض عليهم الأموال للنفقات وأنواع السلاح والكُسى، فعبر واضح البحر واستقر بمدينة طنجة فانضم إليه بعض قبائل البربر من غمارة وصنهاجة وغيرهم، وبايعوه على قتال زيري بن عطية ومن معه من قبائل زناتة فأفاض عليهم الخِلَع والأموال.

ثم أمد المنصور بمن كان معه بالأندلس من ملوك البربر النازعين عن زيري بن عطية إليه فتكاملت جيوشه وخرج بهم واضح من طنجة يؤم فاسًا، فاتصل خبره بزيري بن عطية فخرج إليه من فاس في عساكر زناتة فالتقى الجمعان فكانت بينهما حروب بعد العهد بمثلها مدة من ثلاثة أشهر إلى أن انهزم واضح وقتل أكثر جيشه وفر واضح إلى طنجة فدخلها منهزمًا وكتب إلى المنصور يطلب منه المدد.

وخرج المنصور من قرطبة فوصل إلى الجزيرة الخضراء ثم أجاز ابنه عبد الملك المظفر بجميع عسكر الأندلس وقوادها حتى بقي المنصور وحده، وأمره بحرب زيري ابن عطية فركب المظفر البحر من الجزيرة الخضراء إلى سبتة.

واتصل خبر المظفر بزيري بن عطية فخافه وأخذ في الاستعداد لملاقاته، وكتب إلى جميع قبائل زناتة يستصرخهم فأتته الوفود من بلاد ملوية وتلمسان والزاب وسائر بوادي زناتة، فنهض بهم إلى قتال عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبي عامر، وبرز عبد الملك من طنجة ومعه واضح الفتى في جيوش لا تحصى، والتقى الجمعان بوادي منى من أحواز طنجة فكانت بينهم حرب أعظم من الأولى، ودام القتال بينهم يومًا إلى الليل.

وكان في عسكر زيري بن عطية غلام أسود اسمه سلام، كان زيري قد قتل أخاه فوجد الفرصة إليه فانتهزها وضربه بسكين في نحره ثلاث ضربات فأشواه - أي لم يصب مقتله - ومرّ الأسود يشتد نحو المظفر وبشره بقتل زيري فاستكذبه، ثم سقط إليه الخبر الصحيح بأن زيري قد أثبت، فشد عليهم عبد الملك - وهم في حال دهشة

من جرح أميرهم - فهزمهم واستمرت الهزيمة على زيري وأصحابه واثخن فيهم عبدالملك بالقتل وملك محلة زيري بأسرها واحتوى على جميع ما فيها من المال والسلاح والكراع والإبل والعدة فاستولى من ذلك على ما لا يأخذه الحصر.

ومضى زيري على وجهه حتى انتهى إلى موضع يعرف بمضيق الحية بالقرب من مكناسة فعسكر به، واجتمع إليه الفل من قومه وعزم على الرجوع لمناجزة المظفر فاتصل الخبر بالمظفر فانتخب من عسكره خمسة آلاف فارس وقدم عليهم واضحًا الفتى ونهضوا إلى زيري بن عطية فضربوا في محلته ليلاً بمضيق الحية وهم آمنون، فأوقعوا بهم وقعة عظيمة أسر فيها من أشراف مغراوة نحو ألفي رجل، وذلك في منتصف رمضان سنة سبع وثمانين وثلاثمائة فامتن عليهم عبد الملك المظفر وأركبهم معه فكانوا من جنده، وفر زيري بن عطية في شرذمة من أصحابه وبني عمه فانتهى إلى فاس فأغلق أهلها الأبواب دونه، فسألهم أن يخرجوا إليه عياله وأولاده فأخرجوهم إليه، وأعطوه مع ذلك الزاد والدواب فأخذهم وانصرف إلى الصحراء فنزل بلاد صنهاجة، وكان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

قدوم عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبي عامر مدينة فاس، وما كان من شأنه بها

لَمَّا انهزم زيري بن عطية من مضيق الحية إلى الصحراء نهض عبد الملك المظفر من معسكره يؤم فاسًا، فدخلها يوم السبت منسلخ شوال سنة سبع وثمانين وثلاثمائة فاستقبله أهلها مستبشرين به فأحسن لقاءهم وكتب إلى أبيه المنصور بالفتح فقرأ الكتاب على منبر جامع الزهراء من قرطبة وعلى منابر مساجد الأندلس كلها شرقًا وغربًا، وأعتق المنصور ألفا وخمسمائة مملوك، وثلاثمائة مملوكة شكرًا لله تعالى وفرق أموالاً كثيرة على الفقراء وذوي الحاجات، وكتب إلى ولده المظفر بعهده على المغرب وأوصاه بحسن السيرة والعدل، فقرأ كتابه على منبر مسجد القرويين وذلك يوم الجمعة آخر ذي القعدة من السنة المذكورة.

بقية أخبار زيري بن عطية

لَمَّا نزل زيري بن عطية ببلاد صنهاجة وجدهم قد اختلفوا على ملكهم باديس ابن منصور بن بلكين بن زيري بن مناد صاحب إفريقية فأرسل زيري بن عطية في قبائل زناتة حاشرين، فأتى منهم خلق كثير من مغراوة وغيرهم فاغتنم زيري تلك الفرصة من صنهاجة فزحف إليهم وأوغل في بلادهم وهزم جيوشهم ودخل مدينة تاهرت وجملة من بلاد الزاب وملك مع ذلك تلمسان وشلف والمسيلة وأقام بها الدعوة للمؤيد، وحاصر مدينة آشير قاعدة بلاد صنهاجة وكتب إلى المنصور بن أبي عامر بذلك يسترضيه ويشترط على نفسه الرهن والاستقامة إن أعيد إلى ولايته، وبينما هو محاصر لآشير يباكرها ويراوحها بالقتال انقضت عليه جراحاته التي كان جرحه الأسود فمات منها سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة.

الخبر عن دولة المعز بن زيري بن عطية المغراوي

لَمَّا هلك زيري بن عطية اجتمع آل خزر وكافة مغراوة من بعده على ابنه المعز بن زيري فبايعوه وضبط أمرهم وأقصر عن محاربة صنهاجة، وصالح المنصور بن أبي عامر وقام بدعوته ورجع إلى طاعته، ولم يزل على ذلك إلى أن توفي المنصور وولي ابنه بعده عبد الملك المظفر فبايعه المعز أيضًا ودعا له على منابره، فعزل المظفر واضحًا الفتى عن فاس وسائر بلاد المغرب وصرفه إلى الأندلس وكتب إلى المعز بن زيري بعهده على فاس وسائر أعمال المغرب حواضره وبواديه وذلك سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة وشرط له المعز أن يؤدي إليه في كل سنة مالاً معلومًا وخيلاً ودَرَقًا [١] يوصل ذلك إلى قرطبة وأعطاه مع ذلك ولده معنصر بن المعز رهنًا.

ولما وصل إلى المعز بن زيري العهد بولايته على المغرب، ما عدا كورة سجلماسة فإنها كانت لبني خزرون بن فلفل ضم نشره وثاب إليه نشاطه وبث عماله في جميع كور المغرب وجبا خراجها، ولم تزل ولايته متسقة، وطاعة رعاياه منتظمة إلى أن افترق أمر الجماعة بالأندلس واختل رسم الخلافة بها فاضطرب أمر المغرب على

---

(١) قلت: أي دروعًا من جلود.

المعز، وأقام على ذلك إلى أن هلك سنة سبع عشرة وأربعمائة كذا عند ابن خلدون.

وأما ابنه معنصر فإنه أقام بقرطبة إلى أن قامت الفتنة بالأندلس وانقرضت الدولة العامرية فانصرف معنصر إلى أبيه وعشيرته بفاس.

الخبر عن دولة حمامة بن المعز بن عطية المغراوي

لَمَّا توفي المعز بن زيري بن عطية ولي بعده ابن عمه حمامة بن المعز بن عطية، واستولى حمامة على عمل فاس والمغرب، واستفحل ملكه، وقصده الأمراء والعلماء وأتته الوفود ومدحه الشعراء.

وكانت الدولة بالأندلس قد تداعت إلى الاختلال، فكان ذلك من أسباب استفحال الدولة المغراوية بفاس والمغرب واستقلالها بالأمر، فكان لحمامة من الظهور ما ذكرناه إلى أن أصابته عين الكمال بمنازعة أبي الكمال على ما نذكره.

الخبر عن دولة أبي الكمال تميم بن زيري اليفرني، واستيلائه على فاس وأعمالها

قد تقدم لنا أن بني يفرن كانوا قد تحيزوا إلى نواحي سلا فاستولوا عليها وعلى مدينة شالة ثم ملكوا تادلا وما والاها من البلاد.

ثم لما كانت سنة أربع وعشرين وأربعمائة كان الأمير على بني يفرن أبا الكمال تميم بن زيري بن يعلى بن محمد بن صالح اليفرني، فزحف من سلا إلى فاس في قبائل بني يفرن ومن انضاف إليهم من زناته، وبرز إليه حمامة في جموع مغراوة ومن إليهم، فكانت بينهم حرب شديدة أجلت عن هزيمة حمامة، ومات من مغراوة أمم، واستولى تميم على فاس وأعمال المغرب، ودخلها في جمادى الآخرة من السنة المذكورة، واستباح يهود فاس فقتل منهم أكثر من ستة آلاف يهودي، وسبى حرمهم واصطلم نعمتهم بالمرة، ولحق حمامة بوجدة فاستمد من كان هنالك من قبائل مغراوة وزناتة.

وبعث الحاشدين في قياطينهم إلى جميع بلاد المغرب الأوسط، وكاتب من بعد عنه من رجالاتهم فاجتمع له من ذلك جم غفير، ثم زحف إلى فاس سنة تسع

وعشرين وأربعمائة فأفرج عنها أبو الكمال، ولحق ببلاده ومقر ملكه من شالة، وأقام بها إلى أن هلك سنة ست وأربعين وأربعمائة، وكانت مدة استيلائه على فاس وأعمالها خمس سنين وقيل سبع سنين.

[٤٤] وكان أبو الكمال اليفرني يغلب عليه الجفاء والجهل ومع ذلك فقد كان صلبًا في دينه مستقيمًا فيه مولعًا بجهاد برغواطة(١)، كان يغزوهم مرتين في السنة إلى أن توفي.

ولما كانت سنة اثنتين وستين وأربعمائة وقتل ابنه في حرب لمتونة جاؤوا به ليدفنوه إلى جانب قبر أبيه أبي الكمال فسمعوا من قبره تكبيرًا وتشهدًا كثيرًا، فنبشوا قبره فألفوه لم يتغير منه شيء، ثم رآه بعض قرابته في النوم، فقال له: «ما هذا التكبير والتشهد الذي سمعناه من قبرك؟» قال: «تلك الملائكة وكلهم الله بقبري يكبرون ويهللون ويسبحون ويكون ثواب ذلك لي إلى يوم القيامة»، قال: «وبم نلت ذلك؟»، قال: «بجهادي برغواطة» حكى هذا الخبر في القرطاس، والله على كل شيء قدير. وأقام حمامة في سلطان فاس والمغرب إلى أن توفي سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة وقيل غير ذلك.

الخبر عن دولة
دوناس بن حمامة بن المعز بن عطية المغراوي

لَمَّا توفي حمامة بن المعز ولي بعده ابنه دوناس بن حمامة ويكنى أبا العطاف، واستولى على فاس وسائر ما كان لأبيه من مدن المغرب وأعماله، وخرج عليه لأول دولته ابن عمه حماد بن معنصر بن المعز بن عطية، فجرت له معه حروب وخطوب وكثرت جموع حماد وغلب على ضواحي فاس وحاصرها حصارًا شديدًا، واستمر حماد محاصرًا لفاس إلى أن هلك سنة خمس وثلاثين وأربعمائة، فاستقامت دولة دوناس وانفسحت أيامه، وصار الناس في هدنة ودعة ورخاء كثير.

وفي أيامه عظمت فاس وعمرت وكثرت أرباضها، وقصدها الناس والتجار من جميع النواحي، فأدار دوناس السور على أرباضها، وبنى بها المساجد والحمامات

---

(١) قلت: لأن البرغواطيين كانوا إلى الوثنية والكفر أقرب منهم إلى الإسلام، كما مرَّ من قبل.

والفنادق واستبحر عمرانها، فصارت حاضرة المغرب من يومئذ، ولم يشتغل دوناس من يوم ولي إلىٰ ان توفي إلا بالبناء والتشييد، وكانت وفاته في شوال سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة.

الخبر عن دولة فتوح بن دوناس المغراوي

لَمَّا توفي دوناس بن حمامة ولي بعده ابنه الفتوح بن دوناس، ونازعه الأمر أخوه الأصغر - واسمه عجيسة - وكان شهمًا مجربًا، وكثرت العداوة بينهما واستحكمت فكانا لا يفتران عن القتال ليلاً ونهاراً، وعظم الخوف بالمغرب وكثر الهرج وغلت الأسعار واشتدت المجاعة، وظهرت لمتونة علىٰ أطراف البلاد فملكوها والأمر لا زال والحال ما حال وليس لأهل فاس شغل إلا القتال، واستمر الأمر علىٰ ذلك ثلاث سنين إلىٰ أن بيت الفتوح عجيسة ليلاً فقتله.

ولم يزل الفتوح مستوليًا علىٰ فاس إلىٰ أن دهم المغرب ما دهمه من أمر المرابطين من لمتونة، وخشي الفتوح مغبة ذلك فأفرج عن فاس وتخلىٰ عنها وزحف صاحب القلعة بلكين بن محمد بن حماد الصنهاجي إلىٰ المغرب سنة أربع وخمسين وأربعمائة ودخل فاسًا واحتمل من أكابرها وأشرافها عدداً رهنًا علىٰ الطاعة وقفل إلىٰ قلعته.

الخبر عن دولة
معنصر بن حماد بن معنصر بن المعز بن عطية المغراوي

لَمَّا تخلىٰ الفتوح بن دوناس عن ملك فاس وأعمالها قام بالأمر بعده قريبه معنصر ابن حماد بن منصور بن المعز بن عطية فبايعته قبائل مغراوة الذين بفاس وأحوازها، وذلك في رمضان سنة خمس وخمسين وأربعمائة. وكان معنصر ذا حزم ورأي وشجاعة وإقدام، وشغل بحرب لمتونة، وكانت له عليهم الوقعة المشهورة.

ثم غلب يوسف بن تاشفين علىٰ فاس وخلف عليها عامله وارتحل إلىٰ عمارة وفتح الكثير من بلادها حتىٰ أشرف علىٰ طنجة، ثم رجع إلىٰ حصار قلعة فازاز،

فسار معنصر إلى فاس وملكها وقتل العامل ومن معه من لمتونة ومثل بهم بالحرق والصلب، واتصل الخبر بيوسف بن تاشفين وهو محاصر لقلعة فازاز فاستدعى مهدي بن يوسف الكزنائي صاحب مكناسة ليستجيش به على فاس، فاستعرضه معنصر في طريقه قبل أن تتصل أيديهما، وناجزه الحرب ففض جموعه وقتله، وبعث برأسه إلى وليه الحاجب سكوت البرغواطي صاحب سبتة.

واستصرخ أهل مكناسة بيوسف بن تاشفين فسرح عساكر لمتونة إلى حصار فاس فأخذوا بمخنقها، وقطعوا المرافق عنها والحوا بالقتال عليها حتى اشتد بأهلها الحصار، ومسهم الجهد، وبرز معنصر لإحدى الراحتين فكانت الدائرة عليه، وفقد في الملحمة ذلك اليوم سنة ستين وأربعمائة، فلم يُدر ما فعل الله به سبحانه وتعالى.

الخبر عن دولة تميم بن معنصر المغراوي

لَمَّا فقد معنصر بن حماد في الملحمة التي كانت بينه وبين اللمتونيين بايع أهل فاس من بعده لابنه تميم بن معنصر فكانت أيامه أيام حصار وفتنة وجهد وغلاء.

وشغل يوسف بن تاشفين عنهم بفتح بلاد غمارة حتى إذا كانت سنة ثنتين وستين وفرغ من فتح غمارة صمد إلى فاس فحاصرها أيامًا، ثم اقتحمها عنوة، وقتل بها زهاء ثلاثة آلاف من مغراوة وبني يفرن ومكناسة وغيرهم، وهلك تميم بن معنصر في جملتهم حتى عجز الناس عن مواراتهم فرادى، فاتخذوا لهم الأخاديد وقبروا جماعات، وخلص من نجا من القتل منهم إلى تلمسان. قاله ابن خلدون.

[٤٥] وكانت مدة دولتهم نحو مائة سنة، وفي دولتهم عظم شأن فاس وبنيت الأسوار على أرباضها وحصنت أبوابها، وزيد في مسجديها القرويين والأندلس زيادة كثيرة، واتسع الناس في أيام مغراوة في البناء، فعظمت فاس واستبحر عمرانها، وكثرت خيراتها، واتصل الأمن والرخاء جل أيامهم إلى أن ضعفت أحوالهم وجاروا على رعيتهم بأخذ أموالهم وسفك دمائهم والتعرض لحرمهم، فانقطعت عنهم المواد وكثر الخوف في البلاد، وغلت الأسعار، وبلى الله عباده بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وذلك في دولة الفتوح ابن دوناس ومن بعده، فكان رؤساء مغراوة وبني يفرن يلجون على الناس دورهم

فيأخذون ما يجدون بها من الطعام، ويتعرضون لنسائهم وصبيانهم، ويأخذون أموال التجار فلا يقدر أحد أن يصدهم عن ذلك.

وكان سفهاؤهم وعبيدهم يصعدون على قمة جبل العرض، فينظرون إلى الدور التي بالمدينة فإذا رأوا داراً بها دخان قصدوها وأخذوا ما وجدوا بها من طعام أو غيره، ومن تعرض لهم في ذلك قتلوه، فلما ارتكبوا هذه العظائم سلبهم الله ملكه وغير ما بهم من نعمة، والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، فسلط عليهم المرابطين فمحوا آثارهم من المغرب ونفوهم عنه بالكلية وطهروه من جورهم.

وفي أيامهم: اتخذ أهل فاس المطامير في بيوتهم للطحن والطبخ؛ لئلا يسمع دوي الرحى فتقصدهم سفهاء مغراوة، وفيها أيضاً: اتخذوا غرفًا لا مراقي لها حتى إذا كان عشي النهار صعد الرجل بأهله وعياله إليها بسلم، ثم يرفع السلم معه؛ لئلا يُدخل عليه فجأة، وكان من هذا شيء كثير.

۞۞۞





الجزء الثاني

الدولة المرابطية

الدولة المرابطية

الخبر عن الدولة الصنهاجية اللمتوينة المرابطية وأوليتها

قد تقدم لنا عند الكلام على نسب البربر وشعوبها أن صنهاجة إحدى قبائل البرانس من البربر، وأنهم أعظم قبائلها بالمغرب، لا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم في جبل أو بسيط، حتى زعم كثير من الناس أنهم ثلث البربر.

وتقدم لنا: أن النسَّابين من العرب زعموا أن صنهاجة وكتامة من حمير، خلفهم الملك أفريقيش بالمغرب، فاستحالت لغتهم إلى البربرية، والتحقيق خلاف ذلك وأنهم من كنعان بن حام كسائر البربر وتحت صنهاجة قبائل كثيرة تنتهي إلى السبعين، منهم: لمتونة وكدالة ومسوفة ومسراته وغير ذلك، وتحت هذه القبائل بطون وأفخاذ تفوت الحصر.

وكانت لهم بالمغرب دولتان عظيمتان إحداهما: دولة بني زيري بن مناد الصنهاجيين بإفريقية، ورثوا ملكها من يد الشيعة العبيديين، والأخرى: دولة الملثمين بالمغرب الأقصى والأوسط والأندلس كما سيأتي.

وموطن هؤلاء الملثمين أرض الصحراء والرمال الجنوبية فيما بين بلاد البربر وبلاد السودان، ومساحة أرضهم نحو سبعة أشهر طولاً في أربعة عرضًا، وفيهم قوم لا يعرفون حرثًا ولا زرعًا ولا فاكهة، وإنما أموالهم الأنعام وعيشهم اللحم واللبن، يقيم أحدهم عمره لا يأكل خبزاً إلَّا أن يمر ببلادهم التجار فيتحفونهم بالخبز والدقيق، وإنما قيل لهم الملثمون لأنهم يتلثمون، ولا يكشفون وجوههم أصلاً.

قال ابن خلكان: «اللثام سنة لهم يتوارثونها خلفا عن سلف، وسبب ذلك على ما قيل أن حمير كانت تتلثم لشدة الحر والبرد تفعله الخواص منهم، فكثر ذلك حتى صار تفعله عامتهم.

وقيل: كان سببه أن قومًا من أعدائهم كانوا يقصدون غفلتهم إذا غابوا عن بيوتهم فيطرقون الحي فيأخذون المال والحريم، فأشار عليهم بعض مشايخهم أن

يبعثوا النساء في زي الرجال إلى ناحية، ويقعدوا هم في البيوت متلثمين في زي النساء، فإذا أتاهم العدو وظنوهم نساء خرجوا عليهم، ففعلوا ذلك وثاروا عليهم بالسيوف فقتلوهم، فلزموا اللثام تبركًا به بما حصل لهم من الظفر بالعدو».

[٤٦] الخبر عن رياسة يحيى بن إبراهيم الكدالي وما كان من أمره مع الشيخ أبي عمران الفاسي رحمهما الله

قام بأمر صنهاجة يحيى بن إبراهيم الكدالي - وكدالة ولمتونة أخوان يجتمعان في أب واحد؛ وكل منهما قبيل كبير يسكنون الصحراء التي تلي بلاد السودان ويليهم من جهة المغرب البحر المحيط - فاستمر الأمير يحيى بن إبراهيم على رياسة صنهاجة وحربهم لأعدائهم إلى أن كانت سنة سبع وعشرين وأربعمائة، فاستخلف على صنهاجة ابنه إبراهيم بن يحيى وارتحل إلى المشرق برسم الحج، فلما قضى حجه وزيارته قفل إلى بلاده، فمر في عوده بالقيروان فلقي بها الشيخ الفقيه أبا عمران الفاسي، وحضر مجلس درسه وتأثر بوعظه، فرآه الشيخ أبو عمران محبًا في الخير فأعجبه حاله، وسأله عن اسمه ونسبه وبلده فأخبره بذلك كله وأعلمه بسعة بلاده وما فيها من كثرة الخلق، فقال له الشيخ: وما ينتحلون من المذاهب؟

قال: إنهم قوم غلب عليهم الجهل وليس لهم كبير علم!

فاختبره الشيخ وسأله عن فروض دينه فلم يجده يعرف منها شيئًا! إلَّا أنه حريص على التعلم صحيح النية والعقيدة.

فقال له الشيخ: وما يمنعك من تعلم العلم؟

فقال: يا سيدي عدم وجود عالم بأرضي، وليس في بلادي من يقرأ القرآن فضلا عن العلم! ومع ذلك فأهل أرضي يحبون الخير ويرغبون فيه لو وجدوا من يقرئهم القرآن، ويدرس لهم العلم ويفقههم في دينهم ويعلمهم الكتاب والسنة وشرائع الإسلام، فلو رغبت في الثواب من الله - تعالى - لبعثت معي بعض طلبتك يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين فينتفعون به ويكون لك وله الأجر العظيم عند الله - تعالى - إذ كنت سبب هدايتهم.

فندب الشيخ أبو عمران تلامذته إلى ذلك فاستصعبوا دخول أرض الصحراء

وأشفقوا منها، فقال الشيخ أبو عمران ليحيى بن إبراهيم: إني أعرف ببلد نفيس من أرض المصامدة فقيهًا حاذقًا ورعًا أخذ عني علمًا كثيرًا - واسمه واجاج بن زلو اللمطي من أهل السوس الأقصى - أكتب إليه كتابًا لينظر في تلامذته من يبعثه معك، فسر إليه لعلك تجد حاجتك عنده. فكتب إليه الشيخ أبو عمران كتابًا يقول فيه:

«أما بعد إذا وصلك حامل كتابي هـٰذا وهو: يحيى بن إبراهيم الكدالي فابعث معه من طلبتك من تثق بعلمه ودينه وورعه وحسن سياسته ليقرئهم القرآن، ويعلمهم شرائع الإسلام ويفقههم في دين الله، ولك وله في ذلك الثواب والأجر العظيم، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا».

وأبو محمد واجاج هـٰذا من أهل السوس الأقصى رحل إلى القيروان، وأخذ عن أبي عمران الفاسي ثم عاد إلى السوس، فبنى دارًا سماها بدار المرابطين لطلبة العلم وقراء القرآن، وكان المصامدة يزورونه ويتبركون بدعائه، وإذا أصابهم قحط استسقوا به.

فسار يحيى بن إبراهيم بكتاب الشيخ أبي عمران حتى وصل إلى الفقيه واجاج بمدينة نفيس، فسلم عليه ودفع إليه الكتاب، وكان ذلك في رجب سنة ثلاثين وأربعمائة فنظر الفقيه واجاج في الكتاب، ثم جمع تلامذته فقرأه عليهم وندبهم لما أمر به الشيخ أبو عمران، فانتدب لذلك رجل منهم يقال له عبد الله بن ياسين الجزولي، وكان من حذاق الطلبة ومن أهل الفضل والدين والورع والسياسة، مشاركًا في العلوم، فخرج مع يحيى بن إبراهيم إلى الصحراء، وكان من أمره ما نقصه عليك.

الخبر عن دخول

عبد الله بن ياسين أرض الصحراء وابتداء أمره بها

[٤٧] لما انتهى يحيى بن إبراهيم إلى بلاده - ومعه الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي - تلقاه قبائل كدالة ولمتونة وفرحوا بمقدمهما، وتيمنوا بالفقيه وبالغوا في إكرامه وبره، فشرع يعلمهم القرآن ويقيم لهم رسم الدين ويسوسهم بآداب الشرع، وألفاهم يتزوجون بأكثر من أربع حرائر، فقال لهم: «ليس هـٰذا من السنة، وإنما سنة

الإسلام أن يجمع الرجل بين أربع نسوة حرائر فقط، وله فيما شاء من ملك اليمين سعة».

وجعل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وكبحهم عن كثير من مألوفاتهم الفاسدة وشدد في ذلك، فاطّرحوه واستصعبوا علمه، وتركوا الأخذ عنه لما جَشّمهم من مشاق التكليف.

فلما رأىٰ عبد الله بن ياسين إعراضهم عنه واتباعهم لأهوائهم عزم علىٰ الرحيل عنهم إلىٰ بلاد السودان الذين دخلوا في دين الإسلام يومئذ، فلم يتركه يحيىٰ بن إبراهيم لذلك، وقال له: إنما أتيت بك لأنتفع بعلمك في خاصة نفسي وما علي فيمن ضل من قومي، وكان قومه ليس عندهم من الإسلام إلَّا الشهادة دون ما عداها من أركان الإسلام وشرائعه.

ثم قال يحيىٰ بن إبراهيم لعبد الله بن ياسين: هل لك في رأي أشير به عليك إن كنت تريد الآخرة؟

قال: وما هو؟

قال: إن ههنا جزيرة في البحر وفيها الحلال المحض من شجر البرية وصيد البر والبحر، ندخل فيها ونقتات من حلالها ونعبد الله تعالىٰ حتىٰ نموت.

فقال عبد الله بن ياسين: إن هٰذا الرأي حسن! فهلم بنا فلندخلها علىٰ اسم الله، فدخلها ودخل معهما سبعة نفر من كدالة، وابتنىٰ عبد الله رابطة هناك، وأقام في أصحابه يعبدون الله ـ تعالىٰ ـ مدة ثلاثة أشهر؛ فتسامع الناس بهم وأنهم اعتزلوا بدينهم يطلبون الجنة والنجاة من النار فكثر الواردون عليهم، والتوابون لديهم، فأخذ عبد الله بن ياسين يقرئهم القرآن ويستميلهم إلىٰ الخير، ويرغبهم في ثواب الله ويحذرهم ألم عقابه حتىٰ تمكن حبه من قلوبهم، فلم تمر عليه إلَّا مدة يسيرة حتىٰ اجتمع له من التلامذة نحو ألف رجل.

[٤٨] شروع عبد الله بن ياسين في الجهاد وإعلانه بالدعوة وما كان من أمره في ذلك

لما اجتمع إلىٰ عبد الله بن ياسين من أشراف صنهاجة نحو ألف رجل سماهم:

المرابطين للزومهم رابطته

ولما تفقهوا ورسخ فيهم الدين قام فيهم خطيبًا فوعظهم وشوقهم إلى الجنة وخوفهم من النار، وأمرهم بتقوى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأخبرهم بما في ذلك من ثواب الله ـ تعالى ـ وعظيم جزائه، ثم ندبهم إلى جهاد من خالفهم من قبائل صنهاجة وقال لهم:

معشر المرابطين، إنكم اليوم جمع كثير نحو ألف رجل! ولن يغلب ألف من قلة، وأنتم وجوه قبائلكم ورؤساء عشائركم، وقد أصلحكم الله تعالى وهداكم إلى صراطه المستقيم، فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم بأن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر وتجاهدوا في الله حق جهاده.

فقالوا له: أيها الشيخ المبارك: مُرنا بما شئت تجدنا سامعين لك مطيعين، ولو أمرتنا بقتل آباءنا لفعلنا!

فقال لهم: اخرجوا على بركة الله، وأنذروا قومكم وخوفوهم عقاب الله وأبلغوهم حجته فإن تابوا فخلوا سبيلهم، وإن أبوا من ذلك وتمادوا في غيهم ولجوا في طغيانهم استعنا بالله ـ تعالى ـ عليهم وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين، فسار كل رجل منهم إلى قومه وعشيرته، فوعظهم وأنذرهم ودعاهم إلى الإقلاع عما هم بسبيله، فلم يرفعوا بذلك رأسًا.

فخرج إليهم عبد الله بن ياسين بنفسه وجمع أشياخ قبائلهم ووجوهها وقرأ عليهم حجة الله، ودعاهم إلى التوبة، ورغبهم في الجنة، وخوفهم من النار، وأقام ينذرهم سبعة أيام، وهم في ذلك كله لا يلتفتون إلى قوله ولا يزدادون إلَّا فسادا، فلما يئس منهم قال لأصحابه:

«قد أبلغنا في الحجة وأنذرنا وأعذرنا، وقد وجب الآن علينا جهادهم فاغزوهم على بركة الله» فبدأ أولاً بقبيلة كدالة فغزاهم في ثلاثة آلاف رجل من المرابطين فانهزموا بين يديه، وقتل منهم خلقًا كثيرًا، وأسلم الباقون إسلامًا جديدًا، وحسنت حالهم، وكان ذلك في صفر سنة ٤٣٤ هـ.

ثم سار إلى قبيلة لمتونة فنزل عليها وقاتلهم حتى أظهره الله عليهم، وبايعوه على إقامة الكتاب والسنة.

ثم سار إلى قبيلة مسوفة فقاتلهم حتى أذعنوا له، وبايعوه على ما بايعته لمتونة وكدالة.

فلما رأى ذلك سائر صنهاجة سارعوا إلى التوبة والمبايعة، فكان كل من أتاه منهم يطهره بأن يضربه مائة سوط[1]، ثم يعلمه القرآن وشعائر الإسلام.

ثم أخذ في اشتراء السلاح، وجعل يغزو القبائل حتى ملك جميع بلاد الصحراء وذلل قبائلها.

فاشتهر أمره في جميع بلاد الصحراء وما والاها من بلاد السودان وبلاد المصامدة وسائر أقطار المغرب، وأنه قام رجل بكدالة يدعو إلى الله - تعالى - وإلى الصراط المستقيم، ويحكم بما أنزل الله، وأنه متواضع زاهد في الدنيا، وطار له ذكر في العالم وأحبته الناس.

ثم توفي يحيى بن إبراهيم الكدالي على إثر ذلك.

الخبر عن رياسة يحيى بن عمرو بن تكلاكين اللمتوني

لما توفي يحيى بن إبراهيم الكدالي عزم عبد الله بن ياسين على تقديم رجل يقوم بأمر المرابطين في حربهم وجهادهم لعدوهم.

[٤٩] وكانت قبيلة لمتونة من بين قبائل صنهاجة أكثر طاعة لله - تعالى - ودينًا وصلاحًا، فكان عبد الله بن ياسين يكرمهم ويقدمهم على غيرهم، وذلك لما أراده الله - تعالى - من ظهور أمرهم وتملكهم على الخلق، فجمع عبد الله بن ياسين رؤوس القبائل من صنهاجة وولى عليهم يحيى بن عمر اللمتوني - وعبد الله بن ياسين هو الأمير على الحقيقة؛ لأنه هو الذي يأمر وينهى ويعطي ويمنع، وعن رأيه يصدرون - فكان يحيى بن عمر يتولى النظر في أمر الحرب، وعبد الله بن ياسين ينظر في أمر الدين وأحكام الشرع، ويأخذ الزكوات والأعشار.

[٥٠] وكان يحيى شديد الانقياد لعبد الله بن ياسين، واقفًا عند أمره ونهيه فمن حسن طاعته له أنه قال له يومًا: قد وجب عليك أدب.

قال يحيى: في ماذا يا سيدي؟

---

(١) قلت: لا أعلم لهذا الصنيع وجهًا من الشرع.

قال: لا أعرفك به حتى آخذه منك! فكشف له يحيى عن بشرته فضربه عشرين سوطًا! ثم قال له: إنما ضربتك لأنك باشرت القتال واصطليت بنار الحرب بنفسك، وذلك خطأ منك؛ فإن الأمير لا يقاتل، وإنما يقف ويحرض الناس، ويقوي نفوسهم، فإن حياة الجند بحياة أميره، وهلاكه بهلاكه.

واستقام الأمر ليحيى بن عمر، وملك جميع بلاد الصحراء، وغزا بلاد السودان ففتح كثيراً منها، وكان من أهل الزهد والدين والصلاح.

الخبر عن غزو عبد الله بن ياسين ويحيى بن عمر سجلماسة، والسبب في ذلك

[٥١] لما انقرضت الدولة الأموية بالأندلس وافترق أمر الجماعة بها وصار الملك طوائف، استبد أمراء الأطراف وملوك زناتة بالمغرب كل بما في يده، وعُدِم الوازع، وتصرفوا في الرعايا بمقتضى أغراضهم وشهواتهم فنال فاسًا وأعمالها من جور بني عطية المغراويين ما حكينا بعضه قبل، ونال أهل سجلماسة ودرعة مثل ذلك أو أكثر.

فلما كانت سنة سبع وأربعين وأربعمائة - وقد انتشر ذكر عبد الله بن ياسين وأصحابه المرابطين في العالم - اجتمع فقهاء سجلماسة ودرعة وكتبوا إلى عبد الله بن ياسين ويحيى بن عمر وأشياخ المرابطين كتابًا يرغبون إليهم في الوصول إلى بلادهم، ليطهروها مما هي في من المنكرات وشدة العَسْف من الأمراء، وعرفوهم بما هم فيه أهل العلم والدين وسائر المسلمين من الذل والصغار مع أميرهم مسعود بن وانودين المغراوي.

فلما وصل الكتاب إلى عبد الله بن ياسين جمع رؤساء المرابطين وقرأه عليهم وشاورهم في الأمر، فقالوا: «أيها الفقيه: هذا مما يلزمنا ويلزمك! فسر بنا على بركة الله» فدعا لهم بخير وحضهم على الجهاد، وخرج بهم في عشرين من صفر سنة سبع وأربعين وأربعمائة في جيش كثيف من المرابطين فسار حتى وصل إلى بلاد درعة فوجد بها عامل مسعود بن وانودين فنفاه عنها، ووجد بها خمسين ألف ناقة لمسعود المذكور - وكانت ترعى في حمى حماه لها هنالك - فاكتسحها عبد الله بن ياسين، واتصل الخبر بمسعود فجمع جيوشه وخرج نحوه، فالتقى الجمعان فيما بين درعة

وسجلماسة، فكانت بينهما حرب فظيعة منح الله فيها المرابطين النصر على مغراوة، فقتل أميرهم مسعود وأكثر جيشه وفر الباقون.

واستولى عبد الله بن ياسين على دوابهم وأسلحتهم وأموالهم مع الإبل التي كان اكتسحها في درعة، فأخرج الخمس من ذلك كله وفرقه على فقهاء سجلماسة ودرعة وصلحائهم وقسم الأربعة أخماس على المرابطين.

وارتحل من فوره إلى سجلماسة فدخلها وقتل من وجد بها من مغراوة وأقام بها حتى أصلح شأنها وغير ما وجد بها من المنكرات، وقطع المزامير وآلة اللهو، وأحرق الدور التي كانت تباع بها الخمور، وأزال المكوس [1]، وأسقط المغارم، ومحا ما أوجب الكتاب والسنة محوه، واستعمل على سجلماسة عاملاً من لمتونة وانصرف إلى الصحراء.

ثم توفي الأمير أبو زكرياء يحيى بن عمر في بعض غزواته ببلاد السودان سنة سبع وأربعين وأربعمائة.

الخبر عن رياسة
أبي بكر بن عمر اللمتوني وفتح بلاد السوس

لما توفي الأمير يحيى بن عمر اللمتوني ولى عبد الله بن ياسين مكانه أخاه أبا بكر بن عمر، وذلك في محرم سنة ثمان وأربعين وأربعمائة، وقلده أمر الحرب والجهاد، ثم ندب المرابطين إلى غزو بلاد السوس والمصامدة، فزحف إليها في جيش عظيم في ربيع الثاني من السنة المذكورة.

[٥٢] وكان أبو بكر بن عمر رجلاً صالحًا ورعًا فجعل على مقدمته ابن عمه يوسف بن تاشفين اللمتوني، ثم سار حتى انتهى إلى بلاد السوس، فغزا جزولة من قبائلها وفتح مدينة ماسة وتارودانت قاعدة بلاد السوس - وكان بها قوم من الرافضة يقال لهم البجلية نسبة إلى علي بن عبد الله البجلي الرافضي، كان سقط إلى بلاد السوس أيام قيام عبيد الله الشيعي بإفريقية، فأشاع هنالك مذهب الرافضة فتوارثوه عنه جيلاً بعد جيل وعضوا عليه فكانوا لا يرون الحق إلّا ما في يدهم، فقاتلهم عبدالله بن ياسين وأبو بكر بن عمر حتى فتحوا مدينة تارودانت عنوة وقتلوا بها خلقًا

---

(١) قلت: هي الضرائب.

كثيراً، ورجع من بقي منهم إلىٰ مذهب السنة والجماعة.

وحاز عبد الله بن ياسين أسلاب القتلىٰ منهم فجعلها فيئًا، وأظهر الله المرابطين علىٰ من عداهم ففتحوا معاقل السوس وخضعت لهم قبائله، وفرق عبد الله بن ياسين عماله بنواحيه وأمرهم بإقامة العدل وإظهار السنة وأخذ الزكوات والأعشار، وإسقاط ما سوىٰ ذلك من المغارم المحدثة.

فتح بلاد المصامدة وما يتبع ذلك من جهاد برغواطة وفتح بلادهم وذكر نسبهم

ثم ارتحل عبد الله بن ياسين إلىٰ بلاد المصامدة ففتح جبل درن، وبلاد رودة، ومدينة شفشاوة بالسيف.

ثم فتح مدينة نفيس وسائر بلاد كدميوه ووفدت عليه قبائل رجراجة وحاحة فبايعوه.

ثم ارتحل إلىٰ مدينة أغمات - وبها يومئذ أميرها لقوط بن يوسف بن علي المغراوي - فنزل عليها وحاصرها حصاراً شديداً.

ولما رأىٰ لقوط ما لا طاقة له به أسلمها وفر عنها ليلاً هو وجميع حشمه إلىٰ تادلا فاستجار ببني يفرن ملوك سلا وتادلا.

ودخل المرابطون مدينة أغمات سنة تسع وأربعين وأربعمائة فأقام بها عبد الله بن ياسين نحو الشهرين ريثما استراح الجند، ثم خرج إلىٰ تادلا ففتحها وقتل مَن وجد بها من بني يفرن ملوكها وظفر بلقوط المغراوي فقتله.

وكان للقوط هٰذا امرأة اسمها زينب بنت إسحاق النفزاوية. قال ابن خلدون: وكانت من إحدىٰ نساء العالم المشهورات بالجمال والرياسة، وكانت قبل لقوط عند يوسف بن علي بن عبد الرحمٰن بن وطاس شيخ وريكة، فلما قتل المرابطون لقوط ابن يوسف المغراوي خلفه أبو بكر بن عمر علىٰ امرأته زينب بنت إسحاق المذكورة إلىٰ أن كان من أمرها ما نذكره.

ثم تقدم عبد الله بن ياسين إلىٰ بلاد تامسنا ففتحها واستولىٰ عليها، ثم أخبر بأن بساحل تامسنا قبائل برغواطة في عدد كثير وجمع عظيم.

[٥٣] ولنذكر هنا كلامًا ملخصًا في برغواطة ودولتهم ثم نرجع إلىٰ ما نحن

بصدده فنقول: اختلف الناس في نسب برغواطة هؤلاء إلى أي شيء يرجع فبعضهم يلحقهم بزناتة وبعضهم يقول في متنبئهم صالح بن طريف البرغواطي: إنه يهودي الأصل، والتحقيق أن برغواطة قبائل شتى ليس يجمعهم أب واحد، وإنما هم أخلاط من البربر اجتمعوا إلى صالح بن طريف الذي ادعى النبوة بتامسنا سنة خمس وعشرين ومائة من الهجرة في خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان وتسمى بصالح المؤمنين وشرع لأتباعه الديانة التي أخذوها عنه، وانتحل دعوى النبوة.

[٥٤] ثم جاءت دولة المرابطين، ودخلوا أرض المغرب دخلتهم الثانية، وفتحوا بلاد المصامدة وبلاد تادلا وتامسنا، فأُخبر عبد الله بن ياسين بأن بساحلها قبائل برغواطة في عدد كثير وجمع عظيم، وأنهم مجوس أهل ضلالة وكفر، وأُخبر بما تمسكوا به من ديانتهم الخبيثة، وقيل له إن برغواطة قبائل كثيرة وأخلاط شتى، اجتمعوا في أول أمرهم على صالح بن طريف المتنبئ الكذاب، واستمر حالهم على الضلالة والكفر إلى الآن، فلما سمع عبد الله بن ياسين بحال برغواطة وما هم عليه من الكفر رأى أن الواجب تقديم جهادهم على جهاد غيرهم، فسار إليهم في جيوش المرابطين ـ والأمير يومئذ على برغواطة هو أبو حفص عبد الله من ذرية أبي منصور عيسى بن أبي الأنصار عبد الله بن أبي غفير محمد بن معاذ بن اليسع بن صالح بن طريف ـ فكانت بينه وبين عبد الله بن ياسين ملاحم عظام، مات فيها من الفريقين خلق كثير، وأصيب فيها عبد الله بن ياسين الجزولي ـ مهدي المرابطين (١) ـ فكان فيها شهادته رحمه الله.

[٥٥] ولما حضرته الوفاة قال لهم: «يا معشر المرابطين إني ميت من يومي هذا لا محالة وإنكم في بلاد عدوكم فإياكم أن تجبنوا أو تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، وكونوا أعوانًا على الحق وإخوانًا في ذات الله، وإياكم والتحاسد على الرياسة فإن الله يؤتي ملكه من يشاء من خلقه، ويستخلف في أرضه من أراد من عباده» في كلام غير هذا.

وتوفي عبد الله بن ياسين عشية ذلك اليوم، وهو يوم الأحد الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة إحدى وخمسين وأربعمائة.

---

(١) يعني الذي هداهم، وإلا فهو لم يدع المهدية.

[٥٦] وكان عبد الله بن ياسين - رحمه الله - شديد الورع في المطعم والمشرب إنما يتعيش من لحوم الصيد ونحوها، لم يأكل شيئًا من لحوم صنهاجة ولا من ألبانها مدة إقامته فيهم.

[٥٧] وكان مع ذلك كثير النكاح يتزوج في كل شهر عددًا من النساء ثم يطلقهن، ولا يسمع بامرأة جميلة إلَّا خطبها.

[٥٨] ومن حسن سياسته أنه أقام في صنهاجة السنة والجماعة حتىٰ أنه ألزمهم أن من فاتته صلاة في جماعة ضرب عشرين سوطًا، ومن فاتته ركعة منها ضرب خمسة أسواط.

[٥٩] ومن كراماته أن المرابطين خرجوا معه في بعض غزواته ببلاد السودان فنفذ ما معهم من الماء حتىٰ أشرفوا علىٰ الهلاك، فقام عبد الله فتيمم وصلىٰ ركعتين ودعا الله - تعالىٰ - وأمن المرابطون علىٰ دعائه فلما فرغ من الدعاء قال لهم: احفروا تحت مصلاي هٰذا!» فحفروا فصادفوا الماء علىٰ نحو شبر من الأرض عذبًا باردًا، فشربوا واستقوا وملؤوا أوعيتهم.

ومن تقواه وورعه أنه لم يزل صائمًا من يوم دخل بلاد صنهاجة إلىٰ أن توفي رحمه الله.

واستمر الأمير أبو بكر بن عمر علىٰ رياسته وجددت له البيعة بعد وفاة عبد الله ابن ياسين، فكان أول ما فعله بعد تجهيزه إياه ودفنه أن زحف إلىٰ برغواطة مصمما في حربهم، متوكلاً علىٰ الله في جهادهم، فأثخن فيهم قتلاً وسبيًا حتىٰ تفرقوا في المكامن والغياض، واستأصل شأفتهم وأسلم الباقون إسلامًا جديدًا، ومحا أبو بكر ابن عمر أثر دعوتهم من المغرب، وجمع غنائمهم وقسمها بين المرابطين وعاد إلىٰ مدينة أغمات.

غزو أبي بكر بن عمر
بلاد المغرب سوى ما تقدم وفتحه إياها

لما استقر الأمير أبو بكر بن عمر بأغمات، أقام بها إلىٰ صفر من سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة، وخرج غازيًا بلاد المغرب في أمم لا تحصىٰ من صنهاجة وجزولة

والمصامدة، ففتح جبال فازاز وسائر بلاد زناتة، وفتح مدائن مكناسة، ثم نزل على مدينة لواتة فحاصرها حتى اقتحمها عنوة بالسيف وقتل بها خلقًا كثيراً من بني يفرن وخربها فلم تعمر بعد إلى الآن.

وكان تخريبه إياها في آخر يوم من ربيع الثاني من السنة المذكورة ثم رجع إلى مدينة أغمات.

عود أبي بكر بن عمر إلى بلاد الصحراء والسبب في ذلك

[٦٠] كان الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني قد تزوج زينب بنت إسحاق النفزاوية وكانت بارعة الجمال والحسن ـ كما قلنا ـ وكانت مع ذلك حازمة لبيبة ذات عقل رصين ورأي متين ومعرفة بإدارة الأمور حتى كان يقال لها الساحرة، فأقام الأمير أبو بكر عندها بأغمات نحو ثلاثة أشهر، ثم ورد عليه رسول من بلاد القبلة فأخبره باختلال أمر الصحراء، ووقوع الخلاف بين أهلها.

وكان الأمير أبو بكر رجلاً متورعًا فعظم عليه أن يقتل المسلمون بعضهم بعضًا وهو قادر على كفهم، ولم ير أنه في سعة من ذلك وهو متولي أمرهم ومسؤول عنهم، فعزم على الخروج إلى بلاد الصحراء ليصلح أمرها، ويقيم رسم الجهاد بها.

[٦١] ولما عزم على السفر طلق امرأته زينب وقال لها عند فراقه إياها: لوكهيا زينب إني ذاهب إلى الصحراء وأنت امرأة جميلة بضّة [1] لا طاقة لك على حرارتها! وإني مطلقك، فإذا انقضت عدتك فانكحي ابن عمي يوسف بن تاشفين فهو خليفتي على بلاد المغرب!» فطلقها، ثم سافر عن أغمات وجعل طريقه على بلاد تادلا، حتى أتى سجلماسة فدخلها وأقام بها أيامًا حتى أصلح أحوالها ثم سافر إلى الصحراء.

ونقل ابن خلكان عن كتاب «المعرب عن سيرة ملوك المغرب» في سبب رجوع الأمير أبي بكر بن عمر إلى الصحراء ما مثاله قال:

[٦٢] «كان أبو بكر بن عمر رجلاً ساذجًا، خير الطباع، مؤثرًا لبلاده على بلاد المغرب، غير ميال إلى الرفاهية، وكانت ولاة المغرب من زناتة ضعفاء لم يقاوموا

---

(١) قلت: أي رقيقة البدن ناعمته، نضرة.

الملثمين فأخذوا البلاد من أيديهم من باب تلمسان إلى ساحل البحر المحيط، فلما حصلت البلاد لأبي بكر بن عمر سمع أن عجوزًا في الصحراء ذهبت لها ناقة في غداة فبكت وقالت: ضيعنا أبو بكر بن عمر بدخوله إلى بلاد المغرب! فحمله ذلك على أن استخلف على بلاد المغرب رجلاً من أصحابه اسمه يوسف بن تاشفين، ورجع إلى بلاده الجنوبية!».

وكان سفر أبي بكر بن عمر إلى الصحراء في ذي القعدة سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة، ولما وصل إليها أصلح شأنها ورتب أحوالها وجمع جيشًا كثيفًا وغزا به بلاد السودان فاستولى منها على نحو تسعين مرحلة.

[٦٣] وكان يوسف بن تاشفين قد استفحل أمره أيضًا بالمغرب، واستولى على أكثر بلاده، فلما سمع الأمير أبو بكر بن عمر بما آل إليه أمر يوسف بن تاشفين وما منحه الله من النصر أقبل من الصحراء ليختبر أحواله، ويقال إنه كان مضمرًا لعزله وتولية غيره، فأحس يوسف بذلك فشاور زوجته زينب بنت إسحاق - وكان قد تزوجها بعد أبي بكر بن عمر - فقالت له:

إن ابن عمك متورع عن سفك الدماء، فإذا لقيته فاترك ما كان يعهده منك من الأدب والتواضع معه، وأظهر أثر الترفع والاستبداد حتى كأنك مساوٍ له، ثم لاطفه مع ذلك بالهدايا من الأموال والخِلَع وسائر طرف المغرب واستكثر من ذلك فإنه بأرض صحراء كل ما جُلب إليه من هنا فهو مستطرف لديه.

فلما قرب أبو بكر بن عمر من أعمال المغرب خرج إليه يوسف بن تاشفين فلقيه على بعد، وسلم عليه وهو راكب سلامًا مختصرًا، ولم ينزل له ولا تأدب معه الأدب المعتاد، فنظر أبو بكر إلى كثرة جيوشه فقال له: يا يوسف ما تصنع بهذه الجيوش؟

قال: أستعين بها على من خالفني!

فارتاب أبو بكر به ثم نظر إلى ألف بعير قد أقبلت موقرة فقال: ما هذه الإبل الموقرة؟

قال: أيها الأمير، إني قد جئتك بكل ما معي من مال وأثاث وطعام وإدام لتستعين به على بلاد الصحراء!

[٦٤] فازداد أبو بكر تعرفًا من حاله وعلم أنه لا يتخلى له عن الأمر، فقال له يا ابن عم: انزل أوصيك، فنزلا معًا وجلسا فقال أبو بكر: إني قد وليتك هـذا الأمر وإني مسؤول عنه فاتق الله ـ تعالى ـ في المسلمين، وأعتقني وأعتق نفسك من النار ولا تضيع من أمور رعيتك شيئًا فإنك مسؤول عنه، والله ـ تعالى ـ يصلحك ويمدك ويوفقك للعمل الصالح والعدل في رعيتك وهو خليفتي عليك وعليهم، ثم ودعه وانصرف إلى الصحراء فأقام بها مواظبًا على الجهاد في كفار السودان إلى أن استشهد من سهم مسموم أصابه في شعبان سنة ثمانين وأربعمائة بعد أن استقام له أمر الصحراء كافة إلى جبال الذهب من بلاد السودان[١]، والله غالب على أمره.

الخبر عن دولة

أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتوني

اتفق على تقديمه أشياخ المرابطين لما يعلمون من فضله ودينه، وشجاعته ونجدته، وعدله، وورعه، وسداد رأيه ويمن نقيبته.

ولما انتهى يوسف بن تاشفين إلى ملوية ميز جيوشه فوجدها أربعين ألفًا من المرابطين فاختار منهم أربعة من القواد، وهم: سير بن أبي بكر اللمتوني، ومحمد بن تميم الكدالي، وعمر بن سليمان المسوفي، ومدرك التلكاني، وعقد لكل قائد منهم على خمسة آلاف من قبيلته، وجعلهم مقدمة بين يديه لقتال مَن بالمغرب من مغراوة وبني يفرن وسائر قبائل البربر القائمين به، ثم سار هو في أثرهم يتقرئ المغرب بلدًا بلدًا، ويتتبع أهله قبيلة قبيلة، فقوم يقاتلونه ثم يظفر بهم، وقوم يفرون بين يديه، وقوم يلقون إليه السلم ويبذلون الطاعة حتى دوخ بلاد المغرب، ثم سار حتى دخل مدينة أغمات، ولما استقر بها تزوج زينب بنت إسحاق النفزاوية ـ التي كانت تحت أبي بكر بن عمر ـ فكانت عنوان سعده، والقائمة بملكه، والمدبرة لأمره، والفاتحة عليه بحسن سياستها لأكثر بلاد المغرب، ومن ذلك إشارتها عليه في أمر أبي بكر بن عمر وكيفية ملاقاته ـ حسبما ذكرناه آنفا ـ، وهـكـذا كان أمرها في كل ما تحاوله، رحمها الله.

---

(١) قلت: أي بلاد مالي اليوم.

[٦٥] ومما يستطاب من حديثها ما حكاه ابن الأثير في (كامله) وقد تكلم على يوسف بن تاشفين هذا فقال:

«كان حسن السيرة، خيرًا عادلاً يميل إلى أهل العلم والدين يكرمهم ويحكمهم في بلاده، ويصدر عن رأيهم، وكان يحب العفو والصفح عن الذنوب العظام، من ذلك أن ثلاثة نفر اجتمعوا فتمنى أحدهم ألف دينار يتجر بها، وتمنى الآخر عملاً يعمل فيه لأمير المسلمين، وتمنى الآخر زوجته ـ وكانت من أحسن النساء ولها الحكم في بلاده ـ فبلغه الخبر فأحضرهم وأعطى متمني المال ألف دينار، واستعمل الآخر وقال للذي تمنى زوجته: يا جاهل! ما حملك على هـٰذا الذي لا تصل إليه؟ ثم أرسله إلى زوجته فتركته في خيمة ثلاثة ايام، ثم أمرت بأن يُحمل إليه في كل يوم طعام واحد ثم أحضرته وقالت له: ما أكلت في هـٰذه الثلاثة الأيام؟ قال طعامًا واحدًا.

فقالت له: كل النساء شيء واحد! وأمرت له بمال وكسوة وسرحته إلى حال سبيله.

وكانت وفاتها سنة أربع وستين وأربعمائة.

[٦٦] بناء مدينة مراكش

لما دخلت سنة أربع وخمسين وأربعمائة كان أمر يوسف بن تاشفين قد استفحل بالمغرب جدًا، ورسخت قدمه في الملك، وعظم صيته فسمت همته إلى بناء مدينة يأوي إليها بحشمه وجنده، وتكون حصنًا له ولأرباب دولته فاشترى موضع مدينة مراكش ممن كان يملكه من المصامدة.

[٦٧] وفي القرطاس: لما شرع يوسف بن تاشفين في بناء مسجد مراكش كان يحتزم ويعمل في الطين والبناء بيده مع الخدمة تواضعًا منه لله تعالى.

ولم تزل مراكش دار مملكة المرابطين ثم الموحدين من بعدهم سائر أيامهم.

ثم لما جاءت دولة بني مَرين من بعدهم اتخذوا كرسي مملكتهم بمدينة فاس وبنوا بها المدينة البيضاء.

ثم جاءت الدولة السعدية من بعدهم فنقلوا الكرسي إلى مراكش وبنو بها قصر

البديع المشهور.

ثم جاءت الدولة الشريفة العلوية فاتخذ المولى إسماعيل بن الشريف كرسي ملكه بمكناسة الزيتون، واحتفل في بنائها احتفالاً عظيمًا على ما نذكره إن شاء الله.

ثم لما كانت دولة المولى محمد بن عبد الله رد كرسي الملك إلى مراكش وبنى بها قصوره ومصانعه واستمرت كرسيًا لمملكتهم إلى الآن.

وعبر عنها أبو العباس المقري في نفخ الطيب (ببغداد المغرب) حرسها الله وصانها من ريب الزمان، وطوارق الحدثان.

[٦٨] فتح مدينة فاس وغيرها من سائر بلاد المغرب[١]

وفي سنة أربع وخمسين وأربعمائة المذكورة جند يوسف بن تاشفين الأجناد، واستكثر القواد، وفتح كثيراً من البلاد، واتخذ الطبول والبنود؛ ورتب العمال وكتب العهود، وجعل في جيشه الأغزاز [٢] والرماة كل ذلك إرهابًا لقبائل المغرب، فكمل له من الجيش في تلك السنة أكثر من مائة ألف فارس من قبائل صنهاجة وجزولة والمصامدة وزناتة والأغزاز والرماة، فخرج بهم من حضرة مراكش قاصدا مدينة فاس فتلقته قبائلها من زواغة ولماية ولواتة وصدينه وسدراته ومغيلة وبهلوله ومديونة وغيرهم في خلق عظيم، فقاتلوه فكانت بينه وبينهم ملاحم عظام انهزموا فيها من بين يديه، وانحصروا بمدينة صدينة فدخلها عليهم بالسيف عنوة فهدم أسوارها، وقتل بها ما يزيد على أربعة آلاف.

ثم رحل إلى فاس فنازلها بعد أن فتح جميع أحوازها وذلك في آخر سنة أربع وخمسين وأربعمائة.

---

(١) قلت: سيورد المصنف هنا أحداثًا صعبة في قتال ابن تاشفين لأهل المغرب، مما يُستغرب من مثله وهو مَن هو جهاداً لكفار الأندلس وإعزازاً لدين الإسلام، لكن لعل له عذراً فيما صنعه، والله تعالى أعلم، ولا أحب الاسترسال في الإعذار؛ إذ ليس من عادتي الاعتذار لسفك الدماء، ولو كانت من مثل ابن تاشفين، وما أحسن ما صنع الإمام الذهبي عندما أورد في سيرة صلاح الدين الأيوبي معاركه مع خلفاء الدولة النورية ثم عقب على ذلك بتقبيح القتال على الملك والسلطان، والله تعالى أعلم.

(٢) قلت: الأغزاز جمع غُز جنس من الترك. كما في القاموس. وهم هنا قسم من جيش المرتزقة.

ثم أقام يوسف على فاس أيامًا فظفر بعاملها بكار بن إبراهيم فقتله وارتحل عنها إلى مدينة صفرو فدخلها من يومه عنوة، وقتل ملوكها أولاد مسعود بن وانودين المغراوي صاحب سجلماسة وكانوا قد استولوا عليها.

ثم رجع يوسف إلى فاس فحاصرها حتى فتحها وهو الفتح الأول وذلك سنة خمس وخمسين وأربعمائة فأقام بها أيامًا، واستعمل عليها عاملاً من لمتونة، وخرج إلى بلاد غمارة ففتح الكثير منها حتى أشرف على طنجة فخالفه بنو معنصر بن حماد المغراوي إلى فاس فدخلوها وقتلوا عامل يوسف الذي كان بها.

وفي سنة ستين فتح جميع بلاد غمارة وجبالها من الريف إلى طنجة.

وفي سنة اثنتين وستين أقبل إلى فاس فنزل عليها بجميع جيوشه بعد أن فرغ من جميع بلاد المغرب سوى سبتة، وشدد الحصار على فاس حتى دخلها عنوة بالسيف فقتل بها من مغراوة وبني يفرن ومكناسة وغيرهم خلقًا كثيرًا حتى امتلأت أسواق المدينة وشوارعها بالقتلى، وقتل منهم بجامع القرويين وجامع الأندلس ما يزيد على ثلاثة آلاف! وفر من بقي منهم إلى أحواز تلمسان، وهـٰذا هو الفتح الثاني لمدينة فاس وكان يوم الخميس ثاني جمادى الآخرة سنة اثنتين وستين وأربعمائة.

فلما دخل يوسف مدينة فاس أمر بهدم الأسوار التي كانت فاصلة بين المدينتين: عدوة القرويين وعدوة الأندلس وصيّرهما مصرًا واحدًا وحصنها، وأمر ببنيان المساجد في شوارعها وأزقتها، وأي زقاق لا يوجد فيه مسجد عاقب أهله.

وفي سنة أربع وستين بعدها استدعى يوسف أمراء المغرب وأشياخ القبائل من زناتة وغمارة والمصامدة وسائر قبائل البربر فقدموا عليه وبايعوه، وكساهم ووصلهم بالأموال، ثم خرج للطواف على أعمال المغرب وتفقد أحوال الرعية والنظر في سيرة ولاته وعماله فيها ـ وهم في صحبته ـ فصلح على يده الكثير من أمور الناس.

وفي سنة سبع وستين وأربعمائة، فرق عماله على بلاد المغرب، فولى سير بن أبي بكر على مدائن مكناسة وبلاد مكلاثة وفازاز، وولى عمر بن سليمان على فاس وأحوازها، وداود بن عائشة على سجلماسة ودرعة، وولى ابنه تميم بن يوسف على مدينة مراكش وأغمات وبلاد السوس والمصامدة وتادلا وتامسنا، وصفا ملك المغرب ليوسف بن تاشفين سوى سبتة وطنجة.

ثم دخلت سنة سبعين وأربعمائة فجهز إليها قائده صالح بن عمران في اثني عشر ألف فارس من المرابطين وعشرين ألفًا من سائر قبائل المغرب، وسار المرابطون إلى طنجة فدخلوها واستولوا عليها.

وفي سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة بعث يوسف بن تاشفين قائده مزدلي بن تيلكان اللمتوني لغزو تلمسان والمغرب الأوسط فسار إليها في عشرين ألفًا من المرابطين.

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وأربعمائة فيها زحف يوسف بن تاشفين إلى مدينة وجدة ففتحها، ثم سار إلى تلمسان ففتحها فصارت ثغرًا لمملكته، ثم افتتح مدينة تنس ووهران وجبل وانشريس وجميع أعمال شلف إلى الجزائر، وانكفأ راجعًا إلى المغرب فدخل مراكش في ربيع الآخر سنة خمس وسبعين وأربعمائة.

[٦٩] ثم ورد عليه بها كتاب المعتمد بن عباد يعلمه بحال بلاد الأندلس وما آل إليه أمرها من تغلب العدو على أكثر ثغورها ويسأله النصر والإعانة فأجابه يوسف بقوله: «إذا فتح الله عليّ سبتة اتصلت بكم وبذلت جهدي في جهاد العدو!» وكان الفنش قد تحرك في هذه السنة في جيوش لا تحصى من الإفرنج والبشكنس والجلالقة وغيرهم فشق بلاد الأندلس شقًا يقف على كل مدينة منها فيفسد ويخرب ويقتل ويسبي ثم يرتحل إلى غيرها، ونزل على إشبيلية فأقام عليها ثلاثة أيام فأفسد وخرب، وكذلك فعل في شدونة وأحوازها، وخرب بشرق الأندلس قرى كثيرة ثم صار حتى وصل جزيرة طريف فأدخل قوائم فرسه في البحر وقال: «هذا آخر بلاد الأندلس قد وطئته!» ثم رجع إلى مدينة سرقسطة فنزل عليها وحاصرها وحلف أن لا يرتحل عنها حتى يدخلها أو يحول الموت دونها، وأراد أن يقدمها بالفتح على غيرها فبذل إليه أميرها المستعين بن هود مالاً عظيمًا فلم يقبله منه وقال: «المال والبلاد لي!»، وبعث إلى كل قاعدة من قواعد الأندلس جيشًا لحصارها والتضييق عليها، ثم ملك مدينة طليطلة من يد صاحبها القادر بن ذي النون سنة سبع وسبعين وأربعمائة، فكان ذلك من أقوى الأسباب المحركة لعزائم المسلمين بالأندلس والمغرب على الجهاد.

عباد إلى الأندلس ونزل ليوسف عن الجزيرة الخضراء لتكون رباطًا لجهاده، ودخل يوسف سبتة فنظر في أمرها وأصلح سفنها، وقدمت عليه بها جنود الله من المغرب والصحراء والقبلة والزاب، فشرع في إجازتها إلى الأندلس.

[٧١] ولما تكاملت بساحل الخضراء عبر هو في أثرها في موكب عظيم من قواد المرابطين وأنجادهم وصلحائهم، فلما استوى على ظهر السفينة رفع يديه، وقال:

«اللهم إن كنت تعلم أن في جوازنا هـذا صلاحًا للمسلمين فسهل علينا هـذا البحر حتى نعبره، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا نعبره، فسهل الله عليهم العبور في أسرع وقت، وكان ذلك يوم الخميس عند الزوال، منتصف ربيع الأول سنة تسع وسبعين وأربعمائة، ونزل بالخضراء فصلى بها الظهر من يومه ذلك، ولقيه المعتمد ابن عباد صاحب إشبيلية وابن الأفطس صاحب بطليوس وغيرهما من ملوك الأندلس».

[٧٢] واتصل الخبر بالأذفونش وهو محاصر لسرقسطة فارتحل عنها وقصد نحو أمير المسلمين وبعث إلى ابن رذمير والبرهانس وغيرهما من كبار النصرانية، واستنفر أهل قشتالة وجليقية وسائر المجاورين له من أمم النصرانية فاجتمع له منهم ما يفوت الحصر، وصمد إلى ابن تاشفين والمسلمين.

وكان المعتمد قد جمع عساكره أيضًا، وخرج من أهل قرطبة عسكر كبير، وقصده المطوعة من سائر بلاد الأندلس.

[٧٣] ووصلت الأخبار إلى الأذفونش فجمع عساكره وحشد جنوده، وسار من طليطلة وكتب إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين كتابًا كتبه له بعض غواة أدباء المسلمين يغلظ له في القول ويصف ما معه من القوة والعدد وبالغ في ذلك، فلما وصل وقرأه يوسف أمر كاتبه أبا بكر بن القصيرة أن يجيبه ـ وكان كاتبًا مُفْلِقًا ـ فكتب وأجاد، فلما قرأه على أمير المسلمين قال: «هـذا كتاب طويل» وأحضر كتاب الأذفونش وكتب على ظهره (الذي يكون ستراه!) وأرسله إليه، فلما وقف عليه الأذفونش ارتاع له وعلم أنه بُلي برجل له دهاء وعزم.

وذكر ابن خلكان: أن يوسف بن تاشفين أمر بعبور الجمال فعبر منها ما أغص الجزيرة وارتفع رغاؤها إلى عنان السماء، ولم يكن أهل الجزيرة رأوا جملاً قط ولا

خيلهم رأتها قط، فصارت الخيل تجمح من رؤية الجمال ورغائها، وكان ليوسف في عبورها رأي مصيب، فكان يُخْدِق بها عسكره ويُحضرها الحرب، فكانت خيل الفرنج تجمح منها.

وقدم يوسف بن تاشفين بن يديه كتابًا للأذفونش يعرض عليه فيه الدخول في الإسلام أو الجزية أو الحرب كما هي السنة، ومن جملة ما في الكتاب:

[٧٤] بلغنا يا أذفونش أنك دعوت الله في الاجتماع بنا، وتمنيت أن تكون لك سفن تعبر عليها البحر إلينا، فقد عبرناه إليك: وقد جمع الله - تعالىٰ - في هٰذه العَرَصة بيننا وبينك، وسترىٰ عاقبة دعائك! وما دعاء الكافرين إلَّا في ضلال! فلما سمع الأذفونش ما كتب إليه يوسف جاش بحر غيظه، وزاد في طغيانه، وأقسم ألَّا يبرح من موضعه حتىٰ يلقاه.

[٧٥] وخرج المعتمد إلىٰ لقاء يوسف من إشبيلية في مائة فارس من وجوه أصحابه، فلما أتىٰ محلة يوسف ركض نحوهم وركضوا نحوه، ثم برز إليه يوسف وحده والتقيا منفردين وتصافحا وتعانقا، وأظهر كل منهما لصاحبه المودة والخلوص وشكرا نعم الله، وتواصيا بالصبر والرحمة، وبشرا أنفسهما بما استقبلاه من غزو أهل الكفر، وتضرعا إلىٰ الله في أن يجعل ذلك خالصًا لوجهه مقربًا إليه، وافترقا فعاد يوسف لمحلته وابن عباد إلىٰ جهته، وألحق ابن عباد ما كان أعده من هدايا وتحف وضيافات أوسع بها علىٰ محلة يوسف بن تاشفين.

وباتوا تلك الليلة فلما أصبحوا وصلوا الصبح ركب الجميع وأشار ابن عباد علىٰ يوسف بالتقدم نحو إشبيلية ففعل، ورأىٰ الناس من عزة سلطانهم ما سرهم، ولم يبق من ملوك الطوائف بالأندلس إلَّا من بادر أو أعان، وكذلك فعل الصحراويون مع يوسف أهل كل صقع من أصقاعه رابطوا وكابدوا.

[٧٦] وكان الأذفونش لما رأىٰ اجتماع العزائم علىٰ مناجزته علم أنه عام نطاح، فاستنفر الفرنجة للخروج، ورفع القسيسون والرهبان والأساقفة صلبانهم ونشروا أناجيلهم فاجتمع له من الجلالقة والإفرنج ما لا يحصىٰ عدده، وجواسيس كل فريق تتردد من الجميع، وبعث الأذفونش إلىٰ ابن عباد:

[٧٧] «إن صاحبكم يوسف قد تعنىٰ بالمجيء من بلاده وخوض البحر وأنا أكفيه

العناء فيما بقي ولا أكلفكم تعبًا: أمضي إليكم وألقاكم في بلادكم رفقًا بكم وتوفيراً عليكم!».

[٧٨] وقال لخاصته وأهل مشورته: «إني رأيت أني إن أمكنتهم من الدخول إلىٰ بلادي فناجزوني فيها وبين جدرها ـ وربما كانت الدائرة علي ـ يستحكمون البلاد ويحصدون من فيها في غداة واحدة! ولكني أجعل يومهم معي في حوز بلادهم فإن كانت علي اكتفوا بما نالوه، ولم يجعلوا الدروب وراءهم إلَّا بعد أهبة أخرىٰ فيكون في ذلك صون لبلادي وجبر لمكاسري، وإن كانت الدائرة عليهم كان مني فيهم وفي بلادهم ما خفت أن يكون في وفي بلادي إذا ناجزوني في وسطها!».

[٧٩] ثم برز بالمختار من جنوده وأنجاد جموعه علىٰ باب دربه، وترك بقية جموعه خلفه وقال حين نظر إلىٰ ما اختاره منهم: «بهؤلاء أقاتل الجن والإنس وملائكة السماء!» فالمقلل يقول: «المختارون أربعون ألف دارع ولكل واحد أتباع!»، وأما النصارىٰ فيعجبون ممن يزعم ذلك ويرون أنهم أكثر من ذلك كله، واتفق الكل أن عدد المسلمين كان أقل من عدد الكفار.

[٨٠] ورأىٰ الأذفونش في نومه كأنه راكب فيلاً وبين يديه طبل صغير وهو ينقر فيه، فقص رؤياه علىٰ القسيسين فلم يعرفوا تأويلها، فأحضر رجلاً مسلماً عالمًا بتفسير الرؤيا فقصها عليه، فاستعفاه من تعبيرها فلم يعفه، فقال: «تأويل هذه الرؤيا من كتاب الله ـ تعالىٰ ـ وهو قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١] إلىٰ آخر السورة، وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ * فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٨ـ١٠] وذلك يقتضي هلاك هذا الجيش الذي تجمعه!»، فلما اجتمع جيشه ورأىٰ كثرته أعجبه فأحضر ذلك المعبر وقال له: بهذا الجيش ألقىٰ إله محمد صاحب كتابكم! فانصرف المعبر وقال لبعض المسلمين: «هذا الملك هالك وكل من معه!» وذكر الحديث: ثلاث مهلكات وفيه: وإعجاب المرء بنفسه!».

ثم خرج الأذفونش إلىٰ بلاد الأندلس وتقدم السلطان يوسف نحوه أيضًا وتأخر ابن عباد لبعض مهماته، ثم انزعج يقفو أثره بجيش فيه حماة الثغور ورؤساء الأندلس وجعل ابنه عبد الله علىٰ مقدمته، وسار وهو ينشد متفائلاً ببيت سائر،

الخبر عن الغزوة الكبرى بالزلاقة من أرض الأندلس

[٧٠] لما انقرضت دولة بني أمية بالأندلس صدر المائة الخامسة بعد نزاع شديد، وقتال منهم عريض مديد، وخلفتها الدولة الحمودية فلم يطل أمدها حتى اقتسمت رؤساء الأندلس مملكتها، وتوزعوا أعمالها وصارت الحال إلى ما قال ابن الخطيب:

حتى إذا سلك الخلافة انتثر   وذهب العين جميعاً والأثر
قام بكل بقعة مليكُ   وصاح فوق كل غصن ديكْ

فوجد العدو السبيل إلى الاستيلاء على ثغور المسلمين، وانتهاز الفرصة فيها بالتضريب بين ملوكها وإغراء بعضهم ببعض، وكان منهم ابن عباد بإشبيلية، وابن الأفطس ببطليوس؛ وابن ذي النون بطليطلة؛ وابن هود بسرقسطة؛ ومجاهد العامري بدانية؛ وغير هؤلاء، وكلهم يداري الطاغية ويتقيه بالجزية إلى أن كان من أمر الأذفونش ما كان من تخريب بلاد المسلمين، واستيلائه على طليطلة بعد حصاره إياها سبع سنين، ثم حصاره سرقسطة.

فلما رأى رؤساء الأندلس ما نزل بهم من مضايقة عدو الدين، واستطالته على ثغور المسلمين أجمع رأيهم على إجازة يوسف بن تاشفين، فكاتبه أهل الأندلس كافة من الخاصة والعلماء يستصرخونه في تنفيس العدو عن مختنقهم، ويكونون معه يداً واحدة عليه.

فلما تواترت رسلهم وكتبهم عليه بعث ابنه المعز بن يوسف في عساكر المرابطين إلى سبتة فرضة المجاز [١] فنازلها براً وأحاطت بها أساطيل ابن عباد بحراً فاقتحموها عنوة في ربيع الآخر سنة سبع وسبعين وأربعمائة.

ففرح يوسف بفتح سبتة وخرج من حينه قاصداً نحوها ليعبر منها إلى الأندلس.

ولما سمع المعتمد ابن عباد بفتح سبتة ركب البحر إلى المغرب لاستنفار يوسف إلى الجهاد، فلقيه، فأخبره بحال الأندلس وما هي عليه من الضعف وشدة الخوف والاضطراب، وما يلقاه المسلمون من عدوهم من القتل والأسر والحصار كل يوم.

فقال له يوسف: «ارجع إلى بلادك وخذ في أمرك فإني على أثرك» فرجع ابن

(١) قلت: فرضة المجاز هي: الميناء الذي يُجاز منه إلى الأندلس.

مجيزاً له بأبيات من شعره:

لا بد من فــرج قــريــب	يأتيك بالعجب العجيب
غــزو عليك مــبـارك	سيعود بالفتح القريب
لله سعــدك إنـــه	نكس على دين الصليب
لا بد من يوم يكون له	أخا يوم القليب

ووافت الجيوش كلها بطليوس فأناخوا بظاهرها، وخرج إليهم صاحبها المتوكل عمر بن محمد بن الأفطس، فلقيهم بما يجب من الضيافات والأقوات وبذل المجهود، ثم جاءهم الخبر بشخوص الأذفونش إليهم.

وقال ابن أبي زرع:

«ارتحل يوسف بن تاشفين من الخضراء قاصداً نحو الأذفونش وقدم بين يديه قائده أبا سليمان داود بن عائشة ـ وكان بطلاً من الأبطال ـ في عشرة آلاف فارس من المرابطين، بعد أن قدم أمامه المعتمد ابن عباد مع أمراء الأندلس وجيوشهم، فأمرهم يوسف أن يكونوا مع المعتمد فتكون محلة ملوك الأندلس واحدة، ومحلة المرابطين أخرىٰ، فتقدم بهم ابن عباد فكانوا إذا ارتحل ابن عباد من موضع نزله يوسف بمحلته، فلم يزالوا كذلك حتىٰ نزلوا مدينة طرطوشة، فأقاموا بها ثلاثًا، ثم ارتحل يوسف وارتحل الأذفونش حتىٰ نزلا معًا بالقرب من بطليوس، وكان نزول يوسف بموضع يعرف بالزلاقة (١) وتقدم المعتمد فنزل ناحية أخرىٰ تحجز بينه وبين يوسف ربوة، وبين المسلمين والفرنج نهر بطليوس حاجزاً يشرب منه هٰؤلاء وهٰؤلاء، فأقاموا ثلاثة أيام، والرسل تختلف بينهم إلىٰ أن وقع اللقاء».

[٨١] ثم قامت الأساقفة والرهبان ورفعوا صلبانهم ونشروا أناجيلهم وتبايعوا علىٰ الموت.

[٨٢] ووعظ يوسف وابن عباد أصحابهما، وقام الفقهاء والصالحون في الناس مقام الوعظ، وحضوهم علىٰ الصبر والثبات وحذروهم من الفشل والفرار.

وجاءت الطلائع تخبر أن العدو مشرف عليهم صبيحة يومهم، وهو يوم

---

(١) قال المحقق: ويسميه النصارىٰ ساكر الياس هكذا: «Sacralias».

الأربعاء، فأصبح المسلمون وقد أخذوا مصافهم فكَعّ الأذفونش ورجع إلى أعمال المكر والخديعة، فعاد الناس إلى محلاتهم وباتوا ليلتهم.

[٨٣] ثم أصبح يوم الخميس فبعث الأذفونش إلى ابن عباد يقول: «غداً يوم الجمعة وهو عيدكم والأحد عيدنا فليكن لقاؤنا بينهما وهو يوم السبت!»، فعرف المعتمد بذلك السلطان يوسف وأعلمه أنها حيلة منه وخديعة وإنما قصده الفتك بنا يوم الجمعة، فليكن الناس على استعداد له يوم الجمعة كل النهار، وبات الناس ليلتهم على أهبة واحتراس كما أشار ابن عباد.

[٨٤] وبعد مضي جزء من الليل انتبه الفقيه الناسك أبو العباس أحمد بن رميلة القرطبي ـ وكان في محلة ابن عباد ـ فرحًا مسروراً يقول: «إنه رأى النبي ﷺ تلك الليلة في النوم فبشره بالفتح والموت على الشهادة في صبيحة تلك الليلة» فتأهب ودعا وتضرع ودهن رأسه وتطيب، وانتهى ذلك إلى ابن عباد فبعث إلى يوسف يخبره بها تحقيقًا لما توقعه من غدر العدو الكافر، ثم جاء بالليل فارسان من طلائع المعتمد يخبران أنهما أشرفا على محلة الأذفونش، وسمعا ضوضاء الجيش وخشخشة السلاح، ثم تلاحق بقية الطلائع محققين لتحرك الأذفونش، ثم جاءت الجواسيس من داخل محلتهم تقول: «استرقنا السمع فسمعنا الأذفونش يقول لأصحابه: «ابن عباد مسعر هذه الحروب، وهؤلاء الصحراويون وإن كانوا أهل حفاظ وذوي بصائر في الحرب فهم غير عارفين بهذه البلاد، وإنما قادهم ابن عباد فاهجموا عليه واصبروا له، فإن انكشف لكم هان عليكم الصحراويون بعده، ولا أراه يصبر لكم إن صدقتموه الحملة»، فعند ذلك بعث ابن عباد الكاتب أبا بكر بن القصيرة إلى السلطان يوسف يعرفه بإقبال الأذفونش ويستحث نصرته، فمضى ابن القصيرة يطوي المحلات حتى جاء يوسف بن تاشفين فعرّفه بجَلِيّة الأمر فقال له: «قل له: إني سائر إليك إن شاء الله»، وأمر يوسف بعض قواده أن يمضي بكتيبة رسمها له حتى يدخل محلة النصارى فيضرمها ناراً ما دام الأذفونش مشتغلاً مع ابن عباد.

[٨٥] وانصرف ابن القصيرة إلى المعتمد فلم يصله إلّا وقد غشيته جنود الطاغية فصدم ابن عباد صدمة قطعت آماله، ومال الأذفونش عليه بجموعه وأحاطوا به من

كل جهة فهاجت الحرب وحمي الوطيس، واستحر القتل في أصحاب ابن عباد وصبر صبراً لم يعهد مثله، واستبطأ السلطان يوسف وعضته الحرب واشتد عليه وعلى أصحابه البلاء وساءت الظنون وانكشف البعض منهم ـ وفيهم ابنه عبد الله بن المعتمد ـ وأُثخن هو جراحات في رأسه وبدنه وعقرت تحته في ذلك اليوم ثلاثة أفراس كلما هلك واحد قدم له آخر.

ثم كان أول من وافى ابن عباد من قواد يوسف بن تاشفين داود بن عائشة ـ وكان بطلاً شهماً ـ فنفس بمجيئه على ابن عباد، ثم أقبل يوسف بعد ذلك ـ وطبوله قد ملأت أصواتها الجو ـ فلما أبصره الأذفونش وجه حملته إليه وقصده بمعظم جنوده فبادر إليهم السلطان يوسف وصدمهم صدمة ردتهم إلى مركزهم وانتظم به شمل ابن عباد واستنشق الناس ريح الظفر وتباشروا بالنصر، ثم صدقوا جميعًا الحملة فزلزلت الأرض من حوافر الخيل، وأظلم النهار بالعجاج، وخاضت الخيل في الدماء وصبر الفريقان صبراً عظيماً.

ثم تراجع ابن عباد إلى يوسف وحمل معه حملة معها النصر وتراجع المنهزمون من أصحاب ابن عباد حين علموا بالتحام الفئتين، وصدقوا الحملة فانكشف الطاغية ومر هاربًا منهزمًا وقد طُعن في إحدى ركبتيه طعنة بقي يخمع بها بقية عمره.

[٨٦] قالوا: وكان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين على فرس يومئذ أنثى يمر بين ساقات المسلمين وصفوفهم يحرضهم ويقوي نفوسهم على الجهاد ويحضهم على الصبر، فقاتل الناس ذلك اليوم قتال من يطلب الشهادة ويرغب في الموت.

وهبت ريح النصر، فأنزل الله سكينته على المسلمين ونصر دينه القويم، وصدقوا الحملة على الأذفونش وأصحابه فأخرجوهم عن محلتهم فولوا ظهورهم وأعطوا أقفاءهم ـ والسيوف تصفعهم والرماح تطعنهم ـ إلى أن لحقوا بربوة لجأوا إليها واعتصموا بها وأحدقت بهم الخيل، فلما أظلم الليل انساب الأذفونش وأصحابه من الربوة وأفلتوا من بعد ما نشبت فيهم أظفار المنية، واستولى المسلمون على ما كان في محلتهم من الأثاث والآنية والمضارب والأسلحة وغير ذلك، وأمر ابن عباد بضم رؤوس قتلى المشركين فاجتمع من ذلك تل عظيم.

[٨٧] **وقال صاحب الروض المعطار:** «لجأ الأذفوش إلى تل كان يلي محلته في

نحو خمسمائة فارس ما منهم إلَّا مكلوم، وأباد القتل والأسر من عداهم من أصحابه، وعمل المسلمون من رؤوسهم مآذن يؤذنون عليها والمخذول ينظر إلى موضع الوقيعة ومكان الهزيمة فلا يرى إلَّا نكالاً محيطًا به وبأصحابه».

وأقبل ابن عباد على السلطان يوسف وصافحه وهنأه وشكره وأثنى عليه، وشكر يوسف صبر ابن عباد ومقامه وحسن بلائه وسأله عن حاله عندما أسلمته رجاله بانهزامهم عنه فقال له: «ها هم هؤلاء قد حضروا بين يديك فليخبروك».

واستشهد في ذلك اليوم جماعة من الفضلاء والعلماء، مثل ابن رميلة صاحب الرؤيا المذكورة وقاضي مراكش أبي مروان عبد الملك المصمودي وغيرهما، رحم الله الجميع.

وحكي أن موضع المعترك كان على اتساعه ما فيه موضع قدم إلَّا على ميت أو دم.

[٨٨] وأقامت العساكر بالموضع أربعة أيام حتى جمعت الغنائم واستؤذن في ذلك السلطان يوسف فعف عنها وآثر بها ملوك الأندلس، وعرفهم أن مقصوده الجهاد والأجر العظيم، وما عند الله في ذلك من الثواب المقيم، فلما رأت ملوك الأندلس إيثار يوسف لهم بالغنائم استكرموه وأحبوه وشكروا له صنعه، وأمر أمير المسلمين بقطع رؤوس القتلى وجمعها فقطعت وجمع بين يديه منها أمثال الجبال، فبعث منها إلى إشبيلية عشرة آلاف رأس، وإلى قرطبة مثل ذلك، وإلى بلنسية مثلها، وإلى سرقسطة ومرسية مثلها، وبعث إلى بلاد العدوة أربعين ألف رأس، فقسمت على مدن العدوة ليراها الناس فيشكروا الله على ما منحهم من النصر والظفر العظيم.

[٨٩] قال ابن أبي زرع: وفي هذا اليوم تسمى يوسف بن تاشفين بأمير المسلمين ولم يكن يُدعى به قبل ذلك، وأظهر الله - تعالى - الإسلام وأعز أهله، وكتب أمير المسلمين بالفتح إلى بلاد العدوة وإلى تميم بن المعز الصنهاجي صاحب إفريقية، فعمت المفرحات في جميع بلاد إفريقية والمغرب والأندلس، واجتمعت كلمة الإسلام، وأخرج الناس الصدقات، وأعتقوا الرقاب شكرًا لله تعالى.

[٩٠] ولما بلغ الأذفونش إلى بلاده وسأل عن أصحابه وأبطاله ففقدهم ولم

يسمع إلَّا نواح الثكالىٰ عليهم اغتم ولم يأكل ولم يشرب حتىٰ هلك أسفًا وغمًا، وراح إلىٰ أمه الهاوية، ولم يخلف إلَّا بنتًا واحدة جعل الأمر إليها فتحصنت بطليطلة.

ورحل المعتمد إلىٰ إشبيلية ومعه السلطان يوسف بن تاشفين فأقام يوسف بظاهر إشبيلية ثلاثة أيام، وورد عليه الخبر بوفاة ولده أبي بكر بن يوسف ـ وكان قد تركه مريضًا بسبتة ـ فاغتم لذلك وانصرف راجعًا إلىٰ العدوة، وذهب معه ابن عباد يومًا وليلة، فعزم عليه يوسف في الرجوع إلىٰ منزله، وكانت جراحاته قد تورمت عليه، فسير معه ولده عبد الله إلىٰ أن وصل البحر وعبر إلىٰ المغرب.

[٩١] ولما رجع ابن عباد إلىٰ إشبيلية جلس للناس وهُنِّئ بالفتح، وقرأت القراء، وقامت علىٰ رأسه الشعراء فأنشدوه، قال عبد الجليل بن وهبون: حضرت ذلك اليوم وأعددت قصيدة أنشدها بين يديه، فقرأ قارئ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٤٠] فقلت: بعدًا لي ولشعري! والله ما أبقت لي هـٰذه الآية معنىٰ أحضره وأقوم به. اهـ.

ومن هنا اختلفت أقوال المؤرخين في حال أمير المسلمين في الجهاد، فقيل: إنه لم يرجع إلىٰ بلاد الأندلس بعد هـٰذه المرة لكنه ترك قواده فيها ورسم لهم بالجهاد وشن الغارات علىٰ بلاد العدو. وقيل: إنه عاد إليها ثانيًا وثالثًا، وعلىٰ هـٰذا القول فاختلفوا في زمان ذلك العود وتاريخه، والله تعالىٰ أعلم.

بقية أخبار أمير المسلمين في الجهاد
وما اتفق له مع ملوك الأندلس وكبيرهم ابن عباد

وفي تاريخ ابن خلدون، قال:

«أجاز يوسف بن تاشفين البحر إلىٰ الأندلس الجواز الثاني سنة ست وثمانين وأربعمائة، وتثاقل أمراء الطوائف عن لقائه لما أحسوا من نكيره عليهم لما يَسِمون به رعاياهم من الظلامات والمكوس وتلاحق المغارم، فوجد عليهم، وعهد برفع المكوس وتحرىٰ المعدلة».

[٩٢] وقال أيضًا: «إن الفقهاء بالأندلس طلبوا من يوسف بن تاشفين رفع المكوس والظلامات عنهم، فتقدم بذلك إلىٰ ملوك الطوائف فأجابوه بالامتثال،

حتى إذا رجع عن بلادهم رجعوا إلى حالهم».

فلما أجاز ثانية انقبضوا عنه إلَّا ابن عباد فإنه بادر إلى لقائه وأغراه بالكثير منهم.

وتوافق ملوك الطوائف على قطع المدد عن عساكر أمير المسلمين ومحلاته، فساء نظره وافتاه الفقهاء وأهل الشورى من المغرب والأندلس بخلعهم وانتزاع الأمر من أيديهم، وسارت إليه بذلك فتاوى أهل المشرق الأعلام مثل الغزالي والطرطوشي وغيرهما.

[٩٣] فعمد إلى غرناطة واستنزل صاحبها عبد الله بن بلكين وأخاه تميمًا عن مالقة، بعد أن كان منهما مداخلة للطاغية في عداوة يوسف بن تاشفين، وبعث بهما إلى المغرب، فخاف ابن عباد عند ذلك منه وانقبض عن لقائه، وفشت السعايات بينهما، ونهض أمير المسلمين إلى سبتة فاستقر بها وعقد للأمير سير بن أبي بكر على الأندلس وأجازه، فانتهى إليها، وقعد ابن عباد عن تلقيه وميرته فأحفظه ذلك وطالبه بالطاعة لأمير المسلمين والنزول عن الأمر، ففسد ذات بينهما ثم غلبه على جميع عمله، ثم صمد إلى إشبيلية فحاصره بها واستنجد الطاغية(١)، فعمد إلى استنقاذه من هذا الحصار فلم يغن عنه شيئًا، واقتحم المرابطون إشبيلية عنوة سنة أربع وثمانين وأربعمائة، وتقبض سير على المعتمد وقاده أسيرًا إلى مراكش، فلم يزل في اعتقال يوسف بن تاشفين إلى أن هلك في محبسه من أغمات سنة تسعين وأربعمائة.

[٩٤] ثم عمد إلى بطليوس وتقبض على صاحبها عمر بن الأفطس فقتله وابنيه يوم الأضحى سنة تسع وثمانين وأربعمائة بما صح عنده من مداخلتهم الطاغية وأن يملكه مدينة بطليوس.

ثم أجاز يوسف بن تاشفين الجواز الثالث إلى الأندلس سنة تسعين وأربعمائة، وزحف إليه الطاغية، فبعث أمير المسلمين عساكر المرابطين، فانهزم النصارى وكان الظهور للمسلمين.

ثم أجاز الأمير يحيى بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين سنة ثلاث وتسعين، وانضم إليه محمد بن الحاج، وسير بن أبي بكر، فافتتحوا عامة الأندلس من أيدي

---

(١) قلت: وهذا الفعل - إن صح من المعتمد - فهو خطيئة كبرى، وتمزيق لعقيدة الولاء والبراء.

ملوك الطوائف، ولم يبق منها إلّا سرقسطة في يد المستعين بن هود معتصمًا بالنصارىٰ، وأغزىٰ الأمير مزدلي صاحب بلنسية إلىٰ بلاد برشلونة فأثخن فيها، وبلغ إلىٰ حيث لم يبلغ أحد قبله ورجع.

وانتظمت بلاد الأندلس في ملكة يوسف بن تاشفين وانقرض ملك الطوائف منها أجمع كأن لم يكن، واستولىٰ أمير المسلمين علىٰ العدوتين معا واتصلت هزائم المرابطين علىٰ الفرنج مراراً والله غالب علىٰ أمره». فهـٰذا كلام ابن خلدون في سياقه هـٰذه الأخبار.

[٩٥] واعلم أنه قد يوجد هنا لبعض المؤرخين حط من رتبة أمير المسلمين وغض عليه إما في كونه كان بربريًا من أهل الصحراء بعيداً عن مناحي الملك والأدب ورقة الحاشية، وإما في كونه تحامل علىٰ ملوك الأندلس حتىٰ فعل بهم ما فعل، وذلك حين عاين حسن بلادهم ورفاهية عيشهم.

واعلم أن هـٰذا الكلام جدير بالرد، وأصله من بعض أدباء الأندلس الذين كانوا ينادمون ملوكها، ويستظلون بظلهم، ويغدون ويروحون في نعمتهم، فحين فعل أمير المسلمين بسادتهم ورؤسائهم ما فعل أخذهم من ذلك ما يأخذ النفوس البشرية من الذب عن الصديق والمحاماة عن القريب حتىٰ باللسان، وإلا فقد كان أمير المسلمين ـ رحمه الله ـ من الدين والورع علىٰ ما قد علمت، ومن ركوب الجادة وتحري طريق الحق علىٰ الوصف الذي سمعت!

وهـٰذا ابن خلدون إمام الفن ومتحري الصدق، قد نقل أن ملوك الأندلس كانوا يظلمون رعاياهم بضرب المكوس وغيرها، ثم وصلوا أيديهم بالطاغية وبذلوا له الأموال في مظاهرته إياهم علىٰ أمير المسلمين، ثم لم يقدم علىٰ قتالهم واستنزالهم عن سرير ملكهم حتىٰ تعددت لديه فتاوىٰ الأئمة الأعلام من أهل المشرق والمغرب بذلك فافهم هـٰذا واعرفه، والله تعالىٰ يقابل الجميع بالعفو والصفح الجميل بمنه وكرمه.

۞۞۞

بقية أخبار
أمير المسلمين يوسف بن تاشفين سوى ما تقدم

قال ابن خلكان: «كان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين حازمًا، سائسًا للأمور، ضابطًا لمصالح مملكته، مؤثرًا لأهل العلم والدين، كثير المشورة لهم».

[٩٦] قال: «وبلغني أن الإمام حجة الإسلام أبا حامد الغزالي - رحمه الله - لما سمع ما هو عليه من الأوصاف الحميدة، وميله إلىٰ أهل العلم، عزم إلىٰ التوجه إليه، فوصل إلىٰ الإسكندرية وشرع في تجهيز ما يحتاج إليه، فجاء إليه الخبر بوفاته، فرجع عن ذلك العزم».

قال: «وكنت وقفت علىٰ هٰذا الفصل في بعض الكتب وقد ذهب عني في هٰذا الوقت من أين وجدته».

وكان أمير المسلمين يوسف معتدل القامة، أسمر اللون، نحيف الجسم، خفيف العارضين، دقيق الصوت.

وكان يخطب لبني العباس، وهو أول من تسمىٰ بأمير المسلمين.

ولم يزل علىٰ حاله وعزه وسلطانه إلىٰ أن توفي يوم الإثنين لثلاث خلون من المحرم سنة خمسمائة، وعاش تسعين سنة، ملك منها مدة خمسين سنة رحمه الله.

[٩٧] وقال ابن خلدون: «تسمىٰ يوسف بن تاشفين بأمير المسلمين، وخاطب الخليفة لعهده ببغداد - وهو أبو العباس أحمد المستظهر بالله العباسي - وبعث إليه عبدالله بن محمد بن العربي المعافري الإشبيلي وولده القاضي أبا بكر بن العربي الإمام المشهور، فتلطفا في القول وأحسنا في الإبلاغ، وطلبا من الخليفة أن يعقد لأمير المسلمين بالمغرب والأندلس، فعقد له، وتضمن ذلك مكتوب من الخليفة منقول في أيدي الناس، وانقلبا إليه بتقليد الخليفة وعهده علىٰ ما إلىٰ نظره من الأقطار والأقاليم، وخاطبه الإمام الغزالي والقاضي أبو بكر الطرطوشي يحضانه علىٰ العدل والتمسك بالخير».

وإنما احتاج أمير المسلمين إلىٰ التقليد من الخليفة المستظهر بالله - مع أنه كان بعيداً

عنه وأقوىٰ شوكةً منه ـ لتكون ولايته مستندة إلىٰ الشرع، وهذا من ورعه رحمه الله.

وإنما تسمىٰ بأمير المسلمين دون أمير المؤمنين أدبًا مع الخليفة، حتىٰ لا يشاركه في لقبه لأن لقب أمير المؤمنين خاص بالخليفة، والخليفة من قريش كما في الحديث فافهم.

[٩٨] ومن أخبار يوسف بن تاشفين أيضًا ما نقله غير واحد من الأئمة، أن أمير المسلمين طلب من أهل البلاد المغربية والأندلسية المعاونة بشيء من المال علىٰ ما هو بصدده من الجهاد، وأنه كاتب إلىٰ قاضي المرية [١] أبي عبد الله محمد بن يحيىٰ ـ عرف بابن البراء ـ يأمره بفرض معونة المرية، ويرسل بها إليه، فامتنع محمد بن يحيىٰ من فرضها، وكتب إليه يخبره بأنه لا يجوز له ذلك، فأجابه أمير المسلمين بأن القضاة عندي والفقهاء قد أباحوا فرضها، وأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد فرضها في زمانه. فراجعه القاضي عن ذلك بكتاب يقول فيه:

«الحمد لله الذي إليه مآبنا، وعليه حسابنا، وبعد: فقد بلغني ما ذكره أمير المسلمين من اقتضاء المعونة وتأخري عن ذلك، وأن أبا الوليد الباجي وجميع القضاة والفقهاء بالعدوة والأندلس أفتوه بأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اقتضاها، فالقضاة والفقهاء إلىٰ النار دون زبانية، فإن كان عمر اقتضاها فقد كان صاحب رسول الله ﷺ ووزيره وضجيعه في قبره، ولا يشك في عدله، وليس أمير المسلمين بصاحب رسول الله ﷺ ولا بوزيره ولا بضجيعه في قبره ولا ممن لا يشك في عدله. فإن كان القضاة والفقهاء أنزلوك منزلته في العدل فالله ـ تعالىٰ ـ سائلهم وحسيبهم عن تقلدهم فيك، وما اقتضاها عمر رضي الله عنه حتىٰ دخل مسجد رسول الله ﷺ، وحضر من كان معه من الصحابة رضي الله عنهم، وحلف أن ليس عنده في بيت مال المسلمين درهم واحد ينفقه عليهم، فليدخل أمير المسلمين المسجد الجامع بحضرة من هناك من أهل العلم، وليحلف أن ليس عنده في بيت مال المسلمين درهم ينفقه عليهم، وحينئذ تجب معونته، والله ـ تعالىٰ ـ علىٰ ذلك كله، والسلام عليك ورحمة الله تعالىٰ وبركاته».

فلما بلغ كتابه إلىٰ أمير المسلمين وعظه الله بقوله، ولم يُعد عليه في ذلك قولاً والأعمال بالنيات.

---

(١) قلت: هي من بلاد الأندلس.

وكان أمير المسلمين حين ورد عليه التقليد من الخليفة ضرب السكة باسمه، ونقش على الدينار: «لا إلـه إلَّا الله محمد رسول الله» وتحت ذلك: «أمير المسلمين يوسف بن تاشفين» وكتب على الدائرة: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] وكتب على الصفحة الأخرى: «عبد الله أحمد أمير المؤمنين العباسي» وعلى الدائرة تاريخ ضربه وموضع سكته.

وكان ملكه قد انتهى إلى مدينة إفراغه من قاصية شرق الأندلس، وإلى مدينة أشبونة[1] على البحر المحيط من بحر الأندلس، وذلك مسيرة ثلاثة وثلاثين يومًا طولاً وفي العرض ما يقرب من ذلك.

وملك بعدوة المغرب من جزائر بني مزغنة إلى طنجة، إلى آخر السوس الأقصى إلى جبال الذهب من بلاد السودان.

ولم يُر في بلد من بلاده ولا عمل من أعماله على طول أيامه رسم مكس ولا خراج، لا في حاضرة ولا في بادية إلَّا ما أمر الله به، وأوجبه حكم الكتاب والسنة من الزكوات والأعشار، وجزيات أهل الذمة، وأخماس الغنائم.

وقد جبى في ذلك من الأموال على وجهها ما لم يجْبِه أحد قبله، يقال إنه وجد في بيت ماله بعد وفاته ثلاثة عشر ألف ربع من الورق، وخمسة آلاف وأربعون ربعًا من مطبوع الذهب.

[٩٩] وكان - رحمه الله - زاهدًا في زينة الدنيا وزهرتها، ورعًا متقشفًا، لباسه الصوف، لم يلبس قط غيره، ومأكله الشعير ولحوم الإبل وألبانها، مقتصراً على ذلك، لم يتنقل عنه مدة عمره على ما منحه الله من سعة الملك وخوله من نعمة الدنيا، وقد رد أحكام البلاد إلى القضاة، وأسقط ما دون الأحكام الشرعية، وكان يسير في أعماله بنفسه، فيتفقد أحوال الرعية في كل سنة.

[١٠٠] وكان محبًا للفقهاء وأهل العلم والفضل، مكرمًا لهم، صادراً عن رأيهم، يجري عليهم أرزاقهم من بيت المال، وكان مع ذلك حسن الأخلاق متواضعًا، كثير الحياء، جامعًا لخصال الخير، رحمه الله تعالى ورضي عنه.

---

(1) قلت: وهي اليوم لشبونة، عاصمة البرتغال.

الخبر عن دولة أمير المسلمين

أبي الحسن علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني

لما تُوفِّيَ أمير المسلمين يوسف بن تاشفين في التاريخ المتقدم، بايع الناس ابنه علي بن يوسف المذكور بمراكش بعهد من أبيه إليه، وتسمىٰ بأمير المسلمين.

وكان سنه يوم بويع ثلاثًا وعشرين سنة، وملك من البلاد ما لم يملكه أبوه، لأنه صادف البلاد ساكنة، والأموال وافرة، والرعايا آمنة بانقطاع الثوار واجتماع الكلمة، وسلك طريقه أبيه في جميع أموره واهتدىٰ بهديه.

أخبار الولاة بالمغرب والأندلس

في سنة إحدىٰ وخمسمائة عزل أمير المسلمين أخاه تميم بن يوسف بن تاشفين عن بلاد المغرب، وولىٰ مكانه أبا عبد الله بن الحاج، فأقام واليًا علىٰ فاس وسائر أعمال المغرب نحو ستة أشهر، ثم عزله وولاه بلنسية وأعمالها من بلاد شرق الأندلس.

[١٠١] ولما عزل أمير المسلمين أخاه تميم بن يوسف عن بلاد المغرب ولاه غرناطة وأعمالها من بلاد الأندلس، فكانت له علىٰ النصارىٰ وقعة أفليج، وذلك أنه خرج غازيًا بلاد الفرنج سنة اثنتين وخمسمائة فنزل حصن أفليج - وبه جمع عظيم من الفرنج - فحاصرهم حتىٰ اقتحم عليهم الحصن، فأرز النصارىٰ إلىٰ القصبة فتحصنوا بها، وانتهىٰ خبرهم إلىٰ الفنش فاستعد للخروج لإغاثتهم، فأشارت عليه زوجته أن يبعث ولده عوضًا منه، لأن تميم بن يوسف ابن ملك المسلمين، وسانجة ابن ملك النصارىٰ، فامتثل إشارتها، وبعث ولده سانجة في جيش كثيف من زعماء الفرنج وأنجادهم، فسار حتىٰ إذا دنا من أفليج أخبر تميم بن يوسف بمقدمه، فعزم علىٰ الإفراج عن الحصن وأن لا يلقىٰ الفرنج، فأشار عليه قواد لمتونة منهم عبد الله بن محمد بن فاطمة ومحمد بن عائشة وغيرهم بالمقام، وشجعوه وهونوا عليه أمرهم، فقالوا: «إنما قدموا في ثلاثة آلاف فارس، وبيننا وبينهم مسافة»، فرجع إلىٰ رأيهم، فلم يكن إلَّا عشي ذلك اليوم حتىٰ وافتهم جيوش الفرنج في ألوف كثيرة، فهم تميم

بالفرار فلم يجد له سبيلاً ثم صمم قواد لمتونة على مناجزة العدو، وصمدوا إليه فكانت بينهم حرب عظيمة بعد العهد بمثلها، فهزم الله تعالى العدو ونصر المسلمين.

[١٠٢] وقتل ولد الفنش، وقتل معه من الروم ثلاثة وعشرون ألفًا ونيف، ودخل المسلمون أفليج بالسيف عنوة، واستشهد في هذه الوقعة جماعة من المسلمين رحمهم الله، واتصل الخبر بالفنش فاغتم لقتل ولده وأَخْذِ بلده وهلاك جنده، فمرض ومات أسفًا لعشرين يومًا من الوقعة، وكتب تميم ابن يوسف إلى أمير المسلمين بالفتح.

أخبار أمير المسلمين

علي بن يوسف في الجهاد وجوازه الأول إلى بلاد الأندلس

لما دخلت سنة ثلاث وخمسمائة جاز أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين إلى الأندلس برسم الجهاد، فعبر البحر من سبتة منتصف المحرم من السنة المذكورة في جيوش عظيمة تزيد على مائة ألف فارس، فانتهى إلى قرطبة فأقام بها شهرًا، ثم خرج منها غازيًا إلى مدينة طلايوت، ففتحها عنوة بالسيف، وفتح من أعمال طليطلة سبعة وعشرين حصنًا، وفتح مجريط (١) ووادي الحجارة، وانتهى إلى طليطلة فحاصرها شهرًا وانتسف ما حولها، وبالغ في النكاية، ثم قفل إلى قرطبة بعد أن دوخ البلاد.

وفي سنة أربع وخمسمائة فتح الأمير سير بن أبي بكر شنترين، وبطليوس، ويابورة، وبرتغال، وأشبونة، وغير ذلك من بلاد غرب الأندلس، وكان ذلك في شهر ذي القعدة من السنة المذكورة، وكتب بالفتح إلى أمير المسلمين.

وفي سنة سبع وخمسمائة توفي الأمير سير بن أبي بكر بإشبيلية ودفن بها.

وفي سنة سبع المذكورة غزا الأمير مزدلي طليطلة وأعمالها، فدوخها وفتح حصن أرجنة عنوة، فقتل المقاتلة وسبى النساء والذرية، واتصل الخبر بالبرهانس -كبير الفرنج- فأقبل لنصرتهم واستنقاذهم، فصمد القائد مزدلي للقائه، ففر أمامه ليلاً، وعاد مزدلي إلى قرطبة ظافرًا غانمًا.

---

(١) قلت: هي اليوم مدريد.

ثم كانت له في الفرنج وقائع أخرى، إلى أن توفي رحمه الله غازيًا ببلاد الفرنج سنة ثمان وخمسمائة، فولى أمير المسلمين مكانه على قرطبة ابنه محمد بن مزدلي، فأقام واليًا عليها ثلاثة أشهر، ثم توفي شهيدًا في بعض غزواته أيضًا.

[١٠٣] استيلاء العدو على سرقسطة

كانت سرقسطة وأعمالها من شرق الأندلس بيد بني هود الجذاميين، تغلبوا عليها في صدر المائة الخامسة أيام الطوائف، وتوارثوها.

ثم لما كانت سنة اثنتي عشرة ـ وصاحب سرقسطة يومئذ عبد الملك بن المستعين بن هود الملقب بعماد الدولة ـ زحف ابن رذمير إليها وزحف الفنش أيضًا في أمم من النصرانية، فأتوا في أمم كالنمل حتى نازلها معه وشرعوا في القتال، وصنعوا أبراجًا من خشب وقربوها منها، ونصبوا فيها الرعادات، ونصبوا عليها عشرين منجنيقًا، وقوي طمعهم فيها، فاشتد الحصار واستمر حتى فنيت الأقوات وهلك أكثر الناس جوعًا، فراسل المسلمون الذين بها ابن رذمير على أن يرفع عنهم القتال إلى أجل، فإن لم يأتهم من ينصرهم أخلوا له البلد وأسلموه إليه، فعاهدهم على ذلك، فتم الأجل ولم يأتهم أحد، فدفعوا إليه المدينة وخرجوا إلى مرسية وبلنسية، وذلك سنة اثنتي عشرة وخمسمائة، وبعد استيلاء النصارى عليها وصل من بر العدوة جيش فيه عشرة آلاف فارس بعثه أمير المسلمين لاستنقاذها فوجدوها قد فُرغ منه ونفذ حكم الله فيها.

وفي سنة ثلاث عشرة وخمسمائة، تغلب ابن رذمير على بلاد شرق الأندلس، وملك قلعة أيوب التي ليس في بلاد شرق الأندلس أمنع منها، وألح بالغارات على بلاد الجوف، فاتصلت هذه الأخبار بأمير المسلمين وهو بمراكش، فجاز إلى الأندلس برسم الجهاد وضبط الثغور، وهو جوازه الثاني فجاز معه خلق كثير من المرابطين والمتطوعة من العرب وزناتة والمصامدة وسائر قبائل البربر، فوصل بجيوشه إلى قرطبة، ونزل خارجها وأتته وفود الأندلس للسلام عليه، فسألهم عن أحوال بلادهم وثغورهم بلدًا بلدًا فعرفوه بما كان.

ثم سار أمير المسلمين حتى نزل على مدينة شنتمرية ففتحها عنوة، وسار في بلاد

الفرنج يقتل ويسبي ويقطع الثمار، ويخرب القرى والديار حتى دوخ بلاد غرب الأندلس، وفر أمامه الفرنج وتحصنوا بالمعاقل المنيعة.

وفي سنة خمس عشرة وخمسمائة عاد أمير المسلمين إلى بلاد العدوة، بعد أن ولى أخاه تميم بن يوسف على جميع بلاد الأندلس، فلم يزل عليها إلى أن توفي سنة عشرين وخمسمائة.

[١٠٤] ولاية الأمير تاشفين بن علي بن يوسف على بلاد الأندلس وأخباره في الجهاد

لما توفي الأمير تميم بن يوسف في التاريخ المتقدم ولى أمير المسلمين على بلاد الأندلس ابنه تاشفين بن علي بن يوسف، ما عدا الجزائر الشرقية فإنه قد عقد عليها لمحمد بن علي المسوفي المعروف بابن غانية، فعبر الأمير تاشفين البحر إلى الأندلس في خمسة آلاف من الجند، وبعث إلى أجناد البلاد فأتوه فخرج بهم غازيًا طليطلة، ففتح بعض حصونها بالسيف وانتسف ما حولها.

وفي السنة المذكورة، أعني سنة عشرين وخمسمائة هزم الأمير تاشفين النصارى بفحص الصباب وقتلهم قتلاً ذريعًا، وفتح ثلاثين حصنًا من حصون غرب الأندلس، وكتب بالفتح إلى أبيه.

وفي سنة ثلاثين وخمسمائة هزم الأمير تاشفين جموع الفرنج بفحص عطية، وأفنى منهم خلقًا كثيراً بالسيف.

وفي سنة إحدى وثلاثين بعدها دخل الأمير تاشفين مدينة كركى بالسيف، فلم يُبق بها بشراً.

وفي سنة إثنتين وثلاثين بعدها جاز الأمير تاشفين من الأندلس إلى المغرب، بعد أن غزا مدينة أشكونية ففتحها عنوة، وحمل معه من سبيها إلى العدوة ستة آلاف سبية، فانتهى إلى مراكش، وخرج أمير المسلمين للقائه في زي عظيم وسرور كبير.

وفي سنة ثلاث وثلاثين بعدها أخذ أمير المسلمين البيعة لولده تاشفين.

وفي سنة سبع وثلاثين وخمسمائة كانت وفاة أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني رحمه الله، وذلك لسبع خلون من رجب من السنة المذكورة.

قال ابن خلكان: «كان أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين رجلاً حليمًا، وقورًا صالحًا، عادلاً؛ منقادًا إلى الحق والعلماء؛ تجبى إليه الأموال من البلاد، ولم يزعزعه عن سريره قط حادث ولا طاف به مكروه».

قلت: قد طاف به في آخر دولته أعظم مكروه، وذلك محمد بن تومرت النابغ تحت إبطه بجبال المصامدة كما يأتي خبره إن شاء الله.

۞۞۞

الخبر عن دولة أبي المعز
تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني

لما توفي أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين في التاريخ المتقدم ولي بعده ابنه أبو المعز تاشفين بن علي بعهد من أبيه إليه، وأخذ بطاعته وبيعته أهل العدوتين معًا كما كانوا في عهد أبيه.

وكان أمر عبد المؤمن بن علي يومئذ قد استفحل بتينملل وسائر بلاد المصامدة.

قال ابن الخطيب: «كان تاشفين بن علي قد استخلفه أبوه على بلاد الأندلس، ثم استقدمه لمدافعة أصحاب محمد بن تومرت مهدي الموحدين، فلم ينجح أمره، بخلاف ما عوده الله في بلاد الأندلس من النصر، لما قضاه الله من الإدبار على دولتهم».

ولما خرج عبد المؤمن بن علي من تينملل يريد فتح بلاد المغرب - وكان مسيره على طريق الجبال - سير أمير المسلمين علي بن يوسف ابنه تاشفين المذكور معارضًا له على طريق السهل، وأقاموا على ذلك مدة توفي أمير المسلمين علي بن يوسف في أثنائها، وأفضى الأمر إلى ابنه تاشفين وهو في الحرب.

وقدم أهل مراكش إسحاق بن علي بن تاشفين نائبًا عن أخيه تاشفين بمراكش وأعمالها، ومضى تاشفين بعد البيعة له متبعًا لعبد المؤمن.

ورحل إلى وهران سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، فأقام عليها شهرًا ينتظر قائد أسطوله محمد بن ميمون، إلى أن وصل إليه من المرية بعشرة أساطيل، فأرسى قريبًا من معسكره، وزحف عبد المؤمن من تلمسان، وبعث في مقدمته الشيخ أبا حفص

عمر بن يحيى، فقدموا وهران، وفضوا جموع المرابطين الذين بها، ولجأ تاشفين إلى رابية هناك، فأحدقوا بها وأضرموا النيران حولها، حتى إذا غشيهم الليل خرج تاشفين من الحصن راكبًا على فرسه، فتردى من بعض حافات الجبل، وهلك لسبع وعشرين من رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، ونجا فُلّ العسكر إلى وهران، فانحصروا مع أهلها، حتى جهدهم العطش، ونزلوا جميعًا على حكم عبد المؤمن يوم عيد الفطر من السنة المذكورة، فأتى عليهم القتل رحمهم الله!

ومن ذلك الوقت، نزل عبد المؤمن من الجبل إلى السهل، ثم توجه إلى تلمسان، ثم توجه إلى فاس فحاصرها واستولى عليها سنة أربعين وخمسمائة. ثم قصد مراكش سنة إحدى وأربعين بعدها فحاصرها أحد عشر شهرًا وفيها إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين وجماعة من مشايخ دولتهم، فقدموه بعد موت أبيه علي بن يوسف نائبًا عن أخيه تاشفين، فاستولى عليها وقد بلغ القحط من أهلها كل مبلغ، وأُخرج إليه إسحاق بن علي ومعه سير بن الحاج ـ وكان من الشجعان ومن خواص دولتهم ـ وكانا مكتوفين، وإسحاق دون بلوغ، فعزم عبد المؤمن أن يعفو عن إسحاق لصغر سنه، فلم يوافقه خواصه وكان لا يخالفهم، فخلى بينهم وبينهما فقتلوهما، ثم نزل عبد المؤمن القصر وذلك سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة».

[١٠٥] وفي سنة ثلاث عشرة وخمسمائة توفي أبو الفضل يوسف بن محمد بن يوسف المعروف بابن النحوي بقلعة حماد، وكان أبو الفضل من أهل العلم والدين على هدي السلف الصالح وكان مجاب الدعوة، ولما أفتى فقهاء المغرب بإحراق كتب الشيخ أبي حامد الغزالي ﷺ، وأمر أمير المسلمين علي بن يوسف بحرقها انتصر أبو الفضل هذا لأبي حامد ـ رحمه الله ـ وكتب إلى أمير المسلمين في ذلك.
عن أبي الحسن علي بن حرزهم قال: لما وصل إلى فاس كتاب أمير المسلمين علي بن يوسف بالتحريج على كتاب «الإحياء»، وأن يحلف الناس بالأيمان المغلظة أن كتاب الإحياء ليس عندهم ذهبت إلى أبي الفضل أستفتيه في تلك الأيمان فأفتى بأنها لا تلزم! وكانت إلى جنبه أسفار، فقال لي: «هذه الأسفار من كتاب «الإحياء»، وددت أني لم أنظر في عمري سواها!» وكان أبو الفضل قد انسخ كتاب «الإحياء» في ثلاثين جزءًا، فإذا دخل شهر رمضان قرأ في كل يوم جزءًا، ومناقبه كثيرة،

رحمه الله.

قلت: لم يقع في دولة المرابطين أشنع من هـٰذه النازلة وهي إحراق كتاب «الإحياء» فإنه لما وصلت نسخة إلىٰ بلاد المغرب تصفحها جماعة من فقهائه منهم القاضي أبو القاسم بن حمدين، فانتقدوا فيها أشياء على الشيخ أبي حامد رحمه الله، وأعلموا السلطان بأمرها، وأفتوه بأنها يجب إحراقها، ولا تجوز قراءتها بحال.

[١٠٦] وكان علي بن يوسف واقفًا - كأبيه - عند إشارة الفقهاء وأهل العلم، قد رد جميع الأحكام إليهم، فلما أفتوه بإحراق كتاب «الإحياء» كتب إلىٰ أهل مملكته في سائر الأمصار والأقطار بأن يبحث عن نسخ «الإحياء» بحثًا أكيدًا، ويحرق ما عثر عليه منها، فجمع من نسخها عدد كثير ببلاد الأندلس، ووضعت بصحن جامع قرطبة وصب عليها الزيت ثم أوقد عليها بالنار! وكذا فعل بما ألفي من نسخها بمراكش، وتوالى الإحراق عليها في سائر بلاد المغرب! ويقال إن ذلك كان في حياة الشيخ أبي حامد - رحمه الله - وأنه دعا بسبب ذلك على المرابطين أن يمزق ملكهم، فاستجيب له فيهم! فإن كان كذلك فتاريخ الإحراق يكون فيما بين الخمسمائة والخمس بعدها؛ لأن بيعة علي بن يوسف كانت على رأس الخمسمائة، ووفاة الشيخ أبي حامد الغزالي رحمه الله كانت يوم الاثنين رابع عشر جمادىٰ الآخرة سنة خمس وخمسمائة.

[١٠٧] وفي هـٰذه السَّنة أيضًا - أعني سنة ست وثلاثين وخمسمائة - توفي أبو الحكم بن برجان.

قال ابن خلكان: «هو: أبو الحكم عبد السلام بن عبد الرحمـٰن بن محمد اللخمي عرف بابن بَرّجان، وكان عبدًا صالحًا وله تفسير القرآن الكريم، وأكثر كلامه فيه علىٰ طريق أرباب الأحوال والمقامات.» اهـ

قال في التشوف(١): «لما أشخص أبو الحكم بن برجان من قرطبة إلىٰ حضرة مراكش وكان فقهاء العصر انتقدوا عليه مسائل قال أبو الحكم: «والله لا عشت ولا عاش الذي أشخصني بعد موتي!» يعني أمير المسلمين علي بن يوسف، فمات أبو الحكم فأمر أمير المسلمين أن يطرح على المزبلة ولا يصلىٰ عليه، وقلد فيه من تكلم

(١) قلت: أي: «التشوف إلىٰ رجال التصوف» للتادلي.

فيه من الفقهاء.

وكان أبو الحسن علي بن حرزهم يومئذ بمراكش، فدخل عليه رجل أسود كان يخدمه ويحضر مجلسه، فأخبره بما أمر به السلطان في شأن أبي الحكم، فقال له أبو الحسن:

«إن كنت تبيع نفسك من الله فافعل ما أقوله لك»

فقال له: «مرني بما شئت أفعله!»

فقال له: تنادي في طرق مراكش وأسواقها: «يقول لكم ابن حرزهم أحضروا جنازة الشيخ الفقيه الصالح الزاهد أبي الحكم بن برجان، ومن قدر على حضورها ولم يحضر فعليه لعنة الله» ففعل ما أمره، فبلغ ذلك أمير المسلمين، فقال: «من عرف فضله ولم يحضر جنازته فعليه لعنة الله!».

الدولة الموحدية

الخبر عن دولة الموحدين من المصامدة وقيامها على يد محمد بن تومرت المعروف بالمهدي

[١٠٨] وأصل المهدي من هرغة من بطون المصامدة يسمى أبوه عبد الله وتومرت، وكان يلقب في صغره أيضا أمغار، وزعم كثير من المؤرخين أن نسبه في أهل البيت، والله أعلم بحقيقة الأمر. وكان أهل بيته أهل نسك ورباط، وكانت ولادته سنة خمس وثمانين وأربعمائة، وشب المهدي قارئًا محبًا للعلم، ثم ارتحل في طلبه إلى المشرق على رأس المائة الخامسة، ومر بالأندلس ودخل قرطبة وهي يومئذ دار علم، ثم لحق بالإسكندرية وحج ودخل العراق ولقي به جملة من العلماء وفحول النظار وأفاد علمًا واسعًا.

وكان يحدث نفسه بالدولة لقومه على يده، ولقي أبا حامد الغزالي وفاوضه بذات صدره في ذلك فأراده عليه.

قال ابن خلكان: «اجتمع محمد بن تومرت بأبي حامد الغزالي، وإلكيا

الهراسي، والطرطوشي وغيرهم، وحج وأقام بمكة مدة مديدة، وحصل قدراً صالحًا من علم الشريعة والحديث النبوي وأصول الفقه والدين، وكان ورعًا ناسكًا، متقشفًا مخشوشنًا، كثير الإطراق، بسامًا في وجوه الناس، مقبلاً على العبادة، لا يصحبه من متاع الدنيا إلَّا عصا وركوة، وكان شجاعًا فصيحًا في لسان العرب والبربر.

[١٠٩] شديد الإنكار على الناس فيما يخالف الشرع، لا يقنع في أمر الله بغير إظهاره، وكان مطبوعًا على الإلذاذ بذلك، متحملاً للأذى من الناس بسببه، وناله بمكة - شرفها الله - شيء من المكروه من أجل ذلك، فخرج منها إلى مصر، وبالغ في الإنكار فزادوا في أذاه وطردته الولاة، وكان إذا خاف من البطش وإيقاع الفعل به خلط في كلامه، فينسب إلى الجنون، فخرج من مصر إلى الإسكندرية وركب البحر متوجهًا إلى بلاده.

وكان قد رأى في منامه وهو في بلاد المشرق كأنه شرب ماء البحر جميعه كرتين، فلما ركب السفينة شرع في تغيير المنكر على أهل السفينة وألزمهم إقامة الصلوات وقراءة أحزاب من القرآن العظيم، ولم يزل على ذلك حتى انتهى إلى المهدية من أرض إفريقية، وكان ملكها يومئذ يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجيّ، وذلك في سنة خمس وخمسمائة.

ولما انتهى إلى المهدية نزل بمسجد مغلق وهو على الطريق، وجلس في طاق شارع إلى المحجة ينظر إلى المارة، فلا يرى منكراً من آلة الملاهي أو أواني الخمر إلَّا نزل إليها وكسرها، فتسامع الناس به في البلد فجاؤوا إليه وقرؤوا عليه كتبًا من أصول الدين، فبلغ خبره الأمير يحيى، فاستدعاه جماعة من الفقهاء، فلما رأى سمته وسمع كلامه أكرمه وأجله وسأله الدعاء، فقال له: «أصلحك الله لرعيتك».

ولم يقم بعد ذلك بالمهدية إلَّا أيامًا يسيرة، ثم انتقل إلى بجاية فأقام بها مدة وهو على حاله في الإنكار فأُخرج منها إلى بعض قراها واسمها ملالة فوجد بها عبد المؤمن بن علي القيسي الكومي.

[١١٠] وقال ابن خلدون: «انطوى المهدي راجعًا إلى المغرب بحراً متفجراً من العلم، وشهابًا واريًا من الدين، وكان قد لقي بالمشرق أئمة الأشعرية من أهل السنة وأخذ عنهم، واستحسن طريقهم في الانتصار للعقائد السلفية والذب عنها بالحجج

العقلية الدافعة في صدر أهل البدعة، وذهب في رأيهم إلى تأويل المتشابه من الآي والأحاديث بعد أن كان أهل المغرب بمعزل عن اتباعهم في التأويل والأخذ برأيهم فيه اقتداء بالسلف في ترك التأويل وإقرار المتشابهات كما جاءت، فبصّر المهدي أهل المغرب في ذلك، وحملهم على القول بالتأويل والأخذ بمذاهب الأشعرية في كافة العقائد، وأعلن بإمامتهم ووجوب تقليدهم، وألف العقائد على رأيهم مثل «المرشدة» في التوحيد».

وكان من رأيه القول بعصمة الإمام علي على رأي الإمامية من الشيعة، ولم تُحفظ عنه فلتة في البدعة سواها[1] ! واحتل بطرابلس الغرب معنيًا بمذهبه ذلك مظهرًا للنكير على علماء المغرب في عدولهم عنه، آخذًا نفسه بتدريس العلم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما استطاع، حتى لقي بسبب ذلك إذايات في نفسه احتسبها من صالح عمله.

[١١١] ولما دخل بجاية وبها يومئذ العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد من أمراء صنهاجة وكان من المقترفين، فأغلظ له ولأتباعه بالنكير، وتعرض يومًا لتغيير بعض المنكرات في الطرق، فوقعت بسببها هيعة نكرها السلطان والخاصة وائتمروا به، فخرج منها خائفًا يترقب ولحق بملالة على فرسخ منها، وبها يومئذ بنو ورياكل من قبائل صنهاجة وكان لهم اعتزاز ومنعة فآووه وأجاروه، وطلبهم السلطان صاحب بجاية بإسلامه إليه فأبوا وأسخطوه، وأقام بينهم يدرس العلم أيامًا، وكان يجلس إذا فرغ على صخرة بقارعة الطريق قريبًا من ديار ملالة، وهناك لقيه كبير أصحابه عبد المؤمن بن علي حاجًا مع عمه، فأعجب بعلمه وصرف عزمه إليه فاختص به وشمر للأخذ عنه.

[١١٢] قال ابن خلدون: «وارتحل المهدي إلى المغرب ـ وعبد المؤمن في جملته ـ ولحق بوانشريس. فصحبه منها أبو محمد عبد الله الوانشريسي المعروف بالبشير».

وقال ابن خلكان: «وكان جميلاً فصيحًا في لغتي العرب والبربر، ففاوضه المهدي فيما عزم عليه من القيام، فوافقه على ذلك أتم موافقة. وكان البشير ممن تهذب وقرأ فقهًا، فتذاكرا يومًا في كيفية الوصول إلى المطلوب»، فقال المهدي

---

(١) قلت: هذا غير صحيح ففيه جملة من البدع غيرها؛ كما مر وسيمر بالقارئ.

للبشير: «أرى أن تستر ما أنت عليه من العلم والفصاحة عن الناس، وتظهر من العجز واللكن والحصر والتعري عن الفضائل ما تشتهر به عند الناس، لنتخذ الخروج عن ذلك واكتساب العلم والفصاحة دفعة واحدة سبيلاً إلى المطلوب! ويقوم لنا ذلك مقام المعجزة عند حاجتنا إليه فنصدق فيما نقول، ففعل البشير ذلك».

ثم لحق المهدي بتلمسان وقد تسامع الناس بخبره فأحضره القاضي بها - وهو ابن صاحب الصلاة - ووبخه على منتحله ذلك وعلى خلافه لأهل قطره، وظن القاضي أن من العدل نزعه عن ذلك، فصم عن قوله واستمر على طريقه إلى فاس، فنزل بمسجد طريانة وأقام بها يدرس العلم إلى سنة أربع عشرة وخمسمائة.

[١١٣] ثم انتقل إلى مكناسة فنهى بها عن بعض المنكرات، فثار إليه الغوغاء وأوجعوه ضرباً.

[١١٤] ثم لحق بمراكش وأقام بها آخذاً في شأنه، ولقي بها أمير المسلمين عليّ ابن يوسف بالمسجد الجامع عند صلاة الجمعة فوعظه وأغلظ له في القول.

[١١٥] ولقي ذات يوم أخت أمير المسلمين حاسرة قناعها (١) على عادة قومها الملثمين في زي نسائهم فوبخها ودخلت على أخيها باكية لما نالها من تقريعه؛ ففاوض أمير المسلمين الفقهاء في شأنه بما وصل إليه من سيرته، وكانوا قد مُلئوا منه حسداً وحفيظة لما كان ينتحل من مذهب الأشعرية في تأويل المتشابه، وينكر عليهم جمودهم على مذهب السلف في إقراره كما جاء، ويرى أن الجمهور لقبوه تجسيماً، ويذهب إلى تكفيرهم بذلك على أحد قولي الأشعرية في التكفير (٢)، فأغروا الأمير به فأحضره للمناظرة معهم، فكان له الفَلَج والظهور عليهم.

وقال ابن خلكان: كان محمد المهدي قد استدنى أشخاصاً من أهل المغرب جلاداً في القوى الجسمانية أغمارا، وكان أميل إلى الأغمار من أُولي الفِطَن والاستبصار فاجتمع له منهم ستة نفر سوى أبي محمد البشير، ثم إنه رحل إلى أقصى المغرب، وتوجه في أصحابه إلى مراكش - وملكها يومئذ أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين - وكان ملكًا عظيمًا حليمًا ورعًا عادلاً متواضعًا، وكان بحضرته رجل يقال له

---

(١) قلت: أي كاشفة وجهها، وذلك منهم عجيب إذ تكشف نساؤهم وجوههن ويغطيها رجالهم!!
(٢) قلت: معاذ الله أن يكفر من التزم مذهب السلف، فقد كانوا هم القوم، ومن سواهم تبع لهم.

مالك بن وهيب الأندلسي وكان عالمًا صالحًا ـ زاد ابن خلدون عارفا بالنجوم ـ فشرع محمد المهدي في الإنكار على مجرى عادته حتى أنكر على ابنة الملك، فبلغ خبره الملك، وأنه يتحدث في تغيير الدولة، فتحدث مع مالك بن وهيب في أمره، فقال مالك بن وهيب: نخاف من فتح باب يعسر علينا سده، والرأي أن تحضر هذا الشخص وأصحابه لنسمع كلامهم بحضور جماعة من علماء البلاد، فأجاب الملك إلى ذلك.

وكان المهدي وأصحابه مقيمين في مسجد خراب خارج البلد، فطلبوهم فلما ضمهم المجلس قال الملك لعلماء بلده: سلوا هذا الرجل ما يبغي منا؟

[١١٦]فانتدب له قاضي المرية ـ واسمه محمد بن أسود ـ فقال: ما هذا الذي يذكر عنك من الأقوال في حق الملك العادل الحليم المنقاد إلى الحق المؤثر طاعة الله تعالى على هواه؟

فقال له المهدي: أمّا ما نقل عني فقد قلته ولي من ورائه أقوال! وأما قولك إنه يؤثر طاعة الله على هواه وينقاد إلى الحق فقد حضر اعتبار صحة هذا القول عنه ليعلم بتعرّيه عن هذه الصفة أنه مغرور بما تقولون له وتضرونه به مع علمكم أن الحجة متوجهة عليه، فهل بلغك يا قاضي أن الخمر تباع جهارًا، وتمشي الخنازير بين المسلمين، وتؤخذ أموال اليتامى؟ وعدد من ذلك شيئًا كثيرًا، فلما سمع الملك كلامه ذرفت عيناه وأطرق حياء، ففهم الحاضرون من فحوى كلامه أنه طامع في المملكة لنفسه.

[١١٧]ولما رأوا سكوت الملك وانخداعه لقوله لم يتكلم أحد منهم، فقال مالك بن وهيب ـ وكان كثير الاجتراء على الملك: أيها الملك، عندي لنصيحة إن قبلتها حمدت عاقبتها وإن تركتها لم تأمن غائلتها.

فقال الملك: ما هي؟

فقال: «إني أخاف عليك من هذا الرجل، وأرى أن تعتقله وأصحابه وتنفق عليهم كل يوم دينارًا لتكفى شره! وإن لم تفعل فلتنفقن عليه خزائنك كلها، ثم لا ينفعك ذلك!» فوافقه الملك على رأيه، فقال له وزيره: «يقبح بك أن تبكي من موعظة رجل ثم تسيء إليه في مجلس واحد! وأن يظهر منك الخوف منه على عظم

ملكك وهو رجل فقير لا يملك سد جوعه!» فلما سمع الملك كلامه أخذته عزة النفس واستهون أمره فصرفه وسأله الدعاء.

وحكى صاحب المعرب أن المهدي لما خرج من عند أمير المسلمين لم يزل وجهه تلقاء وجهه إلى أن فارقه فقيل له نراك قد تأدبت مع الملك إذ لم توله ظهرك!

فقال: أردت أن لا يفارق وجهي الباطل حتى أغيره ما استطعت اهـ كلامه.

فلما خرج المهدي وأصحابه من عند الملك قال لهم: «لا مقام لكم هنا بمراكش مع وجود مالك بن وهيب فما نأمن أن يعاود الملك في أمرنا فينالنا منه مكروه، وإن لنا بمدينة أغمات أخًا في الله فنقصد المرور به فلن نعدم منه رأيًا ودعاء صالحًا» واسم هٰذا الشخص عبد الحق بن إبراهيم وهو من فقهاء المصامدة، فخرجوا إليه ونزلوا عليه وأخبره محمد بن تومرت خبرهم وأطلعه على مقصدهم وما جرى لهم مع الملك، فقال عبد الحق: هٰذا الموضع لا يحميكم، وإن أحصن المواضع المجاورة لهٰذا البلد تينملل وبيننا وبينها مسافة يوم في هٰذا الجبل، فانقطعوا فيه برهة ريثما يتناسى ذكركم.

فلما أتوه رآهم أهله على تلك الصورة فعلموا أنهم طلاب علم، فقاموا إليهم وأكرموهم، وتلقوهم بالترحاب، وأنزلوهم في أكرم منازلهم، وسأل أمير المسلمين عنهم بعد خروجهم من مجلسه، فقيل له: إنهم سافروا، فسره ذلك وقال: تخلصنا من الإثم بحبسهم!

ثم إن أهل الجبل تسامعوا بوصول المهدي إليهم، وكان قد سار فيهم ذكره فجاؤوه من كل فج عميق، وتبركوا بزيارته، وكان كل من أتاه استدناه وعرض عليه ما في نفسه من الخروج على السلطان، فإذا أجابه أضافه إلى خواصه، وإن خالفه أعرض عنه، وكان يستميل الأحداث وذوي الغرة!

وعلم المهدي أنه لا بد من عسكر يصل إليهم، فأمر أهل الجبل بالقعود على أنقاب الوادي ومراصده، واستنجد لهم بعض المجاورين، فلما وصلت الخيل إليهم أقبلت عليهم الحجارة من جانبي الوادي مثل المطر، وكان ذلك من أول النهار إلى آخره، وحال بينهم الليل، فرجع العسكر إلى الملك وأخبروه بما تم لهم، فعلم أنه لا طاقة له بأهل الجبل لتحصنهم، فأعرض عنهم».

[١١٨] وتحقق المهدي ذلك منه وصفت له مودة أهل الجبل، فعند ذلك استدعى أبا محمد البشير، وقال له: هذا أوان إظهار فضائلك دفعة واحدة ليقوم لك مقام المعجزة! لنستميل بذلك قلوب من لم يدخل في الطاعة، ثم اتفقا على أنه يصلي الصبح ويقول بلسان فصيح ـ بعد استعمال العجمة واللكنة في تلك المدة ـ : «إني رأيت البارحة في منامي أنه نزل إلي ملكان من السماء وشقا فؤادي وغسلاه وحشواه علمًا وحكمة وقرآنًا!» فلما أصبح فعل ذلك ـ وهو فصل يطول شرحه ـ فانقاد له كل صعب القياد، وعجبوا من حاله وحفظه القرآن في النوم، **فقال له محمد بن تومرت:** فعجل لنا بالبشرى في أنفسنا، وعرفنا أسعداء نحن أم أشقياء؟

فقال له: أما أنت فإنك المهدي القائم بأمر الله ومن تبعك سعد ومن خالفك هلك.

ثم قال: اعرض أصحابك علي حتى أميز أهل الجنة من أهل النار، وعمل في ذلك حيلة قتل بها كل من خالف أمر محمد بن تومرت، وأبقى من أطاعه.

وخلاصة الأمر: أن محمد بن تومرت لم يزل حتى جهز جيشًا عدد رجاله عشرة آلاف وفيهم عبد المؤمن بن علي، وأقام هو بالجبل، فنزل القوم لحصار مراكش وأقاموا عليها شهرًا، ثم كسروا كسرة شنيعة، وهرب مَن سلم منهم من القتل.

وكان فيمن سلم عبد المؤمن وقُتل البشير.

وأبلى عبد المؤمن في ذلك اليوم أحسن البلاء وقيل للمهدي: إن الموحدين قد هلكوا.

فقال لهم: ما فعل عبد المؤمن؟

قالوا: هو على جواده الأدهم قد أحسن البلاء.

فقال: ما بقي عبد المؤمن فلم يهلك أحد!

بقية أخبار المهدي وبعض سيرته إلى وفاته

كان المهدي رجلاً رِبعة، أسمر، عظيم الهمة، غائر العينين، حديد النظر، خفيف العارضين، له شامة سوداء على كتفه الأيمن، ذا سياسة ودهاء وناموس عظيم، وكان مع ذلك عالمًا فقيهًا، راويًا للحديث، عارفًا بالأصول والجدل، فصيح

اللسان، مقدامًا على الأمور العظام، غير متوقف في سفك الدماء، يهون عليه إتلاف عالمَ في بلوغ غرضه، وكان حصورًا لا يأتي النساء، وكان متيقظًا في أحواله، ضابطًا لما ولي من سلطانه.

وكان قوته من غزل أخت له في كل يوم رغيفًا بقليل سمن أو زيت! ولم ينتقل عن هـٰذا حين كثرت عليه الدنيا!

ورأى أصحابه يومًا وقد مالت نفوسهم إلى كثرة ما غنموه، فأمر بضم ذلك جميعه وإحراقه، وقال: من كان يتبعني لأجل الدنيا فليس له عندي إلّا ما رأى! ومن تبعني للآخرة فجزاؤه عند الله!

وكان على خمول زيه وبسط وجهه مهيبًا منيع الحجاب إلّا عند مظلمة، وله رجل مختص بخدمته والإذن عليه.

وقال ابن الخطيب في «رَقْم الحلل»: قالوا كان محمد بن تومرت يزعم أنه مأمور بنوع من الوحي والإلهام، وينكر كتب الرأي والتقليد، وله باع في علم الكلام، وغلبت عليه نزغة خارجية، وكان ينتحل القضايا الاستقبالية، ويشير إلى الكوائن الآتية، ورتب قومه ترتيبًا غريبًا، فمنهم أهل الدار، وأهل الجماعة، وأهل الساقة، وأهل خمسين، وأهل سبعين، والطلبة، والحفاظ، وأهل القبائل، فأهل الدار للامتهان والخدمة، وأهل الجماعة للتفاوض والمشورة، وأهل الساقة للمباهاة، وأهل سبعين وخمسين والحفاظ والطلبة لحمل العلم والتلقي، وسائر القبائل لمدافعة العدو، وكان يعلمهم أوجه العبادات في العادات.

قلت: من ذلك أن طائفة من المصامدة عسر عليهم حفظ الفاتحة لشدة عجمتهم، فعدّد كلمات أم القرآن ولقب بكل كلمة منها رجلاً، فصفهم معًا وقال لأولهم: «اسمك الحمد لله»، وللثاني: «رب العالمين». وهكذا حتى تمت كلمات الفاتحة، ثم قال لهم: «لا يقبل الله منكم صلاة حتى تجمعوا هـٰذه الأسماء على نسقها في كل ركعة!»، فسهل عليهم الأمر وحفظوا أم القرآن. قالوا: وهو أول من أحدث «أصبح ولله الحمد» في أذان الصبح.

وفاة المهدي رحمه الله

كانت وفاته سنة أربع وعشرين وخمسمائة.

وقال في القرطاس: لما رجع الموحدون من غزو مراكش، إلى تينملل خرج إليهم المهدي فسلم عليهم ورحب بهم، وأعلمهم بما يكون لهم من النصر والفتح وما يملكونه من البلاد وبمدة ملكهم، وأعلمهم أنه يموت في تلك السنة، فبكوا وأسفوا ثم مرض مرضه الذي مات منه، وقدم عبد المؤمن للصلاة أيام مرضه، ثم توفي في التاريخ المتقدم.

وذكر بعض المؤرخين: أن المهدي رأى في منامه قبل وفاته كأن آتيا أتاه فأنشده أبياتًا نعى له فيه نفسه، وأعلمه باليوم الذي يموت فيه فكان كذلك.

بيعة عبد المؤمن بن علي والسبب فيها

لما توفي المهدي في التاريخ المتقدم تولى عبد المؤمن تجهيزه والصلاة عليه، ثم دفنه بمسجده الملاصق لداره من تينملل.

ولما فرغ الموحدون من أمره تشوف كل واحد من العشرة إلى الخلافة بعده وكانوا من قبائل شتى، وأحبت كل قبيلة أن يكون الخليفة منها، وأن لا يتولى عليها من هو من غيرها، فتنافسوا في ذلك، فاجتمع العشرة والخمسون وتآمروا فيما بينهم وخافوا على أنفسهم النفاق، وأن تفسد نياتهم وتفترق جماعتهم، فاتفقوا على خلافة عبد المؤمن لكونه كان غريبًا بين أظهرهم، ليس من المصامدة؛ لأن المصامدة من البرانس، وكومية قبيلة عبد المؤمن من البُتر، فقدموه لذلك مع ما كانوا يرون من ميل المهدي إليه وإيثاره على غيره فتم له الأمر.

وكانت بيعة عبد المؤمن العامة بعد صلاة الجمعة لعشرين يومًا من ربيع الأول سنة ست وعشرين وخمسمائة بجامع تينملل، وأول من بايعه العشرة أصحاب المهدي، ثم الخمسون من أشياخ الموحدين، ثم كافة الموحدين؛ لم يتخلف عن بيعته منهم أحد، فاستوسق له الأمر واستولى على المغرب بأسره وفتح بلاد إفريقية إلى

برقة، وبلاد الأندلس بأسرها، وخُطب له على منابر هذه الأقاليم كلها [١].

وفي سنة ثمان وعشرين بعدها تسمى عبد المؤمن بأمير المؤمنين [٢].

[١١٩]واعلم أن اللقب كان في صدر الإسلام خاصًا بالخليفة بالمشرق من بني أمية أو من بني العباس بعدهم، ولما قام عبيد الله المهدي أول ملوك العبيديين بإفريقية تسمى بأمير المؤمنين لأنه كان يرى أنه أحق بالخلافة من بني العباس المعاصرين له بالمشرق، فهو أول من زاحم الخليفة في هذا اللقب، ثم تبعه على ذلك عبدالرحمن الناصر الأموي صاحب الأندلس، ورأى أن له في الخلافة حقًا اقتداء بسلفه الذين كانوا خلفاء بالمشرق وكلاهما ـ أعني العبيدي والأموي ـ قرشي من عبد مناف [٣]، ثم لم يتجاسر أحد لا من ملوك العجم بالمشرق ولا من ملوك البربر من المغرب على اللقب بأمير المؤمنين؛ لأنه لقب الخليفة الأعظم القرشي كما علمت، إلى أن جاءت دولة المرابطين وكان منهم يوسف بن تاشفين واستولى على المغربين والأندلس، وعظم سلطانه واتسعت مملكته، وخاطب الخليفة العباسي بالمشرق فولاه على ما بيده، وتسمى بأمير المسلمين أدبًا مع الخليفة حسبما أشرنا إليه سالفًا.

ولما جاء عبد المؤمن هذا لم يبال بذلك كله واتسم بالخليفة وتلقب بأمير المؤمنين، وتبعه على ذلك بنوه من بعده ولسان الحال ينشد:

لقد هزلت حتى بدا من هزالها ... كلاها، وحتى سامها كل مفلس

ثم صرف عبد المؤمن عزمه لفتح بلاد المغرب، فغزا غزوته الطويلة التي مكث فيها سبع سنين أجلت عن فتح المغربين معاً: الأقصى والأوسط، خرج لها من تينملل سنة أربع وثلاثين وخمسمائة فلم يزل يتقرى بلاد المغرب ويفتح معاقلها إلى سنة إحدى وأربعين وخمسمائة [٤].

---

(١) قلت: قد قتل عبد المؤمن بن علي خلقًا عظيمًا من المرابطين بل استأصلهم وأبادهم، في المغرب وفي الأندلس بزعم أنهم مجسمة كفار، وأن قتالهم أوجب من قتال الكفار الأصليين، وعند الله الموعد، وعند الله تجتمع الخصوم.

(٢) قال المحقق: وعبد المؤمن هذا هو أول من تسور على اللقب بأمير المؤمنين من غير جنس العرب، ولم يتجرأ أحد من العجم قبله على هذه الدعوى، وكانت سبب انتقاض المغرب عليه.

(٣) قلت: أما العبيدي فلم يثبت نسبه، وتسموا بالفاطميين زوراً.

(٤) قد سبق بالتفصيل سياق سقوط دولة المرابطين في آخر الجزء الثاني الماضي.

[١٢٠] أمر عبد المؤمن بتحريق كتب الفروع ورد الناس إلى الأصول من الكتاب والسنة

لما كانت سنة خمسين وخمسمائة أمر أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي بإصلاح المساجد وبنائها في جميع ممالكه، وبتغيير المنكرات ما كانت. وأمر مع ذلك بتحريق كتب الفروع ورد الناس إلىٰ قراءة كتب الحديث واستنباط الأحكام منها، وكتب بذلك إلىٰ جميع طلبة العلم من بلاد الأندلس والعدوة فجزاه الله خيراً[١].

غزو إفريقية ثانيًا وفتح المهدية وغيرها من الثغور

كانت بلاد إفريقية بيد بني زيري بن مناد الصنهاجيين من لدن الدولة العبيدية بها، وفي هـٰذا التاريخ كانت دولتهم قد أشرفت علىٰ الهرم، وكثر التنازع بينهم وزاحمتهم الثوار من العرب وغيرهم بتلك الأقطار، فانتهز الفرنج أصحاب صقلية الفرصة فيهم وملكوا منهم عدة ثغور مثل صفاقس وسوسة وغيرهما، ثم ملكوا بعد ذلك المهدية وهي يومئذ دار ملك الحسن بن علي الصنهاجي آخر ملوك بني زيري بن مناد، ففر الحسن عنها إلىٰ ابن عمه يحيىٰ بن العزيز صاحب بجاية فأنزله بالجزائر.

ولما طرق عبد المؤمن ثغر الجزائر في غزوته الأولىٰ إلىٰ إفريقية خرج إليه الحسن بن علي هـٰذا وصحبه وصار في جملته، فكان الحسن يغريه بغزو إفريقية واستنقاذها من يد العدو.

[١٢١] وكان عبد المؤمن يحب ذلك ويرغب فيه إلَّا أنه كان ينتظر إبان الفرصة، فاتفق أن فرنج صقلية أوقعوا بأهل زويلة ـ وهي مدينة بينها وبين المهدية نحو ميدان ـ وقعة شنيعة، حتىٰ أنهم قتلوا النساء والأطفال! ففر جماعة منهم إلىٰ عبد المؤمن بن علي وهو بمراكش يستغيثونه ويستنصرونه علىٰ العدو.

فلما وصلوا إليه أكرمهم وأخبروه بما جرىٰ علىٰ المسلمين، وأنه ليس في ملوك الإسلام من يقصد سواه، ولا يكشف هـٰذا الكرب غيره؛ فدمعت عيناه وأطرق، ثم

---

(١) قلت: بل هذا منه ضلال، وهل أخذ الفقهاء الأحكام التي في كتب الفروع إلا من الكتاب والسُّنة؟!

رفع رأسه وقال: «أبشروا لأنصرنكم ولو بعد حين» وأمر بإنزالهم وأطلق لهم ألفي دينار.

ثم أمر بعمل ما يحتاج إليه العسكر في السفر، وكتب إلىٰ جميع نوابه في المغرب ـ وكان قد ملك العدوتين الأندلس والمغرب واتسعت خطة مملكته إلىٰ قرب مدينة تونس ـ فكتب إلىٰ من بطريقه من النواب يأمرهم بحفظ جميع ما يتحصل من الغلات وأن يُترك الزرع في سنبله ويخزن في مواضعه وأن يحفروا الآبار في الطرق؛ ففعلوا جميع ما أمرهم به؛ وجمعوا غلات الحب ثلاث سنين؛ ونقلوها إلىٰ المنازل التي علىٰ الطريق؛ وطينوا عليها فصارت كأنها تلال.

فلما كان صفر من سنة أربع وخمسين وخمسمائة سار عبد المؤمن من مراكش يؤم بلاد إفريقية.

واجتمع عليه من العساكر مائة ألف مقاتل ومن الأتباع والسوقة أمثالهم، وكان هـٰذا الجند يمتد أميالاً.

وبلغ من حفظه وضبطه أنهم كانوا يمشون بين الزروع فلا تتأذَّىٰ بهم سنبلة، وإذا نزلوا صلوا بإمام واحد بتكبيرة واحدة، لا يتخلف منهم أحد كائنًا من كان.

فلم يزل يسير إلىٰ أن وصل إلىٰ مدينة تونس في الرابع والعشرين من جمادىٰ الآخرة من السنة، وبها صاحبها أحمد بن خراسان؛ وأقبل أسطوله في البحر.

وفي مدة هـٰذا الحصار استولىٰ عبد المؤمن علىٰ طرابلس وصفاقص وسوسة وجبل نفوسة وقصور إفريقية وما والاها وفتح مدينة قابس بالسيف وسير ابنه السيد أبا محمد من مكان حصاره للمهدية في جيش ففتح بلاداً أخرىٰ دينار وبالجملة فإنه استخلص في هـٰذه المدة جميع بلاد إفريقية من أيدي القائمين بها.

ثم سار إلىٰ المهدية وأسطوله يحاذيه في البحر، وأحاط بها.

ولما كان الثاني والعشرون من شعبان من السنة المذكورة، جاء أسطول صاحب صقلية مَددًا لأهل المهدية، فلما قاربوا المدينة حطوا شرعهم ليدخلوا الميناء فخرج إليهم أسطول عبد المؤمن، وركب العسكر جميعه، ووقفوا علىٰ جانب البحر، فاستعظم الفرنج ما رأوا من كثرة العساكر وداخل الرعب قلوبهم.

[١٢٢]ونزل عبد المؤمن إلى الأرض فجعل يمرغ وجهه ويبكي ويدعو للمسلمين بالنصر واقتتلوا في البحر، فانهزمت الفرنج وساروا وتبعهم المسلمون فأخذوا منهم سبع شواني [(١)]، وكان أمرا عجيبًا وفتحا غريبًا.

وعاد أسطول المسلمين مظفراً منصوراً، وفرق فيهم عبد المؤمن الأموال ويئس أهل المهدية حينئذ من النجاة، ومع ذلك فقد صبروا على الحصار أربعة أشهر أخرى إلى آخر ذي الحجة من السنة، فنزل حينئذ من فرسان الفرنج إلى عبد المؤمن عشرة وسألوا الأمان لمن فيها من الفرنج على أنفسهم وأموالهم ليخرجوا منها إلى بلادهم، وكان قوتهم قد فني حتى أكلوا الخيل؛ فعرض عليهم عبد المؤمن الإسلام ودعاهم إليه، فقالوا: «ما جئنا لهذا وإنما جئنا نطلب فضلك» وترددوا إليه أيامًا.

وكان من جملة ما استعطفوه به أن قالوا: «أيها الخليفة، ما عسى أن تكون المهدية ومن بها بالنسبة إلى ملكك العظيم وأمرك الكبير، وإن أنعمت علينا كنا أرقاء لك في أرضنا!»، فعفا عنهم - وكان الفضل شيمته - وأعطاهم سفنًا ركبوا فيها وساروا وكان الزمن شتاء فغرق أكثرهم، ولم يصل منهم إلى صقلية إلّا النفر اليسير.

وكان صاحب صقلية قد قال: «إن قتل عبد المؤمن أصحابنا بالمهدية قتلنا المسلمين الذين عندنا بجزيرة صقلية وأخذنا حرمهم وأموالهم» فأهلك الله الفرنج غرقًا».

وكانت مدة استيلائهم على المهدية اثنتي عشرة سنة، فدخلها عبد المؤمن صبيحة يوم عاشوراء من المحرم سنة خمس وخمسين وخمسمائة، فكان يقال لهذه السنة سنة الأخماس.

وصفت إفريقية كلها لعبد المؤمن ودخل أهلها في طاعته من برقة إلى تلمسان، ولم يبق له بها منازع؛ ففرق فيها عماله وقضاته وضبط ثغورها وأصلح شؤونها.

وثنى عنانه إلى المغرب أول صفر من السنة المذكورة، وانقطعت عادية الفرنج عن بلاد إفريقية مدة مديدة، والله تعالى أعلم.

---

(١) قلت: أي سفن.

استعداد عبد المؤمن للجهاد

لما تمهد لعبد المؤمن ملك المغربين(١) وإفريقية والأندلس، وطاعت له سائر الأقطار تاقت نفسه للجهاد، فعزم على غزو بلاد الافرنج براً وبحراً، فأمر بإنشاء الأساطيل، ونظر في استجلاب الخيل، والاستكثار من أنواع السلاح، ثم لما دخلت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة خرج من مراكش بقصد الجهاد، واجتمع له أزيد من ثلاثمائة ألف فارس، فلما استوفيت لديه الحشود ابتدأ بعبد المؤمن مرضه الذي توفي منه، وتمادى به واشتد ألمه فتوفي ليلة الجمعة الثاني من جمادى الآخرة من السنة المذكورة.

الخبر عن دولة
أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن بن علي

قال ابن خلدون: لما هلك عبد المؤمن أخذ السيد أبو حفص بن عبد المؤمن البيعة على الناس لأخيه أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن باتفاق من الموحدين كافة.

[١٢٣] الجواز الأول لأمير المؤمنين
يوسف بن عبد المؤمن إلى الأندلس بقصد الجهاد

لما اتصل بأمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن ظهور المسلمين على عدوهم بها، وكان بعض ملوك الفرنج بها لم يزالوا يشغبون على المسلمين بالغارات على أطراف بلادهم، تاقت نفسه إلى العبور إلى بلاد الأندلس بقصد إصلاح حالها وجهاد العدو بها؛ وقد توافدت لديه وهو بمراكش جموع العرب

وكان يوم قدومهم عليه يومًا مشهودًا، ونهض إلى الأندلس في مائة ألف من العرب والموحدين،

[١٢٤] فاحتل بقرطبة سنة سبع وستين وخمسمائة ثم ارتحل بعدها غازيًا بلاد العدو؛ فنزل على مدينة له تسمى وبذة، فأقام محاصرًا لها شهورًا إلى أن اشتد

(١) قلت: أي المغرب الأقصى والأوسط (الجزائر).

عليهم الحصار وعطشوا، فراسلوه في تسليم المدينة، وأن يعطيهم الأمان على نفوسهم؛ فامتنع من ذلك فلما اشتد بهم العطش سُمع لهم في بعض الليالي لغط عظيم وأصوات هائلة، وذلك أنهم اجتمعوا بأسرهم ودعوا الله تعالىٰ فجاءهم مطر عظيم ملأ ما كان عندهم من الصهاريج، فارتووا وتقووا على المسلمين، فانصرف عنهم إلى إشبيلية، بعد أن هادنهم مدة سبع سنين.

فليعتبر الواقف على هذه القضية، وليعلم أن هؤلاء الكفار جاحدون، ينسبون إلى الله - تعالى - ما لا يليق به من التثليث وأنواع الكفر، ومع ذلك لما انقطع رجاؤهم، ورجعوا إليه - تعالى - بالاضطرار الصادق، رحمهم سبحانه وهو أرحم الراحمين، فلا ينبغي بعد هذا للمؤمن الموحد إذا حصل في شدة أن ييأس من رحمة الله؛ فإنه ﴿لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، والسر في الاضطرار، فإنه عند أرباب البصائر هو اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب وإذا سُئل به أعطى، اللهم اجعلنا يا مولانا عندك من المرحومين واجعل كل من يرحمنا عندك من المرحومين، فأنت أهل ذلك والقادر عليه.

ثم بلغ أمير المؤمنين خروج العدو إلى أرض المسلمين، فخرج إليهم وأوقع بهم بناحية قلعة رباح، وأثخن فيهم؛ ورجع إلى إشبيلية.

ثم انتقض ابن أذفونش وأغار على بلاد المسلمين فاحتشد الخليفة وسرح السيد أبا حفص إليه فغزاه بعقر داره، وافتتح قنصرة بالسيف، وهزم جموعه في كل جهة.

ثم ارتحل الخليفة من إشبيلية راجعًا إلى مراكش سنة إحدى وسبعين لخمس سنين من إجازته إلى الأندلس، وعقد على قرطبة لأخيه أبي الحسن وعلى إشبيلية لأخيه أبي علي.

[١٢٥] الجواز الثاني لأمير المؤمنين يوسف ابن عبد المؤمن إلى الأندلس برسم الجهاد وما يتصل بذلك من وفاته رحمه الله

بلغه الخبر بأن أذفونش بن شانجة نازل قرطبة وشن الغارات على جهة مالقة ورندة وغرناطة، ثم نزل إستجة وتغلب على حصن شقيلة، وأسكن به النصارى وانصرف.

فاعتزم الخليفة يوسف بن عبد المؤمن على معاودة الجهاد، ونهض سنة تسع وسبعين وخمسمائة حتى انتهى إلى سبتة، وأمر الناس بالجواز إلى الأندلس؛ فجازت قبائل العرب أولاً ثم قبائل زناتة، ثم المصامدة؛ ثم مغراوة وصنهاجة وأوربة، وأصناف البربر، ثم عبرت جيوش الموحدين والأغزاز والرماة، فلما استكمل الناس الجواز عبر هو في آخرهم في الحاشية والعبيد.

[١٢٦]ثم نهض إلى غزو مدينة شنترين من بلاد غرب الأندلس فانتهى إليها في السابع من ربيع الأول فنزل عليها وشدد عليها في الحصار والقتال؛ وبذل المجهود إلى ليلة الثاني والعشرين من ربيع المذكور؛ فلما جن الليل وصلى العشاء الآخرة بعث إلى ولده السيد أبي إسحاق صاحب إشبيلية فأمره بالرحيل من غد تلك الليلة لغزو أشبونة، وشن الغارات على أنحائها، وأن يسير إليها في جيوش الأندلس خاصة، وأن يكون رحيله نهاراً، فأساء الفهم وظن أنه أمره بالرحيل ليلاً وصرخ الشيطان في محلة المسلمين أن أمير المؤمنين قد عزم على الرحيل في هذه الليلة، وتحدث الناس بذلك وتأهبوا له، ورحلت طائفة منهم بالليل؛ ولما كان قرب الفجر أقلع السيد أبو اسحاق وأقلع من كان مواليًا له، وتتابع الناس بالرحيل؛ وتسابقوا لاختيار المنازل وأمير المؤمنين مقيم في مكانه لا علم له بذلك، فلما أصبح وصلى الصبح وأضاء النهار لم يجد حوله من أهل المحلات أحداً إلّا يسيراً من خاصته وحشمه الذين يرحلون لرحيله، وينزلون لنزوله؛ وإلا قواد الأندلس فإنهم الذين كانوا يسيرون أمام ساقته وخلف محلته من أجل من يتخلف عنها من الضعفاء، فلما طلعت الشمس وتطلع النصارى المحصورون على المحلة من سور البلد ورأوا أمير المؤمنين منفرداً في عبيده وحشمه، وتحققوا ذلك من جواسيسهم فتحوا البلد؛ وخرج جميع من فيه خرجة منكرة، وهم ينادون: الري الري، أي أقصدوا السلطان؛ فضربوا في محلة العبيد إلى أن وصلوا إلى أخبية أمير المؤمنين فمزقوها واقتحموها، فبرز إليهم وقاتلهم بسيفه حتى قتل ستة منهم، ثم طعنوه طعنة نافذة وقُتل عليه ثلاث من جواريه كن قد أكببن عليه! ولما طعن وقع بالأرض وتصايح العبيد ونادوا بالفرسان والأجناد فتراجع المسلمون وقاتلوا النصارى حتى أزاحوهم عن الأخبية، واشتد القتال بينهم، وتواقفوا ساعة ثم انهزم الفرنج وركبهم المسلمون

بالسيف حتى أدخلوهم المدينة؛ وقُتل منهم خلق كثير يزيدون على العشرة آلاف، واستشهد من المسلمين جماعة، وركب أمير المؤمنين يوسف وقد أنفذته الطعنة؛ وارتحل الناس ولا يدرون أين، ثم اهتدوا بالطبول فقصدوا جهة إشبيلية، ثم سار أمير المؤمنين يريد العبور إلى المغرب فاشتد ألمه ومات بالطريق رحمه الله.

وكانت وفاته يوم السبت العاشر من شهر ربيع الآخر سنة ثمانين وخمسمائة قرب الجزيرة الخضراء، فحمل إلى تينملل فدفن بها إلى جنب قبر أبيه. وكان ولده يعقوب الخليفة بعده هو الذي يدخل على أبيه ويخرج ويصرف الأمور بين يديه من يوم طعن إلى أن مات، قالوا وكتم ولده موته حتى وصل إلى مدينة سلا فأفشاه.

❖❖❖

بقية أخبار
أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن وسيرته

قال ابن خلكان: «كان يوسف بن عبد المؤمن أبيض تعلوه حمرة، شديد سواد الشعر، مستدير الوجه، أفوه؛ أعين؛ إلى الطول ما هو؛ في صوته جهارة؛ رقيق حواشي الطبع، حلو الألفاظ؛ حسن الحديث، طيب المجالسة، أعرف الناس كيف تكلمت العرب؛ وأحفظهم لأيامها في الجاهلية والإسلام؛ صرف عنايته إلى ذلك، وكان فقيهًا حافظًا متفننًا؛ لأن أباه هذبه وقرن به وبإخوانه أكمل رجال الحرب والمعارف؛ فنشأ في ظهور الخيل بين أبطال الفرسان، وفي قراءة العلم بين أفاضل العلماء، وكان ميله إلى الحكمة والفلسفة أكثر من ميله إلى الأدب وبقيه العلوم، ويقال إنه كان يحفظ صحيح البخاري، وكان يحفظ القرآن الكريم مع جملة صالحة من الفقه؛ ثم طمح إلى علم الحكمة وبدأ من ذلك بعلم الطب؛ وجمع من كتب الحكمة شيئًا كثيراً.

وكان ممن صحبه من العلماء بهذا الشأن الوزير أبو بكر محمد بن طفيل، كان متحققًا بجميع أجزاء الحكمة.

وكان يوسف بن عبد المؤمن حريصًا على الجمع بين علم الشريعة والحكمة، ولم يزل يجمع إليه العلماء من كل فن من جميع الأقطار؛ ومن جملتهم القاضي أبو

الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد المعروف بالحفيد.

وكان يوسف بن عبد المؤمن شديد الملوكية، بعيد الهمة، جماعًا مناعًا؛ ضابطًا لخراج مملكته، عارفًا بسياسة رعيته، وكان سخيًا جوادًا في محل السخاء والجود؛ قد استغنى الناس في أيامه؛ وكان من ضبطه وسياسته ربما يحضر حتى لا يكاد يغيب ويغيب حتى لا يكاد يحضر، وله في غيبته نواب وخلفاء وحكام قد فوض الأمور إليهم، لما علم من صلاحهم وأهليتهم لذلك.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين المنصور بالله يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي

لما تمت له البيعة وطاعت له الأمة كان أول شيء فعله أن أخرج مائة ألف دينار ذهبًا من بيت المال، ففرقها في الضعفاء من بيوتات المغرب، وكتب إلى جميع بلاده؛ بتسريح السجون ورد المظالم التي ظلمها العمال في أيام أبيه؛ وأكرم الفقهاء، وراعى الصلحاء وأهل الفضل، وأجرى على أكثرهم الإنفاق من بيت المال، وفرق في الموحدين وسائر الأجناد أموالاً جمة.

[١٢٧] الخبر عن انتقال العرب من جزيرتهم إلى أرض إفريقية ثم منها إلى المغرب الأقصى والسبب في ذلك

أعلم أن أرض إفريقية والمغرب لم تكن للعرب بوطن في الأيام السالفة لا في الجاهلية ولا في صدر الإسلام، وإنما كان المغرب وطنًا لأمة البربر خاصة لا يشاركهم فيه غيرهم.

ولما جاءت الملّة الإسلامية وأظهرها الله على الدين كله زحفت جيوش المسلمين من العرب إلى أرض المغرب في جملة ما زحف إليه من أقطار الأرض، لكن العرب الداخلون إلى أرض المغرب في ذلك العصر إنما كانوا يدخلون إليه غزاة مجاهدين على ظهور خيولهم، فيقضون الوطر من فتح الأقطار والأمصار، ثم ينقلب جمهورهم إلى وطنهم ومقرهم من جزيرة العرب، وإن بقي القليل منهم به فإنما

كانوا يستوطنون منه الأمصار دون البادية، ويسكنون القصور دون الخيام؛ فلم تكن العرب تسكن المغرب يومئذ بقبائلهم وخيامهم، ولا استوطنوه بأحيائهم وحللهم، كما هو شأنهم اليوم؛ لأن الملك الذي حصل لهم والغلب الذي مكنهم الله منه كان يمنعهم من سكنىٰ البادية، ويعدل بهم إلىٰ الحضارة ولا بد، فكانت الخيمة بأرض المغرب معدومة رأسًا؛ أو قليلة جدًا لبعض البربر ممن كان يتخذها منهم وهم قليل، وإنما كان يسكن الجمهور منهم بالمداشر [1] وكهوف الجبال؛ واستمر الحال علىٰ ذلك إلىٰ أواسط المائة الخامسة، فدخلت العرب أرض إفريقية واستوطنوها بحللهم وخيامهم.

ثم لما كانت أواخر المائة السادسة في دولة يعقوب المنصور ـ رحمه الله ـ نقل الكثير منهم إلىٰ المغرب الأقصىٰ، فاستوطنوه بحللهم وخيامهم كذلك، وصارت أرض المغرب منقسمة بين أمتين أمة العرب أهل اللسان العربي، وأمة البربر أهل اللسان البربري، بعد أن كانت بلاده خاصة بالبربر لا يشاركهم فيها غيرهم كما قلنا.

واعلم أن أمة العرب تنقسم أولاً إلىٰ قسمين: عدنان وقحطان، ثم ينقسم كل من عدنان وقحطان إلىٰ شعبين عظيمين، فأما عدنان وهم الإسماعيلية ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، فينقسمون إلىٰ ربيعة ومضر، وأما قحطان وهم اليمانية ذرية قحطان بن عابر بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح ـ عليه السلام ـ فينقسمون إلىٰ حمير وكهلان، هٰذا هو المعروف المشهور من نسب الفريقين، وقد يذكر النسابون لكل منهما شعوبًا أخر، لكنا لم نعتبرها إما لانقراضها أو لقوة الخلاف فيها أو لقلتها جدًا واندراجها فيمن ذكرناه.

ثم يتشعب كل من هٰذه الشعوب الأربعة إلىٰ قبائل وعمائر وبطون وأفخاذ وفصائل لا حصر لها، لكننا ننبه علىٰ الغرض المقصود منها فنقول من جملة قبائل مضر:

بنو سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر.

ومن قبائلها أيضًا: بنو جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور المذكور في

---

(١) قلت: هي القرىٰ الصغيرة.

النسب السابق.

ومن قبائلها أيضاً: بنو هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر المذكور أيضاً.

ومن جملة قبائل كهلان القحطانيين: بنو الحارث بن كعب.

واعلم أن هـؤلاء القبائل الأربعة التي ذكرناها هي التي ذكر المؤرخون، انها انتقلت إلى أفريقية والمغرب، وقد يضاف إليهم غيرهم من قبائل العرب، لكنهم ليسوا بمشهورين كالأربعة المذكورة.

وأما خبر دخولهم إلى المغرب والسبب فيه فقد ذكر المؤرخون أن بني سليم بن منصور وبني هلال بن عامر لم يزالوا بجزيرة العرب برهة من الدهر إلى أن مضى الصدر من دولة بني العباس، وكانوا أحياء ناجعة بأرض الحجاز ونجد، فبنو سليم مما يلي المدينة المنورة، وبنو هلال في جبل غزوان عند الطائف، ثم تحيز بنو سليم والكثير من هلال بن عامر إلى البحرين وعمان، وصاروا جنداً للقرامطة، ثم غلب القرامطة على بلاد الشام وظاهرهم على ذلك بنو سليم وبنو هلال، ثم انتقلت دولة العبيديين من إفريقية إلى مصر، وغلبوا القرامطة على الشام وانتزعوه منهم، وردوهم على أعقابهم إلى البحرين، ونقلوا أشياعهم من بني سليم وبني هلال فأنزلوهم بصعيد مصر في العدوة الشرقية من بحر النيل فأقاموا هنالك، وكان لهم أضرار بالبلاد؛ ولما انتقلت الدولة العبيدية من إفريقية إلى مصر استنابوا على إفريقية بني زيري بن مناد الصنهاجيين فملكوها، وكانوا يخطبون بملوك العبيديين على منابرهم ويضربون السكة بأسمائهم، ويؤدون إليهم أتاوة معلومة وطاعة معروفة.

ولما انساق ملك إفريقية إلى المعز بن باديس الصنهاجي كان له رغبة في مذهب أهل السنة خالف فيه أسلافه الذين كانوا على مذهب الشيعة الرافضة، وكان الخليفة من العبيديين بمصر يومئذ المستنصر بالله معد بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز لدين الله، والمعز هـذا هو الذي انتقل إلى مصر وبنى مدينة القاهرة.

وكان المعز بن باديس الصنهاجي لا تزال المراسلات والهدايا تختلف بينه وبين المستنصر العبيدي صاحب مصر كما كانت أسلافهما؛ ثم إن المعز بن باديس ركب ذات يوم لبعض مذاهبه وذلك في أول ولايته فكبا به فرسه فنادى مستغيثًا بالشيخين

أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، فسمعته العامة وكان جمهورهم سنيًا ؛ فثاروا بالرافضة وقتلوهم أبرح قتل ، وأعلنوا بالمعتقد الحق ونادوا بشعار الإيمان ، وقطعوا من الأذان حي على خير العمل .

وكانت هذه الواقعة في أيام الظاهر العبيدي والد المستنصر ، فكاتب المعز بن باديس في ذلك ، فاعتذر إليه بالعامة ، فأغضى عنه .

واستمر ابن باديس على إقامة الدعوة لهم ؛ والمهاداة معهم ، وهو في أثناء ذلك يكاتب وزيرهم القائم بأمور دولتهم أبا القاسم علي بن أحمد الجرجرائي ويستميله ، ويعرض ببني عبيد وشيعتهم ويغض منهم .

ثم هلك الوزير أبو القاسم سنة ست وثلاثين وأربعمائة ، وولي الوزارة بعده أبو محمد الحسن بن علي اليازوري ، أصله من قرى فلسطين ، وكان أبوه فلاحًا بها ، فلما ولي الوزارة خاطبه المعز بن باديس دون ما كان يخاطب به من قبله من الوزراء ، كان يقول في كتابه إليهم : عبدكم! وصار يقول : في كتاب اليازوري : صنيعتكم! فحقد ذلك عليه ، وصارت القوارص تسري من بعضهم إلى بعض ، إلى أن أظلم الجو بين المعز بن باديس وبين المستنصر العبيدي ووزيره اليازوري ، فقطع ابن باديس الخطبة بهم على منابره سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة ، وأحرق بنود المستنصر ، ومحا اسمه من السكة (١) ، ودعا للقائم العباسي خليفة بغداد ؛ وجاءه خطابه وكتاب عهده ، فقرئ بجامع القيروان ، ونشرت الرايات السود ؛ وهدمت دور الإسماعيلية .

وبلغ الخبر بذلك كله إلى المستنصر بالقاهرة فقامت قيامته ، ففاوض وزيره أبا محمد الحسن بن علي اليازوري في أمر ابن باديس ، فأشار عليه بأن يسرح له العرب من بني هلال ، وبني جشم الذين بالصعيد ، وأن يتقدم إليهم بالاصطناع ؛ ويستميل مشايخهم بالعطاء وتولية أعمال إفريقية وتقليدهم أمرها بدلاً من صنهاجة الذين بها لينصروا الشيعة ويدافعوا عنهم ؛ فإن صدقت المخيلة في ظفرهم بابن باديس وقومه صنهاجة كانوا أولياء للدولة وعمالاً بتلك القاصية ، وارتفع عدوانهم من ساحة الخلافة ، وإن كانت الأخرى فلها ما بعدها ؛ وأمر العرب على كل حال أهون على

---

(١) قلت : أي النقود .

الدولة من أمر صنهاجة الملوك.

فبعث المستنصر وزيره إلى هؤلاء الأحياء؛ وأرضخ لأمرائهم في العطاء ووصل عامتهم ببعير ودينار لكل واحد منهم، وأباح لهم إجازة النيل، وقال لهم: «قد أعطيناكم المغرب وملك ابن باديس العبد الآبق، فلا تفتقرون بعدها!».

وكتب اليازوري إلى المعز: أما بعد، فقد أنفذنا إليكم خيولاً فحولاً، وأرسلنا عليها رجالاً كهولاً، ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً.

فشرهت العرب إذ ذاك وعبروا النيل إلى برقة، فنزلوا بها واستباحوها وافتتحوا أمصارها، وأعجبتهم البلاد، فكتبوا لإخوانهم الذين بقوا شرقي النيل يرغبونهم في البلاد، فأجازوا إليهم بعد أن أعطوا للمستنصر لكل رأس دينارين، فأخذ منهم أضعاف ما أخذوه؛ وتقارعوا على البلاد؛ فحصل لبني سليم شرقها، ولبني هلال غربها، ثم انتشروا في أقطار أفريقية مثل الجراد، لا يمرون بشيء إلَّا أتوا عليه.

وبالجملة فلم تمر إلَّا مدة يسيرة حتى استولوا على ضواحي إفريقية، ونازلوا أمصارها، واقتضوا من أهلها الأتاوة، وحصروا ابن باديس في مصره؛ وصاهرهم بناته تأليفًا لهم، ومع ذلك فلم يجد شيئًا والحديث في ذلك طويل وليس تتبعه من غرضنا.

[١٢٨] الجواز الأول ليعقوب المنصور رحمه الله إلى الأندلس بقصد الجهاد

قال ابن أبي زرع: في سنة خمس وثمانين وخمسمائة تحرك أمير المؤمنين يعقوب المنصور إلى الأندلس برسم غزو بلاد غربها، وهي أولى غزواته، فعبر من قصر المجاز إلى الخضراء يوم الخميس الثالث من ربيع الأول من السنة المذكورة ثم نهض من الخضراء حتى نزل شنترين، وشن الغارات على مدينة أشبونة وأنحائها، فقطع الثمار وحرق الزروع وقتل وسبا، وأضرم النيران في القرى، وأبلغ في النكاية، وانصرف إلى العدوة بثلاثة عشر ألفًا من السبي، فدخل فاسًا في آخر رجب من السنة المذكورة.

[١٢٩] مراسلة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب مصر ليعقوب المنصور رحمهما الله والتماسه منه الأساطيل للجهاد

كانت الفرنج قد ملكوا سواحل الشام في آخر الدولة العبيدية منذ تسعين سنة قبل هٰذا التاريخ، وملكوا معها بيت المقدس شرفه الله؛ فلما استولىٰ السلطان صلاح الدين ـ رحمه الله ـ علىٰ ديار مصر والشام اعتزم علىٰ جهادهم، وصار يفتتح حصونها واحداً بعد واحد حتىٰ أتىٰ علىٰ جميعها، وافتتح بيت المقدس سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وهدم الكنيسة التي بنواحيه، وانقضت أمم النصرانية من كل جهة، وتتابعت أساطيلهم الكفرية بالمدد من كل ناحية لتلك الثغور القريبة من بيت المقدس، واعترضوا أسطول صلاح الدين في البحر ولم تقاومهم أساطيل الإسكندرية لضعفها يومئذ عن ممانعتهم، فبعث صلاح الدين صريخةً إلىٰ المنصور سنة خمس وثمانين وخمسمائة يطلب إعانته بالأساطيل لمنازلة عكا، وصور وطرابلس الشام، وأوفد عليه عبد الرحمٰن بن منقذ من بيت بني منقذ ملوك شيزر من حصون الشام، طالبًا مدد الأساطيل لتحول في البحر بين أساطيل الفرنج وبين أمداد النصرانية بالشام، ولمنازلة الثغور التي ذكرنا.

وبعث معه إلىٰ المنصور بهدية تشتمل علىٰ مصحفين كريمين منسوبين ومائة درهم من دهن البلسان، وعشرين رطلاً من العود، وستمائة مثقال من المسك والعنبر، وخمسين قوساً عربية بأوتارها، وعشرين من النصول الهندية، وسروج عدة مثقلة، فوصل إلىٰ المغرب فصادف المنصور بالأندلس فانتظره بفاس إلىٰ أن رجع فلقيه وأدىٰ الرسالة وقدم الهدية.

وكان الكتاب الذي بعث به صلاح الدين من إنشاء الأديب عبد الرحيم البيساني المعروف بالقاضي الفاضل، وكان عنوان الكتاب من صلاح الدين إلىٰ أمير المسلمين، وفي أوله الفقير إلىٰ الله ـ تعالىٰ ـ يوسف بن أيوب، وبعده: الحمد لله الذي استعمل علىٰ الملة الحنيفة من استعمر الأرض، وأغنىٰ من أهلها من سأله القرض، وأجرىٰ من أجرىٰ علىٰ يده النافلة والفرض، وزين سماء الملة بدراري الذراري التي

بعضها من بعض، وهو كتاب طويل.

ولما وقف عليه المنصور ورأىٰ تجافيهم فيه عن خطابه بأمير المؤمنين لم يعجبه ذلك، وأسرّها في نفسه، وحمل الرسول علىٰ مناهج البر والكرامة، ورده إلىٰ مرسله ولم يجبه إلىٰ حاجته.

قال ابن خلدون: وفي هـٰذا دليل علىٰ اختصاص ملوك المغرب يومئذ بالأساطيل الجهادية، وعدم عناية الدول بمصر والشام لذلك العهد بها، وكان ابن منقذ المذكور قد مدح المنصور بقصيدة وعدتها أربعون بيتًا، فأعطاه بكل بيت ألفًا؛ وقال له: إنما أعطيناك لفضلك ولبيتك، يعني لا لأجل صلاح الدين [١].

[١٣٠] الغزوة الكبرى بالأرك من بلاد الأندلس

قال ابن خلكان: كان يعقوب المنصور ـ رحمه الله ـ قد خافه الفنش صاحب طليطلة وسأله الصلح فصالحه إلىٰ خمس سنين، فلما انقضت مدة الهدنة ولم يبق منها إلَّا القليل خرجت طائفة من الفرنج في جيش كثيف إلىٰ بلاد المسلمين، فنهبوا وسبوا وعاثوا عيثًا فظيعًا؛ فانتهىٰ الخبر إلىٰ أمير المؤمنين يعقوب المنصور وهو بمراكش فتجهز لقصدهم في جيش عرمرم من قبائل الموحدين والعرب، واحتفل في ذلك وعبر البحر إلىٰ الأندلس سنة إحدىٰ وتسعين وخمسمائة؛ واتصل بالفرنج عبوره إليهم فجمعوا خلقًا كثيراً من أقصىٰ بلادهم وأدانيها وأقبلوا نحوه.

[١٣١] فكثر طمع الأذفونش في البلاد، وبعث رسولاً إلىٰ أمير المؤمنين يعقوب المنصور يهدد ويتوعد، وكتب إليه رسالة من إنشاء وزير له من ضعفاء المسلمين يعرف بابن الفخار، وهي: «باسمك اللهم فاطر السموات والأرض، وصلىٰ الله علىٰ السيد المسيح روح الله وكلمته الرسول الفصيح، أما بعد، فإنه لا يخفىٰ علىٰ ذي ذهن ثاقب؛ ولا ذي عقل لازب أنك أمير الملة الحنيفية، كما أني أمير الملة النصرانية، وقد علمت الآن ما عليه رؤساء الأندلس من التخاذل والتواكل، وإهمال أمر الرعية، وإخلادهم إلىٰ الراحة؛ وأنا أسومهم بحكم القهر وخلاء الديار؛

---

(١) هـٰذا الذي فعله المنصور بصلاح الدين وخذلانه له إنما هو من العجائب، فإن صلاح الدين يخطب لبني العباس وهم أمراء المؤمنين، والمنصور يعلم ذلك فكيف يريد منه أن يلقبه بأمير المؤمنين؟!
ثم هل هـٰذا عذر كاف حتىٰ يخذله هـٰذا الخذلان؟

وأسبي الذراري، وأمثل بالرجال، ولا عذر لك في التخلف عن نصرهم إذا أمكنتك يد القدرة، وأنتم تزعمون أن الله فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم، فالآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفًا، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا، لا تستطيعون دفاعًا ولا تملكون امتناعًا، وقد حُكي لي عنك أنك أخذت في الاحتفال، وأشرفت على ربوة القتال، وتماطل نفسك عامًا بعد عام، تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، فلا أدري أكان الجبن قد أبطأ بك أم التكذيب بما وعد ربك؟ ثم قيل لي إنك لا تجد إلى جواز البحر سبيلاً لعلة لا يسوغ لك التقحم معها، وها أنا أقول لك ما فيه الراحة لك، وأعتذر لك وعنك، على أن تفي بالعهود والمواثيق والاستكثار من الرهان، وترسل إلي جملة من عبيدك بالمراكب.

وأجوز بجملتي إليك فأقاتلك في أعز الأماكن لديك، فإن كانت لك فغنيمة كبيرة جُلبت إليك؛ وهدية عظيمة مثلت بين يديك، وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك، واستحققت إمارة الملتين والحكم على البرين! والله تعالى يوفق للسعادة ويسهل الإرادة، لا رب غيره ولا خير إلَّا خيره.

فلما وصل كتابه إلى أمير المؤمنين يعقوب المنصور مزقه وكتب على ظهر قطعة منه، وكان المنصور يضرب به المثل في حسن التوقيع كما يأتي في بقية أخباره: ﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [النمل: ٣٧] ثم كتب: الجواب ما ترى لا ما تسمع، فهو أول من تكلم به فأرسله مثلا، وأنشد متمثلاً:

ولا كُتْبَ إلا المشرفية والقنى ... ولا رُسْلَ إلا الخميس العرمرم[(١)]

ثم أمر بالاستنفار، واستدعاء الجيوش من الأمصار؛ وضرب السرادقات بظاهر البلد من يومه، وجمع العساكر، وسار إلى البحر المعروف بزقاق سبتة يريد الأندلس.

وقال ابن أبي زرع: خرج أمير المؤمنين يعقوب المنصور من حضرة مراكش يوم الخميس الثامن عشر من جمادى الأولى سنة إحدى وتسعين وخمسمائة يولي السير ويطوي المناهل ولا يلوي على فارس ولا راجل، والجيوش تتابع في أثره من سائر

---

(١) قلت: الخميس هو الجيش، والمشرفية والقنى: السيوف والرماح.

الأقطار، فلما انتهىٰ إلىٰ قصر المجاز أخذ في إجازة الجيوش الواردة عليه، لا يفرغ من طائفة إلَّا وقد لحقت بها أخرىٰ فأجاز أولاً قبائل العرب، ثم زناتة، ثم المصامدة، ثم غمارة، ثم المتطوعة من قبائل المغرب، ثم الأغزاز والرماة، ثم الموحدون، ثم العبيد، ثم أجاز أمير المؤمنين في أثرهم في موكب عظيم من أشياخ الموحدين وأهل النجدة والزعامة ومعه فقهاء المغرب وصلحاؤه، واستقر بالجزيرة الخضراء بعد صلاة الجمعة الموفي عشرين من رجب من السنة المذكورة، فأقام بها يومًا واحدًا.

ثم نهض إلىٰ العدو قبل أن تخمد قرائح المجاهدين وتضعف نياتهم، فسار حتىٰ بقي بينه وبين حصن الأرك الذي كان العدو نازلاً بإزائه نحو مرحلتين، فنزل هنالك وذلك يوم الخميس ثالث شعبان من السنة، فجمع الناس ذلك اليوم وفاوضهم ووعظهم، ثم اختص أهل الأندلس بمزيد المشورة، وقال لهم: إن جميع من استشرته وإن كانوا أولي بأس ومعرفة بالحرب لكنهم لا يعرفون من قتال الفرنج ما تعرفونه أنتم، لتمرسكم بهم وتمرسهم بكم، فأحالوه في الرأي علىٰ القائد أبي عبد الله بن صناديد، فعوَّل المنصور - رحمه الله - في ذلك علىٰ رأيه.

[١٣٢] وقال ابن الخطيب في رقم الحلل:

«إن أمير المؤمنين المنصور - رحمه الله - عرض جيشه، وأخذ في تقريب القرب الىٰ الله تعالىٰ بين يدي جهاده، فسرح السجون، وأَدَرَّ الأرزاق، وعين الصدقات، ورحل فنزل الأرك وقد خيمت بأحوازه محلات العدو يضيق عنها المتسع، وقام المنصور بعد أن اجتمع الناس فتحلل من المسلمين وقال: أيها الناس اغفروا لي فيما عسىٰ أن يكون صدر مني، فبكي الناس وقالوا: منكم يطلب الرضىٰ والغفران، وخطب الخطباء بين يديه محرضين ومذكرين فنشط الناس وطابت النفوس، ومن الغد صدع المنصور بالنداء وأمر بأخذ السلاح والبروز إلىٰ اللقاء، فكانت التعبئة تحت الغلس».

[١٣٤] وحكىٰ ابن أبي زرع أن المنصور بات تلك الليلة عاكفًا بمصلاه علىٰ الركوع والسجود، وإنه أغفىٰ إغفاءة فرأىٰ ملكًا نزل من السماء في صورة بشر وبيده راية خضراء وبشره بالفتح، وأنشده في ذلك أبياتًا بقيت علىٰ ذكر المنصور إلىٰ أن استيقظ وقص رؤياه علىٰ وجوه الجند، فازداد الناس طمأنينة وبصيرة.

فلما كان يوم السبت خامس شعبان جلس المنصور في قبته الحمراء المعدة للجهاد، ثم دعا بكبير وزرائه الشيخ أبي يحيى بن أبي حفص وقدمه على ذلك الجيش، وعقد له رايته وقدمه بين يديه فرفرفت على رأسه الرايات، وقرعت بين يديه الطبول.

وقال ابن خلدون: إن الذي كان على المتطوعة يومئذ هو الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص، والكل إلى نظر الشيخ أبي يحيى بن أبي حفص؛ وبقي المنصور - رحمه الله - في جيش الموحدين والعبيد، وأمر الشيخ أبا يحيى بالرحيل والتقدم أمامه إلى جهة العدو.

وكان المنصور قد ضفر (١) مع ابن صناديد من الرأي أن يبقى هو متأخراً في الموحدين والعبيد والحشم على مسافة يخفى بها عن أعين العدو؛ ويقدم الشيخ أبا يحيى ببعض الرايات والطبول في هيئة السلطان فيلقى العدو؛ فإن كانت للمسلمين فهو المطلوب، وإن كانت عليهم كان المنصور رِدْءًا لهم ثم يستأنف القتال مع العدو وقد انفلّ حده ولانت شوكته.

فسار الشيخ أبو يحيى على هذا الترتيب وابن صناديد أمامه في فرسان الأندلس وحماتها، فكان الشيخ أبو يحيى إذا أقلع بجيشه عن موضع صباحًا خلفه المنصور فيه بجيشه مساء، حتى أشرف الشيخ أبو يحيى على جموع الفرنج وهي يومئذ إلى جنب حصن الأرك - ويقال الأركو بزيادة الواو في آخره - قد ضربت أخبيتها على ربوة عالية ذات مهاوٍ وأحجار كبار قد ملأت السهل والوعر، ونزل الشيخ أبو يحيى بجيشه في البسيط ضحوة يوم الأربعاء التاسع من شعبان سنة إحدى وتسعين وخمسمائة، فعبأ الشيخ أبو يحيى عساكره تعبئة الحرب، وعقد الرايات لأمراء القبائل، وأوقف كل قبيلة في مركزها الذي عين لها، فجعل عسكر الأندلس في الميمنة، وجعل زناتة والمصامدة والعرب وسائر قبائل المغرب في الميسرة؛ وجعل المتطوعة والرماة في المقدمة وبقي هو في القلب في قبيلة هنتاتة.

[١٣٦] ولما أخذ الناس مراكزهم من حومة القتال خرج جرمون بن رياح يمشي في صفوف المسلمين ويحضهم على الثبات والصبر.

---

(١) قلت: يعني اتفق.

[١٣٧]وبينما الناس علىٰ ذلك إذ انفصلت من جيوش العدو كتيبة عظيمة من نحو عشرة آلاف فارس كلهم مدجج في الحديد، وكانت هـٰذه الكتيبة هي شوكة ذلك الجيش وحده، كان الفنش ـ لعنه الله ـ قد انتخبهم وصلت أَقِسّته (١)عليهم صلاة النصر، ورشوهم بماء المعمودية؛ وتحالفوا عند الصلبان أن لا يبرحوا حتىٰ يقتلوا المسلمين أو يهلكوا دونهم؛ فلما برزت هـٰذه الكتيبة نادىٰ منادي الشيخ أبي يحيىٰ: معشر المسلمين، اثبتوا في مصافكم؛ وأخلصوا لله ـ تعالىٰ ـ نيتكم، واذكروا الله ـ عزوجل ـ في قلوبكم، وبرز عامر الزعيم من أمراء العرب، فحض الناس علىٰ الصبر وثبتهم، وحملت كتيبة العدو حتىٰ اندقت رماح المسلمين في صدور خيلها أو كادت، ثم تقهقرت قليلاً، ثم عاودت الحملة فكانت كالأولىٰ؛ ثم تهيأت للحملة الثالثة فدفعت حتىٰ خالطت صفوف المسلمين، وخلص البعض منها إلىٰ الشيخ أبي يحيىٰ يظنونه المنصور فاستشهد ـ رحمه الله ـ بعد ما أحسن البلاء وقاتل قتالاً شديداً، واستشهد معه جماعة من المسلمين من هنتاتة والمتطوعة وغيرهم، وسمي بنو الشيخ أبي يحيىٰ ببني الشهيد وعرفوا به من يومئذ، وأظلم الجو بالغبار واختلطت الرجال بالرجال وانفرد كل قرن بقرنه، وأقبلت العرب والمتطوعة فأحاطوا بالكتيبة التي دفعت إلىٰ الشيخ أبي يحيىٰ. وزحفت زناتة والمصامدة وغمارة إلىٰ الربوة التي فيها الفنش وجموعه؛ وكانت علىٰ ما قيل تنيف علىٰ ثلاثمائة ألف بين فارس وراجل، فتوغل المسلمون في تلك الأوعار إليهم وخالطوهم بها؛ واشتد القتال واستحر القتل في الكتيبة التي دفعت أولاً وانقضت عليهم العرب والمتطوعة وهنتاتة فطحنوهم طحنًا، وانكسرت شوكة الفنش بهلاكهم إذ كان اعتماده ومعوله عليهم.

وأسرعت خيل من العرب إلىٰ أمير المؤمنين المنصور فأعلموه بأن الله تعالىٰ ـ قد فَلّ شوكة العدو وأشرف علىٰ الانهزام؛ فعندها أمر المنصور بالرايات فرفعت وبالطبول فقرعت، ورفع المسلمون أصواتهم بالتكبير وتسابقوا لقتال العدو وخفقت البنود؛ وزحف أمير المؤمنين نحو المعركة، فلم يرع الفنش اللعين إلَّا الرايات قد أقبلت تخفق من كل جهة وزعقات الطبول والأبواق وأصوات المجاهدين بالتكبير قد زلزلت الأرض فقال: ما هـٰذا؟ فقيل: هـٰذا المنصور قد أقبل في جيشه، وما قاتلك

(١) قلت: جمع قسيس.

سائر اليوم إلَّا طلائعه ومقدماته! فقذف الله الرعب في قلبه وخشعت نفوس جموعه وزلزلت بهم الأرض زلزالها فولوا الأدبار لا يلوون علىٰ شيء، وأسعدهم يومئذ من وجد في فرسه بقية تنجيه، وأتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون؛ وأحاط بعضهم بحصن الأرك يظنون أن الفنش قد تحصن به، وكان عدو الله قد دخل علىٰ باب وخرج علىٰ آخر من الناحية الأخرىٰ؛ واقتحم المسلمون الحصن عنوة وأضرموا النيران في أبوابه واحتووا علىٰ جميع ما كان فيه وفي محلة العدو من الأموال والذخائر وأنواع السلاح التي تفوت الحصر.

وقال ابن خلدون: «كان ملوك الفرنج الذين قاتلوا المنصور يومئذ ثلاثة ابن أذفونش وابن الرند والبيبوج، قال: واعتصم فُلُّهم بحصن الأرك وكانوا خمسة آلاف من زعمائهم، فاستنزلهم المنصور علىٰ حكمه حتىٰ فُودي بهم عددهم من المسلمين.

[١٣٨] وفي القرطاس: أن عدد أسارىٰ الأرك كانوا أربعة وعشرين ألفًا فمن عليهم المنصور وأطلقهم، قال فعزّ ذلك علىٰ جميع الموحدين وسائر المسلمين؛ وعدت للمنصور سقطة من سقطات الملوك.

وقال ابن الأثير: «كانت الدائرة يوم الأرك أولاً علىٰ المسلمين، ثم عادت علىٰ الفرنج وانهزموا أقبح هزيمة؛ وكان عدد من قُتل من الفرنج أزيد من مائة ألف، وغنم المسلمون منهم شيئًا كثيراً؛ فمن الخيام مائة ألف وثلاثة وأربعون ألفًا؛ ومن الخيل ستة وأربعون ألفًا؛ وقيل ثمانون ألفًا؛ ومن البغال مائة ألف؛ ومن الحمير أربعمائة ألف».

قال في نفح الطيب: «جاء بها الكفار لحمل أثقالهم لأنهم لا إبل لهم».

قال: وأما الجواهر والأموال فلا تحصىٰ، وبيع الأسير بدرهم؛ والسيف بنصف درهم؛ والفرس بخمسة دراهم؛ والحمار بدرهم، وقسم المنصور الغنائم بين المسلمين بمقتضىٰ الشرع، كذا في نفح الطيب.

وفي كامل ابن الأثير: «أن يعقوب المنصور رحمه الله نادىٰ في عسكره من غنم شيئًا فهو له سوىٰ السلاح؛ وأحصىٰ ما حمل إليه منه فكان زيادة علىٰ سبعين ألف، واستشهد من المسلمين نحو عشرين ألفًا».

ثم تقدم المنصور بجيوشه إلى بلاد الفرنج وأخذ يخرب المدن والقرى، ويفتح الحصون والمعاقل؛ ويقتل ويسبي ويأسر، حتى وصل إلى جبل سليمان؛ ثم ثنى عنانه راجعًا وقد امتلأت أيدي المسلمين من الغنائم، ولم يعارضه من الفرنج معارض، حتى وصل إلى إشبيلية فاستقر بها.

وأما الفنش فإنه لما انهزم وصل إلى طليطلة في أسوأ حال؛ فحلق رأسه ولحيته، ونكس صليبه وركب حمارًا؛ وأقسم أن لا يركب فرسًا ولا بغلاً ولا ينام على فراش ولا يقرب النساء حتى تنصر النصرانية، فجمع جموعًا عظيمة، وبلغ الخبر بذلك إلى المنصور فبعث إلى بلاد المغرب مراكش وغيرها يستنفر الناس من غير إكراه، فأتاه من المتطوعة والمرتزقة جمع عظيم؛ ثم نهض إلى الفنش فالتقوا في ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، فانهزم الفرنج هزيمة قبيحة؛ وغنم المسلمون ما معهم من الأموال والسلاح والدواب وغيرها.

ثم تقدم المنصور إلى مدينة طليطلة فحاصرها وقاتلها قتالاً شديداً وقطع أشجارها، وشن الغارات على ما حولها من البلاد، وفتح فيها عدة حصون مثل قلعة رباح ووادي الحجارة ومجريط (١) وجبل سليمان وكثير من أحواز طليطلة.

ثم ارتحل عن طليطلة إلى مدينة طلمنكة فدخلها عنوة بالسيف فقتل المقاتلة، وسبى النساء والذرية، وغنم أموالها؛ وهدم أسوارها، وأضرم النيران في جوانبها؛ وتركها قاعًا صفصفًا.

وثنى عنانه إلى إشبيلية، فدخلها غرة صفر سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة.

ثم عبر البحر إلى المغرب فوصل إلى مراكش في شعبان سنة أربع وتسعين وخمسمائة.

[١٣٩] وفي نفح الطيب: أن يعقوب المنصور لما حاصر طليطلة وضيق عليها ولم يبق إلا فتحها خرجت إليه والدة الأذفونش وبناته ونساؤه وبكين بين يديه وسألنه إبقاء البلد عليهن، فرقَّ لهن ومنَّ عليهن به، ووهب لهن من الأموال والجواهر ما جلّ؛ وردهن مكرمات وعفا بعد القدرة، والله تعالى أعلم (٢).

---

(١) قلت: هي مدريد اليوم.

(٢) قلت: إذا صح هذا فهي زلة منه، رحمه الله تعالى.

[١٤٠] بقية أخبار المنصور وسيرته

قال ابن أبي زرع: «كان المنصور ـ رحمه الله ـ ذا رأي وحزم ودين وسياسة».

وهو واسطة عقد ملوك الموحدين الذي ضخم الدولة وشرفها. وكانت أيامه أيام دعة وأمن ورخاء ورفاهية وبهجة، صنع الله ـ عز وجل ـ في أيامه الأمن بالمشرق والمغرب والأندلس، فكانت الظعينة تخرج من بلاد تول فتنتهي إلى برقة وحدها لا ترى من يعرض لها ولا من يسومها بسوء، ضبط الثغور، وحصن البلاد، وبنى المساجد والمدارس في بلاد إفريقية والمغرب والأندلس؛ وبنى المرستانات للمرضى والمجانين وأجرى عليهم الإنفاق في جميع أعماله، وأجرى المرتبات على الفقهاء وطلبة العلم؛ كلٌّ على قدر مرتبته؛ وبنى الصوامع والقناطر، وحفر الآبار للماء في البرية، فكانت أيامه زينة للدهر وشرفًا للإسلام وأهله.

وقال ابن خلكان: «كان يعقوب المنصور ـ رحمه الله ـ صافي السمرة جدًا، إلى الطول ما هو؛ جميل الوجه؛ أفوه، أعين، شديد الكحل، ضخم الأعضاء، جهوريَّ الصوت، جزيل الألفاظ، من أصدق الناس لهجة، وأحسنهم حديثًا؛ وأكثرهم إصابة بالظن، مجربًا للأمور؛ ولي وزارة أبيه فبحث عن الأحوال بحثًا شافيًا، وطالع مقاصد العمال والولاة وغيرهم مطالعة أفادته معرفة جزئيات الأمور؛ فلما مات أبوه اجتمع رأي أشياخ الموحدين على تقديمه فقام بالأمر أحسن قيام؛ ورفع راية الجهاد؛ ونصب ميزان العدل؛ وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع؛ ونظر في أمور الدين والورع، وأقام الحدود حتى في أهله وعشيرته الأقربين؛ كما أقامها في سائر الناس أجمعين؛ فاستقامت الأحوال في أيامه، وعظمت الفتوحات؛ وكان قد أمر لأول دولته بقراءة البسملة في أول الفاتحة في الصلوات، وأرسل بذلك إلى سائر بلاد الإسلام التي في ملكه؛ فأجاب قوم وامتنع آخرون، وكان ملكًا جوادًا عادلاً متمسكًا بالشرع المطهر، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر كما ينبغي من غير محاباة، ويصلي بالناس الصلوات الخمس، ويلبس الصوف، ويقف للمرأة والضعيف ويأخذ لهم بالحق».

[١٤١] قال ابن خلكان: «وسمعت عنه حكاية يليق أن نذكرهـا هنا؛ وهي أن

الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن عاشر أبي حفص كان قد تزوج أخت يعقوب المنصور، فأقامت عنده ثم جرت بينهما منافرة؛ فجاءت إلى بيت أخيها يعقوب المنصور؛ فسير الشيخ عبد الواحد في طلبها فامتنعت عليه، فشكى الشيخ عبدالواحد ذلك إلى قاضي الجماعة بمراكش، وهو أبو عبد الله محمد بن علي بن مروان؛ فاجتمع القاضي المذكور بأمير المؤمنين يعقوب المنصور، وقال له: إن الشيخ أبا محمد عبد الواحد يطلب أهله، فسكت عنه المنصور، ومضت أيام؛ ثم إن الشيخ أبا محمد اجتمع بالقاضي المذكور في قصر المنصور بمراكش وقال له: أنت قاضي المسلمين وقد طلبت أهلي فما جاءوني، فاجتمع القاضي بالمنصور وقال له: يا أمير المؤمنين: الشيخ عبد الواحد قد طلب أهله مرة وهٰذه الثانية، فسكت المنصور، ثم بعد ذلك بمدة لقي الشيخ عبد الواحد القاضي بالقصر المذكور فقال له: يا قاضي المسلمين قد قلت لك مرتين وهٰذه الثالثة أنا أطلب أهلي، وقد منعوني منهم، فاجتمع القاضي بالمنصور، وقال له: يا مولانا إن الشيخ عبد الواحد قد تكرر طلبه لأهله؛ فإما أن تسير إليه أهله، وإما أن تعزلني عن القضاء، فسكت المنصور، ثم استدعى خادمًا وأمره سرًا بأن تُحمل أهل الشيخ عبد الواحد إليه، فحملت إليه في ذلك اليوم، ولم يتغير على القاضي ولا قال له شيئًا يكرهه؛ وتبع في ذلك حكم الشرع المطهر وانقاد لأمره؛ وهٰذه حسنة تعد له وللقاضي أيضًا فإنه بالغ في إقامة منار الشرع والعدل».

وكان المنصور يشدد في إلزام الرعية بإقامة الصلوات الخمس، وقتل في بعض الأحيان على شرب الخمر، وقتل العمال الذين تشكوهم الرعايا.

[١٤٢] أمر برفض فروع الفقه وإحراق كتب المذاهب، وأن الفقهاء لا يفتون إلا من الكتاب والسنة النبوية؛ ولا يقلدون أحدًا من الأئمة المجتهدين، بل تكون أحكامهم بما يؤدي إليه اجتهادهم من استنباطهم القضايا من الكتاب والحديث والإجماع والقياس (١) .

[١٤٣] وكان يعاقب على ترك الصلوات، ويأمر بالنداء في الأسواق بالمبادرة

---

(١) قلت: وهٰذه زلة ظاهرة وليست منقبة؛ فإن العلماء المجتهدين لم يأخذوا إلا من الكتاب والسنة وما بُني عليهما من الإجماع والقياس وغير ذلك.

إليها، فمن غفل عنها أو اشتغل بمعيشته عزره تعزيرًا بليغًا.

وكان قد عظم ملكه واتسعت دائرة سلطنته، حتىٰ أنه لم يبق بجميع أقطار بلاد المغرب من البحر المحيط إلىٰ برقة إلا من هو في طاعته وداخل في ولايته إلىٰ غير ذلك من جزيرة الأندلس، وكان محسنًا، محبًا للعلماء مقربًا للأدباء؛ مصغيًا إلىٰ المدح؛ مثيبًا عليه، وله ألف أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي كتابه الذي سماه صفوة الأدب وديوان العرب في مختار الشعر، وهو مجموع مليح أحسن في اختياره كل الإحسان.

[١٤٤] وكان المنصور يضرب به المثل في حسن التوقيع وإجادته [١] وقد تقدم لنا ما وقع به علىٰ كتاب الفنش.

وحكى ابن الخطيب في «رقم الحلل» أن المنصور طلب يومًا من قاضيه أن يختار له رجلين لغرضين من تعليم ولد، وضبط أمر، فعرفه برجلين؛ قال في أحدهما: وهو بحر في علمه؛ وقال في الآخر: وهو بر في دينه، ولما خرج المنصور أحضرهما واختبرهما فقصّرا بين يديه؛ وأكذبا الدعوىٰ؛ فوقع المنصور علىٰ رقعة القاضي: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ظهر الفساد في البر والبحر، قال ابن الخطيب، وهٰذا من التوقيع العريق في الإجادة والصنعة.

وكان مجلس المنصور - رحمه الله - مجلس الفضلاء والأدباء وأرباب المعارف والفنون، حكىٰ أبو الفضل التيفاشي قال: جرت مناظرة بين يدي ملك المغرب يعقوب المنصور، وكانت بين الفقيه أبي الوليد بن رشد المعروف بالحفيد؛ والرئيس الوزير أبي بكر بن زُهر، وكان الأول قرطبيًا، والثاني إشبيليًا، فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة: «ما أدري ما تقول غير أنه إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلىٰ قرطبة حتىٰ تباع فيها، وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلىٰ إشبيلية».

وهٰذا الوزير ابن زهر، هو أحد أعيان وزراء الدولة الموحدية، وزير للمنصور ولأبيه من قبله.

---

(١) قلت: المراد بالتوقيع - هنا - ما يكتبه جوابًا علىٰ الرسائل.

قال ابن خلكان: كان ابن زهر من أهل بيت كلهم علماء رؤساء حكماء وزراء، نالوا المراتب العلية، وتقدموا عند الملوك؛ ونفذت أوامرهم، وكان يتكرر وروده على الحضرة بمراكش فيقيم بها ويرجع إلى الأندلس.

[١٤٥] ومما قاله بمراكش يتشوق إلى ولد له صغير تركه بإشبيلية:

ولي واحد مثل فرخ القطا ... صغير تخلف قلبي لديه

نأت عنه داري فيا وحشتي ... لذاك الشخيص وذاك الوجيه

تشوقني وتشوقته ... فيبكي علي وأبكي عليه

لقد تعب الشوق ما بيننا ... فمنه إلي ومني إليه

قال العلامة الأديب أبو العباس المقري في (نفح الطيب): «أخبرني الطبيب الماهر الثقة الصالح العلامة سيدي أبو القاسم بن محمد الوزير الغساني الأندلسي الأصل، الفاسي المولد والنشأة، حكيم حضرة السلطان أبي العباس المنصور بالله السعدي، أن ابن زهر لما قال هذه الأبيات وسمعها يعقوب المنصور أرسل المهندسين إلى إشبيلية - يعني من غير علم من ابن زهر - وأمرهم أن يحيطوا علماً ببيوت ابن زهر وحارته، ثم يبنوا مثلها بحضرة مراكش، ففعلوا ما أمرهم به في أقرب مدة، وفرشها بمثل فرشه؛ وجعل فيها مثل آلاته، ثم أمر بنقل عيال ابن زهر وأولاده وحشمه وأسبابه إلى تلك الدار؛ ثم احتال عليه حتى جاء إلى ذلك الموضع فرآه أشبه شيء ببيوته وحارته، فاحتار لذلك وظن أنه نائم وأن ذلك أحلام، فقيل له: ادخل البيت الذي يشبه بيتك، فدخله فإذا ولده الذي يتشوق إليه يلعب في البيت؛ فحصل له من السرور ما لا مزيد عليه ولا يعبر عنه».

وفاة يعقوب المنصور رحمه الله

قال ابن أبي زرع: لما رجع المنصور من الأندلس إلى مراكش أخذ البيعة لولده أبي عبد الله محمد الملقب بالناصر لدين الله، فبايعه كافة الموحدين وسائر أهل الأمصار والأقطار، فلما تمت البيعة للناصر المذكور وجلس في محل الخلافة وجرت الأحكام والأوامر باسمه وعلى يديه في حياة أبيه دخل المنصور قصره فلزمه.

وقال ابن خلكان: «لما وصل المنصور إلى مراكش - يعني بعد قدومه من الأندلس -

أمر باتخاذ الأحواض والروايا وآلات السفر للتوجه إلى بلاد إفريقية، فاجتمع إليه مشايخ الموحدين وقالوا له: يا سيدنا قد طالت غيبتنا بالأندلس؛ فمنا من له خمس سنين وغير ذلك، فتنعم علينا بالمهلة هٰذا العام وتكون الحركة في أول سنة خمس وتسعين وخمسمائة، فأجابهم إلى سؤالهم؛ وانتقل إلى مدينة سلا وشاهد ما فيها من المنتزهات المعدة له.

وكان قد بنى بالقرب من المدينة المذكورة مدينة عظيمة سماها رباط الفتح[1] على هيئة الإسكندرية في الاتساع وحسن التقسيم وإتقان البناء وتحصينه وتحسينه، وبناها على البحر المحيط الذي هناك؛ وهي على نهر سلا مقابلة لها من البر القبلي، وأطاف تلك البلاد وتنزه فيها ثم رجع إلى مراكش.

لما رجع إلى مراكش توفي في غرة جمادى الأولى سنة خمس وتسعين وخمسمائة، ودفن بمجلس سكناه من مراكش».

[١٤٦] وقال ابن أبي زرع: لما حضرت المنصور الوفاة قال ما ندمت على شيء فعلته في خلافتي إلا على ثلاث وددت أني لم أفعلها:

الأولى: إدخال العرب من إفريقية إلى المغرب مع إني أعلم أنهم أهل فساد.

والثانية: بناء رباط الفتح أنفقت فيه بيت المال وهو بعد لا يعمر.

والثالثة: إطلاقي أسارى الأرك، ولا بد لهم أن يطلبوا بثأرهم.

قلت: ما ذكره ـ رحمه الله ـ في رباط الفتح من أنه لا يعمر قد تخلف ظنه فيه، فهو اليوم من أعمر أمصار المغرب وأحضرها ـ حرسه الله وحرس سائر أمصار المسلمين ـ من آفات النقصان وطوارق الحدثان.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد الناصر لدين الله بن يعقوب المنصور بالله

بويع لأبي عبد الله محمد الناصر لدين الله في حياة والده يعقوب المنصور، ثم جددت له البيعة بعد وفاته وذلك يوم الجمعة الثاني والعشرين من ربيع الأول سنة

---

(١) قلت: وهي اليوم مدينة الرباط عاصمة المغرب.

خمس وتسعين وخمسمائة، وهو اليوم الذي توفي فيه أبوه.

[١٤٧] غزوة العقاب التي محص الله فيها المسلمين

ثم اتصلت الأخبار بالناصر وهو بمراكش أن الفنش ـ لعنه الله ـ قد استطال على ثغور المسلمين بالأندلس، وأنه يغير على قراها وينهب الأموال ويسبي النساء والذرية؛ فأهمه ذلك وأقلقه وكتب إلى الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص صاحب إفريقية يستشيره في الغزو؛ فأبى عليه فخالفه وأخذ في الحركة للجهاد.

وكان الناصر معجبًا برأيه، مستبدًا بأموره؛ ففرق الأموال على القواد والأجناد؛ وكتب إلى جميع بلاد إفريقية والمغرب وبلاد القبلة يستنفر المسلمين لغزو الكفار فأجابه خلق كثير، وألزم كل قبيلة من قبائل العرب بحصة من الخيل والرجل تخرج للجهاد، فتقدمت عليه الجيوش من سائر الأقطار، وتسارع الناس إليه خفافًا وثقالاً من البوادي والأمصار.

فلما تكاملت لديه الحشود وتوافت بحضرته الجنود خرج من مراكش في تاسع عشر شعبان سنة سبع وستمائة؛ فانتهى إلى قصر المجاز فأقام به وشرع في إجازة الجيوش من أوائل شوال إلى أواخر ذي القعدة من السنة المذكورة، فتلقاه هنالك قواد الأندلس وفقهاؤها ورؤساؤها؛ وأقام بطريف ثلاثًا، ثم نهض إلى إشبيلية في أمم لا تحصى، وجيوش لا تستقصى قد ملأت السهل والوعر.

حكى بعض الثقات من مؤرخي المغرب أنه اجتمع مع الناصر في هذه الغزوة من أهل المغرب والأندلس ستمائة ألف مقاتل، وكان الناصر ـ رحمه الله ـ قد أعجبه ما رأى من كثرة جنوده؛ وأيقن بالظفر فقسم الناس على خمس فرق، فجعل العرب فرقة؛ وزناتة وصنهاجة والمصامدة وغمارة وسائر أصناف قبائل المغرب فرقة؛ وجعل المتطوعة فرقة؛ وجعل جند الأندلس فرقة؛ والموحدين فرقة؛ وأمر كل فرقة أن تنزل ناحية.

[١٤٨] واهتزت جميع بلاد الفرنج لجوازه، وتمكن رعبه في قلوبهم، فأخذوا في تحصين بلادهم وإخلاء ما قرب من المسلمين من قراهم وحصونهم، وكتب إليه أكثر أمرائهم يسألونه السلم ويطلبون منه العفو، ووفد عليه منهم ملك بنبلونة

مستسلمًا خاضعًا طالبًا للصلح؛ فيقال إنه قدم بين يديه كتاب النبي ﷺ الذي كتبه إلىٰ هرقل ملك الروم يستشفع به؛ وقد كان هـٰذا الكتاب وقع إليه وراثة من بعض سلفه، فاحتفل الناصر لقدومه؛ وصف له الجيوش من باب مدينة قرمونة إلىٰ باب إشبيلية أربعين ميلاً، ثم عقد له الصلح ما دامت دولة الموحدين؛ وصرفه إلىٰ بلاده مكرمًا مسعفًا بجميع مطالبه.

وعند ابن خلدون أن الذي وفد علىٰ الناصر في هـٰذه الغزوة هو البيبوج أحد الملوك الثلاثة الذين شهدوا وقعة الأرك، قال: وهو الذي مكر بالناصر يوم العقاب، قدم عليه وأظهر له التنصح وبذل له أموالاً ثم غدر به وجر عليه الهزيمة، والله أعلم.

[١٤٩] ثم خرج الناصر من إشبيلية غازيًا بلاد قشتالة في أوائل صفر سنة ثمان وستمائة، فسار حتىٰ نزل حصن سلبطرة وهو حصن منيع وضع علىٰ قمة جبل، وقد تعلق بأكناف السحاب ليس له مسلك إلا من طريق واحد في مضائق وأوعار؛ فنزل عليه الناصر وأدار به الجيوش، ونصب عليه أربعين منجنيقًا فهتك أرباضه؛ ولم يقدر منه علىٰ شيء.

قالوا: وكان وزيره أبو سعيد بن جامع قد تمكن من الناصر، فأقصىٰ شيوخ الموحدين وأعيانهم وذوي الحنكة والرأي منهم عن بساطه، وانفرد هو به فكان يشير علىٰ الناصر في غزوته هـٰذه بآراء كانت سبب الضعف والوهن، وجلبت الكرة علىٰ المسلمين من ذلك أن الناصر لما أعياه أمر الحصن عزم علىٰ النهوض عنه إلىٰ غيره؛ فأشار عليه ابن جامع بأن لا يتجاوزه حتىٰ يفتحه، فيقال إنه أقام علىٰ ذلك الحصن ثمانية أشهر فنيت فيها أزواد الناس؛ وقلت علوفاتهم؛ وكلت عزائمهم، وفسدت نياتهم؛ وانقطعت الأمداد عن المحلة فغلت بها الأسعار، ودخل فصل الشتاء فاشتد البرد وأصاب المسلمين كل ضر.

واتصل بالفنش ـ لعنه الله ـ ما آل إليه أمر المسلمين من الضجر وقلة المادة وتشوش البواطن واختلاف الرأي، فاغتنم الفرصة وبعث الحاشرين في مدائنه ودعا كل من قدر علىٰ حمل السلاح من رعيته، فاجتمع له من ذلك ما لا حصر له.

[١٥٠] ثم خالف الناصر إلىٰ قلعة رباح فنازلها، وبها يومئذ أبو الحجاج يوسف ابن قادس من قواد الأندلس وزعمائها، كان قد ترتب في ذلك الحصن في جماعة

من الخيل لحمايته وضبطه، فحاصره الفنش وبالغ في التضييق عليه؛ فكان ابن قادس يكتب لأمير المؤمنين الناصر يعلمه بحاله ويستمده على عدوه، وهو على حصن سلبطرة؛ فكان الوزير ابن جامع إذا وصلت إليه كتب ابن قادس أخفاها عن الناصر لئلا يرحل عن الحصن قبل فتحه، فلما طال الحصار على ابن قادس وفني ما عنده من الأقوات والسلاح ويئس من إمداد الناصر إياه وخشي على من في الحصن من النساء والذرية صالح الفنش على تسليم الحصن له وخروج المسلمين آمنين على أنفسهم ففعل؛ واستولى الفنش على قلعة رباح.

[١٥١] وسار ابن قادس إلى الناصر ليجتمع به ويعلمه بالأمر على وجهه؛ وسار معه صهر له بعد أن عزم ابن قادس عليه أن يرجع، فأبى، وقال: إن قتلت قتلت معك! ولما وصل إلى الوزير ابن جامع أمر بحبسه وحبس صهره معه، ثم دخل على الناصر فقال له: إن ابن قادس قد دفع الحصن إلى العدو ثم قدم عليك وأراد الدخول عليك.

وكان الناصر قد تغير باطنه على أهل الأندلس، واتهمهم بكتمان أمر العدو عنه حين كان بمراكش؛ فلما قدم ابن قادس في هذه المرة وقال له ابن جامع ما قال أمر بقتله هو وصهره قطعًا بالرماح رحمهما الله.

[١٥٢] فحقدت جيوش الأندلس على ابن جامع وفسدت نياتهم على الناصر، وأحس ابن جامع بذلك فأمر بإحضار قوادهم فحضروا بين يديه، فقال: اعتزلوا جيش الموحدين فلا حاجة لنا بكم كما قال الله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً﴾ [التوبة: ٤٧]، وسننظر بعد هذا في أمر كل فاجر.

ولما علم الناصر بحال الفنش وما هو عليه من القوة وكثرة الجموع واستيلائه على قلعة رباح التي هي أمنع ثغور المسلمين شق ذلك عليه؛ وامتنع من الطعام والشراب حتى مرض من شدة الوجد، ثم شدد في قتال سلبطرة وبذل الأموال الجليلة حتى فتحها صلحًا وذلك في أواخر ذي الحجة من سنة ثمان وستمائة، ثم زحف الفنش إلى الناصر ونهض الناصر إليه فالتقى الجمعان بموضع يعرف بحصن العقبان، فضرب المصاف وضرب للناصر قبته الحمراء المعدة للقتال على رأس ربوة، وقعد أمامها على درقته وفرسه قائم بإزائه، ودارت العبيد بالقبة من كل ناحية ومعهم

السلاح التام ووقفت البنود والطبول أمام العبيد مع الوزير ابن جامع؛ وأقبلت جموع الفرنج على مصافها كأنها الجراد المنتشر، فتقدمت إليهم المتطوعة وحملوا عليهم أجمعون وكانوا مائة وستين ألفًا، فغابوا في صفوفهم وانطبقت عليهم الفرنج فاقتتلوا قتالاً شديداً فاستشهد المتطوعة عن آخرهم هـٰذا وعساكر الموحدين والعرب والأندلس ينظرون إليهم لم يحرك إليهم منهم أحد.

ولما فرغ الفرنج من المتطوعة حملوا بأجمعهم على عساكر الموحدين والعرب حملة منكرة، فلما انتشب القتال بين الفريقين فرقت قواد الأندلس وجيوشها لما كانوا قد حقدوه على ابن جامع في قتل ابن قادس أولا، وتهديدهم وطرده لهم ثانيًا، فجروا الهزيمة على المسلمين ولا حول ولا قوة إلا بالله؛ وتبعهم قبائل البربر والموحدون العرب، وركبتهم الفرنج بالسيف وكشفوهم عن الناصر حتى انتهوا إلى الدائرة التي دارت عليه من العبيد والحشم، فألفوها كالبنيان المرصوص لم يقدروا منها على شيء؛ ودفع الفرنج بخيلهم المدرعة على رماح العبيد وهي مشرعة إليهم فدخلوا فيها والناصر قاعد على درقته أمام خبائه يقول «صدق الرحمـٰن وكذب الشيطان» حتى كادت الفرنج تصل إليه، وحتى قتل حوله من عبيد الدائرة نحو عشرة آلاف؛ ثم أقبل إليه بعض فرسان العرب على فرس له أنثى فقال له: إلى متى قعودك يا أمير المؤمنين وقد نفذ حكم الله وتم أمره وفنى المسلمون؟ فعند ذلك قام الناصر إلى جواد له سابق كان أمامه فأراد أن يركبه فترجل العربي عن فرسه وقال له: اركب هـٰذه الحرة فإنها لا ترضى بعار، فلعل الله ينجيك عليها فإن في سلامتك الخير كله، فركبها الناصر، وركب العربي جواده، وتقدم أمامه في كوكبة عظيمة من العبيد محيطة بهم، والفرنج في أعقابهم تقتلهم ونادى منادي الفنش يومئذ: ألا لا أسر إلا القتل، ومن أتى بأسير قتل هو وأسيره، فحكمت سيوف الفرنج في المسلمين إلى الليل.

وكانت هـٰذه الرزية العظيمة يوم الاثنين خامس عشر صفر سنة تسع وستمائة، فذهبت قوة المسلمين بالمغرب والأندلس من يومئذ ولم تنصر لهم بعدها راية مع الفرنج إلى أن تدارك الله رمق الأندلس بالسلطان المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق المريني - رحمه الله - كما سنقص خبر ذلك مستوفى عند الوصول إليه، إن شاء الله.

قال ابن الخطيب: لما لحق الناصر بإشبيلية حمل السيف على طائفة كبيرة ممن توجهت إليهم الظِّنَّة [1]، وقال ابن خلدون: ثم رجعت الفرنج إلى الأندلس بعد الكائنة للإغارة على بلاد المسلمين، فلقيهم السيد أبو زكريا بن أبي حفص بن عبد المؤمن قريبًا من إشبيلية فهزمهم وانتعش المسلمون بها، واتصلت الحال على ذلك.

وفاة الناصر رحمه الله

قال ابن أبي زرع: لما قدم الناصر إلى مراكش منصرفًا من وقعة العقاب أخذ البيعة لولده يوسف الملقب بالمنتصر، فبايعه كافة الموحدين؛ وخطب له على جميع منابر المغرب والأندلس في العشر الأواخر من ذي الحجة سنة تسع وستمائة.

ولما تمت له البيعة دخل الناصر قصره، واحتجب فيه عن الناس، إلى شعبان من سنة عشر وستمائة فمات مسمومًا بتدبير وزرائه عليه في ذلك.

قلت: الصحيح في وفاة الناصر ما ذكره الوزير ابن الخطيب في «رَقْم الحلل» قال: ثم صرف الناصر وجهه إلى غزو الأندلس في عزم لم يبلغ إليه ملك قبله، ولما احتل رباط الفتح من سلا نزل به الموت فتوفي ليلة الثلاثاء عاشر شعبان سنة عشر وستمائة فانحل العزم وتفرقت الجموع والبقاء له وحده.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين
يوسف المنتصر بالله ابن الناصر بن المنصور رحمه الله

[١٥٣] لما هلك محمد الناصر لدين الله بويع ابنه أبو يعقوب يوسف بن محمد بن يعقوب المنصور وهو ابن ست عشرة سنة، ولقب بالمنتصر بالله؛ وغلب عليه الوزير أبو سعيد ابن جامع ومشيخة الموحدين، فقاموا بأمره؛ واستبدوا عليه، واشتغل المنتصر عن تدبير الأمر والجهاد بما يقتضيه الشباب.

[١٥٤] وفي دولة المنتصر هـذا فشل أمر الموحدين وذهبت ريحهم، وأشرفت دولتهم على الهرم؛ واستولى الفنش على المعاقل التي أخذها المسلمون؛ وهزم حامية الأندلس في كل جهة؛ واستبدت السادة بالأطراف، والتاثت الأمور

(١) قلت: أي التهمة.

بالأندلس والمغرب أجمع، أما الأندلس فبتكالب العدو عليها وفناء حماتها؛ وأما المغرب فبخلاء كثير من قراه وأمصاره من وقعة العقاب.

ثم ظهرت بنو مرين بجهة فاس سنة ثلاث عشرة وستمائة؛ وكانوا موطنين بصحراء فيجيج وما والاها، فاقتحموا المغرب في هٰذه السنين لخلائه من الحامية، واكتسحوا بسائطه بالغارات؛ وانحازت رعاياه إلىٰ المعاقل والحصون؛ وكثرت الشكايات بهم إلىٰ المنتصر؛ وهو مقيم بمراكش فكتب إلىٰ السيد أبي إبراهيم صاحب فاس يأمره بغزوهم، فخرج إليهم وهو ببلاد الريف؛ فأوقعوا به وقعة شنعاء كانت باكورة فتحهم، وعاد السيد مفلولاً إلىٰ فاس؛ وأصحابه عراة بين يديه يخصفون عليهم من ورق النبات المعروف بالمشعلة؛ فسميت السنة سنة المشعلة، وكانوا قد أسروا السيد أبا إبراهيم ثم عرفوه فأطلقوه، ثم صمدت بنو مرين بعدها إلىٰ تازا ففلوا حاميتها؛ وعظمت شوكتهم بالمغرب علىٰ ما نذكره بعد إن شاء الله.

[١٥٥] وفي سنة أربع عشرة وستمائة هزم المسلمون بقصر أبي دانس من الأندلس، وهي من الهزائم الكبار التي تقرب من هزيمة العقاب؛ لأن العدو كان قد نزل قصر أبي دانس وحاصره، فخرج إليه جيش إشبيلية وجيش قرطبة وجيش جيان وحشود بلاد غرب الأندلس لاستنقاذ قصر أبي دانس؛ وكان ذلك بأمر المنتصر، فساروا يؤمون العدو؛ فلم تقع عينهم علىٰ عينه إلا وقد خامر قلوب المسلمين الرعب وولوا الأدبار لما كان قد رسخ في نفوسهم من بأسه يوم العقاب، فتكالب العدو بعدها علىٰ المسلمين وتمرس بهم وهان عليه أمرهم، وخشعت نفوسهم له، ولما فروا منه في هٰذه الخرجة ركبهم بالسيف وقتلهم عن آخرهم، ورجع الفنش إلىٰ قصر أبي دانس فحاصره حتىٰ اقتحمه عنوة وقتل جميع من به من المسلمين.

[١٥٦] وأما يوسف المنتصر فإنه استمر مقيماً بمراكش علىٰ لذاته إلىٰ أن توفي، وكان من خبر وفاته أنه كان مولعًا باتخاذ الحيوان واستنتاجه؛ فكان يؤتىٰ إليه بأصناف البقر من الأندلس فيرسلها في بستانه الكبير من حضرة مراكش، ويحمل بعضها علىٰ بعض للتناسل؛ فخرج ذات يوم للتطوف علىٰ تلك البقر والنظر إليها، فتوسط قطيعًا منها فأنكرته بقرة شرود كانت في ذلك القطيع فطعنته في صدره طعنة أتت عليه من حينه، وذلك في عشي يوم السبت الثاني عشرة من ذي الحجة سنة

عشرين وستمائة ولم يخلف إلا حملاً من جارية له.

[١٥٧] قال ابن خلكان: «لم يكن في بني عبد المؤمن أحسن وجهًا من المنتصر ولا أبلغ في المخاطبة، إلَّا أنه كان مشغوفًا براحته؛ فلم يبرح عن حضرته، فضعفت الدولة في أيامه، والله تعالىٰ أعلم».

الخبر عن دولة أمير المؤمنين
عبد الواحد المخلوع ابن يوسف بن عبد المؤمن رحمه الله

لما هلك المنتصر في التاريخ المتقدم اجتمع الوزير ابن جامع والموحدون وبايعوا للسيد أبي محمد عبد الواحد بن يوسف وهو أخو المنصور.

قال ابن أبي زرع: «بايعوه علىٰ كره منه بقبة المنصور من قصبة مراكش وهو يومئذ في سن الشيخوخة، وكان عالمًا فاضلاً متورعًا؛ فاستقام له الأمر نحو شهرين، وخُطب له في جميع أعمال الموحدين ما عدا مرسية؛ فإن ابن أخيه السيد أبا محمد عبد الله بن المنصور الملقب بالعادل كان واليًا عليها، وكان وزيره بها الشيخ أبا زيد بن برجان المعروف بالأصفر؛ وكان من دهاة الموحدين، وكان المنصور ـ رحمه الله ـ إذا رآه يستعيذ بالله من شره؛ ويقول ماذا يجري علىٰ يديك من الفتن يا أصفر؛ وكان من خبره أنه لما بويع المخلوع أمر بإطلاق ابن برجان لأنه كان محبوسًا علىٰ ما عند ابن خلدون، فأطلق ثم صده ابن جامع عن ذلك، وأنفذ أخاه أبا إسحاق في الأسطول ليغربه إلىٰ ميورقة، فلاذ ابن برجان حينئذ بعبد الله بن المنصور صاحب مرسية، ونزل منه منزلة الوزير، وأغراه بالتوثب علىٰ الأمر، وقال له فيما قال: إنك أحق بالخلافة من عبد الواحد، أنت ولد المنصور وأخو الناصر وعم المنتصر؛ ولك الرأي وحسن السياسة والحزم، ولو دعوت الموحدين إلىٰ بيعتك لم يختلف عليك اثنان».

[١٥٨] وكان الناس علىٰ كره من ابن جامع، وولاة الأندلس يومئذ كلهم بنو المنصور، فأصغىٰ إليه عبد الله هـٰذا؛ وكان مترددًا في بيعة عمه؛ فبرز إلىٰ مجلس حكمه؛ واستدعىٰ من بمرسية وأعمالها من الموحدين والفقهاء والأشياخ فدعاهم إلىٰ بيعته؛ فبايعوه وتسمىٰ بالعادل.

[١٥٩] وبلغ الخبر إلىٰ مراكش فاختلف الموحدون علىٰ المخلوع؛ وبادروا بعزل

ابن جامع وتغريبه إلىٰ هسكورة لكراهيتهم له، وجرت خطوب أفضت إلىٰ خلع عبدالواحد وقتله.

فكان عبد الواحد هـٰذا أول من خلع وقتل من بني عبد المؤمن، وصار أشياخ الموحدين لخلفائهم كالأتراك لبني العباس؛ فكان فعلهم ذلك سببًا لذهاب ملكهم وانقراض دولتهم، والله ـ تعالىٰ ـ لا يغير ما بقوم حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم.

وكانت وفاة عبد الواحد المخلوع خامس رمضان المعظم سنة إحدىٰ وعشرين وستمائة.

الخبر عن دولة

أبي محمد عبد الله العادل ابن المنصور رحمه الله

بويع له البيعة الأولىٰ بمرسية من بلاد الأندلس منتصف صفر سنة إحدىٰ وعشرين وستمائة. وتلقب بالعادل في أحكام الله؛ ثم خلص له الأمر وبايعه كافة الموحدين، وخطب له بحضرة مراكش أواخر شعبان من السنة المذكورة.

[١٦٠] وتوقف عن بيعته السيد أبو زيد بن أبي عبد الله، وكان واليًا علىٰ بلنسية وشاطبة ودانية؛ ولما رأىٰ السيد أبو محمد البياسي أخاه السيد أبا زيد توقف عن بيعة العادل وضبط بلاده ثار هو ببياسة وما انضاف إليها من قرطبة وجيان وقيجاطة وحصون الثغر الأوسط وتلقب بالظافر، فوصلت بيعة الموحدين من مراكش إلىٰ العادل، وبعث أخاه السيد أبا العلاء الأصغر وهو إدريس بن المنصور في جيش كثيف إلىٰ البياسي فحاصره ببياسة، ولما اشتد عليه الحصار أظهر الطاعة والانقياد وبايع للعادل؛ حتىٰ إذا أفرج عنه أبو العلاء عاد إلىٰ النكث؛ وبعث إلىٰ الفنش يستنصره علىٰ العادل؛ وضمن له أن ينزل له عن بياسة وقيجاطة، فكان أول من سن إعطاء الحصون والبلاد للفرنج[1]، فوجه إليه الفنش بجيش من عشرين ألفًا، ولما توافت لديه جموع الفرنج نهض من قرطبة يريد إشبيلية حتىٰ إذا دنا منها خرج إليه السيد أبو العلاء الأصغر ـ وهو الذي دعي بعد بالمأمون ـ فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديدا؛ فانهزم السيد أبو العلاء واستولىٰ البياسي والفرنج علىٰ محلته بما فيها من أثاث

---

(١) قلت: هـٰذا تضييع تام لعقيدة الولاء والبراء، والعياذ بالله تعالىٰ.

وسلاح ودواب وغير ذلك.

ولما رأى العادل ما وقع بأخيه وجنده خشي أن يتفاقم داء البياسي ويمتد عباب فتنته إلى مراكش؛ فترك أخاه أبا العلاء قبالته وعبر البحر إلى العدوة، وانتهى العادل في سيره إلى سلا فأقام بها، ثم بادر العادل إلى مراكش وقاسى في طريقه إليها من العرب شدائد، ثم دخلها واستوزر أبا زيد بن عبد الواحد بن أبي حفص وتغير لابن برجان، ففسد باطنه وسعى في إفساد الدولة، واضطربت الأحوال على العادل.

ولما انتهى إلى أبي العلاء صاحب الأندلس خبر أخيه العادل وما هو فيه بمراكش من الاضطراب دعا لنفسه بإشبيلية فبويع بها، وأجابه أكثر أهل الأندلس؛ وتلقب بالمأمون وبايع له السيد أبو زيد صاحب بلنسية وهو أخو البياسي، وكان ذلك في أوائل شوال سنة أربع وعشرين وستمائة.

ولما تمت بيعته كتب إلى الموحدين الذين بمراكش يدعوهم إلى بيعته ويعلمهم باجتماع أهل الأندلس والموحدين الذين بها عليه؛ ووعدهم في ذلك ومناهم، فكان منهم بعض توقف؛ ثم أجمع رأيهم على مبايعته وخلع أخيه العادل؛ فدخلوا عليه قصره وسألوه أن يخلع نفسه فامتنع؛ فوثبوا عليه ودسوا رأسه في خصة ماء كانت هناك وقالوا له: لا نفارقك أو تشهد على نفسك بالخلع.

فقال: اصنعوا ما بدا لكم والله لا أموت إلا أمير المؤمنين، فوضعوا عمامته في عنقه وخنقوه ورأسه في الخصة حتى فاض؛ وكان خيرًا فاضلاً -رحمه الله- وكانت وفاته في الحادي والعشرين من شوال سنة أربع وعشرين وستمائة. وكتبوا بيعتهم إلى أبي العلاء المأمون؛ وبعثوا بها إليه مع البريد؛ ثم بدا لهم في بيعة المأمون بعد انفصال البريد عنهم فنكثوها، وبايعوا يحيى بن الناصر بن المنصور، واضطربت الأحوال بالمغرب والأندلس؛ وطما عباب الفتن وكان ما نذكره.

الخبر عن دولة المأمون بن المنصور ومزاحمة يحيى بن الناصر له

كان المأمون وهو أبو العلاء إدريس بن يعقوب المنصور لما بلغه انتقاض الموحدين والعرب بالحضرة على أخيه وتلاشي أمره دعا لنفسه بإشبيلية وبايعه أهل الأندلس

والموحدون بالحضرة كما قلنا، ثم لما انفصل البريد ببيعته من الحضرة ندم الموحدون على ذلك لما يعلمونه من شهامته وصرامته وتخلقه بأخلاق الحجاج بن يوسف، وتخوفوا أن يأخذهم بدم عمه المخلوع؛ ثم أخيه عبد الله العادل، فاتفق رأيهم على مبايعة يحيى بن الناصر بن المنصور وهو شاب غر، وإنما وقع اختيارهم عليه ليكون أطوع لهم، فإن سنه يومئذ كانت ست عشرة سنة؛ فبايعوه بجامع المنصور من قصبة مراكش بعد صلاة العصر من يوم الأربعاء الثامن والعشرين من شوال سنة أربع وعشرين وستمائة، وامتنع عرب الخلط وقبائل هسكورة من بيعته وقالوا: قد بايعنا المأمون فلا ننكث بيعته؛ وتأخر قدوم المأمون إلى مراكش وبقي بالأندلس لأسباب، وأقام يحيى بمراكش واستتب أمره بها بعض الشيء، وجهز جيشًا من الموحدين والجند إلى قتال الخلط وهسكورة؛ وهم يومئذ في طاعة المأمون، فانهزم جيش يحيى وقتل منه خلق كثير وعاد مفلولاً إلى مراكش، ثم اطلع يحيى على مداخلة أبي زيد بن يرجان للعرب وهسكورة في الغارة على مراكش واطلع على ذلك أيضا أبو زكريا يحيى بن الشهيد فقتل أبا زيد بن يرجان وابنه عبد الله، ونصب رؤوسهما على باب الكحل وطوف أجسادهما بأسواق المدينة؛ ثم اضطربت الأحوال على يحيى وانتقضت البلاد، وغلت الأسعار وعم الخراب والفساد بلاد المغرب؛ واستحوذ بنو مرين على ضواحيه وضايقوا الموحدين في كثير من أمصاره، واقتضوا جبايته، ونبغت الثوار في الأقطار.

[١٦١] أخبار الثوار بالأندلس وما آل إليه أمر الموحدين بها

لما ضعف أمر الموحدين بالمغرب وكثرت الفتن في أقطاره ونواحيه، وانتزى السادات منهم بنواحي الأندلس كلٌّ في عمله، واستظهر كل واحد منهم على أمره بالطاغية (١) ونزلوا له عن كثير من الحصون فسدت من أجل ذلك ضمائر أهل الأندلس عليهم، وتصدى للثورة على الموحدين محمد بن يوسف بن هود الجذاميين ملوك الطوائف بسرقسطة، فخرج في نفر من الأجناد سنة خمس وعشرين وستمائة؛ وجهز إليه والي مرسية يومئذ السيد أبو العباس بن أبي عمران موسى بن يوسف بن عبد المؤمن عسكراً فهزمهم، وزحف إلى مرسية فدخلها واعتقل السيد

---

(١) قلت: أي الفونسو، وهذا تمزيق لعقيدة الولاء والبراء، والعياذ بالله تعالى.

بها؛ وخطب للخليفة المستنصر العباسي صاحب بغداد، وفي ذلك يقول ابن الخطيب في «رقم الحلل» عند ذكره لبني هود هٰؤلاء:

وكان من أعقابه الأمير محمد بن يوسف الأخير
وكان باسلا شديد الباس وبايع المستنصر العباسي

ثم زحف إليه السيد أبو زيد بن محمد بن أبي حفص بن عبد المؤمن وهو أخو البياسي المتقدم ذكره من شاطبة وكان واليًا بها، فهزمه ابن هود ورجع إلى شاطبة واستجاش بالمأمون، وهو يومئذ بإشبيلية؛ فخرج في العساكر ولقيه ابن هود فانهزم واتبعه المأمون إلى مرسية فحاصره مدة، وامتنعت عليه فأقلع عنه ورجع إلى إشبيلية.

[١٦٢] ثم انتقض على السيد أبي زيد ببلنسية زيان بن أبي الحملات مداقع بن أبي الحجاج يوسف بن سعيد بن مردنيش، وخرج عنه إلى أبدة سنة ست وعشرين وستمائة، وكان بني مردنيش هٰؤلاء أهل عصابة وأولي باس وقوة؛ فتوقع أبو زيد اختلال أمره، وبعث إليه ولاطفه في الرجوع فأبى، فخرج أبو زيد من بلنسية ولحق بطاغية برشلونة، ودخل في دين النصرانية والعياذ بالله [١].

وبايع أهل شاطبة لابن هود؛ ثم تتابعت بلاد الأندلس على بيعته، ودخل في طاعته أهل قرطبة وإشبيلية بعد رحيل المأمون عنهم إلى مراكش؛ ولم يبق للموحدين بالأندلس سلطان.

ثم في سنة تسع وعشرين وستمائة ثار محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر بحصن أرجونة من أعمال قرطبة؛ ودعا لأبي زكرياء الحفصي صاحب إفريقية، ثم دخل في طاعته أهل قرطبة؛ وتنازع ابن الأحمر وابن هود رئاسة الأندلس، وتجاذبا حبل الملك بها؛ وكانت خطوب استولى الطاغية فيها على كثير من حصون الأندلس، ثم استقر قدم ابن الأحمر في الملك وأورثه بنيه من بعده، والله غالب على أمره.

---

(١) قلت: هٰذا من الحوادث الغريبة، وإنا لله وإنَّا إليه راجعون.

قدوم أبي العلاء المأمون بن المنصور من الأندلس إلى مراكش وما اتفق له في ذلك

قد تقدم لنا أن الموحدين بمراكش خنقوا العادل وبايعوا أخاه المأمون، وبعد انفصال البريد بالبيعة ندموا وبايعوا ابن أخيه يحيى بن الناصر، فوصلت بيعة الموحدين إلى المأمون، وهو يومئذ بإشبيلية، فسُرّ بها وأمر بإقرائها على منابر الأندلس، ثم أخذ في التجهيز والحركة إلى مراكش دار ملكهم؛ فسار حتى إذا وصل إلى الجزيرة الخضراء اتصل به الخبر أن الموحدين قد نكثوا بيعته، وبايعوا ابن أخيه يحيى. فوجم لذلك وأطرق مليًا، ثم أنشد متمثلاً بقول حسان ﷺ :

لتسمعن وشيكًا في ديارهم ... الله أكبر يا ثارات عثمانا

[١٦٣] ثم كتب من حينه إلى ملك قشتالة يستنصره على الموحدين ويسأله أن يبعث له جيشًا من الفرنج يجوز بهم إلى العدوة لقتال يحيى ومن معه من الموحدين فشرط عليه صاحب قشتالة أن يعطيه عشرة حصون مما يلي بلاده يختارها هو، وأن يبني بمراكش إذا دخلها الجيش النصارى الذين معه كنيسة يظهرون بها دينهم ويضربون فيها نواقيسهم لصلواتهم، وأن من اسلم منهم لا يقبل منه إسلامه ويرد إلى إخوانه فيحكمون فيه بأحكامهم إلى غير ذلك؛ فأسعفه المأمون في جميع ما طلبه منه (١) .

وكان يحيى بن الناصر صاحب مراكش لما رأى اختلال أحواله بها كما قلنا ومبايعته أكثر أهل المغرب لعمه المأمون خرج فارًا بنفسه إلى تيمنلل؛ وكان ذلك في جمادى الآخرة سنة ست وعشرين وستمائة؛ ولما فر يحيى عن الحضرة قدم أشياخ الموحدين الذين بها واليًا يضبطها للمأمون ريثما يقدم عليهم، وجددوا له البيعة؛ وكتبوا إليه يخبروه بفرار يحيى إلى الجبل؛ ويرغبون إليه في القدوم عليهم، واستمر يحيى معتصمًا بالجبل أربعة اشهر، ثم بدا له فعاد إلى مراكش وقتل عامل المأمون الذي قدمه الموحدون بها.

ثم بعث صاحب قشتالة إلى المأمون جيشًا من اثني عشر ألفًا برسم الخدمة معه

(١) قلت: هكذا ضاعت الأندلس، وهكذا ضيع أولئك الحكام دين الله تعالى، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

والمقاتلة دونه على الشروط المتقدمة، وكان وصولهم إليه في رمضان سنة ست وعشرين وستمائة؛ ثم عبر بهم من الجزيرة الخضراء إلىٰ سبتة في ذي القعدة من السنة المذكورة، وهو أول من أدخل عسكر الفرنج أرض المغرب واستخدمهم بها، فأراح بسبتة أيامًا ثم نهض إلىٰ مراكش حتىٰ إذا دنا منها لقيه يحيىٰ بجيوش الموحدين وذلك عشي يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الأول من السنة الداخلة؛ فانهزم يحيىٰ وفر إلىٰ الجبل وقُتل كثير من جيشه.

[١٦٤] ودخل المأمون حضرة مراكش وبايعه الموحدون، وصعد المنبر بجامع المنصور ـ وكان علامة أديبًا بليغًا ـ فخطب الناس ولعن المهديّ علىٰ المنبر وقال: لا تدعوه بالمهدي المعصوم وادعوه بالغوي المذموم، ألا لا مهدي إلا عيسىٰ، وإنا قد نبذنا أمره النحس.

ثم نزل وأمر بالكتب إلىٰ جميع البلاد بمحو اسم المهدي من السكة والخطبة وتغيير سننه التي ابتدعها للموحدين وجرىٰ عليها سلفهم؛ ونعىٰ عليها النداء للصلاة باللغة البربرية، وزيادته في أذان الصبح: ولله الحمد، وغير ذلك من السنن التي اختص بها المهدي، وأمر بتدوير الدراهم التي ضربها المهدي مربعة وقال كل ما فعله المهدي وتابعه عليه أسلافنا فهو بدعة ولا سبيل إلىٰ إبقائه، وأبدىٰ في ذلك وأعاد.

[١٦٥] ثم دخل قصره فاحتجب عن الناس ثلاثًا، ثم خرج في اليوم الرابع فأمر بأشياخ الموحدين وأعيانهم فحضروا بين يديه؛ فقال لهم يا معشر الموحدين إنكم قد أظهرتم علينا العناد، وأكثرتم في الأرض الفساد؛ ونقضتم العهود وبذلتم في حربنا المجهود، وقتلتم الإخوان والأعمام؛ ولم ترقبوا فيهم إلاً ولا ذمام، ثم أخرج كتاب بيعتهم الذي بعثوا به إليه؛ واحتج عليهم بنكثهم الذي نكثوا بعده؛ فقامت الحجة عليهم فبهتوا وسقط في أيديهم، والتفت إلىٰ المكيدي ـ وكان بإزائه قد قدم معه من إشبيلية ـ فقال له: ما ترىٰ أيها القاضي في أمر هـٰؤلاء الناكثين؟

فقال: يا أمير المؤمنين إن الله تعالىٰ يقول: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ الآية [الفتح: ١٠].

فقال المأمون: صدق الله العظيم فإنا نحكم فيهم بحكم الله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا

أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥] ثم أمر بجميع أشياخ الموحدين وأشرافهم فسُحبوا إلى مصارعهم وقتلوا من عند آخرهم، ولم يُبق على كبيرهم ولا صغيرهم حتى أنه أُتي بابن أخت له صغير يقال إن سنه كان ثلاث عشرة سنة وكان قد حفظ القرآن، فلما قُدم للقتل قال له: يا أمير المؤمنين اعف عني لثلاث

قال: ما هن؟

قال: صغر سني؛ وقرب رحمي، وحفظي لكتاب الله العزيز.

فيقال: إن المأمون نظر إلى القاضي كالمستشير له وقال له: كيف ترى قوة جأش هذا الغلام وإقدامه على الكلام في هذا المقام؟

فقال القاضي: يا أمير المؤمنين إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً، فأمر به فقتل رحمه الله، ثم أمر بالرؤوس فعلقت بدائر سور المدينة.

ذكر ابن أبي زرع أنها كانت تنيف على أربعة آلاف رأس، وكان الزمان زمن قيظ فتنتت بها المدينة وتأذى الناس بريحها، فرُفع إليه ذلك فقال: إن هاهنا مجانين وأن تلك الرؤوس حروز لهم لا يصلح حالهم إلا بها، وإنها لعطرة عند المحبين ونتنة عند المغالين.

وهذه الفتكة التي ارتكبها المأمون من الموحدين هي التي استأصلت جمهورهم؛ وأماتت نخوتهم.

[١٦٦] وأذن المأمون للنصارى القادمين معه في بناء الكنيسة وسط مراكش على شرطهم المتقدم فضربوا بها نواقيسهم.

وأقام المأمون بمراكش خمسة أشهر؛ ثم نهض إلى الجبل لقتال يحيى بن الناصر ومن معه من الموحدين، وذلك في رمضان سنة سبع وعشرين وستمائة فالتقى معه على الموضع المعروف بالكاعة، فانهزم يحيى وقتل من عسكره ومن أهل الجبل خلق كثير سيق من رؤوسهم إلى مراكش أربعة آلاف رأس.

وفي هذه السنة استبد الأمير أبو زكريا ابن الشيخ أبي محمد بن حفص الهنتاتي بإفريقية وخلع طاعة الموحدين.

وفي سنة ثمان وعشرين بعدها نفذت كتب المأمون إلى سائر البلاد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفيها خرجت بلاد الأندلس كلها من ملك الموحدين،

ونفاهم عنها ابن هود الثائر بها وقتلتهم العامة في كل وجه.

وفي سنة تسع وعشرين بعدها خرج على المأمون أخوه السيد أبو موسى عمران ابن المنصور بمدينة سبتة وتسمى بالمؤيد؛ فاتصل الخبر بالمأمون فخرج إليه، وبلغه في طريقه أن قبائل بني فازاز ومكلاثه قد حاصروا مكناسة وعاثوا في نواحيها؛ فسار إليهم وحسم مادة فسادهم؛ وعاد إلى سبتة فحاصر بها أخاه السيد أبا موسى مدة فلم يقدر منه على شيء؛ وكانت سبتة من أحصن مدن المغرب، ولما طالت غيبة المأمون عن الحضرة اغتنم يحيى بن الناصر الفرصة فنزل من الجبل واقتحمها مع عرب سفيان وشيخهم جرمون بن عيسى؛ ومعهم أبو سعيد بن وانودين شيخ هنتاتة، وعاثوا فيها وهدموا كنيسة النصارى التي بنيت بها وقتلوا كثيراً من يهودها وسبوا أموالهم، ودخل يحيى القصر فحمل منه جميع ما وجده به إلى الجبل.

واتصل الخبر بالمأمون وهو على حصار سبتة، فارتحل عنها مسرعا إلى مراكش وذلك في ذي الحجة من السنة المذكورة؛ ولما أبعد عن سبتة عبر أبو موسى صاحبها إلى الأندلس فبايعه ابن هود وأعطاه سبتة؛ فعوضه ابن هود عنها بالمرية فكان السيد أبو موسى بها إلى أن مات.

وانتهى الخبر إلى المأمون وهو في طريقه بأن ابن هود قد ملك سبتة، فتوالت عليه الفجائع فمرض أسفًا، ومات بوادي العبيد وهو قافل من حصار سبتة، وكانت وفاته في آخر يوم من سنة تسع وعشرين وستمائة.

وكانت أيامه أيام شقاء وعناء ومنازعة، افترقت دولة الموحدين فيها فرقتين؛ فرقة معه وفرقة مع يحيى بن الناصر.

[١٦٧] وكان المأمون فصيح اللسان؛ فقيهًا، حافظًا للحديث، ضابطا للرواية، عارفًا بالقراءات، حسن الصوت والتلاوة، مقدما في علم اللغة والعربية والأدب وأيام الناس؛ كاتبًا بليغًا حسن التوقيع، لم يزل سائر أيام خلافته يسرد كتب الحديث مثل البخاري والموطأ، وسنن أبي داود (١)؛ وكان مع ذلك شهمًا حازمًا مقدامًا على

(١) قلت: مثل هذه الشخصية هي التي ابتلينا بها في ديننا ودنيانا، فانظروا كيف يتزل للنصارى عن بلاد الإسلام، ويستعين بهم، ويمكن لهم ويبني لهم كنيسة لا يجوز بناؤها في أرض الإسلام، ثم انظروا إلى سيرته الشخصية التي يذكرها المؤلف ههنا، وإنا لله وإنا إليه راجعون.
على أنه لم يُمتع بما صنع بل مات سريعًا، وتلك عاقبة الخائنين.

عظائم الأمور؛ وولي الخلافة والبلاد تضطرم ناراً، والممالك قد توزعتها الثوار؛ فكان المأمون إذا فكر في حال الثوار وما آل إليه حال الدولة معهم وما دهاه من كثرتهم ينشد متمثلاً:

تكاثرت الظباء على خراش فما يدري خراش ما يصيد

يشير إلى حاله معهم؛ وأنه لم يدر ما يتلافى من ذلك، والله تعالى أعلم.

الخبر عن دولة
أبي محمد عبد الواحد الرشيد ابن المأمون
ابن المنصور رحمه الله

لما هلك المأمون، بويع ابنه عبد الواحد، ولُقِّب بـ«الرشيد».

قال ابن أبي زرع: «بويع له بالخلافة بوادي العبيد ثاني يوم من وفاة أبيه وهو الأحد فاتح محرم سنة ثلاثين وستمائة، وسنه يومئذ أربع عشرة سنة؛ وكان الذين أخذوا له البيعة كانون بن جرمون السفياني؛ وشعيب بن أوقاليط الهسكوري، وفرنسيل قائد جيش الفرنج، فإنه لما مات المأمون كتمت جاريته بعد موته واسمها حباب، وكانت فرنجية الأصل؛ ومن دهاة النساء وعقلائهن، وهي أم الرشيد؛ فاستدعت هؤلاء النفر الثلاثة وكانوا عمدة جيش المأمون يركب كل واحد منهم في أزيد من عشرة آلاف من قومه وأعوانه؛ ولأن أهل الحل والعقد من الموحدين قد أتت عليهم فتكة المأمون، فجاؤوا إليها فأعلمتهم بموت الخليفة، ورغبت إليهم في بيعة ابنها الرشيد والقيام معه وبذلت لهم على ذلك أموالاً جمة، ووعدتهم مع ذلك أنهم إذا فتحوا الحضرة - وكان يحيى قد استولى عليها كما قلنا - تجعلها لهم فيئًا، فبايعوه، وأخذوا البيعة له على سواهم، فبايع الناس طوعًا وكرهًا خوفًا من سيوفهم».

ولما تم أمره جعل أباه في تابوت وقدمه أمامه وسار إلى مراكش؛ وسمع يحيى وأهل مراكش بما شرطته حباب للقواد الثلاثة من جعل مدينتهم فيئًا، فخرجوا لقتال الرشيد بأجمعهم.

واستخلف يحيى على مراكش أبا سعيد بن وانودين، والتقى الجمعان فاقتتلوا فانهزم يحيى وقُتل أكثر من معه، وصبح الرشيد مراكش فتحصن منه أهلها فأمنهم،

وصالح قائد الفرنج وأصحابه على فيئها بخمسة آلاف دينار.

ودخل الرشيد مراكش واستقر بها، واستأمن له كثير من الموحدين الذين كانوا مع يحيى فأمنهم ولحقوا بحضرته؛ وكان كبيرهم أبو عثمان سعيد بن زكريا القدميوي؛ وجاء الباقون على أثره بعد أن شرطوا عليه إعادة ما كان أزاله المأمون من رسوم المهدي وسننه فأعيدت، واطمأنوا لإعادة رسوم الدعوة المهدية واستقامت الأحوال في هذه الأيام.

وفاة الرشيد رحمه الله

مات الرشيد - رحمه الله - غريقا في بعض صهاريج بستانه بحضرة مراكش، وذلك يوم الخميس تاسع جمادى الآخرة سنة أربعين وستمائة.

الخبر عن دولة أبي الحسن
السعيد علي بن المأمون بن المنصور رحمه الله

لما هلك الرشيد بويع أخوه لأبيه أبو الحسن على المدعو السعيد، وتلقب بالمعتضد بالله.

ثم تقدم الأمير أبو بكر بن عبد الحق المريني إلى مكناسة فضايقها؛ وخطب طاعة أهلها، فثارت العامة بمكناسة على واليها من قبل السعيد فقتلوه.

وحذر شيوخها وكبراؤها من سطوته فحولوا الدعوة إلى الأمير أبي زكريا الحفصي صاحب إفريقية، وكان استبد على بني عبد المؤمن ورام التغلب حتى على كرسيهم بمراكش؛ فبايعه أهل مكناسة.

وفي هذه السنة، بعث أهل إشبيلية وأهل سبتة بطاعتهم للأمير أبي زكريا الحفصي، وقبل هذه المدة بيسير كان الأمير أبو زكريا الحفصي قد تغلب على تلمسان وبايعه صاحبها يغمراسن بن زيان العبد الوادي؛ وهو جد ملك بني زيان أصحاب تلمسان والمغرب الأوسط؛ فعظم قدر أبي زكريا بسبب هذه البيعات التي انثالت عليه من سائر الجهات، وحدثته نفسه بالتوثب على كرسي الخلافة بمراكش، وغص بنو عبد المؤمن بمكانه؛ وعظم عليهم استبداده ثم طمعه في كرسيهم وقرارة عزهم مع أنه ما كان إلا جدولاً من بحرهم وفرعًا من دوحتهم، والأمر كله لله.

نهوض السعيد من مراكش
إلى غزو الثوار بالمغربين ومحاصرته يغمراسن بن زيان
وما آل إليه الأمر من مقتله رحمه الله

لما بلغ السعيد وهو بمراكش استبداد الأمير أبي زكريا بن أبي محمد عبد الواحد ابن أبي حفص الهنتاتي بإفريقية ومبايعة أمراء الجهات له أعمل نظره في الحركة إلىٰ هٰؤلاء الثوار والنهوض لتدويخ هٰذه الأقطار.

وكان السعيد شهمًا حازمًا يقظًا بعيد الهمة، فنظر في أعطاف دولته وفاوض الملأ من الموحدين في تثقيف أطرافها وتقويم أودها؛ وحرك هممهم؛ وأثار حفائظهم، وأراهم كيف اقتُطع عنهم الأمر شيئًا فشيئًا؛ فابن أبي حفص اقتطع إفريقية؛ ويغمراسن بن زيان اقتطع المغرب الأوسط ثم أقام فيه الدعوة الحفصية، وابن هود اقتطع الأندلس وأقام فيها دعوة بني العباس، وابن الأحمر بالجانب الآخر منها مقيم للدعوة الحفصية أيضًا، وهٰؤلاء بنو مرين قد تغلبوا علىٰ ضواحي المغرب ثم سموا إلىٰ تملك أمصاره، وإن سكتنا علىٰ هٰذا فيوشك أن يختل الأمر؛ وتنقرض الدولة، فتذامروا وتداعوا إلىٰ النهوض إليهم فحشد السعيد الجنود، وجهز العساكر وأزاح عللهم، واستنفر عرب المغرب وما يليه، واحتشد كافة المصامدة.

ونهض من مراكش آخر سنة خمس وأربعين وستمائة يريد مكناسة وبني مرين أولاً، ثم تلمسان ويغمراسن ثانيًا؛ ثم إفريقية وابن أبي حفص ثالثًا.

ولما نزل بوادي بهت أخذ في عرض عساكره وتمييزها، فخرج الأمير أبو بكر بن عبد الحق من مكناسة ليلاً وحده يتجسس الأخبار فأشرف علىٰ جموع السعيد فرأىٰ ما لا قبل له به؛ فعاد إلىٰ قومه وأفرج للسعيد عن البلاد، وتلاحقت به بنو مرين من أماكنها التي كان الأمير أبو بكر أنزلهم بها؛ واجتمعوا عليه بحصن تازا.

وتقدم السعيد إلىٰ مكناسة فخرج إليه أهلها يطلبون منه العفو، وقدموا بين أيديهم الشيخ الصالح «أبا علي منصور بن حرزوز»، وتلقوه بالصبيان من المكاتب علىٰ رؤوسهم الألواح وبين أيديهم المصاحف، وخرج النساء حاسرات يطلبن العفو

فعفا عنهم.

ثم ارتحل إلى تازا في أتباع بني مرين، وانتقل أبو بكر بن عبد الحق إلى بني يزناسن، ثم راجع نظره في مسالمة الموحدين والدخول في أمرهم؛ فبُعث ببيعته إلى السعيد وهو يومئذ بتازا مع جماعة من وجوه بني مرين فقبلها السعيد وعفا لهم عما سلف، فسأله وفدهم أن يستكفي بالأمير أبي بكر في أمر تلمسان وصاحبها يغمراسن بن زيان، وقد كتب إليه الأمير أبو بكر أيضًا بذلك يقول: يا أمير المؤمنين ارجع إلى حضرتك وقوني بالجيش وأنا أكفيك أمر يغمراسن وافتح لك تلمسان، فاستشار السعيد وزراءه فقالوا: لا تفعل فإن الزناتي أخو الزناتي لا يخذله ولا يسلمه، فكتب إليه السعيد بأن يبعث إليه جماعة من قومه يعسكرون معه فأمده الأمير أبو بكر بخمسمائة من قبائل بني مرين، وخرجوا تحت رايات السعيد ونهض من تازا يريد تلمسان.

ولما سمع يغمراسن بإقبال السعيد إليه خرج من تلمسان في عشيرته وقومه من سائر بني عبد الواد، وتحملوا بأهليهم وأولادهم إلى قلعة تامزردكت قبلة وجدة فاعتصموا بها؛ ووفد على السعيد الفقيه عبدون وزير يغراسن مؤديًا للطاعة وساعيًا في مذاهب الخدمة ومتوليًا من حاجات الخليفة بتلمسان ما يدعوه إليه ويصرفه في سبيله، ومعتذرًا تخلف يغمراسن عن الوصول إلى حضرة السعيد؛ فلج السعيد في شأنه ولم يعذره، وأبى إلا مباشرة طاعته بنفسه؛ وساعده في ذلك من حضر من الملأ، وردوا الفقيه عبدون إلى يغمراسن ليستقدمه فتثاقل يغمراسن عن القدوم خشية على نفسه.

واعتمد السعيد الجبل في عساكره حتى أناخ بها، وأخذ بمخنقهم ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع ركب وقت القيلولة حين غفلة من الناس ليتطوف بالقلعة فبصر به فارس من بني عبد الواد يُعرف بيوسف الشيطان كان أسفل الجبل بقصد الحراسة، واتفق أن يغمراسن بن زيان وابن محمد كانا قريبين منه فعرفوا السعيد فانقضوا عليه من بعض الشعاب، وطعنه يوسف الشيطان فكبه عن فرسه.

وذلك منسلخ صفر سنة ست وأربعين وستمائة وانتهى الخبر إلى المحلة فارتجت وماجت، وأخذ أهلها في الفرار؛ وبادر يغمراسن إلى السعيد فنزل إليه وهو صريع

على الأرض، فحياه وفدّاه وأقسم له على البراءة من دمه، والسعيد ـ رحمه الله ـ واجم بمصرعه يجود بنفسه إلى أن فاض، وانتهب المعسكر بجملته.

وأما أهل محلة السعيد فإنهم بعد نهوضهم تداعوا واجتمعوا إلى عبد الله بن السعيد، وقفلوا قاصدين مراكش.

واتصل الخبر بالأمير أبي بكر بن عبد الحق [١]، فتحقق الخبر وانتهز الفرصة في الموحدين فاعترض عسكرهم بجهات تازا، فقتل عبد الله بن السعيد واستلبهم واستولى على ما بقي من أثاثهم، ثم جد السير إلى مكناسة فدخلها وملكها؛ ولحق فلّ الموحدين بمراكش، فبايعوا عمر المرتضى.

الخبر عن دولة أبي حفص عمر المرتضى

ابن السيد أبي إبراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن رحمه الله

لما توفي أبو الحسن السعيد كان عمر المرتضى واليًا من قبله بقصبة رباط الفتح من سلا كما قدمنا، فاجتمع الموحدون بجامع المنصور من قصبة مراكش وعقدوا له البيعة وبعثوا بها إليه، ونهض هو متوجها إلى مراكش فلقيه وفدهم أثناء طريقه بتامسنا، واجتمع عليه أشياخ العرب فبايعوه أيضًا واستقام أمره وتلقب بالمرتضى، واستولى أبو بكر بن عبد الحق أمير بني مرين بعد مهلك السعيد على رباط تازا ومكناسة، ثم استولى سنة سبع وأربعين وستمائة على فاس وأعمالها؛ فاقتطع عن المرتضى بلاد الغرب كلها ولم يبق له إلا بلاد الحوز من سلا إلى السوس.

[١٦٨] ولأول دولة المرتضى كان استيلاء العدو على إشبيلية إحدى قواعد الأندلس؛ فإن طاغية قشتالة وهو الأصبنيول خذله الله حاصرها سنة خمس وأربعين وستمائة، وفي يوم الإثنين الخامس من شعبان من السنة بعدها ملكها صلحًا بعد منازلتها حولاً كاملاً وخمسة أشهر، وانتقل كرسي المملكة الإسلامية بالأندلس إلى غرناطة وذلك في دولة بني الأحمر [٢].

---

(١) قلت: أي المريني.

(٢) قلت: من الطبيعي أن يستولي عليها بعد حصار سنة ونصف والمسلمون مشغولون بقتال بعضهم بعضًا، وإنا لله وإنّا إليه راجعون.

وفي سنة تسع وأربعين وستمائة، ملك الأمير أبو بكر المريني سلا ورباط الفتح.

وفي سنة خمسين وستمائة، استرجع المرتضى سلا ورباط الفتح من يد بني مرين.

وفي سنة ثلاث وخمسين بعدها، خرج المرتضى من مراكش لاسترجاع فاس وأعمالها من يد بني مرين المتغلبين عليها، واحتفل في الاحتشاد، وبالغ في الاستعداد، فكان جيشه ثمانين ألف فارس من الموحدين والعرب والأغزاز وأهل الأندلس والفرنج فسار حتى نزل جبل بني بهلول قبلة فاس وكانت هيبة بني مرين وناموسهم قد تمكن من قلوب جيش المرتضى، فكانوا منذ قربوا من أحواز فاس لا ينامون إلا غراراً، فانطلق ذات ليلة فرس لبعض الجند وجرى بين الأخبية، وجرى الناس خلفه ليأخذوه؛ فظن أهل المحلة أن بني مرين قد أغاروا عليهم؛ فركبوا خيولهم، وماج بعضهم في بعض وانقلبوا منهزمين لا يلوون على شيء.

واتصل الخبر بأبي بكر بن عبد الحق وهو بفاس، فخرج للوقت واحتوى على جميع ما في محلة الموحدين من الأخبية والأثاث والسلاح والمال، ومرّ المرتضى على وجهه فدخل مراكش في جمع قليل من الأشياخ والإفرنج وأقام بها، وأعرض عن بني مرين وتسلى عنهم سائر أيامه وازدادت شوكة الموحدين ضعفًا.

واستفحل أمر بني مرين أثناء ذلك إلى سنة اثنتين وستين وستمائة، فأقبل الأمير يعقوب بن عبد الحق في جموع بني مرين حتى نزل على مراكش، واتصل الحرب بينه وبين الموحدين بظاهرها أيامًا؛ هلك فيها عبد الله بن يعقوب بن عبد الحق، فبعث المرتضى إلى أبيه يعقوب بالتعزية ولاطفه؛ وضرب إتاوة يبعث بها إليه في كل سنة، فرضي يعقوب وارتحل عنها.

انتقاض أبي دبوس على المرتضى
واستيلاؤه على مراكش ومقتل المرتضى عقب ذلك

لما ارتحل بني مرين عن مراكش بعد مهلك عبد الله بن يعقوب فر من الحضرة قائد حروب المرتضى وابن عمه، وهو: السيد أبو العلاء إدريس الملقب بأبي دبوس ابن السيد أبي عبد الله محمد ابن السيد أبي حفص عمر بن عبد المؤمن، لسعاية تمكنت

فيه عند المرتضىٰ، وأنه يطلب الأمر لنفسه، فاحس أبو دبوس بالشر ولحق بيعقوب ابن عبد الحق فأدركه عند مقدمه إلىٰ فاس قافلاً من منازلة مراكش، فأقبل عليه الأمير يعقوب وبالغ في إكرامه، فطلب منه أبو دبوس الإعانة علىٰ حرب المرتضىٰ، وكان بطلاً مجربًا وضمن له فتح مراكش واشترط له المقاسمة فيما يغلب عليه من السلطان وما يستفيده من الذخيرة والمال، فأمده الأمير يعقوب بخمسة آلاف من بني مرين، وبالكفاية من المال؛ وبالمستجاد من آلة الحرب من طبول وبنود ونحو ذلك، وكتب له مع ذلك إلىٰ عرب جشم أن يكونوا معه يدًا واحدة، فسار أبو دبوس حتىٰ وصل إلىٰ سلا فكتب منها إلىٰ العرب وأشياخ الموحدين والمصامدة الذين في طاعة المرتضىٰ يدعوهم إلىٰ بيعته، ويعدهم ويمنيهم؛ فتلقته وفود العرب والهساكرة وصنهاجة آزمور ببعض الطريق فبايعوه، وساروا معه حتىٰ نزل بلاد هسكورة، ثم كتب إلىٰ خاصته من وزراء المرتضىٰ أن يعلموه بحال البلد والدولة فراجعوه أن أسرع السير وأقبل ولا تخش شيئًا فإنا قد فرقنا الجند في أطراف البلاد وهذا وقت انتهاز الفرصة، فزحف أبو دبوس إلىٰ مراكش حتىٰ إذا انتهىٰ إلىٰ أغمات وجد بها الوزير أبا زيد بن يكيت في جيش من حاميتها، فناجزه الحرب فانهزم ابن يكيت وقتل عامة أصحابه.

وسار أبو دبوس يؤم مراكش ومعه سفيان وبنىٰ جابر وكبيرهم يومئذ علوش بن كانون السفياني، فلما دنوا من مراكش أغار علوش علىٰ باب الشريعة منها والناس في صلاة الجمعة حتىٰ ركز رمحه

بمصراع الباب، والمرتضىٰ بمراكش غافل عن شأن أبي دبوس، والأسوار خالية من الحامية والحراس، فقصد أبو دبوس باب أغمات وتسور البلد من هنالك ودخل المدينة علىٰ حين غفلة من أهلها، وصمد إلىٰ القصبة فاقتحمها من باب الطبول واستولىٰ عليها.

[١٦٩] ولما رأىٰ المرتضىٰ أن أبا دبوس قد التحف معه كساء دار الملك خرج من القصر ناجيًا بنفسه من باب الفاتحة ومعه الوزير أبو زيد بن يعلو الكومي، وأبو موسىٰ ابن عزوز الهنتاتي، ثم انتقل منها إلىٰ شفشاوة ثم لحق آخرًا بآزمور ونزل علىٰ صهر له من بني عطوش كان واليًا عليها من قِبَله، وكان ابن عطوش هذا قد أسره العدو

فافتكه المرتضى بمال جسيم وزوجه ابنته وولاه آزمور، فلما وقعت عليه الكائنة بمراكش ذهب إليه مستجيراً به ومطمئنًا إليه فكان من جزائه له أن قبض عليه وقيده، وكتب إلى أبي دبوس يعلمه بشأنه، فكتب أبو دبوس إليه يستكشفه في شأن الذخيرة فأنكر المرتضى أن يكون قد ادّخر شيئًا وحلف على ذلك ومَتّ إليه بالرحم [1] حتى كاد أبو دبوس يعطف عليه، ثم أغراه خاصته به فوجه إليه من قتله في الطريق وأتى إليه برأسه.

وكان مقتل المرتضى في العشر الأواخر من شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين وستمائة، وكان ـ رحمه الله ـ ينتمي إلى التصوف والزهد والورع، وتسمى بثالث العمرين، وكان مولعًا بالسماع لا يكاد يخلو منه ليلاً ولا نهاراً وكان في أيامه رخاء مفرط لم ير أهل مراكش مثله.

وقال ابن الخطيب: كان المرتضى فاضلاً خيرًا عفيفًا، مغمد السيف، مائلاً إلى الهدنة، رحمه الله.

الخبر عن دولة

أبي العلاء إدريس الواثق بالله المعروف بأبـ وس

لما تقدم أبو دبوس حضرة الخلافة على المرتضى وفرَّ المرتضى عنها، ملكها أبو دبوس واستتب أمره بها وبايعه كافة الموحدين وأهل العقد والحل من الوزراء والفقهاء والأشياخ، وكان ذلك بجامع المنصور يوم الأحد الثالث والعشرين من المحرم سنة خمس وستين وستمائة، واستقل أبو دبوس بمملكة مراكش وأعمالها، وتلقب بالواثق بالله، والمعتمد على الله، وبذل العطاء ونظر في الولايات، ورفع المكوس عن الرعية.

[١٧٠] ولما اتصل بالأمير يعقوب بن عبد الحق ما كان من أبي دبوس واستيلائه على المملكة كتب إليه يهنئه بالفتح، ويطلب منه أن يمكنه من الشرط الذي شرط له؛ فلما وصل إليه الكتاب أدركته النخوة، وغلب عليه الكبر؛ وقال للرسول: قل ليعقوب بن عبد الحق يغتنم سلامته، ويبعث إلي ببيعته حتى أقره على ما بيده وإلا

---

(١) قلت: أي ناشده الرحم.

غزوته بجنود لا قبل له بها، فعاد الرسول إلىٰ الأمير يعقوب؛ وأبلغه الخبر ودفع إليه كتاب أبي دبوس فإذا هو يخاطبه مخاطبة الخلفاء لعمالهم، والرؤساء لخدمهم، فتحقق الأمير نكثه وغدره، فنهض إليه في جموع بني مرين وعساكر المغرب.

فلما أشرف علىٰ مراكش خام أبو دبوس عن اللقاء وتحصن بداره، ولجأ إلىٰ أسواره، فتقدم الأمير يعقوب حتىٰ نزل علىٰ مراكش وحاصرها أيامًا وعاث في نواحيها، وانتسف ما حولها.

ولما رأىٰ أبو دبوس ما نزل به منه كتب إلىٰ يغمراسن بن زيان صاحب تلمسان يطلب منه أن يشغل عنه الأمير يعقوب بما وراءه من أعمال فاس والمغرب وأسنىٰ له الهدية في ذلك وأكد العهد في الموالاة والمناصرة، فأجابه يغمراسن إلىٰ ذلك، نهض من حينه فشن الغارات علىٰ ثغور المغرب، وأضرم نار الفتنة بها.

واتصل ذلك بالأمير يعقوب وهو محاصر لمراكش، فرجع عوده علىٰ بدئه وسار إلىٰ يغمراسن فناجزه الحرب، وانتصف منه علىٰ ما ينبغي وحسم مادة فساده.

ثم كر راجعًا إلىٰ مراكش في شعبان سنة ست وستين وستمائة، ولما عبر وادي أم الربيع شن الغارات علىٰ النواحي، وبث السرايا في الجهات، وطال عيثه في البلاد، وأبدأ في ذلك وأعاد؛ حتىٰ ضاقت صدور بني عبد المؤمن بمراكش وتكدر عيشهم، فحرضهم أولياؤهم من عرب جشم، وأغروهم باستنهاض أبي دبوس لمدافعة عدوه، ووعدوهم النصر من أنفسهم؛ فتحرك أبو دبوس لذلك؛ واشرأبت نفسه إلىٰ القتال، فحشد وأبلغ، وبرز من الحضرة في جيوش ضخمة وجموع وافرة.

ولما علم الأمير يعقوب بخروجه ودنوه منه أظهر من نفسه العجز عن لقائه، وكر راجعا إلىٰ جهة بلاده، يستجره بذلك ليبعد عن الحضرة ومددها، وتمادىٰ أبو دبوس في اتباعه حتىٰ انتهىٰ إلىٰ وادي ودغفو، فكر عليه الأمير يعقوب والتحم القتال، وقامت الحرب علىٰ ساق؛ فلم تمض إلَّا ساعة حتىٰ انهزم الموحدون، وأطلق أبو دبوس عنانه للفرار يريد مراكش؛ فأدركته خيل بني مرين؛ وتناولته رماحهم، وخر صريعًا لليدين وللفم، واحتز رأسه وجيء به إلىٰ الأمير يعقوب فسجد شكراً لله تعالىٰ، ثم بعث به إلىٰ فاس، وتقدم هو إلىٰ مراكش فاستولىٰ عليها في أوائل محرم سنة ثمان وستين وستمائة وفر الموحدون الذين كانوا بمراكش إلىٰ جبل تينملل،

فبايعوا إسحاق بن أبي إبراهيم أخا المرتضى، فبقي ذبالة هنالك إلى سنة أربع وسبعين وستمائة فقبض عليه؛ وجيء به إلى السلطان يعقوب بن عبد الحق هو وابن عمه السيد أبو سعيد بن أبي الربيع ووزيره القبائلي وأولاده فقتلوا جميعًا، وانقرضت دولة بني عبد المؤمن من الأرض، وذهبت محاسن مراكش يومئذ بذهاب دولتهم، والبقاء لله وحده لا رب غيره ولا معبود سواه.

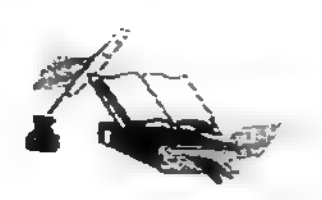
[١٧١] وفي سنة اثنتين وعشرين وستمائة توفي الشيخ أبو محمد عبد السلام بن مشيش، ﵁ شهيدًا بجبل العلم من جبال غمارة وقبره هناك مشهور.

وكان سبب شهادته أن محمدًا بن أبي الطواجين الكتامي كان قد ثار بتلك البلاد وانتحل صناعة الكيمياء، ثم ادعى النبوة وتبعه على ضلالته طغاة غمارة والبربر، فكان عدو الله يغص بمكان الشيخ ﵁ لما آتاه الله من شرف التقوى والاستقامة المؤيد بشرف النسب الصميم والعنصر الكريم؛ فسول له الشيطان أنه لا يتم أمر مخرقته في تلك الناحية إلا بقتل الشيخ فدس له جماعة من أتباعه وأشياعه فرصدوا الشيخ حتى نزل من خلوته في سحر من الأسحار إلى عين هنالك قرب الجبل المذكور فتوضأ منها وولى راجعًا إلى محل عبادته فعدوا عليه وقتلوه، ومن الشائع أنه أُلقي عليهم ضباب كثيف أضلهم عن الطريق ودُفعوا إلى شواهق تردوا منها في مهاوي سحيقة تمزقت فيها أشلاؤهم، ولم يرجع منهم خبر.

[١٧٢] وفي هذه السَّنة أيضًا استأسد العدو الكافر على المسلمين بالأندلس وتوالت له عليهم الهزائم بمواضع متعددة، واستولى على كثير من الحصون، واستلحم منهم عدة ألوف حتى خلت المساجد والأسواق.

وفي سنة خمس وثلاثين وستمائة عاود الغلاء والوباء أرض المغرب فأكل الناس بعضهم بعضًا، وكان يدفن في الحفير الواحد المائة من الناس.







الجزء الثالث

الدولة المرينية

«القسم الأول»

الخبر عن دولة بني مرين
ملوك فاس والمغرب وذكر أوليتهم وأصلهم

اعلم أن العلامة الرئيس أبا زيد عبد الرحمـٰن بن خلدون ـ رحمه الله ـ قسم جبل زناتة إلىٰ طبقتين: الطبقة الأولى: هي التي كان منها مغراوة ملوك فاس، وبنو يفرن ملوك سلا، والطبقة الثانية: هي التي كان منهم بنو عبد الواد ملوك تلمسان والمغرب الأوسط، وبنو مرين ملوك فاس والمغرب الأقصىٰ، وهـٰؤلاء هم الذين تعلق الغرض الآن بذكرهم.

فاعلم أن جبل زناتة في المغرب كما قال الرئيس المذكور جبل قديم معروف العين والأثر، وهم لهـٰذا العهد آخذون من شعار العرب في سكنىٰ الخيام، واتخاذ الإبل، وركوب الخيل، والتقلب في الأرض، وإيلاف الرحلتين، وتخطف الناس من العمران، والإباية من الانقياد إلىٰ النَّصَفة، وشعارهم من بين البربر اللغة التي يتراطنون بها وهي مشتهرة بنوعها عن سائر رطانة البربر، ومواطنهم في سائر مواطن البربر بإفريقية والمغرب، فمنهم ببلاد النخيل ما بين غدامس [(١)] والسوس الأقصىٰ[(٢)] والأكثر منهم بالمغرب الأوسط [(٣)] حتىٰ أنه ينسب إليهم ويعرف بهم فيقال وطن زناته، ومنهم بالمغرب الأقصىٰ أمم أخر.

وكان بنو مرين منهم قبل استيلائهم علىٰ ملك المغرب ظواعن بمجالات القَفْر[(٤)].

الخبر عن دخول بني مرين
أرض المغرب الأقصى واستيلائهم عليه والسبب في ذلك

كان السبب في دخول بني مرين لهـٰذا القطر المغربي أنه لما كانت وقعة العقاب

---

(١) قلت: مدينة في ليبيا اليوم.

(٢) قلت: السوس الأقصىٰ في المغرب اليوم، وحدوده الجنوبية أول الصحراء.

(٣) قلت: أي الجزائر تقريبًا.

(٤) قلت: أي يتنقلون في الصحراء.

بالأندلس سنة تسع وستمائة وهُزم الناصر، وهلكَ الجمهور من حامية المغرب ورعاياه حتىٰ خلت البلاد من أهلها، ثم حدث عقب ذلك الوباء العظيم الذي تحيف الناس إلَّا قليلاً، وهلك الناصر سنة عشر بعدها، فبايع الموحدون ابنه يوسف المنتصر وهو يومئذ صبي حدث لا يحسن التدبير، وشغلته مع ذلك أحوال الصبا ولذات الملك عن القيام بأمر الرعية فتضافرت هٰذه الأسباب علىٰ الدولة الموحدية فأضعفتها لحينها وأمرضتها المرض الذي كان سببًا لحَيْنها [١] ، وكان بنو مرين يومئذ يتنقلون في تلك القفار والصحارىٰ لا يدخلون تحت حكم سلطان ولا تنالهم الدولة بهضيمة، ولا يؤدون إليها ضريبة كثيرة ولا قليلة، ولا يعرفون تجارة ولا حرثًا إنما شغلهم الصيد وطراد الخيل والغارات علىٰ أطراف البلاد.

وكانت طائفة منهم ينتجعون تخوم المغرب وتلوله زمان الربيع والصيف فيكتالون من أطراف البلاد ما يحتاجون إليه من الميرة ويرعون فيها تلك المدة أنعامهم وشاءهم حتىٰ إذا أقبل فصل الشتاء شدوا الرحلة إلىٰ بلادهم فكان ذلك دأبهم علىٰ مر السنين.

فلما كانت سنة عشر وستمائة أقبل نجعهم علىٰ عادته للارتفاق والميرة حتىٰ إذا أطلوا علىٰ المغرب من ثناياه ألفوه قد تبدلت أحواله، وبادت خيله ورجاله، وفنيت حماته وأبطاله، وعريت من أهله أوطانه، وخف منها سكانه وقطانه، ووجدوا البلاد مع ذلك طيبة المنبت، خصيبة المرعىٰ، غزيرة الماء، واسعة الأكناف، فسيحة المزارع، متوفرة العشب؛ لقلة راعيها، مخضرة التلول والربىٰ لعدم غاشيها فأقاموا بمكانهم وبعثوا إلىٰ إخوانهم فأخبروهم بحال البلاد وما هي عليه من الخِصب والأمن وعدم المحامي والمدافع، فاغتنموا الفرصة وأقبلوا مسرعين وانتشروا في نواحي المغرب وأوجفوا عليها بخيلهم وركابهم واكتسحوا بالغارات والنهب بسيطها، ولجأت الرعايا إلىٰ حصونها ومعاقلها، وتم لهم ما أرادوا من الاستيلاء علىٰ بسيط المغرب وسهله.

---

(١) قلت: أي لموتها.

الخبر عن رياسة الأمير
أبي محمد عبد الحق بن محيو المريني رحمه الله

لما دخل بنو مرين المغرب كان الأمير عليهم يومئذ عبد الحق بن محيو بن أبي بكر ابن حمامة بن محمد المريني، فكثر عَيْثهم وضررهم بالمغرب، وأعضل داؤهم، وتضاعف على الرعية بلاؤهم، فرفعت الشكايات بهم إلى الخليفة بمراكش وهو يومئذ يوسف المنتصر بن الناصر بن المنصور فجهز لهم جيشًا كثيفًا من عشرين ألفًا وكتب إلى صاحب فاس يأمره بالخروج معه لغزو بني مرين والإثخان فيهم وعدم الإبقاء عليهم مهما قدر على ذلك.

واتصل الخبر ببني مرين وهم في جهات الريف فتركوا أثقالهم وعيالهم وصمدوا إلى الموحدين فالتقى الجمعان فكان الظهور لبني مرين على الموحدين فهزموهم وقتلوهم وامتلأت الأيدي من أسلابهم وأمتعتهم، ورجع الموحدون إلى فاس سنة ثلاث عشرة وستمائة، ثم زحف الأمير عبد الحق في ذي الحجة من السنة المذكورة بجموع بني مرين إلى رباط نازة حتى وقف بإزاء زيتونها، فخرج عاملها لحربه في جيش كثيف من الموحدين والعرب والحشد من قبائل تسول ومكناسة وغيرهم فقتلت بنو مرين العامل المذكور وهزموا جيوشه.

وجمع عبد الحق الأسلاب والخيل والسلاح وقسم ذلك كله في قبائل بني مرين، ولم يمسك منها لنفسه شيئًا وقال لبنيه: إياكم أن تأخذوا من هذه الغنائم شيئًا فإنه يكفيكم منها الثناء والظهور على أعدائكم.

حرب بني مرين
مع عرب رياح ومقتل الأمير عبد الحق رحمه الله

لما انتصر بنو مرين على أعدائهم الموحدين حصل في نفوس بني عسكر بن محمد من عشيرتهم نفاسة عليهم وضاقت صدورهم من استقلال بني عمهم بالرياسة دونهم، فخالفوا الأمير عبد الحق وعشيرته إلى مظاهرة الموحدين وأوليائهم

من عرب رياح، وكانت رياح يومئذ أشد قبائل المغرب قوة وأقواهم شوكة وأكثرهم خيلاً ورجالاً لحدوث عهدهم بالعز والبداوة، فأغراهم الموحدون يومئذ ببني مرين لينتصفوا لهم منهم واتفقت كلمتهم عليهم وسمعت بنو مرين بإقبال العرب والموحدين وبني عسكر إليهم، فاجتمعوا إلىٰ أميرهم عبد الحق فقالوا له: ما ترىٰ في أمر هـٰؤلاء العرب المقبلين إلينا؟

فقال: يا معشر مرين! أما ما دمتم في أمركم مجتمعين، وفي آرائكم متفقين، وكنتم علىٰ حرب عدوكم أعوانًا، وفي ذات الله إخوانًا، فلا أخشىٰ أن ألقىٰ بكم جميع أهل المغرب، وإن اختلفت أهواؤكم وتشتت آراؤكم ظفر بكم عدوكم.

فقالوا له: إنا نجدد لك الآن بيعة علىٰ السمع والطاعة وأن لا نختلف عليك ولا نفر عنك أو نموت دونك فانهض بنا إليهم علىٰ بركة الله، فنهض الأمير عبد الحق في جموع بني مرين فكانت بينهم حرب بعد العهد بمثلها وقتل فيها الأمير عبد الحق وكبير أولاده إدريس.

ولما رأت بنو مرين ما وقع بأميرها وابنه حميت وغضبت وأقسمت بأيمانها أن لا يدفن حتىٰ يأخذوا بثأره فصمموا العزم لقتال رياح واستأنفوا الجد لقراعهم، وصبروا صبراً جميلاً فنصرهم الله علىٰ عدوهم فهزموا رياحًا وقتلوا منهم خلقًا كثيراً، وشردوهم في الشعاب والأودية ورؤوس الهضاب، واحتووا علىٰ ما كان في محلتهم من السلاح والخيل والأثاث، وقام بأمر بني مرين بعد هلاك عبد الحق ابنه عثمان.

[١٧٣] بقية أخبار الأمير عبد الحق وسيرته

كان الأمير عبد الحق المريني مشهوراً في قومه بالتقىٰ والفضل والدين، موسومًا بالصلاح وصحة اليقين، معروفًا بالورع والعفاف، موصوفًا في سيرته بالعدل والإنصاف، يطعم الطعام، ويكفل الأيتام، ويؤثر المساكين، ويحنو علىٰ المستضعفين، وكانت له بركة معروفة ودعوة مستجابة موصوفة، وكانت قلنسوته وسراويله يتبرك بهما في جميع أحياء زناتة، وكانوا يحملون فضلة وضوئه

فيستشفون بها لمرضاهم [١]، وكان يسرد الصوم فلا يزال صائمًا طول عمره في الحر والبرد لا يُرىٰ مفطرًا إلَّا في أيام الأعياد، كثير الذكر والأوراد، لا يفتر عنها في سائر الحالات، متحريًا لأكل الحلال، لا يقتات إلَّا من لحوم إبله وألبانها أو ما يعانيه من الصيد، معظمًا في بني مرين مطاعًا فيهم، يقفون عند أمره ولا يصدرون إلَّا عن رأيه.

حكىٰ ابن أبي زرع عمن حدثه من الثقات أنه قدم علىٰ أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق في وفد من أعيان فاس وفقهائها، وذلك في رمضان سنة ثلاث وثمانين وستمائة، والأمير يعقوب يومئذ برباط الفتح يريد العبور إلىٰ الأندلس برسم الجهاد قال: فجرىٰ في مجلسه ذكر والده الأمير عبد الحق فقال الأمير يعقوب:

كان الأمير عبد الحق ـ رحمه الله ـ صادق القول، إذا قال فعل، وإذا عاهد وفىٰ، لم يحلف بالله قط بارًا ولا حانثًا، ولم يشرب مسكرًا قط، ولا ارتكب فاحشة، تضع الحوامل ببركة إزاره متىٰ عسرت عليهن الولادة، وكان يسرد الصوم، ويقوم أكثر الليل، وإذا سمع بخبر صالح أو عابد قصد لزيارته، واستوهب منه الدعاء، شديد الخوف من الصالحين، متواضعًا لهم، وكان مع ذلك لأعدائه قاهرًا، وما وجدنا إلَّا بركته وبركة من دعا له من الصالحين.

[١٧٤] قالوا: وكان الأمير عبد الحق في ابتداء أمره قليل الأولاد، فرأىٰ ذات ليلة في منامه كأن شعلاً أربعًا من نار خرجن منه فعلون في جو المغرب ثم احتوين علىٰ جميع أقطاره، فكان تأويلها تمليك بنيه الأربعة من بعده.

الخبر عن رياسة الأمير

أبي سعيد عثمان بن عبد الحق رحمه الله

لما فرغ بنو مرين من حرب رياح ورجعوا من اتباعهم اجتمعوا إلىٰ الأمير أبي سعيد عثمان بن عبد الحق وكان أكبر بني أبيه بعد إدريس فعزوه بمصاب أبيه وأخيه، وبايعوه عن رضىٰ منهم، فاجتمعت عليه كلمتهم، ولما فرغ الأمير أبو سعيد من تجهيز أبيه وأخيه ودفنهما أقسم أن لا يرجع عن حرب رياح حتىٰ يثأر بمائة شيخ منهم

---

(١) قلت: ليس هٰذا الصنيع مشروعًا.

فسار إليهم وأثخن فيهم حتى شفا نفسه وأذعنوا إلى الطاعة ولاذوا بالسلم، فسالمهم على إتاوة يؤدونها إليه كل سنة.

ثم ضعفت شوكة الموحدين وتداعى أمرهم إلى الاختلال وأشرف ملكهم على ربوة الاضمحلال وتقلص ظل حكامهم عن البدو جملة.

فلما رأى الأمير أبو سعيد ما عليه أمر الموحدين من الضعف، وما نزل برعايا المغرب من الجور والعسف جمع أشياخ مرين وندبهم إلى القيام بأمر الدين والنظر في مصالح المسلمين فأسرعوا إلى إجابته وبادروا لتلبية دعوته، فسار بهم أبو سعيد في نواحي المغرب ودروبه، ويدعو الناس إلى طاعته والدخول في عهده وحمايته، فمن أجابه منهم أمنه ووضع عليه قدراً معلوماً من الخراج، ومن أبى عليه نابذه وأوقع به، ثم فرض على أمصار المغرب مثل فاس ومكناسة وتازا وقصر كتامة ضريبة معلومة يؤدونها على رأس كل حول على أن يكف الغارة عنهم ويصلح سابلتهم ولم يزل دأبه ذلك من تدويخ بلاد المغرب وأقطاره حتى هلك باغتيال علج له كان رباه صغيراً، فشب وسول له الشيطان الفتاك به فترصد غرته وطعنه بحربة في منحره فمات لوقته سنة ثمان وثلاثين.

وكان ذا نجدة وشجاعة وعزم وكرم وإيثار، مكرماً للفقهاء وأهل الصلاح سالكا في ذلك سنن أبيه رحمه الله.

الخبر عن رياسة
الأمير محمد بن عبد الحق رحمه الله

لما هلك الأمير أبو سعيد قام بالأمر بعده أخوه محمد بن عبد الحق، فاقتفى سنن أخيه في تدويخ بلاد المغرب وأخذ الضريبة من أمصاره وجباية المغارم من باديته، وبعث الرشيد بن المأمون صاحب مراكش قائده لحرب بني مرين، وعقد له على مكناسة فأجحف بأهلها في المغارم، ثم نزل بنو مرين في بعض الأحيان بنواحيها فدارت بينهم حرب شديدة هلك فيها خلق من الجانبين، ولما هلك الرشيد بن المأمون سنة أربعين وستمائة وولي أخوه علي وتلقب بالسعيد وبايعه أهل المغرب انصرفت عزائمه إلى غزو بني مرين، وقطع أطماعهم عما سمت إليه من تملك المواطن، فجهز

عساكر الموحدين لقتالهم ومعهم قبائل العرب والمصامدة وجموع الفرنج [1] فنهضوا سنة اثنتين وأربعين وستمائة في جيش كثيف يناهز عشرين ألفًا، فسمع الأمير بإقبالهم فاستعد لقتالهم وزحف إليهم فدارت بينهم حرب شديدة وصبر الفريقان، ولما كان عشي النهار قُتل الأمير بيد زعيم من زعماء الفرنج، فانهزمت بنو مرين وتبعهم الموحدون فاتخذوا الليل جملاً، وأسروا طول ليلتهم بحللهم وعيالاتهم وأموالهم فأصبحوا بجبال غياثة من نواحي تازا فاعتصموا بها أيامًا، ثم خرجوا إلىٰ بلاد الصحراء وولوا عليهم أبا بكر بن عبد الحق وكانت هـٰذه الوقعة وهلاك الأمير عشية يوم الخميس تاسع جمادىٰ الآخرة سنة اثنتين وأربعين وستمائة.

الخبر عن دولة الأمير أبي بكر بن عبد الحق رحمه الله

هـٰذا الأمير هو الذي رفع من راية بني مرين وسما بها إلىٰ مرتبة الملك وكنيته أبو يحيىٰ، وهو أول من جند الجنود منهم، وضرب الطبول ونشر البنود وملك الحصون والبلاد واكتسب الطارف والتلاد، بايعه بنو مرين بعد مهلك أخيه فكان أول ما ذهب إليه ورآه من النظر لقومه أن قسم بلاد المغرب وقبائل جبايته بين بني مرين وأنزل كلاً منهم بناحية منه سَوَّغهم إياها سائر الأيام طعمة لهم فحسنت حالهم وكثرت غاشيتهم وتوفرت جموعهم.

استيلاء الأمير أبي بكر على مكناسة وبيعة أهلها لابن أبي حفص بواسطته

ثم سار الأمير أبو بكر بمحلته فنزل جبل زرهون ودعا أهل مكناسة إلىٰ بيعة الأمير أبي زكرياء بن أبي حفص صاحب إفريقية؛ لأنه كان يومئذ علىٰ دعوته وفي ولايته، وحاصرها وضيق عليها بمنع المرافق وترديد الغارات إلىٰ أن أذعنوا لطاعته، فافتتحها صلحًا وبعثوا ببيعتهم إلىٰ الأمير أبي زكرياء الحفصي، وكان فتح مكناسة سنة ثلاث وأربعين وستمائة.

ثم آنس الأمير أبو بكر من نفسه الاستبداد ومن قبيله الاستيلاء فاتخذ الآلة

(١) قلت: وذلك لأن الموحدين استعانوا بالفرنج الصليبيين علىٰ قتال إخوانهم المسلمين، كما مرّ من قبل في حوادث دولتهم، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

لذلك وسما بنفسه إلىٰ مرتبة الملك، وأعد له عدته، وانتهىٰ الخبر إلىٰ السعيد صاحب مراكش بتغلب الأمير أبي بكر علىٰ مكناسة وصرفها لابن أبي حفص فوجم لها، ثم نهض السعيد من مراكش سنة خمس وأربعين وستمائة يريد مكناسة وبني مرين أولاً، ثم تلمسان ويغمراسن بن زيان ثانيًا، ثم إفريقية وابن أبي حفص آخراً.

وتقدم السعيد إلىٰ تلمسان فكان من هلاكه ما قدمناه في أخبار دولته فانتهز الأمير أبو بكر الفرصة في فل الموحدين وصرف عزمه إلىٰ فتح فاس وانتزاعها من يد بني عبد المؤمن، فأناخ عليها الأمير أبو بكر بخيله ورجله وتلطف في مداخلة أهلها وضمن لهم جميل النظر وحميد السيرة وكف الأذىٰ عنهم، فأجابوه ووثقوا بعهده وغنائه وأووا إلىٰ ظله وركنوا إلىٰ طاعته وانتحال الدعوة الحفصية بأمره ونبذوا طاعة بني عبد المؤمن يأسًا من صريخهم، فبايعوه وحضر هٰذه البيعة الشيخ أبو محمد الفشتالي، ونشده الله علىٰ الوفاء بما اشترط علىٰ نفسه من النظر لهم والذب عنهم وسلوك طريق العدل فيهم.

ودخل الأمير أبو بكر مدينة فاس سنة ست وأربعين وستمائة بعد موت السعيد صاحب مراكش بشهرين.

لما أكمل الله للأمير أبي بكر فتح مدينة فاس واستوسق أمر بني مرين بها دوخ أوطان زناتة واقتضىٰ مغارمهم وحسم علل الثائرين بها، ثم تخطىٰ ذلك إلىٰ مدينة سلا ورباط الفتح سنة تسع وأربعين وستمائة فملكها.

استيلاء الأمير أبي بكر على سجلماسة ودرعه وسائر بلاد القبلة وفاة الأمير أبي بكر رحمه الله

لما رجع الأمير أبو بكر من حرب سجلماسة أقام بفاس أيامًا ثم نهض إلىٰ سجلماسة أيضًا متفقدًا لثغورها فانقلب منها عليلاً، ووصل إلىٰ فاس فتوفي بقصره من قصبتها أواسط رجب سنة ست وخمسين وستمائة.

الخبر عن دولة أبي حفص

الأمير عمر بن أبي بكر بن عبد الحق رحمه الله

لما مات الأمير أبو بكر رحمه الله اشتمل العامة من بني مرين على ابنه أبي حفص عمر فبايعوه ونصبوه للأمر وتباروا في خدمته، ومالت المشيخة وأهل العقد والحل إلى عمه يعقوب بن عبد الحق وكان غائبًا عند مهلك أخيه بتازا، فلما بلغه الخبر أسرع اللحاق بفاس وتوجهت إليه وجوه الأكابر، وأحس عمر بميل الناس إلى عمه يعقوب فقلق لذلك وأغراه أتباعه بالفتك بعمه فاعتصم بالقصبة، ثم سعى الناس في الإصلاح بينهما فتفادى يعقوب من الأمر ودفعه إلى ابن أخيه على أن تكون له بلاد تازا وبطوية وملوية التي كان أقطعه إياها أخوه من قبل، فانفصلوا على ذلك وخلص الأمر لعمر واستمر بفاس أشهرًا إلى أن غلب عليه عمه المذكور.

الخبر عن دولة السلطان

المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق رحمه الله

[١٧٥] هذا السلطان جليل القدر، عظيم الشأن، وهو سيد بني مرين على الإطلاق، وهو رابع الإخوة الأربعة الذين ولوا الأمر بالمغرب من بني عبد الحق، وكانت أمه واسمها أم اليمن بنت علي البطوي رأت وهي بكر كأن القمر خرج من قبلها حتى صعد إلى السماء وأشرق نوره على الأرض، فقصت رؤياها على أبيها فسار إلى الشيخ الصالح أبي عثمان الورياكلي فقصها عليه فقال إن صدقت رؤياها فستلد ملكًا عظيمًا فكان كذلك.

[١٧٦] استيلاء نصارى الإصبنيول على مدينة سلا وإيقاع السلطان يعقوب بهم وطردهم عنها

كان يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق قد استعمله عمه الأمير أبو بكر بن عبد الحق على مدينة سلا لما ملكها، ولما استرجعها الموحدون من يده أقام يتقلب في جهاتها مترصدًا للفرصة وإمكانها فيها، ولما بويع عمه السلطان يعقوب بن عبد الحق آسفته بعض الأحوال منه فذهب مغاضبًا وألطف الحيلة في تملك رباط الفتح وسلا

ليعتدهما ذريعة لما أسر في نفسه من التوثب على الأمر، فتمت له الحيلة وملك سلا وتمكن من البلد وجاهر بالخلع، وصرف إلى منازعة عمه السلطان يعقوب وجوه العزم وتمكنت الوحشة بين اليعقوبين.

وداخل يعقوب سلا [1] تجار الحرب من الإصبنيول في الإمداد بالسلاح فتباروا في ذلك، وكثرت سفن المترددين منهم إليها حتى كثروا أهلها، وزاد عددهم، فعزموا على الثورة بها، واهتبلوا فيها غرة عيد الفطر من سنة ثمان وخمسين وستمائة عند اشتغال الناس بعيدهم وثاروا بسلا في اليوم الثاني من شوال فوضعوا السيف في أهلها وقتلوا الرجال وسبوا الحرم، وانتهبوا الأموال، وكان الحادث بها عظيماً وضبطوا البلد، وتحصن يعقوب بن عبد الله برباط الفتح.

وطار الصريخ إلى السلطان يعقوب بن عبد الحق وهو يومئذ بمدينة تازا فنهض السلطان يعقوب من فوره بعد أن صلى العصر بتازا من ذلك اليوم، فأسرى ليلته تلك في نحو الخمسين فارساً، ومن الغد صلى العصر بظاهر سلا فكان قطعه مسافة ما بينهما في يوم وليلة، وهذا أمر خارق للعادة بلا شك أظهره الله على يد هذا السلطان لصدق عزمه وحسن نيته وإلَّا فالمسافة ما بين تازا وسلا ست مراحل أو أكثر، ثم تلاحقت به جيوش المسلمين من القبائل المتطوعة من جميع آفاق المغرب، فحاصر النصارى بها وضيق عليهم، ووالى القتال عليهم بالليل والنهار حتى اقتحمها عليهم عنوة لأربع عشرة ليلة من حصارها، وأثخن فيهم بالقتل، ونجا من نجا منهم إلى سفنهم، فنشروا قلوعهم وذهبوا يلتفتون وراءهم.

وأما يعقوب بن عبد الله صاحب سلا فإنه أقام خارجًا بالنواحي متنقلاً في الجهات إلى أن قتله طلحة بن محلي من أولياء السلطان يعقوب سنة ثمان وستين وستمائة فكفى السلطان يعقوب أمره.

فتح حضرة مراكش وانقراض دولة الموحدين بها

لما قفل السلطان يعقوب صرف عزمه إلى غزو مراكش والعود إلى حصارها كما كان أول مرة فنهض إليها من فاس في شعبان سنة ست وستين وستمائة، ثم تقدم

---

(١) قلت: يعني يعقوب الذي في مدينة سلا.

السلطان يعقوب نحو مراكش، وفر من كان بها من الموحدين وانقرض أمر بني عبد المؤمن، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، ودخل مراكش في عسكر ضخم وموكب فخم يوم الأحد التاسع من محرم المذكور، وورث ملك آل عبد المؤمن واستوسق أمره بالمغرب، وتطامن الناس لبأسه وسكنوا لظل سلطانه، وأقام بمراكش إلىٰ رمضان من سنته، فخرج بنفسه إلىٰ بلاد درعة، فأوقع بعربها الوقيعة المشهورة التي خضدت من شوكتهم ورجع لشهرين من غزاته، ثم أجمع الرحلة إلىٰ دار ملكه بفاس فعقد علىٰ مراكش لمحمد بن علي بن يحيىٰ من كبار أوليائهم ومن أهل خؤلته، وكان من طبقة الوزراء، وأنزله بقصبة مراكش وعهد إليه بتدويخ الأقطار ومحو آثار بني عبد المؤمن، وفصل من مراكش قاصداً حضرة فاس في شوال من السنة المذكورة [(١)] .

[١٧٧] أخبار السلطان المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق المريني في الجهاد وما كان له بالأندلس من الذكر الجميل والفخر الجزيل، رحمه الله

قد تقدم لنا ما كان للعدو الكافر علىٰ المسلمين في وقعة العقاب من الظهور والغلبة، وأن تلك الوقعة كانت سبب ضعف المسلمين بالمغرب والأندلس واستيلاء العدو الكافر علىٰ جل ثغورها وحصونها، ولما ضعف أمر الموحدين بالمغرب استبد السادة منهم بالأندلس وصاروا إلىٰ المنافسة فيما بينهم واستظهار بعضهم علىٰ بعض بالطاغية، وإسلام حصون المسلمين إليه في سبيل تلك الفتنة، فمشت رجالات الأندلس بعضهم إلىٰ بعض وأجمعوا علىٰ إخراج الموحدين من أرضهم فثاروا بهم لوقت واحد وأخرجوهم، وتولىٰ كبر ذلك محمد بن يوسف بن هود الجذامي ثم من بعده محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر، ونازع ابن هود الرياسة بالأندلس.

[١٧٨] ولا تسأل عما ذهب في منازعتهما من حصون المسلمين الكثيرة وبلادهم العديدة الشهيرة التي منها قرطبة وإشبيلية قاعدتا أرض الأندلس، كان كل

---

(١) قلت: هناك تفصيلات لفتح مراكش أوردتها في سقوط دولة الموحدين آنفًا فلا أعيدها هاهنا.

واحد من هذين الثائرين يتقرب إلى الطاغية بما غلب عليه من ذلك ليعينه على صاحبه والأمر لله وحده [١] ، وانقرض أمر ابن هود عن أمد قريب واستمرت دولة ابن الأحمر في عقبه إلى آخر المائة التاسعة .

ولما استتب أمر ابن الأحمر بالأندلس عقد السلم مع الطاغية على أن ينزل له عن جميع بسائط عرب الأندلس، فنزل له عنها أجمع، ولجأ بالمسلمين إلى سيف البحر [٢] معتصمين بأوعاره ومتشبثين بمعاقله وحصونه، واختار ابن الأحمر لنزوله مدينة غرناطة واتخذها كرسي مملكته، وابتنى بها لسكناه حصن الحمراء .

[١٧٩] وكان ابن الأحمر هذا يدعى بالشيخ، وكان قد عهد إلى ولده القائم من بعده محمد المعروف بالفقيه لانتحاله طلب العلم في صغره، وأوصاه إذا نابه أمر من العدو أو وصل إليه مكروه أن يستنصر عليه ببني مرين ويدرأ بهم في نحره ويجعلهم وقاية بين العدو وبين المسلمين، فلما تكالب الطاغية على بلاد الأندلس بادر محمد الفقيه إلى العمل بإشارة والده وأوفد مشيخة الأندلس كافة على السلطان يعقوب ـ رحمه الله ـ فلقيه وفدهم منصرفًا من فتح سجلماسة فتبادروا للسلام عليه، وألقوا إليه الخبر عن كَلَب العدو [٣] على المسلمين، وثقل وطأته، فحيا وفدهم واستبشر بمقدمهم، وبادر لإجابة داعي الله وإيثار الجنة .

[١٨٠] وكان السلطان يعقوب ـ رحمه الله ـ منذ أول أمره مؤثرًا عمل الجهاد، كَلِفًا به [٤] ، مختارًا له لو أعطي الخيار على سائر أعماله، حتى لقد كان اعتزم على الغزو إلى الأندلس أيام أخيه الأمير أبي بكر وطلب إذنه في ذلك فلم يأذن له، فكان في نفسه من ذلك شغل وله إليه صاغية، فلما قدم عليه هذا الوفد نبهوا عزيمته وأيقظوا همته فأعمل في الاحتشاد، وبعث في النفير، ونهض من فاس في شوال سنة ثلاث وسبعين وستمائة فوصل إلى طنجة وأقام هنالك وجهز خمسة آلاف من قومه أزاح عللهم، وأجزل أعطياتهم، وعقد عليهم لابنه أبي زيان، وأعطاه الراية

---

(١) قلت : هكذا ضاعت الأندلس !!

(٢) قلت : أي ساحله .

(٣) قلت : أي أذاه لهم وطمعه فيهم .

(٤) قلت : أي معجبًا به .

واستدعى من العزفي صاحب سبتة السفن لإجازتهم فوافاه بقصر المجاز منه عشرون أسطولاً فأجاز العسكر المذكور، ونزل بطريف في السادس عشر من ذي القعدة من السنة المذكورة فأراح الأمير أبو زيان بطريف ثلاثًا، ثم دخل دار الحرب وتوغل فيها وأجلب على ثغورها وبسائطها وامتلأت أيديهم من المغانم وأثخنوا بالقتل والأسر وتخريب العمران ونسف الآثار حتى نزل بساحة شريش فخام حاميتها عن اللقاء وتحصنوا بالأسوار وقفل الأمير أبو زيان إلى الجزيرة الخضراء وقد امتلأت أيدي عسكره من الأموال، وحقائبهم من السبي وركائبهم من السلاح والأثاث، ورأى أهل الأندلس أن قد ثأروا بعام العقاب بعد أن لم تنصر لهم راية من ذلك اليوم إلى الآن والله غالب على أمره.

[١٨١] الجواز الأول

للسلطان يعقوب إلى الأندلس برسم الجهاد

ثم اتصل الخبر بالسلطان يعقوب - رحمه الله - أن العدو قد أخذ في الاستعداد وعزم على الخروج إلى بلاد المسلمين، فاعتزم على الغزو بنفسه، ثم استنفر الكافة واحتشد القبائل والجموع، ودعا المسلمين إلى جهاد عدوهم وخاطب في ذلك سائر أهل المغرب من زناتة والعرب والموحدين والمصامدة وصنهاجة وغمارة وأروبة ومكناسة وجميع قبائل البربر من المرتزقة والمتطوعة، وأهاب بهم وشرع في عبور البحر، فأجازهم من فرضة قصر المجاز في صفر سنة أربع وسبعين وستمائة، واحتل بساحل طريف.

وكان السلطان يعقوب حين استصرخه ابن الأحمر وأوفد عليه مشايخ الأندلس اشترط عليه السلطان يعقوب النزول عن بعض الثغور بساحل الفَرَضة لاحتلال عساكره بها فتجافى له عن رُندة وطريف.

ولما احتل السلطان بناحية طريف ملأت كتائبه ساحة الأرض ما بينها وبين الجزيرة الخضراء، ثم نهض إلى العدو قبل أن يسبق إليهم الخبر فدخل دار الحرب وانتهى إلى الوادي الكبير فعقد هنالك لولده الأمير يوسف على خمسة آلاف من عسكره قدمها بين يديه، ثم تبعه على أثره، وسرح كتائبه في البسائط وخلال المعاقل

تنسف الزروع، وتحطم الغروس، وتخرب العمران، وتنتهب الأموال، وتقتل المقاتلة، وتسبي النساء والذرية حتىٰ انتهىٰ إلىٰ حصن المدور وبياسة وأبدة واقتحم حصن بلمة عنوة، وأتىٰ علىٰ سائر الحصون في طريقه فطمس معالمها واكتسح أموالها.

[١٨٢] وقفل السلطان يعقوب ـ رحمه الله ـ والأرض تموج سبيًا، وجاءه النذير باتباع العدو آثاره لاستنقاذ أسراه واسترجاع أمواله، وأن زعيم الفرنج وعظيمهم نونه خرج في طلبهم في أمم النصرانية فقدم السلطان الغنائم بين يديه، وسرح ألفًا من الفرسان أمامها وسار يقتفيها من خلفها حتىٰ إذا أطلت رايات العدو من ورائهم كان الزحف ورتب المصاف، وجرد السيف وذكر اسم الله وراجعت زناتة بصائرها وعزائمها وتحركت هممها، وأبلت في طاعة ربها والذب عن دينها وجاءت بما يعرف من بأسها وبلائها في مقاماتها ومواقفها حتىٰ هبت ريح النصر، وظهر أمر الله، وانكشفت جموع النصرانية، وقتل الزعيم نونه، وكان هـٰذا اللعين زعيم النصرانية بالأندلس قد قدمه الفنش علىٰ جيوشه واستعمله علىٰ حروبه وفوض له في جميع أموره، وكان النصارىٰ قد سعدوا بطائره وتيمنوا بنقيبته لأنه لم تهزم له قط راية، وكان وبالاً علىٰ بلاد الإسلام، كثير الغارات عليها حتىٰ جمع الله بينه وبين السلطان يعقوب فأراحه من تعب الحرب وكد الغارات وألحقه بأمه الهاوية، ومنح المسلمين رقاب الفرنج واستحر فيهم القتل حتىٰ بلغت قتلاهم عدد الألوف، وجمعوا من رؤوسهم مآذن أذنوا عليها لصلاتي الظهر والعصر، ونصر الله حزبه وأعز أوليائه وأظهر دينه، وبدا للعدو ما لم يكن يحتسبه بمحاماة هـٰذه العصابة عن الملة وقيامها بنصر الكلمة.

واعلم أن هـٰذا الزعيم يسميه كثير من المؤرخين دون نونه، ولفظة دون معناها في لسانهم السيد أو العظيم أو ما أشبه ذلك فلذا أسقطناها.

وقفل السلطان يعقوب من غزاته هـٰذه إلىٰ الجزيرة الخضراء منتصف ربيع من السنة المذكورة، فقسم في المجاهدين الغنائم وما نفلوه من أموال عدوهم وسباياهم وأسراهم وكراعهم بعد الاستئثار بالخمس لبيت المال علىٰ موجب الكتاب والسنة ليصرفه في مصارفه، ويقال كان مبلغ الغنائم في هـٰذه الغزاة مائة ألف من البقر،

وأربعة وعشرين ألفًا من السبي، ومن الأسارىٰ سبعة آلاف وثمانمائة وثلاثون، ومن الكراع أربعة عشر ألفًا وستمائة، وأما الغنم فاتسعت عن الحصر كثرة حتىٰ لقد زعموا أنه قد بيعت الشاة الواحدة بدرهم وكذلك السلاح.

وأقام السلطان يعقوب بالجزيرة أيامًا، ثم نهض في جمادىٰ الأولىٰ من السنة المذكورة غازيًا إشبيليه فجاس خلالها وتقرىٰ نواحيها وأقطارها، وأثخن بالقتل والنهب في جهاتها، وعاث في عمرانها، وأوغل في مسيره حتىٰ وقف علىٰ بابها، وزعقت طبوله في جوها، وخفقت ألويته علىٰ جنباتها، ولجأت الفرنج إلىٰ الأسوار، واعتمدوا علىٰ الحصار، ولم يخرج إليه منهم أحد، ثم ارتحل إلىٰ شريش فأذاقها من وبال العيث والاكتساح مثل ذلك أو أكثر ورجع إلىٰ الجزيرة لشهرين من غزاته، فبيعت الفرنجية من سبيه بها بمثقال ونصف لكثرة السبي حينئذ.

ودخل فصل الشتاء فأجاز البحر إلىٰ المغرب في رجب من سنته أعني سنة أربع وسبعين وستمائة فكان مغيبه وراء البحر ستة أشهر، ثم رحل إلىٰ فاس فدخلها في النصف من شعبان من السنة المذكورة.

[١٨٣] الجواز الثاني
للسلطان يعقوب إلىٰ الأندلس برسم الجهاد

خاطب السلطان يعقوب - رحمه الله - قبائل المغرب كافة بالنفير إلىٰ الجهاد، فتثاقلوا عليه، فلم يزل يحرضهم وهم يسوفون إلىٰ أن دخلت سنة ست وسبعين وستمائة، ولما رأىٰ تثاقل الناس عليه نهض إلىٰ رباط الفتح وتلوم به أيامًا في انتظار الغزاة فأبطأوا عليه، فخف في خاصته وتقدم في حاشيته حتىٰ انتهىٰ إلىٰ قصر المجاز، وقد تلاحق به الناس من كل جهة لما رأوا من عزمه وتصميمه، فأجاز بهم البحر، واحتل بطريف آخر محرم من السنة المذكورة، ثم ارتحل إلىٰ الجزيرة الخضراء ثم إلىٰ رُندة، ثم ارتحل السلطان من رندة فاتح ربيع الأول من السنة المذكورة حتىٰ انتهىٰ إلىٰ إشبيلية فعرس عليها يوم المولد النبويّ، وكان بها يومئذ ملك الجلالقة ابن أذفونش فلم يجد بدًا من الخروج إليه بعد أن خام عن اللقاء أولاً فبرز في جموعه وصفّها علىٰ ضفة الوادي الكبير من ناحية السلطان وأظهر من أبهة الحرب ما قدر

عليه، فكانت جيوشه كلها في الدروع السوابغ والبيض اللوامع، والسيوف البواتر، وغير ذلك من آلات الحرب التي يكاد شعاعها يدهش البصر.

[١٨٤] وزحف إليه السلطان يعقوب ـ رحمه الله ـ بعد أن صلى ركعتين ودعا الله تعالى ووعظ الناس وذكرهم، فرتب مصافه وجعل ولده الأمير يوسف في المقدمة، وزحف على التعبية فاقتتلوا مليًا، ثم انهزمت الفرنج فتساقط بعضهم في الوادي، وانحدر آخرون مع ضفته وتصاعد آخرون كذلك، واقتحم المسلمون عليهم وسط الماء وقتلوهم في لجته حتى صار الماء أحمر وطفت جيفهم من الغد عليه فكان فيهم عبرة لمن اعتبر، وبات السلطان والمسلمون تلك الليلة على صهوات خيولهم يقتلون ويأسرون، وأضرموا النيران بساحة إشبيلية حتى صار الليل نهاراً، وباتت الفرنج على الأسوار؟يحترسون طول ليلتهم.

ثم ارتحل السلطان من الغد إلى جبل الشرف، وبث السرايا في نواحيه فلم يزل يتقرى تلك الجهات حتى أباد عمرانها وطمس معالمها ودخل حصن قطنيانة، وحصن جليانة وحصن القليعة عنوة، وأثخن في القتل والسبي، ثم ارتحل بالغنائم والأثقال إلى الجزيرة الخضراء فدخلها في الثامن والعشرين من ربيع الأول المذكور، فأراح بها وقسم الغنائم في المجاهدين، ثم خرج غازيًا مدينة شريش منتصف ربيع الآخر فنازلها وأذاقها نكال الحرب ووبال الحصار، وقطع الزياتين والأعناب وسائر الأشجار، وأباد خضراءها، وحرق ديارها، وأثخن فيها بالقتل والأسر، وكان السلطان يعقوب يباشر قطع الشجر والثمر بيده.

وسرح ولده الأمير يوسف من معسكره في سرية للغارة على إشبيلية وحصون الوادي الكبير فبالغ في النكاية، واكتسح حصن روطة وشلوقة وغليانة والقناطر، ثم صبح إشبيلية فاكتسحها وانكفأ راجعًا بالمغانم والسبي إلى السلطان يعقوب فسر بمقدمه.

[١٨٥] وقفلوا جميعًا إلى الجزيرة الخضراء فأراح السلطان بها أيامًا وقسم في المجاهدين غنائمهم، ثم جمع أشياخ القبائل وندبهم إلى غزو قرطبة وقال: يا معشر المجاهدين إن إشبيلية وشريش وأحوازهما قد ضعفت وبادت ولم يبق لكم بها كبير نفع ولا نكاية، وإن قرطبة وأعمالها بلاد حصينة عامرة، وعليها اعتماد الفرنج،

ومنها معاشهم ومادتهم، فإن غزوتموها واستأصلتم خضراءها مثل ما فعلتم بإشبيلية وشريش كان ذلك سبب ضعف النصرانية بهذا القطر، فأجابوا بالسمع والطاعة فدعا لهم، وفرق فيهم الأموال والخِلَع، وخاطب ابن الأحمر يستنفره للجهاد معه وقال: إن خروجك معي إلىٰ قرطبة يكون لك مهابة في قلوب الفرنج ما عشت سوىٰ ما تستوجبه من الله ـ تعالىٰ ـ من الثواب في ذلك.

ونهض السلطان إلىٰ قرطبة فاتح جمادىٰ الأولىٰ من سنة ست وسبعين المذكورة فوافاه ابن الأحمر فأكرم موصله وشكر خفوفه إلىٰ الجهاد وبداره إليه، ونازلوا حصن بني بشير فدخلوه عنوة، وقتلت المقاتلة وسبيت النساء، ونفلت الأموال، وهدم الحصن حتىٰ لم يبق له أثر.

ثم بث السلطان ـ رحمه الله ـ السرايا والغارات في البسائط فاكتسحها، وامتلأت الأيدي وأثرىٰ العسكر، وفاض عليهم من الغنم والبقر والمعز والخيل والبغال والحمير والقمح والشعير والزيت والعسل ما لا يوصف.

ثم حتىٰ احتلوا بساحة قرطبة فنازلوها وخفقت ألوية السلطان في نواحيها، وزعقت طبوله في فضائها، وتقدم في أبطاله وحماته حتىٰ وقف علىٰ بابها، ثم دار بأسوارها ينظر كيف الحيلة في قتالها، ووقف ابن الأحمر بعساكر الأندلس أمام محلة المسلمين يحرسونها خوفًا من كرة العدو، وخنس الفرنج وراء الأسوار، وانبثت بعوث المسلمين وسراياهم في نواحي قرطبة وقراها، فنسفوا آثارها وخربوا عمرانها وترددوا علىٰ جهاتها ودخلوا حصن الزهراء بالسيف، وأقام السلطان علىٰ قرطبة ثلاثًا، ثم ارتحل عنها إلىٰ حصن بركونة فدخله عنوة ثم أرجونة كذلك، ثم قدم بعثًا إلىٰ مدينة جيان فقاسمها حظها من الخسف والدمار.

وخام الطاغية عن اللقاء، وأيقن بخراب عمرانه وإتلاف بلاده فجنح إلىٰ السلم وخطبه من السلطان يعقوب ورغب فيه إليه، وبعث الأقسة والرهبان للوساطة في ذلك فرفعهم السلطان يعقوب إلىٰ ابن الأحمر وجعل الأمر في ذلك إليه؛ تكرمة لمشهده ووفاء بحقه، وقال لوفد الفرنج: «إنما أنا ضيف، والضيف لا يصالح علىٰ رب المنزل» فساروا إلىٰ ابن الأحمر وقالوا له: إن السلطان يعقوب قد رد الأمر إليك، ونحن قد جئناك لنعقد معك صلحًا مؤبدًا لا يعقبه غدر ولا حرب، وأقسموا

له بصلبانهم إن لم يرضه الفنش ليخلعنه لأنه لم ينصر الصليب ولا حمىٰ الحوزة، فأجابهم ابن الأحمر إليه بعد عرضه علىٰ أمير المسلمين والتماس إذنه فيه لما فيه من المصلحة وجنوح أهل الأندلس إليه منذ المدد الطويلة، فانعقد السلم في آخر شهر رمضان من السنة المذكورة».

[١٨٦] وقفل السلطان يعقوب من غزاته هـٰذه، وجعل طريقه علىٰ غرناطة احتفاء بالسلطان ابن الأحمر وخرج له عن الغنائم كلها فاحتوىٰ عليها ابن الأحمر وساقها إلىٰ غرناطة وقال له السلطان يعقوب: يكون حظ بني مرين من هـٰذه الغزاة الأجر والثواب مثل ما فعل يوسف بن تاشفين ـ رحمه الله ـ مع أهل الأندلس يوم الزلاقة.

ولما قفل السلطان يعقوب من هـٰذه الغزوة اعتل الرئيس أبو محمد بن اشقيلولة ثم هلك غرة جمادىٰ من السنة المذكورة، فلحق ابنه محمد بالسلطان يعقوب آخر شهر رمضان وهو بالجزيرة الخضراء منصرفه من الغزو فنزل له عن مالقة ودعاه إلىٰ حوزها منه وقال له:

إن لم تحزها أعطيتها للفرنج ولا يتملكها ابن الأحمر، فحازها السلطان يعقوب منه وعقد عليها لابنه أبي زيان منديل بن يعقوب فسار إليها وتملكها، وعز ذلك علىٰ ابن الأحمر غاية، لأنه لما بلغه وفاة أبي محمد بن اشقيلولة سما أمله إليها، وأن ابن أخته وهو محمد الوافد علىٰ السلطان يعقوب شيعة له لا يبغي به بدلاً فأخطأ ظنه وخرج الأمر بخلاف ما كان يرتقب.

ولما قضىٰ السلطان يعقوب بالجزيرة الخضراء صومه ونسكه خرج إلىٰ مالقة فدخلها سادس شوال من السنة وبرز إليه أهلها في يوم مشهود واحتفلوا له احتفال أيام الزينة سروراً بمقدم السلطان واغتباطاً بدخولهم في دعوته وانخراطهم في سلك رعيته، وأقام فيهم إلىٰ خاتم سنته ثم عقد عليها لعمر بن يحيىٰ بن محلىٰ من صنائع دولتهم وارتحل إلىٰ الجزيرة الخضراء، ثم أجاز منها إلىٰ المغرب فاتح سنة سبع وسبعين وستمائة وقد اهتزت الدنيا لمقدمه، وامتلأت القلوب سروراً بما هيأه الله من نصر المسلمين بالأندلس، وعلو راية الإسلام علىٰ كل راية، وعظمت بذلك كله موجدة ابن الأحمر ونشأت الفتنة كما نذكره إن شاء الله.

حدوث الفتنة بين السلطان
يعقوب وابن الأحمر وما نشأ عن ذلك من حصار الجزيرة الخضراء وغير ذلك

لما صنع الله للسلطان ما صنع من الظهور والعز الذي لا كفاء له، واستولى على مالقة من يد ابن اشقيلولة ارتاب ابن الأحمر بمكانه، وظن به الظنون، وتخوف منه ما كان من يوسف بن تاشفين للمعتمد بن عباد وغيره من ملوك الطوائف، فغص بمكانه وأظلم الجو بينهما، ودارت بينهما مخاطبات شعرية على ألسنة الكتاب في معنى العتاب.

[١٨٧] ولم تزل القوارص بين السلطانين تجري، وعقارب السعاية تدب وتسري، وخوف ابن الأحمر على ملكه يشتد ويزيد، وأواصر الأخوة الإسلامية تتلاشى وتبيد، إلى أن استحكمت البغضاء وضاق بينهما رحب الفضاء، ففزع ابن الأحمر إلى مداخلة الطاغية في شأنه واتصال يده بيده وحبله بحبله وأن يعود إلى منزلة أبيه معه من ولايته ليدافع به السلطان يعقوب وقومه عن أرضه ويأمن معه من زوال سلطانه [١]، فاغتنم الطاغية هذه الفرصة، ونكث عهد السلطان يعقوب ونقض السلم وأعلن بالحرب، وأغزا أساطيله الجزيرة الخضراء حيث كانت مسالح السلطان يعقوب وجنوده وانقطعت عساكر السلطان وراء البحر، وحال العدو بينهم وبين إغاثته إياهم، واتصلت يد ابن الأحمر بيد الطاغية واتفقا على منع السلطان يعقوب من عبور البحر [٢]، وداخل ابن الأحمر عمر بن يحيى بن محلى صاحب مالقة في النزول له عنها بعوض ففعل واستولى ابن الأحمر عليها.

واتصل خبر هذا كله بالسلطان وهو بمراكش، كان خرج إليها مرجعه من الغزو في المحرم سنة سبع وسبعين وستمائة لما كان من عيث عرب جشم بتامسنا وإفسادهم السابلة، ثم اتصل به خبر ابن محلي ونزوله عن مالقة لابن الأحمر، ومنازلة الطاغية

---

(١) قلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، فهذا الملك وضع يده في يد النصارى لأمر توهمه ليس له أصل.

(٢) قلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، أين عقيدة الولاء والبراء؟ وأين أخوة الإسلام؟

بأساطيله للجزيرة الخضراء وتضييقه على المسلمين بها، فبلغ ذلك منه كل مبلغ، ونهض من مراكش ثالث شوال من السنة يريد طنجة فوصل إلى قرية مكول من بلاد تامسنا فتوالت عليه بها الأمطار والسيول وعاقته عن النهوض، وبينما هو في ذلك ورد عليه الخبر أيضًا بنزول الطاغية على الجزيرة الخضراء برًا وإحاطة عسكره بها بعد أن كانت أساطيله منازلة لها في البحر منذ ستة أشهر أو سبعة، وأنه مشرف على التهامها وبعثوا إليه يستصرخونه ويخبرونه بالحال فاعتزم على الرحيل.

ثم اتصل به الخبر ثالثًا بخروج مسعود بن كانون السفياني ببلاد نفيس من أرض المصامدة خامس ذي القعدة من السنة وأن الناس اجتمعوا إليه من قومه وغيرهم، فانخرقت على السلطان الفتوق، وتوالت عليه الخطوب ولم يدر ما يصنع، إلَّا أنه رأى أن يقدم أمر ابن كانون والعرب فكرّ راجعًا إليه، وفر مسعود بن كانون وجموعه أمام السلطان فانتهب معسكرهم وحللهم، واستباح عرب الحارث من سفيان، ولحق مسعود بجبل سكسيوة فاعتصم به وشايع عبد الواحد السكسيوي القائم به على خلافه، ونازله السلطان يعقوب بعساكره أيامًا، وسرح ابنه الأمير أبا زيان منديل إلى بلاد السوس لتمهيدها وتدويخ أقطارها، فأوغل في ديارها وقفل إلى أبيه في آخر يوم من السنة المذكورة.

واتصل بالسلطان ما تضاعف على أهل الجزيرة من ضيق الحصار وشدة القتال وإعواز الأقوات، وأنهم ختنوا الأصاغر من أولادهم خشية عليهم من معرة الكفر فأهمه ذلك.

وكان أقسم أن لا يرتحل عن ابن كانون حتى ينزل على حكمه أو يهلك دون ذلك فأعمل النظر فيما يكون به خلاص أهل الجزيرة فعقد لولي عهده ابنه الأمير يوسف، وكان بمراكش على الغزو إليها، وكان أهل الجزيرة كما قلنا قد أحاط بهم العدو برًا وبحرًا وانقطعت عنهم المواد وعميت عليهم الأنباء إلَّا ما يأتيهم به الحمام من جبل طارق، وفني أكثرهم بالقتل والجوع وسهر الليل على الأسوار وشدة الحصار حتى أشرف بقيتهم على الهلاك وأيسوا من الحياة، فحينئذ جمعوا صبيانهم وختنوهم- كما مر- وبينما هم على ذلك قدم الأمير يوسف بجيوشه إلى طنجة وكان قدومه في أوائل صفر من سنة ثمان وسبعين وستمائة.

وكان السلطان يعقوب لما بعث ابنه الأمير يوسف إلى طنجة قد كتب إلى الثغور بإعداد الأساطيل وعمارتها وتوجيهها إليه، وقسم الإعطاءات وحض الناس على النهوض، فتوفرت همم المسلمين على الجهاد، وأجابوا من كل ناحية، وأبلى الفقيه أبو حاتم العزفي صاحب سبتة لما بلغه الخطاب من السلطان في شأن الأساطيل البلاء الحسن، وقام فيه المقام المحمود، فهيأ خمسة وأربعين أسطولاً، واستنفر كافة أهل بلده من المحتلم إلى الشيخ، فركبوا البحر أجمعون، ولم يبق بسبتة إلَّا النساء والشيوخ والصبيان، ورأى ابن الأحمر ما نزل بأهل الجزيرة، وإشراف الطاغية على أخذها فندم على ممالأته إياه، وأعد أساطيل سواحله من المنكب والمرية ومالقة فكانت اثني عشر أسطولاً فبعثها مدداً للمسلمين، وقدم من بادس وسلا وآنفى خمسة عشر أسطولاً فنهض في الوقت اثنان وسبعون أسطولاً، واجتمعت كلها بمرفأ سبتة وقد أخذت بطرفي الزقاق في أحفل زي وأكمل استعداد، ثم تقدمت إلى طنجة ليراها الأمير يوسف فشاهدها وسر بها وعقد لهم رايته مع جماعة من أبطال بني مرين رغبوا في الجهاد.

ثم أقلعت الأساطيل عن طنجة ثامن ربيع الأول سنة ثمان وسبعين وستمائة وانتشرت قلوعهم في البحر فأجازوه وباتوا ليلة المولد الكريم بمرفأ جبل الفتح، وصبحوا العدو وأساطيله يومئذ تناهز أربعمائة فتظاهر المسلمون في دروعهم وأخلصوا لله عزائمهم، وتنادوا بالجنة وشعارها، ووعظ خطباؤهم وذكّر صلحاؤهم، والتحم القتال حتى نضحوا العدو بالنبل واختل مصافهم، وانكشفوا وتساقطوا في عباب البحر، فاستلحمهم السيف وغشيهم اليم واستولى المسلمون على أساطيلهم فملكوها وأسروا قائدها الملند في جماعة من حاشيته، وسر المسلمون الذين بداخل الجزيرة.

ولما رأى عسكر الطاغية الذي في البر ما أصاب أهل البحر منهم من القتل والأسر داخلهم الرعب وخافوا من هجوم الأمير يوسف عليهم إذ كان مقيماً بساحل طنجة مستعداً للعبور، فقوضوا أبنيتهم وأفرجوا عن البلد لحينهم، وانتشر المسلمون والنساء والصبيان بساحة البلد كأنما نشروا من قبر، وغلبت مقاتلتهم كثيراً من عسكر العدو على متاعهم فغنموا من الحنطة والإدام والفواكه ما ملأ أسواق البلد أياماً حتى

وصلتها الميرة من النواحي.

[١٨٨] وأجاز الأمير يوسف البحر من حينه فاحتل بساحل الجزيرة وأرهب العدو في كل ناحية، لكنه صده عن الغزو شأن الفتنة مع ابن الأحمر، فرأىٰ أن يعقد مع الطاغية سلمًا ويصل يده بيده لمنازلة غرناطة دار ابن الأحمر فأجابه الطاغية إلىٰ ذلك رهبة من بأسه وموجدة علىٰ ابن الأحمر في مدد أهل الجزيرة، وبعث أساقفته لعقد ذلك وإحكامه، فأجازهم الأمير يوسف إلىٰ أبيه وهو بناحية مراكش فغضب لها وأنكر علىٰ ابنه وزوىٰ عنه وجه رضاه، وأقسم أن لا يرىٰ أسقفًا منهم إلَّا أن يراه بأرضه وأرجعهم إلىٰ طاغيتهم مخفقي السعي كاسفي البال.

ثم إن السلطان يعقوب ـ رحمه الله ـ رجع إلىٰ فاس وبعث خطابه إلىٰ الآفاق مستنفرًا للجهاد، وفصل عنها غرة رجب من سنة ثمان وسبعين وستمائة حتىٰ انتهىٰ إلىٰ طنجة، وعاين ما اختل من أحوال المسلمين في تلك الفترة، وما جرت إليه فتنة ابن الأحمر من اعتزاز الطاغية، وما حدثته نفسه من التهام الجزيرة الأندلسية ومن فيها، وأشفق السلطان يعقوب ـ رحمه الله ـ علىٰ المسلمين الذين بها وعلىٰ ابن الأحمر مما ناله من خَسْف الطاغية فراسله في الموادعة واتفاق الكلمة علىٰ أن ينزل له عن مالقة التي خادع عنها ابن محلي كما تقدم، فامتنع ابن الأحمر وأساء الرد في ذلك، فرجع السلطان يعقوب إلىٰ إزالة العوائق عن شأنه في الجهاد.

الجواز الثالث للسلطان يعقوب إلى الأندلس

لما كان السلطان يعقوب رحمه الله بمراكش سنة إحدىٰ وثمانين وستمائة قدم عليه كتاب طاغية الإصبنيول واسمه هراندة مع وفد من بطارقته وزعماء دولته مستصرخًا له علىٰ ابنه سانجة الخارج عليه في طائفة من النصارىٰ وأنهم غلبوه علىٰ أمره زاعمين بأنه شاخ وضعف عن تدبيرهم، ولم يقدر علىٰ القيام بنصرتهم، فاستنصره عليهم ودعاه لحربهم وأمله لاسترجاع ملكه من يدهم فاغتنم السلطان يعقوب هٰذه الفرصة في الحال، وجعل جوابه نفس النهوض والارتحال، فسار معهم لم يعرج علىٰ شيء حتىٰ أتىٰ قصر المجاز وهو قصر مصمودة فعبر منه واحتل لوقته بالجزيرة الخضراء في ربيع الثاني من سنة إحدىٰ وثمانين المذكورة وأوعز الىٰ الناس بالنفير إلىٰ الجهاد.

[١٨٩] وذكر ابن خلدون وابن الخطيب وغيرهما من الأثبات: أن هـٰذا الطاغية لما اجتمع بالسلطان يعقوب قبّل يده إعظامًا لقدره، وخضوعًا لعزه، فدعا السلطان ـ رحمه الله ـ بماء فغسل يده من تلك القبلة بمحضر مَن كان هناك من جموع المسلمين.

ثم إن السلطان يعقوب ـ رحمه الله ـ تقدم مع الطاغية، ودخل دار الحرب غازيًا، فامتلأت أيدي المسلمين، وضاق معسكرهم بالغنائم التي استاقوها، فقفل السلطان من أجل ذلك إلىٰ الجزيرة فاحتل بها، وكانت غزوة لم يسمع الدهر بمثلها.

انعقاد الصلح بين السلطان يعقوب وابن الأحمر، والسبب في ذلك

لما اتصلت يد السلطان يعقوب ـ رحمه الله ـ بيد الطاغية وقام معه في ارتجاع ملكه خشي ابن الأحمر عاديته فجنح إلىٰ موالاة ابنه سانجة الخارج عليه ووصل يده بيده، وأكد له العقد واضطرمت الأندلس نارًا وفتنة بسبب هـٰذا الخلاف، ولما قفل السلطان يعقوب من غزوته مع الطاغية وقد ظهر علىٰ ابنه أجمع علىٰ منازلة مالقة التي استحوذ عليها ابن الأحمر وخدع عنها ابن محلي فنهض السلطان إليها من الجزيرة الخضراء فاتح سنة اثنتين وثمانين وستمائة فغلب أولاً علىٰ الحصون الغربية كلها ثم إلىٰ مالقة فأناخ عليها بعساكره وضاق علىٰ ابن الأحمر النطاق ولم تغن عنه موالاة سانجة شيئًا، وبدا له سوء المغبة في شأن مالقة، وندم علىٰ تناولها فأعمل نظره في الخلاص من ورطتها ولم ير لها إلّا الأمير يوسف ابن السلطان يعقوب فخاطبه بمكانه من المغرب مستصرخًا له لرقع هـٰذا الخرق ورتق هـٰذا الفتق، وجمع كلمة المسلمين علىٰ عدوهم، فأجابه واغتنم المثوبة في مسعاه وعبر البحر إلىٰ الأندلس سنة اثنتين وثمانين المذكورة فوافىٰ أباه بمعسكره علىٰ مالقة ورغب منه السلم لابن الأحمر في شأنها والتجافي له عنها فأسعف رغبة ابنه لما يؤمل في ذلك من رضىٰ الله ـ عز وجل ـ في جهاد عدوه وإعلاء كلمته، وانعقد السلم وانبسط أمل ابن الأحمر، وتجددت عزائم المسلمين للجهاد، وقفل السلطان يعقوب الىٰ الجزيرة الخضراء، فبث السرايا في دار الحرب فأوغلوا، وأثخنوا، ثم استأنف الغزو بنفسه إلىٰ طليطلة فخرج من الجزيرة غازيًا غرة ربيع الثاني من سنة اثنتين وثمانين المذكورة حتىٰ انتهىٰ إلىٰ قرطبة

فأثخن وغنم وخرب العمران وافتتح الحصون، ثم ارتحل نحو البرت وترك محلته على بياسة بالمغانم والأثقال وترك معها خمسة آلاف فارس يحمونها من كرة العدو ثم أغذّ السير في أرض قفرة ليلتين حتى انتهى إلى البرت من نواحي طليطلة فسرح الخيل في البسائط وجالت في أكنافها، ولم تنته إلى طليطلة لتثاقل الناس بكثرة الغنائم، وأثخن في القتل، وقفل على غير طريقه فأثخن وخرب.

وانتهى إلى أبدة فوقف بساحتها وقاتلها ساعة من نهار فرماه علج من خلف السور بسهم أصاب فرسه فارتحل عنها إلى معسكره ببياسة فأراح بها ثلاثًا ينسف آثارها ويقتلع أشجارها، وقفل إلى الجزيرة وبين يديه من السبي والغنائم ما يعجز عنه الوصف، فدخلها في شهر رجب من السنة المذكورة فقسم الغنائم ونفّل من الخمس، ثم عبر السلطان إلى المغرب فاتح شعبان فأراح بطنجة ثلاثًا ثم نهض إلى فاس فدخلها آخر شعبان.

ولما قضى صيامه ونسك عيده ارتحل إلى مراكش لتمهيدها وتفقد أحوالها، وقسم من نظره لنواحي سلا حظًا فأقام برباط الفتح شهرين اثنين.

ثم نهض السلطان يعقوب إلى مراكش فدخلها فاتح ثلاث وثمانين وستمائة وبلغه مهلك الطاغية هراندة بن أذفونش واجتماع النصرانية على ابنه سانجة الخارج عليه فحركت همته إلى الجهاد، ثم سرح ابنه الأمير يوسف ولي عهده بالعسكر إلى بلاد السوس لغزو العرب الذين بها وكفّ عاديتهم، ومحى آثار الخوارج المنتزين على الدولة فأجفلوا أمامه واتبع آثارهم إلى الساقية الحمراء آخر العمران من بلاد السوس فهلك أكثر العرب في تلك القفار جوعًا وعطشًا، وقفل راجعًا لما بلغه من اعتلال والده السلطان يعقوب فوصل إلى مراكش وقد أَبَلّ من مرضه وعزم على الجهاد شكرًا لله ـ تعالى ـ على نعمة العافية.

الجواز الرابع للسلطان يعقوب إلى الأندلس برسم الجهاد

لما اعتزم السلطان يعقوب على العبور إلى الأندلس عرض جنوده وحاشيته وأزاح عللهم، وبعث في قبائل المغرب بالنفير، ونهض من مراكش في جمادى الآخرة لثلاث وثمانين وستمائة، واحتل برباط الفتح منتصف شعبان فقضى به

صومه ونسكه ثم ارتحل إلى قصر المجاز، وشرع في إجازة العساكر والحشود من المرتزقة والمتطوعة خاتم سنته، ثم أجاز البحر بنفسه غرة صفر من سنة أربع وثمانين بعدها واحتل بظاهر طريف، ثم سار إلى الجزيرة الخضراء فأراح بها أيامًا، ثم خرج غازيًا.

فلا يخلو يوم من تجهيز عسكر أو إغزاء جيش أو عقد راية أو بعث سرية حتى انتسف العمران في جميع بلاد النصرانية.

فلما دمرها تدميراً، وأوسعها تخريبًا، ونسفها نسفًا، واكتسحها غارة ونهبًا، وهجم فصل الشتاء وانقطعت الميرة عن العسكر اعتزم السلطان على القفول لآخر جمادى الأولى من السنة المذكورة

[١٩٠] وفادة الطاغية على السلطان يعقوب بأحواز الجزيرة الخضراء وعقد الصلح بينهما والسبب في ذلك

قال ابن خلدون رحمه الله: «لما نزل ببلاد النصرانية من السلطان يعقوب ما نزل من تدمير قراهم، واكتساح أموالهم، وسبي نسائهم، وإبادة مقاتلتهم، وتخريب معاقلهم، وانتساف عمرانهم، زاغت منهم الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، واستيقنوا أن لا عاصم لهم من أمير المسلمين، فاجتمعوا إلى طاغيتهم سائجة خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة، متوجعين مما أذاقهم جنود الله من سوء العذاب، وأليم النكال، وحملوه على الضراعة لأمير المسلمين في السلم، وإيفاد الملأ من كبار النصرانية عليه في ذلك، وإلا فلا تزال تصيبهم منه قارعة أو تحل قريبًا من دارهم، فأجاب إلى ما دعوه إليه من الخسف والهضيمة لدينه، وأوفد على أمير المسلمين وهو بالجزيرة الخضراء وفدًا من بطارقتهم وشمامستهم يخطبون السلم، ويضرعون في المهادنة والإبقاء، ووضع أوزار الحرب، فردهم أمير المسلمين اعتزازًا عليهم.

ثم أعادهم الطاغية بترديد الرغبة على أن يشترط ما شاء من عز دينه وقومه فأسعفهم أمير المسلمين وجنح إلى السلم لما تيقن من صاغيتهم إليه وذلهم لعز الإسلام، وأجابهم إلى ما سألوه، واشترط عليهم ما تقبلوه من مسالمة المسلمين كافة من قومه وغير قومه، والوقوف عند مرضاته في ولاية جيرانه من الملوك، ورفع

الضريبة عن تجار المسلمين بدار الحرب من بلاده، وترك التضريب[1] بين ملوك المسلمين والدخول بينهم في فتنة، واستدعى السلطان الشيخ أبا محمد عبد الحق الترجمان وبعثه لاشتراط ذلك وإحكام عقده فسار عبد الحق إلى الطاغية سانجة وهو بإشبيلية فعقد معه الصلح، واستبلغ وأكد في الوفاء بهذه الشروط».

[١٩١] ووفدت رسل ابن الأحمر على الطاغية وهو عنده لعقد السلم معه على قومه وبلاده دون أمير المسلمين، وأن يكون معه يداً واحدة عليه[2] ، فأحضرهم الطاغية بمشهد عبد الحق وأسمعهم ما عقد مع أمير المسلمين على قومه وأهل ملته كافة، وقال لهم: إنما أنتم عبيد آبائي فلستم معي في مقام السلم والحرب[3] ، وهذا أمير المسلمين على الحقيقة ولست أطيق مقاومته ولا دفاعه عن نفسي فكيف عنكم، فانصرفوا.

ولما رأى عبد الحق ميله إلى رضا السلطان وسوس إليه بالوفادة عليه لتتمكن الألفة وتستحكم العقدة، وأراه مغبة ذلك في سل السخيمة وتسكين الحفيظة، فمال إلى موافقته، وسأله لقي الأمير يوسف ولي عهد السلطان أولاً ليطمئن قلبه، فوصل إليه ولقيه على فراسخ من شريش، وباتا بمعسكر المسلمين هنالك ثم ارتحلا من الغد للقاء السلطان يعقوب، وكان قد أمر الناس بالاحتفال للقاء الطاغية وقومه وإظهار شعائر الإسلام وأُبهته وأن لا يلبسوا إلَّا البياض، فاحتفلوا وتأهبوا وأظهروا عز الملة وشدة الشوكة ووفور الحامية.

وقدم الطاغية في جماعته سود اللباس، خاضعين ذليلين، فاجتمعوا بالأمير بحصن الصخرات على مقربة من وادي لك، وذلك يوم الأحد العشرين من شعبان سنة أربع وثمانين وستمائة، وتقدم الطاغية فلقيه أمير المسلمين بأحسن مبرة وأتم كرامة يلقى بها مثله من عظماء الملل، وقدم الطاغية بين يديه هدية من طرف بلاده أتحف بها السلطان وولي عهده كان فيها زوج من الخيول الوحشي المسمى بالفيل، وحمارة من حمر الوحش، إلى غير ذلك من الطرف فقبلها السلطان وابنه وأضعفوا

(١) قلت: أي التحريش.

(٢) قلت: إنا لله وإنا إليه راجعون.

(٣) قلت: انظروا كيف أذل الله الخونة من بني الأحمر.

له المكافأة، وكمل عقد السلم، وقبل الطاغية سائر الشروط، ورضي بعز الإسلام عليه، وانقلب إلى قومه بملء صدره من الرضى والمسرة.

[١٩٢] وسأل منه السلطان أن يبعث إليه بكتب العلم التي بأيدي النصارى منذ استيلائهم على مدن الإسلام، فبعث إليه منها ثلاثة عشر حملاً فيها جملة من مصاحف القرآن الكريم وتفاسيره كابن عطية والثعلبي، ومن كتب الحديث وشروحاتها كالتهذيب والاستذكار، ومن كتب الأصول والفروع واللغة والعربية والأدب وغير ذلك، فأمر السلطان ـ رحمه الله ـ بحملها إلى فاس، وتحبيسها على المدرسة التي أسسها بها لطلبة العلم.

وقفل السلطان فاحتل بقصره من الجزيرة لليلتين بقيتا من شعبان فقضى صومه ونسك عيده، وجعل من قيام ليله جزءاً لمحاضرة أهل العلم، وأعد الشعراء كلمات أنشدوها يوم عيد الفطر بمشهد الملأ في مجلس السلطان.

ثم أعمل السلطان نظره في الثغور، وأجاز ابنه الأمير يوسف إلى المغرب لتفقد أحواله ومباشرة أموره.

وفاة السلطان يعقوب بن عبد الحق، رحمه الله

وفي آخر ذي القعدة من سنة أربع وثمانين وستمائة مرض السلطان يعقوب بن عبد الحق مرضه الذي توفي منه، فلم يزل ألمه يشتد وحاله يضعف إلى أن توفي بقصره من الجزيرة الخضراء من أرض الأندلس، في ضحى يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من المحرم، فاتح سنة خمس وثمانين وستمائة وحمل إلى رباط الفتح من بلاد العدوة فدفن بمسجد شالة، وقبره اليوم طامس الأعلام، رحمه الله.

[١٩٣] بقية أخبار السلطان يعقوب بن عبد الحق وسيرته

كان السلطان يعقوب ـ رحمه الله ـ أبيض اللون، تام القد، معتدل الجسم، حسن الوجه، واسع المنكبين، كامل اللحية معتدلها، أشيب نقي البياض، حليمًا، متواضعًا، جوادًا، مظفرًا، منصور الراية ميمون النقيبة، لم يقصد جيشًا إلَّا هزمه ولا عدوًا إلَّا قهره، ولا بلدًا إلَّا فتحه، صوامًا قوامًا، دائم الذكر، كثير البر، لا تزال سبحته في يده، مقربًا للعلماء، مكرمًا للصلحاء، صادرًا في أكثر أموره عن رأيهم.

ولما استقام له الأمر بنى المرستانات للمرضى والمجانين، ورتب لهم الأطباء لتفقد أحوالهم، وأجرى على الكل المرتبات والنفقات من بيت المال، وكذا فعل بالجذامى والعمي والفقراء رتب لهم مالاً معلومًا يقبضونه في كل شهر من جزية اليهود، وبنى المدارس لطلبة العلم ووقف عليها الأوقاف وأجرى عليهم بها المرتبات، كل ذلك ابتغاء ثواب الله ـ تعالى ـ نفعه الله بقصده.

الخبر عن دولة السلطان الناصر لدين الله يوسف بن يعقوب بن عبد الحق رحمه الله تعالى

لما مرض السلطان يعقوب بقصره من الجزيرة الخضراء مَرّضه نساؤه، وطيرن بالخبر إلى ولي عهده الأمير يوسف، وكان يومئذ بالمغرب فاتصل به الخبر وهو بأحواز فاس فأسرع السير إلى طنجة وقد مات أبوه قبل وصوله، فأخذ البيعة له الوزراء والأشياخ، ولما عبر إليهم البحر واحتل بالجزيرة جددوا له البيعة غرة صفر سنة خمس وثمانين وستمائة وأخذوها له على الكافة فاستتب ملكه واستقام أمره، ففرق الأموال وأجزل الصلات وسرح السجون ورفع عن الناس الأخذ بزكاة الفطر ووكلهم فيها إلى أمانتهم، وكف أيدي الظلمة والعمال عن الناس، وأزال المكوس، وصرف اعتناءه إلى إصلاح السابلة فخضعت مرين تحت قهره، وصلح أمر الناس في أيامه.

[١٩٤] وكان أول شيء أحدث من أمره أن بعث إلى ابن الأحمر وضرب له موعدًا للاجتماع به فبادر إليه ولقيه في العشر الأول من ربيع الأول من السنة المذكورة فلقاه السلطان مبرة وتكريمًا، وتجافى له عن جميع الثغور الأندلسية ونزل له عنها ما عدى الجزيرة ورندة وطريف، وتفرقا من مكانهما على أكمل حالات المصافاة والوصلة، ورجع السلطان يوسف إلى الجزيرة فقدم عليه بها وفد الطاغية سانجة مجددين عقد السلم الذي عقده لهم السلطان يعقوب، رحمه الله.

ولما تمهد للسلطان يوسف أمر الأندلس عبر البحر إلى المغرب ثم سار إلى حضرة فاس فدخلها.

انتقاض الطاغية سانجة وإجازة السلطان يوسف إليه

وافى السلطان الخبر وهو بتازا أن الطاغية سانحة قد انتقض ونبذ العهد، وتجاوز التخوم وأغار على الثغور.

[١٩٥] ثم فصل السلطان يوسف من تازا غازيًا إثره في جمادى الأولى من سنة ٦٩٣ واحتل قصر مصمودة وهو قصر المجاز، واستنفر أهل المغرب وقبائله فنفروا وشرع في إجازتهم البحر، فبعث الطاغية أساطيله إلى الزقاق حجزًا لهم دون الإجازة، فأوعز السلطان يوسف إلى قواد أساطيله بالسواحل بعمارتها لمقابلة أساطيل العدو ففعلوا، وقدمت فالتقت مع أساطيل العدو ببحر الزقاق في شعبان من السنة فاقتتلوا وانكشف المسلمون ومحصهم الله وقتل قواد الأساطيل، فأمر السلطان يوسف باستئناف العمارة، ثم أغزاهم ثانية فخامت أساطيل العدو عن اللقاء، وصاعدوا عن الزقاق، فملكته أساطيل السلطان، فأجاز أخريات رمضان من السنة واحتل بطريف

ثم دخل دار الحرب غازيًا إلى أن بلغ في النكاية والإثخان غرضه، وقضى من الجهاد وطره، وهجم عليه فصل الشتاء وانقطعت الميرة عن العسكر فأفرج عن الحصن، ورجع إلى الجزيرة الخضراء، ثم عبر إلى المغرب فاتح سنة إحدى وتسعين وستمائة، فتظاهر ابن الأحمر (١) والطاغية على منعه من الجواز مرة أخرى.

[١٩٦] حدوث الفتنة بين السلطان يوسف وابن الأحمر واستيلاء الطاغية على طريف بمظاهرة ابن الأحمر له عليها

لما قفل السلطان يوسف من الأندلس وقد أبلغ في نكاية العدو عظم على الطاغية أمره، وثقلت عليه وطأته، فشرع في أعمال الحيلة في الإفساد بينه وبين ابن الأحمر، وكان ابن الأحمر يتخوف من السلطان يوسف أن يغلبه على بلاده، فخلص مع الطاغية نجيًا، وتفاوضا في أمر السلطان يوسف وأن تمكنه من الإجازة إليهم إنما هو

---

(١) قلت: إلى كم يخون هذا الرجل، أعوذ بالله.

لقرب مسافة بحر الزقاق وتصرف شوانيهم وسفنهم فيه متى أرادوا فضلاً عن الأساطيل الجهادية، وأن أم تلك الثغور هي طريف، وأنهم إذا استمكنوا منها منعوا السلطان من العبور وكانت عيناً لهم على الزقاق، وكان أسطولهم بمرفئها رصداً لأساطيل صاحب المغرب الخائضة لجة ذلك البحر، فاعتزم الطاغية على منازلة طريف وبها يومئذ مسلحة بني مرين وتكفل له ابن الأحمر بمظاهرته على ذلك، والتزم له بالمدد والميرة للعسكر أيام منازلتها على أن تكون له إن خلصت للطاغية، وتعاهدوا على ذلك، وأناخ الطاغية بعساكر النصرانية على طريف، وألح عليها بالقتال ونصب الآلات من المجانيق وأحاط بها براً وبحراً، وانقطع المدد والميرة عن أهلها، وحالت أساطيل العدو بينهم وبين صريخ السلطان، واضطرب ابن الأحمر معسكره بمالقة قريباً من عسكر الطاغية، وسرب إليه المدد من الرجال والسلاح والميرة وأصناف الأقوات، واتصلت هذه الحال أربعة أشهر حتى أصاب أهل طريف الجهد ونال منهم الحصار فراسلوا الطاغية في الصلح والنزول عن البلد، فصالحهم واستنزلهم وتملكها آخر يوم من شوال سنة إحدى وتسعين وستمائة، ووفى لهم بما عاهدهم عليه، واستشرف ابن الأحمر إلى تجافي الطاغية له عنها حسبما تعاهدا عليه فأعرض عن ذلك واستأثر بها بعد أن كان نزل له عن ستة من الحصون عوضاً عنها فخرج من يده الجميع ولم يحصل على طائل [1].

[١٩٧] انعقاد الصلح بين السلطان يوسف وابن الأحمر ووفادته عليه بطنجة

لما استولى الطاغية على طريف بمظاهرة ابن الأحمر له عليها، ونقض الطاغية عهد ابن الأحمر في النزول له عنها سُقط في يد ابن الأحمر، وندم على فعله، ورجع إلى التمسك بالسلطان يوسف، فأوفد عليه ابن عمه ووزيره في وفد من أهل حضرته لتجديد العهد وتأكيد المودة وتقرير المعذرة عن شأن طريف، فأبرموا العقد وأحكموا الصلح وانصرفوا إلى ابن الأحمر سنة اثنتين وتسعين وستمائة بإسعاف غرضه من المؤاخاة واتصال اليد، فوقع ذلك منه أجمل موقع وطار سروراً من

---

(١) قلت: هذا جزاء الخونة الممالئين لأعداء الدين.

أعواده، وأجمع الرحلة إلى السلطان لإحكام العقد والاستبلاغ في العذر عن واقعة طريف والرغبة إليه في نصره بلاد الأندلس وإغاثة المسلمين الذين بها، فتهيأ لذلك وعبر البحر في ذي القعدة من سنة اثنتين وتسعين وستمائة ثم ارتحل إلى طنجة.

ولما علم السلطان يوسف بقدومه خرج من فاس للقائه وبرور مقدمه فوافاه بطنجة، فقدم ابن الأحمر بين يدي نجواه هدية أتحف بها السلطان يوسف كان من أحسنها موقعًا لديه المصحف الكبير الذي يقال إنه مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ كان بنو أمية يتوارثونه بقرطبة ثم خلص إلى ابن الأحمر فأتحف به السلطان يوسف في هذه المرة، فقبل السلطان ذلك وكافأه بأضعافه وبالغ في تكرمته، وأسعفه بجميع مطالبه، وأراد ابن الأحمر أن يبسط العذر عن شأن طريف فتجافى السلطان يوسف عن سماع ذلك، وأضرب عن ذكره صفحًا، وبر وأحفى ووصل وأجزل، وعاد ابن الأحمر إلى أندلسه آخر سنة اثنتين وتسعين وستمائة محبوًا محبورًا، وعبرت معه عساكر السلطان يوسف لحصار طريف ومنازلته، وعقد على حربها لوزيره الشهير الذكر عمر بن السعود بن خرباش الحشمي فنازلها مدة فامتنعت عليه وأفرج عنها.

انتقاض ابن الأحمر واستيلاء الرئيس أبي سعيد على سبتة

كان محمد بن الأحمر المعروف بالفقيه قد هلك سنة إحدى وسبعمائة، وولي الأمر بعده ابنه محمد المعروف بالمخلوع، واستبد عليه كاتبه أبو عبد الله محمد بن الحكيم الرندي، وكان من أول ما فعله محمد المخلوع بعد استقلاله بالأمر المبادرة إلى أحكام عقد الموالاة بينه وبين السلطان يوسف فأوفد عليه وزير أبيه ووزيره فوصلا إلى السلطان يوسف فتلقاهما بالقبول والمبرة، وجددت لهما أحكام الود والولاية، وانقلبا إلى مرساهما خير منقلب، وطلب السلطان منهما أن يمدوه بالرجل من عسكر الأندلس المعودين منازلة الحصون والمثاغرة بالرباط فأسعفوه.

[١٩٨] ثم فسد ما بينهما لمنافسات جَرّت إلى ذلك فانتقض ابن الأحمر وعاد لسنة سلفه من موالاة الطاغية وممالأته على المسلمين أهل المغرب، وأحكم العهد مع هراندة بن سانجة من بني أذفونش ملوك قشتالة خذلهم الله.

ثم أوعز ابن الأحمر إلى ابن عمه الرئيس أبي سعيد فرج بن إسماعيل صاحب

مالقة في إعمال الحيلة في الغدر بأهل سبتة ففعل، وداخل في ذلك بعض عمال بني العزفي بها فأمكنه من البلد، فاقتحمها بأساطيله وجنده على حين غفلة من أهلها، وتقبض على بني العزفي وعلى حاشيتهم وأركبهم الأسطول وبعث بهم إلى مالقة ثم منها إلى غرناطة، فتلقاهم ابن الأحمر واحتفل لهم وأنزلهم بقصوره، وأجرى عليهم النفقة واستقروا بالأندلس برهة من الدهر ثم عادوا إلى المغرب.

وفاة السلطان يوسف رحمه الله

كان السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق - رحمه الله - قد اتخذ في جملة حاشيته ومماليكه خصيًا اسمه سعادة، وكان السلطان يوسف في ابتداء أمره يخلط الخصيان بأهله ولا يحجبهم عن حرمه وعياله، ثم حدثت للسلطان ريبة في بعض الخصيان فأعتقل جملة منهم كان فيهم عنبر الكبير عريفهم، وحجب سائرهم، فارتاعوا لذلك وفسدت نياتهم، فسولت لهذا الخصي الخبيث نفسه الشيطانية الفتك بالسلطان فعمد إليه وهو في بعض حجر قصره فاستأذن عليه فأذن له فألفاه مستلقيًا على فراشه مختضبًا بحناء، فوثب عليه وطعنه طعنات قطع بها أمعاءه وخرج هاربًا، وانطلق بعض الأولياء في أثره فأدركه من العشي فقبض عليه وجيء به إلى القصر فقتلته العبيد والحاشية، وصابر السلطان يوسف منيته إلى آخر النهار، ثم قضى رحمه الله يوم الأربعاء سابع ذي القعدة من سنة ست وسبعمائة.

[١٩٩] وبموت السلطان يوسف انقضت مدة الحصار عن أهل تلمسان، وكانت المدة في ذلك مائة شهر نالهم فيها من الجهد والشدة ما لم ينل أمة من الأمم، واضطروا إلى أكل الجيف والقطوط والفيران، حتى أنهم أكلوا فيها أشلاء الموتى من الناس وخربوا السقوف للوقود، وغلت أسعار الأقوات والحبوب وسائر المرافق بما تجاوز حد العادة فكان ثمن مكيال القمح ومقداره اثنا عشر رطلاً ونصف مثقالين ونصفًا من الذهب العين، وثمن الشخص الواحد من البقر ستين مثقالاً، ومن الضأن سبعة مثاقيل ونصفًا، وأثمان اللحم من الجيف: الرطل من لحم البغال والحمير بثمن المثقال، ومن الخيل بعشر المثقال، والرطل من الجلد البقري ميتة أو مذكى بثلاثين درهمًا، والهر بمثقال ونصف، والكلب بمثله والفأر بعشرة دراهم، والحية بمثل ذلك، والدجاجة بثلاثين درهمًا، والبيض واحدة بستة دراهم، والعصافير كذلك،

والأوقية من الزيت باثني عشر درهمًا، ومن السمن بمثلها، ومن الشحم بعشرين درهمًا، ومن الملح بعشرة دراهم، ومن الحطب كذلك، والأصل الواحد من الكرنب بثلاثة أثمان المثقال، ومن الخس بعشرين درهمًا، ومن اللفت بخمسة عشر درهمًا، والواحدة من القثاء والفقوس بأربعين درهمًا، والخيار بثلاثة أثمان الدينار، والبطيخ بثلاثين درهمًا، والحبة من التين والإجاص بدرهمين، واستهلك الناس أموالهم وموجودهم، وضاقت أحوالهم، وهلكت حاميتهم، فاعتزموا على الإلقاء باليد والخروج للاستماتة فهيأ الله لهم الصنع الغريب ونَفّس عن مخنقهم بمهلك السلطان يوسف على يد الخصي المريب، وأذهب الله العناء عن آل زيان وقومهم، وخرجوا كأنما نشروا من القبور وكتبوا بعد هذه الحادثة في سكنهم: «ما أقرب فرج الله» استغرابًا لها [1].

قال ابن خلدون: جلس السلطان أبو زيان بن عثمان بن يغمراسن صبيحة يوم الفرج وهو يوم الأربعاء سابع ذي القعدة في زاوية من زوايا قصره يفكر، واستدعى ابن جحاف خازن الزرع فسأله: كم بقي من الأهراء والمطامير المختومة [2] فقال له: إنما بقي عولة اليوم وغد، فاستوصاه بكتمان ذلك وبينما هم يتذاكرون في ذلك دخل عليهم أخوه أبو حموا فأخبروه بذلك فوجم وجلسوا سكوتًا لا ينطقون، وإذا بدعد قهرمانة القصر - وكانت وصيفة من وصائف بنت السلطان أبي إسحاق حظية أبيهم - قد خرجت من القصر إليهم وحيتهم وقالت لهم: تقول لكم حظايا قصركم وبنات زيان حرمكم: ما لنا وللبقاء وقد أحيط بكم، وأسف عدوكم لالتهامكم، ولم يبق إلَّا فُواق ناقة لمصارعكم، فأريحونا من معرة السبي وقربونا إلى مصارعنا، وأريحوا أنفسكم فينا فالحياة في الذل عذاب، والوجود بعدكم عدم.

فالتفت أبو حمو إلى أخيه أبي زيان وكان من الشفقة بمكان فقال: قد صدقتك الخبر فما تنتظر بهن.

فقال: يا موسى أرجئني ثلاثًا لعل الله يجعل بعد عسر يسرًا، ولا تشاورني

---

(١) قال المحقق: ذكر صاحب «بغية الرواة» أنه بلغ في هذا الحصار عدد موتى أهل تلمسان قتلاً وجوعًا زهاء مائة ألف وعشرين ألفًا.
قلت: ما أقبح القتال على الملك، وكيف يهلك المسلمون بسببه.

(٢) قلت: أي التي يوضع فيها الحبوب.

بعدها فيهن، بل سرح اليهود والنصارىٰ إلىٰ قتلهن، وتعال إلي نخرج مع قومنا إلىٰ عدونا فنستميت، ويقضي الله ما شاء

فغضب أبو حموا وأنكر عليه التأخير في ذلك وقال: إنما نحن والله نتربص المعرة بهن وبأنفسنا، وقام عنه مغضباً.

وجهش السلطان أبو زيان بالبكاء قال ابن جحاف: وأنا بمكاني بين يديه لا أملك متأخراً ولا متقدمًا إلىٰ أن غلب عليه النوم، فما راعني إلَّا حرسي بالباب يشير إلي أن أعْلِم السلطان بمكان رسول جاء من محلة بني مرين، وها هو بسدة القصر.

قال ابن جحاف: فلم أطق رد جوابه إلَّا بالإشارة وانتبه السلطان من همسنا فزعًا، فأعلمته فاستدعاه للحين، فلما وقف بين يديه قال: إن السلطان يوسف بن يعقوب هلك الساعة وأنا رسول حافده [1] أبي ثابت إليكم.

فاستبشر السلطان أبو زيان، واستدعىٰ أخاه وقومه حتىٰ بلغ الرسول المذكور رسالته بمسمع منهم، فكانت إحدىٰ المغربات في الأيام، وكان من خبر هٰذه الرسالة أن السلطان يوسف لما هلك تطاول للأمر بعده القرابة من إخوته وولده وحفدته، وتحيز حافده أبو ثابت إلىٰ بني ورتاجن لخؤولة كانت له فيهم وبعث إلىٰ بني زيان أن يعطوه آلة الحرب ويكونوا مفزعًا له إن أخفق مسعاه، علىٰ أنه إن تم أمره قوض عنهم معسكر بني مرين وأفرج عنهم، فعاقدوه علىٰ ذلك، فوفىٰ لهم لما تم أمره ونزل لهم عن جميع الأعمال التي كان السلطان يوسف غلب عليها من بلادهم، ورحلوا إلىٰ مغربهم، والله غالب علىٰ أمره.

الخبر عن دولة السلطان أبي ثابت

عامر بن عبد الله بن يوسف بن يعقوب بن عبد الحق رحمه الله

لما هلك السلطان يوسف ـ رحمه الله ـ كان حافده أبو ثابت هٰذا في جملته، وكان له في بني ورتاجن من أهل تلك البلاد خؤلة فلحق بهم ودعا لنفسه فبايعوه وقاموا معه في أمره، وبايعه معهم أشياخ بني مرين والعرب بظاهر المنصورة يوم الخميس ثاني يوم وفاة جده يوسف، وبادر الحاشية والوزراء ومن شايعهم بداخل

---

(١) قلت: أي حفيده.

المنصورة إلىٰ بيعة الأمير أبي سالم بن السلطان يوسف وكاد أمر بني مرين يفسد، وكلمتهم تتفرق، فبعث السلطان أبو ثابت لحينه ـ وكان شهمًا مقدامًا ـ إلىٰ صاحبي تلمسان أبي زيان وأبي حمو ابني عثمان بن يغمراسن فعقد لهما عهدا علىٰ أن يرحل عنهم بجموعه وأن يمدوه بالآلة ويرفعوا له كسر بيتهم ويضموه إليهم إن خاب أمله ولم يتم له أمر فأجابوه إلىٰ ذلك، وتفرغ السلطان أبو ثابت لشأنه وجمع كلمة قومه واختل أمر أبي سالم فلم يتم، وقتل السلطان أبو ثابت عمه أبا سالم بن يوسف ثم أتبعه بعم أبيه أبي بكر بن يعقوب في آخرين من القرابة وغيرهم ممن يتوقع منه الشر، وفر بقية القرابة خشية علىٰ أنفسهم من سطوة أبي ثابت.

بناء مدينة تطاوين[1]

أمر السلطان باختطاط مدينة تطاوين لنزول عسكره ولما شرع السلطان أبو ثابت في بناء مدينة تطاوين قام هو بقصبة طنجة، وفي أثناء ذلك مرض مرض موته وتوفي يوم الأحد الثامن من شهر صفر سنة ثمان وسبعمائة ودفن بظاهر طنجة.

الخبر عن دولة السلطان أبي الربيع سليمان بن أبي عامر عبد الله بن يوسف بن يعقوب بن عبد الحق رحمه الله

لما هلك السلطان أبو ثابت تصدىٰ للقيام بالأمر عمه علي بن يوسف المعروف بابن زريقاء وهي أمه، وخلص الملأ من بني مرين أهل الحل والعقد إلىٰ أبي الربيع المذكور أخي أبي ثابت فبايعوه واستتب أمره فتقبض علىٰ عمه علي بن زريقاء وسجنه بطنجة فبقي مسجونًا بها إلىٰ أن هلك سنة عشر وسبعمائة، وبث السلطان أبو الربيع العطاء في الناس وأجزل الصلات فأرضىٰ الخاصة والعامة وصفا له الأمر.

[٢٠٠] نكبة الفقيه الكاتب أبي محمد عبد الله بن أبي مدين واستئصال بني وقاصة اليهوديين بعد ذلك

كان الفقيه الكاتب أبو محمد عبد الله بن أبي مدين شعيب بن مخلوف من بني أبي عثمان إحدىٰ قبائل كتامة المجاورين للقصر الكبير، وكان بيته بيت العلم والدين، واتصلوا بخدمة بني مرين أيام دخولهم المغرب واستيلائهم عليه، وكان أبو

(١) قلت: اسمها تطوان اليوم.

محمد هـٰذا من خاصة السلطان يوسف بن يعقوب، وجعل بيده وضع العلامة على الرسائل، وفوض إليه في حسبان الخراج والضرب على أيدي العمال، وتنفيذ الأوامر بالقبض والبسط فيهم، واستخلصه لمناجاته والإفضاء إليه بسره.

ولما هلك السلطان يوسف وولي بعده السلطان أبو ثابت ضاعف رتبة هـٰذا الرجل، وشفع لديه حظه ومنصبه ورفع على الأقدار قدره.

ثم ولي بعده أخوه أبو الربيع فسلك فيه مذهب سلفه، واضطلع أبو محمد بن أبي مدين بأمور دولته، وكان بنو وقاصة اليهود حين نكبوا أيام السلطان يوسف يرون أن نكبتهم كانت بسعاية أبي محمد فيهم، وكان خليفة الأصغر منهم قد أفلت من تلك النكبة.

فلما أفضى الأمر إلى السلطان أبي الربيع استعمل خليفة هـٰذا بداره في بعض المهن فباشر الأمور وترقى فيها حتى اتصل بالسلطان، فجعل غاية قصده السعاية بأبي محمد بن أبي مدين، وكان يؤثر عن السلطان أبي الربيع أنه يختلي مع حُرَم حاشيته، وتعرف خليفة ذلك من مقالات الناس فدس إلى السلطان بأن ابن أبي مدين يعرض باتهامك في ابنته، وأن صدره قد وغر لذلك، وأنه مترصد بالدولة ومتربص بها الدوائر، فتمكنت سعايته من السلطان وظن أنه صادق وكان يخشى غائلة ابن أبي مدين بما كان له من الوجاهة في الدولة ومداخلة القبيل فاستعجل السلطان أبو الربيع دفع غائلته ودس إلى قائد جند الفرنج (١) بقتله، فسار إليه ولقيه بمقبرة الشيخ أبي بكر بن العربي فرصده وأتاه من خلفه فطعنه طعنة كبته على ذقنه، واحتز رأسه وألقاه بين يدي السلطان أبي الربيع، ودخل الوزير سليمان بن يرزيكن فوجد الرأس بين يديه فذهبت نفسه عليه وعلى مكانه من الدولة حسرة وأسفًا، وأيقظ السلطان لمكر اليهودي، وأطلعه على خبثه، وأخرج له براءة كان بعث بها ابن أبي مدين معه إلى السلطان يتنصل فيها ويحلف على كذب ما رُمي به عنده، فتنبه السلطان لمكر اليهودي وعلم أنه قد خدعه وندم حيث لم ينفعه الندم، وفتك لحينه بخليفة بن وقاصة وحاشيته من اليهود المتصدين للخدمة، وسطا بهم سطوة الهلكة فأصبحوا مثلاً للآخرين.

---

(١) قلت: وذلك لأنهم - ويا لشدة الأسف - استعملوا جنودًا من الفرنجة يستنصرون بهم على المسلمين!!

[٢٠١] انتقاض الوزير عبد الرحمن بن يعقوب الوطاسي على السلطان أبي الربيع ومبايعته لعبد الحق بن عثمان والسبب في ذلك

لما انعقد الصلح بين السلطان أبي الربيع وابن الأحمر، وحصلت المصاهرة بينهما والمودة كانت رسل ابن الأحمر لا تزال تتردد إلىٰ حضرة السلطان بفاس فقدم منهم ذات يوم بعض المنهمكين في اللهو المدمنين للشرب فكشف صفحة وجهه في معاقرة الخمر وتجاهر بذلك بين الناس، وكان السلطان أبو الربيع قد عزل قاضي فاس أبا غالب المغيلي وولىٰ القضاء مكانه الشيخ الفقيه أبا الحسن الزرويلي المعروف بالصغير صاحب التقييد علىٰ المدونة، وكان ـ رحمه الله ـ قد شدد علىٰ أهل الفسوق والمناكر، فسيق إليه ذات يوم هـٰذا الأندلسي وهو سكران فأمر العدول فاستروحوه واشتموا منه رائحة الخمر وأدوا شهادتهم علىٰ ذلك، فأمضىٰ القاضي حكم الله فيه وجلده الحد، فاضطرم الأندلسي غيظًا، وتعرض للوزير عبد الرحمـٰن بن يعقوب الوطاسي فكشف له عن ظهره يريه أثر السياط، وينعي عليه سوء هـٰذا الفعل مع رسل الدول، فضجر الوزير من ذلك وأخذته العزة بالإثم ولعله كان في قلبه شيء علىٰ القاضي فأمر بإحضاره علىٰ أسوأ الحالات، وعزم علىٰ البطش به فتبادروا إليه، واعتصم القاضي بالمسجد الجامع ونادىٰ في المسلمين، فثارت العامة بهم، ومرج أمر الناس وقامت الفتنة علىٰ ساق، واتصل الخبر بالسلطان فتلافىٰ الأمر، وأحضر أصحاب الوزير فضرب أعناقهم وشرد بهم من خلفهم، جزاه الله خيراً، فأسرها الوزير في نفسه وداخل الحسن بن علي بن أبي الطلاق من بني عسكر بن محمد وكان من شيوخ بني مرين وأهل الشورىٰ فيهم، وداخل قائد الفرنج غنصالوا المنفرد برياسة العسكر وشوكة الجند، وكان لهـٰؤلاء الفرنج بالوزير اختصاص بحيث آثروه علىٰ السلطان، فدعاهم لخلع طاعة السلطان أبي الربيع وبيعة عبد الحق بن عثمان بن محمد ابن عبد الحق كبير القرابة فأجابوه وبايعوا له وتم أمرهم، ولما كان يوم السبت الثالث والعشرون من ربيع الآخر من سنة عشر وسبعمائة فر الوزير المذكور وقائده الفرنجي ومن شايعهم علىٰ رأيهم فخرجوا إلىٰ ظاهر البلد الجديدة وجاهروا بالخلعان، وأقاموا الآلة والرسم، وبايعوا سلطانهم عبد الحق علىٰ عيون الملأ، ثم

ساروا إلى ناحية تازا ولما استقروا برباطها أخذوا في جمع الجيوش ومكاتبة الخاصة من بني مرين والعرب يدعونهم إلى بيعة سلطانهم والمشايعة لهم على رأيهم، وأوفدوا على أبي حمو موسى بن عثمان بن يغمراسن صاحب تلمسان يدعونه إلى المظاهرة على أمرهم واتصال اليد والمدد بالعسكر والمال، فتوقف أبو حمو ولم يقدم ولم يحجم وبقي ينتظر عماذا ينجلي أمرهم، واتصل خبر ذلك كله بالسلطان أبي الربيع فنهض إليهم في جيش كثيف من بني مرين، وسار هو في ساقتهم، واتصل خبر خروجه بعبد الحق بن عثمان ووزيره فانكشفوا عن تازا ولحقوا بتلمسان، وكانوا يظنون أن السلطان لايخرج إليهم، وحمد أبو حمو عاقبة توقفه عن نصرهم ويئسوا هم من صريخه إياهم، ولما ضاقت عليهم الأرض بما رحبت أجاز عبد الحق بن عثمان ووزيره إلى الأندلس.

ولما احتل السلطان أبو الربيع بتازا حسم الداء ومحا أثر الشقاق، وأثخن في حاشية الخوارج وشيعتهم بالقتل والسبي، ثم اعتل أيامًا أثناء ذلك فتوفي بتازا بين العشاءين ليلة الأربعاء منسلخ جمادى الأخيرة من سنة عشر وسبعمائة ودفن من ليلته تلك.

الخبر عن دولة السلطان
أبي سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق رحمه الله

لما هلك السلطان أبو الربيع بتازا تطاول للأمر عمه أبو سعيد الأصغر وهو عثمان بن السلطان يوسف فلم يحصل على شيء.

واجتمع الوزراء والمشيخة بالقصر بعد هدأة من الليل وتفاوضوا في أمرهم حتى وقع اختيارهم على أبي سعيد الأكبر وهو عثمان ابن السلطان يعقوب بن عبد الحق فاستدعوه فحضر، فبايعوه ليلتئذ وتم أمره.

[٢٠٢] وفادة أهل الأندلس على السلطان أبي سعيد واستصراخهم إياه على الطاغية وما نشأ عن ذلك

كان الملوك من بني مرين قد انقطع غزوهم عن الأندلس برهة من الدهر منذ دولة السلطان يوسف بن يعقوب لاشتغاله في آخر أمره بحصار تلمسان واشتغال حفدته

من بعده بأمر المغرب مع قصر مدتهم، فتطاول العدو وراء البحر على المسلمين بسبب هذه الفترة واشتد على ثغورها.

ولما أفضى الأمر الى السلطان أبي سعيد اهتبل الطاغية الغِرّة في الأندلس وزحف في جموعه إلى غرناطة سنة ثمان عشرة وسبعمائة، وكان من خبر هذه الوقعة أن الطاغية بطرة بن سانجة ويقال دون بطرة ذهب إلى طليطلة ودخل على مرجعهم الذي يقال له البابا وسجد له وتضرع بين يديه وطلب منه استئصال ما بقي من المسلمين بأرض الأندلس، وأكد عزمه وتأهب لذلك غاية الأهبة، فوصلت أثقاله ومجانيقه وآلات الحصار والأقوات في المراكب، وتقدم في جموعه حتى نزل بأحواز غرناطة، وكان رديفه في ذلك الجند علجًا آخر يقال له جوان، وانضم إليهم ملوك آخرون من ملوك الأطراف قيل سبعة وقيل أكثر وامتلأت الأرض بهم وعزموا على استئصال بقية المسلمين بالأندلس، وكان جيشهم فيما قيل يشتمل على خمسة وثلاثين ألفًا من الفرسان وعلى نحو مائة ألف من الرجالة المقاتلة.

[٢٠٣] ولما رأى أهل الأندلس ذلك بعثوا صريخهم إلى السلطان أبي سعيد فقدم عليه وفدهم بحضرته من فاس، وفيهم من وجوه الأندلس وصلحائها فاعتذر إليهم السلطان أبو سعيد بمكان عثمان بن أبي العلاء من دولتهم ومحله من دار ملكهم [١]، وكان عثمان بن أبي العلاء يتولى يومئذ مشيخة الغزاة بالأندلس، لأن وفاته تأخرت إلى سنة ثلاثين وسبعمائة فشرط عليهم السلطان أبو سعيد أن يمكنوه منه ليتأتى له العبور إلى تلك البلاد وجهاد العدو بها من غير تشويش، وقال: ادفعوه إلينا برمته حتى يتم أمر الجهاد ثم نرده عليكم حياطة على المسلمين وخشية من تفريق كلمتهم، فاستصعب أهل الأندلس هذا الشرط لما يعلمونه من صرامة عثمان بن أبي العلاء وإدلاله ببأسه وبأس عشيرته فأخفق سعيهم ورجعوا منكسرين، وأطالت الفرنج المقام على غرناطة وطمعوا في التهامها [٢].

ثم إن الله ـ تعالى ـ نَفّس عن مخنقهم، ودافع بقدرته عنهم، وهيأ لعثمان بن أبي العلاء في الفرنج واقعة كانت من أغرب الوقائع، وذلك أنه لما كان يوم المهرجان وهو

---

(١) قلت: هو أحد الخارجين على بني مرين، فلما يئس من انتصاره عليهم خرج إلى الأندلس للجهاد.

(٢) قلت: وهذا عذر بارد، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

الخامس من جمادىٰ الأولىٰ من سنة تسع عشرة وسبعمائة عمد عثمان بن أبي العلاء إلىٰ جماعة جنده، واختار من أنجاد بني مرين منهم نحو المائتين، وقيل أكثر، وتقدم بهم نحو جيش الفرنج فظن النصارىٰ أنهم إنما خرجوا لأمر غير القتال من مفاوضة أو إبلاغ رسالة أو نحو ذلك حتىٰ إذا سامتوا موقف الطاغية ورديفه جوان صمموا نحوهما حتىٰ خالطوهما في مراكزهما فصرعوهما في جملة من الحاشية، وانهزم ذلك الجمع من حينه وولوا الأدبار، واعترضهم من ورائهم مسارب الماء للشرب علىٰ نهر شنيل فتطارحوا فيها، وهلك أكثرهم واكتسحت أموالهم، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ثلاثة أيام، وخرج أهل غرناطة لجمع الأموال وأخذ الأسرىٰ فاستولوا علىٰ أموال عظيمة منها من الذهب فيما قيل ثلاثة وأربعون قنطاراً، ومن الفضة مائة وأربعون قنطاراً، ومن السبي سبعة آلاف نفس، حسبما كتب بذلك بعض الغرناطيين إلىٰ الديار المصرية.

[٢٠٤] وكان من جملة الأسارىٰ امرأة الطاغية وأولاده فبذلت في نفسها مدينة طريف وجبل الفتح وثمانية عشر حصناً - فيما حكىٰ بعض المؤرخين - فلم يقبل المسلمون ذلك.

قلت: هٰذا خطأ في الرأي وضعف في السياسة.

قالوا: وزادت عدة القتلىٰ في هٰذه الغزوة علىٰ خمسين ألفًا ويقال: إنه هلك منهم بالوادي مثل هٰذا العدد لعدم معرفتهم بالطريق، وأما الذين هلكوا بالجبال والشعاب فلا يحصون، وقُتل الملوك السبعة جميعهم، وقيل خمسة وعشرون، واستمر البيع في الأسرىٰ والسبي والدواب ستة أشهر، ووردت البشائر بهٰذا النصر العظيم إلىٰ سائر البلاد، ومن العجب أنه لم يقتل من المسلمين سوىٰ ثلاثة عشر نفسًا، وقيل عشرة أنفس، وسُلخ الطاغية بطرة وحُشي جلده قطنًا وعلق علىٰ باب غرناطة وبقي معلقا سنين، وطلبت النصارىٰ الهدنة فعقدت لهم، والله تعالىٰ أعلم.

وفاة السلطان أبي سعيد بن يعقوب رحمه الله

سنة إحدىٰ وثلاثين وسبعمائة، وكانت وفاته بعلة النقرس.

الخبر عن دولة السلطان المنصور بالله

أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق رحمه الله

هذا السلطان هو أفخم ملوك بني مرين دولة وأضخمهم ملكا وأبعدهم صيتا وأعظمهم أبهة وأكثرهم آثارًا بالمغربين والأندلس.

ولما هلك السلطان أبو سعيد ـ رحمه الله ـ اجتمع الخاصة من المشيخة ورجالات الدولة على ولي عهده أبي الحسن المذكور، وعقدوا له على أنفسهم وآتوه طاعتهم.

[٢٠٥] وفادة السلطان ابن الأحمر

على السلطان أبي الحسن بحضرة فاس وفتح جبل طارق

لما هلك السلطان أبو الوليد إسماعيل بن الرئيس أبي سعيد فرج بن الأحمر المتغلب على ملك الأندلس من يد ابن عمه أبي الجيوش، قام بالأمر بعده ابنه محمد وكان الطاغية قد استولى على جبل الفتح، وهو جبل طارق سنة تسع وسبعمائة وزاحم الفرنج به ثغور المسلمين، وصار شجى في صدر الدولتين المرينية والأحمرية، واستمر الحال على ذلك إلى أن بويع الأمير السلطان أبو الحسن وكان له رغبة في الجهاد اقتداء بمذهب جده يعقوب بن عبد الحق، فبادر السلطان محمد بن إسماعيل ابن الأحمر إلى الوفادة عليه لإحكام عقد المودة معه وللمفاوضة في أمر الجهاد وغير ذلك مما فيه صلاح لدولته، فقدم عليه بدار ملكه بفاس سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة، فأكبر السلطان أبو الحسن موصله وأركب الناس للقائه، وأنزله لصق داره، واستبلغ في إكرامه، وفاوضه ابن الأحمر في شأن المسلمين وراء البحر، وما أهمهم من عدوهم وشكى إليه حال الجبل واعتراضه شجى في صدور الثغور فأشكاه أبو الحسن، وعامل الله ـ تعالى ـ في أسباب الجهاد، وعقد لابنه أبي مالك على خمسة آلاف من أنجاد بني مرين، وأنفذهم مع ابن الأحمر لمنازلة جبل الفتح، فاحتل أبو مالك بالجزيرة الخضراء، وتتابعت إليه الأساطيل بالمدد، وأرسل ابن الأحمر في الأندلس حاشرين فتسايل الناس إليه من كل جهة، وزحفوا جميعًا إلى الجبل وأحاطوا به، وأبلوا في منازلته البلاء الحسن إلى أن فتحوه سنة ثلاث وثلاثين.

وسبعمائة، واقتحمه المسلمون عنوة ونفّلهم الله من كان به من النصارى بما معهم، وشرع المسلمون في شحنه بالأقوات ينقلونها من الجزيرة الخضراء على خيولهم خوفًا من كَرّة العدو، وباشر نقلها الأميران أبو مالك وابن الأحمر بأنفسهما، ونقلها الناس عامة، وتحيز الأمير أبو مالك إلى الجزيرة الخضراء، وترك بالجبل يحيى بن طلحة بن محلي من وزراء أبيه، ووصل الطاغية بعد ثلاث من فتحه فأناخ عليه وحاصره، وبرز أبو مالك بعساكره من الجزيرة فنزل بإزائه وزحف ابن الأحمر فنزل بإزائه أيضًا، ثم خاف ابن الأحمر عادية العدو لقرب العهد بارتجاع الجبل وخفة من به من الحامية والسلاح، فبادر إلى لقاء الطاغية وسبق الناس إلى فسطاطه عجلاً بائعًا نفسه من الله في رضا المسلمين وسد خلتهم، فتلقاه الطاغية راجلاً حاسراً إعظامًا له، وأجابه إلى ما سأل من الإفراج عن هذا المعقل، وأتحفه بذخائر مما لديه، وارتحل من فوره وشرع الأمير أبو مالك في تحصين ذلك الثغر وسد فروجه.

[٢٠٦] أخبار السلطان أبي الحسن في الجهاد، وما كان من وقعة طريف التي محص الله فيها المسلمين وغير ذلك

لما فرغ السلطان أبو الحسن من شأن عدوه، وعلت على الأيدي يده، وانفسح نطاق ملكه دعته همته إلى الجهاد، وكان كَلِفًا به [(١)] فأوعز إلى ابنه الأمير أبي مالك أمير الثغور الأندلسية سنة أربعين وسبعمائة بالدخول إلى دار الحرب، وجهز إليه العساكر من حضرته، وأنفذ إليه الوزراء، فشخص أبو مالك غازيًا، وتوغل في بلاد النصرانية واكتسحها، وخرج بالسبي والغنائم إلى أدنى صدر من أرضهم، وأناخ بها فاتصل به الخبر أن النصارى قد جمعوا له وأنهم أغذوا السير في اتباعه فأشار عليه الملأ بالخروج من أرضهم وعبور الوادي الذي كان تخمًا بين أرض المسلمين ودار الحرب ويتحيز إلى مدن المسلمين فيمتنع بها فلج في إبايته وصمم على التعريس وكان قرمًا ثبتًا إلّا أنه غير بصير بالحرب لصغر سنه، فصبحتهم عساكر النصرانية في مضاجعهم قبل أن يركبوا، وخالطوهم في بياتهم وأدركوا الأمير أبا مالك بالأرض قبل أن يستوي على فرسه فجدلوه، واستلحموا الكثير من قومه، واحتووا على

---

(١) قلت: أي محبًا له.

المعسكر بما فيه من أموال المسلمين وأموالهم ورجعوا على أعقابهم، واتصل الخبر بالسلطان أبي الحسن فتفجع لهلاك ابنه واسترحم له واحتسب عند الله أجره، ثم أنفذ وزراءه إلى سواحل المغرب لتجهيز الأساطيل وفتح ديوان العطاء وعرض الجنود وأزاح عللهم واستنفر أهل المغرب كافة، ثم ارتحل إلى سبتة ليباشر أحوال الجهاد، وتسامعت به أمم النصرانية فاستعدوا للدفاع، وأخرج الطاغية أسطوله إلى الزقاق ليمنع السلطان من الإجازة، واستحث السلطان أساطيل المسلمين من مراسي المغرب، وبعث إلى أصهاره الحفصيين بتجهيز أسطولهم إليه فعقدوا عليه لزيد بن فرحون قائد أسطول بجاية ووافى سبتة في ستة عشر أسطولاً من أساطيل إفريقية كان فيها من طرابلس وقابس وجربة وتونس وبونة وبجاية، وتوافت أساطيل المغربيين بمرسى سبتة تناهز المائة، وزحفوا إلى أسطول النصارى وتواقفوا مليًا، ثم قربوا الأساطيل بعضها من بعض وقرنوها للمصاف، فلم يمض إلّا كلا ولا حتى هبت ريح النصر وأظفر الله المسلمين بعدوهم وخالطوهم في أساطيلهم واستلحموهم هبرًا بالسيوف وطعنًا بالرماح وألقوا أشلاءهم في اليم وقتلوا قائدهم الملند، واستاقوا أساطيلهم مجنوبة إلى مرسى سبتة، فبرز الناس لمشاهدتها وطيف بكثير من رؤوسهم في جوانب البلد ونظمت أصفاد الأسرى بدار الإنشاء، وعظم الفتح وجلس السلطان للتهنئة وأنشد الشعراء بين يديه، وكان ذلك يوم السبت سادس شوال سنة أربعين وسبعمائة، فكان من أعز أيام الإسلام.

ثم شرع السلطان أبو الحسن في إجازة العساكر من المتطوعة والمرتزقة، وانتظمت الأساطيل سلسلة واحدة، ولما تكاملت العساكر بالعبور وكانت نحو ستين ألفًا أجاز هو في أسطوله مع خاصته وحشمه آخر سنة أربعين وسبعمائة، ونزل بساحة طريف وأناخ عليها ثالث محرم من السنة بعدها وشرع في منازلتها، ووافاه سلطان الأندلس أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل بن الأحمر في عسكر الأندلس من غزاة بني مرين وحامية الثغور، فعسكروا حذاء معسكره وأحاطوا بطريف نطاقًا واحدًا، وأنزلوا بها أنواع القتال ونصبوا عليها الآلات، وجهز الطاغية أسطولاً آخر اعترض به الزقاق لقطع المرافق عن المعسكر، وطال مقام المسلمين بمكانهم حول طريف ففنيت أزوادهم وقلت العلوفات، فوهن الظهر واختلت أحوالهم، ثم

احتشد الطاغية أمم النصرانية وظاهره البرتغال [١] صاحب أشبونة [٢] وغرب الأندلس، وزحفوا إلىٰ المسلمين لستة أشهر من نزولهم علىٰ طريف، ولما قرب الطاغية من معسكر المسلمين سرب إلىٰ طريف جيشًا من النصارىٰ أكمنه بها إلىٰ وقت الحاجة إليه، فدخلوها ليلاً علىٰ حين غفلة من العسس الذين أرصدوا لهم وأحسوا بهم آخر الليل، فثاروا بهم من مراصدهم، وأدركوا أعقابهم قبل دخول البلد فقتلوا منهم عددًا، وقد نجا أكثرهم فلبسوا علىٰ السلطان أنه لم يدخل البلد سواهم حذرًا من سطوته، ثم زحف الطاغية من الغد في جموعه إلىٰ المسلمين وعبأ السلطان مواكبه صفوفًا وتزاحفوا، ولما نشبت الحرب برز الجيش الكمين من البلد وهو الذي دخل ليلاً وخالفوا المسلمين إلىٰ معسكرهم وعمدوا إلىٰ فسطاط السلطان فدافعهم عنه الناشبة الذين كانوا علىٰ حراسته، فاستلحموهم لقلتهم، ثم دافعهم النساء عن أنفسهم فقتلوهن كذلك وخلصوا إلىٰ حظايا السلطان منهن عائشة بنت عمه أبي بكر بن يعقوب بن عبد الحق، وفاطمة بنت السلطان أبي بكر بن أبي زكرياء الحفصي، وغيرهما من حظاياه فقتلوهن واستلبوهن ومثلوا بهن، وانتهبوا سائر الفسطاط وأضرموا المعسكر نارًا، ثم أحس المسلمون بما وراءهم في معسكرهم فاختل مصافهم وارتدوا علىٰ أعقابهم بعد أن كان تاشفين ابن السلطان أبي الحسن صمم في طائفة من قومه وحاشيته حتىٰ خالطهم في صفوفهم فأحاطوا به وتقبضوا عليه وعظم المصاب بأسره، وكان الخطب علىٰ الإسلام قلما فجع بمثله، وذلك ضحوة يوم الاثنين سابع جمادىٰ الآخرة من سنة إحدىٰ وأربعين وسبعمائة، وولىٰ السلطان أبو الحسن متحيزًا إلىٰ فئة المسلمين، واستشهد كثير من الغزاة، وتقدم الطاغية حتىٰ انتهىٰ إلىٰ فسطاط السلطان من المحلة فأنكر قتل النساء والولدان، وكان ذلك منتهىٰ أثره، ثم انكفأ راجعًا إلىٰ بلاده ولحق ابن الأحمر بغرناطة، وخلص السلطان أبو الحسن إلىٰ الجزيرة الخضراء ثم منها إلىٰ جبل الفتح ثم ركب الأسطول إلىٰ سبتة في ليلة غده، ومحص الله المسلمين وأجزل ثوابهم.

---

(١) قلت: أي البرتغال.

(٢) قلت: وهي اليوم لشبونة عاصمتهم.

استيلاء العدو على الجزيرة الخضراء

لما رجع الطاغية من طريف استأسد على المسلمين بالأندلس، وطمع في التهامهم، وجمع عساكر النصرانية.

وكان السلطان أبو الحسن لما أجاز إلى سبتة أخذ نفسه بالعود إلى الجهاد لرجع الكرة فأرسل في المدائن حاشرين، وأخرج قواده إلى سواحل المغرب لتجهيز الأساطيل فتكامل له منها عدد معتبر، ثمّ ارتحل إلى سبتة لمشارفة ثغور الأندلس، وقدّم عساكره إليها مع وزيره عسكر بن تاحضريت، وعقد على الجزيرة الخضراء لمحمد بن العباس بن تاحضريت من قرابة الوزير، وبعث إليها مدداً من العسكر، وبلغ الطاغية خبره فجهز أسطوله وأجراه إلى بحر الزقاق لمدافعته، وتلاقت الأساطيل، ومحص الله المسلمين واستشهد منهم أعداد، وتغلب اسطول الطاغية على بحر الزقاق فملكه دون المسلمين، وأقبل الطاغية من إشبيلية في عساكر النصرانية حتى أناخ بها على الجزيرة الخضراء مرفأ أساطيل المسلمين وفرضة المجاز ورجا أن ينظمها في مملكته مع جارتها طريف، وحشر الفعلة والصناع للآلات وجمع الأيدي عليها، وطاولها الحصار، وجاء السلطان أبو الحجاج بن الأحمر بعساكر الأندلس فنزل قبالة الطاغية بظاهر جبل الفتح في سبيل الممانعة، وأقام السلطان أبو الحسن بمكانه من سبتة يسرب إلى أهل الجزيرة المدد من الفرسان والمال والقوت في أوقات الغفلة من أساطيل العدو تحت جناح الليل، وأصيب كثير من المسلمين في ذلك، ولم يغن عن أهل الجزيرة ذلك المدد شيئًا، واشتد عليهم الحصار وأصابهم الجهد، وأجاز السلطان أبو الحجاج إلى السلطان أبي الحسن يفاوضه في شأن السلم مع الطاغية بعد أن أذن الطاغية له في الإجازة مكراً به، وأصدر له بعض الأساطيل في طريقه فصدقهم المسلمون القتال وخلصوا إلى الساحل بعد غص الريق، وضاقت أحوال أهل الجزيرة ومن كان بها من عسكر السلطان فسألوا الطاغية الأمان على أن ينزلوا له عن البلد فبذله لهم وخرجوا فوفى لهم، وأجازوا إلى المغرب سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة، فأنزلهم السلطان ببلاده على خير نزل ولقاهم من المبرة والكرامة ما عوضهم بما فاتهم، وخلع عليهم وحملهم ووصلهم بما تحدث

الناس به، وتقبض على وزيره عسكر بن تاحضريت عقوبة له على تقصيره في المدافعة مع تمكنه منها، وانكفأ السلطان أبو الحسن راجعًا إلى حضرته موقنًا بظهور أمر الله وإنجاز وعده، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

غزو السلطان أبي الحسن إفريقية واستيلاؤه على تونس وأعمالها

[٢٠٨] ذكر الشيخ أبو العباس الونشريسي في أقضية «المعيار» عن الشيخ ابن عرفة أن سلطان إفريقية أبا بكر الحفصي كتب العهد لولده أحمد، فلما توفي السلطان المذكور أحضر أبو محمد بن تافراجين قاضيي تونس: قاضي الجماعة أبا عبد الله محمد بن عبد السلام وقاضي الأنكحه أبا عبد الله الآجمي وأمرهما أن يبايعا ولد الخليفه عمر فقالا: «كيف نبايعه ونحن شهدنا بيعة أخيه أحمد والتزمناها؟ وكان الحاجب ابن تافراجين نبيلاً، فلما رأى امتناعهما قال: ادخلا دار السلطان واشتغلا بغسله وتكفينه فلما دخلا أحضر الحاجب المذكور أهل العقد والحل وأمرهم أن يبايعوا عمر فبايعوه، فلما خرج القاضيان وجدا البيعة قد حصلت فبايع القاضيان، وكان ابن عرفة يستصوب فعل الحاجب وامتناع القاضيين أولاً وبيعتهما ثانيًا، ثم قدم ولي العهد ووقع بينه وبين أخيه قتال وجرت خطوب كان في آخرها قتل ولي العهد وقتل وليه أبي الهول بن حمزة أمير الكعوب من عرب سليم في آخرين منهم، وقطع عمر أيضًا أخويه عبد العزيز وخالدًا من خلاف فهلكا.

وكان الحاجب أبو محمد بن تافراجين قد أحس بالشر من جهة عمر المتغلب وتوقع النكبة من جانبه فتسلل إلى قصره، وأخذ ما خف من ذخيرته ولحق بالسلطان أبي الحسن وقص عليه الخبر، وأغراه بتملك إفريقية وأوجب عليه النظر للمسلمين فيها، وكان السلطان أبو الحسن يتمنى ذلك فأظهر أبوا لحسن الامتعاض لما فعله عمر بأخيه ولي العهد من منعه من حقه أولاً ثم إراقة دمه ثانيًا لا سيما وقد كان أعطى خط يده بالموافقة على العهد المذكور، فأجمع الحركة إلى إفريقية ونادى في الناس بالمسير وعسكر بظاهر تلمسان، ثم نهض في صفر من سنة ثمان وأربعين وسبعمائة يجر الدنيا بما حملت وقدمت عليه في طريقه أعراب إفريقية وولاة قابس وبلاد الجريد،

وأطاعته طرابلس والزاب وبجاية، ثم وفد عليه بنو حمزة بن عمر أمراء الكعوب من سليم فأخبروه بإجفال عمر المتغلب بتونس مع ظاعنة أولاد مهلهل، واستحثوه في اعتراضهم قبل لحاقهم بالقَفْر [1]، فسرح معهم العساكر في طلبه لنظر حمو بن يحيىٰ العسكري، ثم ارتحل علىٰ أثرهم وأغذ حمو بن يحيىٰ السير مع ناجعة أولاد أبي الليل فلحقوا بعمر صاحب تونس بأرض الحامة من ناحية قابس فدافعوا عن أنفسهم بعض الشيء ثم انهزموا، وكبا بعمر جواده وانجلىٰ الغبار عنه وعن مولاه ظافر راجلين فتقبض عليهما، وأوثقهما قائد العسكر بيده، حتىٰ إذا جنَّ الليل ذبحهما خوفًا من أن تفتكهما العرب من يده، وبعث برأسيهما إلىٰ السلطان أبي الحسن.

وسرح السلطان عساكره إلىٰ تونس، ثم جاء السلطان علىٰ أثرهم فنزل بظاهرها يوم الأربعاء الثامن من جمادىٰ الآخرة من سنة ثمان وأربعين وسبعمائة، وتلقاه وفد تونس وشيوخها من أهل الفتيا وأرباب الشورىٰ فآتوه طاعتهم وانقلبوا مسرورين بولايته، وكانت تونس يومئذ مشحونة بالأعلام الأكابر منهم ابن عبد السلام، وابن عرفة، ثم عبأ السلطان أبو الحسن يوم السبت مواكبه لدخول الحضرة فصف جنوده سماطين، وركبت بنو مرين من مراكزهم من جموعهم وتحت راياتهم، وركب السلطان من فسطاطه فيمن لا يحصىٰ من بني مرين وكبرائهم، وهدرت طبوله وخفقت راياته وكانت يومئذ نحو المائة، جاء السلطان والمواكب تجتمع عليه صفًا صفًا إلىٰ أن وصل إلىٰ البلد وقد ماجت الأرض بالجيوش، قال ابن خلدون: وكان يومًا لم ير مثله فيما عقلناه، قلت: كان سن ابن خلدون يومئذ ست عشرة سنة لأنه ولد غرة رمضان سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة.

وانقرض أمر الحفصيين في هـٰذه المدة، واتصلت ممالك السلطان أبي الحسن ما بين مسراته إلىٰ السوس الأقصىٰ وإلىٰ رندة من عدوة الأندلس، ودخل المغرب بأسره في طاعته، وحذر ملوك مصر والشام ما شاع من بسطته وانفساح دولته ونفوذ كلمته، والملك لله يؤتيه من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

---

(١) قلت: أي الصحراء.

انتقاض عرب سليم بإفريقية
على السلطان أبي الحسن وما نشأ عن ذلك

[٢٠٨] قد تقدم لنا عند الكلام على العرب الداخلين إلى المغرب أن جمهورهم كان من بني جشم بن معاوية بن بكر، وبني هلال بن عامر بن صعصعة، وبني سليم ابن منصور، وإن الذين بقوا منهم بإفريقية هم بنو سليم وبعض هلال، وكان لهم استطالة على الدول واعتزاز عليها، فكان ملوك الحفصيين يتألفونهم بالولايات والإقطاعات ونحو ذلك، وكان السلطان أبو الحسن المريني حاله مع عرب المغرب الأقصى غير حال الحفصيين مع عرب إفريقية، فلما ورد إفريقية واستولى عليها رأى من اعتزاز العرب بها على الدولة وكثرة إقطاعاتهم من الضواحي والأمصار ما تجاوز الحد المعتاد عنده، فأنكر ذلك وضرب على أيديهم وعوضهم عنه بأعطيات فرضها لهم في الديوان من جملة الجند، واستكثر جبايتهم فنقصهم الكثير منها، ثم شكا إليه الرعية من أولئك العرب وما ينالونهم به من الظلامات وضرب الأتاوة - التي يسمونها الخفارة - فقبض أيديهم عن ذلك كله، وتقدم إلى الرعايا بمنعهم منها، فارتابت العرب لذلك وفسدت ضمائرهم وثقلت وطأة الدولة المرينية عليهم فتربصوا بها وتحزبوا لها، وتعاوت ذئابهم في بواديهم فاجتمعوا وأغاروا على ضواحي تونس فاستاقوا الظهر الذي كان في مرعاها والسلطان يومئذ بها فعظم عليه ذلك، وحقد على كبرائهم وأظلم الجو بينه وبينهم وذلك سنة ثمان وأربعين وسبعمائة.

[٢٠٩] ولما قضى السلطان أبو الحسن نسك عيد الأضحى من السنة المذكورة ارتحل من ساحة تونس يريد العرب فوافاهم بالموضع المعروف بالتينة بين بسيط تونس وبسيط القيروان فأجفلوا أمامه فأتبعهم وألح عليهم إلى أن وصلوا إلى القيروان، فلما رأوا أن لا ملجأ لهم منه عزموا على الثبات له وتحالفوا على الاستماتة، كان عسكر السلطان أبي الحسن يومئذ مشحونًا بأعدائه من بني عبد الواد المغلوبين على ملكهم، ومغراوة وبني توجين وغيرهم، فدسوا إلى العرب أثناء هذه المناوشة بأن يناجزوا السلطان غدًا حتى يتحيزوا إليهم ويجروا عليه الهزيمة، فأجابوهم إلى ذلك

وصبحوا معسكر السلطان من الغد فركب إليهم في التعبية، ولما تقابلوا تحيز إليهم الكثير ممن كان معه واختل مصافه فانهزم هزيمة شنعاء، وبادر إلى القيروان فدخلها فيمن معه من الفل مستجيراً بها ودافع عنه أهلها، وتسابقت العرب إلى معسكره فانتهبوه بما فيه من المضارب والعدد والآلات ودخلوا فسطاط السلطان فاستولوا على ذخيرته والكثير من حرمه، وأحاطوا بالقيروان وتعاوت ذئابهم بأطراف البقاع، وأجلب ناعق الفتنة منهم بكل قاع واضطرمت إفريقية ناراً، وكانت الهزيمة يوم الاثنين سابع محرم من سنة تسع وأربعين وسبعمائة ثم خلص السلطان أبو الحسن من القيروان إلى سوسة.

ثم ركب السلطان أبو الحسن من سوسة البحر فاحتل بتونس في ربيع الآخر سنة تسع وأربعين وسبعمائة فاجتمع شمله واستتب أمره واختلفت أحوال هؤلاء العرب على السلطان أبي الحسن في الطاعة تارة والانحراف أخرى مدة إقامته بتونس.

انتقاض الأطراف وثورة أبي عنان ابن السلطان أبي الحسن واستيلاؤه على المغرب

وجرت هذه الخطوب والسلطان أبو الحسن مقيم بتونس، تغاديه العرب بالقتال وتراوحه، وتعوج عليه تارة وتستقيم أخرى، وطال مقامه بها وعميت أنباؤه على أهل المغرب، وحدث في الخلق الوباء العظيم الذي عم المشرق والمغرب فأرجف بموته، واضطربت الأحوال بالمغارب الثلاثة: الأدنى والأوسط والأقصى، واتصل ذلك بالأمير أبي عنان وهو يومئذ بتلمسان كان أبوه قد ولاه عليها عند ذهابه إلى إفريقية، فلما أرجف بمهلك أبيه تطاول إلى الاستئثار بملك أبيه دون سائر إخوته، وكان مرشحًا عنده لذلك لمزيد فضله عليهم في غير وصف، فلما ورد الخبر بنكبة السلطان وانحصاره أولاً بالقيروان ثم بتونس تحفز للوثبة وصمم على الثورة، وأغذّ السير إلى المغرب واستولى على ذلك الملك، وتسابقت إليه وفود الأمصار للتهنئة بالبيعة واستوسق للأمير أبي عنان ملك المغرب واجتمع إليه قومه من بني مرين إلّا من أقام مع أبيه بتونس وفاء بحقه.

ركوب السلطان أبي الحسن البحر
من تونس إلى المغرب وما جرى عليه من المحن في ذلك

[٢١٠] لما قضى نسك عيد الفطر من سنة خمسين وسبعمائة ركب البحر في فصل الشتاء وهيجان البحر.

لما لَجُّوا احتاجوا إلى الماء فدخلوا مرسى بجاية لخمس ليال من إقلاعهم عن تونس فمنعهم صاحب بجاية الحفصي من الورود، وأوعز إلى سائر سواحله بمنعهم، فزحفوا إلى الساحل وقاتلوا من صدهم عن الماء إلى أن غلبوهم واستقوا وأقلعوا، ثم عصفت بهم الريح في تلك الليلة وجاءهم الموج من كل مكان وتكسرت الأجفان وغرق الكثير من بطانة السلطان وعامة الناس، وقذف الموج بالسلطان فألقاه على حجر قرب الساحل من بلاد زواوة عاري الجسد مباشراً للموت، وقد هلك من كان معه من الفقهاء والعلماء والكتاب والأشراف والخاصة وهو يشاهد مصارعهم واختطاف الموج لهم من فوق الصخور التي تعلقوا بها، فمكثوا ليلتهم على ذلك وصبحهم جفن من بقيه الأساطيل كان قد سلم من ذلك العاصف فبادر أهل الجفن إليه حين رأوه فاحتملوه وقد تصايح به البربر من الجبال وتواثبوا إليه حين وضح النهار وأبصروه، فتداركه الله بهذا الجفن فاحتملوه وقذفوا به في مدينة الجزائر.

[٢١١] وفي «نفح الطيب» أن أساطيل السلطان أبي الحسن كانت نحو الستمائة فغرقت كلها ونجا هو على لوح، وهلك من كان معه من أعلام المغرب وهم نحو أربعمائة عالم منهم أبو عبد الله محمد بن الصباغ المكناسي الذي أملى في مجلس درسه بمكناسة على حديث: **«يا أبا عمير! ما فعل النغير»** أربعمائة فائدة.

[٢١٢] وذكر الشيخ أبو عبد الله الأُبيّ في شرح مسلم كلامه على أحاديث العين ما معناه: «أن رجلاً كان بتلك الديار معروفًا بإصابة العين، فسأل منه بعض الموتورين للسلطان أبي الحسن أن يصيب أساطيله بالعين، وكانت كثيرة نحو الستمائة، فنظر إليها الرجل العائن، فكان غرقها بقدرة الله الذي يفعل ما يشاء، ونجى السلطان بنفسه وجرت عليه محن» اهـ.

ولما احتل بالجزائر وقد تمسك أهلها بطاعته استنشق ريح الحياة، ولأم الصدع ولحق به ابنه الناصر من بسكرة، والتف عليه بعض العرب من أحواز الجزائر، ووفد عليه أولياؤه من عرب سويد، فنهض إلى المغرب موطن قومه، ومنبت عزه، ودار ملكه، ثم قطعوا المفاوز إلى سجلماسة في القفر، فلما أطلوا عليها وعاين أهلها السلطان تهافتوا عليه تهافت الفراش على ضوء السراج، حتى خرج إليه العذارى من ستورهن ميلاً إليه ورغبة في ولايته، وفر العامل بسجلماسة إلى منجاته

[٢١٣] وكان الأمير أبو عنان لما بلغه الخبر بقصد أبيه سجلماسة نهض إليه في قومه وجموعه، وكانت بنو مرين نافرة عن السلطان أبي الحسن حاذرة من عقوبته لجنايتهم بالتخاذل في المواقف، والفرار عنه في الشدائد، ولما كان يبعد بهم في الأسفار، ويتجشم بهم المهالك والأخطار، فكانوا لذلك مجمعين على منابذته ومخلصين في طاعة ابنه، ولما اتصل خبر قدومهم بالسلطان أبي الحسن علم من حاله أنه لا يطيق دفاعهم، ولما قرب أبو عنان من سجلماسة أجفل السلطان عنها إلى ناحية مراكش، ودخل أبو عنان سجلماسة فثقف أطرافها، وسد فروجها وبلغه أن أباه قد سار إلى مراكش فاعتزم على اتباعه إليها فلم تطاوعه بنو مرين، فرجع بهم إلى فاس.

[٢١٤] استيلاء السلطان أبي الحسن على مراكش ثم انهزامه عنها إلى هنتاته أهل جبل درن ووفاته هناك

لما أجفل السلطان أبو الحسن عن سجلماسة سنة إحدى وخمسين وسبعمائة قصد مراكش وركب إليها الأوعار من جبال المصامدة، ولما شارفها تسارع إليه أهل جهاتها بالطاعة من كل أوب ونسلوا إليه من كل حَدَب وجبى الأموال، وبث العطاء، ودخل في طاعته قبائل العرب من جشم وسائر المصامدة، وثاب له بمراكش ملك رجى معه أن يستولي على سلطانه ويرتجع فارط أمره،

وكان أبو عنان لما رجع إلى فاس عسكر بساحتها وشرع في العطاء وإزاحة العلل، ثم ارتحل في جموع بني مرين إلى مراكش، وبرز السلطان أبو الحسن للقائه، وانتهى كل واحد من الفريقين إلى وادي أم الربيع، وتربص كل واحد بصاحبه عبور

الوادي فعبره أبو الحسن، وكان اللقاء في آخر صفر من سنة إحدىٰ وخمسين وسبعمائة فاختل مصاف السلطان وانهزم عسكره، ولحق به أبطال بني مرين ثم راجعوا عنه حياء وهيبة وكبىٰ به فرسه يومئذ في مفره فسقط إلىٰ الأرض والفرسان تحوم حوله، فاعترضهم دونه أبو دينار سليمان بن علي بن أحمد أمير الذواودة من عرب رياح فدافع عنه حتىٰ ركب وسار من ورائه ردءًا له.

وخلص السلطان أبو الحسن - رحمه الله - إلىٰ جبل هنتانة من جبال درن ومعه كبيرهم عبد العزيز بن محمد بن علي الهنتاني فنزل عليه وأجاره، واجتمع إليه الملأ من قومه هنتانة ومن انضاف إليهم من المصامدة، وتآمروا وتعاهدوا علىٰ المدافعة عنه وبايعوه علىٰ الموت، وجاء أبو عنان علىٰ أثره حتىٰ احتل بمراكش وأنزل عساكره علىٰ جبل هنتانة ورتب المسالح لحصاره وحربه وطال عليه ثواؤه حتىٰ طلب السلطان من ابنه الإبقاء عليه وأن يبعث إليه حاجبه أبا عبد الله محمد بن محمد بن أبي عمر فحضر عنده وأحسن العذر عن الأمير أبي عنان والتمس له الرضا منه فرضي عنه، وكتب له بولاية عهده، وأوعز إليه بأن يبعث له مالاً وكسىٰ.

واعتل السلطان خلال ذلك فمرضه أولياؤه وخاصته وافتصد لإخراج الدم ثم باشر الماء للطهارة فورم محل الفصادة ومات - رحمه الله - في الثالث والعشرين من ربيع الثاني سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة وبعث أولياء السلطان بالخبر إلىٰ ابنه وهو بمعسكره من ساحة مراكش ورفعوه علىٰ أعواد نعشه إليه فتلقاه حافيًا حاسرًا، وقبل أعواده وبكىٰ واسترجع، ورضي عن أوليائه وخاصته، وأنزلهم بالمحل الذي رضوه من دولته؛ ثم دفن أباه بمراكش قبلي جامع المنصور من القصبة بالموضع الذي به اليوم قبور الملوك الأشراف السعديين، ثم لما نهض أبو عنان إلىٰ فاس احتمل شلو أبيه معه حتىٰ دفنه بشالة مقبرة سلفهم، ولا زال ضريحه قائم العين والأثر إلىٰ الآن، رحمه الله تعالىٰ.

بقية أخبار السلطان أبي الحسن وسيرته

كان السلطان أبو الحسن - رحمه الله - أسمر، طويل القامة، عظيم الهيكل، معتدل اللحية، حسن الوجه، وكان عفًا مائلاً إلىٰ التقوىٰ، مولعًا بالطيب، لم يشرب الخمر قط لا في صغره ولا في كبره، محبًا للصالحين، عدلاً في رعيته، يحب

الفخر ويُعنىٰ به.

الخبر عن دولة السلطان المتوكل على الله أبي عنان فارس بن أبي الحسن رحمه الله

كان هـٰذا السلطان محبوبًا في قومه وعشيرته، أثيرًا عند والده، متميزًا بذلك عن سائر إخوته لفضله وعلمه وصيانته وعفافه واستظهار القرآن الكريم وغير ذلك من الأوصاف الحسنة، أمه أم ولد رومية.

[٢١٥] رحلة السلطان أبي عنان إلى سلا وتطارحه على وليها الأكبر أبي العباس ابن عاشر رضي الله عنه

كان لبني مرين عمومًا وللسلطان أبي عنان خصوصًا جنوح إلىٰ الخير ومحبة في أهله، وتعرض لمن يشار إليه بالصلاح واستمطار لطله ووبله، وكان الشيخ الأشهر أبو العباس أحمد بن عاشر الأندلسي رضي الله عنه قد استوطن في هـٰذا التاريخ مدينة سلا، وكان من الأفراد الجامعين بين العلم والعمل، المتمسكين بالكتاب والسنة، الناهجين سنن السلف الصالح في الزهد والورع والانقطاع عن الخلق جملة، بحيث طار ذكره وعظم لدىٰ الخاص والعام قدره، فتحركت همة السلطان أبي عنان لزيارته والاقتباس مما يفتح الله به من وعظه وإشارته، فارتحل سنة سبع وخمسين وسبعمائة إلىٰ سلا فقدمها وحرص علىٰ الاجتماع بالشيخ المذكور ووقف ببابه مرارًا فلم يأذن له[١]، وترصده يوم الجمعة بعد الصلاة، ولما انفض الناس تبعه علىٰ قدميه والناس ينظرون إليه وهو لا يراه، فقال السلطان عند ذلك: لقد مُنعنا من هـٰذا الولي، ثم أرسل إليه ولده راغبًا ومستعطفًا فأجابه بما قطع رجاءه من لقائه غير أنه كتب إليه كتابًا وعظه فيه وذكّره، فسر السلطان أبو عنان بذلك الكتاب وحزن لما فاته من الاجتماع بالشيخ.

[٢١٦] وفاة السلطان أبي عنان رحمه الله

لما وصل السلطان أبو عنان إلىٰ دار ملكه بفاس احتل بها بين يدي العيد الأكبر

---

(١) قلت: الله أكبر، ما أعظم قدر العلماء آنذاك، ويا حسرة علىٰ علماء زماننا.

حتى إذا قضى الصلاة من يوم الأضحى أدركه المرض بالمصلى، وأعجله طائف الوجع عن الجلوس للناس يوم العيد ـ على العادة ـ فدخل قصره ولزم فراشه.

وذكر ابن خلدون ما حاصله أنه كانت بين الوزير حسن بن عمر الفودودي وبين ولي العهد أبي زيان محمد بن السلطان أبي عنان نفرة مستحكمة لسوء طويته وشر ملكته فاتفق الوزير المذكور مع من كان على رأيه من أهل مجلس السلطان على تحويل الأمر عنه إلى غيره من أبناء السلطان فأجمعوا الفتك به والبيعة لأخيه أبي بكر السعيد طفلاً خماسيًا، ثم أغروا الوزير مسعود بن عبد الرحمن بن ماساي بتطلب أبي زيان ولي العهد في نواحي القصر والتقبض عليه، فدخل إليه وتلطف في إخراجه من بين الحرم، وقاده إلى أخيه السعيد فبايع، وثُلّ إلى بعض حجر القصر فأُتلفت فيها مهجته، واستقل الحسن بن عمر بالأمر يوم الأربعاء الرابع والعشرين من ذي الحجة، والسلطان أبو عنان أثناء ذلك يجود بنفسه، وارتقب الناس دفنه يوم الأربعاء والخميس بعده فلم يدفن فارتابوا، وفشى الكلام فدخل الوزير ـ زعموا ـ إليه بمكانه من قصره ثم غطه حتى أتلفه، ودفن يوم السبت، وحجب الحسن بن عمر الولد المنصوب للأمر، وأغلق عليه بابه وتفرد بالأمر والنهي دونه، انتهى. وهذا أول مرض نزل بالدولة المرينية.

وقال في «الجذوة»: «توفي السلطان أبو عنان قتيلاً، خنقه وزيره الحسن بن عمر الفودودي يوم السبت الثامن والعشرين من ذي الحجة متم سنة تسع وخمسين وسبعمائة، وسنة يوم توفي ثلاثون سنة»(١).

بقية أخبار السلطان أبي عنان وسيرته

كان السلطان أبو عنان ـ رحمه الله ـ أبيض اللون تعلوه صفرة؛ طويل القامة يشرف على الناس بطوله، نحيف البدن عالي الأنف حسنه؛ أعين أدعج جهوري الصوت، في كلامه عجلة حتى لا يكاد السامع يفهم ما يقول، عظيم اللحية تملأ صدره، أسودها، وإذا مرت بها الريح تفرقت نصفين حتى يستبين موضع الذقن؛ وكان فارسًا شجاعًا يقوم في الحرب مقام جنده.

---

(١) قال المحقق: وكانت دولته تسعة أعوام وتسعة أشهر.

[٢١٧] وكان فقيهًا يناظر العلماء الجِلّة، عارفًا بالمنطق وأصول الدين، وله حظ صالح من علمي العربية والحساب؛ وكان حافظا للقرآن عارفًا بناسخه ومنسوخه، حافظًا للحديث عارفًا برجاله، فصيح القلم، كاتبًا بليغًا، حسن التوقيع شاعراً.

وللسلطان أبي عنان ـ رحمه الله ـ آثار دينية من بناء المدارس والزوايا وغير ذلك.





الجزء الرابع

الدولة المرينية

«القسم الثاني»

الدولة المرينية
القسم الثاني

الخبر عن دولة السلطان السعيد بالله
أبي بكر بن أبي عنان بن أبي الحسن المريني

هـٰذا السلطان أول من استُبد عليه من ملوك بني مرين. أمه: أم ولد اسمها الياسمين. كنيته: أبو يحيىٰ، وهي كنية كل من اسمه أبو بكر. لقبه: السعيد بالله. بويع وأبوه مريض في التاريخ المتقدم، وكان محجوبًا بوزيره حسن بن عمر الفودودي لا يملك معه ضرًا ولا نفعًا.

ظهور أبي حمو موسى بن يوسف الزياني واستيلاؤه على تلمسان ونهوض مسعود بن عبد الرحمن إليه وطرده عنها

[٢١٨] كان بنو عامر بن زغبة من عرب هلال خارجين على السلطان أبي عنان منذ استيلائه علىٰ تلمسان، وكانت رياستهم إلىٰ صغير بن عامر بن إبراهيم، ولما رجع أبو عنان إلىٰ فاس اعتزم صغير علىٰ الرحلة بقومه إلىٰ وطنهم من صحراء المغرب؛ لأنهم كانوا متبذين عنها بأطراف إفريقية، فدعوا أبا حمو موسىٰ بن يوسف بن عبد الرحمـٰن بن يحيىٰ بن يغمراسن بن زيان إلىٰ الرحلة معهم لينصبوه للأمر ويجلبوا به علىٰ تلمسان فأجابهم إلىٰ ذلك، وأغذّوا السير إلىٰ المغرب للعيث في نواحيه، واتصل بهم في أثناء ذلك خبر وفاة السلطان أبي عنان بفاس، فأغَذّوا السير إلىٰ تلمسان وقاتلوا عليها حامية بني مرين ثم اقتحموها عليهم لليال خلون من ربيع الأول سنة ستين وسبعمائة، واستباحوا من كان بها منهم، وامتلأت أيديهم من أسلابهم.

ولما انتهىٰ إلىٰ الوزير حسن بن عمر خبر تلمسان واستيلاء أبي حمو عليها جمع شيوخ بني مرين وأخبرهم بالنهوض إليها فأبوا عليه من النهوض بنفسه، وأشاروا

بتجهيز العساكر ووعدوه من أنفسهم المسير كافة، ففتح ديوان العطاء وفرق الأموال وأسنى الصلات، وأزاح العلل، وعسكر بساحة البلد الجديد، ثم عقد عليهم لمسعود ابن عبد الرحمن بن ماساي وحمل معه المال وأعطاه الآلة وسار في العساكر والألوية، ولما اتصل خبر مسيره بأبي حمو أفرج له عن تلمسان، ودخلها مسعود في ربيع الثاني من السنة المذكورة فاستولى عليها وخرج أبو حمو إلى الصحراء.

[٢١٩] ظهور منصور بن سليمان وبيعة مسعود بن عبد الرحمن له وما نشأ عن ذلك

منصور هذا هو منصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق، وكان الناس يُرجفون بأن ملك المغرب سائر إليه بعد وفاة أبي عنان، وشاع ذلك على ألسنة الناس حتى تحدث به السمر والندمان وخشي منصور على نفسه من ذلك، فجاء إلى الوزير حسن بن عمر وشكا إليه ذلك فنهاه أن يختلج بفكره هذا الوسواس وانتهره انتهاراً خلا عن وجه السياسة فانزجر واستكان، ثم لما نهض مسعود بن عبد الرحمن إلى تلمسان واستولى عليها كان منصور هذا في جملته، ولما فر أبو حمو إلى الصحراء اجتمعت عليه جموع العرب، من بني زغبة وبني معقل ثم خالفوا بني مرين إلى المغرب واحتلوا بانكاد بحللهم وظواعنهم، فجهز إليهم مسعود بن عبد الرحمن عسكراً من جنوده انتقى فيه مشيخة بني مرين وأمراءهم، وعقد عليهم لابن عمه عامر بن عبد الله بن ماساي وسرحه، فزحف إلى العرب بساحة وجدة فصدقه العرب القتال، فانكشفت بنو مرين واستبيح معسكرهم واستلبت مشيختهم وأرجلوا عن خيولهم ودخلوا إلى وجدة عراة، وبلغ الخبر إلى بني مرين الذين بتلمسان وكان في قلوبهم مرض من استبداد حسن بن عمر عليهم وحجره لسلطانهم فكانوا يتربصون بالدولة الدوائر، فلما بلغهم هذا الخبر حاصوا حيصة حمر الوحش، وخلصوا نجيًا بساحة البلد، فاتفقوا على البيعة ليعيش بن علي ابن أبي زيان بن يوسف بن يعقوب فبايعوه، وانتهى الخبر إلى مسعود بن عبدالرحمن وكان في جملته منصور بن سليمان كما قلنا فأكرهه على البيعة، وتسايل إليه الناس من كل جانب، وتسامع الملأ من بني مرين بالخبر فتهاروا إليه وذهب يعيش بن علي لوجهه فركب البحر إلى الأندلس، واستتب أمر منصور بن سليمان واجتمع بنو

مرين على كلمته فارتحل بهم من تلمسان يريد المغرب، وبلغ الخبر إلى الحسن بن عمر فبرز واضطرب معسكره بساحة البلد، وأخرج السلطان السعيد في الآلة والتعبية إلى أن أنزله بفسطاطه، ولما غشيهم الليل انفض عنه الملأ إلى منصور، فأوقد الوزير الشموع وأذكى النيران وجمع الموالي والجند حول الفسطاط حتى أركب السلطان وعاد به إلى قصره وتحصن بالبلد الجديد، وأصبح منصور بن سليمان فارتحل في التعبية وغدا على فاس الجديد بالقتال وجمع الأيدي على اتخاذ الآلات للحصار، وانثالت عليه وفود الأمصار بالمغرب للبيعة وكاد أمره يتم، وأقام على فاس الجديد يغاديها القتال ويراوحها، ثم بدا الخلل في عسكره ونزع عنه إلى الوزير حسن بن عمر طائفة من بني مرين، ولحق آخرون ببلادهم ووقفوا ينتظرون مآل أمره، واستمر هذا الحال إلى غرة شعبان فبينما الناس في ذلك إذ ظهر السلطان أبو سالم بجبال غمارة فانصرفت إليه وجوه أهل المغرب، وبطل أمر السلطانين: أبي بكر السعيد، ومنصور بن سليمان معًا، وذابا كما يذوب الملح، فأما منصور بن سليمان فإنه فر إلى بادس فقبض عليه وجيء به إلى السلطان أبي سالم فقتله، وأما السعيد فإن وزيره الحسن بن عمر لما سمع بظهور السلطان أبي سالم واستفحال أمره نبذ دعوة سلطانه المذكور وبعث بطاعته إلى أبي سالم ووعده بالتمكين من دار الملك إن قدم عليه، فكان الأمر كذلك، وخلع السعيد يوم الثلاثاء الثاني عشر من شعبان سنة ستين وسبعمائة [١]، ثم قتل بعد ذلك غرقًا في البحر، فإن السلطان أبا سالم بعثه إلى الأندلس، ووكل بهم من يحرسهم، ثم بعد ذلك بعث إلى الموكل بهم فحملهم في سفينة كأنه يريد بهم المشرق ثم غرقهم في البحر، والأمر لله وحده.

الخبر عن دولة السلطان
المستعين بالله أبي سالم إبراهيم بن أبي الحسن المريني

كان هذا السلطان جوادًا، جم العطاء، معروفًا بالوفاء، كثير الحياء، كنيته: أبو سالم، لقبه: المستعين بالله، أمه: أم ولد رومية اسمها قمر، صفته: آدم اللون، معتدل القامة، رحب الوجه، واسع الجبين، بادن الجسم، أعين أدعج، معتدل

---

(١) قال المحقق: وكانت دولته سبعة أشهر وعشرين يومًا.

اللحية أسودها.

وكان بعد مهلك والده السلطان أبي الحسن - رحمه الله - قد استقر بالأندلس، بعثه إليها أخوه أبو عنان، ولما مات أبو عنان المذكور وولي ابنه الصبي طمع أبو سالم هذا في الملك، فاستأذن الحاجب رضوان مدبر دولة ابن الأحمر بالأندلس في اللحاق ببلاده فأبى عليه، فغاظه ذلك ونزع عنه إلى طاغية قشتالة وتطارح عليه في أن يحمله إلى بر العدوة يطلب ملك أبيه، فأسعفه وأمر به فحمل في مركب وألقى به ملاحه في ساحل بلاد غمارة بعد أن تردد في أي السواحل يلقيه، ووافق ذلك اختلاف الكلمة بفاس ومحاصرة منصور بن سليمان للمدينة البيضاء، فتسامع الناس بخروجه ببلاد غمارة أحوج ما كانوا إليه فتسايلوا إليه من كل وجه، وانفض الناس من حول منصور، ومشى أهل معسكره بأجمعهم على التعبية فلحقوا بالسلطان أبي سالم واستغذوه إلى دار ملكه فأغذّ السير إليها، وخلع الحسن بن عمر سلطانه السعيد من الأمر لتسعة أشهر من خلافته، وأسلمه إلى عمه فخرج إليه وبايعه، ودخل السلطان أبو سالم البلد الجديد يوم الجمعة منتصف شعبان من سنة ستين وسبعمائة، واستولى على ملك المغرب، وتوافت وفود النواحي بالبيعات، وعقد للحسن بن عمر على مراكش، وجهزه إليها بالعساكر تخففًا منه وريبة بمكانه من الدولة.

[٢٢٠] مقتل السلطان أبي سالم رحمه الله والسبب في ذلك

كان السلطان أبو سالم - رحمه الله - قد غلب على هواه الخطيب أبو عبد الله بن مرزوق وألقى زمام الدولة بيده، فنقم خاصة السلطان وحاشيته ذلك عليه وسخطوا الدولة من أجله، ومرضت قلوب أهل الحل والعقد من تقدمه فتربصوا بالدولة الدوائر إلى أن كانت أواخر سنة اثنتين وستين وسبعمائة فتحول السلطان أبو سالم عن دار الملك من فاس الجديد إلى القصبة من فاس القديم واختط بها إيوانًا فخمًا لجلوسه.

[٢٢١] فلما استولى عمر بن عبد الله بن علي بن سعيد الفودودي أحد كبراء الدولة ووزرائها على دار الملك إذ كان السلطان أبو سالم قد خلفه أمينًا عليها حدثته نفسه بالتوثب وسهل ذلك عليه ما كان قد عرفه من مرض القلوب على السلطان

لمكان ابن مرزوق فداخل قائد جند النصارىٰ غرسية بن أنطول [1] واتعدوا لذلك ليلة الثلاثاء السابع عشر من ذي القعدة من السنة المذكورة فعمدوا إلىٰ تاشفين الموسوس ابن أبي الحسن فخلعوا عليه وألبسوه شارة الملك وقربوا له مركبًا وأجلسوه مجلس السلطان وأكرهوا شيخ الحامية والناشبة محمد بن الزرقاء علىٰ البيعة وجاهروا بالخلعان وقرعوا الطبول، ودخلوا إلىٰ بيت المال ففرضوا العطاء من غير تقدير ولا حساب، وماج الجند بفاس الجديد بعضهم في بعض واختطفوا ما وصلوا إليه من العطاء ثم انتهبوا ما كان بالمخازن الخارجية من السلاح والعدة وأضرموا النيران في بيوتها ستراً علىٰ ما ضاع منها، وأصبح السلطان أبو سالم بمكانه من قصبة فاس القديم وكان قد تحول إليها فراراً من قاطع فلكي خوفه إياه بعض منجميه فكان البلاء فيه موكلاً بالمنطق، فلما علم بالكائنة ركب واجتمع إليه من حضر من أوليائه وغدا علىٰ فاس الجديد وطاف بها يروم اقتحامها فامتنعت عليه.

ولما كان وقت الهاجرة دخل فسطاطه للقيلولة فتسايل الناس عنه إلىٰ فاس الجديد فوجًا بعد فوج بمرأىٰ منه إلىٰ أن انفض عنه خاصته وأهل مجلسه، فطلب النجاء بنفسه وركب في لمة من الفرسان وفيهم وزيراه سليمان بن داود ومسعود بن عبد الرحمن بن ماساي، ومقدم الموالي والجند ببابه سليمان بن ونصار، وأذن لابن مرزوق في الدخول إلىٰ داره ومضىٰ هو علىٰ وجهه فيمن معه، ولما غشيهم الليل انفضوا عنه حتىٰ بقي وحده، ورجع الوزيران إلىٰ دار الملك فتقبض عليهما رئيس الثورة عمر بن عبد الله الفودودي ومشاركه فيها غرسية بن أنطول النصراني واعتقلاهما متفرقين وبعث عمر بن عبد الله الطلب في أثر السلطان أبي سالم فعثروا عليه نائمًا من الغد بوادي ورغة وقد غير لباسه اختفاء بشخصه وتواريًا عن العيون بمكانه، فأمرا بعض جند النصارىٰ أن يتولىٰ ذبحه ففعل، وحملوا رأسه في مخلاة ووضعوه بين يدي الوزير الثائر ومشيخته، وكان ذلك يوم الخميس الحادي والعشرين من ذي القعدة سنة اثنتين وستين وسبعمائة.

---

(١) قلت: أدخل الموحدون في آخر أيامهم جنوداً من النصارىٰ لعونهم في حروبهم فبقوا في الدولة المرينية كما كانوا في الدولة الموحدية عونًا للسلاطين والأمراء.

الخبر عن دولة السلطان
أبي عمر تاشفين الموسوس ابن أبي الحسن المريني

[٢٢٢]هـٰذا السلطان كان محجوبًا لوزيره عمر بن عبد الله الفودودي لا يملك معه ضراً ولا نفعًا، أمه أم ولد اسمها ميمونة صفته طويل القامة عظيم الهيكل بعيد ما بين المنكبين أعين أدعج، وكان فارسًا بطلاً قوي الساعد إلَّا أنه كان ناقص العقل.

ولما ثار عمر بن عبد الله بالسلطان أبي سالم وسعىٰ في هلاكه إلىٰ أن قتل ـ كما مر ـ استبد بأمر الدولة، ونصب هـٰذا الموسوس يموه به علىٰ الناس، فبويع ليلة الثلاثاء التاسع عشر من ذي القعدة سنة اثنتين وستين وسبعمائة ـ حسبما سبق ـ وكان نقصان عقل تاشفين من أجل الأسر الذي أصابه بوقعة طريف أيام والده السلطان أبي الحسن إلىٰ أن افتدي وبقي ناقص العقل مختل المزاج.

ثم إن الوزير عمر بن عبد الله راجع بصيرته في تقديم المعتوه للأمر، وعلم أن الأمر لا يستقيم له بذلك، فبادر باستقدام أبي زيان محمد بن أبي عبد الرحمن يعقوب ابن السلطان أبي الحسن، وكان عند الطاغية بدار الحرب فقدم، وخلع الوزير المذكور سلطانه الموسوس يوم الاثنين الحادي والعشرين من صفر سنة ثلاث وستين وسبعمائة فكانت دولته ثلاثة أشهر ويومين ومات وسنه ستون سنة، والله تعالىٰ أعلم.

الخبر عن دولة السلطان المتوكل على الله أبي زيان
محمد بن أبي عبد الرحمن يعقوب بن أبي الحسن المريني

[٢٢٣]هـٰذا السلطان كان محجوبًا للوزير عمر بن عبد الله أيضا كنيته: أبو زيان، لقبه: المتوكل علىٰ الله، أمه: أم ولد اسمها فضة. صفته: آدم اللون شديد الأدمة، معتدل القامة، منفرج الأنف، دقيق العينين.

وقال ابن الخطيب في «الإحاطة»: «حاله فاضل، سكون، منقاد مشتغل بخاصة نفسه، قليل الكلام حسن الشكل، مفوض للوزراء، عظيم التأني لأغراضهم، وكان قبل ولايته عند الطاغية بالأندلس فر إليه خوفًا علىٰ نفسه، ولما التبست الأمور علىٰ

باليد وسألوا النزول على الصلح، فأجابهم ابن الأحمر إليه، ونزلوا عن البلد وأقيمت فيه شعائر الإسلام ومحيت منه كلمة الكفر، وكتب الله أجرها لمن أخلص في معاملته، وكان ذلك سنة سبعين وسبعمائة، وولي ابن الأحمر عليها من قبله، ولم تزل إلى نظره إلى أن وقع الاختيار على هدمها؛ خشية استيلاء النصرانية عليها مرة أخرى فهدمت أعوام الثمانين وسبعمائة وأصبحت خاوية كأن لم تغن بالأمس.

وفاة السلطان عبد العزيز بن أبي الحسن رحمه الله

كان السلطان عبد العزيز قد أصابه مرض النحول في صغره، ولما شبَّ أفاق من مرضه وصلح بدنه ثم عاوده وجعه.

ولما كانت ليلة الخميس الثاني والعشرين من ربيع الآخر سنة أربع وسبعين وسبعمائة، قضى نحبه - رحمه الله - وسنه يومئذ أربع وعشرون سنة، وكانت دولته ست سنين وأربعة أشهر.

الخبر عن دولة السلطان السعيد بالله
أبي زيان محمد بن عبد العزيز بن أبي الحسن

[٢٢٧] هذا السلطان ممن ولي الأمر وهو صبي، وفيه ألف ابن الخطيب كتابه المسمى بـ: «أعمال الأعلام فيمن بويع من ملوك الإسلام قبل الاحتلام»، كنيته: أبو زيان.

ولما مات السلطان عبد العزيز - رحمه الله - خرج الوزير أبو بكر بن غازي بن الكاس على الناس، وقد احتمل أبا زيان ابن السلطان عبد العزيز، فعزاهم عن سلطانهم ثم طرح ابنه بين أيديهم، فازدحموا عليه باكين متفجعين يعطونه الصفقة ويقبلون يديه للبيعة، وكفله الوزير المذكور فكان إليه الإبرام والنقض، والصبي كالعدم؛ إذ لم يكن في سن التصرف.

ولما فصل بنو مرين عن تلمسان عاد إليها سلطانها أبو حمو بن يوسف الزياني، والتفت عليه بنو عبد الواد من كل جانب، ومحا دعوة بني مرين من ضواحي المغرب

عمر بن عبد الله طلبه إلى الطاغية فسمح به بعد اشتراط واشتطاط، وفصل من إشبيلية في المحرم فاتح سنة ثلاث وستين وسبعمائة ونزل بسبته، وبها سعيد بن عثمان من قرابة الوزير عمر بن عبد الله أرصده لقدومه، فطير إليه بالخبر، فحينئذ خلع عمر تاشفين الموسوس، وبعث إلى السلطان أبي زيان بالبيعة».

مقتل السلطان أبي زيان بن أبي عبد الرحمن رحمه الله

[٢٢٤] لما طال استبداد الوزير عمر بن عبد الله على السلطان أبي زيان وحجره إياه إذ كان وضع عليه الرقباء والعيون حتى من حرمه وأهل قصره عزم على الفتك بالوزير المذكور، وتناجى بذلك مع بعض ندمائه وأعد له طائفة من العبيد كانوا يختصون به، فنما ذلك إلى الوزير بواسطة بعض الحرم كانت عينًا له عليه فعاجله، وكان قد بلغ من الاستبداد عليه أن كان الحجاب مرفوعًا له عن خلوات السلطان وحرمه، فدخل عليه وهو في وسط حشمه فطردهم عنه، ثم غطه حتى فاض، وأمر به فألقي في بئر بروض الغزلان، واستدعى الخاصة فأراهم مكانه بها، وأنه سقط عن دابته وهو سكران، وذلك في محرم فاتح سنة ثمان وستين وسبعمائة وله ثمان وعشرون سنة، ودفن بجامع قصره فكانت دولته أربع سنين وعشرة أشهر ويومًا واحدًا، والله أعلم.

الخبر عن دولة السلطان

أبي فارس عبد العزيز بن أبي الحسن رحمه الله

هذا السلطان هو الذي أنعش دولة بني مرين بعد تلاشيها، وأعاد إليها شبابها بعد هرمها وتقاضيها، وأزال عنها وصمة الحجر والاستبداد، وأعادها من العز إلى حالها المعتاد، وهو الذي ذكره ابن خلدون في أول تاريخه الكبير وألفه برسمه، وحلى ديباجته باسمه، أمه: مولدة اسمها مريم، صفته: آدم اللون شديد الأدمة، طويل القامة، يشرف على الناس بطوله، نحيف الجسم، أعين أدعج أخنس، في وجهه أثر جدري، وكان عفًا متمسكًا بالدين، محبًا في الخير وأهله، لم يشرب خمرًا ولا وقع في فاحشة قط، وبالجملة فقد كان من صالحي الملوك، رحمه الله.

[٢٢٥] ولما كان من الوزير عمر بن عبد الله إلى السلطان أبي زيان ـ رحمه الله ـ ما

كان من الخنق والإلقاء في البئر، استدعى عبد العزيز بن أبي الحسن هٰذا، وكان في بعض الدور من القصبة بفاس محتاطًا عليه من قبل الوزير المذكور، فأحضره بالقصر، وأجلسه على سرير الملك وبايعه، وفتحت الأبواب لبني مرين وسائر الخاصة والعامة فازدحموا على تقبيل يده، معطين الصفقة بطاعته، فتم أمره وثبت ملكه، ثم إن الوزير عمر جرى معه على عادته من الاستبداد، ومنع التصرف في شيء من أمور الملك فأنف السلطان عبد العزيز من ذلك وتأفف منه، ودارت بينه وبين الوزير أمور إلى أن عمل السلطان على الفتك به فأعد له جماعة من الخصيان بزوايا داره، ثم أحضره ووبخه وثار به أولئك الخصيان فتناولوه هبرًا بالسيوف، وصاح الوزير المذكور صيحة أسمع بها بطانته خارج الدار فوثبوا على الأبواب فكسروها، واقتحموا الدار فإذا صاحبهم مضرج بدمائه قد فُرِغ منه فولوا الأدبار هاربين، ثم تتبع السلطان عبد العزيز حاشية الوزير بالاعتقال والقتل حتى أتى على الجميع في خبر طويل، واستبد بملكه واضطلع به وأدار الأمور فيه على ما ينبغي، والله تعالى أعلم.

[٢٢٦] ارتجاع الجزيرة الخضراء من يد الاسبانيول

قد قدمنا ما كان من استيلاء الطاغية على الجزيرة الخضراء أيام السلطان أبي الحسن - رحمه الله - فاستمرت في ملكتهم إلى هٰذا التاريخ فنشأت بينهم فتنة وتقاتلوا على الملك وأعروا ثغورهم الموالية للمسلمين من الحامية والجند فبقيت عورة، وتشوف المسلمون إلى ارتجاع الجزيرة الخضراء التي قرب عهدهم بانتظامها في ملكة المسلمين.

وكان السلطان عبد العزيز في شغل عن ذلك، فبعث إلى ابن الأحمر صاحب الأندلس أن يزحف إليها بعساكره وعليه عطاؤهم وإمدادهم بالمال والأساطيل على أن تكون مثوبة جهاده خالصة له، فأجاب ابن الأحمر إلى ذلك، وبعث إليه السلطان عبد العزيز بأحمال المال، وأوعز إلى أساطيله بسبتة فانعمرت وأقلعت حتى احتلت بمرسى الجزيرة الخضراء لحصارها، وزحف ابن الأحمر بعساكر المسلمين على أثرها بعد أن قسم فيهم العطاء وأزاح العدد وأعد الآلات للحصار، فنازلها أيامًا قلائل، ثم أيقن النصارى بالهلكة لبعدهم عن الصريخ ويأسهم من مدد ملوكهم، فألقوا

[٢٢٨] خلع السلطان أبي العباس بن أبي سالم وتغريبه إلى الأندلس، والسبب في ذلك

قد قدمنا ما كان من تحكم ابن الأحمر في مملكة المغرب ودالته على السلطان أبي العباس بما أنه كان السبب في ولايته وبما تحت يده من القرابة المرشحين الذين أرصدهم للتشغيب على دار الملك بالمغرب متى رأى من أحدهم ما لا يوافق هواه، وكان مع كثرة تحكمه فيهم يتجنى عليهم في بعض الأوقات بما يأتونه من تقصير في شفاعة أو مخالفة في أمر لا يجدون عنها محيصًا فيضطغن ذلك عليهم، وكان يعتد على السلطان أبي العباس بشيء من هذه الهنات.

فلما نهض إلى تلمسان واستولى عليها سنة خمس وثمانين وسبعمائة اتصل بابن الأحمر، أن دار الملك بفاس قد بقيت عورة من الجند والحامية، فانتهز الفرصة وبادر بتسريح موسى ابن السلطان أبي عنان إلى المغرب واستوزر له مسعود بن عبدالرحمن بن ماساي رئيس الفتنة وقطب رحاها، وكان عنده بالأندلس، فنزل موسى بن أبي عنان سبتة فاستولى عليها وسلمها لابن الأحمر فدخلت في طاعته، ثم تقدم إلى فاس فدخلها من يومه واستقر قدمه بها.

واتصل الخبر بالسلطان أبي العباس وهو بتلمسان فجاء مبادرًا ونزل بتازا فأقام بها أربعًا ثم تقدم إلى الموضع المعروف بالركن فانتقض عليه رؤساء جيشه وتسللوا إلى موسى طوائف وأفرادًا، ولما رأى ما نزل به رجع إلى تازا بعد أن انتهب معسكره وأضرمت النار في خيامه، وذلك يوم الأحد الموفي ثلاثين من ربيع الأول سنة ست وثمانين وسبعمائة.

ثم بعث موسى بن أبي عنان من أتاه بالسلطان أبي العباس في الأمان فقدم عليه وقيده وبعث به إلى ابن الأحمر فبقي عنده محتاطًا عليه إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء الله.

وكانت دولته هذه عشر سنين وشهرين وأربعة وعشرين يومًا.

الأوسط وأمصاره، واتصل الخبر بالوزير أبي بكر بن غازي فهم بالنهوض إليه ثم ثنى عزمه ما كان من خروج الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلوسن بن أبي علي بن أبي سعيد بناحية بطوية، فإن السلطان ابن الأحمر كان قد سرحه من الأندلس صحبة وزيره مسعود بن عبد الرحمن بن ماساي لطلب ملك المغرب تشغيبًا على الوزير أبي بكر بن غازي، ثم أتبعه بالأمير أبي العباس أحمد بن السلطان أبي سالم الذي كان محتاطا عليه بطنجة، فزحف الأمير أبو العباس المذكور إلى فاس وظاهره ابن عمه الأمير عبدالرحمن بن أبي يفلوسن فحاصروا الوزير أبا بكر بن غازي وسلطانه أبا زيان ابن عبد العزيز، وضربوا على فاس الجديد سياجًا بالبناء للحصار، وأنزلوا به أنواع القتال، فاستمر الحال على حصار فاس إلى أن أذعن الوزير أبو بكر لخلع سلطانه أبي زيان ومبايعة الأمير أبي العباس، فخلعه يوم الأحد السادس من محرم فاتح سنة ست وسبعين وسبعمائة وغُرِّب إلى الأندلس فكانت دولته سنة وثمانية أشهر وأربعة عشر يومًا، والله غالب على أمره.

الخبر عن الدولة الأولى للسلطان المستنصر بالله أبي العباس أحمد بن أبي سالم بن أبي الحسن

هذا السلطان يقال له: ذو الدولتين لأنه ولي الملك مرتين - كما سيأتي - بويع أولاً بطنجة في شهر ربيع الآخر سنة خمس وسبعين وسبعمائة، ثم بويع البيعة العامة بالمدينة البيضاء بعد استيلائه عليها يوم الأحد السادس من محرم سنة ست وسبعين وسبعمائة، واستوزر محمد بن عثمان بن الكاس وفوض إليه أموره فغلب على هواه، وجعل أمر الشورى إلى سليمان بن داود فاستقل بها وحاز رياسة المشيخة، واستحكمت المودة بينه وبين ابن الأحمر وجعلوا إليه المرجع في نقضهم وإبرامهم، فصار له بذلك تحكم في الدولة المرينية وأصبح المغرب كأنه من بعض أعمال الأندلس وذلك بما كان لابن الأحمر من إعانة السلطان أبي العباس على ملك المغرب حتى تم له، وبما كان تحت يده من أبناء الملوك المرشحين للأمر، فكان أبو العباس وحاشيته يصانعونه لأجل ذلك، والله تعالى أعلم.

الأحمر يسأل منه إعادة السلطان أبي العباس إلى ملكه فأخرجه ابن الأحمر من الاعتقال وجاء به إلى جبل الفتح يروم إجازته إلى العدوة، فلما توفي السلطان موسى بدا للوزير مسعود في أمره ودس لابن الأحمر في رده وأن يبعث إليه بالواثق هذا ورآه أليق بالاستبداد والحجر، فأسعفه ابن الأحمر في ذلك ورد السلطان أحمد إلى مكانه بالحمراء وجيء بالواثق.

قال في «الجذوة»: «بويع السلطان الواثق بالله أبو زيان محمد بن أبي الفضل يوم الجمعة الخامس عشر من شوال سنة ثمان وثمانين وسبعمائة، وقام بأمره الوزير مسعود بن ماساي، ثم حدثت الفتنة بين الوزير المذكور وابن الأحمر بسبب أن الوزير طلب منه إعادة سبتة إلى الإيالة المرينية - وكان موسى ابن أبي عنان قد نزل له عنها كما مر - وكان طلبه على سبيل الملاطفة، فاستشاط ابن الأحمر غضباً وأساء الرد فجهز ابن ماساي العساكر لحصار سبتة فاستولى عليها، ثم سرح ابن الأحمر السلطان أبي العباس من اعتقاله وبعثه إلى المغرب لطلب ملكه وللتشغيب على ابن ماساي الجاحد لإحسانه، فعبر السلطان أبو العباس البحر إلى المغرب فاحتل سبتة واستولى عليها، ثم تقدم إلى فاس فحاصرها وضيق على ابن ماساي وسلطانه الواثق بالله، وأهرع الناس إلى الدخول في طاعته حتى من مراكش، فاستمر الحصار على فاس الجديد ثلاثة أشهر، ثم أذعن الوزير مسعود للطاعة على شرط أن يبقى وزيراً ويغرب سلطانه إلى الأندلس فأجيب وخلع الواثق بالله، ثم خرج إلى السلطان أبي العباس فبايعه وتقدم أمامه فدخل داخل ملكه يوم الخميس خامس رمضان سنة تسع وثمانين وسبعمائة، ولحين دخوله قبض على الواثق بالله فقيده وبعث به إلى طنجة فقتل بها بعد ذلك وسنه يوم قتل ثمان وثلاثون سنة وبها قُبر».

الخبر عن الدولة الثانية للسلطان

أبي العباس بن أبي سالم بن أبي الحسن

لما دخل السلطان أبو العباس حضرة فاس الجديد في التاريخ المتقدم بويع البيعة العامة في اليوم الثالث من دخوله وهو يوم السبت السابع من رمضان سنة تسع وثمانين وسبعمائة لمضي ثلاث سنين وخمسة أشهر وستة أيام من خلعه.

الخبر عن دولة السلطان المتوكل على الله
أبي فارس موسى ابن أبي عنان بن أبي الحسن

[٢٢٩] بويع يوم الخميس الموفي عشرين من شهر ربيع الأول سنة ست وثمانين وسبعمائة، وقام بأمر دولته وزيره مسعود بن ماساي مستبداً عليه.

وفاة السلطان موسى بن أبي عنان رحمه الله

لما كان من استبداد ابن ماساي على السلطان موسى ما قدمناه استنكف من ذلك وداخل بطانته في الفتك به، فنما ذلك إليه وحصلت له نفرة من السلطان طلب لأجلها البعد عنه، وبادر إلى الخروج لدافعة الحسن بن الناصر القائم بغمارة، واستخلف على دار الملك أخاه يعيش بن عبد الرحمن بن ماساي، فلما انتهى إلى قصر كتامة بلغه الخبر بوفاة السلطان موسى، وكانت وفاته في جمادى الآخرة طرقه المرض فهلك ليوم وليلة من مرضه وكان الناس يرمون يعيش أخا الوزير بأنه سمه، وله إحدى وثلاثون سنة، فكانت دولته سنتين وأربعة أشهر.

الخبر عن دولة المنتصر بالله السلطان
أبي زيان محمد بن أبي العباس ابن أبي سالم بن أبي الحسن

[٢٣٠] بويع بعد خاله موسى بن أبي عنان يوم الجمعة الثالث من شهر رمضان سنة ثمان وثمانين وسبعمائة، وسنه يوم بويع خمس سنين وخلع يوم الجمعة الخامس عشر من شوال من السنة المذكورة وغُرب إلى الأندلس مع أبيه فكانت دولته ثلاثة وأربعين يوماً تحت استبداد الوزير.

الخبر عن دولة السلطان الواثق بالله
أبي زيان محمد بن أبي الفضل بن أبي الحسن

[٢٣١] كان قبل ولايته عند ابن الأحمر بالأندلس في جملة القرابة، ولما استوحش الوزير مسعود من السلطان موسى بن أبي عنان بعث ابنه يحيى إلى ابن

[٢٣٣] واعلم أنه في آخر هـٰذا القرن الثامن تبدلت أحوال المغرب، بل وأحوال المشرق، ونَسخ الكثير من عوائد الناس ومألوفاتهم وأزيائهم.

الخبر عن دولة السلطان
أبي سعيد عثمان بن أبي العباس ابن أبي سالم

[٢٣٤] هـٰذا السلطان هو ثالث الإخوة الأشقاء من بني أبي العباس الذين ولوا الأمر، بويع بعد صلاة العصر من يوم الثلاثاء الموفي ثلاثين من جمادىٰ الآخرة سنة ثمانمائة وسنه يومئذ ست عشرة سنة، وكان النقض والإبرام وسائر التصرفات في دولته للوزراء والحجاب، والسلطان متفرغ لاستيفاء لذاته.

[٢٣٥] استيلاء البرتغال على مدينة سبتة أعادها الله

كان جنس البرتغال وهو البردقيز في هـٰذه السنين قد كثر بعد القلة، واعتز بعد الذلة، وظهر بعد الخمول، وانتعش بعد الذبول، فانتشر في الأقطار وسما إلىٰ تملك الأمصار، فانتهىٰ إلىٰ أطراف السودان بل وأطراف الصين علىٰ ما قيل، وألح علىٰ سواحل المغرب الأقصىٰ فاستولىٰ في سنة ثمان عشرة وثمانمائة علىٰ مدينة سبتة ـ أعادها الله ـ بعد محاصرته لها حصاراً طويلاً، وسلطان المغرب يومئذ أبو سعيد بن أحمد، وسلطان البرتغال يومئذ خوان الأول.

ولما استولىٰ البرتغال علىٰ سبتة اعتنىٰ بها وحصنها واستمرت في ملكتهم مدة تزيد علىٰ مائتين وخمسين سنة، ثم ملكها منهم طاغية الإصبنيول في سبيل مهادنة وشروط انعقدت بينهم بمدينة أشبونة في حدود الثمانين وألف.

وتوفي السلطان المذكور سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة، وولي الأمر من بعده ابنه عبد الحق الأخير.

[٢٣٦] الخبر عن دولة السلطان عبد الحق
ابن أبي سعيد ابن أبي العباس بن أبي سالم المريني رحمه الله

هـٰذا السلطان هو آخر ملوك بني عبد الحق من بني مرين، وهو أطولهم مدة، وأعظمهم محنة وشدة، وهو أبو محمد عبد الحق بن أبي سعيد عثمان ابن أبي

[٢٣٢] ولما ملك أمر نفسه قبض على الوزير ابن ماساي وعلى إخوته وحاشيته وامتحنهم امتحانًا بليغًا فهلكوا من العذاب، ثم سلط على مسعود من العذاب والانتقام ما لا يعبر عنه، واعتد عليه بما كان يفعله في دور بني مرين النازعين عنه إليه، فإنه كان متى هرب منهم أحد عمد إلى بيوته فنهبها، فأمر السلطان أبو العباس بعقابه في أطلالها، فكان يؤتى به إلى كل بيت منها فيضرب عشرين سوطًا إلى أن برح به العذاب وتجاوز الحد، ثم أمر به فقُطعت أربعته فهلك عند قطع الثانية وذهب مثلاً للآخرين.

وفاة السلطان أبي العباس بن أبي سالم رحمه الله

كانت وفاة السلطان أبي العباس فاتح سنة ست وتسعين وسبعمائة وسنه يومئذ تسع وثلاثون سنة فكانت دولته الثانية ست سنين وأربعة أشهر.

الخبر عن دولة السلطان المستنصر بالله أبي فارس عبد العزيز ابن أبي العباس بن أبي سالم رحمه الله

لما توفي السلطان أبو العباس بن أبي سالم - رحمه الله - كان ابنه أبو فارس هذا بتلمسان فاستدعاه رجال الدولة منها فقدم عليهم، وبايعوه يوم السبت التاسع من محرم سنة ست وتسعين وسبعمائة.

توفي - رحمه الله - يوم السبت ثامن صفر سنة تسع وتسعين وسبعمائة فكانت دولته ثلاث سنين وشهراً.

الخبر عن دولة السلطان المستنصر بالله أبي عامر عبد الله ابن أبي العباس بن أبي سالم رحمه الله تعالى

هذا السلطان شقيق الذي قبله، بويع بعد أخيه عبد العزيز يوم السبت الثامن من صفر سنة تسع وتسعين وسبعمائة، وكان التصرف والنقض والإبرام في هذه المدة كلها للوزراء.

وتوفي السلطان المذكور بعد صلاة العصر من يوم الثلاثاء الموفي ثلاثين من جمادى الآخرة سنة ثمانمائة، فكانت دولته سنة وخمسة أشهر سوى أيام.

بمكان، فلما رأى السلطان عبد الحق فعل الوزير واستحواذه على أمور الدولة وتبين له أن الوطاسيين قد التحفوا معه رداء الملك وشاركوه في بساط العز وكادوا يغلبونه على أمره سطا بهم سطوة استأصلت جمهورهم، إلّا من حماه الأجل منهم، فتقبض على الوزير يحيى وعلى أخويه أبي بكر وأبي شامة وعلى عمهم فارس بن زيان وقريبهم محمد بن علي بن يوسف، وأتى الذبح على جميعهم واستمر البحث عن محمد الشيخ ومحمد الحلو أخوي الوزير المذكور فلم يوجدا لذهاب الشيخ في ذلك اليوم للصيد واختفاء الحلو عند قيام الهيعة، فكان ذلك من لطف الله بهما، واتصل بهما ما جرى على عشيرتهم وبني أبيهم فذهبا إلى منجاتهما وكان من أمرهما ما نذكره.

وكانت هذه الحادثة الصماء بعد مضي سبعين يومًا من وزارة يحيى بن يحيى المذكور، وصفا للسلطان عبد الحق أمره ورأى أن قد شفا نفسه من الوطاسيين، وأبرأ جسم ملكه من مرضهم، والله غالب على أمره.

[٢٣٩] رياسة اليهوديين هرون وشاويل وما نشأ عن استبدادهما من المحنة والفتنة

قالوا: كان السلطان عبد الحق منذ أوقع ببني وطاس لم تسمح نفسه بإعطاء منصب الوزارة لأحد، ثم نما إليه أن العامة وكثيراً من الخاصة قد نقموا عليه إيقاعه بالوطاسيين، وأن أذنهم صاغية إلى محمد الشيخ صاحب آصيلا، وكان قد استولى عليها بعد فراره حسبما نذكر، وربما شافهه البعض منهم بذلك، فولى عليهم اليهوديين المذكورين تأديبًا لهم وتشفيًا منهم -زعموا- فشرع اليهوديان في أخذ أهل فاس بالضرب والمصادرة على الأموال، واعتز اليهود بالمدينة وتحكموا في الأشراف والفقهاء فمن دونهم، وكان اليهودي هرون قد ولى على شرطته رجلاً يقال له الحسين لا يألو جهدًا في العسف واستلاب الأموال، واستمر الحال على ذلك والناس في شدة.

[٢٤٠] وفي سنة سبع وستين وثمانمائة انتزع الإصبنيول جبل طارق من يد ابن الأحمر.

[٢٤١] استيلاء البرتغال على طنجة

ثم في سنة تسع وستين وثمانمائة استولى البرتغال على طنجة، زحفوا إليها من سبتة في ألوف من العساكر واستولوا عليها، واستمرت بأيديهم أكثر من مائتين وخمس سنين ثم بذلوها لطاغية الانجليز سنة أربع وسبعين وألف في سبيل المهاداة والصهر الذي انعقد بينهما.

[٢٤٢] مقتل السلطان
عبد الحق بن أبي سعيد، والسبب في ذلك

ثم إن اليهودي عمد إلى امرأة شريفة من أهل حومة البليدة فقبض عليها والبليدة حومة بفاس، قالوا: وكانت بدار الكومي قرب درب جنيارة فأنحى عليها بالضرب، ولما ألهبتها السياط جعلت تتوسل برسول الله ﷺ فحمي اليهودي وكاد يتميز غيظًا من سماع ذكر الرسول، وأمر بالإبلاغ في عقابها، وسمع الناس ذلك فأعظموه، وتمشت رجالات فاس بعضهم إلى بعض، فاجتمعوا عند خطيب القرويين الفقيه أبي فارس عبد العزيز بن موسى الورياكلي وكانت له صلابة في الحق وجلادة عليه، بحيث يلقي نفسه في العظائم ولا يبالي، وقالوا له: ألا ترى إلى ما نحن فيه من الذلة والصغار وتحكم اليهود في المسلمين والعبث بهم حتى بلغ حالهم إلى ما سمعت، فنجع كلامهم فيه وللحين أغراهم بالفتك باليهود، وخلع طاعة السلطان عبد الحق وبيعة الشريف أبي عبد الله الحفيد، فأجابوه إلى ذلك واستدعوا الشريف المذكور فبايعوه، والتفت عليه خاصتهم وعامتهم، وتولى كبر ذلك أهل حومة القلقليين منهم، ثم تقدم الورياكلي بهم إلى فاس الجديد فصمدوا إلى حارة اليهود فقتلوهم واستلبوهم واصطلموا نعمتهم واقتسموا أموالهم، وكان السلطان عبد الحق يومئذ غائبًا في حركة له ببعض النواحي، فاتصل بعبد الحق الخبر وانفض مسرعًا إلى فاس واضطرب عليه أمر الجند، ففسدت نياتهم، وتنكرت وجوههم، وصار في كل منزلة تنفض عنه طائفة منهم، فأيقن عبد الحق بالنكبة وعاين أسباب المنية.

ولما قرب من فاس استشار هارون اليهودي فيما نزل به فقال اليهودي له:

لا تقدم على فاس لغليان قدر الفتنة بها وإنما يكون قدومنا على مكناسة الزيتون

العباس أحمد بن أبي سالم إبراهيم بن أبي الحسن علي بن أبي سعيد عثمان بن أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق الزناتي المريني، أمه علجة إصبنيولية على ما ذكره منويل، وفي أيامه ضعف أمر بني مرين جداً وتداعى إلى الانحلال، وكان التصرف للوزراء والحجاب شأن دولة أبيه من قبله على ما نذكره.

[٢٣٧] زحف البرتغال إلى طنجة ورجوعهم عنها بالخيبة

قال منويل[1]: كان لطاغية البرتغال خمسة إخوة شجعان، فأرادوا أن يدركوا فخراً باستيلائهم على ثغر من ثغور المغرب، يضيفونه إلى سبتة ويوسعون به ما ملكوه من أعمالها، فركبوا قراصينهم في ستة آلاف عسكري ونزلوا بسبتة، ثم زحفوا إلى طنجة سنة إحدى وأربعين وثمانمائة وحاصروها وضيقوا على أهلها، ثم عاجلهم سلطان فاس وسلطان مراكش وأرهقوهم عن فتحها، وأوقعوا بهم، وقبضوا على كبير عسكرهم فرناندو وجماعة من أصحابه وعادوا بهم أسرى إلى فاس، فلما صارت عظماء البرتغال في يد المسلمين وأسرهم، جنحوا إلى السلم فسالمهم المسلمون على أن يردوا لهم سبتة ويسرحوا لهم كبيرهم وأصحابه الذين معه، فرضي البرتغال بذلك وانعقد الصلح عليه، ثم كان من قدر الله أن هلك كبير البرتغال الذي وقع الشرط عليه، في سجن فاس واستمرت سبتة في يد العدو، وعُدَّ ذلك من سوء بخت المسلمين، والأمر لله وحده.

[٢٣٨] وزارة يحيى بن يحيى الوطاسي ومقتله ومقتل الوطاسيين معه والسبب في ذلك

لما توفي الوزير علي بن يوسف رحمه الله قدم للوزارة بعده أبو زكرياء يحيى بن يحيى بن عمر بن زيان الوطاسي، قالوا: فكانت ولاية هذا الوزير هي مبدأ الشر ومنشأ الفتنة، وذلك أنه لما استقل بالحجابة أخذ في تغيير مراسم الملك وعوائد الدولة، وزاد ونقص في الجند ونقض جل ما أبرمه قبله الوزراء، وعامل الرعية بالعسف، ومن جملة ما نُقم عليه أنه عزل قاضي فاس الفقيه أبا عبد الله محمد بن محمد بن عيسى بن علال المصمودي، وكان المصمودي من الدين وتحرى المعدلة

---

(١) قلت: هو مؤرخ نصراني كان الشيخ المصنف ينقل من كتبه بعض الأخبار.

لأنها بلدنا وبها قوادنا وشيعتنا، وحينئذ يظهر لنا ما يكون، فما استتم اليهودي كلامه حتى انتظمه بالرمح رجل من بني مرين يقال له: تيان، وعبد الحق ينظر، وقال: وما زلنا في تحكم اليهود واتباع رأيهم والعمل بإشارتهم، ثم تعاورته الرماح من كل جانب وخر صريعًا لليدين والفم.

ثم قالوا للسلطان عبد الحق: تقدم أمامنا إلى فاس فليس لك اليوم اختيار في نفسك، فأسلم نفسه، وانتهبت محلته، وفيئت أمواله وحلت به الإهانة، وجاءوا به إلى أن بلغوا عين القوادس خارج فاس الجديد، فاتصل الخبر بأهل فاس وسلطانهم الحفيد فخرج إلى عبد الحق وأركبه على بغل بالبردعة، وانتزع منه خاتم الملك وأدخله البلد في يوم مشهود حضره جمع كبير من أهل المغرب وأجمعوا على ذمه وشكروا الله على أخذه، ثم جُنِّب إلى مصرعه فضربت عنقه صبيحة يوم الجمعة السابع والعشرين من رمضان سنة تسع وستين وثمانمائة ودفن ببعض مساجد البلد الجديد، ثم أخرج بعد سنة ونقل إلى القلة فدفن بها، وانقرضت بمهلكه دولة بني عبد الحق من المغرب والبقاء لله وحده (١).

[٢٤٣] أخبار البرتقال(٢) بالمغرب الأقصى على الجملة

اعلم أن هذا المغرب الأقصى ـ حرسه الله ـ وكلأه بعين حفظه لم يزل بجميع ثغوره وسواحله وأقطاره منذ الفتح الإسلامي إلى المائة التاسعة محفوظ الجوانب من طروق أمم الفرنج وغيرهم من أعداء الدين، محفوف الأكناف بالحامية من جنود المسلمين، مرهوبة شوكة ملوكه عند أمم النصرانية جيلاً بعد جيل، وأمة بعد أمة، ودولة بعد دولة، لم تكن الفرنج تحدث نفسها بغزو شيء من بلاده، أو طرق ثغر من ثغوره، أو الاستيلاء على شيء من سواحله، ولم يكن أهله أيضًا يتوقعون ذلك منهم ولا يخشونه، بل هم الذين كانوا يغزون الفرنج في عقر ديارهم وأعز بلادهم، ويحامون عن بلاد الأندلس وسواحل إفريقية وغيرها متى هاج أهلها هيج من ذلك ـ حسبما تقدمت الأخبار المفصحة عن ذلك ـ ولم يبلغنا أن جنسًا من أجناس الفرنج فيما قبل المائة التاسعة غزا شيئًا من أطراف المغرب الأقصى، أو ثغرًا من ثغوره بقصد

(١) وكانت دولته منذ تاريخ وفاة والده أبي سعيد ستًا وأربعين سنة.

(٢) قلت: أي البرتغال.

الاستيلاء والتملك، إلّا ما كان من مدينة سلا التي دخلها الإصبنيول غدراً أيام الفتنة بين اليعقوبين ثم خرجوا عنها لمدة يسيرة ـ حسبما مر ـ وإلا ما كان من محاصرة أهل جنوة لسبتة ثم الإقلاع عنها كذلك، ونحو هٰذا مما لا يعتبر، فلما دخلت المائة التاسعة ومضى صدرها وتداعت دول المغرب من بني أبي حفص بإفريقية، وبني زيان بالمغرب الأوسط، وبني مرين بالمغرب الأقصى، وبني الأحمر بالأندلس، وأشرفت على الهرم، وحدثت الفتن بين المسلمين، ودامت فيهم واشتغلوا بأنفسهم دون الالتفات إلى جهاد العدو ومطالبته في أرضه وبلاده على ما كان لهم من العادة قبل ذلك، وافق ذلك ابتداء ظهور الجلالقة وهم الإصبنيول والبرتغال، وهم البرطقيز، بجزيرة الأندلس واستفحال أمرهم، فكثرت أسفار البرتغال في البحر المحيط ودام تقلبهم فيه، ومرنوا عليه حتى حصلوا على عدة جزائر منه، واكتشفوا بعض الرؤوس الساحلية من أرض السودان وغيرها، ثم شرهوا لتملك سواحل المغرب الأقصى، فهجموا عليها وجالدوا أهلها دونها حتى تمكنوا منها ونشبوا فيها، فقويت شوكتهم وعظم ضررهم على الإسلام، وطمحت نفوسهم للاستيلاء على ما وراء ذلك حسبما تقف عليه مبينًا في مواضعه إن شاء الله.

فاستولوا في سنة ثمان عشرة وثمانمائة على مدينة سبتة بعد محاصرتهم لها ست سنين على ما في بعض تواريخ الإفرنج.

ثم في سنة اثنتين وستين وثمانمائة استولوا على قصر المجاز.

ثم استولوا في سنة تسع وستين وثمانمائة على طنجة.

ثم في حدود سنة ست وسبعين وثمانمائة ملكوا آصيلا.

وفي هٰذا التاريخ نفسه أو قبله بيسير استولوا على مدينة آنفا وبعض سواحل السوس.

ثم في حدود سنة سبع وتسعمائة نزلوا بأرض الجديدة فيما بين آزمور وتيط وبنوا بها حصن البريجة وطال مقامهم بها.

ثم في سنة عشر وتسعمائة استولوا على مدينة العرائش.

ثم بعد ذلك بيسير في حدود العشر وتسعمائة على ما تقتضيه تواريخ الفرنج ملكوا حصن آكادير وما اتصل به من سواحل السوس الأقصى.

ثم ملكوا في حدود اثنتي عشرة وتسعمائة رباط آسفي.

ثم عطفوا على ثغر آزمور فاستولوا عليه في سنة أربع عشرة وتسعمائة.

ثم المعمورة ـ وهي المهدية ـ ملكوها أيضًا في حدود سنة عشرين وتسعمائة.

وفي هـٰذا التاريخ نفسه رجعوا إلى مدينة آنفا بعد هدمها فبنوها وسكنوها.

وبالجملة، فلم يبق من ثغور المغرب الأقصى بيد المسلمين إلّا القليل مثل سلا ورباط الفتح وفجئ المسلمون من هـٰذا البرتغال بالأمر العظيم، ودهوا منه بالخطب الجسيم، واستحوذ عدو الله على بلاد الهبط وضايقهم بها حتى انحازوا إلى الأمصار المنزوية عن الأطراف والقرى النائية عن السواحل، وكان ذلك كله فيما بين انقراض دولة بني وطاس وظهور دولة الشرفاء السعديين.

ولما نزل بأهل المغرب الأقصى ما نزل من غلبة عدو الدين واستيلائه على ثغور المسلمين، تباروا في جهاده وقتاله، وأعملوا الخيل والرجل في مقارعته ونزاله، وتوفرت دواعي الخاصة منهم والعامة على ذلك، وصرفوا وجوه العزم لتحصيل الثواب فيما هنالك، فكم من رئيس قوم قام لنصرة الدين غيرة واحتسابًا، وكم من ولي عصر أو عالم مصر باع نفسه من الله ورأى ذلك صوابًا حتى لقد استشهد منهم أقوام وأسر آخرون، وبلغ الله ـ تعالى ـ جميعهم من الثواب ما يرجون، ولقد ألف الناس في ذلك العصر التآليف في الحض على الجهاد والترغيب فيه، وقال الخطباء والوعاظ في ذلك فأكثروا، ونظم الشعراء والأدباء فيه ونثروا.

[٢٤٤] وممن نظم في ذلك فأجاد، الشيخ الصالح المتصوف المجاهد أبو عبد الله محمد بن يحيى البهلولي، قال في «الدوحة»: كان هـٰذا الشيخ ممن لازم باب الجهاد وفتح له فيه، وله في ذلك أشعار وقصائد زجليات وغيرها» وكان معاصرًا للسلطان أبي عبد الله محمد ابن محمد الشيخ الوطاسي المعروف بالبرتغالي، فكان إذا جاءه زائرًا حضه على الغزو فيساعده على ما أراد من ذلك، ولما توفي السلطان المذكور، ودالت الدولة لولده السلطان أحمد، وغص بالشرفاء القائمين عليه ببلاد السوس، عقد الهدنة مع النصارى المجاورين له ببلاد الهبط وصاحبهم سلطان البرتغال، فبلغ ذلك الشيخ أبا عبد الله المذكور فآلى على نفسه أن لا يلقى السلطان المذكور، ولا يمشي إليه، ولا يقبل منه ما كان عينه له والده من جزية أهل الذمة بفاس لقوته

وأمثال هـٰذا كثير ذكرنا منه هـٰذه النبذة اليسيرة لتقف بها على أحوال القوم وما كانوا عليه من الرغبة في الجهاد والمثابرة عليه، قدس الله أرواحهم، وجعل في دار النعيم غدوهم ورواحهم.

وقد آن أن نشرع في الأخبار عن دولة بني وطاس بعد أن نذكر دولة الشريف العمراني الذي بايعه أهل فاس يوم مقتل السلطان عبد الحق بن أبي سعيد رحمه الله.

الخبر عن دولة الشريف أبي عبد الله الحفيد وأوليته

هـٰذا الشريف هو أبو عبد الله محمد بن علي الإدريسي الجوطي العمراني من بيت بني عمران فرقة من أدارسة فاس، وهم واسطة عقد البيت الإدريسي، وأوضحهم نسبًا، وأعلاهم حسبًا.

بيعة السلطان أبي عبد الله الحفيد والسبب فيها

كان بنو مرين أيام ولايتهم على المغرب يعظمون هـٰؤلاء الأشراف الأدارسة ويوجبون حقهم، ويتقربون إلى الله ـ تعالى ـ برفع منزلتهم وجبر خواطرهم؛ لما فاتهم من رتبة الخلافة التي كانت تكون لهم بطريق الاستحقاق الشرعيّ، فكان بنو مرين لما جبلوا عليه من الجنوح إلى مراسم الدين وانتحالها يرون في أنفسهم كأنهم متغلبون مع وجود هـٰؤلاء الأشراف، فلذا كانوا يخضعون لهم، ويتأدبون معهم ما أمكن.

ولقد حكى أبو عبد الله بن الأزرق: أن الشيخ الكبير أبا عبد الله المقري كان يحضر مجلس السلطان أبا عنان ليث العلم، وكان نقيب الشرفاء بفاس إذا دخل مجلس السلطان يقوم له السلطان وجميع من في المجلس إجلالاً له، إلَّا الشيخ المقري فإنه كان لا يقوم له، فجرت بين الشريف والفقيه المذكور معاتبة ومراجعة في حكاية مشهورة، تركناها لعدم تعلق الغرض بها (١) إذ الغرض هو الوقوف على ما كان عليه القوم من التجلة والتعظيم لأهل هـٰذا البيت الكريم، فلما اضطربت أحوال الدولة المرينية بفاس واجتمع رؤساء فاس إلى الفقيه أبي فارس الورياكلي في شأن اليهوديين اللّذين كانا يحتكمان في المدينة ويعتسفان أهلها، أجمع رأيهم على مبايعة هـٰذا

(١) قال المحقق براجع ذلك في «نيل الابتهاج بتطريز الديباج» للشيخ أحمد بابا ص٢٥٤ طبع فاس نفح الطيب» للمقري (٣/ ١٤٨).

الخبر عن دولة السلطان أبي عبد الله
محمد الشيخ بن أبي زكرياء الوطاسي رحمه الله

قد تقدم لنا ما كان من إيقاع السلطان عبد الحق ببني وطاس وإفلات محمد الشيخ ومحمد الحلو من النكبة، وأن الشيخ كان قد خرج للصيد فاتصل به الخبر فذهب على وجهه لا يلوي على شيء، وأن الحلو اختفى حتى إذا سكنت الهيعة تسلل ولحق بالشيخ فسارا إلى جهة الصحراء، وجعلا يترددان فيما بينها وبين البلاد الهبطية حتى ملكا آصيلا، وذلك قبل استيلاء البرتغال عليها.

ولما ملك الشيخ آصيلا واستفحل أمره بها تشوفت إليه الأعيان من أهل فاس والرؤساء من أهل دولة السلطان عبد الحق، وصاروا يكاتبونه ويقدمون إليه الوسائل سرًا، وربما دعوه إلى القدوم على أن يبذلوا له من الطاعة والنصرة ما شاء، فاستمر الحال على ذلك إلى أن قتل عبد الحق وبويع الحفيد، فحينئذ أرهف الشيخ حده، واستفرغ في المطالبة جهده، إلى أن استولى على الحضرة وصفا له ملك المغرب.

قال في «المرآة»: «لما بايع أهل فاس أبا عبد الله الحفيد قام محمد الشيخ الوطاسي في آصيلا واستتبع القبائل واستفحل أمره، وحاصر فاسًا وقتًا بعد وقت إلى أن دخلت في طاعته في رمضان سنة ست وسبعين وثمانمائة، وخرج عنها الحفيد ودخلها محمد الشيخ المذكور في أوائل شوال من السنة المذكورة وهو مورث الملك لبنيه بها» اهـ.

وقد تقدم لنا أن الذي خلع الشريف من الملك هو أبو الحجاج يوسف بن منصور الوطاسي، وأن حضرة فاس الجديد قد بقيت بعد ذهاب الشريف إلى تونس في يد زهور الوطاسية والقائد السجيري إلى أن قدم السلطان محمد الشيخ والله - تعالى - أعلم.

[٢٤٨] بناء مدينة تطاوين(١)

قال منويل: «لما استولى الإصبنيول على غرناطة خرج جماعة كبيرة من أهلها إلى

(١) قلت: وهي تطوان اليوم.

وضرورياته، فمكث على ذلك إلى أن حضرته الوفاة، وكان في النزع وأصحابه دائرون به فقال له بعضهم: يا سيدي أخبرك أن السلطان أمر بالغزو ونادى به وحض الناس عليه، والمسلمون في شرح لذلك وفرح، ففتح الشيخ عينيه وتهلل وجهه فرحًا وحمد الله وأثنى عليه، ففاضت نفسه وهو مسرور بذلك، ولهذا الشيخ زجليات ومقطعات حسان في الحض على الجهاد، قال صاحب «الدوحة»:

[٢٤٥] حدثني الفقيه العدل أبو العباس أحمد الدغموري القصري، قال: كان الشيخ أبو عبد الله يقول: ما غزونا غزوة قط إلَّا رأيت رسول الله ﷺ فيها، ويخبرني بجميع ما يتفق لي ولأصحابي في تلك الغزوة.

[٢٤٦] وله ﵁ في شأن الجهاد والرجولية حكاية ظريفة وهي أنه غزا مرة غزوة إلى الثغور الهبطية ثم قدم منها مع أصحابه فوجد زوجته فلانة بنت الشيخ أبي زكرياء يحيى بن بكار قد توفيت وصلى الناس عليها بجامع القرويين، وإمامهم الشيخ غازي بن الشيخ أبي عبد الله محمد بن غازي الإمام المشهور، فوصل الشيخ أبو عبدالله ووجد جنازتها على شفير القبر والناس يحاولون دفنها فقال لهم: مهلاً ثم تقدم وأعاد الصلاة عليها مع أصحابه الذين قدموا معه، فبادر الناس إليه بالإنكار في تكرير الصلاة في الجنازة بالجماعة مرتين، **فقال لهم على البديهة:**

«صلاتكم التي صليتم عليها فاسدة، لكونها بغير إمام.

فقالوا له: كيف ذلك يا سيدي؟

قال: لأن من شرط الإمام الذكورية وهي مفقودة في صاحبكم؛ لأن الذي لم يتقلد سيفًا في سبيل الله قط، ولم يضرب به، ولا عرف الحرب كما كان نبينا ﷺ ولم يتعبد بالسيرة النبوية فكيف يعد إمامًا ذكرًا بل إمامكم والله من جملة النساء» اهـ.

[٢٤٧] وحكى أيضًا في ترجمة الشيخ أبي محمد عبد الله الورياكلي الذي قال له العلامة ابن مرزوق وقد عزم على الرحلة إلى بلاد المشرق في طلب العلم: «ليس أمامك أحد أعلم منك»، قال: «فرجع من هنالك فوجد النصارى قد تغلبوا على طنجة وآصيلا، فلازم الثغور الهبطية لأجل الرباط والجهاد في سبيل الله، وبث العلم ونشره»، قال: «وكان من عادته أن يشتغل بالتدريس في فصلي الشتاء والربيع، ويخرج في الصيف والخريف فيرابط في ثغور القبائل الهبطية» إلى آخر كلامه،

المغرب فنزلوا في مرتيل قرب تطاوين، ولما نزلوا به لم يقدموا شيئًا على الوفادة على سلطان فاس محمد الشيخ الوطاسي، فأجل مقدمهم ورحب بهم، فقالوا: إن ضيافتنا عندك أن تعين لنا موضعًا نبني فيه بلدًا يكننا ونحفظ فيه عيالنا من أهل الريف، فأجابهم إلى مرادهم، وعين لهم مدينة تطاوين الخربة منذ تسعين سنة، وولى عليهم كبيرهم أبا الحسن عليًا المنظري، وكان رجلاً شجاعًا من كبار جند ابن الأحمر، وكان قد أبلى معه في حرب غرناطة البلاء الحسن، ثم انتقل إلى المغرب كما قلنا، ولما عقد له الشيخ الوطاسي على أصحابه رجع بهم إلى تطاوين وشرع في بناء أسوار البلد القديم، فجدده وبنى المسجد الجامع به واستوطنه هو وجماعته، ثم أخذ في جهاد البرتغال بسبتة وبلاد الهبط إلى أن أسر منهم ثلاثة آلاف فاستخدمهم في إتمام ما بقي عليه من بناء تطاوين، واتصلت الحرب بينهم وبين برتقال سبتة كاتصالها بين أهل آزمور وبرتقال الجديدة» اهـ.

وفاة السلطان محمد الشيخ الوطاسي رحمه الله

ذكر ابن القاضي في «الجذوة»: أن وفاة السلطان المذكور كانت سنة عشر وتسعمائة.

الخبر عن دولة السلطان محمد بن محمد الشيخ الوطاسي المعروف بالبرتغالي رحمه الله

لما توفي السلطان محمد الشيخ بويع ابنه محمد البرتغالي في التاريخ المتقدم، وكان نصارى سبتة وطنجة وآصيلا قد استحوذوا على بلاد الهبط وضايقوا المسلمين بها حتى ألجأوهم إلى قصر كتامة، فكان هو الثغر يومئذ بين بلاد المسلمين وبلاد النصارى، وكان السلطان محمد هذا قد عُني بجهادهم وترديد الغزو إليهم والإجلاب عليهم حتى شُغل بذلك عن البلاد المراكشية وسواحلها، فكان ذلك سببًا لظهور الدولة السعدية بها سنة خمس عشرة وتسعمائة.

نهوض السلطان أبي عبد الله البرتغالي إلى مراكش ومحاصرته أبا العباس الأعرج السعدي بها

ظهور الدولة السعدية ببلاد السوس كان في سنة خمس عشرة وتسعمائة، وما

زال أمرهم في الزيادة إلى أن كانت دولة أبي العباس الأعرج منهم، فاستفحل أمره وبعد صيته، وفتك بنصارى السوس، فكاتبه أمراء هنتاتة أصحاب مراكش ودخلوا في طاعته، فانتقل إليها وملكها في حدود الثلاثين وتسعمائة.

ولما اتصل خبره بالسلطان أبي عبد الله وهو يومئذ بفاس قامت قيامته، وأقبل في جموع عديدة، ولما رأى أبو العباس السعدي ما لا قبل له به تحصن بمراكش وشحن أسوارها بالرماة، فتقدم السلطان أبو عبد الله ونصب الأنفاض على مراكش ودام الحصار عليها أيامًا، فوردت الأنباء على السلطان أبي عبد الله في تلك الليلة بأن بني عمه قد قاموا عليه بفاس ونبذوا دعوته، فأصبح من الغد راحلاً إلى فاس، ولم يعد لبني وطاس وصول بعدها إلى مراكش ولا إلى أعمالها.

وفاة السلطان أبي عبد الله رحمه الله

كانت وفاة السلطان أبي عبد الله البرتغالي سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة على ما في «الجذوة». ويؤخذ من «النزهة»: أنها كانت سنة اثنتين وثلاثين بعدها ـ والله أعلم ـ وولي الأمر من بعده أخوه أبو حسون بولاية عهده إليه.

[٢٤٩] الخبر عن الدولة الأولى للسلطان أبي حسون بن محمد الشيخ الوطاسي

هو أبو الحسن علي بن محمد الشيخ ابن أبي زكرياء يحيى بن زيان الوطاسي، ويعرف بأبي حسون البادسي.

قال في «النزهة»: «بويع بفاس سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة ثم قبض عليه ولد أخيه أبو العباس أحمد بن محمد البرتغالي وخلعه وأشهد عليه بالخلع آخر ذي الحجة من السنة المذكورة» انتهى.

الخبر عن دولة السلطان أبي العباس أحمد بن محمد الوطاسي رحمه الله تعالى

هو: أبو العباس أحمد بن أبي عبد الله محمد البرتغالي ابن أبي عبد الله محمد الشيخ ابن أبي زكرياء يحيى بن زيان الوطاسي، بويع يوم خلع عمه أبي حسون آخر

الشريف الحفيد، وكان يومئذ على نقابة الأشراف بفاس، فاستدعوه فحضر وبايعوه في العشر الأواخر من رمضان سنة تسع وستين وثمانمائة، وتم أمره، وكان من قتله للسلطان عبد الحق ما تقدم ذكره، والله أعلم.

خلع السلطان أبي عبد الله الحفيد وانقراض أمره

قال في «الجذوة»: لما قامت عامة فاس على السلطان عبد الحق وأقاموا هذا النقيب من أهل مدينة فاس إمامًا استمر بها، وابنه وزير له، إلى سنة خمس وسبعين وثمانمائة، فعزل عن الإمامة، وكان الذي خلعه أبا الحجاج يوسف بن منصور بن زيان الوطاسيّ، وكان ذلك سبب ذهاب الشريف المذكور إلى تونس لمدة يسيرة من خلعه، وبقيت حضرة فاس الجديد في يد أخت أبي الحجاج المذكور وهي الزهراء المدعوة بزهور، مع قائده السجيري، إلى أن تولى الأمر أبو عبد الله محمد الشيخ الوطاسي، والله غالب على أمره.

الخبر عن دولة بني وطاس وذكر نسبهم وأوليتهم

اعلم أن بني وطاس فرقة من بني مرين غير أنهم ليسوا من بني عبد الحق، ولما دخل بنو مرين المغرب واقتسموا أعماله حسبما تقدم، كان لبني وطاس هؤلاء بلاد الريف فكانت ضواحيها لنزولهم وأمصارها ورعاياها لجبايتهم، وكان بنو الوزير منهم يسمون إلى الرياسة ويروسون الخروج على بني عبد الحق، وقد تكرر ذلك منهم، ثم أذعنوا إلى الطاعة وراضوا أنفسهم على الخدمة، فاستعملهم بنو عبد الحق في وجوه الولايات والأعمال، واستظهروا بهم على أمور دولتهم، فحسن أثرهم لديها وتعدد الوزراء منهم فيها.

وذكر ابن خلدون: «أن بني الوزير هؤلاء يرون أن نسبهم دخيل في بني مرين، وأنهم من أعقاب يوسف بن تاشفين اللمتوني لحقوا بالبدو ونزلوا على بني وطاس ووشجت فيهم عروقهم حتى لبسوا جلدتهم، ولم يزل السرو متربعًا بين أعينهم لذلك والرياسة شامخة بأنوفهم». اهـ.

ذي الحجة من سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة.

عقد الصلح بين السلطانين أبي العباس الوطاسي وأبي العباس السعدي رحمهما الله تعالى

[٢٥٠] لما رأى أهل المغرب ما وقع بين السلطان أبي العباس أحمد الوطاسي صاحب فاس، وأبي العباس أحمد السعدي المعروف بالأعرج صاحب مراكش من التقاتل على الملك والتهالك عليه، وفناء الخلق بينهم، دخلوا في الصلح بينهم والتراضي على قسمة البلاد، وحضر لذلك جماعة من العلماء والصلحاء. وذكر في شرح «زهرة الشماريخ»: أن الصلح انبرم بين الطائفتين، على أن للأشراف من تادلا إلى السوس، ولبني وطاس من تادلا إلى المغرب الأوسط.

استيلاء السلطان محمد الشيخ السعدي على فاس وقبضه على بني وطاس ومهلك سلطانهم أبي العباس رحمه الله تعالى بفضله

لما غلب السلطان محمد الشيخ السعدي على أخيه أبي العباس الأعرج واستولى على مراكش [(١)]، طمحت نفسه للتوغل في بلاد الغرب وقراه، فتفرغ لحرب بني وطاس ونكث ما كان بينه وبينهم من الصلح، وردد إليهم البعوث والسرايا، وأكثر فيهم من شن الغارات، وصار يستلبهم البلاد شيئًا فشيئًا إلى أن استولى عليها، وكان أول ما ملك من أمصار الغرب مكناسة الزيتون، افتتحها عقب سنة خمس وخمسين وتسعمائة بعد حصار ومقاتلة، ثم تقدم إلى فاس فألح عليها بالقتال وضايقها بالحصار مدة قريبة من السنة، ثم استولى عليها بعد أن أسر سلطانها أبا العباس الوطاسي وصار في قبضته، وكان دخوله إياها أوائل سنة ست وخمسين وتسعمائة، ولما دخلها تقبض على الوطاسيين أجمع وبعث بهم مصفدين إلى مراكش، عدا أبا حسون المخلوع فإنه فر إلى الجزائر إلى أن كان من أمره ما نذكره.

---

(١) قلت: جاء في الأصل في (٤/ ١٥٦) عند الحديث عن وقعة وادي درنة بتادلا: «وكان سلطان السعديين يومئذ محمد الشيخ فإنه تغلب على أخيه الأعرج، وانتزع منه الملك وسجنه».

كانت وفاة السلطان أبي العباس الوطاسي بمراكش قرب سنة الستين وتسعمائة .

الخبر عن الدولة الثانية
للسلطان أبي حسون الوطاسي رحمه الله

[٢٥١]لما دخل السلطان أبو عبد الله محمد الشيخ السعدي إلى فاس سنة ست وخمسين وتسعمائة، وقبض على بني وطاس بها حسبما تقدم، فر أبو حسون هذا إلى ثغر الجزائر [1]حقنًا لدمه ومستجيشًا لتُركها على السعدي، وكان الترك قد استولوا على المغرب الأوسط وانتزعوه من يد بني زيان ـ كما سيأتي ـ فلم يزل أبو حسون عندهم ويحسن لهم بلاد المغرب الأقصى ويعظمها في أعينهم، ويقول: إن المتغلب عليها قد سلبني ملكي وملك آبائي، وغلبني على تراث أجدادي، فلو ذهبتم معي لقتاله لكنا نرجو الله ـ تعالى ـ أن يتيح لنا النصر عليه ويرزقنا الظفر به، ولا تعدمون أنتم مع ذلك منفعة من ملء أيديكم غنائم وذخائر، ووعدهم بمال جزيل فأجابوه إلى ما طلب وأقبلوا معه في جيش كثيف تحت راية باشاهم صالح التركماني المعروف بصالح رئيس، إلى أن اقتحموا حضرة فاس بعد حروب عظيمة ومعارك شديدة وفر عنها محمد الشيخ السعدي إلى منجاته.

وكان دخول السلطان أبي حسون إلى فاس ثالث صفر سنة إحدى وستين وتسعمائة، ولما دخلها فرح به أهلها فرحًا شديداً، وترجل هو عن فرسه وصار يعانق الناس كبيراً وصغيراً، شريفًا ووضيعًا، ويبكي على ما دهمه وأهل بيته من أمر السعديين، واستبشر الناس بمقدمه وتيمنوا بطلعته، وقبض على كبير فاس يومئذ القائد أبي عبد الله محمد بن راشد الشريف الإدريسي، واطمأنت به الدار ثم لم

---

(١) قال المحقق: ذكر المؤرخ أوكيسط كور الفرنسي في كتابه «قيام الدولتين الشريفتين بالمغرب» أن أبا حسون فر أولا إلى اصبانيا مستعدياً الإمبراطور شار نكان على عدوه السعدي فوجده بألمانيا، فالتحق به وحضر معه في حروبه، ولما طال انتظاره لنجدته ولم يفعل رجع أدراجه إلى اصبانيا ومنها دخل للبرتقال فأعطاه ملكها ست قطع من الأسطول لتعينه بشواطئ الريف فلم يتمكن من النزول لبلاد الريف، فتوجه حينئذ بحراً للجزائر وقيل أسره الأسطول الجزائري وهناك اتفق مع باشاها صالح رئيس على توجيه الجيش معه للمغرب كما هو معلوم.

يلبث السلطان أبو حسون إلّا يسيراً حتى كثرت شكاية الناس إليه بالترك، وأنهم مدوا أيديهم إلى الحريم، وعاثوا في البلاد، فبادر بدفع ما اتفق معهم عليه من المال وأخرجهم عن فاس وتخلف بها منهم نفر يسير.

مجيء السلطان محمد الشيخ السعدي إلى فاس واستيلاؤه عليها ومقتل السلطان أبي حسون رحمه الله

[٢٥٢] لما فر السلطان محمد الشيخ السعدي من وقعة الأتراك بفاس وصل إلى مراكش فاستقر بها وصرف عزمه لقتال أبي حسون، فأخذ في استنفار القبائل وانتخاب الأبطال، وتعبية العساكر والأجناد، فاجتمع له من ذلك ما اشتد به أزره وقوي به عضده، ثم نهض بهم إلى فاس فخرج إليه السلطان أبو حسون في رماة فاس وما انضاف إليهم من جيش العرب فكانت الهزيمة على أبي حسون فرجع إلى فاس وتحصن بها، فتقدم الشيخ السعدي وحاصره إلى أن ظفر به في وقعة كانت بينهما بالموضع المعروف بمسلمة، فقتله واستولى على حضرة فاس وصفا له أمرها، وكان استيلاؤه عليها يوم السبت الرابع والعشرين من شوال سنة إحدى وستين وتسعمائة على الصواب خلاف ما وقع في «الدوحة»، والله أعلم. وبمقتل السلطان أبي حسون ـ رحمه الله ـ انقرضت الدولة المرينية [1] بالمغرب، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

وبقي علينا الإلماع بأواخر دولة بني زيان ملوك تلمسان وكيف كان انقراض أمرهم، فلننشر إلى ذلك فنقول: كانت دولة بني زيان على ما علمت من الاضطراب سائر أيام بني مرين، وكان منهم في صدر المائة التاسعة السلطان الواثق بالله من أمثل ملوكهم؛ وغلبهم على تلمسان في تلك المدة السلطان أبو فارس عبد العزيز بن أحمد الحفصي فأخذوا بطاعته، ثم بعد موته سنة سبع وثلاثين وثمانمائة اعتزوا بعض الشيء إلى أن كانت دولة السلطان أبي عمرو عثمان بن محمد الحفصي، فغزا تلمسان أعوام السبعين وثمانمائة مرتين وفي الثانية هدم أسوارها وعزم على استئصال

(١) قلت: أي الوطاسية المرينية.

أهلها، إلىٰ أن تشفع إليه علماؤها وصلحاؤها فعفا عنهم.

[٢٥٣] وقال صاحب «بدائع السلك»: بقيت حال بني زيان متماسكة إلىٰ أن ظهر جنس الإصبنيول في صدر المائة العاشرة بعد ما تم له ملك الأندلس وعظمت شوكته، فطمح للتغلب علىٰ ثغور المغربين الأدنىٰ والأوسط، فاستولىٰ علىٰ بجاية سنة عشر وتسعمائة، ثم علىٰ وهران سنة أربع عشرة وتسعمائة وفعل بأهلها الأفاعيل، ثم سما لتملك الجزائر وشره لالتهامها، وضايق المسلمين في ثغورهم وضعف بنو زيان عن مقاومته.

[٢٥٤] وكان الشيخ الفقيه الصالح أبو العباس أحمد ابن القاضي الزواوي ممن له الشهرة والوجاهة الكبيرة في بسائط المغرب الأوسط وجباله، وكانت دولة العثامنة من الترك في هـٰذه المدة قد زخر عبابهم وملكت أكثر المسكونة، وظهر من قواد عساكرهم البحرية قائدان عظيمان وهما خير الدين باشا [1] وأخوه عروج باشا، وكانا قد تابعا الغزو علىٰ بلاد الكفر براً وبحراً، وأوقعا بأهل دول الأوربا وقائع شهيرة، وصار لهم ذكر في أقطار البلاد، وتمكن ناموسهم من قلوب العباد، فكاتبهم الفقيه أبو العباس المذكور وعرفهم بما المسلمون فيه من مضايقة العدو الكافر، وقال: إن بلادنا بقيت لك أو لأخيك أو للذئب، فأقبل الترك نحوه مسرعين، واستولىٰ عروج علىٰ ثغر الجزائر بعد ما كاد العدو يملكه فتخلصه منه، ثم استولىٰ علىٰ تلمسان وغلب بني زيان علىٰ أمرهم، وذلك سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة، واستمرت تلمسان في يد الترك إلىٰ أواسط صدر المائة الثالثة عشرة فاستولىٰ عليها الفرنسيس علىٰ ما نذكره إن شاء الله.

[٢٥٥] واعلم أنه كان في صدر هـٰذه المائة العاشرة أمور عظام منها ظهور دولة آل عثمان ملوك التركمان بالديار المشرقية، وما أضيف لها الظهور الذي لا كفاء له، وابتداء هـٰذه الدولة وإن كان قبل هـٰذا التاريخ بنحو مائتي سنة لكن إنما كان عنفوان شبابها وفيضان عبابها في هـٰذه المدة لاسيما في دولة سلطانهم الأعظم، وخاقانهم الأفخم سليمان بن سليمان خان، فإنه ملك أكثر المعمور، وقام بدعوته من الأمم

---

(١) قلت: وهو المعروف بـ«بربروس».

الجمهور، وخضعت ملوكهم لعزته، واستكانوا لصولته، وأعطوه يد المقادة، وآتوه من الطاعة والخضوع ما خالف العادة، ثم أوطأ عساكره المغربين الأدنى والأوسط فاستولى عليهما، وكاد يتناول الأقصى ويضيفه إليهما على ما تقف عليه في أخبار السعديين، إن شاء الله.







الجزء الخامس

الدولة السعدية

«القسم الأول»

الدولة السعدية

القسم الأول

الخبر عن دولة الأشراف السعديين من آل زيدان وذكر أوليتهم وتحقيق نسبهم

اعلم أن هـؤلاء السعديين كانوا يقولون إن أصل سلفهم من ينبع النخل، من أرض الحجاز، وأنهم أشراف من ولد محمد: النفس الزكية ﷺ وإليه كانوا يرفعون نسبهم.

[٢٥٦]قالوا: والسبب في قدوم سلفهم من الحجاز إلى المغرب أن أهل درعة كانت لا تصلح ثمارهم وتعتريها العاهات كثيراً، فقيل لهم: لو أتيتم بشريف إلى بلادكم كما أتى أهل سجلماسة لصلحت ثماركم كما صلحت ثمارهم، وقد كان أهل سجلماسة جاؤوا بالمولى الحسن بن قاسم بن محمد بن أبي القاسم من أرض ينبع في قصة ظريفة تأتي في محلها إن شاء الله، قالوا: فأتى أهل درعة بالمولى: زيدان بن أحمد، مضاهاة لأهل سجلماسة، فعادت عليهم بركته (١)

الخبر عن دولة الأمير أبي عبد الله محمد القائم بأمر الله وبيعته والسبب فيها

[٢٥٧] قال ابن القاضي في «درة السلوك»: «لم يزل أسلاف السعديين مقيمين بدرعة إلى أن نشأ منهم أبو عبد الله محمد القائم بأمر الله، فنشأ على عفاف وصلاح، وحج البيت الحرام، وكان مجاب الدعوة، ولقي جماعة من العلماء الأعلام والصلحاء العظام في وفادته على الحرمين الشريفين، أخبرني بعض الفضلاء أنه لقي رجلاً صالحًا بالمدينة الشريفة ـ على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ـ فأشار له بما يكون منه ومن ولديه، وكان قد رأى رؤيا وهي: أن أسدين خرجا من إحليله

---

(١)قلت: التبرُّك بالصالحين فيه خلاف بين علماء الملّة.

فتبعهما الناس إلى أن دخلا صومعة ووقف هو ببابها، فعبرت له رؤياه بأنه سيكون لولديه شأن، وأنهما يملكان الناس، ثم رجع إلى المغرب وهو معلن بالدعوة، فيقول في كل محفل: إن ولديه سيملكان المغرب وسيكون لهما شأن من غير تردد منه، ثقة بخبر الرجل الصالح وبرؤياه المذكورة، فما زال إلى أن قام سنة خمس عشرة وتسعمائة» اهـ.

[٢٥٨] وقال صاحب «زهرة الشماريخ» ما صورته:

«إن سبب قيام أبي عبد الله القائم أن أهل السوس أحاط بهم العدو الكافر ونزل بجوانبهم من كل جهة حتى أظلم الجو، واستحكمت شوكة البرتغال، وبقي المسلمون في أمر مريج لعدم أمير تجتمع عليه كلمة الإسلام؛ لأن بني وطاس فشلت ريحهم يومئذ في بلاد السوس، وإنما كان لهم الملك في حواضر المغرب، ولم يكن لهم منه بالسوس إلّا الاسم، مع ما كانوا فيه من قتال العدو بطنجة وآصيلا وحجر بادس وغيرها من ثغور بلاد الهبط، فلما رأى قبائل السوس ما دهمهم من تفاقم الأحوال وكثرة الأهوال وطمع العدو في بلادهم ذهبوا إلى الشيخ الصالح أبي عبدالله محمد بن مبارك الأقاوي - نسبة إلى آقة من بلاد السوس - فذكروا له ما هم فيه من افتراق الكلمة وانتشار الجماعة وكَلَب العدو على مباكرتهم بالقتال ومراوحتهم، وطلبوا منه أن يعقدوا له البيعة وتجتمع كلمتهم عليه فامتنع من ذلك، وقال: «إن رجلاً من الأشراف بتاجمدارت من درعة يقول: إنه سيكون له ولولديه شأن، فلو بعثتم إليه وبايعتموه كان أنسب بكم وأليق بمقصودكم»، فبعثوا إليه وكان من أمره ما كان.

[٢٥٩] وقال في «نشر المثاني»: «كان السبب في قيام الشرفاء الزيدانيين واستبدادهم بملك المغرب أن الحرب نشبت بين النصارى وأهل السوس ودامت، وكان بنو وطاس يمدون أهل السوس بالمال والعدد، فاتفق أن خرج الشريفان محمد الشيخ وأخوه أحمد الأعرج للجهاد مع أهل السوس فظهر مكانهما في الجهاد، فلما وفدا على الوطاسي تلقاهما بالرحب، وأقبل عليهما لأجل قيامهما بالجهاد، وأعطاهما عدة وخيولاً كثيرة، فرجعا إلى جهادهما، ثم عادا إليه مرة أخرى فأعطاهما مثل ذلك، وكانت لهما وقائع في النصارى ونكاية وظهور، وصارا يكتبان

إلىٰ القبائل فيساعدونهما علىٰ ذلك حتىٰ اجتمعت عليهم جموع عديدة، فحينئذ خلعا طاعة الوطاسي ودعوا لأنفسهما» اهـ.

[٢٦٠] أخبار الأمير أبي عبد الله القائم في الجهاد وما هيأ الله له من النصر فيه

لما استتب أمر الأمير أبي عبد الله القائم واجتمعت كلمة القبائل السوسية عليه ندب الناس إلىٰ مقارعة البرتغال وجهاده، ونفيه عن ثغور المغرب وبلاده، وكانت معه يومئذ جموع حافلة من المسلمين فصمدوا معه إلىٰ النصارىٰ وناوشوهم الحرب، فأتاح الله للأمير أبي عبد الله الفتح والنصر، ونثر أشلاء الكفار بمخالب الظفر، وأخرج حية الغيّ من جحرها، وأعاد كلمة الإسلام إلىٰ مقرها، فلما رأىٰ المسلمون ذلك تيمنوا بطلعته وتفاءلوا بطائره الميمون ونقيبته، وزادهم ذلك محبة في جانبه وتعظيماً في مكانته، ولما فصل من جهاده عاد إلىٰ محله المذكور من تيدسي، فوقع بينه وبين بعض الرؤساء هنالك منافرة أدت إلىٰ ارتحاله عنها وعوده إلىٰ درعة، فلم يزل مقيماً بها إلىٰ سنة ثمان عشرة وتسعمائة فرجع إلىٰ مكانه من تيدسي، واطمأنت به دارها وأزال الله عنه ما كان أزعجه عنها، والله غالب علىٰ أمره.

عقد الأمير أبي عبد الله القائم ولاية العهد لابنه أبي العباس الأعرج رحمهم الله تعالىٰ

[٢٦١] قد تقدم لنا ما كان من أمر الرؤيا التي رآها الأمير أبو عبد الله القائم في شأن ولديه وأنهما يملكان المغرب، وفي معنىٰ ذلك أيضاً ما يحكىٰ شائعاً أن ولدي أبي عبد الله المذكور، وهما أبو العباس الأعرج وأبو عبد الله الشيخ كانا يقرآن في مكتب وهما صبيان فدخل ديك فوثب علىٰ رأس كل منهما وصرخ، فأول ذلك مؤدبهما بأنهما سيكون لهما شأن، فمن أجل هـٰذا ونحوه كان والدهما يعلن بأن أمر المغرب صائر إليهما، فلما قضىٰ الله ببيعته واجتماع الناس عليه واطمأنت به في البلاد السوسية الدار، وطاب له بها المقام والقرار، ندب الناس إلىٰ بيعة أكبر ولديه وهو الأمير أبو العباس أحمد المعروف بالأعرج فبايعوه، وكان ذلك مبدأ ظهور أمره علىٰ ما نذكره إن شاء الله تعالىٰ.

انتقال الأمير أبي عبد الله القائم
إلى آفغال من بلاد حاحة ووفاته بها رحمه الله

[٢٦٢] ثم إن أبا عبد الله القائم وفد عليه أشياخ حاحة والشياظمة لما بلغهم من حسن سيرته ونصرة لوائه فشكوا إليه أمر البرتغال ببلادهم وشدة شوكته واستطالته عليهم، وطلبوا منه أن ينتقل إليهم هو وولده ولي العهد المذكور، فأجابهم إلى ذلك ونهض معهم هو وابنه أبو العباس إلى الموضع المعروف بآفغال من بلاد حاحة، وترك ولده الأصغر أبا عبد الله الشيخ بالسوس يرتب الأمور ويمهد المملكة، ويباكر العدو بالقتال ويراوحه، واستمر الأمير أبو عبد الله القائم بمكانه من آفغال مسموع الكلمة متبوع العقب إلى أن توفي به سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة.

الخبر عن دولة السلطان أبي العباس أحمد الأعرج
ابن الأمير أبي عبد الله القائم رحمه الله

كانت ولادة السلطان أبي العباس الأعرج فيما حققه ابن القاضي سنة إحدى وتسعين وثمانمائة، وبويع بولاية العهد من أبيه سنة ثمان عشرة وتسعمائة ـ كما مر ـ ولما توفي أبوه في التاريخ المتقدم اجتمع الناس على بيعته من سائر الآفاق، وآتوه طاعتهم عن رضا منهم وإصفاق، فاستقام أمره.

[٢٦٣] وصرف عزمه إلى تمهيد البلاد واقتناء الأجناد، وتعبئة الجيوش إلى الثغور، وشن الغارات على العدو في الآصال والبكور، وكان النصارى قد خيموا بشاطئ البحر وعاثوا في تلك السواحل، فأجلاهم عنها وطهر تلك البقاع من رجسهم، وأراح أهلها من شؤمهم ونحسهم.

[٢٦٤] دخول السلطان
أبي العباس الأعرج مراكش واستيلاؤه عليها

لما كان من إيقاع السلطان أبي العباس بنصارى السوس وانتصاره عليهم ما ذكرناه، بعد صيته وانتشر في البلاد ذكره، وأهرع الناس إليه من كل جانب،

ودخلت في طاعته سائر البلاد السوسية، فعند ذلك كاتبه أمراء هنتاتة ملوك مراكش يخطبون أمره ويرومون الدخول في طاعته، فأجاب داعيهم وانتقل إلىٰ مراكش، فدخلها في حدود الثلاثين وتسعمائة واستولىٰ عليها، وكان من أمره ما نذكره.

حدوث النفرة بين الأخوين السلطان أبي العباس الأعرج ووزيره أبي عبد الله الشيخ وما نشأ عن ذلك

[٢٦٥]كان السلطان أبو العباس - رحمه الله - من الشهامة والصرامة واستفحال الأمر بالمحل الذي وصفناه قبل، وكان أخوه أبو عبد الله الشيخ أصغر سنًا منه وكان تحت طاعته واقفًا عند إشارته، وكان السلطان أبو العباس يستشيره في أموره، ويفاوضه في مهماته، ويستعين بنجدته في الزحوف والمعارك، ويستضيء برأيه في الحوادث الحوالك، وكان الشيخ ثاقب الذهن، نافذ البصيرة، مصيب الرأي، حازمًا شهمًا، فكانت كلمتهما واحدة، وأمرهما جميعًا، إلىٰ أن دخل الوشاة بينهما فأفسدوا قلوبهما وأفضىٰ الحال إلىٰ المصافة والمقاتلة، وانقسم الجند حزبين، وانصرفت كل طائفة إلىٰ متبوعها وصاحب أمرها، وتقاتلا مدة، وكانت جل القبائل السوسية صاغية إلىٰ الشيخ لما كان نشأ بين أظهرهم وسبروه من نجابته وكفايته منذ تركه أبوه عندهم عند انتقاله إلىٰ آفغال - حسبما مر - فاستفحل أمره وغلب علىٰ أخيه أبي العباس فقبض عليه واستولىٰ علىٰ ما بيده واجتمعت كلمة أهل السوس عليه، ثم أودع أخاه وأولاده السجن ووسع عليهم في الجرايات والنفقات، وأصبح ملكًا مستقلاً بعد أن كان وزيرًا، وكان ذلك سنة ست وأربعين وتسعمائة.

وفي «نشر المثاني»: لم يزل السلطان أبو العباس وأولاده في حكم الثقاف إلىٰ أن قتل [1] يوم مقتل أخيه الشيخ، بعد ثمان عشرة سنة أو نحوها - حسبما يأتي إن شاء الله - وكانت دولته من يوم بويع إلىٰ أن قبض عليه أخوه ثلاثًا وعشرين سنة.

---

(١) قال المحقق: بل بعد مقتل أخيه بثلاثة أيام لما وصل الخبر بذلك إلىٰ مراكش.

الخبر عن دولة السلطان أبي عبد الله محمد المهدي

المعروف بالشيخ ابن الأمير أبي عبد الله القائم بأمر الله

كانت ولادة السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ سنة ست وتسعين وثمانمائة، ويلقب بالشيخ بآمغار، وهو الشيخ بالبربرية، ويلقب من الألقاب السلطانية: بالمهدي ـ لقبه به غير واحد من أئمة عصره ـ ونشأ في عفاف وصيانة، وعني بالعلم في صغره، وتعلق بأهدابه، فأخذ عن جماعة من الشيوخ، وبلغ فيه إلى درجة الرسوخ.

فتح حصن فونتي وآسفي وآزمور وما قيل في ذلك

[٢٦٦] لما استقل السلطان أبو عبد الله الشيخ بأمر السوس واجتمعت كلمته عليه صرف عزمه إلى جهاد العدو الذي بثغوره وحصونه فانتصر عليهم واستأصل شأفتهم وقطع من تلك النواحي دابرهم وحسم آفتهم.

قال ابن القاضي: «كان الشيخ ـ رحمه الله ـ ماضي العزيمة، قوي الشكيمة، عظيم الهيبة، كثير الغزوات، ذا همة عالية وشهامة غالية، قَعّد قواعد الملك، وأسس مبانيه، وأحيى مراسم الخلافة الدارسة ومعالمها الطامسة، وكان له سعد وبخت عظيم في الجهاد ويد بيضاء في الإسلام، فتح حصن النصارى بالسوس يعني: حصن فونتي، بعد أن أقاموا فيه اثنتين وسبعين سنة، وكان منصوراً بالرعب حتى تركوا له آسفي وآزمور وآصيلا من غير قتال ولا إيجاف عليهم» اهـ.

استيلاء السلطان أبي عبدالله محمد الشيخ على مراكش

وتجديد البيعة له بها

كان السلطان أبو عبدالله الشيخ بعد القبض على أخيه واستقلاله بالأمر قد أقام بالبلاد السوسية مثابراً على جهاد العدو إلى أن قلع عروق مفسدته منها، وكانت مراكش في هذه المدة قد توقفت عن بيعته اتقاء للوطاسيين، وارتياءً في أمره إلى ماذا

يؤول، واستمر الحال إلىٰ سنة إحدىٰ وخمسين وتسعمائة فانقادت له حينئذ وبايعه أهلها، فقدمها واستولىٰ عليها، وخلص له جميع ما كان بيد أخيه المخلوع من تادلا إلىٰ وادي نول، والله غالب علىٰ أمره.

[٢٦٧] حصار السلطان أبي عبد الله الشيخ حضرة فاس ومقتل الشيخ عبدالواحد الوانشريسي، رحمه الله

كان السلطان أبو عبدالله الشيخ قد ألح علىٰ فاس بالقتال، وحاصرها حصاراً طويلاً، ولما عسر عليه أمرها بحث عن ذلك فقيل له: لا سبيل لك إليها ولا يبايعك أهلها إلَّا إذا بايعك ابن الوانشريسي، فبعث إليه السلطان المذكور سراً، ووعده ومنّاه، فقال له الشيخ عبدالواحد: بيعة هٰذا السلطان - يعني أبا العباس الوطاسي - في رقبتي، ولا يحل لي خلعها إلَّا لموجب شرعي، وهو غير موجود، ولما بلغ ذلك السلطان الشيخ حقد علىٰ الوانشريسي، ودس إلىٰ جماعة من المتلصصة بأن يأخذوه ويأتوا به إلىٰ محلته محبوسًا من غير قتل، وكان الشيخ عبد الواحد يقرأ صحيح البخاري بجامع القرويين بين العشاءين وينقل عليه كلام ابن حجر في «فتح الباري» ويستوفيه لأنه شرط المُحبَس [1]، فقال له ابنه: «يا أبت إني قد سمعت أن اللصوص أرادوا الفتك بك في هٰذه الليلة فلو تأخرت عن القراءة».

فقال له الشيخ: «أين وقفنا البارحة؟».

قال: «علىٰ كتاب القدر!».

قال: «فكيف نفر من القدر؟ إذن اذهب بنا إلىٰ المجلس»، فلما افترق المجلس خرج الشيخ عبد الواحد من باب الشماعين، أحد أبواب المسجد المذكور، فثار به اللصوص وأرادوا حمله فأخذ بإحدىٰ عضادتي الباب فضرب أحدهم يده فقطعها، وأجهز عليه الباقون فقتلوه بباب المسجد المذكور في السابع والعشرين من ذي الحجة سنة خمس وخمسين وتسعمائة.

[٢٦٨] قال الشيخ المنجور في فهرسته: واشتهر عن الفقيه الصالح أبي عبد الله محمد بن إبراهيم المدعو بأبي شامة أنه رأىٰ الشيخ عبد الواحد في المنام بعد مقتله

---

(١) قلت: أي شرط الواقف.

فسأله عن حاله فأنشأ يقول:

لقد عمني رضوان ربي وفضله ... ولم أر إلا الخير في وحشة القبر
وإني أسأل الإله بفضله ... ليحفظني يوم الخروج إلى الحشر
وما بعد ذاك من أمور عسيرة ... كنشر الكتاب والمرور على الجسر

استيلاء السلطان أبي عبد الله الشيخ على فاس وقبضه على الوطاسيين وتغريبهم إلى مراكش

ثم إن السلطان أبا عبد الله الشيخ جد في حصار فاس وألح عليها بالقتال إلى أن ملكها واحتوى عليها.

وكان دخول السلطان الشيخ إلى فاس سنة ست وخمسين وتسعمائة، ولما دخلها تقبض على الوطاسيين أجمع، وبعث بهم مصفدين إلى مراكش عدا أبا حسون منهم فإنه فر إلى الجزائر مستجيراً بتُركها حسبما مر.

[٢٦٩] نهوض السلطان أبي عبد الله الشيخ إلى تلمسان واستيلاؤه عليها

قد قدمنا ما كان من استيلاء حسن بن خير الدين التركي[١] على تلمسان، وانقراض دولة بني زيان منها سنة اثنتين وخمسين وتسعمائة، فلما فتح أبو عبد الله الشيخ حضرة فاس في التاريخ المتقدم تاقت نفسه إلى الاستيلاء على المغرب الأوسط، وكان يعز عليه استيلاء الترك عليه مع أنهم أجانب من هذا الإقليم ودخلاء فيه، فيقبح بأهله وملوكه أن يتركوهم يغلبون على بلادهم، لا سيما وقد فر إليهم عدو من أعدائه وهو أبو حسون الوطاسي، فرأى الشيخ من الرأي وإظهار القوة في الحرب أن يبدأهم قبل أن يبدؤوه فنهض من فاس قاصداً تلمسان في جموعه إلى أن نزل عليها وحاصرها تسعة أشهر، وقتل في محاصرتها ولده الحران، وكان نابًا من أنيابه وسيفًا من سيوفه، ثم استولى الشيخ على تلمسان ودخلها يوم الاثنين

(١) قلت: هو ابن باربروس، وقد خلف والده على ولاية الجزائر.

الثالث والعشرين من جمادىٰ الأولىٰ سنة سبع وخمسين وتسعمائة، ونفى الترك عنها، وانتشر حكمه في أعمالها إلىٰ وادي شلف، واتسعت خطة مملكته بالمغرب، ودانت له البلاد، ثم كرت عليه الأتراك وأخرجوه من تلمسان، فعاد إلىٰ مقره من فاس، ثم عاود غزو تلمسان حين بلغه قيام رعاياها علىٰ الترك وانحصار الترك بقصبتها، فأقام مرابطًا عليها أيامًا فامتنعت عليه، وأقلع عنها ولم يعاود غزوها بعد ذلك، وخلص أمرها إلىٰ الترك علىٰ ما نذكره.

[٢٧٠] امتحان السلطان أبي عبد الله الشيخ أرباب الزوايا والمنتسبين والسبب في ذلك

لما كانت سنة ثمان وخمسين وتسعمائة أمر السلطان أبو عبد الله الشيخ بامتحان أرباب الزوايا والمتصدرين للمشيخة خوفًا علىٰ ملكه منهم؛ لما كان للعامة فيهم من الاعتقاد والمحبة والوقوف عند إشاراتهم، والتعبد بما يتأولونه من عباراتهم، ألا ترىٰ أن بيعة والده أبي عبد الله القائم لم تنعقد إلَّا بهم، ولا ولج بيت الملك إلَّا من بابهم، فامتحن جماعة منهم.

[٢٧١] قدوم أبي حسون الوطاسي بجيش الترك

واستيلاؤه علىٰ فاس ونفيه الشيخ عنها

قد قدمنا ما كان من استيلاء السلطان أبي عبد الله علىٰ فاس سنة ست وخمسين وتسعمائة وقبضه علىٰ بني وطاس وفرار أبي حسون إلىٰ الجزائر، فلم يزل أبو حسون عند تُركها إلىٰ أن قدم بهم مع باشاهم صالح التركماني، فاستولىٰ علىٰ فاس سنة إحدىٰ وستين وتسعمائة، ونفىٰ أبا عبد الله الشيخ عنها.

[٢٧٢] عود السلطان

أبي عبد الله الشيخ إلى فاس واستيلاؤه عليها

لما فر السلطان أبو عبد الله الشيخ من وقعة الترك بفاس ووصل إلىٰ مراكش صرف عزمه لقتال أبي حسون، فاستنفر قبائل السوس، وجمع الجموع وزحف إلىٰ فاس فدارت بينه وبين سلطانها أبي حسون حروب شديدة كان في آخرها الظفر

للشيخ، فقتل أبا حسون واستولى على فاس، وصفا له أمر المغرب، وكان استيلاء السلطان الشيخ على فاس يوم السبت الرابع والعشرين من شوال سنة إحدى وستين وتسعمائة.

[٢٧٣] مقتل الفقيهين

أبي محمد الزقاق وأبي علي حرزوز والسبب في ذلك

لما استولى السلطان أبو عبد الله الشيخ على فاس في هذه المرة أمر بقتل الفقيه الصالح قاضي الجماعة بفاس أبي محمد عبد الوهاب بن محمد بن علي الزقاق؛ لأنه اتهمه بالميل إلى أبي حسون.

ويحكى أنه لما مثل بين يديه قال له: «اختر بأي شيء تموت» فقال له الفقيه: «اختر أنت لنفسك، فإن المرء مقتول بما قتل به» فقال لهم السلطان: «اقطعوا رأسه بشاقور» فكان من حكمة الله وعدله في خلقه أن السلطان المذكور قُتل به أيضًا كما سيأتي.

وفي كتاب «خلاصة الأثر»: أن الشيخ الزقاق كان يقول: «من قتل سوسيًا كان كمن قتل مجوسيًا» فلما قبض عليه الشيخ قال له: «أنت زق الضلال» فقال له: «لا والله، بل أنا زق العلم والهداية» ثم قتله.

وأمر أيضًا بقتل خطيب مكناسة الزيتون الشيخ أبي علي حرزوز المكناسي لكلام بلغه عنه، وأنه كان يذكره في خطبه ويحذر الناس من اتباعه والانقياد إليه، ويقول في خطبته: «جاءكم أهل السوس الأقصى البعاد»، ثم يذكر الشيخ ويقول: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٦] في كلام غير هذا، وكان مقتل الفقيهين المذكورين في ذي القعدة سنة إحدى وستين وتسعمائة.

[٢٧٤] ترتيب السلطان

أبي عبد الله الشيخ أمر دولته وما قيل في ذلك

قال اليفرني: «كان السلطان أبو عبد الله الشيخ مولعًا بتدبير أمر الرعية، مستيقظًا في أموره، حازمًا غير متوقف في سفك الدماء» قال: «ويحكى أنه لما دخل فاسًا

دخلها وعليه وعلى أصحابه سمة البداوة فحملوا أنفسهم على التأدب بآداب أهل الحاضرة والتخلق بأخلاقهم»، وذكر أن ملك السعديين إنما تأنق على يد رجل وامرأة، فأما الرجل: فقاسم الزرهوني؛ فإنه رتب للسلطان أبي عبد الله الشيخ هيئة السلاطين في ملابسهم ودخولهم وخروجهم وآداب أصحابهم، وكيفية مثولهم بين أيديهم.

وأما المرأة: فالعريفة بنت خجو فإنها علمته سيرة الملوك في منازلهم وحالاتهم في الطعام واللباس وعاداتهم مع النساء وغير ذلك، فاكتسى ملك الشيخ بذلك طلاوة، وازداد في عيون العامة رونقًا وحلاوة بسبب جريانه على العوائد الحضرية؛ لأن أهل البادية مسترذلون في عيون أهل الحاضرة، قالوا: ولم يزل السلطان أبو عبدالله الشيخ يدور على مدن المغرب وأمصاره ويطيل الإقامة بفاس.

[٢٧٥] مراسلة السلطان سليمان العثماني للسلطان أبي عبد الله الشيخ وما نشأ عن ذلك

لما بلغ خبر انقراض الدولة الوطاسية إلى السلطان سليمان العثماني واستيلاء السعديين على ملك المغرب الأقصى كتب إلى الشيخ يهنئه بالملك، ويلتمس منه الدعاء له على منابر المغرب، وبعث إليه بذلك رسولاً في البحر، فانتهى إلى الجزائر ومنها قدم إلى مراكش في البر، ولما وصل إلى السلطان أبي عبد الله الشيخ أنزله على كبير الأتراك في محلته صالح باي المعروف بالكاهية، وكان هؤلاء الأتراك قد انحاشوا إلى الشيخ من بقايا القادمين مع أبي حسون، فضمهم إليه وجعلهم جنداً على حدة، وسماهم اليكشارية بالياء ثم الكاف ثم الشين، وهو لفظ تركي معناه العسكر الجديد، ولما قرأ السلطان أبو عبد الله الشيخ كتاب السلطان سليمان ووجد فيه أنه يدعو له على منابر المغرب ويكتب اسمه على سكته كما كان بنو وطاس حمى أنفه وأبرق وأرعد وأحضر الرسول وأزعجه، فطلب منه الجواب، فقال: «لا جواب لك عندي حتى أكون بمصر إن شاء الله وحينئذ أكتب لسلطان القوارب» فخرج الرسول من عنده مذعوراً يلتفت وراءه إلى أن وصل إلى سلطانه، وكان من أمره ما نذكره.

[٢٧٦] قدوم طائفة الترك
من عند السلطان سليمان العثماني
واغتيالهم للسلطان أبي عبد الله الشيخ رحمه الله

لما خرج رسول السلطان سليمان العثماني من عند السلطان أبي عبد الله الشيخ ووصل إلى الجزائر ركب البحر إلى القسطنطينية فانتهى إليها، واجتمع بالوزير المعروف عندهم بالصدر الأعظم، وأخبره بما لقي من سلطان المغرب، فأنهى الوزير ذلك إلى السلطان سليمان فأمره أن يهيئ العمارة والعساكر لغزو المغرب فاجتمع أهل الديوان وكرهوا توجيهها، واتفق رأيهم على أن عينوا اثني عشر رجلاً من فتاك الترك وبذلوا لهم اثني عشر ألف دينار، وكتبوا لهم كتابًا إلى صالح الكاهية كبير عسكر الشيخ، ووعدوه بالمال والمنصب إن هو نصح في اغتيال الشيخ وتوجيه رأسه مع القادمين عليه.

ثم دخل الوزير على السلطان سليمان واعتذر إليه عن توجيه العمارة، وقال: «هذا أمر سهل لا يحتاج فيه إلى تقويم عمارة، وهذا المغربي الذي أساء الأدب على السلطان يأتي رأسه إلى بين يديك» فاستصوب رأيهم وشكر سعيهم وأمر بتوجيه الجماعة المعينة في البحر إلى الجزائر، ومنها يتوجهون إلى مراكش في البر؛ ففعلوا، ولما وصلوا إلى الجزائر هيأوا أسبابًا واشتروا بغالاً، وساروا إلى فاس في هيئة التجار، فباعوا بها أسبابهم، وتوجهوا إلى مراكش، ولما اجتمعوا بصالح الكاهية أنزلهم عنده ودبر الحيلة في أمرهم إلى أن توجهت له.

ثم إن صالحًا الكاهية دخل على السلطان أبي عبد الله الشيخ وقال: يا مولاي: إن جماعة من أعيان جند الجزائر سمعوا بمقامنا عندك ومنزلتنا منك فرغبوا في جوارك والتشرف بخدمتك وليس فوقهم من جند الجزائر أحد، وهم -إن شاء الله- السبب في تملكها، فأمره بإدخالهم عليه ولما مثلوا بين يديه رأى وجوهًا حسانًا وأجسامًا عظامًا فأكبرهم، ثم ترجم له صالح كلامهم، فأفرغه في قالب المحبة والنصح والاجتهاد في الطاعة والخدمة، حتى خيل إلى الشيخ أنه قد حصل على

ملك الجزائر، فأمره بإكرامهم وأن يعطيهم الخيل والسلاح، ويكونوا يدخلون عليه مع الكاهية كلما دخل، فكانوا يدخلون عليه كل صباح لتقبيل يده على عادة الترك في ذلك.

وصار الشيخ يبعث بهم إلى أشياخ السوس مناوبة في الأمور المهمة ليتبصروا في البلاد ويعرفوا الناس، وكان يوصي الأشياخ بإكرام من قدم عليهم منهم، واستمر الحال إلى أن أمكنتهم فيه الفرصة، وهو في بعض حركاته بجبل درن بموضع يقال له: آكلكال بظاهر تارودانت، فولجوا عليه خباءه ليلاً بِعِلى حين غفلة من العسس، فضربوا عنقه بشاقور ضربة أبانوا بها رأسه، واحتملوه في مخلاة ملؤوها نخالة وملحًا وخاضوا به أحشاء الظلماء، وسلكوا طريق درعة وسجلماسة كأنهم أرسال تلمسان لئلا يفطن بهم أحد من أهل تلك البلاد، ثم أُدركوا ببعض الطريق فقاتلت طائفة منهم حتى قُتلوا ونجا الباقون بالرأس، وقُتل مع الشيخ تلك الليلة الفقيه مفتي مراكش أبو الحسن علي بن أبي بكر السكتاني، والكاتب أبو عمران الوجاني.

[٢٧٧] ولما شاع الخبر بأن الترك قتلوا السلطان واستراب الناس بجميع من بقي منهم بالمغرب أغلق إخوانهم الذين كانوا بتارودانت أبوابها واقتسموا الأموال واستعدوا للحصار، ولما بويع ابنه الغالب بالله وقدم من فاس نهض في العساكر إلى تارودانت للأخذ بثأر أبيه من الترك الذين بها فحاصرهم مدة ولما لم يقدر منهم على شيء أعمل الحيلة بأن أظهر الرحلة عنهم وأشاع أنه راجع إلى فاس لثائر قام بها، ولما أبعد عنهم مسيرة يوم خرجوا في اتباعه ليلاً والعيون موضوعة عليهم بكل جهة إلى أن شارفوا محلة السلطان الغالب بالله فعطف عليهم، ولما لم يمكنهم الرجوع إلى تارودانت تحيزوا إلى الجبل وتحصنوا وأحاطت بهم العساكر من كل جهة، فقاتلوا إلى أن فنوا عن آخرهم ولم يؤخذ منهم أسير، وقتلوا من محلة الغالب بالله ألفًا ومائتين، وأما الذين نجوا بالرأس فانتهوا إلى الجزائر وركبوا البحر منها إلى القسطنطينية، فأوصلوا الرأس إلى الصدر الأعظم، وأدخله على السلطان سليمان فأمر به أن يُجعل في شبكة نحاس، ويعلق على باب القلعة فبقي هنالك إلى أن شفع في إنزاله ودفنه ابناه عبد الملك المعتصم، وأحمد المنصور حين قدما القسطنطينية على السلطان سليم بن سليمان مستعديين له على ابن أخيهما المسلوخ كما يأتي، وكان مقتل الشيخ

رحمه الله يوم الأربعاء التاسع والعشرين من ذي الحجة سنة أربع وستين وتسعمائة.

ولما بلغ خبر مقتله إلى خليفته بمراكش القائد أبي الحسن علي بن أبي بكر آزناك بادر بقتل أبي العباس الأعرج المخلوع وأولاده ذكوراً وإناثًا كباراً وصغاراً خشية أن يخرجه أهل مراكش فيبايعوه.

بقية أخبار السلطان أبي عبد الله الشيخ وسيرته

[٢٧٨] كان السلطان أبو عبد الله محمد الشيخ يلقب من الألقاب السلطانية بالمهدي، ونشأ في عفاف وصيانة، وعُني بالعلم في صغره وتعلق بأهدابه، فأخذ عن جماعة من الشيوخ، وبلغ فيه درجة الرسوخ، حتى كان يخالف القضاة في الأحكام، ويرد عليهم فتاويهم فيجدون الصواب معه، وقع ذلك منه مراراً، وله حواش على التفسير وذلك مما يدل على غزارة علمه.

وقال في «المنتقى»: «كان السلطان أبو عبد الله الشيخ ـ رحمه الله ـ أديبًا متفننًا حافظًا، حدثني شيخنا أبو راشد أنه كان ممتع المجالسة والمذاكرة، نقيّ الشيبة، عظيم الهيبة، ما رأيت بعد شيخي أبي الحسن علي بن هارون أحفظ منه للمقطعات الشعرية، وكان حافظًا للقرآن، فهمًا جدًا، حافظًا لصحيح البخاريّ، ويستحضر ما للناس عليه، ويقول في شرح ابن حجر: «ما صُنف في الإسلام مثله» عارفًا بالتفسير وغيره، وكان يحفظ ديوان المتنبي عن ظهر قلب، وكان يحض على المشاورة ويقول: لا سيما في حق الملوك.

وكان يقول: «ينبغي للملك أن يكون طويل الأمل، فإن طول الأمل وإن كان لا يحسن من غيره فهو منه صالح، لأن الرعية تصلح بطول أمله».

[٢٧٩] ومن أشياخ السلطان المذكور: علامة فاس ومحققها أبو عبد الله محمد ابن أحمد اليستني، أخذ عنه علومًا منها التفسير، قال المنجور: «وكنت أنا قارئه بين يدي أمير المؤمنين أبي عبد الله الشيخ المذكور وكان شديد المحبة له» قال: «ولما توفي الفقيه المذكور وذهبت مع ولده صبيحة تلك الليلة التي توفي بها لنخبر السلطان بوفاته وجدناه يقرأ ورده بحمام المريني، فخرج السلطان إلينا وهو يبكي بصوت عال يفزع من سمعه، حتى رأينا منه العجب، وما سكت إلَّا بعد مدة، لما كان يعلم منه

من صحة الدين والنصح لخاصة المسلمين وعامتهم، وحضر جنازته»، وكانت وفاته ـ رحمه الله ـ سنة تسع وخمسين وتسعمائة.

الخبر عن دولة السلطان أبي محمد عبد الله الغالب بالله ابن السلطان محمد الشيخ رحمه الله

كانت ولادة السلطان أبي محمد عبد الله الغالب بالله سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة، ونشأ في عفاف وصيانة، وحفظ القرآن، وأخذ بطرف صالح من العلم، وكان ولي عهد أبيه، ولما وافته الأنباء بمقتل أبيه وهو بفاس بايعه أهلها ولم يتخلف عن بيعته منهم أحد، وكان ذلك في المحرم سنة خمس وستين وتسعمائة.

[٢٨٠] مجيء حسن بن خير الدين التركي إلى فاس ورجوعه منهزمًا عنها

قال ابن القاضي: لما ولي السلطان أبو محمد عبد الله الغالب بالله الخلافة اشتغل بتأسيس ما بيده وتحصينه بالعدد والعدة ولم تطمح نفسه إلى الزيادة على ما ملك أبوه من قبله.

وفي سنة خمس وستين وتسعمائة، في جمادى الأولى منها، غزاه حسن بن خير الدين باشا التركي صاحب تلمسان في جيش كثيف من الأتراك فخرج إليه السلطان الغالب بالله فالتقيا بمقربة من فاس فكانت الدبرة على حسن فرجع منهزمًا يطلب صياصي الجبال إلى أن بلغ إلى باديس ـ وكانت يومئذ للترك ـ ورجع الغالب بالله إلى فاس لكنه لم يدخلها لوباء كان بها يومئذ ولما رجع من حركته هذه أمر بقتل أخيه عثمان لأمر نقمه عليه فقتل في السنة المذكورة، والله تعالى أعلم.

[٢٨١] وفادة السلطان الغالب بالله على الشيخ أبي العباس أحمد بن موسى السملالي رضي الله عنه

أزمع السلطان الرحلة إليه، فلما بلغ الشيخ المذكور مجيء السلطان إليه خرج يتلقاه، وقد هيأ له النزل وما يصلحه، وأعد له ما يناسبه من الأطعمة الرفيعة النفيسة، وقدم إليه التمر الجيد واللبن الحليب، وأنزله عنده فمكث في ضيافته ثلاثة

أيام، ثم طلب منه أن يتخذه وسيلة إلى الله تعالى، وسأله مع ذلك تمهيد الملك، واعتذر إليه بأنه لا يمكنه العيش بدونه، ولا يأمن على نفسه ولا تؤويه أرض إذا هو تخلى عنه، فقال الشيخ: «يا عرب، يا بربر، يا سهل، يا جبل، أطيعوا السلطان مولاي عبد الله، ولا تختلفوا عليه»، ثم بعد الثلاث انصرف السلطان إلى محله، فبقي مدة وهو مسكن ممهد الملك في عافية.

[٢٨٢] ثم أتى الترك إلى بوغاز طنجة وسبتة فخافهم وتشوش منهم كثيراً، ولم يهنأ له عيش، فجعلت حاشيته يهونون عليه أمرهم، فقال: «دعوني منكم حتى أستقي من رأس العين» ثم أبرد بريداً إلى الشيخ، فلما انتهى إليه سمعه يقول: «يا ترك ارجعوا إلى بلادكم، ويا مولاي عبد الله هنأك الله في بلادك بالعافية» فتقدم الرسول وسلم على الشيخ، وبلغه سلام السلطان، ثم انقلب من فوره بعد ما ورّخ وقت سماع مقالته، فلما بلغ إلى السلطان أخبره بما كان من الشيخ من تلك المقالة وما كان منه من التاريخ، وأقاموا ينتظرون ما يكون فإذا الخبر قد ورد على السلطان بأن الترك قد ارتحلوا وانصرفوا إلى بلادهم، وإذا ارتحالهم كان وقت مقالة الشيخ المذكورة.

[٢٨٣] ثم إن الشيخ قدم مراكش في بعض الأيام زائراً من كان بها من أهل الله - تعالى - فرغب إليه السلطان الغالب بالله أن يدخل داره هو وأصحابه، ويصنع لهما طعامًا وشرط على نفسه أن لا يطعمهم إلّا الحلال، ولا يطعمهم ما فيه شبهة، وحلف للشيخ على ذلك فأسعفه، ولما حضر الطعام وضع الشيخ يده عليه ولم يصب منه، فلما خرج قيل له: ما لك لا تتناول من طعام السلطان وقد حلف أن لا يطعمكم إلّا الحلال؟ فقال له: «من أكل طعام السلطان وهو حلال أظلم قلبه أربعين يومًا، ومن أكله وفيه شبهة مات قلبه أربعين سنة» اهـ[١].

[٢٨٤] فتنة الفقيه أبو عبد الله الأندلسي ومقتله

كان الفقيه أبو عبد الله محمد الأندلسي، نزيل مراكش، متظاهراً بالزهد والصلاح حتى استهوى كثيراً من العامة فتبعوه، وكانت تصدر عنه مقالات قبيحة

---

(١) قلت: لا أدري من أين أتى الشيخ بهذا.

من الطعن على أئمة المذاهب ﷺ ينحو فيها منحى ابن حزم الظاهري، ويتفوه بمقالات شنيعة في الدين، فأمر السلطان الغالب بالله بقتله، فاستغاث بالعامة من أتباعه واعصوصبوا عليه، ووقعت فتنة عظيمة بمراكش بسببه إلى أن قتل وصلب على باب داره برياض الزيتون من المدينة المذكورة، وكان ذلك أواسط ذي الحجة من سنة ثمانين وتسعمائة (١) .

وفاة السلطان أبي محمد عبد الله الغالب بالله رحمه الله

توفي السلطان أبو محمد عبد الله الغالب بالله يوم الجمعة الثامن والعشرين من رمضان سنة إحدى وثمانين وتسعمائة.

الخبر عن دولة السلطان أبي عبد الله محمد المتوكل على الله ابن السلطان عبد الله الغالب بالله رحمه الله

لما توفي السلطان الغالب بالله بحضرة مراكش كان ابنه محمد هذا بفاس، وكان ولي عهد أبيه فاجتمع أهل العقد والحل بمراكش، واستأنفوا له البيعة، وكتبوا بها إليه، فوصلت إليه وهو بفاس أوائل شوال سنة إحدى وثمانين وتسعمائة فبايعه أهل فاس وتم أمره.

قال ابن القاضي: أمه: أم ولد، وكنيته: أبو عبد الله، ولقبه المتوكل على الله ويعرف عند العامة: بالمسلوخ لأنه سلخ جلده وحُشي تبنًا، كما سيأتي.

[٢٨٥] قالوا: وكان السلطان المذكور فقيهًا أديبًا مشاركًا مجيدًا قوي العارضة في النظم والنثر، وكان مع ذلك متكبرًا تياهًا غير مبال بأحد، ولا متوقفًا في الدماء، عسوفًا على الرعية(٢) .

---

(١) قال المحقق: الصواب أن ذلك وقع سنة ٩٨٤ انظر «درة الحجال» في ترجمة أبي عبدالله الأندلسي ص١٦٧ وفي «الدوحة» ص٨١: وكان قتله بأمر من السلطان محمد المتوكل بن الغالب لا من الغالب كما عند المؤلف.

(٢) قلت: سبحان الله كيف اجتمعت له هذه الأعمال مع تلك الخلال!!

الخبر عن دولة السلطان
أبي مروان عبد الملك المعتصم بالله
ابن محمد الشيخ وأولية أمره ومآله

كان أبو مروان عبد الملك بن أبي عبد الله الشيخ السعدي، وأخوه أبو العباس أحمد المدعو بعد: بالمنصور مقيمين بسجلماسة سائر أيام أبيهما، فلما توفي وولي الأمر بعده ابنه الغالب بالله فر عبد الملك وأحمد إلى تلمسان خوفًا على أنفسهما منه، فأقاما عند صاحبها حسن بن خير الدين مدة، ولحق بهما أخوهما عبد المؤمن فصار ثالثة الأثافي، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى الجزائر، ومنها ركب عبد الملك البحر إلى القسطنطينية متطارحًا على صاحبها السلطان سليم بن سليمان العثماني رحمه الله، فأمده بالجند حتى ملك المغرب كما سيأتي.

ولنذكر هنا كيفية استيلاء العساكر العثمانية على تونس وانقراض أمر الحفصيين منها ثم نرجع إلى بقية أخبار السلطان أبي مروان المعتصم بالله؛ لأنها تبني على ذلك فنقول:

[٢٨٦] اعلم أن أمر بني أبي حفص أصحاب تونس كان قد مَرِج [(١)] في هذه المدة وتداعى إلى الاختلال، وكان خير الدين باشا التركي المقدم ذكره في أخبار تلمسان قد استولى على تونس في حدود الأربعين وتسعمائة وغلب عليها صاحبها الحسن بن محمد الحفصي، ففر الحسن المذكور إلى طاغية الإصبنيول صاحب قشتالة فأعطاه العساكر وجاء بها إلى تونس، فنزل عسكر النصارى ببرج العيون قرب حلق الوادي، وتقدموا إلى تونس فملكوها، وانهزم خير الدين إلى الجزائر، وشارك النصارى الحسن بن محمد في إمرة تونس، واستباحوا أهلها قتلاً وأسرًا ونهبًا، يقال: إنهم قتلوا من أهل تونس الثلث، وأسروا الثلث، وأبقوا الثلث، وكل ثلث ستون ألفًا هكذا عند صاحب «الخلاصة النقية»، ثم ملكوا الموضع المسمى بحلق الوادي وعليه مرسى تونس، ثم بنى النصارى في الحلق المذكور حصنًا أقاموا في بنائه نحو ثلاث وأربعين سنة، بحيث عجز الترك عن هدمه لما ملكوه بعد.

---

(١) قلت: أي اختل.

[٢٨٧] ثم ثار على الحسن ابنه أحمد المدعو: حميدة، وملك الحضرة مدة، وقاتل نصارى حلق الوادي فامتنعوا عليه، ثم غزاه علي باشا صاحب الجزائر واستولى على تونس سنة سبع وسبعين وتسعمائة وطرد أحمد عنها، فذهب أحمد إلى طاغية قشتالة مستغيثًا به شأن أبيه من قبله، هذا كله ونصارى الحلق لا زالوا متمكنين منه أي تمكين، فأمد الطاغية أحمد المذكور بأسطول عظيم واشترط عليه أداء مال فالتزمه (١).

[٢٨٨] ولما وصل الأسطول إلى ظاهر تونس أطلع قائده السلطان أحمد على كتاب من الطاغية مضمنه المشاركة في الحكم، فأنكر أحمد ذلك وأنف منه، وذهب إلى صقلية فبقي بها إلى أن مات وحمل إلى تونس، وكان هنالك أخوه محمد بن الحسن فرضي بالمقاسمة ودخل بالنصارى إلى تونس فاستولى عليها وملك قصبتها وجالسه شريكه النصراني بها، وانتهبت المدينة وأهين الدين وعم الخراب وتكدر المشرب وتفرق الجمع، وارتبطت خيل العدا بالجامع الأعظم، وأُلقيت ما فيه من نفائس الكتب بالطرق، ونبش قبر الشيخ أبي محفوظ محرز بن خلف فلم يوجد فيه إلَّا الرمل حماية من الله له، وحاشا أن تعدو الأرض على جسد مثله، وأرسل محمد ابن الحسن إلى الناس بالأمان، واستمالهم النصراني بعد بكاذب الرفق، فأقاموا بدار مذلة وهوان.

[٢٨٩] واتصل ذلك كله بالسلطان سليم بن سليمان العثماني فأعظمه، وجهز العمارة للحين مع الوزير سنان باشا يقال: كانت أربعمائة وخمسين قطعة فخرج بها الوزير المذكور من القسطنطينية، وهي إصطنبول، غرة ربيع الأول سنة إحدى وثمانين وتسعمائة، ووصلوا إلى حلق الوادي في الرابع والعشرين منه، وكان حيدر باشا صاحب القيروان، ومصطفى باشا صاحب طرابلس محاصرين لتونس قبل ذلك حتى فتر عزمهم، فلما قدم عليهم سنان باشا قويت نفوسهم واعصوصبوا عليه، وتقدموا إلى الحصن الذي بحلق الوادي فحاصروه حتى اقتحموه عنوة سادس جمادى الأولى من السنة المذكورة، أعني سنة إحدى وثمانين وتسعمائة،

---

(١) قلت: قضية استعانة ملوك المغرب بالنصارى تحتاج إلى دراسة لشدة غرابتها وكثرة تكرارها، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله العلي العظيم.

واستلحموا من به وغنموا ما فيه، والتجأ محمد بن الحسن الحفصي وأنصاره من النصارى إلى البستيون، وهو حصن آخر كانوا قد بنوه خارج باب تونس، فحاصرهم سنان باشا به حتى اقتحمه عنوة، وقتلوا من به، وامتلأت أيديهم من المغانم، وطهر الله بهم البلاد، وكانت إحدى الوقائع الجليلة القدر، الباقية الذكر، وظفر الوزير بمحمد بن الحسن فاحتمله معه إلى السلطان سليم فاعتقله في يدي قلة أحد حصونه حتى هلك، وانقرضت بمهلكه دولة بني أبي حفص التي هي بقية الموحدين.

إذا علمت هذا، فاعلم أن استيلاء العساكر العثمانية على تونس كان قبل وفاة السلطان الغالب بالله بنحو خمسة أشهر، لأن وفاته كانت في آخر رمضان سنة إحدى وثمانين وتسعمائة كما مر، وفتح تونس كان في جمادى الأولى من السنة المذكورة.

[٢٩٠] مجيء السلطان أبي مروان عبد الملك ابن الشيخ السعدي بعسكر الترك واستيلاؤه على المغرب

لما بويع السلطان أبو عبد الله محمد المتوكل على الله كان عبد الملك بن الشيخ وأخوه أحمد المدعو بعد بالمنصور بالجزائر، فركبا البحر إلى القسطنطينية العظمى قاصدين السلطان سليم بن سليمان العثماني رحمه الله، فانتهيا إلى القسطنطينية وتعلقا بكبراء الدولة حتى أدخلوهما على السلطان سليم، وطلبوا منه أن يبعث معهم العساكر لتملك المغرب، ويقوموا فيه بدعوته، فتثاقل عنهم مدة إلى أن كان الغزو إلى تونس فكتب السلطان سليم إلى أهل الجزائر وأهل طرابلس أن يوجهوا قراصينهم [١] لحصار تونس مع العمارة [٢] الموجهة من قبله، فطلب عبد الملك وأخوه أحمد من الدولاتي، وهو صاحب الجزائر، أن يجعل لهما رياسة قرصان منها يتوجهان فيه للجهاد معه، فأعطاهما غليوطة [٣] فيها ستة وثلاثون رجلاً

(١) قلت: جمع قرصان وهم قادة البحر ومجاهدوه.

(٢) قلت: أي الحملة بما فيها من سفن ورجال.

(٣) قلت: نوع من السفن الحربية.

فركباها ولحقا بعمارة السلطان سليم في جملة مراكب الجزائر، هكذا وقع في سياقة هذا الخبر، وهو يقتضي أنهما كانا يومئذ بالجزائر لا بالقسطنطينية، فلعلهما عادا إليها من عند السلطان سليم إلى أن سافرا في جملة عسكر الجزائر والله تعالى أعلم، ولما فتحوا تونس واستأصلوا من بها من الكفار ـ حسبما مر ـ عين رئيس العمارة العثمانية مركبين يتوجهان بكتاب الفتح إلى السلطان سليم، فطلب منه عبد الملك وأحمد أن يأذن لهما في الذهاب معهما بالغليوطة فلم يزالا بالرئيس المذكور حتى أسعفهما، فكان من قدر الله ـ تعالى ـ أن هاج البحر عليهم ذات ليلة ففرق مراكبهم، ولما أصبح عبد الملك وأحمد لم يجدا للمركبين أثرًا فوافقهم السعد وساعدتهم الريح فوصلوا إلى القسطنطينية قبل المركبين بثلاث.

واتصل خبرهما بالصدر الأعظم فأحضرهما وسألهما عن العمارة وما كان منها فأخبراه بفتح تونس، وقصا عليه الحديث من البدء إلى التمام، فأعلم السلطان سليمًا بهما فأدخلهما عليه وسألهما كذلك فأخبراه، وسألهما عن كتاب الفتح فقالا: إن أمير العمارة قد بعث به مع مركبين صحبناهما إلى أن فرق بيننا البحر ولم ندر ما كان منهما بعد ذلك.

ولما رأيا من السلطان سليم تنازلاً واهتزازًا لكلامهما طلبا منه في بشارتهما أن يبعث معهم العساكر إلى الغرب، ثم أمر بهما إلى بعض المنازل فأنزلهما به وأكرمهما، وأرجأ أمرهما إلى قدوم الخبر اليقين، وبعد ثلاث قدم المركبان ومعهما كتاب الفتح، وظهر صدق عبد الملك وأحمد، فحينئذ أقبل عليهما السلطان سليم وأعطاهما مالاً وسلاحًا وزادًا وكتب لهما فرمانًا للدولاتي صاحب الجزائر ليبعث معهما خمسة آلاف من عسكر الترك تطأ معهما أرض المغرب الأقصى.

ولما قدما على الدولاتي بالفرمان وقرأه على أهل الديوان قالوا: علينا الرجال وعليهما المال، وهذه عادتنا مع السلطان، ولما لم يكن عندهما مال يومئذ تطارحا على الخزندار وعلى الآغا والوكيل وأهديا إليهم ورغبا منهم أن يسلفوهما ما ينفقانه في وجهتهما تلك إلى أن يبعثا به إليهم من المغرب، فسهلوا لهما وقوموا العسكر بما يحتاج إليه وفرضوا له المؤنة كل يوم بيومه إلى أن يرجع، وأشهدوا عليهما بذلك في دفتر فقبلا وأعطوا خطوطهما به، ثم نهض عبد الملك وأخوه إلى المغرب يجران

عساكر الترك خلفهما، وكتب عبد الملك إلىٰ شيعته بالمغرب يعرفهم قدومه ويعدهم ويمنيهم إلىٰ أن كان من أمره ما كان.

فأقبل بهم حتىٰ انتهىٰ إلىٰ الموضع المعروف بالركن من أحواز فاس، فلما سمع بذلك ابن أخيه محمد المتوكل خرج للقائه بنفسه، ولما التقىٰ الجمعان نزع رئيس جند الأندلس سعيد الرغالي إلىٰ عبد الملك، وكان عبد الملك يكاتب حاشية المتوكل وبطانته ورؤوس أجناده ويعد طائعهم، ويوعد عاصيهم، فلما سمع المتوكل بما فعله جند الأندلس فت ذلك في عضده وفشلت ريحه وأيقن بالنكبة ظنًا منه أن جنده كله سيفعل فعل الرغالي، فكان ذلك سبب جزعه وفراره من المعركة وسبب خراب ملكه وإقامة ملك عمه، ويقال: إن بعض الجند لما سمع بأن القائد جرمون وأولاد عمران نزعوا إلىٰ عبد الملك أيضًا جاء إلىٰ المتوكل وقال له: «إن القائد ابن شقراء قد غدر وفر إلىٰ عبد الملك» وكان ابن شقراء هٰذا من أكبر قواده وأصدقهم لديه، فارتاع المتوكل لذلك وانقلب منهزمًا، وانتهبت خزائنه وأوقد فيها النار.

ولما انهزم المتوكل بالركن عطف علىٰ فاس الجديد فأخذ منها ما يعز عليه من الذخيرة، ثم خرج علىٰ وجهه إلىٰ مراكش لا يلوي علىٰ شيء فلحق به القائد ابن شقراء بوادي النجاة علىٰ مقربة من فاس وأغلظ له في القول ولامه علىٰ عدم التأني والتثبت، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا.

استيلاء السلطان أبي مروان عبد الملك المعتصم بالله على حضرة فاس وما يتبع ذلك

لما انهزم المتوكل بالركن وأجفل إلىٰ مراكش تقدم عمه أبو مروان إلىٰ فاس فدخلها واستولىٰ عليها يوم الأحد سابع ذي الحجة سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة من باب الفتوح، وبعد أن دخلها وبايعه أهلها أقام بها أيامًا ثم طمحت نفسه إلىٰ اتباع ابن أخيه إلىٰ مراكش، ولما عزم علىٰ النهوض إليه طالبه الترك بأن يردهم إلىٰ بلادهم وأن يعطيهم المال الذي اتفق معهم عليه وهم يسمونه بلغتهم: البقشيش فبذل لكل واحد منهم أربعمائة أوقية، واستسلف المال من تجار أهل فاس حتىٰ يتسع حاله وركب لوداعهم بنفسه.

نهوض السلطان أبي مروان
إلى مراكش واستيلاؤه عليها
وفرار ابن أخيه إلى السوس وما نشأ عن ذلك

ثم إن السلطان أبا مروان نهض من فاس في جنده الذي أقامه وكان غرس يده، وفيما انضاف إليه من جند ابن أخيه وتقدم إلى البلاد المراكشية قاصداً حربه وتشريده عنها، ولما سمع ابن أخيه بخروجه إليه وقصده إياه تهيأ لملاقاته وسار إلى منازلته فالتقى الجمعان بموضع يسمى خندق الريحان على مقربة من وادي شراط من أحواز سلا فكانت الهزيمة أيضًا على المتوكل، وفرَّ، وأجفل كعادته إجفال النعام، وتبعه أحمد المنصور خليفة أخيه أبي مروان يومئذ، فلما سمع المتوكل باتباعه بعد بلوغه إلى مراكش فر عنها إلى جبل درن وأسلم له مراكش فدخلها أحمد نائبًا عن أخيه، وأخذ له البيعة على أهلها، ثم لحق به السلطان أبو مروان فدخلها يوم الاثنين تاسع عشر ربيع الثاني سنة أربع وثمانين وتسعمائة وأقام بها أيامًا، ثم خرج في طلب ابن أخيه فعميت عليه أنباؤه وسقط بين سمع الأرض وبصرها، فعاد أبو مروان إلى مراكش فأقام بها إلى أن كان من أمره ما نذكره.

استخلاف السلطان أبي مروان
لأخيه أبي العباس أحمد على فاس وأعمالها

لما استقرَّ السلطان أبو مروان بمراكش وانقطع خبر المتوكل عنه بالسوس تقدم إليه أخوه أحمد وسأله أن يستخلفه على فاس ليكفيه أمرها، فأجابه إلى ذلك وولاه عليها ظنًا منه أن أمر المغرب قد صفا له، وأن المتوكل لا يعود إليه، وكان الوزير أبو فارس عبد العزيز بن سعيد الوزكيتي حاضراً للطلبة والعطية، فأنكر ذلك ولم يره صوابًا، وقال: «لا ينبغي لكما أن تقعدا حتى يحكم الله بينكما وبين ابن أخيكما» فغاظ ذلك أحمد وظن أنه من سوء رأي عبد العزيز فيه وبغضه لجانبه، فأعرض عن مقالة الوزير المذكور، وذهب إلى فاس خليفة عليها، وبقي السلطان أبو مروان بمراكش.

ظهور أبي عبد الله المتوكل

بالسوس ومجيئه إلى مراكش واستيلاؤه عليها

كان أبو عبدالله المتوكل بعد فراره عن مراكش يجول في جبال السوس ويتنقل في قبائلها وأحيائها إلى أن اجتمعت عليه طائفة من الصعاليك ما يشبه أن يكون جيشًا، وجاء بهم إلى مراكش، فسمع به السلطان أبو مروان فخرج للقائه فخالفه المتوكل وسلك طريقًا غير طريقه، وفجًا غير فجه، وقصد مراكش فدخلها باتفاق أهلها ونصروه وكتبوا له البيعة إلَّا أنه لم يتمكن من القصبة؛ لأن السلطان أبا مروان كان قد ترك بها أخته الست مريم في نحو ثلاثة آلاف من الرماة فتحصنوا بها، وبلغ الخبر أبا مروان باستيلاء المتوكل على مراكش فرجع عوده على بدئه إلى أن وافى الحضرة، فحاصره بها وكتب إلى أخيه أحمد الخليفة على فاس أن يأتيه بجيش منها، فأتاه به أحمد مسرعًا.

ولما انتهى إلى مراكش اجتمع بالوزير أبي فارس الوزكيتي فقال له: «أوقفت على الرأي؟ أول الفكرة آخر العمل!» فبانت لأحمد نصيحته، وزال ما كان يختلج بصدره عليه.

ولما جاء أحمد بجيش فاس أسلم المتوكلَ شيعتُه من أهل مراكش وفر إلى السوس، فبقي أهل مراكش متمادين على الحصار إلى أن اتفق السلطان أبو مروان مع أعيان جراوة فأدخلوه من بعض الأسوار والأنقاب، ولما فر المتوكل إلى السوس تبعه أحمد المنصور فكانت بينهما هنالك حروب عظيمة أتاح الله فيها النصر للمنصور.

قلت: كان أحمد المنصور هذا مجدودًا، محظوظًا، مسعودًا، بحيث أربت سعادته على شجاعته، وما كان أخوه عبد الملك يسري إلَّا في ضوء طلعته ويمن نقيبته، فلذا كان يقدمه في الحروب ويستكفي به في نوازل الخطوب، ومن سعادته ما اتفق له في ذهابه إلى العثماني بخبر الفتح وتقدمه قبل الكتاب بثلاث حتى تسنى له من جانب السلطان المذكور ما كان سببًا في استيلائهما على المغرب، وستسمع في أخبار دولته من أنباء سعاداته ما تقف به على حقيقة الحال إن شاء الله، وأما أمر

المتوكل فإنه بعد توالي الهزائم عليه ذهب إلىٰ سبتة، ثم دخل طنجة مستصرخًا بعظيم البرتغال، والله تعالىٰ لا يهمل من حقوق عباده وزن المثقال.

[٢٩١] الغزوة الكبرى
بوادي المخازن من بلاد الهبط والسبب فيها

كان من خبر هٰذه الغزوة أن السلطان المخلوع أبا عبد الله محمد بن عبد الله السعدي لما دخل طنجة قصد طاغية البرتغال، واسمه سبستيان، وهو طاغيتهم الأعظم، وليس قائد الجيش فقط علىٰ ما هو المحقق في تواريخهم، وتطارح عليه وشكا إليه ما ناله من عمه أبي مروان المعتصم بالله وطلب منه الإعانة عليه كي يسترجع ملكه، وينتزع منه حقه، فأشكاه الطاغية ولبىٰ دعوته وصادف منه شرهًا إلىٰ تملك سواحل المغرب وأمصاره، فشرط عليه أن يكون للنصارىٰ سائر السواحل وله هو ما وراء ذلك فقبل أبو عبد الله ذلك والتزمه (١)، وللحين جمع الطاغية جموعه واستوعب كبراء جيشه ووجوه دولته وعزم علىٰ الخروج إلىٰ بلاد الإسلام.

[٢٩٢] ومن المتواتر في تواريخ الإفرنج: أن كبار دولته حذروه عاقبة هٰذا الخروج ونهوه عن التغرير ببيضة البرتغال وتوريطها في بلاد المغرب وقبائله، فصم عن سماع قولهم ولجّ في رأيه، وملك الطمع قلبه، وأبىٰ إلَّا الخروج فأسعفوه وخرج من طنجة في جيش، قال ابن القاضي في «المنتقىٰ المقصور»: «عدده مائة ألف وخمسة وعشرون ألفًا»، وقال أبو عبد الله محمد العربي الفاسي في مرآة «المحاسن» يقال: إن مجموعهم كان مائة ألف وعشرين ألفًا، وأقل ما قيل في عددهم ثمانون ألف مقاتل، وكان مع محمد بن عبد الله نحو الثلاثمائة من أصحابه.

وقصدوا هلاك المغرب وحصد المسلمين، وإدارة رحىٰ الهوان علىٰ الدين، فعظم ذلك علىٰ الناس وامتلأت صدورهم رعبًا وقلوبهم كربًا، وبلغت القلوب الحناجر.

[٢٩٣] وكان محمد بن عبد الله المذكور قد كتب عند خروجه بجيش البرتغال إلىٰ بلاد الإسلام رسالة بعث بها إلىٰ أعيان المغرب من علمائه وأشرافه وذوي رأيه

(١) قلت: إنا لله وإنا إليه راجعون.

يغمض عليهم بها في نكث بيعته ونقضها، ومبايعة عمه من غير موجب شرعي، وقال لهم: «ما استصرخت بالنصارىٰ حتىٰ عدمت النصرة من المسلمين» وقد قال العلماء: «إنه يجوز للإنسان أن يستعين علىٰ من غصبه حقه بكل ما أمكنه»، وتهددهم فيها وأبرق وأرعد، وقال: «فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله» وسمىٰ النصارىٰ: أهل العدوة واستنكف من تسميتهم نصارىٰ، فأجابه علماء الإسلام ـ رضوان الله عليهم ـ عن رسالته تلك برسالة دامغة لجيش أباطيله وفاضحة لركيك تأويله، وهٰذا نص جواب تلك الرسالة حرفًا حرفًا: «الحمد الله كما يجب لجلاله، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد خير أنبيائه وأرساله، والرضىٰ عن آله وأصحابه الذين هجروا دين الكفر فما نصروه ولا استنصروا به، حتىٰ أسس الله دين الإسلام بشروط صحته وكماله.

وبعد: فهٰذا جواب من كافة الشرفاء والعلماء والصلحاء والأجناد من أهل المغرب وفقهم الله لمولانا محمد ابن مولانا عبد الله السعدي عن كتابه الذي استدعاهم فيه لحكم الكتاب والسنة، واستدل بحججه الواهية المنكبة عن الصواب، قائلين له عن أول حجة صدر بها الخطاب، لو رجعت علىٰ نفسك اللوم والعتاب لعلمت أنك المحجوج والمصاب، فقولك: خلعنا بيعتك التي التزمناها، وطوقناها أعناقنا وعقدناها، فلا والله ما كان ذلك منا عن هوىٰ متبع، ولا علىٰ سبيل خارج عن طريق الشرع مبتدع، وإنما ذلك منا علىٰ منهج الشرع وطريقه، وعلىٰ سبيل الحق وتحقيقه، وسنشرح لك ذلك ونبينه، ونسطره لك بالأدلة الشرعية التي ترقيه وتزينه، نعم كنت سلطانًا بما عقد لك والدك من البيعة، وترك لك من الأموال والعدد والحصون مما لم يتهيأ مثله لأحد من أسلافكم الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ فجاهدوا بما حصل لهم من ذلك في الله حق جهاده، حتىٰ استخلصوا من أيدي الكفار رقاب عباد الله وحصون بلاده، وأسسوا لدين الله قواعد وأركانًا، وملكوا من المغرب بلادًا معتبرة وأوطانًا، فلما وصل ذلك إليك ألقت إليك العباد أعنتها، وملكتك أَزِمّتها، غير مبدلين ولا مغيرين، ولا باغين ولا منكرين، إلىٰ أن قام عليك عمك بحجته التي لا يمكنك جحدها، حسبما ثبت كما يجب عقدها، فخرجت مبادرًا له بدفعها، ولقيته بها وأنت واسطة عقدها، وحامل راية عهدها، وعمك في فئة لا يخطر علىٰ بال عاقل أن يقابل جندًا من جنودك، أو يدافع ما تحت لواء من ألويتك وبنودك، فما هو إلَّا أن

جرى القتال، وحضر النزال، رجعت على عقبك هاربًا هروب مطرود بقصاص، وجنودك تناديك ولات حين مناص، فتركت عددك ومحلتك بكل ما فيها، وخلفتها لعدوك ينهبها ويسبيها، وهربت عن مدينة فاس المحروسة وسكانها ينادونك: لمن تركتنا وإلى من تكلنا؟ فلم تلتفت إليهم وأسلمت بلادهم على ما فيها من خزائن الأموال والعدد الوافرة والرجال والأسوار المرتفعة المانعة، والمدينة المشهورة الجامعة، فأصبح أهلها واليد العادية من المفسدين تريد أن تمتد إلى الحريم والأولاد، والطارف والتلاد، ولا دافع عن الضعفاء والمساكين إلَّا الله تعالى الذي قال في مثلهم - ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ [النساء: ١٢٢]- ﴿لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً﴾ [النساء: ٩٨] فما أمكنهم بعد هروبك عنهم وإسلامك لهم فوضى مهملين إلَّا النظر في أمرهم، وإعمال الفكر في التدبير على أنفسهم، فبينما هم على ذلك إذا بعمك بجنوده على باب مدينتهم قائمًا بحجته، سالكًا في ذلك سبيل أبيه - رحمه الله - ومحجته، حسبما تقرر ذلك عندكم وظهر، ولم يخف عنكم منه عين ولا أثر، إذ كان مولانا محمد الجد الأكبر عهد لأولاده مولانا أحمد، ومولانا محمد الشيخ وإخوانهم، لا يتولى الخلافة منهم ولا من أولادهم إلَّا الأكبر فالأكبر، فالتزموا ذلك إلى أن كبر أولادهم فطلب جدك من عمك الوفاء بذلك فامتنع، فقاتله على ذلك حتى تم له الأمر وانتظم، فعهد لوالدك الذي كان أكبر أولاده، فلم ينازعه أحد في ذلك إلى أن ألقى والدك - رحمه الله - ذلك، وعهد إليك فلم ينازعكم أحد، فأبى الله إلَّا الحق فأعطى ملكه لعمك الذي هو أكبركم بعد أبيك.

فإن سلمت هذا فأي حجة تدلي بها وأي طريق تعتمد عليها؟! وإن أنكرت هذا فلا أثر لخلافة أبيك من قبلك ولا لجدك من قبله لثبوتها لعمكم مولانا أحمد؛ إذ لا حجة حينئذ لجدك في القيام على عمك، فخلافته صحيحة لبيعة جدك له، فلم يبق إلَّا التغلب الذي تدلي به في مسألة عمك وفي قيامه عليك، فإن كنت تريد أن تسقط حجته بالتغلب عليك فحجتك أبين في السقوط لعدم ثبوت الخلافة لمن عقدها لك؛ إذ المعدوم شرعًا كالمعدوم حسًا، فلم يبق بينكم إلا: «والملك بعد أبي ليلى لمن غلبا» فيلزمك على هذا أن تثبت ما عقده مولانا الجد - رحمه الله - وعليه فالخلافة لعمك القائم عليك إذ هو أكبركم في هذا التاريخ.

فإن قلت: إن ما عقده الجد غير صحيح.

قلنا: فقد ذكر الإمام الماوردي - رحمه الله، ورضي عنه - في كتاب «الأحكام السلطانية» له في باب عقد الخلافة: أن عبد الملك بن مروان رتبها في الأكبر فالأكبر من بنيه فلم ينازعه أحد في ذلك.

فإن قلت: فعل عبد الملك ليس بحجة.

قلنا: سكوت العلماء على ذلك وهم ما هم في زمانه هو الحجة؛ إذ لا يمكن أن يسكتوا على باطل، وإقرار أهل العصر الواحد على مسألة من المسائل واتفاقهم عليها يقوم مقام الإجماع الذي هو حجة الله في أرضه.

وكان أيضًا من محفوظات علماء فاس المحروسة ما خرجه مسلم ﷺ في صحيحه في كتاب الإمارة ما نصه: قال رسول الله ﷺ: **«يرفع لكل غادر لواء يوم القيامة عند رأسه يقال هذه غدرة فلان ابن فلان، ألا ولا غادر أعظم غدرًا من أمير عامة»**، قال القاضي: أبو الفضل عياض - رحمه الله - في كتاب «إكمال المعلم على شرح فوائد مسلم»: «يعني: لم يحطهم، ولم ينصح لهم، ولم يف بالعقد الذي تقلده من أمرهم».

وفي الباب نفسه عنه ﷺ ما نصه: **«ما من أمير استرعاه الله رعية ثم لم ينصح لهم إلا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام»**.

وفي «الإكمال» نفسه قال القاضي: «والذي عليه الناس إن القوم إذا بقوا فوضى مهملين لا إمام لهم فلهم أن يتفقوا على إمام يبايعونه، ويستخلفونه عليهم ينصف بعضهم من بعض، ويقيم لهم الحدود».

فلما أسلمتهم وأضحوا بغير إمام وعمك يدلي بحجته التي ذكرنا لك مع ما حفظوه من كلام النبي ﷺ وكلام السلف الصالح، وأيسوا من رجوعك إليهم، وبقوا فوضى مهملين لم يسعهم إلَّا الرجوع إلى ما عليه الناس - رضوان الله عليهم - فاتفقوا على أن يبايعوا عمك لما ذكرنا لك من الحجج التي لا يسعك جحدها إلَّا على وجه المكابرة، فاطمأن الناس وسكنوا، وانفتحت السبل وأقيمت الحدود وارتفعت اليد العادية.

فإن قلت: كان يجب على أهل فاس أن يقاتلوا على البيعة التي التزموها لك.

قلنا: إنما يلزمهم القتال أن لو أقمت بين أظهرهم فيكون قتالهم على وجه شرعي، لأن القتال على الحدود الشرعية إنما يكون بعد نصب إمام يصدر الناس عن رأيه ولا يمكنك أيضًا جحدها.

ثم وصلت إلى مراكش الغراء التي تجبى إليها الأموال من البوادي والأمصار، وتشد إليها الرحال من سائر الأقطار، فلقيك أهلها بالترحاب والسرور، وأنواع الفرح والحبور، فوجدت خزائنها تتدرج ملئًا من كل شيء، فحللتها وتمكنت من أموالها وخزائنها، ووافقك أهلها فما نكثوا ولا غدروا، ولا خرجوا عليك في سلطانك ولا أنكروا، فطلبت أيضًا قتال عمك وجندت جنودًا لا يجمعها ديوان حافظ، ولا يعهدها لسان لافظ، فخرجت إليه تجر أعنة الخيل وراءك كالسيول، والرماة قد ملأت الهضاب والتلول، فما كان من حديثك إلَّا أن وقع القتال وحضر النزال، بادرت هاربًا محكمًا للعادة، تاركًا للرؤساء من أجنادك والقادة، فحلت بهم الخطوب والرزايا، واختطفتهم أيدي المنايا، فتركت أيضًا محلتك بما فيها من حريمك وأموالك وعدتك، ثم أسرعت هاربًا إلى مراكش فما صدك عنها أحد من أهلها، ولا قال لك أحد لست ببعلها، فعملوا على القتال معك والتمنع بأسوارها الحصينة، والحصار داخل المدينة، فلما كان الليل غدرتهم وغادرت بناتك وأخواتك وعماتك ونساءك، وخرجت عنهم من القصبة وتركتهم لا بواب عليهم ولا حارس، ولا راجل ولا فارس، فيالها من مصيبة ما أعظمها، ومن داهية ما أعضلها، ولولا فضل الله ولطفه ووعده بتطهير أهل البيت لامتدت إليهم أيدي السفلة من الفسقة، فأي حجة تبقى لك بعد هذا؟ وأي كلام لك بين الرجال يا هذا؟ ثم جاءك عمك أيضًا بما سلف من الحجج فوجد أهلها في لطف الله - سبحانه - وهم يحرسون أولادهم وديارهم من اليد العادية، فأنقذهم الله به أيضًا فبايعوا عمك بما سلف من الحجج، واطمأنوا وسكنوا، ثم هربت للجبل عند صاحبه(١) فصرتما في نهب أموال الرعية وسفك دمائهم، وأكثر ما صفا لك من ذلك أهل الذمة المصغرون بحكم القرآن، الداخلون تحت عهد سيد الثقلين في الأمن والأمان فأنت وهم في استيلائك عليهم وظلمك إياهم.

---

(١) المقصود به: هو الشيخ أبو عبد الله بن محمد واسعدون الذي التجأ إليه المتوكل بعد فراره.

ولم تبال بقول النبي ﷺ: **«أنا خصيم من ظلم ذميًا يوم القيامة»** ثم خربت العامر، وأفسدت ما شيدت الأسلاف للإسلام من المآثر، فلما رأى أهل السوس الأقصى ذلك أيقنوا أنك إنما قصدت خراب الإسلام وأهله فنكب عنك أهل الدين والعلم منهم وبقيت - كما قيل - في خلف كجلد الأجرب.

فإن قلت: إن أولئك الخلف لم يبايعوا عمك فتنتقض بهم ما قررناه، قلنا: لم يطعن في خلافة أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن أبي طالب ﷺ من تخلف عنها من أهل الشام، وفيهم من قد علمت من الناس، والإجماع على صحة بيعته، وسُمِّي من تخلف عنها «باغيًا» لقول النبي ﷺ لعمار: **«تقتلك الفئة الباغية»** فقتله أصحاب معاوية ﷺ، والحديث من أعلام نبوته عليه الصلاة والسلام، والقاعدة أن ما اجتمع عليه من يعتبر من أهل العصر الواحد هو المعول عليه، ولا يعد خلاف من خالفه خلافًا.

وهذا كله بالنظر إلى ما كان من حديثك قبل التحزب مع عدو الدين، والأخذ في التخليط العظيم على المسلمين، فإنك اتفقت معهم على دخول آصيلا، وأعطيتهم بلاد الإسلام، فيالله ويا لرسوله لهذه المصيبة التي أحدثتها، وعلى المسلمين فتقتها، ولكن الله - تعالى - لك ولهم بالمرصاد، ثم لم تتمالك أن ألقيت بنفسك إليهم ورضيت بجوارهم وموالاتهم كأنك ما طرق سمعك قول الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، قال أبو حيان رحمه الله: أي لا تنصروهم ولا تستنصروا بهم.

وفي كتاب القضاء من نوازل الإمام البرزلي، رحمه الله: أن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتوني - رحمه الله - استفتى علماء زمانه، ﷺ، وهم ما هم، في استنصار ابن عباد الأندلسي بالكتابة إلى الإفرنج على أن يعينوه على المسلمين فأجابه جلهم ﷺ بردته وكفره، فتأمل هذا مع قضيتك تجدها مناسبة لقضية ابن عباد في عقدها ابتداء، وأنه متى طرأ الكفر وجب العزل، وناهيك بقول النبي ﷺ: **«عليكم بالسمع والطاعة»** وبما أفتى العلماء - رضوان الله عليهم - بردة من استنصر بالنصارى على المسلمين فهو نص جلي في وجوب خلعك، وسقوط بيعتك، فلم يبق لك إلَّا

منازعة الحق سبحانه في حكمه: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٣].

وأما قولك: في النصارىٰ فإنك رجعت إلىٰ أهل العدوة واستعظمت أن تسميهم بالنصارىٰ، ففيه المقت الذي لا يخفىٰ.

وقولك: رجعت إليهم حين عدمت النصرة من المسلمين، ففيه محظوران يحضر عندهما غضب الرب جل جلاله:

أحدهما: كونك اعتقدت أن المسلمين كلهم علىٰ ضلال، وأن الحق لم يبق من يقوم به إلَّا النصارىٰ، والعياذ بالله.

والثاني: أنك استعنت بالكفار علىٰ المسلمين، وفي الحديث: أن رجلاً من المشركين ممن عرف بالنجدة والشجاعة جاء إلىٰ النبي ﷺ فوجده بحرة الوبرة ـ موضع علىٰ نحو أربعة أميال من المدينة ـ فقال له: «يا محمد، جئت لأنصرك» فقال له النبي ﷺ: «**إن كنت تؤمن بالله ورسوله**» فقال: «لا أفعل» فقال له عليه الصلاة والسلام: «**إني لا أستعين بمشرك**»، وما سمعته من قول العلماء ﷺ في الاستعانة بهم إنما هو علىٰ المشركين بأن نجعلهم خدمة لأزبال الدواب لا مقاتلة، فأما الاستعانة بهم علىٰ المسلمين فلا يخطر إلَّا علىٰ بال من قلبه وراء لسانه، وقد قيل قديمًا: «**لسان العاقل من وراء قلبه**».

وفي قولك: يجوز للإنسان أن يستعين علىٰ من غصبه حقه بكل ما أمكنه، وجعلت قولك هٰذا قضية أنتجت لك دليلاً علىٰ جواز الاستعانة بالكفار علىٰ المسلمين، وفي ذلك مصادمة للقرآن والحديث وهو عين الكفر أيضًا، والعياذ بالله.

وقولك: فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله، إيهِ أنت مع الله ورسوله أو مع حزبه فتأمل ما قلت؛ ففي الحديث: «يتكلم أحدكم بالكلمة تهوي به في النار سبعين خريفًا».

ولما سمعت جنود الله وأنصاره وحماة دينه من العرب والعجم قولك هٰذا، حملتهم الغيرة الإسلامية والحمية الإيمانية، وتجدد لهم نور الإيمان، وأشرق عليهم شعاع الإيقان، فمن قائل يقول: «لا دين إلَّا دين محمد ﷺ»، ومن قائل يقول: «سترون ما أصنع عند اللقاء» ومن قائل يقول: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ

الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١] ومن قائل يقول: «إنما قصد التشفي بالمسلمين، إذ لو كان يطلب الصلاح لما صدرت منه هـٰذه الأفعال القبيحة»... إلىٰ غير ذلك فجزاهم الله عن الإسلام خيراً، ورضي عنهم وبارك فيهم، فلله درهم من رجال وفرسان وأبطال وشجعان، فلو لم يكن منهم إلَّا ما غير قلوبهم على الدين لكان كافيًا في صحة إيمانهم وعظيم إيقانهم، فقد بلغ نور غضبهم لله ـ سبحانه ـ ساق العرش، والحب في الله والبغض في الله من قواعد الإيمان.

وقولك أيضًا متبرئًا من حول الله وقوته: «فإن لم تفعلوا فالسيف»، فهو كلام هذيان يدل علىٰ حماقة قائله فقط: أنبا سيفك هـٰذا وأنت مع المسلمين في أربع وعشرين معركة لم تثبت لك فيها راية، ثم زال نبوه الآن بالكفار. فهـٰذه أضحوكة فتأملها.

وأما ما نسبته لإمام دار الهجرة فكفاك عجزاً إن لم تعين لنا نصًا جليًا نعتمد عليه فيما تحتج به إلَّا أنك كثرت به سواد القرطاس مغربًا بذكره لا معربًا بنصه.

وما نسبته للحنفية من أكل الميتة عند الضرورة وتسويغ الغصة بخمر، فهو ما نص عليه المالكية في مختصراتهم التي ألفوها للصبيان، فعدولك عن ذلك إلىٰ الحنفية إما قصور، وإما إلغاء لمذهب مالك ﷺ وهو النجم الثاقب.

وأما قولك: «أنتم أهل بغي وعناد» فلا نسلم لك ذلك إلَّا لو أقمت بين أظهرنا وقاتلت معنا حتىٰ ترىٰ أنسلمك أم لا، فأما إذ هربت عنا وتركتنا فالحجة عليك لا علينا، علىٰ أنك في كتابك تفسق الكل بذلك وتكفره، وقد قال العلماء ﷺ: «من يقول بتكفير العامة فهو أولىٰ بالتكفير» وذلك معزو لزعيم العلماء القاضي أبي الوليد بن رشد، والقاضي أبي الفضل عياض، وكيف لا تنظر لقضايا تلمسان وتونس وغيرهما من سائر البلدان، وكيف وقع لأمرائهم المستنصرين بالكفار علىٰ المسلمين، هل حصلوا علىٰ شيء مما قصدوه، أو بلغوا شيئًا مما أملوه، علىٰ أن أكثر العلماء حكموا بردتهم ففاتتهم الدنيا والآخرة، والعياذ بالله.

وقد افتخرت في كتابك بجموع الروم وقيامهم معك، وعولت علىٰ بلوغ الملك بحشودهم، وأنىٰ لك هـٰذا مع قول الله تعالىٰ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ

الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «**سيقاتل آخر هذه الأمة الدجال**»، وعنه ﷺأنه قال: «**سألت ربي ثلاثًا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة، سألته ألا يهلكهم بسنة عامة فأعطانيها، وسألته ألا يغلبهم عدوهم الكافر فأعطانيها، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها**»، والكل عليك وإياك نعني.

وما ذكرته عن عمك: فاعلم أنه لما بلغه خبرك واستنصارك بالكفار عقد ألويته المنصورة بالله في وسط جامع المنصور بعد أن ختم عليها أهل الله من حملة القرآن مائة ختمة، وصحيح البخاري، وضجوا عند ذلك بالتهليل والتكبير، والصلاة والسلام على البشير النذير، والدعاء له وللإسلام بالنصر والتمكين، والفتح الشامخ المبين، فلو سمعت ذلك لعلمت وتحققت أن أبواب السماء انفتحت لذلك، وقضي ما هنالك، وبلغه كتابك الذي كان هذا جوابًا عنه وهو بوسط تامسنا معه من جنود الله وأنصاره وحماة دينه ما يجعل الله فيه البركة، ولولا أن الشرع العزيز أمر بتعظيم جنود الإسلام والمباهاة بها، والافتخار بكثرتها لما قررنا لكم أمرها، إذ لا اعتماد له أيده الله عليها، وكذلك هم لا اعتماد لهم إلَّا على حول الله وقوته ونصره وتأييده، والناس على دين الملك، وقد قاتلت وأنت في وسط المسلمين في بضع عشرة معركة لم تنصر لك فيها راية، فأي نحس وشؤم حلاً بديار الروم، فإن جلبتهم فالله لك ولهم بالمرصاد، ارجع إلى الله أيها المسكين، وتب إليه فإنه يقبل التوبة عن عباده في كل وقت وحين، ودع عنك كلام من لا يُنهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله، وهذه نصيحة إن قبلتها، وموعظة إن وفقت إليها، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وهو نعم المولى ونعم النصير، وهو حسبنا ونعم الوكيل، والسلام» انتهت الرسالة (١)

وكان خروج محمد بن عبد الله بجيش البرتغال وفصوله به من طنجة في ربيع الثاني سنة ست وثمانين وتسعمائة، **قال في «المرآة»:**

[٢٩٤] «إنهم لما خرجوا إلى بلاد الإسلام ضربوا محلاتهم بالفحص، على أقل من مسيرة يوم من مدينة القصر، وكانت آصيلا قد تصيرت إليهم قبل ذلك بأشهر، يعني بعد فرارهم عنها أيام السلطان محمد الشيخ كما تقدم، فعاين أهل القصر

---

(١) قلت: رسالة رائعة جليلة تنبئ عن فهم ثاقب لدين الإسلام وقواعده الشرعية وضوابطه المرعية.

الهلكة لقرب العدو منهم وقوته التي لا طاقة لهم بها، وفشا النفاق لأجل السلطان محمد بن عبد الله الذي معهم ولأجل بعد صريخ المسلمين، فإن السلطان أبا مروان المعتصم بالله كان إذ ذاك بمراكش، فاستبطأُوا وصول الخبر إليه، ثم مجيئه بعد ذلك، فلم يبق لهم تدبير إلَّا الفرار، والتحصن بالجبال وغيرها، فقال الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسي ـ رحمه الله ـ وكان إذ ذاك بالقصر ـ لرجل من أصحابه: «ناد في الناس أن الزموا بلادكم ودوركم، فإن عظيم النصارىٰ مسجون حيث هو، حتىٰ يجيء السلطان من مراكش، وإن النصارىٰ غنيمة للمسلمين، ومن شاء فليعطِ خمسين أوقية في النصراني» يشير إلىٰ مبلغ قيمة النصراني في الغنيمة، فما انتقل النصارىٰ من مكانهم ذلك أكثر من شهر حتىٰ قدم السلطان أبو مروان وكان مريضاً» اهـ.

وقال في «النزهة»: «إن النصارىٰ لما برزوا من طنجة شنوا الغارة علىٰ السواحل، فأعلم أهلها السلطان أبو مروان، وكان بمراكش، وشكوا إليه كَلَبَ العدو عليهم، فكتب السلطان أبو مروان من مراكش إلىٰ الطاغية: «إن سطوتك قد ظهرت في خروجك من أرضك، وجوازك العدوة فإن ثَبَتَّ إلىٰ أن نقدم عليك فأنت نصراني حقيقي شجاع، وإلَّا فأنت كلب ابن كلب» فلما بلغه الكتاب غضب، واستشار أصحابه هل نقيم حتىٰ يلحق بنا من خلفنا من أصحابنا، فقال له محمد بن عبد الله: «الرأي أن نتقدم ونملك تطاوين والعرايش والقصر ونجمع ما فيها من العدة ونتقوىٰ بما فيها من الذخائر» فأعجب ذلك الرأي أهل الديوان ولم يعجب الطاغية.

وكتب السلطان أبو مروان لأخيه أبي العباس أحمد ـ وكان نائبه علىٰ فاس وأعمالها ـ أن يخرج بجيوش فاس وأحوازها ويتهيأ للقتال، ثم كتب إليه أيضاً في شأن مؤنة الجيش كتاباً.

[٢٩٥] ثم كتب السلطان أبو مروان للطاغية ثانية، وذلك بعد ما وصل إلىٰ القصر: إني رحلت إليك ست عشرة مرحلة أما ترحل إلي واحدة، فرحل الطاغية من موضع يقال له: تاهدارت، ونزل علىٰ وادي المخازن بمقربة من قصر كتامة، وكان ذلك من السلطان أبي مروان مكيدة، ثم إن الطاغية تقدم بجيوشه، وعبر جسر الوادي ونزل من هٰذه العدوة، فأمر السلطان بالقنطرة أن تهدم، ووجه إليها كتيبة من الخيل فهدموها، وكان الوادي لا مشرع له سوىٰ القنطرة، ثم زحف السلطان

أبو مروان إلىٰ العدو بجيوش المسلمين، وخيل الله المسومة، وانضاف إليه من المتطوعة كل من رغب في الأجر وطمع في الشهادة، وأقبل الناس سراعًا من الآفاق، وابتدروا حضور هٰذا المشهد الجليل، فكان ممن حضره من الأعيان الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسي وغيره.

[٢٩٦] قال في «المرآة»: «كان الشيخ أبو المحاسن في ذلك اليوم في أحد الجناحين ـ وأظنه الميسرة ـ من عسكر المسلمين في مقابلة النصارىٰ دمرهم الله، قال: فوقع في ذلك الجناح انكسار تزحزح به المسلمون عن مصافهم، وحملت عليهم النصارىٰ ـ دمرهم الله ـ فثبت الشيخ وثبت من كان معه إلىٰ أن منح الله المسلمين النصر، وركبوا أكتاف العدو يقتلون ويأسرون، والشيخ لم يتزلزل، ولم يلتفت منذ توجه إلىٰ قتالهم حتىٰ فتح الله عليهم» اهـ.

ولما التقت الفئتان وزحف الناس بعضهم إلىٰ بعض وحمي الوطيس واسود الجو بنقع الجياد ودخان المدافع وقامت الحرب علىٰ ساق توفي السلطان أبو مروان ـ رحمه الله ـ عند الصدمة الأولىٰ، وكان مريضًا يقاد به في مِحَفة فكان من قضاء الله السابق ولطفه السابغ أنه لم يطلع علىٰ وفاته أحد إلَّا حاجبه مولاه رضوان العلج، فإنه كتم موته، وصار يختلف إلىٰ الأجناد ويقول: «السلطان يأمر فلانًا أن يذهب إلىٰ موضع كذا، وفلانًا أن يلزم الراية، وفلانًا يتقدم، وفلانًا يتأخر».

وقال شارح «الزهرة»: لما توفي السلطان أبو مروان لم يُظهر الذي كان سائس المحفة موته، فصار يقدم دواب المحفة نحو العدو، ويقول للجند: «السلطان يأمركم بالتقدم إليهم» وعلم أيضًا بموته أخوه، وخليفته أبو العباس أحمد بن الشيخ فكتمها، ولم يزل الحال علىٰ ذلك، والناس في المناضلة والمقاتلة إلىٰ أن هبت علىٰ المسلمين ريح النصر، وساعدهم القدر، فولىٰ المشركون الأدبار، ودارت عليهم دائرة البوار، وحكمت السيوف في رقاب الكفار ففروا ولات حين فرار، وقتل الطاغية سبستيان عظيم البرتغال غريقًا في الوادي، وقصد النصارىٰ القنطرة فلم يجدوا إلَّا آثارها فخشعت نفوسهم، وتهافتوا في النهر تهافت الفراش علىٰ النار، فكان ذلك من أكبر الأسباب في استئصالهم، وأعظم الحبائل في اقتناصهم، ولم ينج منهم إلَّا عدد نزر وشرذمة قليلة.

[٢٩٧] وقال في «المنتقى المقصور»: «كانت هٰذه الغزوة من الغزوات العظيمة

والوقائع الشهيرة حضرها جم غفير من أهل الله ـ تعالىٰ ـ حتىٰ إنها أشبه شيء بغزوة بدر، حدثنا شيخنا أبو راشد يعقوب البدري عمن يثق به أن الرجل من حاضري ذلك المعترك كان يستبق إلىٰ النصراني لينتهز فيه الفرصة فما يصله حتىٰ يجده ميتًا» اهـ.

[٢٩٨] وبُحث في القتلىٰ عن محمد بن عبد الله المستصرخ بهم والقائد لهم إلىٰ مصارعهم فوُجد غريقًا في وادي المخازن، وذلك أنه لما رأىٰ الهزيمة فر ناجيًا بنفسه واضطر إلىٰ عبور النهر فتورط في غدير منه وغرق فمات، فاستخرجه الغواصون وسُلخ وحُشي جلده تبنًا، وطيف به في مراكش وغيرها من البلاد.

وكان التقاء الجمعين يوم الاثنين منسلخ جمادىٰ الأولىٰ سنة ست وثمانين وتسعمائة، ويوافقه من التاريخ المسيحي اليوم الرابع من أغشت سنة ثمان وسبعين وخمس عشرة مائة.

وقال في «المرآة»: وحصل المسلمون علىٰ غنيمة لم يكن قط مثلها بالمغرب إذ لم يتقدم للنصارىٰ خروج به علىٰ هـٰذه الصورة إلَّا أن الغنيمة لم تقسم، وإنما انتهبها الناس كما اتفق لهم بحسب القوة والبخت الدنيوي، وكان الناس يتوقعون مغبتها لاختلاط الأموال بالحرام فظهر ذلك من غلاء وغيره، وكنا نسمع أن البركة رفعت من الأموال من يومئذ.

وقد حضر الشيخ أبو المحاسن هـٰذه الغزوة وأبلىٰ فيها بلاء حسنًا وتورع عن الغنيمة فلم يتلبس منها بشيء وبلغت قيمة النصراني ما ذكره الشيخ، وكان سبب عدم ضبط الغنيمة وقسمها علىٰ الوجه المشروع موت السلطان أبي مروان قبل هزيمة النصارىٰ، وكان مريضًا، فاشتغل أخوه أبو العباس أحمد بجمع الكلمة ولم يهتبل بأمر الغنيمة فتم له ما قصد.

وقد ساق منويل في «تاريخه» خبر هذه الوقعة مساقًا حسنًا، فقال:

[٢٩٩] لما استولىٰ عبد الملك السعدي المدعو عند أهل المغرب بمولاي ملوك علىٰ ملك المغرب، وطرد ابن أخيه مولاي محمد المعروف بالأكحل يعني: المسلوخ، ذهب أولاً إلىٰ إصبانيا، وتطارح علىٰ طاغية الإصبنيول فيليب الثاني في أن يعينه علىٰ استرجاع ملكه فامتنع، ثم دخل أشبونة وتطارح علىٰ طاغية البرتغال سبستيان فأجابه، وذهب إلىٰ خاله طاغية الإصبنيول فيليب المذكور آنفًا وطلب منه

الإعانة على ما هو بصدده، فوعده بأن يعطيه من المراكب والعساكر ما يملك به العرائش؛ لأنه كان يرى أنها تعدل سائر مراسي المغرب، ثم أمده بعشرين ألفًا من عسكر الإصبنيول، وكان سبستيان قد ساق معه اثني عشر ألفًا من البرتغال وثلاثة آلاف من الطليان، ومثلها من الألمان، ومن متطوعة الإصبنيول وغيرهم عددًا كثيرًا، وبعث إليه البابا صاحب رومة بأربعة آلاف أخرى؛ وبألف وخمسمائة من الخيل، واثني عشر مدفعًا وجمع سبستيان نحو ألف مركب وجاء إلى قادس.

[٣٠٠]ولما عزم على اقتحام بلاد المغرب تشفعت إليه جدته وأرباب دولته وشيوخ دينه في الرجوع فصم عنهم، وكذلك خاله فيليب حذره عاقبة التوغل في أرض المغرب فصم على ذلك كله، وجاء إلى قادس ومنها خرج إلى طنجة.

وكان محمد بن عبد الله المسلوخ ينتظره هنالك فاجتمع به وزحفوا إلى بلاد المغرب، وزحف إليهم السلطان عبد الملك في عساكر المسلمين وكانوا أربعين ألفًا وزيادة، ومدافعهم أربعة وثلاثين مدفعًا، ولما تقارب الجيشان جمع السلطان عبد الملك الناس وخطبهم، ثم استدعى النصارى إلى القتال، ونصب لهم علامته، فأحجموا وكان قصدهم المطاولة، وقصد السلطان عبد الملك المناجزة، وذلك لأن محمد المسلوخ قد دس إليه من سمه.

قال منويل: ولما أحس عبد الملك بذلك، وأنه لا محالة هالك، بذل نفسه للقتال ليموت في الجهاد، وكان المسلوخ يتربص كي يهلك عمه قبل اللقاء فتقع الفتنة في عسكر المسلمين، لكن جيش النصارى لم تكن لهم مؤنة يطاولون بها فألجأهم ذلك إلى المناجزة، ولما انتشبت الحرب هلك عبد الملك للحين.

قال منويل: وكان أمر هذا الرجل عجبًا في الحزم والشجاعة حتى أنه لما مات مات وهو واضع سبابته على فمه، كأنه يشير إلى جيشه أن يسكتوا عن الخوض في وفاته حتى يتم أمرهم، ولا يضطربوا، وكذلك كان، فإنهم كتموا موته فانتصروا وظفروا بالنصارى ظفرًا لا كفاء له، فكانوا يذبحونهم مثل الكباش، ودهش النصارى وتكبكبت جموعهم، وتراكمت أمتعتهم وصناديقهم وخيلهم وسلاحهم بلا ترتيب، وزادهم دهشًا أن بعض طوابيرهم كان ينادي صاحب صفارته وراءكم وراءكم قطعكم العدو، ووقدت النار في بارود النصارى فنفط، وانهزموا إلى وادي

المخازن فتهافت جلهم فيه فهلكوا والباقي أسره المسلمون.

وزعم أن سبستيان هلك تحته في ذلك اليوم أربعة أفراس، وكان شابًا حدثًا، وقال لأصحابه: «إن تروني تروني أمامكم، وإن لم تروني فأنا في وسط العدو أقاتل عنكم» قال: وأبدأ وأعاد في ذلك اليوم إلى أن خر قتيلاً وبقي مذكوراً عند البرتغال يسمرون بأخباره، وذكره شعراء الأوربا في أشعارهم، ولا زالوا يذكرونه إلى الآن.

قال في «النزهة»: توفي السلطان أبو مروان عبد الملك بن الشيخ في زوال اليوم المذكور، وبايع الناس أخاه أبا العباس أحمد المنصور بالله كما سيأتي إن شاء الله.

قال في «درة الحجال»: «فانظر لحكمة الله الواحد القهار أهلك ثلاثة ملوك يوم واحد، وهم: أبو مروان الشيخ، وولد أخيه محمد بن عبد الله المسلوخ، والطاغية سبستيان، وأقام واحداً وهو أبو العباس المنصور» اهـ.

قلت: وفي إهلاك الثلاثة وإقامة الواحد إشارة واضحة لإهلاك دين التثليث ونصر دين التوحيد في ذلك اليوم، والله تعالى أعلم.

ولما بلغت الهزيمة إلى الطاغية الأعظم - أعني القائم بالأمر بعد سبستيان - بعث إلى المنصور بعد استقلاله بالملك وعوده إلى فاس - كما سيأتي - يلتمس منه الفداء فيمن بقي بيده من الأسارى، فأجابه إلى ذلك وحصل له بسببه أموال طائلة، وذكر بعضهم أن الأسارى لما ذهبوا إلى بلادهم قال الطاغية: «لِم لم تأخذوا تطاوين والعرائش والقصر قبل أن يصل ملكهم؟».

فقالوا له: «امتنع من ذلك الأمير الذي كان علينا»، فأمر بهم فأُحرقوا جميعاً.

[٣٠١] مضحكة

قال في «النزهة»: «ذكر بعضهم أن النصارى لما وقعت عليهم الكائنة المذكورة وفني من فني منهم ورأى أساقفتهم قلة عددهم وخلاء بلادهم لكثرة من مات منهم أباحوا للعامة فاحشة الزنى ليكثر التناسل ويخلف ما هلك منهم ورأوا ذلك من نصرة دينهم وتقويم أَوَد ملتهم أخزاهم الله» اهـ.

وقد وقفت على تاريخ لبعض مؤرخي الفرنج الإنجليزيين من أهل جزيرة مالطة فرأيته قد ألم بخبر هذه الوقعة وصرح بأنها كانت سبب هلاك البرتغال وتلاشي

دولتهم وبطلان كرسي سلطنتهم حتى استضافهم إليه طاغية الإصبنيول بعد نحو ستين وصيرهم من جملة رعيته، ومن فصول كلامه بعد أن ذكر أن أكثر البرتغال قتلوا في ذلك اليوم ما نصه: «وكانت ـ يعني الوقعة المذكورة ـ وقعة هائلة ويومًا مشؤومًا، وبالجملة فقد قتل في ذلك اليوم سائر أشراف البرتكيسيين ولم يتخلف منهم أحد، فلما بطل كرسي سلطنتهم قام وقتئذ فيليبس الثاني ملك إصبانيا وتزوج ملكتهم وحكم على البلاد كلها» اهـ كلامه.

وقد ألم بهٰذه الوقعة أيضًا لويز مارية في كتابه الموضوع في أخبار الجديدة لكنه لم يبسطها على عادته في السكوت عن ما يكون من الظهور في جانب المسلمين وإشاعة ما يكون من ذلك في جانب النصارى بل والزيادة فيه ومع ذلك فقد قال في وصفها كلامًا هٰذه ترجمته:

«وقد كان مخبوءًا لنا في مستقبل الأعصار العصر الذي لو وصفته كما وصفه غيري من المؤرخين لقلت هو العصر النحس البالغ في النحوسة، الذي انتهت فيه مدة الصولة والظفر والنجاح، وانقضت فيه أيام العناية من البرتغال، وانطفأ مصباحهم بين الأجناس، وزال رونقهم، وذهبت النخوة والقوة منهم وخلفها الفشل، وانقطع الرجاء واضمحل إبان الغنى والربح، وذلك هو العصر الذي هلك فيه سبستيان في القصر الكبير، من بلاد المغرب» اهـ. فهٰذا كلام هٰذا البرتغالي قد تحفظت عليه وأديت ترجمته كما هي ليعتبر به من يقف عليه «والحق ما شهدت به الأعداء». ثم أمر المنصور بتوجيه كتب البشارات إلى الآفاق بهٰذا الفتح المبين؛ فكتب إلى صاحب القسطنطينية العظمى وإلى سائر ممالك الإسلام المجاورين للمغرب يعرفهم بما أنعم الله به من إظهار الدين، وهلاك عبدة الصليب واستئصال شوكتهم ورد كيدهم في نحرهم فوردت عليه الأرسال من سائر الأقطار مهنئين له بما فتح الله على يده.

الخبر عن دولة السلطان أبي العباس أحمد المنصور بالله السعدي المعروف بالذهبي وأوليته ونشأته

كانت ولادة السلطان أبي العباس أحمد المنصور بالله ابن السلطان أبي عبد الله الشيخ بفاس سنة ست وخمسين وتسعمائة.

قال في «مناهل الصفا»: ونشأ المنصور ـ رحمه الله ـ في عفاف وصيانة وتعاط للعلم، وكانت مخايل الخلافة لائحة عليه.

[٣٠٢] حدثنا الفقيه العالم سفير الخلفاء أبو محمد عبد الله بن محمد بن محمد بن علي الجزولي الدرعي أنه اجتمع ببعض أهل المكاشفة بمصر فسأله عن السلطان أبي عبد الله الشيخ وأولاده، قال: فسميتهم له واقتصرت على الكبار منهم فلم أذكر المنصور لأنه كان أصغرهم سنًا يومئذ.

فقال لي: بقي منهم من لم تذكره.

فقلت له: أحمد.

فقال: ذاك واسطة عقدهم ووجه صفقتهم، فكان كذلك.

[٣٠٣] وكان المنصور ـ رحمه الله ـ يحدث أنه رأى النبي ﷺ في النوم وأنواره تشرق، قال: «فوقع في نفسي أن أسأله عن نصيبي من الخلافة فكاشفني ـ عليه الصلاة والسلام ـ بما في خاطري، وأجابني بما حقق لي نيلها، ثم أشار لي بأصابعه الثلاثة الشريفة ضامًا الإبهام منها إلى السبابة والوسطى وقال: أمير المؤمنين» اهـ.

[٣٠٤] وقال الإمام أبو زيد عبد الرحمن بن محمد التامنارتي في كتابه «الفوائد الجمة بإسناد علوم الأمة»:

«أخبرني الفقيه أبو العباس أحمد بن عبد الله الدغوغي صاحب «الحسبة» بتارودانت أنه رأى في منامه كأنه في حلقة يسرد فيها صحيح البخاري بموضع من دار الخلافة بها، وأبو العباس المنصور يومئذ بها، وذلك قبل ولايته، قال: فرأيت في طرة الكتاب هذا اللفظ: «ورى الزند» فكنت أتأمل معناه فالتفت فإذا برجل انعزل ناحية على طِنْفِسة [١] فوقع في نفسي أن أسأله فأتيته بالكتاب وقلت له: يا سيدي، ما معنى هذه الكلمة التي في طرة هذا الكتاب؟

فقال لي: قل لمولاك أحمد: أنا الذي أوريت زندك ما دمت على الحق فإن عدلت عنه فأنا بريء منك.

فقلت له: ومن أنت يا سيدي؟

---

(١) قلت: مثل المخدة.

فقال لي: رسول الله ﷺ.

ثم لم يمض إلَّا قليل حتىٰ ولي الخلافة وحمدت سيرته.

وكانت بيعته بعد الفراغ من قتال النصارىٰ بوادي المخازن يوم الاثنين منسلخ جمادىٰ الأولىٰ سنة ست وثمانين وتسعمائة، واجتمع عليها من حضر هناك من أهل الحل والعقد، ثم لما قفل المنصور من غزوته تلك ودخل حضرة فاس يوم الخميس عاشر جمادىٰ الآخرة من السنة المذكورة جددت له البيعة بها ووافق عليها من لم يحضرها يوم وادي المخازن، ثم بعث إلىٰ مراكش وغيرها من حواضر المغرب وبواديه فأذعن الكل للطاعة، وسارعوا إلىٰ الدخول فيما دخلت فيه الجماعة.

[٣٠٥] حدوث النفرة بين المنصور والسلطان مراد العثماني وتلافي المنصور لذلك

قد علمت ما كان من التجاء عبد الملك المعتصم وأحمد المنصور إلىٰ السلطان سليمان العثماني وتطارحهما عليه حتىٰ أمدهما بالجيش الذي كان سببًا في تملكهما المغرب، ولما صفا الأمر لعبد الملك أهمل جانب العثماني ولم يكاتبه بشيء، ثم لما ملك المنصور وكتب إلىٰ النواحي بخبر وقعة وادي المخازن كتب إلىٰ السلطان مراد في جملتهم فبعث السلطان المذكور إلىٰ المنصور بالهدية وكأن المنصور استقلها وأنف منها، فتشاغل عن الوفد وتركهم مهملين بحضرته، وتأخر عن جواب السلطان مراد فكان ذلك سببًا للنفرة، وكان وزير البحر للعثماني، واسمه الرئيس علي علوج، يبغض المنصور فلم يزل يسعىٰ به عند سلطانه ويُذكّره ما كان من أبيه الشيخ من القدح في ولاية الترك والطعن عليهم، وقال له في ذلك: «قد ضاع صنيعك في هـٰذا الغادر وصنيع والدك من قبلك» ولم يزل يفتل له في الذروة والغارب ويهون عليه أمر المغرب حتىٰ أذن له في توجيه العمارة إليه ومنازلته إلىٰ أن يستأصل أمر المنصور ويخمد جمرته، ويقال: إن السلطان مرادًا أمر وزيره المذكور أن يذهب بالعمارة إلىٰ الجزائر فتكون هنالك ثم يتقدم بالعساكر في البر إلىٰ المغرب، فأخذ الوزير في التأهب لذلك، واتصل الخبر بالمنصور علىٰ يد بعض قناصل الإنجليز، فارتحل إلىٰ فاس من حينه وشحن الثغور وملأ المراسي، وكان علىٰ أهبة وكمال استعداد، وبعث

أرساله إلى السلطان المذكور بهدية عظيمة تلافيًا لما فرط واعتذارًا عما سلف، وكان من جملة أرساله القائد الأنجد أبو العباس أحمد بن ودة العمراني، والكاتب الشهير أبو العباس أحمد بن يحيى الهوزالي، فركبوا البحر من مرسى تطاوين قاصدين القسطنطينية العظمى، وبينما هم في أثناء الطريق على ثبج البحر لقيهم الوزير علوج في أسطوله قاصدًا ديار المغرب عازمًا على منازلة المنصور به، فلما رآهم سُقط في يده، وأيقن بخيبة مسعاه، فرام صدهما عما قصدا إليه وأيأسهما من تدارك الأمر، وقال لهما: «إن الخرق قد اتسع على الراقع، ولو كان لصاحبكم غرض في المسألة ما بقي أصحابنا بأبوابه كالكلاب، والبادي أظلم» فلم يزل الوزير علوج بالقائد ابن ودة إلى أن صرفه عن رأيه ورده معه، وترك الهوزالي يبلغ الرسالة والهدية ظنًا منه أن صغير السن لا يحسن مخاطبة الملوك العظام، وابن ودة الذي كان عنده مظنة لكمال التدبير ومشافنة الملوك رده معه، فلما انتهى الهوزالي إلى السلطان مراد ودخل عليه أظهر من نبله ولطف مخاطبته ما خلب به قلب السلطان المذكور، واستل السخيمة من صدره واعتذر له عن تأخر المنصور عن الجواب بما لا يعود بوهن على مخدومه، ولا يفيد غلبة خصمه، فقبل السلطان مراد الاعتذار، وتقبل الهدية بقبول حسن، وكتب مع الهوزالي إلى الوزير علوج بالرجوع عن منازلة المنصور، فرجع بها الهوزالي يطير سرورًا، ولم يغب عن علوج إلّا نحو الشهر حتى قدم عليه بأمر الملك، فقرع لها علوج سن الندم، وأسف على تفريطه في الهوزالي وتركه، وبعث السلطان مراد رسله مع الهوزالي إلى المنصور يلومه على التراخي في أمور الملوك، فلما قدموا عليه أكرم وفادتهم وأحسن نزلهم وردهم مكرمين إلى مرسلهم، وبعث معهم الفقيه الإمام قاضي الجماعة بحضرة مراكش أبا القاسم ابن علي الشاطبي، والقائد الأنجد أبا زيد عبد الرحمن بن منصور الشيظمي المريدي، فلما وردوا على خاقان الترك فرح بهم كل الفرح، ورتب الشاطبي كلامًا بليغًا أعرب فيه عن فضل الدولتين، وقرر فيه حق أهل البيت، وأطرى المنصور وحض فيه على اتحاد كلمة الإسلام، وقرأ ذلك على السلطان مراد فاهتز لسماعه، ثم بعد أيام أحسن إليهم وأجزل صلتهم وردهم مكرمين إلى مرسلهم.

وقال صاحب «خلاصة الأثر»: «كان المنصور موادعًا لسلاطين آل عثمان، فيرسل إليهم بالهدايا في كل سنة، وكانوا هم يرسلون إليه بالمكاتيب والخِلَع السنية حتى إن

السلطان مراد بن سليم كتب إليه أثناء مكاتبيه: «لك علي العهد أن لا أمد يدي إليك إلّا للمصافحة، وإن خاطري لا ينوي لك إلّا الخير والمسامحة»، وكانت رسله دائماً تأتي إلى القسطنطينية من جانب البحر ويمكثون زماناً طويلاً، ويتعهدون الوزراء ومن له قرب من الدولة».

ولما تكامل هذا الغرض، وصح جسم الدولة من المرض ورجعت الأرسال في أحسن الأحوال عاد المنصور إلى مراكش، وفي يوم خروجه من فاس خرج أعيان أهلها ومشيخة العلم بها، وقرئ البخاري بين يديه سرداً على عادة الخلفاء في ذلك، وكان ذلك كله سنة تسع وثمانين وتسعمائة.

وصول هدية صاحب برنو[1] إلى المنصور بحضرة فاس وما نشأ عن ذلك من بيعته له والتزام طاعته

كان المنصور ـ رحمه الله ـ مسعوداً محظوظاً، وكان من سعادته ما هيأ الله له من مهاداة صاحب مملكة برنو ومخاطبته له حتى كان ذلك سبباً في مبايعته له والدخول في طاعته، وكان من خبر ذلك ما حكاه في «مناهل الصفا» قال: «وفي سنة تسعين وتسعمائة ورد على المنصور الخبر وهو بمدينة فاس بقدوم رسول صاحب مملكة برنو من ملوك السودان، وجلب في هديته ما جرت عادتهم أن يجلبوه من فتيان العبيد والإماء، وكُساء السودان وطرفه، وكان من ذلك عدد كثير يناهز المئين، فوافى المنصور بعسكره على رأس الماء من ساحة فاس، وكان يوم ملاقاته يوما مشهوداً حسناً وأبهة وجلالة.

وكان من أغراض الرسالة التي أنفذه بها سلطانه: طلب المدد من أمير المؤمنين بالعساكر والأجناد وعدة البنادق ومدافع النار لمجاهدة من يليهم بقاصية السودان من الكفار، وكان هذا الرسول قد وفد قبل على سلطان الترك بالاصطنبول السلطان مراد العثماني يطلب منه المدد لجهاد كفار السودان فأخفق سعيه ولم يحصل على طائل، فوجهه في هذه النوبة إلى ملك المغرب يطلب منه المدد، ولما قُرئ كتابه على أمير المؤمنين اتفق أن وقع بينه وبين كلام الرسول اختلاف بيّن وتباين واضح، فكان

---

(١) قلت: برنو اليوم في وسط الحزام الإفريقي؟!

الذي دل عليه الكتاب خلاف ما دل عليه كلام الرسول، جر إليهم ذلك توغلهم في الجهل والغباوة، وعدم من يحسن الإعراب عن مقاصدهم من فرسان الإنشاء والكتابة، لطموس معالم العلوم عندهم على الجملة، فاغتنم المنصور لذلك اختلاف الرسول والرسالة وبنى عليه ما اعتد به على صاحب برنو ورجع الرسول إلى مرسله بعد مكافأته وتوجيه هدية من عتاق الخيل وأشرافها بكُسى من ملابس الخلافة وأسباب أخر، ولما بلغ الرسول والقى المعذرة إلى سلطانه استأنف الهدية وأعرب إذ ذاك عن مراده ورد الرسول ثانية إلى باب أمير المؤمنين فوافاه بحضرته ودار خلافته من مراكش، فأزال اللبس وبين الغرض وصرح بالمقصود، فلما تحقق المنصور بقصده صدع له بالحق والدعاء إلى التي هي أقوم، وطالبهم بالبيعة له والدخول في دعوته النبوية التي أوجب الله عليهم وعلى جميع العباد في أقطار البلاد الانقياد إليها، وقرر لهم بلسان السنة الناطق والكتاب المنزل على جده الصادق، أن الجهاد الذي ينتحلونه ويظهرون الميل إليه والرغبة فيه لا يتم لهم فرضه ولا يكتب لهم عمله ما لم يستندوا في أمرهم إلى إذن من إمام الجماعة الذي اختص الله أمير المؤمنين بوصفه؛ إذ هو الكافل لهٰذه الأمة، ووارث تراث النبوة، وقيضه الله لحماية بيضة الإسلام، وخصه بالشرف القرشي الذي هو شرط في الخلافة بإجماع من علماء الإسلام وأئمة السنة الأعلام، وألزمهم القيام في أقطارهم بدعوته، ومجاهدة أعدائهم الكفار بكلمته، وعلق لهم ـ أيده الله ـ الإمداد على البيعة والوفاء بهٰذا الشرط فالتزمه الرسول، وزعم أيضًا عن سلطانه بالقبول والإجابة، وطلب من السلطان نسخة يتوجه بها من صورة البيعة إذ ليس ببلدهم من يحسن الإنشاء، ويوفي الغرض لئلا يخلو بشيء من الشروط التي شارطتهم عليها أمير المؤمنين فأنشأها كاتب الدولة أبو فارس عبد العزيز الفشتالي.

ولما كتبت هٰذه البيعة دفعت للرسول وأكرم وكافأه أمير المؤمنين على هدية سلطانه وتوجه إلى بلاده بجواب مرسله.

بعث المنصور ورسوله بالدعوة إلى آل سُكْية وكيفية ذلك

لما أدى الوفد الواردون على المنصور من السلطان أبي العلاء صاحب مملكة برنو ما قدموا لأجله ردهم المنصور إلى صاحبهم مكرمين، وانتخب رسولاً عارفًا مجربًا

ممن لهم بصيرة بأحوال السودان فبعثه معهم عينًا يأتيه بأخبار البلاد حتى كأنه يشاهدها، وبعث معه رسالة إلى السلطان إسحاق بن داود من آل سُكْية صاحب مملكة كاغو من أرض السودان يأمره فيها أن يرتب على معدن الملح الذي بتغازي بين المغرب والسودان، ومنه يحمل الملح إلى أقطار السودان، وظيفًا، بأن يجعل كل من يحمل منه شيئًا من الواردين عليه مثقالاً من الذهب العين لكل حمل، تستعين بذلك الخراج عساكر المسلمين على جهاد الكفار لأن ذلك بحر لا ساحل له.

وكان المنصور لم يكاتبه في ذلك حتى أستفتى علماء إيالته وأشياخ الفتيا بها فأفتوه بما هو المنصوص للعلماء - رضوان الله عليهم - من أن النظر في المعادن مطلقًا إنما هو للإمام لا لغيره، وأنه ليس لأحد أن يتصرف في ذلك إلَّا عن إذن السلطان أو نائبه، وبعث إليه المنصور بتلك الفتاوى مع الرسالة الموجه بها مع الرسول، ولما بلغت رسالة المنصور إلى السلطان إسحاق سكية واطلع عليها شق عليه ذلك وماطل في الجواب، وحيث أبطأ الرسول فطن المنصور لما انطوى عليه سكية من عدم إجابته لما طلب من الوظيف على الملاحة، فاشتد غضبه وعزم على توجيه العساكر إلى السودان، فهذا هو الحامل له على قصد تلك البلاد وتدويخها.

[٣٠٦] مفاوضات المنصور الملأ
من أصحابه في غزو آل سكية وما دار بينهم في ذلك

قال الفشتالي رحمه الله: لما رجعت أرسال المنصور إليه من عند إسحاق سُكْية وأعلموه بمقالته وامتناعه واحتجاجه بأنه أمير ناحية، والمنصور أمير ناحية، وأنه لا تجب طاعته عليه، شاور المنصور أصحابه وجمع أعيان دولته والتقى أهل الرأي والمشورة فاجتمعوا، وكان يوم اجتماعهم يومًا مشهودًا، فقال لهم المنصور:

«إني عزمت على منازلة أمير السودان صاحب كاغو وبعث الجيوش إليهم لتجتمع كلمة المسلمين وتتحد الرعية، ولأن بلاد السودان وافرة الخراج كثيرة المال يتقوى بها جيش الإسلام ويشتد ساعد كتيبته، مع أن صاحب أمرهم والمتولي لسلطنتهم اليوم معزول عن الإمارة شرعًا؛ إذ ليس بقرشي ولا اجتمعت شروط السلطنة فيه العظمى» فلما نثل المنصور ما في كنانته، وأبدى ما في خبيئته، وعرض

ما في عَيْبته سكت الحاضرون ولم يراجعوا بشيء، فقال لهم: «أسكتم استصوابًا لرأيي، أو ظهر لكم خلاف ما ظهر لي؟».

فأجاب كلهم بلسان واحد ورأي متفق: «إن ذلك رأي عن الصواب منحرف، وأنه بمهامه عن الآراء السديدة، ولا يخطر ببال السوقة فكيف بالملوك؛ وذلك لان بيننا وبين السودان مهامه فيحا تقصر فيها الخطا، وتحار فيها القَطا، وليس فيها ماء ولا كلا، فلا يتأتى السفر فيها ولا اعتساف شيء من طريقها مع كونها مخوفة مملوءة الجوانب ذعرًا، وأيضا فإن دولة المرابطين على ضخامتها، ودولة الموحدين على عظمها، ودولة المرينيين على قوتها لم تطمح همة واحد منهم لشيء من ذلك، ولا تعرضوا لما هنالك، وما ذاك إلَّا لما رأوا من صعوبة مسالكها وتعذر مداركها، وحسبنا أن نقتفي أثر تلك الدول؛ فإن المتأخر لا يكون أعقل من الأول».

فلما قضى أولئك الأقوام كلامهم وأبدوا له رأيهم وملامهم، قال لهم المنصور: «إن كان هذا غاية ما استضعفتم به أمري، وفَيَّلتم به رأيي [1] فليس فيه حجة ولا ما يخدش فيما عندي، أما قولكم بيننا وبينها صحار مخوفة ومفاوز مهلكة لجدوبتها وعطشها فنحن نرى التجار على ضعفهم وقلة استعدادهم يشقون تلك الطرق في كل وقت ويخوضون في أحشائها مشاة وركبانًا وجماعة ووحدانًا، ولم تنقطع قط ركاب التجار عنها، وأنا أقوى أهبة منهم وللجيش همة ليست للقوافل.

وأما قولكم: إن من كان قبلنا من الدول الطنانة لم تطمح أبصارهم لذلك، فاعلموا أن المرابطين صرفوا عنايتهم لغزو الأندلس ومقابلة الإفرنج وَمن بذلك الساحل من الأروام، والموحدون اقتفوا سبيلهم في ذلك وزادوا بحرب ابن غانية، والمرينيون كانت غالب وقائعهم مع بني عبد الواد بتلمسان، ونحن اليوم قد انسد عنا باب الأندلس باستيلاء العدو الكافر عليها جملة، وانقطعت عنا حروب تلمسان باستيلاء الترك عليها، ثم إن أهل تلك الدول لو أرادوا ما أردنا لصعب عليهم؛ لأن جيوشهم كانت فرسانًا رامحة ورماة ناشبة، ولم يكن عندهم هذا البارود وعساكر النار المرهبة الصواعق، وأهل السودان ليس عندهم الآن إلَّا الرماح والسيوف، وهي

(١) قلت: أي رددتم واستضعفتم.

لا تقاوم هذه المدافع المستحدثة ، فمقاتلتهم سهلة وحربهم أيسر من كل شيء ، وأيضًا فإن بلاد السودان أنفع من إفريقية فالاشتغال بها أولى من منازلة الترك لأنه تعب كثير في نفع قليل ، فهذا جواب ما عرض لكم ، ولا يحملنكم ترك الملوك الاول ذلك على استبعاد القريب واستصعاب السهل ، فإنه كم ترك الأول للآخر ، وقد يفتح على المتأخر بما لم يفتح به على المتقدم» .

فلما فرغ المنصور من خطابه استحسن الحاضرون جوابه ، واستملحوا إشارته ، واستجادوا رأيه ، وقالوا له : «قد طبقت المفصل وألهمت الصواب ، ولم تبق لأحد ما يقول ، وصدق من قال : عقول الملوك ملوك العقول» ، فانفصل الجمع على البعث إلى السودان ومناهضة أهله ومتابعة المنصور في رأيه عليه .

قلت: وفي كلام المنصور أمران يحتاجان إلى مزيد بيان :

الأول: ما قاله من أن الملثمين لم تكن لهم سلطنة على السودان يعني بهم الذين أقاموا بأرض المغرب ودبروا أمره مثل يوسف بن تاشفين وبنيه فلا يرد عليه أن الأمير أبا بكر بن عمر غزا السودان وفتح منه مسيرة ثلاثة أشهر ؛ لأن ذلك كان بعد رجوعه إلى الصحراء واستقراره بها وإعراضه عن ملك المغرب بالكلية كما مر .

الثاني: ما قاله من أن البارود لم يكن في تلك الدول الفارطة يعني به لم يكن موجودًا فيها بكثرة بحيث يستغني به الجيش عن غيره ساعة القتال ، فلا يرد عليه أن ظهوره كان في أوائل المائة السابعة لأول دولة بني مرين ـ كما مر ـ إذ ظهوره في تلك المدة كلا ظهور ، والله تعالى أعلم بحقائق الأمور .

استجازة المنصور لعلماء مصر ﷺ وتلمذه لهم

[٣٠٧] قالوا : ومن اعتناء المنصور ـ رحمه الله ـ أنه بعث إلى علماء مصر يستجيزهم رغبة في اتصال حبل السند واقتفاء لاحب ذلك الطريق الأسد، وممن أجازه: الإمام العارف بالله أبو عبد الله محمد بن الشيخ أبي الحسن البكري ﷺ .

وممن استجازه المنصور أيضًا من علماء مصر: الإمام العلامة أبو عبد الله محمد ابن يحيى المصري الشهير ببدر الدين القرافي صاحب «ذيل الديباج» فأجازه إجازة عامة .

[٣٠٨] وفي هـٰذه السنة أعني سنة ست وتسعين وتسعمائة في ذي الحجة منها سافر المنصور إلىٰ فاس، وبينما هو في الطريق وافته البشرىٰ بالفتك بنصارىٰ سبتة وأن زعيم الفئة الجهادية وهو المقدم أبو العباس أحمد النقسيس التطواني كمن لهم مع جماعة من الفرسان في موضع فخرج النصارىٰ بأولادهم وحشمهم فحال النقسيس بينهم وبين سبتة وأوقع بهم وكاد يفتحها، وسر المنصور بهـٰذا الخبر.

وفي سنة سبع وتسعين وتسعمائة في اليوم الثاني من ذي القعدة منها أخلىٰ النصارىٰ مدينة آصيلا حملهم الخوف من كتيبة المسلمين المرابطة هنالك علىٰ الفرار بأنفسهم فتركوها.

[٣٠٩] وكان في زمن المنصور رجال من بيوتات المغرب معروفون بالشجاعة والنجدة في قتال العدو ومنهم: أولاد النقسيس التطوانيون، ومنهم: أولاد أبي الليف من أهل بلاد الهبط.

قال في «المرآة»: «لما كان المقدم المجاهد الشهيد أبو عبد الله محمد بن الحسن أبو الليف من الشهامة والصرامة علىٰ ما كان عليه، ومن شدة نكايته في العدو الكافر الطنجي وبعد أثره فيهم جرت أمور بينه وبين صاحب عمل القصر فسعىٰ به إلىٰ المنصور فأمر برحيله إلىٰ فاس هو وعشيرته مغربين عن وطنهم كأنهم في سجن؛ فأقاموا بفاس مدة لا أدري هل هي سنة أم أكثر إلَّا أني كنت أراه عند الشيخ سنة ثمان وتسعين وتسعمائة وأنا إذ ذاك صغير، ويعني بالشيخ والده أبا المحاسن رحمه الله»؛ قال: «فضاقت عليهم أنفسهم من الاغتراب فقال يوماً المقدم عمر لأخيه كبيره المقدم محمد: لو زرنا الشيخ اليوم وتبركنا به لعل الله يفرج عنا فإن الناس كثيراً ما يقصدونه في المهمات».

فقال له: «لا أتحرك فقد غلب اليأس» فسار المقدم عمر وحده فلما وصل إلىٰ الشيخ قال له: قنطتم؟

قال: نعم يا سيدي.

فقال له الشيخ: غدا يخلي سبيلكم إن شاء الله.

فرجع إلىٰ أخيه وأخبره، فلما كان من الغد بعث إليهم القاضي أبو محمد عبدالواحد الحميدي فلما أتوه قال لهم: أبشروا بالسراح والرجوع إلىٰ الوطن إن شاء

الله ؛ فإنه قد قُرئ الآن بين يدي السلطان بعض الغزوات التي ذكرها ابن النحاس (١) وغناء أبطال المسلمين فيها، فقال السلطان أو غيره: «ترىٰ هل بقي في هٰذا الزمان من يماثلهم».

فقالوا: قد بقي من يفعل فعلهم، وها هم أولاد أبي الليف المغربون هنا يفعلون مثل ذلك»

فقال السلطان: سرحوهم إلىٰ بلادهم ليحموا ثغورهم ويجاهدوا في سبيل الله، فرجعوا إلىٰ بلادهم وفعلوا الأفاعيل في عدو الدين إلىٰ أن استشهد المقدم محمد في ربيع الثاني سنة اثنتين وألف» اهـ.

[٣١٠] غزو السودان وفتح مدينة كاغو ومقتل سلطانها إسحاق سُكْيَة رحمه الله

قد تقدم لنا ما كان من مفاوضة المنصور لحاشيته في غزو السودان واستقرار رأيهم علىٰ ذلك، فبقي المنصور يقدم رجلاً ويؤخر أخرىٰ إلىٰ أن كانت سنة سبع وتسعين وتسعمائة فقوي عزمه واشتغل بتجهيز آلة الحرب وما يحتاج إليه الجيش من آلة السفر ومهماته، وأمر القواد أن يُقَوِّموا حصص القبائل وما يحتاجون إليه من إبل وخيل وبغال، وإن من أتىٰ بجمل ضعيف يعاقب، واشتغل هو بتقويم آلة الحرب من المدافع والعجلات التي تحملها والبارود والرصاص، وتقويم الخشب واللوح والحديد للغلائط والسفن والفلك والمجاذيف والقلوع والبراميل والروايا لحمل الماء، وألف النجارون ذلك في البر إلىٰ أن تألف، ثم خلعوه وشدوه أحمالاً، واستمر الحال إلىٰ أن استوفىٰ المنصور أمر الغزو، ثم أمر فخرجت الأحمال والأثقال من مراكش في اليوم السادس عشر من ذي الحجة سنة ثمان وتسعين وتسعمائة ونزلت العساكر وضربت أبنيتها خيلاً ورجلاً وجملتها عشرون ألفًا، ومعهم من المعلمين البحرية والطبجية ألفان، فالمجموع اثنان وعشرون ألفًا، وعقد المنصور علىٰ ذلك الجيش لمولاه الباشا جؤذر وشد أزره بجماعة من أعيان الدولة، فاختار منهم من يعلم نجدته

---

(١) قلت: هو كتاب «مصارع العشاق ومشارع الأشواق» لابن النحاس الدمياطي الذي توفي شهيدًا بإذن الله تعالىٰ سنة ٨١٤.

ويعرف كفايته، ثم نهضوا في زي عظيم وهيئة لم يُرَ مثلها، وذلك في محرم فاتح سنة تسع وتسعين وتسعمائة، وكتب المنصور إلى قاضي تنبكتو الفقيه العلامة أبي حفص عمر ابن الشيخ محمود بن عمر ءاقيت الصنهاجي يأمره بحض الناس على الطاعة ولزوم الجماعة.

ودخلوا القفر والفيافي فقطعوها في مائة مرحلة ولم يضع لهم عقال بعير ولا نقص منهم أحد، فنزلوا على مدينة تنبكتو ثغر السودان [1] فأراحوا بها أيامًا، ثم صاروا قاصدين دار إسحاق سكية، ولما سمع بقدومهم احتشد أمم السودان وقبائلها وقبائل الملثمين المهادنين لهم، وخرج من مدينة كاغو. يقال إنه جمع مائة ألف مقاتل وأربعة آلاف مقاتل.

وقال الفشتالي: ولم يقنع بالجيوش التي جمع حتى أضاف إليها أشياخ السحرة وأهل النفث في العقد وأرباب العزائم والسيمياء ظنًا منه أن ذلك يغنيه شيئًا، وهيهات.

ولما تقارب الجمعان عبأ الباشا جؤذر عساكره وتقدم للحرب فدارت بهم عساكر السودان من كل جهة وعقلوا أرجلهم مع الإبل وصبروا من الضحى إلى العصر، وكانت سلاحهم إنما هي الرماح والسيوف ولم تكن عندهم هذه المدافع فلم تغن رماحهم مع البارود شيئا، ولما كان آخر النهار هبت ريح النصر وانهزم السودان فولوا الأدبار، وحق عليهم البوار، وحكمت في رقابهم سيوف جؤذر وجنده حتى كان السودان ينادون: نحن مسلمون، نحن إخوانكم في الدين [2]، والسيوف عاملة فيهم وجند جؤذر يقتلون ويسلبون في كل وجه، وفر إسحاق في شرذمة من قومه ولم يدخل قلعة ملكه، وتقدم جؤذر فدخلها واحتوى على ما فيها من الأموال والمتاع، وكان ذلك منتصف جمادى الأولى من سنة تسع وتسعين وتسعمائة، ويقال: إن جؤذرا لم يدخل مدينة كاغو وإنما تحصن بها إسحاق فحاصره جؤذر

---

(١) وهي عاصمة مالي اليوم.

(٢) قلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، والمنصور أراد من إسحق ضريبة فرفض، فكان ماذا؟ ولا أعلم وجهًا شرعيًا لما صنعه المنصور من سفك دماء آلاف المسلمين وسلب أموال مئات الآلاف منهم، والله ـ تعالى ـ أعلم.

فيها، وكتب إلى المنصور بخبر الفتح وبعث إليه بهدية فيها عشرة آلاف مثقال ذهبًا ومائتان من خيار الرقيق وغير ذلك، وامتدت العساكر المنصورة في بلاد آل سكية تعيث وتفسد وتسبي وتغنم إلى أن راسل إسحاق الباشا جؤذرا في تقرير الصلح على مال معين يدفعه الآن وضريبة يؤديها كل سنة فأجابه إلى ذلك على مشورة المنصور وإمضائه إياه، ثم كتب إلى المنصور بذلك وكانت العساكر قد أصابتها الحمى ووخامة تلك الأرض، فاتفق رأي الأمراء على الرجوع والإقامة بتنبكتو إلى أن يأتي جواب المنصور، فرجعوا وأخذ جؤذر في إنشاء الغلائط والسفن وتركيبها ولما أكملها دفعها في النيل، ولما بلغ المنصور خبر الصلح قام وقعد وقوم عسكرًا خفيفًا وبعث به مع مملوكه الآخر محمود باشا، وهو أخو جؤذر، وقلده أمر العساكر كلها، وعزل جؤذرًا عنها وأمر محمودًا أن يبقيه معه، وكتب إلى أمراء العسكر يعاتبهم يوبخهم على ما فعلوه مع إسحاق من الصلح، ويؤكد عليهم في الرجوع إلى بلاده واتباعه حيثما توجه ولو عبر النيل إلى العدوة الأخرى، وخرج محمود باشا فيمن عين له من العسكر في زمان الحر وقطع القفر في خمسين مرحلة: أمر لم يسمع بمثله، ونزل بالعساكر على ظاهر تنبكتو على رأس سنة الألف فأراح بها ثلاثًا ثم شحن الغلائط والسفن والفلك بالرؤساء والملاحين ووجوه الجند فساروا في النيل، وسار السواد الأعظم في البر إلى أن نزلوا على مدينة كاغو قاعدة ملك إسحاق سكية، وكان إسحاق لما رجعت عنه العساكر إلى تنبكتو احتشد أمم السودان المجاورين له وتذامروا وأصفقوا معه على الموت، فلما بلغه رجوع العساكر إلى كاغو قصدهم في جموعه، ولما التقى الجمعان لم يكن إلَّا مقدار فواق ناقة حتى انهزم السودان من سماع رعد المدافع والمهاريس وارتفاع القنابل في الجو وهدير الطبول، وتبعتهم العساكر يقتلون ويأسرون إلى أن غشيهم ظلام الليل ورجعوا بالغنائم والسبي فاستراحوا ثلاثًا، ثم أمر محمود أخاه جؤذرًا أن يقيم بمدينة كاغو عامرًا لها، ويترك معه عددًا من العسكر يكون ردءًا لهم، وسار هو في اتباع إسحاق إلى أن لحقه ببعض الجهات فأوقع به وقعة شنعاء وفر في فُلٍّ من قومه فعبر النيل إلى العدوة الأخرى، وتبعه محمود فعبر النيل بعساكره في السفن وسار خلفه إلى أن لحقه فأوقع به وقعة ثالثة احتوى فيها على ما معه من المال والحريم ودخل إسحاق القفر فهلك فيه، ثم كانت لمحمود وقعة أخرى مع أخيه الذي كان ينازعه في الملك فإنه قام بعد مهلك أخيه وجمع الجموع

وفاة أم المنصور الحرة مسعودة الوزكيتية رحمها الله

[٣١١] كانت الحرة مسعودة هـٰذه من الخيرات الصالحات وتقدم بعض مآثرها من بناء المسجد الجامع بباب دكالة وغيره، وكانت وفاتها سحر يوم الثلاثاء السابع والعشرين من المحرم فاتح سنة ألف، ومن المستفيض أنها رُئيت بعد موتها فسئلت ما فعل الله بها فقالت: «غفر لي بسبب أني كنت ذات يوم جالسة لقضاء الحاجة فسمعت المؤذن شرع في الآذان فرددت علىٰ ثيابي إعظامًا لذكر الله - تعالىٰ - حتىٰ فرغ المؤذن من آذانه فشكر الله لي ذلك فغفر لي».

وفي سنة إحدىٰ وألف أُتي بالفيلة من بلاد السودان إلىٰ المنصور، وكان يوم دخولها لمراكش يومًا مشهودًا برز لرؤيتها كل من بالمدينة من رجال ونساء وشيوخ وصبيان، ثم حملت إلىٰ فاس في رمضان سنة سبع وألف، قال في «نشر المثاني»: كان دخول الفيل إلىٰ فاس يوم الاثنين سادس عشر رمضان سنة سبع وألف، وبعث المنصور مع الفيل إلىٰ ولده المأمون بهدية سنية فيها تحف وأموال عريضة، وخرج أهل فاس في ذلك اليوم للقاء الفيل بنحو مائة ألف نفس».

[٣١٢] قال بعضهم: «وبسبب دخول هـٰذه الفيلة إلىٰ المغرب ظهرت هـٰذه العشبة الخبيثة المسماة بتابغ [(١)]؛ لأن أهل السودان الذين قدموا بالفيلة يسوسونها قدموا بها معهم يشربونها ويزعمون أن فيها منافع، فشاعت منهم في بلاد درعة ومراكش وغيرهما من بقاع المغرب، وتعارضت فيها فتاوىٰ العلماء - رضوان الله عليهم - فمن قائل بالتحريم ومن قائل بالتحليل، ومتوقف، والعلم فيها عند الله سبحانه» قاله اليفرني.

[٣١٣] قلت: من تأمل أدنىٰ تأمل في قواعد الشريعة وآدابها علم يقينًا أن تناول هـٰذه العشبة حرام، لأنها من الخبائث التي حرمها الله - تعالىٰ - علىٰ هـٰذه الأمة المطهرة، وبذلك وصفها في الكتب السالفة إذ قال تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ...﴾ [الأعراف: ١٥٧]

---

(١) قلت: هي الدخان.

وزحف إلىٰ محمود باشا فنهض إليه محمود فهزمه وقتله فيمن معه من جنده وأتباعه، وتمهدت له البلاد واستولىٰ عليها استيلاء كليًا، وكتب بخبر الفتح إلىٰ المنصور.

ولما بلغه هٰذا الفتح وصورته كان عنده ذلك اليوم عيداً من الأعياد أخرج فيه الصدقات وأعتق الرقاب، وأقام مهرجانًا عظيمًا بظاهر الحضرة خرج له عامة الناس للفرجة والنزهة، وزينت الأسواق وأخرجت المدافع بالنفط وتسابقت الخيول، وأطعم المنصور الناس عدة أيام، ونظم الشعراء قصائدهم ورفعوا أمداحهم، وأجازهم بما تحدث الناس به دهراً، وكتب بخبر الفتح وصورته نسخ وجهت إلىٰ جميع الآفاق.

وكان محمود باشا لما استوسق له الأمر هنالك بعث بنصف جيشه إلىٰ المنصور مع هدية عظيمة فيها من الذخائر ما لَا يُحصىٰ، من ذلك: ألف ومائتان من متخير الرقيق الجواري والغلمان، وأربعون حملاً من التبر [1]، وأربعة سروج ذهبًا خالصًا، وغير ذلك، ولما وافت المنصور سر بذلك سروراً عظيمًا، وأمر بعمل المفرحات في بلاد المغرب وبتزيين الأسواق غدوة وعشية ثلاثة أيام، ووفدت عليه الوفود من كل ناحية مهنئين له بما منحه الله من الظفر والنصر، وانتظمت الممالك السودانية في سلك طاعته ما بين البحر المحيط من أقصىٰ المغرب إلىٰ بلاد برنو المتاخمة لبلاد النوبة المتاخمة لصعيد مصر، قال الفشتالي: فكلمة المنصور نافدة فيما بين بلاد النوبة إلىٰ البحر المحيط من ناحية المغرب، وهٰذا ملك ضخم وسلطان فخم لم يكن لمن قبله، والله يؤتي ملكه من يشاء، ولما فتح الله عليه ممالك البلاد السودانية حُمل إليه من التبر ما يعيى الحاسبين، ويحير الناظرين، حتىٰ كان المنصور لا يعطي في الرواتب إلَّا النضار الصافي [2]، والدينار الوافي، وكان ببابه كل يوم أربع عشرة مائة مطرقة لضرب الدينار الوافي دون ما هو معد لغير ذلك من صوغ الأقراط والحلىٰ وشبه ذلك، ولأجل هٰذا لقب بالذهبي لفيضان الذهب في أيامه، والأمور كلها بيد الله.

---

(١) قلت: أي الذهب.

(٢) السابق.

وأما خارجها فقد علم من الشرع علمًا ضروريًا أن العبد مطلوب بالمحافظة على هـٰذه الحال والبقاء عليها سائر أوقاته متىٰ قدر علىٰ ذلك وتيسر له، ومن هـٰذا المعنىٰ: ما حرم الله تعالىٰ علىٰ هـٰذه الأمة من تناول المستقذرات كالميتة والدم وسائر النجاسات، إذ علة حرمة الأشياء وتناولها إما كونها مستقذرة كالنجاسات إجماعًا، وكالحشرات وما تعافه النفوس علىٰ مذهب الشافعي ﷺ أو مضرة كالسم والطين ونحوهما مما يضر بالبدن أو ببعض الأعضاء منه.

أو محترمة: إما لذاتها، كالآدمي، أو لكونها ملكًا للغير وهو ظاهر.

فالشارع له غرض أكيد في اجتلاب الطيبات واجتناب ما يضادها من المستخبثات، وقد ثبت في الصحيح أن الصحابة ﷺ كانوا يعملون في حوائطهم فإذا حضرت الجمعة أتوا إلىٰ المسجد وأبدانهم سَهِكة [1] فأمرهم النبي ﷺ بالاغتسال عند كل جمعة، ثم منع كل من تلبس برائحة كريهة كالثوم والبصل والكراث من حضورها، وحبب إلىٰ النبي ﷺ من دنيانا النساء والطيب، وندب أمته إلىٰ استعماله في المشاهد العامة مثل الجمع والأعياد ونحوها، وخصال الفطرة إنما شرعت لهـٰذا المعنىٰ ففيها كفاية لمن تأملها، وقال ﷺ: «**إزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه**» دفعًا للسرف والخيلاء؛ ولئلا يعلق به شيء من النجاسات والأقذار إلىٰ غير هـٰذا مما لو استُقصي لطال، ودل دلالة قطعية علىٰ أن المطلوب من العبد أن يكون نظيفًا طيب الرائحة حسن البزة طاهر البدن والثوب مجانبًا لكل خبيث مستقذر، وهـٰذه حالة أهل الجنة والعكس بالعكس، وأنت لا تجد أخبث ولا أقذر من رائحة أفواه شربة الدخان، ولا أنتن ولا أعفن من نكهات المستفين لغبار تابغ، وهـٰذا النتن من أقبح العيوب في نظر الشرع حتىٰ أنه جعل الخيار لأحد الزوجين إذا كان صاحبه أبخر، فإذًا لا نشك أن استعمال هـٰذه العشبة الخبيثة في الفم أو الأنف من أعظم المحظورات؛ لأنها تصدم غرضًا كبيرًا من أغراض الشارع وتضاده وتنفيه، وأقول: لو كان نتنها يعلق بعضو من الأعضاء غير الوجه لكان هينًا لكنه يعلق بالفم والأنف اللَّذين وضعهما الحكيم العليم في وسط الوجه الذي هو أشرف الأعضاء، فأي مضمضة وأي استنشاق وأي سواك يزيل ذلك النتن الذي يرسخ في أنفاس أهلها

---

(١) قلت: أي فيها العرق ورائحته.

وبسط هذا المقام: أن تعلم أن الله ـ تعالىٰ ـ اختار هـٰذه الأمة من بين سائر الأمم قال تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] واختار لها من الطاعات وأنواع العبادات ما هو أفضلها، قال تعالىٰ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وأفضل تلك العبادات كلها: الصلاة التي هي من الدين بمنزلة الرأس من سائر الجسد، ثم إذا أمعنت النظر رأيت الشارع ـ صلوات الله عليه ـ قد بالغ في الاحتياط لهـٰذه العبادة الشريفة والاستعداد لها باستعمال كل طيب أمكن، واجتناب كل خبيث أمكن، فشرع أولاً الطهارة الكبرىٰ الشاملة لسائر البدن، وحظر من مقاربة الصلاة وما هو في معناها حال الخلو عنها، ثم شرع ثانيًا الطهارة الصغرىٰ المتعلقة بأطراف البدن زيادة في الاعتناء بها لأنها تبرز في غالب الأحوال فيعلق بها من الأقذار ما لا يعلق بغيرها، وألزم المكلف استعمال هـٰذه الطهارة عند عروض كل حدث مستقذر حتىٰ الريح والسبب الداعي إلىٰ خروجه، ثم ندبه إلىٰ استعمالها عند القيام إلىٰ كل صلاة من الصلوات الخمس.

ثم إنا إذا تأملنا أفعال هـٰذه الطهارة وجدناها تشتمل علىٰ مبالغات كثيرة تستدعي غاية النظافة وتنفي كل قذر وإن قلّ، فشرع الغسل في أعضاء الوضوء مكررًا، وشرع مسح شعر الرأس بالماء دفعًا لما يعلق به من الغبار، وشرع تتبع مسام الوجه بالغسل والتنظيف كالمضمضة والاستنشاق ثلاثًا تطييبًا للنكهة، وشرع مسح الأذنين من ظاهرهما وباطنهما حتىٰ الصماخين إزالة لما بداخلهما من تلك الفضلة، مع أن الحي ودمعه وعرقه ولعابه ومخاطه كلها طاهرة، أو ليس في هـٰذا دليل واضح علىٰ أن الحكمة في هـٰذا كله إنما هو المبالغة في النظافة وتطييب الرائحة والنكهة؛ إذ بذلك يستحق العبد أن يتلبس بالعبادة ويدخل حضرة الرب، وشرط للدخول فيها طهارة البدن والثوب والمكان من سائر المستقذرات حتىٰ يكون علىٰ أكمل الحالات بعيدًا عن القذر بكل وجه، ثم لم يكتف الشارع بهـٰذا حتىٰ شرع السواك عند القيام إلىٰ كل صلاة وقال: «لولا أن أشق علىٰ أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة» كل ذلك المقصود منه طيب النكهة، فانظر وتأمل اعتناء الشارع بتطييب رائحة فم المؤمن ونكهته حتىٰ في حق الصائم الذي «خلوف فمه أطيب عند الله من ريح المسك» هـٰذا كله في حال الصلاة.

أنا أقل عشيرتي كتبًا وقد نهب لي ست عشرة مائة مجلد» وكان القبض عليهم في أواخر المحرم سنة اثنتين وألف، ووصلوا إلى مراكش في أول رمضان من السنة المذكورة، واستقروا مع عيالهم في حكم الثقاف [1] إلى أن انصرم أمد المحنة، فسُرحوا يوم الأحد الحادي والعشرين من رمضان سنة أربع وألف ففرحت قلوب المؤمنين بذلك.

[٣١٦]ولما دخل الفقيه أبو العباس على المنصور بعد تسريحه من السجن وجده يكلم الناس من وراء حجاب على طريقة خلفاء بني العباس ومن يتشبه بهم، فقال الشيخ: إن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١] وأنت قد تشبهت برب الأرباب فإن كانت لك حاجة في الكلام فانزل إلينا وارفع عنا الحجاب، فنزل المنصور ورفعت الأستار، فقال له الشيخ: أي حاجة لك في نهب متاعي، وتضييع كتبي وتصفيدي من تنبكتو إلى هنا حتى سقطت عن ظهر الجمل واندقت ساقي.

فقال له المنصور: أردنا أن تجتمع الكلمة، وأنتم في بلادكم من أعيانها فإن أذعنتم أذعن غيركم.

فقال الشيخ أبو العباس: فهلا جمعت الكلمة بتُرك تلمسان فإنهم أقرب إليك منا.

فقال المنصور: قال النبي ﷺ: «**اتركوا الترك ما تركوكم**» فامتثلنا الحديث.

فقال أبو العباس: ذاك زمان، وبعده قال ابن عباس: لا تتركوا الترك وإن تركوكم، فسكت المنصور وانفض المجلس.

ولما سُرح الشيخ أبو العباس تصدر لنشر العلم وأهرع الناس إليه للأخذ عنه، ولم يزل بمراكش إلى أن مات المنصور لأنه ما سرحهم حتى شرط عليهم السكنى بمراكش، ولما توفي أذن ابنه زيدان لآل آقيت في الرجوع إلى بلادهم بعد أن مات جماعة منهم بمراكش.

[٣١٧]وقد كان الشيخ أبو العباس يتشوق إلى رؤية بلدته، ويسكب العبرات عند ذكرها، ولم ييأس من روح الله في العود إليها، وله في ذلك شعر على طريقة

---

(١) قلت: أي السجن.

الفقهاء، ولما خرج من مراكش قاصداً بلده شيعه أعيان طلبتها فأخذ بعضهم بيده عند الوداع وقرأ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥] علىٰ ما جرت به العادة من قراءتها عند وداع المسافر فيرجع سالمًا، فانتزع الشيخ أبو العباس يده بسرعة وقال: لا ردني الله إلىٰ هٰذا المعاد، ولا رجعني إلىٰ هٰذه البلاد، ثم لحق بتنبكتو فاستقر بها إلىٰ أن مات سنة ست وثلاثين وألف، رحمه الله.

[٣١٨] تتمـــة

قد تبين لك بما قصصناه عليك من أخبار السودان ما كان عليه أهل تلك البلاد من الأخذ بدين الإسلام من لدن قديم، وأنهم من أحسن الأمم إسلامًا وأقومهم دينًا، وأكثرهم للعلم وأهله تحصيلاً ومحبة، وهٰذا الأمر شائع في جل ممالكهم الموالية للمغرب كما علمت، وبهٰذا يظهر لك شناعة ما عمت به البلوىٰ ببلاد المغرب من لدن قديم من استرقاق أهل السودان مطلقًا، وجلب القطائع الكثيرة منهم في كل سنة وبيعهم في أسواق المغرب حاضرة وبادية، يسمسرون بها كما تسمسر الدواب بل أفحش، قد تمالأ الناس علىٰ ذلك وتوالت عليه أجيالهم حتىٰ صار كثير من العامة يفهمون أن موجب الاسترقاق شرعًا هو اسوداد اللون وكونه مجلوبًا من تلك الناحية، وهٰذا لعمر الله من أفحش المناكر وأعظمها في الدين، إذ أهل السودان قوم مسلمون فلهم ما لنا وعليهم ما علينا، ولو فرضنا أن فيهم من هو مشرك أو متدين بدين آخر غير الإسلام فالغالب عليهم اليوم وقبل اليوم بكثير إنما هو الإسلام، والحكم للغالب، ولو فرضنا أن لا غالب وإنما الكفر والإسلام متساويان هنالك فمن لنا بأن المجلوب منهم هو من صنف الكفار لا المسلمين، والأصل في نوع الإنسان هو الحرية والخلو عن موجب الاسترقاق، ومدعي خلاف الحرية مدع لخلاف الأصل، ولا ثقة بخبر الجالبين لهم والبائعين لهم لما تقرر وعُلم في الباعة مطلقًا من الكذب عند بيع سلعهم وإطرائها بما ليس فيها، وفي باعة الرقيق خصوصًا مما هو أكثر من ذلك، كيف ونحن نرىٰ أن الذين يجلبونهم أو يتجرون فيهم إنما هم من لا خلاق لهم ولا مروءة ولا دين، والزمان كما علمت وأهله كما ترىٰ، ولا يعتمد أيضًا علىٰ قول ذلك العبد نفسه أو الأمة نفسها كما نص عليه الفقهاء لاختلاف الأغراض والأحوال في ذلك، فإن البائع لهم قد يضربهم حتىٰ لا يقرون إلَّا بما لا يقدح في صحة بيعهم،

وقد يكون للعبد أو الأمة غرض في الخروج من ملك من هو بيده بأي وجه كان، فيهون عليه أن يقر على نفسه بالرِقِّية كي ينفذ بيعه عاجلاً إلى غير ذلك من الأغراض، وقد استفاض عن أهل العدل وغيرهم أن أهل السودان اليوم، وقبل اليوم، يغير بعضهم على بعض ويختطف بعضهم أبناء بعض، ويسرقونهم من الأماكن النائية عن عمرانهم، وإن فعلهم ذلك كفعل أعراب المغرب في إغارة بعضهم على بعض واختطاف دوابهم ومواشيهم أو سرقتها والكل مسلمون، وإنما الحامل لهم على ذلك قلة الديانة وعدم الوازع، فكيف يسوغ للمحتاط لدينه أن يقدم على شراء ما هو من هذا القبيل، وكيف يجوز له التسري بإنائهم، وفي ذلك ما فيه من الإقدام على فرج مشكوك.

وقد ذكر الشيخ أبو العباس أحمد بابا في تقييده الموضوع في هذه المسألة، المسمى ب«معراج الصعود» تفصيلاً ختم به كلامه وذكر قبائل من كفار السودان وقال: «إن كل من كان من هؤلاء القبائل فيجوز استرقاقه»، وكذلك ذكر ولي الدين ابن خلدون: «إن وراء النيل قومًا من السودان يقال لهم: لملم» قال: «وهم كفار ويكتوون في وجوههم وأصداغهم» قال: «وأهل غانة والتكرور يغيرون عليهم ويسبونهم ويبيعونهم للتجار فيجلبونهم إلى المغرب وهم عامة رقيقهم وليس وراءهم في الجنوب عمران يعتبر» إلى آخر كلامه، لكن هذا التفصيل الذي ذكره الشيخ أبو العباس إنما ينفع أهل تلك البلاد المجاورين لهم والمطلعين على المجلوب منهم ومن غيرهم، فأما أهل المغرب الذين هم من وراء وراء وبينهم وبين أرض السودان مهامه فِيح (١)، وقفار لا يعمرها إلّا الريح، فمن الذي يحقق لهم ذلك، وقد قلنا إنه لا يجوز الاعتماد على قول الجالبين لهم، وأيضًا فمن لنا بأن أولئك القبائل لا زالوا على كفرهم إلى الآن على أن الناس اليوم لا يلتفتون إلى ذلك أصلاً، ومهما رأى أحدهم العبد أو الأمة يسمسر في السوق إلّا ويقدم على شرائه غافلاً عن هذا كله لا يسأل إلّا عن عيوب بدنه لا فرق في ذلك بين أسود أو أبيض وغيرهما.

[٣١٩] بل صار الفسقة اليوم وأهل الجراءة على الله يختطفون أولاد الأحرار من قبائل المغرب وقراه وأمصاره ويبيعونهم في الأسواق جهاراً من غير نكير ولا

---

(١) قلت: أي صحاري واسعة.

وأفواههم وخياشيمهم رسوخًا لا يماثله شيء.

ولقد أفصح العامة عن شدة نتن هـٰذه العشبة وصادفوا الصواب حيث قالوا: إن فضلة الدخان المسماة بالقير تنجس النجاسة، هـٰذا إلىٰ ما يتبع ذلك من المفاسد المتعددة من تغيير عقل متعاطيها حتىٰ أنه إذا انقطعت عنه صار كالمجنون لا يبالي بما يصدر منه، ومن دخول الشك في صيامه؛ لأن بقايا ذلك الدخان أو ذلك الغبار قد يمكث في حلقه إلىٰ طلوع الفجر وما بعده؛ لأن جلهم إذا قرب الفجر والوا استعماله حتىٰ يكون هو خاتمة سحورهم، وبالجملة، فلا يستعمل ذلك إلَّا من لا خلاق له ولا يكترث بمروءة ولا دين، وهو قادح في الشهادة والإمامة، والله -تعالىٰ- الموفق بمنه.

[٣١٤] نكبة الفقيه أبي العباس أحمد بابا السوداني وعشيرته من آل آقيت والسبب في ذلك

كان بنو آقيت التكروريون من أهل مدينة تنبكتو [١] وممن لهم الوجاهة الكبيرة والرياسة الشهيرة ببلاد السودان دينًا ودنيا؛ بحيث تعددت فيهم العلماء والأئمة والقضاة، وتوارثوا رياسة العلم مدة طويلة تقرب من مائتي سنة، وكانوا من أهل اليسار والسؤدد والدين لا يبالون بالسلطان فمن دونه، ولما فتح جيش المنصور بلاد السودان أبقاهم الباشا محمود علىٰ حالهم إلىٰ أن كانت سنة اثنتين وألف فكان أهل السودان قد سئموا مِلْكة المغاربة وآنسوا منهم خلاف ما كانوا يعهدونه من سلطانهم الأول، وكانت أذنهم مع ذلك صاغية لآل آقيت فتخوف المنصور منهم، وربما وُشي إليه بهم، فكتب إلىٰ عامله محمود بالقبض عليهم وتغريبهم إلىٰ مراكش، فقبض علىٰ جماعة كبيرة منهم كان فيها الفقيه العلامة أبو العباس أحمد بن أحمد بن أحمد ثلاثة أحامد بن عمر بن محمد آقيت المدعو: بابا، صاحب «تكميل الديباج» وغيره من التآليف، وكان فيها أيضًا الفقيه القاضي أبو حفص عمر بن محمود بن عمر بن محمد آقيت وغيرهما، وحملوا مصفدين في الحديد إلىٰ مراكش ومعهم حريمهم وانتهبت ذخائرهم وكتبهم.

[٣١٥] **قال في «بذل المناصحة»**: «سمعت الشيخ أبا العباس أحمد بابا يقول:

---

(١) قلت: هي مدينة عامرة في مالي اليوم.

المنصور كان لا يختم على صندوق من صناديق المال إلَّا قال: «جعل الله فتحه على يد الشيخ»؛ رجاء أن يقوم بالأمر بعده، فلم يساعد القدر وخرج الأمر كما قال القائل:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه ... تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

فأساء المأمون السيرة وأضر بالرعية.

[٣٢٠] قال اليفرني: وكان فسِّقًا خبيث الطوية، مولعًا بالعبث بالصبيان، مدمنًا للخمر، سفاكًا للدماء، غير مكترث بأمور الدين من الصلاة وشرائطها، ولما ظهر فساده وبان للناس عواره، نهاه وزير أبيه القائد إبراهيم السفياني عن سوء فعله فلم ينته واستمر على قبح سيرته، فأعاد عليه اللوم فلح في مذهبه؛ ولما أكثر عليه من التقريع سقاه السم فكان فيه حتف القائد المذكور.

ومما أُنكر عليه أنه قبض على كاتب أبيه أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عيسى وهو مؤلف كتاب «الممدود والمقصور من سناء السلطان المنصور» ووظف عليه أموالاً وابتزه ذخائره حتى كان مما أخذ منه ثمانون حسكة مذهبة ومائة تخت من الملف المختلف الألوان.

فلما كثرت قبائحه وترددت الشكايات لأبيه كتب إليه لينكف عن غيه وينزجر عن خبثه، فما زاده التحذير إلَّا إغراء؛ فلما رأى المنصور أنه لم يكترث بأمره ولم ينزجر عن قبائحه عزم على التوجه إلى فاس بقصد أن يمكر به ويؤدبه بما يكون رادعًا له، فسمع الشيخ بذلك فجمع عساكره وهيأ جنده ودفع المرتب لأصحابه، وكان عدد جيشه فيما قيل اثنين وعشرين ألفًا كلهم بكساوى الملف والحرير على أحسن شارة وأكمل زي، وعزم أنه إن بلغه خروج أبيه من مراكش أن يتوجه في أصحابه إلى تلمسان ويستجير بالترك؛ فلما بلغ المنصور ما عزم عليه الشيخ من الذهاب إلى تلمسان تخلف عن الخروج من مراكش، وكتب إلى الشيخ يلاطفه ويأمره ألَّا يفعل، وولاه سجلماسة ودرعة وتخلى له عن خراجهما، وقال له: «قد سوغتكه ولا أطالبك فيه»، ومراده بذلك: أن تسكن نفرته ويرجع إليه عقله، فأظهر الشيخ امتثال الأمر وخرج يؤم سجلماسة، فما انفصل عن فاس بشيء يسير حتى ندم ورجع إليها، وعاد لما كان عاكفًا عليه؛ فبعث إليه المنصور أعيان مراكش وعلماءها فنصحوه ووعظوه وخوفوه سخط والده وحذروه عاقبة العقوق، ولم يألوا جهدًا في نصحه،

وأتوا به إلىٰ المنصور في خبر طويل، فأمر به إلىٰ مكناسة فسجن بها.

ودخل المنصور دار الملك من حضرة فاس الجديد وشكر الله علىٰ ما أولاه من الظفر والنصر من غير إراقة دم وتصدق في ذلك بأموال عظيمة، وكتب بذلك إلىٰ ولده أبي فارس خليفته علىٰ مراكش يعلمه بما كَيّف الله له من الظفر والنصر.

[٣٢٢]ثم إن أم الشيخ واسمها الخيزران بعثت إلىٰ أعيان مراكش الذين قدموا مع المنصور ترغب إليهم في أن يشفعوا لولدها عند أبيه ويعتذروا عنه بما يزيل ما في باطنه عليه، فتقدموا إلىٰ المنصور وقالوا له: إن الشيخ قد صلحت حالته، وتاب مما كان عازمًا عليه، وإنه ندم علىٰ ما فرط منه، فقال لهم: اذهبوا إلىٰ مكناسة واختبروا أمره كافيًا، وانظروا هل رجع عن أباطيله، وتنصل من أضاليله، فلما أتوه وجدوه أخبث مما تركوه وعاينوا منه من القبائح ما يقصر عن وصفه اللسان، فلما جلسوا إليه في محبسه لم يسألهم إلَّا عن أصحاب بطانته وقرناء السوء من أهل غيه، ولم يظهر الأسف إلَّا علىٰ تلك العصابة ورآهم أهل الإصابة.

فلما رجعوا إلىٰ المنصور من مكناسة سألهم عن الخبر فنافق بعضهم وقال: وجدناه تائبًا نادمًا علىٰ ما صدر منه، وتكلم بعض أولا د الشيخ ابن ساسي فقال: لا والله لا داهنت في حق الله ولا واجهت الأمير بالخديعة، إن ولدك لا نأذن لك أن تؤمره علىٰ اثنين ولا تحكمه علىٰ عيال الله فإنا وجدناه خبيث الطوية قبيح السريرة لم يندم علىٰ ما فرط منه، فسكت الحاضرون ولم يتكلم أحد، فقال لهم المنصور: افتوني في أمر هٰذا الولد، فلم يجبه أحد إلَّا باشاه عبد العزيز بن سعيد الوزكيتي فإنه قال له: الرأي أن تقتله، فإنه لا ينجبر أمره ولا يرجىٰ صلاحه وقد رأيت ما صنع، فلم يعجب المنصور ذلك وقال: كيف أقتل ولدي؟ ثم بعث إلىٰ مكناسة يأمر بالتضييق علىٰ الشيخ والزيادة عليه في ذلك (١)، ثم خرج المنصور فنزل بمحلته في ظهر الزاوية قاصدًا مراكش بعد أن استخلف ابنه زيدان علىٰ فاس وأعمالها.

---

(١) قلت: قد كان هٰذا الفعل من المنصور علىٰ خلاف ما ينبغي من الحزم في مثل تلك الأحوال؛ فقد صدر من ولده قبائح ومهلكات بعد ذلك ما كان أغنىٰ المسلمين عنها.

امتعاض للدين، وصار النصارىٰ واليهود يشترونهم ويسترقونهم بمرأىٰ منا ومسمع، وذلك عقوبة من الله لنا لو اعتبرنا، فإنا لله وإنا إليه راجعون، علىٰ ما دُهينا به في ديننا.

فالحاصل: أنه لما كان الأصل في الناس هو الحرية كما قلنا، وعلم تواترًا أن أهل بلاد السودان الموالية لنا جلهم أو كلهم مسلمون، واستفاض عن أهل العدل وغيرهم أنهم يغير بعضهم علىٰ بعض ويختطف بعضهم أبناء بعض ويبيعونهم ظلما وعدوانًا، ورأينا بالمشاهدة أن الجالبين لهم والمتجرين فيهم إنما هم من لا خلاق لهم ولا دين لهم لم يبق لنا توقف في أن الإقدام علىٰ شراء هٰذا الصنف محظور في الشرع والمقدم عليه مخاطر في دينه، وأما وضع يد الجالبين لهم عليهم فلا تكفي شرعًا في جواز الإقدام علىٰ شرائهم منهم لضعف هٰذه العلامة بما احتف بها من القرائن المكذبة لها، وليستفت المرء قلبه فقد قال ﷺ: «**استفت قلبك وإن أفتوك**» فإنه متىٰ رجع إلىٰ قلبه في هٰذه المعضلة إلَّا ولا يقدر أن يحوم حول هٰذا الحمىٰ بحاله.

ثم نتنزل عن هٰذا كله ونقول: لو لم يكن في ذلك إلَّا الشبهة القوية وفساد الزمان ورقة ديانة أهله لكان في هٰذه الأمور الثلاثة مع ملاحظة سد الذريعة الذي هو أحد أصول الشريعة لا سيما عند الإمام مالك ﷺ ما يقتضي وجوب التخلي عن ملابسة هٰذه المفسدة المزرية بالعرض والدين، فنسأله - سبحانه - أن يوفق من ولاه أمر العباد، لحسم مادة هٰذه الفساد؛ فإن سبب الاسترقاق الشرعي الذي كان علىٰ عهد النبي ﷺ والسلف الصالح مفقود اليوم، وهو السبي الناشئ عن الجهاد المقصود به إعلاء كلمة الله تعالىٰ، وسوق الناس إلىٰ دينه الذي اصطفاه لعباده، هٰذا هو ديننا الذي شرعه لنا نبينا ﷺ وخلافه خلاف الدين، وغيره غير المشروع، والتوفيق إنما هو بيد الله ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]

انتقاض ولي العهد محمد الشيخ المأمون على أبيه المنصور وما آل إليه أمره في ذلك

كان المأمون - كما تقدم - ولي عهد أبيه المنصور، وكان خليفته علىٰ فاس وأعمالها سائر مدة أبيه، وكان للمنصور اعتناء تام به واهتمام بشأنه حتىٰ قيل إن

الرعية أموالاً طائلة يلزمهم بأدائها، وزاد الأمر على ما كان عليه في عهد أبيه -حسبما مر- وكانت الرعية تشتكي ذلك منه ونالها إجحاف منه ومن عماله، وكان غير متوقف في الدماء ولا هياب للوقيعة فيها.

[٣٢٥] ويحكى أن الفقيه القاضي أبا مالك عبد الواحد الحميدي، قد سافر في جمع من فقهاء فاس وأعيانها إلى مراكش بقصد العيد مع المنصور- كما هي العادة- فمروا في طريقهم على جماعة رجال ونساء قد سُلكوا في سلسلة واحدة، وفيهم امرأة أخذها الطلق وهي في كرب المخاض، فرأوا من ذلك ما أهمهم وأحزنهم؛ فبقي ذلك في نفس القاضي، فلما جلس إلى المنصور ذكره له وأظهر الشكاية منه، فسكت المنصور عن جوابه وهجره على ذلك أيامًا، ثم إن القاضي تلطف في القول وأظهر التوبة مما صدر منه وعدها بادرة، فقال له المنصور: لولا ما رأيت ما أمكنك أن تجيء مع أصحابك مسيرة عشرة أيام في أمن ودعة؛ فإن أهل المغرب مجانين مارستانهم هي السلاسل والأغلال.

[٣٢٦] ولقد وفد القاضي المذكور على المنصور في بعض المواسم مع الفقهاء فلما انصرفوا من الحضرة جمعتهم الطريق بأرباب الموسيقى وأصحاب الأغاني من أهل فاس وقد كانوا وفدوا أيضًا على المنصور على سبيل العادة، فأخرج بعضهم شبابة من الإبريز [(١)] مرصعة أعطاه إياها المنصور، وبعضهم قال: أعطاني كذا، وقال الآخر: أجازني بكذا، مما لم يعط مثله للقاضي وشيعته من الفقهاء، فقال القاضي: لئن بلغت فاسًا لأردنّ أولادي إلى صنعة الموسيقى، فإن صنعة العلم كاسدة، ولولا أن الموسيقى هي العلم العزيز ما رجعنا مخفقين، ورجع المغني بشبابة الإبريز، فنُقل إلى المنصور هذا الكلام فلذعه عليه بيسير من الملام.

[٣٢٧] وذكر أبو زيد في الفوائد ما صورته: «عدا محمد الكبير خال المنصور على رجل بدرعة في ضيعة له فشكاه إلى المنصور، فقال له: كم تساوي ضيعتك؟ قال: سبعمائة أوقية، قال: خذها، وقل لخالي: الموعد بيني وبينك الموقف الذي لا أكون أنا فيه سلطان ولا أنت خال السلطان فرجع صاحب الضيعة وأبلغ إلى العامل كلام المنصور، فأمسك برأسه ساعة ثم قال له: الحق بضيعتك، وغرم له كل ما أكل

---

(١) قلت: هي آلة موسيقية، والإبريز: الذهب.

فوجدوه مشغول القلب عن نصيحتهم، مغمور الذهن بخلاف قولهم، إلَّا أنه أظهر الرجوع عما كان عازمًا عليه من الفرار عن أبيه، وأقصر في الظاهر عن بعض تلك المساوئ.

[٣٢١] فرجع الوفد إلى المنصور وقالوا له: إنه قد تاب وحسنت حاله واطمأنت نفسه وأنه واقف عند الأمر والنهي، فلم يطمئن المنصور لقولهم وقال لهم: لعل هذا إطفاء لنار الشحناء، وكذب لإصلاح الباطن، وصمم على المكر بالشيخ، فكتب إليه كتابًا طويلاً يلومه فيه على بعض الأشياء وفي ضمن ذلك تسكين خاطره حتى يبغته على حين غفلة.

ثم لم يلبث المنصور أن بعث إلى ولده زيدان - وكان خليفته على تادلا - يأمره أن يرسل مائة من الفرسان على طريق تافيلالت، وكل من وجدوه قاصدا للغرب من ناحية مراكش يردونه، وأرسل مولاه مسعود الدوري على طريق سلا يفعل مثل ذلك، وخرج المنصور من مراكش في اثني عشر ألفًا أوائل جمادى الأولى سنة إحدى عشرة وألف، وجَدّ السير، فلم يمض إلَّا أيام قلائل حتى نزل بالدوح، موضع قريب من فاس، والشيخ في جميع ذلك لا شعور له بخروج أبيه ولا بما هو عليه؛ فبعث يومًا عيونه يرصدون له مَن قدم من مراكش، ويكشفون عن الخبر، فما راعهم إلَّا الأباطح تسيل بأعناق الجياد، وأفواه الشعاب تقذف بالجيوش من بطون الأودية والوهاد، لأنهم كانوا قد عميت عليهم الأنباء بقطع المنصور للسابلة، فرجعوا إلى الشيخ مسرعين، والرعب يفت في أعضادهم ويطفئ جذوة عزائمهم، فقصوا عليه ما دهمهم وأخبروه بما رأوا، فعلم أنه محاط به فلم يمكنه إلَّا الفرار، فركب من حينه وفر إلى زاوية الشيخ الصالح أبي الشتاء من بلاد قشتالة قرب نهر ورغة.

وكان الشيخ أبو الشتاء قد توفي قبل ذلك سنة سبع وتسعين وتسعمائة كما في المرآة، فنزل بالزاوية ومعه بطانته وأصحاب دخلته من الأحداث وقرناء السوء، فبلغ خبره المنصور فبعث إليه الباشا جؤذرا مع القائد منصور النبيلي، وحلف لهما بأغلظ الأيمان إن لم يأتياه به ليمكرن بهما ويجعلهما عبرة؛ فذهبا إليه فامتنع من الدخول في يدهما، وانعزل في أصحابه حتى ناوشوه القتال، وتراموا بالنبال، ثم قبضوا عليه



الجزء السادس

الدولة السعدية

«القسم الثاني»

وفاة المنصور رحمه الله

كان المنصور ـ رحمه الله ـ بعد فراغه من قضية ابنه المأمون قد عزم على الرجوع إلى مراكش، فلما بلغه ظهور الوباء بتلك الناحية تربص إلى أن دخلت سنة اثنتي عشرة وألف فانتشر الوباء في بلاد الغرب أيضًا فكان مصاب المنصور به.

وكان ابتداء مرض المنصور بمحلته خارج فاس الجديد يوم الأربعاء حادي عشر ربيع النبوي سنة اثنتي عشرة وألف، ودخل إلى داره بالمدينة البيضاء عشية ذلك اليوم واحتل بها بعد الغروب وتوفي هنالك ليلة الاثنين الموالي لتاريخه، ودفن بإزاء مقصورة الجامع الأعظم هنالك ضحوة يوم الاثنين المذكور، وحضر جنازته ولده زيدان، وقدم للصلاة مفتي فاس وخطيب جامع القرويين بها الفقيه أبو عبد الله محمد بن قاسم القصار.

بقية أخبار المنصور وبعض سيرته

[٣٢٣] كان المنصور ـ رحمه الله ـ حسن السياسة حازمًا يقظًا مشاورًا في مهمات الأمور، وكان قد اتخذ يوم الأربعاء للمشورة، وسماه يوم الديوان، تجتمع فيه وجوه الدولة ويتطارحون فيه وجوه الرأي فيما ينوب من جلائل الأمور وعظيم النوازل، وهنالك يُظهر شكايته من لم يجد سبيلاً للوصول إلى السلطان، قالوا: ومن حزمه انه كان متطلعًا لأخبار النواحي بحاثًا عنها، غير متراخ في قراءة ما يرد عليه من رسائل عماله ولا يبطئ بالجواب، ويقول: كل شيء يقبل التأخير إلَّا مجاوبة العمال عن رسائلهم، وكان الكتاب لا يفارقون مراكزهم إلَّا في أوقات مخصوصة.

[٣٢٤] ومن حزمه أنه اخترع أشكالاً من الخط على عدد حروف المعجم وكان يكتب بها فيما يريد أن لا يطلع عليه أحد يمزج فيها الخط المتعارف فيصير الكتاب مغلقًا، فإذا سقط ووقع في يد عدو أو غيره لا يدري ما فيه ولا يعرف معنى ما اشتمل عليه، فكان إذا جهز أحد أولاده ناوله خطًا من تلك الخطوط يفك بها رسائله إليه ويكتب عنوانه كذلك.

وكان المنصور على ما هو عليه من ضخامة الملك وسعة الخراج يوظف على

الدولة السعدية

القسم الثاني

الخبر عن دولة السلطان

أبي المعالي زيدان بن أحمد المنصور رحمه الله تعالى

لما توفي المنصور - رحمه الله - وفرغ الناس من دفنه اجتمع أهل الحل والعقد من أعيان فاس وكبرائها والجمهور من جيش المنصور على بيعة ولده زيدان يوم الاثنين السادس عشر من ربيع الأول سنة اثنتي عشرة وألف.

قالوا: وكان زيدان لما توفي والده كتم موته وبعث جماعة للقبض على أخيه الشيخ المسجون بمكناسة فمنعهم من ذلك الباشا جؤذر كبير جيش الأندلس وحمل الشيخ موثقًا إلى مراكش حتى دفعه إلى أخيه أبي فارس وكان شقيقًا له، فلم يزل مسجونًا عنده إلى أن كان من أمره ما يأتي.

[٣٢٩] انحراف أهل مراكش عن طاعة زيدان وبيعتهم لأبي فارس وما نشأ عن ذلك من الفتنة

كان المنصور - رحمه الله - قد فرق عمالات المغرب على أولاده فاستعمل الشيخ على فاس والغرب وولاه عهده، واستعمل زيدان على تادلا وأعمالها، واستخلف ابنه أبا فارس على مراكش وأعمالها وكان يكاتبه بما مر بعضه من الرسائل، فلما اتصل بأهل مراكش وفاة المنصور وكتب إليهم أهل فاس بمبايعتهم لزيدان امتنعوا وبايعوا أبا فارس؛ لكونه خليفة أبيه بدار ملكه التي هي مراكش؛ ولأن جل الخاصة من حاشية أبيه كان يميل إلى أبي فارس؛ لأن زيدان كان منتبذًا عنهم بتادلا سائر أيام أبيه فلم يكن لهم به كثير إلمام ولا مزيد استئناس، مع أنه كان جديرًا بالأمر لعلمه وأدبه وكمال مروءته - رحمه الله - إلّا أن السعد لم يساعده، وقد قيل في المثل قديمًا: «قاتل بسعد وإلّا فدع».

ولما شق أهل مراكش العصا على زيدان كثر في ذلك القيل والقال حتى صدرت فتوى من قاضي فاس ابن أبي النعيم، ومفتيها أبي عبد الله القصار تتضمن التصريح بحديث: «إذا بويع خليفتين فاقتلوا الآخر منهما» وكانت بيعة أبي فارس بمراكش يوم الجمعة أواخر ربيع الأول من سنة اثنتي عشرة وألف، وهو شقيق الشيخ المأمون، أمهما أم ولد اسمها الجوهر، ويقال الخيزران، واسم أبي فارس هذا: عبد الله وتلقب بالواثق بالله، وكان أكولاً، عظيم البطن مصابًا بمس الجن، وكان مع ذلك يميل إلى المروءة والرفق وحسن السيرة، رحمه الله.

[٣٣٠] نهوض السلطان زيدان لحرب أبي فارس وانهزامه بأم الربيع ثم فراره إلى تلمسان

لما بايع أهل مراكش أبا فارس بن المنصور عزم زيدان على النهوض إليه فخرج من فاس يؤم بلاد الحوز، واتصل الخبر بأبي فارس فجهز لقتاله جيشًا كثيفًا وأمر عليهم ولده عبد الملك فقيل له: إن زيدان رجل شجاع عارف بمكايد الحرب وخدعه وولدك عبد الملك لا يقدر على مقاومته، فلو سرحت أخاك الشيخ لقتاله كان أقرب للرأي؛ لأن أهل الغرب لا يقاتلونه لأنه كان خليفة عليهم مدة فهم آنس به من زيدان، فأطلق أبو فارس أخاه المأمون من ثقاف السجن، وأخذ عليه العهود والمواثيق على النصح والطاعة وعدم شق العصا، ثم سرحه، وقال له ولأصحابه: جدوا السير الليلة كي تصبحوا بمحلة جؤذر على وادي أم الربيع، فلما انتهى الشيخ إلى المحلة المذكورة وعلم الناس به هرعوا إليه واستبشروا بمقدمه، ثم كانت الملاقاة بينه وبين السلطان زيدان بموضع يقال له حواتة: عند أم الربيع ففر عن زيدان أكثر جيشه إلى المأمون، وحنوا إلى سالف عهده وقديم صحبته، فانهزم زيدان لذلك ورجع أدراجه إلى فاس فتحصن بها.

وكان أبو فارس قد تقدم إلى أصحابه في القبض على الشيخ متى وقعت الهزيمة على زيدان، فلما فر زيدان انعزل الشيخ فيمن انضم إليه من جيش أهل الغرب وامتنع على أصحاب أبي فارس فلم يقدروا منه على شيء، وانتعش أمره واشتدت شوكته، ثم سار إلى فاس يقفو أثر السلطان زيدان.

منها» اهـ.

[٣٢٨] **وكان في مدة المنصور من الأحداث أنه: في سنة إحدىٰ وتسعين** وتسعمائة توفي الشيخ العارف بالله تعالىٰ الكبير الشأن أبو النعيم رضوان بن عبد الله الجنوي نسبة إلىٰ جنوة من بلاد الفرنج، كان أبوه نصرانيًا وأمه يهودية؛ وسبب إسلام والده ما حكاه أبو العباس الأندلسي في رحلته أنه كان له فرس ببلده جنوة فانطلق ليلاً ودخل الكنيسة العظمىٰ وراث فيها من غير أن يشعر بذلك أحد من السدنة ولا غيرهم، ثم بادر بإخراج الفرس، ولما أصبح أهل الكنيسة ورأوا الروث قالوا: إن المسيح جاء البارحة علىٰ فرسه إلىٰ الكنيسة وراث فيها، فاهتز البلد لذلك، وتنافس النصارىٰ في شراء ذلك الروث حتىٰ بيع قدر الذرة منه بمال جزيل، فعلم أن النصارىٰ علىٰ ضلال وهاجر إلىٰ بلاد الإسلام فنزل برباط الفتح من أرض سلا فوجد هنالك امرأة يهودية فتزوج بها وولدت له الشيخ أبا النعيم، فنشأ مثلاً في العلم والولاية ومحبة النبي ﷺ.

وكان ﵁ يقول: «خرجت من بين فرث ودم».





[٣٣١] ولما اتصل بزيدان خبر مجيئه إليه راود أهل فاس على القيام معه في الحصار والذب عنه والوفاء بطاعته التي هي مقتضى بيعتهم التي أعطوا بها صفقتهم عن رضى منهم، فامتنعوا عليه وقلبوا له ظهر المجن وأعلنوا بنصر الشيخ وبيعته لقديم صحبتهم له، ولما أيس زيدان من نصرهم وقد أرهقه الشيخ في جموعه خرج من فاس بحشمه وثقله ناجيًا بنفسه، وتبعه جمع عظيم من أصحاب الشيخ فلم يقدروا منه على شيء، وذهب إلى تلمسان فأقام بها إلى أن كان من أمره ما نذكره.

وأما الشيخ فإنه لما وصل إلى فاس تلقاه أهلها ذكورًا وإناثًا، وأظهروا الفرح بمقدمه، فدخلها ودعا لنفسه فأجيب واستبد بملكها، ثم أمر جيش أهل مراكش أن يرجعوا إلى بلادهم فانقلبوا إلى صاحبهم مخفقين.

[٣٣٢] وكان الشيخ لما تم غرضه من الاستبداد بالأمر والانفراد بالسلطنة دعا بالشيخين الفقيهين قاضي الجماعة أبي القاسم بن أبي النعيم، ومفتيها أبي عبد الله محمد بن قاسم القصار فلامهما على مبايعة زيدان وقولهما فيه وفي أخيه أبي فارس: «إن أولاد الإماء لا يتقدمون في الأمر على أولاد الحرائر» وكان أبو فارس والشيخ ولدي أمة اسمها: الخيزران وزيدان أمه حرة من الشبانات، وعزم أن ينكل بهما، ثم بعث بهما مع جيش مراكش إلى أخيه أبي فارس ليرى فيهما رأيه، فأما الشيخ القصار فتوفي - رحمه الله - على مقربة من مراكش، وأما القاضي أبو القاسم فاجتمع بأبي فارس فقبل عذره وصفح عنه ورده مكرمًا إلى فاس.

[٣٣٣] نهوض عبد الله بن الشيخ لحرب عمه أبي فارس واستيلاؤه على مراكش

ثم إن الشيخ المتغلب على فاس دعا بتجار أهلها فاستسلف منهم مالاً كثيرًا وأظهر من الظلم وسوء السيرة وخبث السريرة ما هو شهير به، ثم تتبع قواد أبيه فنهب ذخائرهم واستصفى أموالهم وعذب من أخفى من ذلك شيئًا منهم، ثم جهز جيشًا لقتال أخيه أبي فارس بمراكش، وكان عدد الجيش نحو الثمانية آلاف، وأمر عليه ولده عبد الله فسار بجيوشه فوجد أبا فارس بمحلته في موضع يقال له: إكلميم، فوقعت الهزيمة على أبي فارس، وقتل نحو المائة من أصحابه، ونهبت محلته، وفر

عودة عبد الله بن الشيخ
إلى مراكش واستيلاؤه عليها وطرده زيدان عنها

لما قدم عبد الله بن الشيخ على أبيه بفاس سليبًا مهزومًا قامت قيامته ورأى أن يهيئ عسكرًا آخر ويجدد جمعًا ثانيًا فلم يجد لذلك طاقة لفراغ يده من المال وقلة جبايته، واستحيى أن يستسلف من التجار لأنه كان استسلف منهم فلم يرد لهم شيئًا، ولما أعيته الحيلة رجع على قواده فقلب لهم ظهر المجن ونهب أموالهم واستلب ذخائرهم وصار يفرقها على التجار، فاجتمع له من ذلك أموال عريضة فرقها في جيشه، وتهيأ عبد الله للمسير إلى مراكش، وكان أهل فاس قد غضبوا لمن قتل من إخوانهم بها ونادوا بأخذ ثأرهم حتى أن بعضهم خرج مع عبد الله من غير أخذ مرتب، فخرج عبد الله بجموع عديدة وجيوش حفيلة، ولما بلغ خبره للسلطان زيدان بعث إليه العلج مصطفى باشا في جيوش كثيرة في شعبان سنة ست عشرة وألف، فالتقى الجمعان فهزم مصطفى باشا وقتل من جيش مراكش نحو التسعة آلاف، وبعث الشيخ جماعة من عدول فاس إلى موضع المعركة حتى أحصوا القتلى، ثم توجه عبد الله إلى مراكش فبرز إليه أهلها في ستة وثلاثين ألف مقاتل والتقى الجمعان بموضع يقال له: رأس العين، فانهزم أهل مراكش، وتقدم عبد الله بن الشيخ فاقتحمها بجيشه، وفر زيدان إلى المعاقل المنيعة والجبال الشامخة فبقي منتقلاً هنالك إلى أن كان من أمره ما نذكره.

ثورة محمد بن عبد المؤمن ابن السلطان
محمد الشيخ وانقراض أمره وعود زيدان إلى مراكش

لما دخل عبدالله بن الشيخ مراكش واستولى عليها فعل فيها أعظم من فعلته الأولى، وهربت شرذمة من أهل مراكش إلى جبل جيليز واجتمع هنالك منهم عصابة من أهل النجدة والحمية، واتفق رأيهم على أن يقدموا للخلافة محمد بن عبد المؤمن ابن السلطان محمد الشيخ، وكان رجلاً خيرًا دينًا صيتًا وقورًا فبايعه أهل مراكش هنالك، والتفوا عليه، فخرج عبدالله بن الشيخ لقتال من بجبل جيليز والقبض على أميرهم المذكور.

جمعوا منهم جنداً كبيراً، وبهم فتح المنصور إقليم السودان، واستمر الحال على ذلك إلى أن كانت سنة ست عشرة وألف فهاجر جميع من لم يتنصر منهم إلى بلاد المغرب وغيرها.

قال في «نفح الطيب»: «كان النصارى بالأندلس قد شددوا على المسلمين بها في التنصر حتى أنهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك ومنعوهم من حمل السكين الصغير فضلا عن غيرها من الحديد، وقاموا في بعض الجبال على النصارى مراراً ولم يقيض الله لهم ناصراً إلى أن كان إخراج النصارى إياهم أعوام سبعة عشرة وألف، فخرجت ألوف بفاس، وألوف أخر بتلمسان، ووهران، وخرج جمهورهم بتونس، فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله - تعالى - في الطرقات ونهبوا أموالهم، وهكذا كان ببلاد تلمسان وفاس، ونجا القليل منهم من هذه المضرة، وأما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم وهم لهذا العهد قد عمروا قراها الخالية وبلادها» اهـ.

وقال صاحب «الخلاصة النقية في أمراء إفريقية» ما نصه: «وفي سنة ست عشرة وألف قدمت الأمم الجالية من جزيرة الأندلس فأوسع لهم صاحب تونس عثمان داي كنفه، وأباح لهم بناء القرى في مملكته فبنوا نحو العشرين قرية، واغتبط بهم أهل الحضرة وتعلموا حرفهم وقلدوا ترفهم» اهـ.

ثم قال «في نفح الطيب»: «وكذلك خرج طوائف منهم بتطاوين وسلا والجزائر، ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكراً جراراً وسكنوا سلا كان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور الآن، وحصنوا قلعة سلا وبنوا بها القصور والحمامات والدور، وهم الآن بهذا الحال، ووصل جماعة منهم إلى القسطنطينية العظمى وإلى مصر والشام وغيرها من بلاد الإسلام» اهـ كلام نفح الطيب.

[٣٣٦] استيلاء السلطان زيدان على فاس وفرار الشيخ بن المنصور عنها إلى العرائش ثم إلى طاغية الإصبنيول

كان الشيخ بن المنصور - عفا الله عنه - على ما تقدم من قبح السيرة والإساءة إلى الخاصة والعامة حتى ملته النفوس، ورفضته القلوب، وضاق أهل فاس بشؤمه ذرعًا، واستفحل أمر السلطان زيدان وتكلم به أهل فاس وسائر بلاد الغرب،

هو بنفسه إلى مسفيوة.

[٣٣٤] ودخل عبد الله بن الشيخ مراكش فأباحها لجيشه فنهبت دورها، واستبيحت محارمها، وا شتغل هو بالفساد «ومن يشابه أباه فما ظلم»، حتى حُكي أنه زنى بجواري جده المنصور واستمتع بحظاياه، وأكل في رمضان وشرب الخمر فيه جهاراً، وعكف على اللذات وألقى جلباب الحياء عن وجهه، وكان دخوله مراكش في العشرين من شعبان سنة خمس عشرة وألف.

مجيء السلطان زيدان إلى المغرب واستيلاؤه على مراكش وطرده عبد الله بن الشيخ عنها

كان السلطان زيدان لما فر من فاس إلى تلمسان - كما مر - أقام بها مدة وكان قد بعث إلى تُرك الجزائر يستمدهم ويستعديهم على أخويه فأبطأوا عليه وطال عليه انتظارهم، فلما يئس منهم توجه إلى سجلماسة فدخلها من غير قتال ولا محاربة، ثم انتقل عنها إلى درعة ومنها إلى السوس، فكتب إليه أهل مراكش - وقد ندموا على ما فرطوا فيه من أمره والدخول في طاعته - أن يأتيهم ولو وحده، فتوجه إليهم ودخل عليهم ليلاً، فلم يفجأ عبد الله بن الشيخ إلَّا نداء أهل مراكش بنصر السلطان زيدان وتحزبوا معه وتقدموا إلى قائدهم عبد الله اعراس الذي ولاه عليهم الشيخ فقتلوه، وخرج عبد الله فاراً بجموعه من أهل فاس والغرب، فحاصرهم أهل مراكش بين الأسوار والجنات، وقتلوا من أصحاب عبد الله بموضع يعرف بجنان بكار نحو الخمسة آلاف وخمسمائة، وأمر زيدان بقتل كل من تخلف عن عبد الله من جيشه، فأتى القتل على جميع من وُجد بمراكش من جيش أهل فاس، وذلك في أواخر سنة خمس عشرة وألف، وفر عبد الله بن الشيخ ناجياً بنفسه حتى قدم على أبيه بفاس في أسوأ الحالات، مفلول العساكر، مهزوم الجموع، معتاضاً عن جيش النصر بجيش الدموع.

واتصل الخبر بالشيخ وعرف أن قلوب الناس عليه فخاف الفضيحة وأصبح غاديًا في أهله وحشمه إلى ناحية العرائش، فاحتل بالقصر الكبير وهناك لحق به ابنه عبد الله، وانضم إليهما أبو فارس بن المنصور.

ثم إن السلطان زيدان بعث كبير جيشه مصطفى باشا إلى فاس فانتهى إليها، ودخلت فاس في طاعته، ثم نهض إلى ناحية القصر الكبير ناويًا القبض على الشيخ وحزبه، واتصل بالشيخ خبره ففر إلى العرائش، ومنها ركب البحر إلى طاغية الإصبنيول مستصرخًا به على السلطان زيدان[1]، وحمل معه أمه الخيزران وبعض عياله وجماعة من قواده وبطانته، وذلك في ذي القعدة سنة سبع عشرة وألف.

وانتهى مصطفى باشا إلى القصر الكبير فقبض على من وجد به من أصحاب الشيخ وفر عبد الله وأبو فارس.

عود عبد الله بن الشيخ إلى فاس واستيلاؤه عليها ومقتل مصطفى باشا رحمه الله

لما دخل السلطان زيدان حضرة فاس واستولى عليها أقام بها إلى أن دخلت سنة ثمان عشرة وألف فاتصل به خبر قيام بعض الثوار عليه بناحية مراكش فنهض إليها مزعجًا، واستخلف على فاس مولاه مصطفى باشا، ولما اتصل خبر نهوضه بعبد الله ابن الشيخ، زحف إلى فاس فيمن انضم إليه فبرز إليه مصطفى باشا وضرب محلته بظاهر فاس فالتقى الجمعان يومئذ بين الظهرين فأجلت الحرب عن مقتل مصطفى باشا، وهلك ما لا يحصى من الناس، ووقع النهب حتى انتهب من البقر التي تحلب نحو ستة آلاف، ودخل عبد الله بن الشيخ فاسًا مع عمه أبي فارس وذلك سابع عشر ربيع الثاني سنة ثمان عشرة وألف.

[٣٣٧] خبر أبي فارس ومقتله رحمه الله تعالى

اتفق رأي القواد على قتل عبد الله[2] وتولية عمه أبي فارس، فبلغ ذلك عبد الله فدخل على عمه أبي فارس ليلاً مع حاجبه حمو بن عمر فوجده على سجادته

(١) إنا لله وإنا إليه راجعون، هكذا ضيع أولئك الحكام شريعة الله فضاعت البلاد والعباد.

(٢) قلت: وذلك لسوء سيرة عبدالله هذا لما تقدم من فعله في مراكش.

وجواريه حوله فأخرجهن وأمر بعمه فخنق وهو يضرب برجليه إلى أن مات، وذلك في جمادى الأولى سنة ثمان عشرة وألف.

عودة السلطان زيدان إلى فاس واستيلاؤه عليها ثم إعراضه عنها سائر أيامه

لما سمع السلطان زيدان - وهو بمراكش - بمقتل مصطفى باشا نهض إلى فاس وجاء على طريق الجبل، وكان نصارى الإصبنيول يومئذ قد نزلوا على العرائش وحاولوا الاستيلاء عليها وذلك بإذن الشيخ - كما سيأتي - وكان عبد الله بن الشيخ بفاس فسمع بنزول النصارى على العرائش فاستنفر الناس وحضهم على الجهاد فتهيؤوا لذلك وعزموا على النهوض إليها فما راعهم إلّا السلطان زيدان قد أقبل، وتقدم إلى جهة فاس فانهزم الناس عن عبد الله فبعث زيدان لتسكين روعة أهل البلد، ونزل زيدان بوادي فاس فخرج الناس للقائه، فلما كان اليوم الحادي عشر من الشهر المذكور نزل عبد الله بن الشيخ برأس الماء فخرج إليه زيدان واقتتلوا فانهزم زيدان وقتل من أصحابه نحو الخمسمائة، وفر إلى محلته، وكان ذلك آخر رجوع زيدان إلى فاس فإنه لما أعياه أمر الغرب أعرض عنه وصرف عنايته إلى ضبط ما خلف وادي أم الربيع إلى مراكش وأعمالها، وتوارث بنوه سلطنته على ذلك النحو من بعده، وبقي عبد الله بن الشيخ يقطع الأيام بفاس إلى أن هلك، وقام بأمر فاس من بعده ثوارها وسُيّابها.

استيلاء نصارى الإصبنيول على العرائش والسبب في ذلك

قد تقدم لنا ما كان من خبر الشيخ المأمون من أنه فر إلى العرائش ومنها ركب البحر إلى طاغية الإصبنيول مستصرخًا به على أخيه السلطان زيدان فأبى الطاغية أن يمده، فراوده الشيخ على أن يترك عنده أولاده وحشمه رهنًا ويعينه بالمال والرجال حتى إذا ملك أمره بذل له ما شارطه عليه، ولم يزل به إلى أن شرط عليه الطاغية أن يُخلي له العرائش من المسلمين ويملكه إياها فقبل الشيخ ذلك والتزمه[1]، وخرج حتى نزل ببلاد الريف.

---

[1] قلت: إنا لله وإنا إليه راجعون.

ولما التقى الجمعان انهزم عبدالله وولى أصحابه الأدبار فخرج من مراكش مهزومًا سادس شوال سنة ست عشرة وألف، وترك محلته وعدته وجل الجيش، وأخذ على طريق تامسنا، وامتُحن أصحابه في ذهابهم حتى كان مد القمح عندهم بثلاثين أوقية، الخبزة من نصف رطل بربع مثقال، ولم يزل أصحابه ينتهبون ما مرُّوا عليه من الخيام، ويسبون البنات[1] إلى أن وصلوا إلى فاس في الرابع والعشرين من شوال من السنة المذكورة.

وأما محمد بن عبد المؤمن فإنه لما دخل مراكش واستولى عليها صفح عن اللذين تخلفوا بها من أهل المغرب من جيش عبدالله بن الشيخ، وأعطاهم الراتب فلم يعجب ذلك أهل مراكش، ونقموا عليه إبقاءه عليهم، وكانوا نحو الألف ونصف، فكتبوا سرًا إلى السلطان زيدان بالجبل فأتاهم وخيم نازلاً بظاهر البلد، فخرج محمد بن عبد المؤمن إلى لقائه فانهزم ابن عبد المؤمن ودخل السلطان زيدان مراكش واستولى عليها وصفح هو أيضًا عن الفئة المتخلفة عن عبدالله بن الشيخ.

[٣٣٥] خروج جالية الأندلس من غرناطة وأعمالها إلى بلاد المغرب وغيرها

قد قدمنا ما كان من استيلاء الطاغية صاحب قشتالة على غرناطة وأعمالها سنة سبع وتسعين وثمانمائة، وأن أهل غرناطة التزموا طاعته والبقاء تحت حكمه على شروط اشترطوها عليه قد ذكرنا بعضها فيما سلف، وأن عدو الدين قد نقض تلك الشروط عروة عروة، وكان أهل الأندلس من أجل ذلك كثيراً ما يهاجرون من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام أثناء هذه المدة السالفة.

غير أن عامتهم كانوا قد تخلقوا بأخلاق العجم، وأثر فيهم ذلك أثرًا ظاهراً لطول صحبتهم لهم ونشأة أعقابهم بين أظهرهم، فكانت تصدر منهم في بعض الأحيان مقالات قبيحة في حق ولاة المسلمين من أهل المغرب وعامتهم، لا سيما إذا نالهم منهم بعض الظلم، ولقد رأيت في كتاب «المعيار» وغيره سؤالات وفتاوى صدرت من علماء المغرب في حق هؤلاء الصنف منهم، وكان الملوك السعديون قد

---

(١) قلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، تلك كانت أحوالنا فهل كان يمكن ألا يطأ بلادنا الاستخراب العالمي وفيها كل هذا الظلم والفساد والقتل؟!

ولما سمع ذلك أهل فاس خافوا من شوكته وذهب جمع من علمائهم وأعيانهم كالقاضي أبي القاسم بن أبي النعيم، والشريف أبي إسحاق إبراهيم الصقلي الحسيني وغيرهما لملاقاته وتهنئته بالقدوم، فلما وصلوا إليه فرح بهم، وأمر قبطان النصارىٰ أن يخرج مدافعه إرهابًا وإظهاراً لقوة النصارىٰ الذين استنصر بهم [1] ففعل حتىٰ اصطكت الآذان وارتجت الجبال.

[٣٣٨] ونزل القبطان من السفينة للسلام علىٰ الأعيان، فلما رأوه مقبلاً أمرهم الشيخ بالقيام له فقاموا إليه أجمعون، وجازوه خيراً علىٰ ما فعل مع الشيخ من الإحسان والنصرة، وسلم هو عليهم بنزع قلنسوته علىٰ عادة النصارىٰ، وأنكر الناس علىٰ أولئك الأعيان قيامهم للكافر، وضُربوا بعصىٰ الذل حتىٰ أنهم في رجوعهم إلىٰ فاس تعرض لهم عرب الحياينة فسلبوهم وأخذوا ما معهم وجردوهم من ملابسهم جميعًا ما عدا القاضي ابن أبي النعيم فإنه عُرف بزي القضاء فاحترموه.

ثم إن الشيخ انتقل إلىٰ القصر الكبير وهو قصر كتامة وقصر عبد الكريم فأقام به مدة وراود قواده ورؤساء جيشه أن يقفوا معه في تمكين النصارىٰ من العرائش ليفي له الطاغية بما وعده من النصرة، فامتنع الناس من إسعافه في ذلك، ولم يوافقه علىٰ غرضه إلَّا قائده الكرني فإنه ساعده علىٰ ذلك فبعثه الشيخ إليها وأمره أن يخليها ولا يدع بها أحدًا من المسلمين، فذهب الكرني المذكور وكلم أهلها في ذلك فامتنعوا من الجلاء عنها فقتل منهم جماعة وخرج الباقون وهم يبكون تخفق علىٰ رؤوسهم ألوية الصغار.

[٣٣٩] ولما خرج منها المسلمون أقام بها القائد الكرني إلىٰ أن دخلها النصارىٰ واستولوا عليها في رابع رمضان سنة تسع عشرة وألف، ووقع في قلوب المسلمين من الامتعاض لأخذ العرائش أمر عظيم، وأنكروا ذلك أشد الإنكار، وقام الشريف أبو العباس أحمد بن إدريس العمراني ودار علىٰ مجالس العلم بفاس، ونادىٰ بالجهاد والخروج لإغاثة المسلمين بالعرائش، فانضاف إليه أقوام، وعزموا علىٰ التوجه لذلك، ففت في عضدهم قائدهم حمو المعروف بأبي دبيرة، وصرف وجوهم عما قصدوه في حكاية طويلة.

(١) قلت: إنا لله وإنا إليه راجعون.

[٣٤٠] وكان الشيخ لما خاف الفضيحة وإنكار الخاصة والعامة عليه إعطاءه بلداً من بلاد الإسلام للكفار احتال في ذلك وكتب سؤالاً إلىٰ علماء فاس وغيرها يذكر لهم فيه أنه لما وغل في بلاد العدو الكافر واقتحمها كرهًا بأولاده وحشمه منعه النصارىٰ من الخروج من بلادهم حتىٰ يعطيهم ثغر العرائش، وأنهم ما تركوه خرج بنفسه حتىٰ ترك لهم أولاده رهنًا علىٰ ذلك، فهل يجوز له أن يفدي أولاده من أيدي الكفار بهٰذا الثغر أم لا؟[١] فأجابوه بأن فداء المسلمين سيما أولاد أمير المؤمنين سيما أولاد سيد المرسلين ﷺ من يد العدو الكافر بإعطاء بلد من بلاد الإسلام له جائز وإنا موافقون علىٰ ذلك، ووقع هٰذا الاستفتاء بعد أن وقع ما وقع، وما أجاب من أجاب من العلماء عن ذلك إلَّا خوفًا علىٰ نفسه، وقد فر جماعة من تلك الفتوىٰ كالإمام أبي عبد الله محمد الجنان صاحب «الطرر علىٰ المختصر»، وكالإمام أبي العباس أحمد المقري مؤلف «نفح الطيب» فاختفيا مدة استبراء لدينهما حتىٰ صدرت الفتوىٰ من غيرهما، وبسبب هٰذه الفتوىٰ ـ أيضًا ـ فر جماعة من علماء فاس إلىٰ البادية[٢].

[٣٤١] بقية أخبار الشيخ ومقتله

ثم إن الشيخ ابن المنصور نزل بالفحص واجتمعت عليه لمة من أهل الذعارة والفساد علىٰ شاكلته فنهض بهم إلىٰ تطاوين فاستولىٰ عليها، وأخرج منها كبيرها المقدم المجاهد أبا العباس أحمد النقسيس، ولم يزل الشيخ يجول في بلاد الفحص ويعسف أهلها إلىٰ أن ملته القلوب وتمالأ أشياخ الفحص علىٰ قتله لما رأوا من انحلال عقيدته ورقة ديانته، وتمليكه ثغر الإسلام للكفار، ففتك به المقدم أبو الليف في وسط محلته، وبقي صريعًا مكشوف العورة أيامًا، وكان مقتله خامس رجب سنة اثنتين وعشرين وألف.

---

(١) قال المحقق: كان ممن أفتىٰ بالجواز: الفقيه محمد بن قاسم بن القاضي فقتلته العامة بالقرويين عند العشاء يوم الاثنين ٢١ حجة عام ١١٤٠هـ وسبب قتله ما اتهم به من موافقته علىٰ تمكين النصارىٰ من ثغر العرائش إذ كان حضر مع من استدعىٰ محمد الشيخ من العلماء لأجل ذلك فتعلق بأغراض فاسدة وأمور واهية لم يقبلها أحد.

(٢) قال المحقق: وممن انكر علىٰ المأمون واغلظ له في الملام الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبي الحسن المعروف بالحاج الأغصاوي البقال من أولاد الحاج البقال، فانفذ المأمون أعوانه وأتوا به إلىٰ فاس فقتله بها ضربًا سنة ١٠١٧هـ.

[٣٤٢] رياسة ولي الله تعالى أبي عبد الله سيدي محمد العياشي على الجهاد ومبدأ أمره في ذلك

هٰذا الرجل هو ولي الله تعالى المجاهد في سبيله أبو عبد الله مَحمد بن أحمد المالكي الزياني المعروف بالعياشي ـ من عرب المغرب ـ كان مستوطنًا مدينة سلا، وكان من تلامذة الولي العارف بالله تعالى أبي محمد عبدالله بن حسون السلاسي، دفين سلا.

وكان ابتداء أمر أبي عبد الله أنه كان ملازمًا لشيخه المذكور من أقرب التلامذة إليه، وأسرعهم إلى خدمته، وأولهم دخولاً عليه، وآخرهم خروجًا عنه، وكان مع ذلك كثير الورع، قليل الكلام، مديمًا للصيام وقراءة القرآن، فكان الشيخ ابن حسون ملتفتًا إليه، ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن شاعت مناقب الشيخ وكثر غاشيه، فأهدى له يومًا بعض أشياخ القبائل فرسًا فأمر الشيخ بإسراجه وقال: أين محمد العياشي؟ فقال: ها أنا ذا يا سيدي، فقال الشيخ: اركب بحول الله فرسك ودنياك وآخرتك، فتفهقر تأدبًا فحلف عليه ليركبن وحبس له الركاب بيده، وقال له: ارتحل عني إلى آزمور وانزل على أولاد أبي عزيز ولا بد لك من الرجوع إلى هٰذه البلاد، وسيكون لك شأن عظيم، فودعه أبو عبد الله ووضع الشيخ يده على رأسه وبكى ودعا له بخير.

فقصد ناحية آزمور، ونزل حيث عين له شيخه المذكور، وذلك لأول دولة السلطان زيدان سنة ثلاث عشرة وألف، فلم يزل أبو عبد الله العياشي مثابرًا على الجهاد شديد الشكيمة على العدو عارفًا بوجوه المكايد الحربية، بطلاً شهمًا مقدامًا في مواطن الإحجام، وقورًا صموتًا عن الكلام، فطار بذلك في البلاد صيته، وشاع بين الناس ذكره لما هو عليه من التضييق على نصارى الجديدة، وكانوا يومئذ قد أَمِر أمرهم (١)، ففرح بذلك قائد آزمور، ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن توفي قائد الفحص والبلاد الآزمورية، فسأل السلطان زيدان عمن يليق بتولية ذلك الثغر فقيل

---

(١) قلت: اي عَظُم.

له: سيدي محمد العياشي، فكتب إليه بالتولية فقبل، ونهض بأعباء ما حمل من ولاية الفحص وجهاده.

[٣٤٣]وكانت له مع نصارىٰ الجديدة وقائع وضيق عليهم حتىٰ منعهم من الحرث والرعي، فبعث النصارىٰ إلىٰ حاشية السلطان زيدان بالتحف ونفائس الهدايا ليعزلوا عنهم أبا عبد الله المذكور لمضايقته لهم، فخوفوا السلطان زيدان عاقبته وحضوه علىٰ عزله، وأظهروا له أنه مسموع الكلمة في تلك النواحي، وأنه يُخشىٰ علىٰ الدولة منه [1]، وكان أبو عبد الله العياشي كلما بعث بالغنائم وما يفتح الله به عليه من الأسارىٰ إلىٰ مراكش ازدادت شهرته وتناقل الناس حديثه، فوغر بذلك قلب زيدان وحنق عليه، فبعث إليه قائده محمد السنوسي في أربعمائة فارس وأمره بالقبض عليه وقتله، وألقىٰ الله في قلب القائد المذكور الشفقة عليه لما يعلم من براءته مما قذف به فبعث إليه خفية: أن انج بنفسك فإنك مغدور، فخرج أبو عبد الله العياشي في أربعين رجلاً فرسانًا ومشاة قاصدين سلا فاستقر بها سنة ثلاث وعشرين وألف.

ولما انتهىٰ السنوسي إلىٰ آزمور ولم يجد له أثرًا أظهر العناية بالبحث عنه، وعاقب شرذمة من أهل الفحص علىٰ إفلاته تعمية علىٰ السلطان وإقامة لعذره عنده، فقبل السلطان زيدان ذلك، والله غالب علىٰ أمره.

[٣٤٤] ثورة الفقيه أبي العباس أحمد بن عبد الله السجلماسي المعروف بأبي مَحَلِّي

قال الشيخ أبو العباس أحمد التواتي - رحمه الله تعالىٰ - في رسالته التي سماها «مقامة التحلي والتخلي من صحبة الشيخ أبي مَحَلِّي» وهي رسالة طويلة قال: كان الفقيه أبو محلي في أول أمره فقيهًا صرفًا، ثم انتحل طريقة التصوف مدة حتىٰ وقع علىٰ بعض الأحوال الربانية ولاحت له مخايل الولاية فانحشر الناس لزيارته أفواجًا، وقصدوه فرادىٰ وأزواجًا، وبعد صيته وكثرت أتباعه، قال: فلما سمعت بذلك ذهبت إليه وجلست عنده إلىٰ أن وجدته يشير إلىٰ نفسه بأنه المهدي المعلوم

---

(١) قلت: هؤلاء بطانة السوء.

المبشر به في صحيح الأحاديث فتركته وراء، ونبذته بالعراء. اهـ

قال الشيخ اليوسي في «محاضراته» وقد تكلم على الدعوى الفاطمية[1] ما نصه:

«وممن ابتلي بها قريبًا أحمد بن عبد الله بن أبي مَحَلِّي التستاوتي خاض في الطريق حتى حصل له نصيب من الذوق، وألف فيها كتابًا يدل على ذلك، ثم نزغت به هـٰذه النزغة فحدثونا أنه كان في أول أمره معاشراً لمحمد بن أبي بكر الدلائي، وكان البلد إذ ذاك قد كثرت فيه المناكر وشاعت، فقال ابن أبي محلي لابن أبي بكر ذات ليلة: هل لك في أن نخرج غدًا إلى الناس فنأمر بالمعروف وننهى عن المنكر؟ فلم يساعفه لما رأى من تعذر ذلك لفساد الوقت وتفاقم الشر، فلما أصبحا خرجا، فأما ابن أبي بكر فانطلق إلى ناحية النهر فغسل ثيابه وأزال شعثه بالحلق وأقام صلاته وأوراده في أوقاتها، وأما ابن أبي محلي فتقدم لما همّ به من الحسبة فوقع في شر وخصام أداه إلى فوات الصلاة عن الوقت، ولم يحصل على طائل، فلما اجتمعا بالليل قال له ابن أبي بكر: أما أنا فقد قضيت مآربي وحفظت ديني، وانقلبت في سلامة وصفاء ومن أتى منكرًا فالله حسيبه[2]، أو نحو هـٰذا من الكلام، وأما أنت فانظر ما الذي وقعت فيه، ثم لم ينته إلى أن ذهب إلى بلاد القبلة ودعا لنفسه وادعى أنه المهدي المنتظر، وأنه بصدد الجهاد، فاستخف قلوب العوام واتبعوه» اهـ.

وصار ابن أبي محلي يكاتب رؤساء القبائل وعظماء البلدان يأمرهم بالمعروف ويحضهم على الاستمساك بالسنة، ويشيع أنه الفاطمي المنتظر، وأن من تبعه فهو الفائز ومن تخلف عنه فموبق، وربما كان يقول لأصحابه محرضًا لهم على نصرته: أنتم أفضل من أصحاب النبي ﷺ؛ لأنكم قمتم بنصر الحق في زمن الباطل، وهم قاموا به في زمن الحق، ونحو هـٰذا من زخارف كلامه.

---

(١) قلت: أي ادعاء المهدية؛ لأن المهدي من ولد فاطمة رضي الله عنها.

(٢) قلت: هـٰذا كلام غير مقبول شرعًا، وما فعله ابن أبي محلي من الإنكار والصبر على الأذى فيه هو الصواب، والله تعالى أعلم.

نهوض ابن أبي مَحَلِّي إلى سجلماسة ودرعة واستيلاؤه عليها ثم على مراكش بعدهما

كان أبو العباس بن أبي مَحَلِّي - عفا الله عنه - لما كثرت جموعه وانثال الناس عليه يصرح بوجوب القيام بتغيير المنكر الذي شاع في الناس ويقول: إن أولاد المنصور قد تهالكوا في طلب الملك حتى فَنِي الناس فيما بينهم، وانتهبت الأموال، وانتهكت المحارم، فيجب الضرب على أيديهم وكسر شوكتهم، ولما بلغه ما فعل الشيخ من إجلاء المسلمين عن العرائش وبيعها للعدو الكافر استشاط غضبًا، وأظهر أنه غضب لله لا لشيء سواه فخرج يؤم سجلماسة، وكان خليفة زيدان عليها يومئذ يسمى الحاج المير، فخرج عامل زيدان لمصادمته، وهو في نحو أربعة آلاف، وابن أبي محلي في نحو أربعمائة، فلما التقى الجمعان كانت الدبرة على جيش زيدان، وأشاع الناس أن الرصاص يقع على أصحاب أبي محلي باردًا لا يضرهم، ونفخ الشيطان في هذه الفرية فسكنت هيبته في القلوب، وتمكن ناموسه منها، ولما دخل سجلماسة أظهر العدل وغير المناكر فأحبته العامة، وقدمت عليه وفود أهل تلمسان والراشدية يهنئونه.

ولما بلغ خبر الهزيمة إلى زيدان جهز إليه من مراكش جيشًا، وأمر عليه أخاه عبدالله بن المنصور المعروف بالزبدة، فسمع به أبو محلي فسار إليه فكان اللقاء بينهما بدرعة، فوقعت الهزيمة على عبد الله بن المنصور ومات من أصحابه نحو الثلاثة آلاف، فقوي أمر ابن أبي محلي واشتدت شوكته، وجمع بين سجلماسة ودرعة، وكان القائد يونس الأيسي قد هرب من زيدان لأمر نقمه عليه وقصد إلى أبي محلي، فجاء معه يقوده ويطلعه على عورات زيدان ويهون عليه أمره، وما زال به إلى أن أتى به إلى مراكش فبعث إليه زيدان جيشًا كثيفًا فهزمه أبو محلي، وتقدم فدخل مراكش واستولى عليها، وفر زيدان إلى ثغر آسفي.

[٣٤٥] وذكر الوزير البرتغالي في كتابه الموضوع في أخبار الجديدة: أن نصارى الجديدة بعثوا إلى السلطان زيدان بمائتين من مقاتلتهم إعانة له على عدوه من غير أن يطلب منهم ذلك، فلما وصلوا إليه أنف من الاستعانة بهم على المسلمين، لكنه

أحسن إليهم وأطلق لهم بعض أسراهم وردهم مكرمين، هذا كلامه والحق ما شهدت به الأعداء، وذلك هو الظن بزيدان رحمه الله.

ولما دخل أبو محلي قصر الخلافة بمراكش فعل فيه ما شاء، وولد له هنالك مولود سماه زيدان، ويقال: إنه تزوج أم زيدان وبنى بها، ودبت في رأسه نشوة الملك، ونسي ما بنى عليه أمره من الحسبة والنسك.

[٣٤٦] استصراخ السلطان زيدان بأبي زكرياء يحيى بن عبد المنعم الحاحي ومقتل أبي محلي رحمه الله

لما التف الرعاع من العامة على أبي محلي وكثرت جموعه وعلم زيدان ضعفه عن مقاومته كتب إلى الفقيه أبي زكرياء يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي ثم الداوودي مستغيثًا به، ثم وفد عليه بنفسه.

وكان يحيى بزاوية أبيه من جبل درن، وله شهرة عظيمة بالصقع السوسي وله أتباع، فأتاه السلطان زيدان وقال له: إن بيعتي في أعناقكم وأنا بين أظهركم فيجب عليكم الذب عني ومقاتلة من ناوأني، فلبى أبو زكرياء دعوته، وحشر الجيوش من كل جهة، وخرج يؤم مراكش في ثامن رمضان سنة اثنتين وعشرين وألف.

وبرز إليه أبو محلي، والتحم القتال بينهما فكانت أول رصاصة في نحر أبي محلي فهلك مكانه، وانذعرت جموعه، ونهبت محلته، واحتز رأسه وعلق على سور مراكش، فبقي معلقًا هنالك مع رؤوس جماعة من أصحابه نحوا من اثنتي عشرة سنة، وزعم أصحابه أنه لم يمت ولكنه تغيب.

[٣٤٧] ويذكر أنه لما طاف بالبيت في وجهته الحجازية سمع وهو يقول: يا رب إنك قلت وقولك الحق: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] فاجعل لي يا رب دولة بينهم، قالوا: ولم يسأل حسن العاقبة فرزق الدولة وآل به الأمر إلى ما أبرمته يد القدرة.

وكان أبو محلي - رحمه الله - فقيهًا محصلاً، له قلم بليغ ونفس عال، وله تآليف.

[٣٤٨] استيلاء نصارى الإصبنيول على المعمورة ونهوض أبي عبد الله العياشي لجهادهم وانتفاض أندلس سلا على السلطان زيدان رحمه الله

قد قدمنا في أخبار الوطاسيين ما كان من استيلاء البرتغال على المعمورة المسماة اليوم بالمهدية ومقامهم بها سنين قلائل ثم جلائهم عنها، ثم لما استولى الاصبنيول ـ خذله الله ـ في هذه المدة على العرائش طمحت نفسه إلى الاستيلاء على غيرها وتعزيزها بأختها، فرأى أن المهدية أقرب إليها فبعث إليها الطاغية فيليبس الثالث من جزيرة قادس تسعين مركبًا حربية فانتهوا إليها واستولوا عليها من غير قتال لفرار المسلمين الذين كانوا بها عنها، هكذا في تواريخ الفرنج.

وكان أبو عبد الله العياشي بعد رجوعه من آزمور وسلامته من اغتيال قائد زيدان دخل سلا في نحو أربعين رجلاً فجاءه أهل سلا وذكروا له ما هم فيه من الخوف من نصارى المعمورة؛ وأن مسارحهم قد امتدت إلى الغابة، وأن النصارى ألفان من الرماة سوى الفرسان فأمرهم بالتهيؤ إليهم.

وأمر أبو عبد الله العياشي أهل سلا بالتهيؤ للغزو واتخاذ العدة فلم يجد عندهم إلَّا نحو المائتين منها، وكانت السنون والفتن قد أضعفتها، فحضهم على الزيادة والاستكثار منها، فكان مبلغ عدتهم بما زادوه زهاء أربعمائة، ثم نهض بهم إلى المعمورة فصادف بها من النصارى غرة فكانت بينه وبينهم حرب قربها إلى أن غربت الشمس، فقتل من النصارى زهاء أربعمائة، ومن المسلمين مائتان وسبعون، وهذه أول غزوة أوقعها في أرض الغرب بعد صدوره من ثغر آزمور، ومنها أقصرت النصارى عن الخروج إلى الغابة، وضاق بهم الحال.

[٣٤٩]ثم إن السلطان زيدان لما بلغه اجتماع الناس على سيدي محمد العياشي بسلا وسلامته من غدرة قائده السنوسي بعث إلى قائده على عسكر الأندلس بقصبة سلا المعروف بالزعروري، وأمره باغتياله والقبض عليه، ففاوض الزعروري أشياخ الأندلس في ذلك، فاتفق رأيهم على أن يكون مع العياشي جماعة منهم عينًا عليه، وطليعة على نيته، واستخباراً لما هو عازم عليه، وما هو طالب له، فلازمه بعضهم،

وشعر العياشي بذلك فانقبض عن الجهاد ولزم بيته.

ثم إن الله أوقع النفرة بين السلطان زيدان وبين أهل الأندلس، وذلك أن السلطان المذكور كان قد بعث قبل ذلك إلى القائد الزعروري أن يجهز إلى درعة أربعمائة من أندلس سلا، فجهزهم إليها وطالت غيبتهم بها، ففر أكثرهم ونفرت قلوبهم عن الزعروري وسلطانه، فكان زيدان يبعث إلى أهل الأندلس بسلا بتجديد البعث إلى درعة فيأبون الانقياد إليه في ذلك وكرهوه وأزمعوا على خلع طاعته، ثم وشوا إليه بقائده الزعروري فبعث زيدان بالقبض عليه فقبض عليه ونهب أهل الأندلس داره، وكتبوا إلى السلطان بذلك مظهرين طاعته مكيدة ونفاقًا، فبعث إليهم مولاه وقائده المملوك عجيبًا فمكث بين أظهرهم مدة فلم يعبؤوا به وصاروا يهزؤون به، ثم عدوا عليه فقتلوه، فظهر منهم شق العصا على السلطان زيدان، وأظلم الجو بينه وبينهم، وبقي أهل سلا فوضى لا والي عليهم، وكثر النهب، وامتدت أيدي اللصوص إلى المال والحريم، وسيدي محمد العياشي ساكت لا يتكلم، واستمر الحال على ذلك إلى أن كان من أمره ما نذكره بعد هذا إن شاء الله.

[٣٥٠] ثورة أبي زكرياء بن عبد المنعم بالسوس ومغالبته لأبي حسون السملالي المعروف بأبي دميعة على تارودانت

كان الفقيه أبو زكرياء يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي لما رجع من مراكش إلى السوس - حسبما مر - بدا له في طلب الملك وجمع الكلمة لما رأى من افتراقها في حواضر المغرب وبواديه.

وكان المرابط أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن الولي الصالح أبي العباس أحمد بن موسى السملالي ويقال له أيضًا: أبو حسون قد ظهر بالصقع السوسي عند فشل ريح السلطان زيدان به واستولى على تارودانت وأعمالها.

[٣٥١] فلما ثار الفقيه أبو زكرياء سار إلى تارودانت فتغلب عليها وملكها من يد أبي حسون المذكور وبعد أن وقع بينه وبينه معارك ومقاتلات كبيرة، وكان القاضي بتارودانت يومئذ الفقيه العالم أبو مهدي عيسى بن عبد الرحمن السكتاني، وكان

أبو زكريا قد استشاره فيما عزم عليه فلم يوافقه على ذلك ولم يساعده على مراده لما فيه من الخروج على السلطان بلا موجب، فغضب عليه الفقيه أبو زكرياء حتى أمر بقتله غيلةً فيما قيل، فخرج القاضي من المدينة خائفًا يترقب، وذهب إلى مراكش فاستقر بها وعصمه الله منه وكتب إلى أبي زكرياء برسالة يعظه فيها وينهاه عن الخروج على السلطان ونصها:

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

يقول الفقير الشديد الحاجة إلى رحمة مولاه، الغني به عمن سواه، السائل منه التوفيق واللطف في ظعنه (١) ومأواه، كاتبه عيسى بن عبد الرحمن السكتاني عفا الله عنه وسمح له: الحمد لله الذي جعل الصدع بالحق وظيفة الأنبياء، وأورثه بعدهم من خلقه فريق العلماء، والصلاة والسلام على من أكد أمر الصلح وقال: «الدين النصيحة» فقيل: لمن يا رسول الله، فقال «لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» والرضا على آله وصحبه الذين سلكوا سبيله وانتهجوا من المناهج طريقه، وعن التابعين وتابع التابعين لهم إلى وقوع القصاص بين الخليقة، وبعد:

فإني لما قفلت بحمد الله بسلامة وعافية إلى جبلي وجدت أهلي وأولادي مستوحشين من البادية وإن كانت محل سلفي ومقر تلادي، بعد أن ألفوا الحواضر وطبعوا على طباعها فكانوا أحق بها، وكنت في غاية الضيق والتأسف لما حل بالأولاد فتذكرت قول بعض فقهاء الأندلس ممن نابه مثل ما نابني وأصابه مثل ما أصابني:

أليس من القبيح مقام مثلي	بدار الخسف منكسف الجَمال
أخالط أهل سائمة وسرح	وأرتع بين راعية الجِمال

فأجلت فكري، وإن كان الكل بقدر الله وإرادته، فرأيت أن ذلك ـ وفي القضاء لطف ـ أمر أنتجه، كما لا يخفى على ذي بصيرة، ما حل بالمغرب من افتراق الكلمة، وتلاعب شياطين الإنس والجن بذوي العقول منهم فصاروا أحزابًا وفرقًا، فاتبعت

(١) قلت: الظعن: الانتقال.

كل طائفة من هواها ما كانت تعبد، حتىٰ إذا عرض لعاقل أو عُرض عليه منهم الإقلاع بادره الشياطين فسدوا عليه بابه، وأروه بإغوائهم وزينوا له أن ذلك يشينه لدىٰ العامة ويوجب له السقوط من أعين الناس، مع أنه لا يعده من السقوط إلّا الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس، وأين يغيب عن الموفق أن السقوط من عين الله هو الطامة الكبرىٰ، وأين غاب عنه أن العبرة بكتاب الله وسنة رسولهﷺ لا بكلام الهمج الرعاع ممن لا يزال الشيطان يلعب به آخذًا بزمامه، ساكنًا علىٰ قلبه ولسانه، وأين يغيب عنه من كتاب الله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ - ٤١] فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون: هٰذه مصيبة عظيمة نزلت بمغربنا فافترق ملأهم، وقتلت سرواتهم، وانتهبت أموالهم، وهتكت حرمهم، ومزقت أعراضهم، وفسدت أديانهم، واختلت وبدت عن التوفيق آراؤهم، وكادت تطمع بل طمعت فيهم أعداؤهم، اللهم يا ذا الطول والامتنان، يا حنان يا منان، يا ذا الجلال والإكرام تداركنا بألطافك الخفية في ديننا ودنيانا يا خالق الأرض والسماء.

فإن قلت: ما ذكرته من أن خروجك من الحواضر إلىٰ البوادي هو نتيجة افتراق الكلمة كما فعله من يُقتدىٰ به من الصحابة ﷺ فتبدّىٰ صحيح، وما دليلك علىٰ التلاعب؟

قلت: ما خرجه أئمة الصحاح من منع الخروج علىٰ الأئمة، وأن الواجب في حق من رأىٰ منهم ما يكره الصبر والاحتساب إذ غائلة الجور - وإن تفاحش - أقل بكثير من غائلة الخروج الذي يترتب عليه فساد المهج والأموال والأعراض والأديان وهتك الحرم، ولهٰذا صبر علىٰ الحجاج من علماء الصحابة والتابعين من صبر حتىٰ لقوا الله - تعالىٰ - سالمي الأديان، وبعبادته مغتنمي الزمان، وتذكر، فما بالعهد من قدم، بالمرابط أبي مَحَلِّي كان في قطره عالي الصيت يقصد ويتبرك به ويعتقد فيه أنه من قطب زمانه، وبلغ به الحال إلىٰ أن سولت له نفسه أو سول لها أنه يصلح به ما لم يصلح بغيره من أهل الزمان فقام وأعانه عليه قوم آخرون حتىٰ ملأ الدنيا صياحًا ودعاوىٰ وعياطًا وأكاذيب لا يشهد لها عقل ولا نقل، فتمرد علىٰ المسلمين حتىٰ لم

يسلموا من لسانه ويده، فقتل ونهب، وسب واغتاب، وحمل نفسه ما لا تطيقه، فاستهوته شياطين الإنس والجن، والنفس والهوىٰ، ثم بعد ذلك كله لم يحصل من سعيه علىٰ طائل، وآفته الغفلة عن الكتاب والسنة والرضا عن النفس حتىٰ أنه حكمها فصارت تلعب به إلىٰ أن فاه وادعىٰ بدعاوىٰ استبيح بها ما كان معصوماً من دمه، وهلكت بسببه بعده نفوس وأموال وغير ذلك، أيشك من ارتاض بالكتاب والسنة ونظر بعين الشريعة أن فعله ذلك مما حمله عليه من تجب مخالفته من الشيطان والنفس والهوىٰ؟ وربما استحسن فعله ذلك من شيعته من ابتُلي به أو قلده تقليداً ردياً في فعله، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين، وإلىٰ الآن كانوا يستصوبون فعله ويستحسنون قوله مع أنه بمعزل عن الكتاب والسنة.

[٣٥٢] فإن قلت: وهٰذه طائفة الفقراء[١] ما بين متعصب متحزب، ومتحيل متصيد ومتسور علىٰ ما استأثر به الباري من الغيوب، مرتكب للآثام مصر علىٰ العيوب، قلت: وهٰذه طائفة الفقراء فيها جل ما تقدم وزيادات تضيق عن الإحاطة بها السطور والطروس قد بددتها ـ والعياذ بالله ـ الفتن، وشردها ما تخوفته من المحن، بانت العلوم، واضمحلت الفهوم، وتعطلت الرسوم، فلا منطوق يذكر ولا مفهوم:

هذا الزمان الذي كنا نحاذره في قول كعب وفي قول ابن مسعود

قلت: وهٰذا الشيخ أبو زكرياء، وهو الذي يساق إلىٰ نصحه الحديث، كنا نستسقي به ونستشفي، وكانت تشد إليه الرحال ولا يأنف من إتيانه النساء والرجال، قد أتته من أقطار مغربنا الوفود، ودانت له الذئاب والأسود، وكان يعلم الجهال ويهدي الضلال، ويطعم الجائع ويكسو العريان، ويعين ذا الحاجة ويغيث اللهفان، وهي سبيل يا لها من سبيل! وطريقة ما أحسنها من طريقة! ثم صارت تلك الجموع ـ وكان أمر الله قدراً مقدوراً ـ أيدي سبا، وتلاشت شذر مذر، ما لها من نبا.

أيها الشيخ، أكرمك الله بتسديده، أو تجد في الوجود ملكًا أعظم من ذلك الملك فتطلبه، أو سلطانًا يوازيه أو يقاربه فتحاوله، أين خفي عليك الشيء وهو ضروري؟ أم أين ضلت عنك النصوص من الكتاب والسنة وأنت منقولي معقولي؟﴿أَلَمْ يَأْنِ

---

(١) قلت: أي الصوفية.

لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦] ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [غافر: ١٠] و«إن أبغض الكلام إلى الله أن يقول الرجل للرجل: اتق الله فيقول: عليك نفسك»، وهو طرف من حديث خرجه النسائي.

وقد وعظتك وذكرتك إن نفعت الذكرى، قال جل من قائل: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

فقلت من التعجب ليت شعري:

أأيقاظ أمية أم نيام

فإن قال شيطان من شياطين الإنس أو الجن: هـٰذا ما أريد به وجه الله.

قلت: الله الموعد، إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وإن خطر هـٰذا وهجس بقلب الشيخ أكرمه الله، والشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، قلت: أدل دليل على أني قصدت محض النصيحة: هو أنه استنصحني على دفاع أبي مَحَلِّي فنصحته وقلت له: إن هـٰذا لا تستقيم معه الديانة، فكأنه ما قبل فانفصلت عنه وهو يقول: استخر لي الله، فكاتبته بأن لا يفعل، ثم لما نزل وكان على باب الغزو من تارودانت خلوت به فقلت له إذ ذاك: إن الناس يقولون كذا وكذا، وعرّفته إذ ذاك بما عرفته من أبناء الزمان، فجمعنا في رملة إلى الآن أتخيل حرها، وتبرأ من كل ما يقال، وما زلت على المنع إلى أن جاءت كراريس من قبل أبي مَحَلِّي فتأملتها فوجدتها مشتملة على كفريات في جزئيات، فيحتئذ شرح الله صدري لإباحة دفاعه.

ثم وإن قلت ذلك، فنفسي آمرة ولا أقول في نفسي ما كان يقوله سحنون في قضية ابن أبي الجواد: «مالي وله، الشرع قتله».

ولو قلت: أو غششت لغششت في قضية ذلك الرجل وزينت لك قتاله أولاً؛ لأن ذلك هو مقتضى التعصب للأمير، وإذا لم أتعصب إذ ذاك فكيف أستسهله الآن، فتعين أني نصحت لكم إن قبلتم، وإلا فكما قال تعالى عن نبي من أنبيائه: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩] أنشدك الله الذي بإذنه تقوم السماوات والأرض أما قلت لك بعد رجوعي العام الأول من مراكش بل الذي قبله: إن العذر لا يحسن؟ وصرحت ولوحت بأن شق العصا لا يحل غير مرة؟ وما كفاني القول

الدال على ذلك إلى أن زدت الفعل بالخروج من مدينة لا أبغضها كما قال:

فوالله ما فارقتها عن قِلاً لها وإني بشطي جانبيها لعارف

ورضيت بالبادية ـ مع جفائها ـ فراراً من الفتن، وعملاً بقوله ﷺ: «**يوشك أن يكون خير مال الرجل غنما يتبع به شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن**» ثم بعد، فعلى هذا كله نصحت فلم أفلح، وخانوا فأفلحوا، وعَدّوا علي من القبائح طاعتي للأئمة مع أنك يوم جاء إلى دارك قلت لهم: هذا أميركم، ونحن لا نشك أنك من المعتبرين في مغربنا وأن بيعتك لأحد لازمة لنا، وكذلك حين ذهبت إلى مراكش في وقعة أبي مَحلّي قد أراد أهل مراكش فأبيت، وأبحت البلاد لخدم الأمير وقلت لهم: إنه الأمير، وفهمه الناس عنك بلسان الحال وبلسان المقال ونصروه بمرأى منك ومسمع، أفتشكّ بعد أن كان منك هذا أنك مبايع وأنت قدوة؟ وإذا كان هذا فأي حجة لك على الأمير ولا على المأمورين؟ فمن زين لك قتاله فقد غشك إذ هو مسلم وابن مسلمين.

فإن قلت: موافقتي مشروطة بشروط لم يوف لي بها.

قلت: هب أنه لم يوف لك أفتستبيح قتاله لأجل ذلك؟ والرسول ﷺ يقول: «**إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار**» الحديث، فبالله أيها الشيخ ما تقول في هذا الحديث وأنظاره؟ وما تقول فيما انتُهب أو عسى أن ينتهب من أموال الناس وأخذ بغير حق وأنفق في سبيل الطاغوت والرسول ﷺ يقول: «**لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفس**» أو ما تستحي من ربك يوم تُسأل عن النقير والقطمير، ولست ممن خفي عليه ذلك كله فتعذر عند المخلوقين، أو ما علمت أن كثيراً من العوام يعتقد جواز ذلك إذ رآك ارتكبته فتكون قد سننت هذه السنة وضل بسبب ذلك كثير من الناس؟ أو ما خشيت دعوة المظلوم التي ما بينها وبين الله حجاب؟ أو ما كنت تعيّر من يرتكب مثل ذلك من الولاة وتتأسف عليه؟

لا تنه عن خلق وتأتيَ مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

أما انتبهت لما وقع لأهل درعة من النهب والسلب واسترقاق الأحرار وهتك الحرم؟ «**إن دماءكم وأعراضكم عليكم حرام**» الحديث، مع أن جلهم حملة القرآن وعامتهم بله، أفيليق بحق الصلحاء أن يسلط عليهم من لا يرحمهم؟ «**ولا تنزع**

الرحمة إلا من قلب شقي»، «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»، «من لا يَرحم لا يُرحم»، «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»، أو نسيت أنه يقتص للجمّاء من القرناء؟

وإن الظلم الذي لا يتركه الله ظلم الناس بعضهم لبعض؟

أفي علمك أن حسناتك تفي بما عليك من التبعات؟ أو أنه لا تباعة لأحد عليك؟

ولو كنت بدريًا لاحتمل أن يقال في شأنك ما قاله ﷺ لعمر: «وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر» فقال: «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم؟» أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

«والظلم ظلمات يوم القيامة» أو تستطيع أن تقتحم ظلمات الصراط وأنت مسؤول عن القيراط؟ وحتىٰ أهل تارودانت بلغنا أنه لم يغن في شأنهم الترويع بل بلغ بهم الحال والجور إلىٰ التقريع، فاتق الله أيها الشيخ ولا تكن كمن إذا قيل له: اتق الله أخذته العزة بالإثم، هـٰذا ما يتعلق ببعض حقوق الناس علىٰ العموم.

ويتعلق بحق كاتبه علىٰ الخصوص أنك أخذت عليه أن يؤدي الطاعة للأمير، ويرعىٰ ما هو من شيم المؤمنين من حسن العهد والتبري من الغدر وشق العصا بعد أن بذل وسعه في نصحك ونصح الأمير، وحاول بكليته علىٰ جمع الكلمة وتعب في ذلك واقتحم فيه عقبات لا يقطعها إلّا بازل [1]، ولا سبيل إليها لمن يكون في دينه وعمله مثلي ممن هو نازل:

لعمر أبيك ما نُسب المعلى	إلىٰ كرم وفي الدنيا كريم
ولكن البلاد إذا اقشعرت	وصَوّح نبتها رُعي الهشيم
إذا غاب ملاح السفينة فارتمت	بها الريح هوجا دبرتها الضفادع

ولكن ليس من شرط النصيحة كمال الناصح، كما أنه ليس من شرط تغيير المنكر عدم ارتكاب المغير ما غير؛ لأن هـٰذه طاعة وتلك أخرىٰ، والتوفيق بيد الله سبحانه، نعم بلغني مع ذلك وجُزم لي به أنك مع بذل النصح لك وللأمير - أصلح الله الجميع وأصلح ذات بينهم - أخذت علي بالرصَد في قفولي لصبيتي والرجوع

(١) قلت: الفتيّ من الإبل.

إليهم رعاية لما يجب ويندب من حقوقهم، وهل هـٰذا إلّا حكم الهوىٰ والشيطان، أعندك ما تستبيح به ذلك؟ مع أني والحمد لله أينما كنت لا أسعىٰ إلّا في مصلحة جهد الاستطاعة أو بث نصيحة حين لا أرىٰ من يبثها، أو إغاثة ملهوف حين تجب إغاثته، ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي...﴾ [المائدة: ٢٨]الآية، ولكن الله عز وجل يقول: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]، وفي التوراة: من حفر حفرة فليوسعها ولا تحفرن بئرًا تريد بها أخًا، فأين وجدت ما يسوغ لك ارتكاب مثل هـٰذا قولاً أو فعلاً أو إشارة أو تصريحًا أو تلويحًا؟ وأي جريمة توازي هـٰذه الجريمة؟ أو كبيرة من الآثام أكبر منها؟ والله الموعد، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، أين غاب عنكم أنها من الكبائر؟ وأين غاب عنكم قوله ﷺ «**إن الرجل ليتكلم بكلمة يهوي بها في النار سبعين خريفًا**»؟ أهـٰذا من أخلاق المؤمنين والصالحين؟ وأنت من بيت الصلاح، ما كان جدك يرضىٰ مثل هـٰذا ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ﴾ [مريم: ٢٨]، وهـٰذا ـ والله أعلم ـ نتيجة قرناء السوء، ولا تصحب من لا ينهضك حاله، ولا يدلك علىٰ الله مقاله، وإلىٰ هـٰذا ينتهي حق الصحبة أعني بذل النصح، إن الله يسأل عن صحبة ساعة ونحن صحبناك واعتقدناك ونصحناك ووعظناك «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا» فنصرناك بالرد إلىٰ الجادة، أين أنت من مولانا الحسن بن علي إذ تخلىٰ عن الأمر لابن عمه معاوية مع أنه هاشميّ علويّ فاطميّ إحدىٰ ريحانتي النبي ﷺ ومعاوية أموي يجمعهما عبد مناف؟ فتخلىٰ عن الإمارة مع أنه إمام وابن إمام وأصلح الله به ـ وهو سيد ـ بين فئتين عظيمتين من المسلمين، بعد أن كان يلقب بأمير المؤمنين، فقال له بعض أصحابه إذ سلم عليه: «يا عار المؤمنين»، فلم يكترث بذلك وقال: «النار أشد من العار» ألهمنا الله وإياكم رشد أنفسنا، وجعلنا وإياكم من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، انتهىٰ.

ولم يزل الفقيه أبو زكرياء مصمما علىٰ طلب جمع الكلمة إلىٰ أن اخترمته المنية، قال صاحب الفوائد ما صورته: قام الشيخ أبو زكرياء بجمع الكلمة والنظر في مصالح الأمة واستمر به علاج ذلك إلىٰ أن توفي ولم يتم له أمر انتهىٰ، وكانت وفاته ليلة الخميس سادس جمادىٰ الثانية من سنة خمس وثلاثين وألف بقصبة تارودانت وحمل من الغد إلىٰ رباط والده فدفن بجنبه، رحمه الله.

بقية أخبار السلطان زيدان وذكر وفاته رحمه الله

[٣٥٣] وقال اليفرني رحمه الله: كان السلطان زيدان من لدن مات أبوه المنصور وبويع هو بفاس في محاربة مع إخوته وأبنائهم، ومقاتلة مع القائمين عليه من الثوار الذين تقدم ذكر بعضهم، ولم يخل قط في سنة من سني دولته من هزيمة عليه أو وقيعة بأصحابه، ووقعت بينه وبين إخوته معارك يشيب لها الوليد، وكان ذلك سبب خلاء المغرب، وخصوصًا مدينة مراكش.

وكان زيدان فقيهًا مشاركًا متضلعًا في العلوم، وله تفسير على القرآن العظيم اعتمد فيه على ابن عطية والزمخشري.

وللسلطان زيدان شعر لا بأس به منه قوله:

فتنتنا سوالف وخدود ... وعيون مدعجات رقود

ووجوه تبارك الله فيها ... وشعور على المناكب سود

أهلكتنا الملاح وهي ظباء ... وخضعنا لها ونحن أسود

وكانت وفاته رحمه الله في المحرم فاتح سنة سبع وثلاثين وألف، ودفن بجانب قبر أبيه من قبور الأشراف قبلي جامع المنصور من قصبة مراكش، وترك عدة أولاد منهم: عبد الملك والوليد ومحمد الشيخ، وهؤلاء ولوا الأمر بعده.

الخبر عن دولة السلطان
أبي مروان عبد الملك بن زيدان رحمه الله

لما توفي السلطان زيدان - رحمه الله - في التاريخ المتقدم بويع بعده ابنه عبد الملك، ولما تمت له البيعة ثار عليه أخواه الوليد وأحمد فوقعت بينه وبينهما معارك وحروب إلى أن هزمهما واستولى على ما كان بيدهما من العدة والذخيرة.

[٣٥٤] ظهور أبي عبد الله العياشي بسلا ومبايعة أكابر عصره له على الجهاد والقيام بالحق

قد تقدم لنا انتقاض على السلطان زيدان فبقيت سلا فوضى لا والي بها، فكثر النهب وامتدت أيدي اللصوص إلى المال والحريم، وسيدي محمد العياشي ساكت لا يتكلم، وكثرت الشكايات من التجار والمسافرين بمخافة السبل وقطع الطرقات، فهرع الناس إلى أبي عبد الله المذكور من كل جانب، وكثرت وفوده، فشمر عن ساعد الجد وأظهر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولما طالبه الناس بالتقدم عليهم والنظر في مصالح المسلمين وأمور جهادهم مع عدوهم أمر أشياخ القبائل وأعيانها من عرب وبربر ورؤساء الأمصار أن يضعوا خطوطهم في ظهير [١] بأنهم رضوه وقدموه على أنفسهم والتزموا طاعته، وأن أي قبيلة خرجت عن أمره كانوا معه يداً واحدة على مقاتلتها حتى تفيء إلى أمر الله، فأعطوا بذلك خطوطهم في ظهير، وأنهم رضوه وقدموه على أنفسهم، ووافق على ذلك قضاة الوقت وفقهاؤه من تامسنا إلى تازا.

وكان الحامل له على طلب ذلك منهم: أنه بلغه عن بعض طلبة الوقت أنه قال لا يحل الجهاد إلّا مع الأمير، ففعل ذلك خروجاً من تلك الدعوى الواهية، وإلا فقد كتب له علماء الوقت كالإمام أبي محمد عبد الواحد بن عاشر بأن مقاتلة العدو الكافر لا تتوقف على وجود السلطان وإنما جماعة المسلمين تقوم مقامه [٢]، ولما كمل أمره وبايعه الناس على إعلاء كلمة الله ورد الظلم عن ضعفاء الأمة ضاق الأمر على عرب المغرب لاعتيادهم الفساد وعدم الوازع ومحبتهم الخلاف والفتنة، فنكث بيعته جماعة منهم فقاتلهم أبو عبد الله حتى ظفر بهم ثم عفا عنهم، وكانت عاقبة كل من بغى عليه خسراً.

وكان أهل سلا قد لقوا من نصارى المعمورة مضرة وشدة، فلما اجتمعت الكلمة

---

(١) قلت: أي مرسوم.

(٢) قال المحقق: بل في مقدمات ابن رشد ما نصه: «ويجاهَد العدو مع كل بر وفاجر، وقد قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر» هـ فكيف بهذا الولي الكبير ﵁ اهـ من إملاء مؤلفه؟!

على أبي عبد الله العياشي ورد الله كيد من نكث في نحره كان أول ما بدأ به أنه تهيأ للخروج إلى حلق المعمورة، واستعد لقتاله ومنازلة من فيه من النصارى طمعًا في فتحه فيتقوى المسلمون بذخائره، وكان المسلمون قد حاصروه قبل ذلك فلم يقدروا منه على شيء وصعب عليهم أمره، وكان أبو عبد الله إذا أراد الله أن يظفره بغنيمة رأى في منامه أنه يسوق خنازير أو نحوها، ولما سار بجموعه إلى الحلق ونزل عليه رأى قطعتين من الخنازير معها عنوز[1]، فكان من قضاء الله وصنعه أنه في صبيحة تلك الليلة قدمت سفن النصارى بقصد الدخول إلى الحلق فضيق عليهم رماة المسلمين الذين بالخندق، فأرادوا أن ينحرفوا إلى البحر فردهم البحر إلى ساحل الرمل هنالك فتمكن المسلمون منهم وقتلوا وسبوا، ووجدوا في الأغربة[2] زهاء ثلاثمائة أسير من المسلمين فأعتقهم الله، وأسر يومئذ من النصارى أكثر من ثلاثمائة، وقتل منهم أكثر من مائتين، وظفر المسلمون بقبطان من عظمائهم ففدى به الرئيس طابق رئيس أهل الجزائر، وكان عندهم محبوسًا في قفص من حديد.

ثم كانت غزوة الحلق الكبرى وكان من خبرها أن جيش أهل فاس خرجوا بقصد الجهاد فنزلوا بموضع يعرف بعين السبع، وكمنوا فيه ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع خرج النصارى إلى تلك الجهات على غرة فظفر بهم المسلمون، وكان النصارى لما خرج جيش أهل فاس أعلمهم بذلك مسلم عندهم مرتد، فأعطوه سِلَعًا وجاء بها إلى سلا بقصد بيعها والتجسس لهم على الخبر فأُخذ وقتل، وعميت عليهم الأنباء إذ كانوا ينتظرون من يرد عليهم فيخبرهم، ولما أبطأ عليهم خرجوا فلم يشعروا إلَّا بالخيل قد أحاطت بهم وقتل منهم نحو الستمائة، ولم ينج إلَّا القليل حتى لم يبت في الحلق تلك الليلة إلَّا نحو أربعين رجلاً منهم، وغنم المسلمون منهم أربعمائة من العدة، ولم يحضر أبو عبد الله العياشي في هذه الوقعة لأنه كان قد ذهب إلى طنجة حنقًا على يوم المسامير؛ لأن النصارى - خذلهم الله - كانوا قد صنعوا نوعًا من المسمار بثلاثة رؤوس تنزل على الأرض والرابع يبقى مرفوعًا، وبثوا ذلك في مجالات القتال مكيدة عظيمة تتضرر منها الفرسان والرجالة.

---

(١) قلت: جمع عَنَزة، وهي العصا.

(٢) قلت: أي السفن.

[٣٥٥] فلما رجع وأعلم بضعف من بقي بالحلق بعث إلىٰ أهل الأندلس بسلا يصنعون له السلالم كي يصعد بها إلىٰ من بقي في الحلق فيستأصلهم، فتثاقلوا عن صنعها غشًا للإسلام ومناوأة لأبي عبد الله، حتىٰ جاء المدد لأهل الحلق، وكانت تلك الرابطة بين أهل الأندلس والنصارىٰ متوارثة من لدن كانوا بأرضهم، فكانوا آنس بهم من أهل المغرب [1]، فلما أتىٰ أبو عبد الله بالسلالم لم تغن بعد شيئًا، ومن هنالك استحكمت البغضاء بينه وبين أهل الأندلس، وكان أهل الأندلس قد أعلموا النصارىٰ بأن محلة أبي عبد الله النازلة لمحاصرة الحلق ليست لها إقامة فبلغ ذلك أبا عبد الله فأقام عليهم الحجة، وشاور العلماء في قتالهم فأفتىٰ أبو عبد الله العربي الفاسي وغيره بجواز مقاتلتهم؛ لأنهم حادوا الله ورسوله ووالوا الكفار ونصحوهم؛ ولأنهم تصرفوا في مال المسلمين ومنعوهم من الراتب، وقطعوا البيع والشراء عن الناس وخصوا به أنفسهم، وصادقوا النصارىٰ وأمدوهم بالطعام والسلاح، وكان سيدي عبد الواحد بن عاشر لم يجب عن هٰذه القضية حتىٰ رأىٰ بعينه حين قدم إلىٰ سلا بقصد المرابطة، فرأىٰ أهل الأندلس يحملون الطعام إلىٰ النصارىٰ، ويعلمونهم بعورة المسلمين، فأفتىٰ حينئذ بجواز مقاتلتهم فقاتلهم أبو عبد الله وحكم السيف في رقابهم أيامًا إلىٰ أن أخمد بدعتهم، وجمع الكلمة بهم.

[٣٥٦] ولما وقعت غزوة الحلق الكبرىٰ قدمت الوفود علىٰ أبي عبد الله بقصد التهنئة بما منحه الله من الظفر فحض الناس علىٰ استئصال شأفة من بقي بالحلق من النصارىٰ، وعيّر العرب بترك الكفار في بلادهم، وكان ممن حضر من العرب جماعة من الخلط وبني مالك والتاغي والدخيسي وغيرهم، فقال لهم أبو عبد الله: والله والله إن لم تأخذكم النصارىٰ لتأخذنكم البربر، فقالوا: يا سيدي كيف يكون هٰذا وأنت فينا؟ فقال لهم: اسكتوا أنتم الذين تقطعون رأسي، فكان كذلك، وهٰذا من كراماته ﷺ، ثم صرف عزمه إلىٰ التضييق علىٰ نصارىٰ العرائش وشن الغارات عليهم، فتقدم في جمع من المسلمين وكمن بالغابة نحواً من سبعة أيام فخرجوا علىٰ حين غفلة فمكن الله من رقابهم، وكان في مدة كمونه بالغابة أخذ حناشا من عرب طليق يقال له: ابن عبود، والحناش في لسان عامة أهل المغرب هو الجاسوس، فأراد

(١) قلت: أعوذ بالله: وأين عقيدة الولاء والبراء؟!

عبد الله قتله، فقال له: استبقني وأنا تائب إلى الله، وأنا أنفع المسلمين إن شاء الله، فتركه فذهب إلى النصارى وكان موثوقًا به عندهم حتى كانوا يؤدون إليه الراتب، فقال لهم: إن أحياء العرب وحللها قد نزلوا بوادي العرائش فلو أغرتم عليهم لغنمتموهم، فخرجوا فمكن الله منهم وطحنهم المسلمون في ساعة واحدة طحن الحصيد، ولم ينج منهم إلّا الشريد، وكان ابن عبود قد بقي بأيديهم فأخذوه ومثلوا به ونزعوا أسنانه وأرادوا قتله لولا أنه رفعهم إلى شرعهم، وكان عدد من قتل من النصارى نحو ألف، وكانت هذه الوقعة سنة أربعين وألف.

بقية أخبار السلطان عبد الملك بن زيدان ووفاته

[٣٥٧] قال اليفرني: «كان عبد الملك بن زيدان فاسد السيرة، مطموس البصيرة، وبلغ من قلة ديانته أنه تزايد له مولود فأظهر أنه أراد أن يحتفل لسابعه، فبعث إلى نساء أعيان مراكش ونساء خدامه أن يحضرن، وصعد هو إلى منارة في داره فنظر إلى النساء وهن منتشرات قد وضعن ثيابهن فأيتهن أعجبته بعث إليها، وكان مدمنًا على شرب الخمر إلى أن قتله العلوج بمراكش وهو سكران يوم الأحد سادس عشر شعبان سنة أربعين وألف، ودفن إلى جانب قبر أبيه».

[٣٥٨] الخبر عن دولة السلطان أبي يزيد الوليد بن زيدان رحمه الله

لما قتل السلطان عبد الملك بن زيدان في التاريخ المتقدم بويع أخوه الوليد بن زيدان فلم يزل مقتصراً على ما كان لأخيه وأبيه من قبله، لم يجاوز سلطانه مراكش وأعمالها، وعظمت الفتن بفاس حتى عطلت الجمعة والتراويح من جامع القرويين مدة، ولم يصل به ليلة القدر إلّا رجل واحد من شدة الهول والحروب التي كانت بين أهل المدينة.

واقتسم المغرب في أيام أولاد زيدان طوائف، فكان حاله كحال الأندلس أيام طوائفها.

[٣٥٩] بقية أخبار السلطان
الوليد ابن زيدان ووفاته رحمه الله

كان الوليد بن زيدان متظاهراً بالديانة، لين الجانب حتى رضيته الخاصة والعامة، وكان مولعًا بالسماع لا ينفك عنه ليلاً ولا نهاراً، إلَّا أنه كان يقتل الأشراف من إخوته وبني عمه حتى أفنى أكثرهم، وكان مع ذلك محبًا في العلماء مائلاً إليهم بكليته، متواضعًا لهم.

وأما وفاته: فسببها أن جنده من العلوج طالبوه بمرتبهم وأعطياتهم على العادة وقالوا له: أعطنا ما نأكل، فقال لهم على طريق التهكم: كلوا قشر النارنج بالمسرة، فغضبوا لذلك وكمن له أربعة منهم فقتلوه غدراً يوم الخميس الرابع عشر من رمضان المعظم سنة خمس وأربعين وألف.

الخبر عن دولة السلطان
أبي عبد الله محمد الشيخ بن زيدان رحمه الله

لما قتل السلطان الوليد في التاريخ المتقدم اختلف الناس فيمن يقدمونه للولاية عليهم ثم أجمع رأيهم على مبايعة أخيه محمد الشيخ وإلقاء القيادة إليه فأخرجوه من السجن، وكان أخوه الوليد قد سجنه إذ كان يتخوف منه الخروج عليه، فبويع بمراكش يوم الجمعة الخامس عشر من رمضان سنة خمس وأربعين وألف، ولما بويع سار في الناس سيرة حميدة وألان الجانب للكافة، وكان متواضعًا في نفسه، صفوحًا عن الهفوات، متوقفًا عن سفك الدماء، مائلاً إلى الراحة والدعة، متظاهراً بالخير ومحبة الصالحين، إلَّا أنه كان منكوس الراية، مهزوم الجيش، وبسبب ذلك لم يصف له مما كان بيد أبيه وإخوته إلَّا مراكش وبعض أعمالها.

[٣٦٠] بقية أخبار
أبي عبد الله العياشي بسلا والثغور وما يتبع ذلك

كان أمر أبي عبد الله العياشي بسلا وسائر بلاد المغرب على ما وصفناه قبل من جهاد العدو والتضييق عليه والمصابرة له والإبلاغ في نكايته فانتعش به الإسلام

وازدهرت الأيام، ودخلت في طاعته القبائل والأمصار من تامسنا إلىٰ تازا، لا سيما فاس وأعلامها فإنهم قد شايعوه وتابعوه علىٰ ما كان بصدده من الجهاد والرباط، وحصل لهم بصحبته وولايته أتم اغتباط، ولم يزل في نحر العدو إلىٰ أن أمن سرب المسلمين وحق القول علىٰ الكافرين.

إيقاع أبي عبد الله العياشي بنصارىٰ الجديدة

[٣٦١] سبب هٰذه الغزوة كما ذكره الفقيه العلامة قاضي تامسنا أبو زيد عبدالرحمٰن بن أحمد الغنامي الشاوي المعروف بسيدي رحو الغنامي أن نصارىٰ الجديدة عقدوا المهادنة مع أهل آزمور مدة، فكان من عزة النصارىٰ وذلة المسلمين في تلك المدة ما تنفطر منه الأكباد، وتخر له الأطواد (١)، فمن ذلك: أن زوجة قبطانهم خرجت ذات يوم في محفتها ومعها صواحباتها إلىٰ أن وصلت حلة العرب فتلقاها أهل الحلة بالزغاريت والفرح، وصنعوا لها من الأطعمة وحملوا لها من هدايا الدجاج والحليب والبيض شيئًا كثيرًا فظلت عندهم في فرح عظيم، ولما كان الليل رجعت.

ووقع لها أيضًا: أنها أمرت القبطان زوجها، أن يخرج بجيشه ويبعث إلىٰ قائد آزمور أن يخرج بجيش المسلمين فيلعبوا فيما بينهم وهي تنظر إليهم بقصد الفرجة والنزهة فكان كذلك، فجعلوا يلعبون وهي تتفرج فيهم فما كان بأسرع من أن حمل نصراني علىٰ مسلم فقتله، فكلم قائد المسلمين القبطان وأخبره بما وقع، فقال له القبطان: فما يضركم إن مات شهيدًا، يهزأ بالمسلمين ويسخر منهم.

[٣٦٢] قال: وكان الولي الصالح العابد، الناسك الزاهد المجاهد، رافع لواء الإسلام، ومحيي منهاج النبي -عليه الصلاة والسلام- سيدي محمد العياشي كلما سمع شيئًا من ذلك تغير وبات لا يلتذ بطعام ولا منام، وهو يفكر كيف تكون الحيلة في زوال المعرة عن المسلمين بتلك الجهة وغسل أعراضهم من وسخ الإهانة، وهو مع ذلك يخاف من العيون الذين يرصدونه من صاحب مراكش، وقائد آزمور، ومن قبطان الجديدة، إذ كان ما خلف وادي أم الربيع إلىٰ مراكش باقيًا في دعوة السلطان

(١) قلت: أي الجبال.

لم يدخل في دعوة أبي عبد الله المذكور، فمكث كذلك ثلاث سنين، ولما رأىٰ أن الأمر لا يزيد إلَّا شدة أوعز إلىٰ بعض أولاد ذؤيب من أولاد أبي عزيز أن يجلبوا إلىٰ النصارىٰ شيئًا من القمح خفية وأن يكون ذلك شيئًا فشيئًا حتىٰ تطمئن نفوسهم ويذوقوا حلاوته ويوهمهم النصح والمحبة، فلما حصل ذلك جاءه جماعة منهم وأخبروه الخبر وأطلعوه علىٰ غرة النصارىٰ خذلهم الله، فعزم علىٰ قصد الجديدة ثم بدا له في تقديم غزو العرائش، ثم يأتي الجديدة بغتة، ففعل رحمه الله، وكان ذلك أوائل صفر سنة تسع وأربعين وألف.

[٣٦٣] ثم عزم علىٰ قصد الجديدة فذكروا له أن وادي أم الربيع في نهاية المد والامتلاء فلم ينته عن ذلك وسار حتىٰ بلغ الوادي المذكور فوجده ممتلئًا جدًا لا يكاد يدخله أحد إلَّا غرق، فقال لأصحابه وسائر من معه: توكلوا علىٰ الله واجتهدوا في الدعاء، ثم اقتحم الوادي بفرسه وتبعه الناس، فعبروا جميعًا ولم يتأذ منهم أحد، وكان الماء يصل إلىٰ قريب من ركب خيلهم، مع أن مد ذلك الوادي حين امتلائه لا يدرك له قعر عند الناس كما هو شهير، وهٰذه كرامة عظيمة وقعت له ﷺ وكان القاضي أبو زيد الغنامي حاضراً لها وشاهدها، ولم يقع مثل هٰذا فيما علمناه إلَّا للصحابة ﷺ، مثل ما وقع لسعد بن أبي وقاص في عبوره دجلة لفتح المدائن، ومثل ما وقع للعلاء بن الحضرمي في فتح بعض بلاد فارس، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ولما وصل أبو عبد الله إلىٰ الجديدة وجد طائفة من أولاد أبي عزيز قد نذروا به ولجؤوا إلىٰ القبطان خوفًا منه أن يوقع بهم لأجل مهادنتهم للكفار واتصالهم بهم فخرج القبطان في خيله، وكان سيدي محمد كامنًا بإزاء الجديدة بالغابة التي كانت هناك وقد زالت اليوم، فلما انفصل القبطان بجيشه عن الجديدة حمل عليهم أبو عبد الله فقطعهم عنها، ففروا إلىٰ جهة البحر فأوقع بهم فهلكوا ولم ينج منهم إلَّا سبعة وعشرون رجلاً.

ولما قدم سيدي محمد العياشي من هٰذه الغزوة سار إلىٰ فاس للنظر في أمرها لما هاج من الحرب بين أهلها، وقدم سيدي محمد العياشي فاسًا في آخر جمادىٰ سنة خمسين وألف فأصلح بينهم.

وبالجملة، فغزوات سيدي محمد العياشي ـ رحمه الله ـ كثيرة، وذبه عن الإسلام وحمايته للدين مما هو شهير عند الخاص والعام.

وكان ـ رحمه الله ـ عازمًا على أخذ العرائش فحال بينه وبينها انصرام الأجل، وكذلك كان ملحًا على أخذ طنجة فلم تساعده الأقدار.

[٣٦٤] مقتل أبي عبد الله العياشي رحمه الله والسبب فيه

قدمنا أن أهل الأندلس بسلا تحزبوا على أبي عبد الله العياشي ورموه عن قوس واحدة، وأنه كان قد اطلع على خبثهم ونصحهم للكفر وأهله، وأنه استفتى العلماء فيهم فأفتوه بإباحة قتال من هذه صفته، فقتل من وجد منهم وهرب أكثرهم، فهربت طائفة منهم إلى مراكش، وهربت طائفة إلى الجزائر، وأخرى إلى النصارى، وفرقة إلى زاوية الدلاء، فجاء أهل الدلاء يشفعون في أهل الأندلس فأبى أبو عبد الله أن يقبل فيهم الشفاعة وقال: إن الرأي في استئصال شأفتهم، فلما رأى أهل الدلاء امتناعه ورد شفاعتهم غضبوا لذلك وأجمعوا على حربه، فخرج إليهم أبو عبد الله العياشي فأوقع بهم وهزم جموعهم.

[٣٦٥] وكان الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الدلائي يطيل الثناء على أبي عبدالله العياشي، ويذيع محاسنه، وكان يقول في دعائه:

«اللَّهم اجزِ عنا سيدي محمد العياشي أفضل المجازاة، وكافئه أحسن المكافأة، واجعل مكافأتك له كشف الحجب عن قلبه حتى تكون أقرب إليه منه، اللهم لا تحرمه توجهه إليك وانقطاعه لخدمتك، اللهم نفس كربته، وكمل رغبته، وأجب دعوته، وسدد رميته، واردد له الكرة على من عاداه في الحق، إنك على كل شيء قدير».

ثم ذهب أبو عبد الله العياشي إلى طنجة بقصد الجهاد فلما قفل من غزوه وجد البربر من أهل الدلاء قد وصلوا إلى أطراف أزغار، وعزموا على مصادمة أبي عبدالله فأراد أن يغض الطرف عنهم ويصرف عنانه عن جهتهم فلم يزل أصحابه به إلى أن برز لمقاتلتهم فلما التقى الجمعان كانت الدبرة على أبي عبد الله العياشي وقتل فرسه تحته، فرجع إلى بلاد الخلط، فرجعت البربر إلى أوطانهم، وبقي أبو عبد الله

العياشي عند الخلط أيامًا، ثم غدروا به فقتلوه بموضع يسمى عين القصب واحتزوا رأسه، وحمله بعضهم إلى سلا.

[٣٦٦] ومن كراماته المتواترة أنهم لما حملوا الرأس سمعوه ليلاً وهو يقرأ القرآن جهاراً حتى علمه جميع من حضر، فردوه إلى مكانه وتاب بسببه جماعة من الناس.

[٣٦٧] ولما قتل أبو عبد الله العياشي فرح النصارى بمقتله غاية الفرح، وأعطوا البشارة على ذلك، وعملوا المفرحات ثلاثة أيام، وكان مقتله رحمه الله تاسع عشر المحرم سنة إحدى وخمسين وألف، وحدث رجل أنه كان بالإسكندرية فرأى النصارى يومئذ يفرحون فسألهم فقالوا له: قتل سانطو بالمغرب.

[٣٦٨] وفي «الرحلة» لأبي سالم العياشي قال: أخبرني الشيخ محمد الفزاري بمكة قال: كان بالمدينة المشرفة رجل مغربي من أهل القصر في السنة التي قتل فيها الولي الصالح المجاهد سيدي محمد بن أحمد العياشي قال: فجاءني ذات يوم وقال لي: إني رأيت في النوم أختي ورأيت رجلاً جالسًا مقطوع اليد تسيل دمًا، فقلت له: من أنت؟ قال: الإسلام، قطعت يدي بسلا، قال: فلما أخبرني قلت له: الذي يظهر لي من رؤياك أن الرجل الصالح المجاهد الذي كان بسلا قد قتل، قال: وبعد ذلك في آخر السنة قدم حجاج المغرب فأخبرونا بموته.

ويحكى أنه وجد مقيداً بخط أبي عبد الله العياشي المذكور أن جملة ما قتله من الكفار في غزواته سبعة آلاف وستمائة وسبعون ونيف (١).

[٣٦٩] وكان ـ رحمه الله ـ مجاب الدعوة، ما دعا الله في شيء إلَّا استجيب له، شوهد ذلك منه مراراً، ومن أدعيته المحفوظة عنه:

«اللهم إني أسألك باسمك السريع المجيب، الذي خزنت فيه فواتح رحمتك، وخواتم إرادتك، وسرعة إجابتك، يا سريع لمن قصده، يا قريب ممن سأله، يا مجيب من دعاه، أسرع لي بقضاء حاجتي، وبلوغ إرادتي، يا سميع يا مجيب، يا سريع، يا قريب، آمين آمين آمين يا رب العالمين».

وكان فقيهًا مشاركًا في الفنون، وله أتباع ظهرت عليهم بركاته.

---

(١) قلت: الله أكبر، أمثل هذا يقتل؟ يا حسرة على المسلمين.

وفاة السلطان
محمد الشيخ بن زيدان رحمه الله

كانت وفاة السلطان محمد الشيخ بن زيدان رحمه الله سنة أربع وستين وألف.

الخبر عن دولة السلطان
أبي العباس أحمد بن محمد الشيخ بن زيدان رحمه الله

لما توفي السلطان محمد الشيخ بويع ابنه أبو العباس أحمد، والعامة يقولون مولاي العباس بدون لفظ الكنية، وقام مقام أبيه في جميع ما كان بيده إلَّا أن حي الشبانات، وهم أخواله، قويت شوكتهم في أيامه وغلظ أمرهم عليه، ووثبوا علىٰ الملك وراموا الاستبداد به، فضايقوه وحاصروه بمراكش أشهراً.

ولما رأت أمه أن الأمر لا يزيد إلَّا شدة كلمته في أن يذهب إلىٰ أخواله ويأخذ بقلوبهم ويزيل ما في نفوسهم عليه، فذهب إليهم فلما تمكنوا منه قتلوه غيلة، وأقبلوا إلىٰ مراكش مسرعين وبايعوا فيها لأميرهم عبد الكريم بن أبي بكر الشباني ثم الحريزي.

وكان مقتل السلطان أبي العباس ـ رحمه الله ـ سنة تسع وستين وألف، وبمهلك السلطان أبي العباس ـ رحمه الله ـ انقرضت دولة السعديين من آل زيدان، وانهار جرفها وانطوىٰ بساطها، وسبحان من لا يبيد ملكه ولا يزول سلطانه لَا إلـٰه إلَّا هو العزيز الحكيم.

الخبر عن دولة الشبانات بمراكش وأعمالها
وما آل إليه أمرها من دثورها واضمحلالها

لما قتل السلطان أبو العباس أحمد بن محمد الشيخ بن زيدان ثار كبير حي الشبانات بمراكش من عرب معقل، وهو الرئيس عبد الكريم بن القائد أبي بكر الشباني ثم الحريزي، وحريز فخذ منها هي النبعة والصميم فيها، وعبد الكريم هـٰذا

يعرف عند العامة بكروم الحاج، فدخل مراكش، ودعا الناس إلى بيعته فبايعوه بها سنة تسع وستين وألف، وانتظمت له مملكة مراكش ونواحيها، وسار في الناس سيرة حميدة، وكان في أيامه الغلاء المؤرخ بعام سبعين وألف، وهو غلاء مفرط بلغ الناس فيه غاية الضرر حتى أكلوا الجيف، ولم يزل مستقيم الرأي بمراكش إلى أن توفي بها سنة تسع وسبعين وألف.

ولما توفي بايع الناس ولده أبا بكر ابن عبد الكريم فبقي إلى أن قدم المولى الرشيد وتقبض عليه وعلى عشيرته فقتلهم، ثم تتبع الشبانات فأفناهم قتلاً وأخرج عبدالكريم من قبره فأحرقه بالنار، وانقرضت دولة الشبانات والبقاء لله وحده.





الجزء السابع

الدولة العلوية

«القسم الأول»

الدولة العلوية

القسم الأول

الخبر عن دولة الأشراف السجلماسيين من آل علي الشريف وذكر نسبهم وأوليتهم

اعلم أن نسب هٰذه الدولة الشريفة العلوية من أصرح الأنساب، وسببها المتصل برسول الله ﷺ من أمتن الأسباب، وأول ملوكها ـ كما سيأتي ـ هو المولىٰ محمد بن الشريف بن علي الشريف المراكشي.

وعن الشيخ أبي العباس أحمد بن عبد الله بن معن الأندلسي أنه كان يقول: ما ولي المغرب بعد الأدارسة أصح نسبًا من شرفاء تافيلالت.

وبالجملة، فإن شرف هٰؤلاء السادة السجلماسيين مما لا نزاع في صراحته، ولا خلاف في صحته عند أهل المغرب قاطبة بحيث جاوز حد التواتر بمرات، ﷺ ونفعنا بهم وبأسلافهم آمين.

دخول المولى حسن بن قاسم إلى المغرب واستيطانه بسجلماسة والسبب في ذلك

قالوا: إن أصل سلف هٰؤلاء السادة ﷺ من ينبع النخل من أرض الحجاز.

وكان أول من دخل منهم المغرب: المولىٰ حسن بن قاسم، وكان دخوله إليه في أواخر المائة السابعة وكان يومئذ من أبناء الستين ونحو ذلك.

[٣٧٠] واختلفوا في السبب الداعي إلىٰ دخول هٰذا السيد إلىٰ المغرب، فذكر صاحب كتاب «الأنوار السنية فيما بسجلماسة من النسبة الحسنية» أن سبب دخوله أن ركب الحاج المغربيّ كان يتوارد علىٰ الأشراف هنالك، وكان شيخ الركب في بعض القدْمات رجلاً من أهل سجلماسة يظن أنه السيد أبو إبراهيم، فلما حج اجتمع بالمَوسم بالسيد حسن المذكور، وكانت سجلماسة وأعمالها يومئذ شاغرة من سكنىٰ الأشراف فلم يزل أبو إبراهيم يحسن للمولىٰ حسن موطن المغرب والسكنىٰ

بسجلماسة حتى استماله فأجمع السير مع الركب، وقدم به أبو إبراهيم فاستوطن ببلدهم سجلماسة.

وكان المولى حسن الداخل رجلاً صالحًا ناسكًا، له مشاركة في العلوم خصوصًا علم البيان فإنه كانت له فيه اليد الطولى.

ذكر ذرية المولى حسن بن قاسم وتناسلها بالمغرب والإلمام بشيء من مناقب المولى علي الشريف

لما توفي المولى حسن بن قاسم رحمه الله لم يخلف إلَّا ولدًا واحدًا، وهو المولى محمد، ثم خلف المولى محمد هذا ولدًا واحدًا أيضًا، وهو المولى الحسن يسمى باسم جده، وخلف المولى الحسن المذكور ولدين:

أحدهما: المولى عبد الرحمن المكنَّى بـ «أبي البركات»، وهو أكبرهما، ومن ذريته أولاد أبي حميد بالتصغير القاطنون بوادي الرتب بالقصر الجديد على مرحلة من سجلماسة، ومنهم أيضًا الشرفاء النازلون ببني زروال.

وثانيهما: المولى علي المعروف بالشريف ومنه تفرعت فروع المحمديين وتكاثرت، وكان ـ رحمه الله ـ رجلاً صالحًا مجاب الدعوة، كثير الأوقاف والصدقات، حاجًا مجاهدًا، ذا همة سنية وأحوال مرضية.

[٣٧١] ودخل الأندلس برسم الجهاد مرارًا، وأقام بها مدة طويلة ثم عاد إلى سجلماسة، فكاتبه أهل الأندلس يطلبون منه العود إليهم، ويحضونه على الاعتناء بأمور الجهاد، ويشكون إليه ضعف أهل الأندلس عن مقاومة العدو، وأنها شاغرة ممن تجتمع عليه القلوب، وقد كانوا راودوه، وهو مقيم عندهم، على أن يبايعوه ويملكوه عليهم والتزموا له الطاعة والنصرة فرغب عن ذلك ورعًا وزهدًا وعزوفًا عن الدنيا وزهراتها، قال اليفرني رحمه الله: وقد وقفت على رسائل عديدة بعث بها إليه علماء غرناطة يحضونه على الجواز إليهم واستنفار المجاهدين إلى حماية بيضتهم ويذكرون له أن كافة أهل غرناطة من علمائها وصلحائها ورؤسائها قد وظفوا على أنفسهم من خالص أموالهم دون توظيف سلطان عليهم أموالاً كثيرة برسم الغزاة الذين يردون معه من المغرب.

[٣٧٢] وكتبوا مع ذلك إلى علماء فاس يلتمسون منهم أن يحضوا المولى عليًا على العبور إلى العدوة فكتب إليه أعلام فاس بمثل ذلك وحثوه على المسارعة إلى إغاثتهم، وذكروا له فضل الجهاد وأنه من أفضل أعمال البر، وكان من موجبات تخلفه عن إغاثة أهل غرناطة أنه كان قد عزم على الذهاب إلى الحج فقالوا له في بعض تلك الرسائل: وعوضوا هٰذه الوجهة الحجية التي أجمع رأيكم عليها، وتوفر عزمكم لديها بالعبور إلى الجهاد فإن الجهاد - أصلحكم الله - في حق أهل المغرب أفضل من الحج كما أفتى به الإمام ابن رشد - رحمه الله - حين سئل عن ذلك، وقد بسط الكلام عليه في أجوبته ووجه ما ذهب إليه من ذلك. اهـ.

وقد كان للمولى علي المذكور جهاد في ناحية أكدج من بلاد السودان ورزق الظفر والفتح كما ذكره مبسوطًا في «النزهة» فلينظر هناك.

ولد للمولى علي المذكور ثلاثة من الولد وهم: السيد محمد والسيد محرز والسيد هاشم، وكلهم قد عقبوا، فأما المولى محمد فولد له المولى علي الشريف المراكشي وهو المثلث مع عدة أولاد سواه، والمولى علي هو جد الملوك أيضًا وتوفي بمراكش، وولد للمولى علي الشريف المذكور تسعة من الولد المولى الشريف اسمًا، وكانت ولادته سنة سبع وتسعين وتسعمائة وهو جد الملوك.

[٣٧٣] وقال اليفرني في «النزهة»: «كان أبو الأملاك المولى الشريف بن علي وجيهًا عند أهل سجلماسة وسائر المغرب يقصدونه في المهمات ويستشفعون به في الأزمات، ويهرعون إليه فيما جَلّ وقَلّ».

[٣٧٤] قال: وكان قد مر ذات يوم وهو صبي على الإمام المولى أبي محمد عبدالله بن علي بن طاهر الحسني فسأل عنه إذ لم يكن يعرفه قبل ذلك، فقيل له: هو ابن المولى علي الشريف ففرح به أبو محمد ومسح على ظهره وقال: ماذا يخرج من هٰذا الظهر من الملوك والسلاطين، فعلم الناس أن ذلك كائن لا محالة لما يعلمون من صحة كشف أبي محمد وصدق فراسته، فكان المولى الشريف بعد أن كبر وولد له الأولاد يشيع أن هٰذا الأمر لا بد أن يصير إلى بيته ويكون لهم شأن عظيم اعتمادًا على فراسة أبي محمد بن طاهر، رحمه الله.

ثم كان بين المولى الشريف المذكور وبين أهل تابوعصامت - وهي حصن منيع من

حصون سجلماسة - عداوة تامة، فاستصرخ عليهم أبا حسون السملالي صاحب السوس لصداقة كانت بينهما، واستصرخ أهل تابوعصامت أهل زاوية الدلاء، فأغاث كل منهما من استصرخه، والتقى العسكران معًا بسجلماسة لكنهما انفصلا على غير قتال حقنًا لدماء المسلمين، وكان ذلك سنة ثلاث وأربعين وألف، ولما رأى أهل تابوعصامت ما بين المولى الشريف وأبي حسون من الصداقة والوصلة مالوا بكليتهم إلى أبي حسون وخدموه بأنفسهم وأولادهم وأظهروا له النصح وصدق المحبة طمعًا في استفساده على المولى الشريف إذ كان ظاهرا عليهم به، فلم يزالوا يسعون في ذلك إلى أن أظلم الجو بينهما واستحكمت العداوة وتوفرت دواعيها.

[٣٧٥] ولما رأى ابنه المولى محمد بن الشريف ذلك اهتبل الغرة في أهل تابوعصامت، وخرج ليلاً في نحو مائتين من الخيل مظهرًا أنه قاصد لبعض النواحي ثم كبسهم على حين غفلة وتسور عليهم حصنهم فما راع أهل تابوعصامت إلّا المولى محمد في جماعة قد وضعوا السيف فيهم وحكموه في رقابهم، فلم يكن عندهم دفاع، واستمكن منهم واستولى على ذخائرهم، وشفى صدر أبيه مما كان يجده عليهم، ولما انتهى الخبر بذلك إلى أبي حسون حمي أنفه واشتد غضبه، وكتب إلى عامله بسجلماسة يأمره أن يحتال على المولى الشريف حتى يقبض عليه ويبعث إليه به حبيسًا، فامتثل أمره وتقبض على المولى الشريف غدرًا بأن تمارض ثم استدعاه لعيادته والتبرك به، ثم قبض عليه وبعث به إلى السوس فاعتقله أبو حسون في قلعة هنالك مدة إلى أن افتكه ولده المولى محمد بمال جزيل، وعاد المولى الشريف إلى سجلماسة في خبر طويل وكان ذلك كله في حدود سنة سبع وأربعين وألف.

الخبر عن إمارة المولى

محمد بن الشريف وبيعته بسجلماسة والسبب في ذلك

[٣٧٦] لما قبض أبو حسون على المولى الشريف وسجنه عنده كان ولده المولى محمد «بفتح الميم» مجمعًا على إهلاك من بقي من أهل تابوعصامت واستئصال شأفتهم، وكان قد تقوى عضده بعض الشيء بما أخذ من أموالهم في الوقعة السالفة فاتخذ بعد تغريب أبيه إلى السوس جيشًا لا بأس به، وانضم إليه جمع من أهل سجلماسة وأعمالها، وذلك سنة خمس وأربعين وألف، وكان أصحاب أبي حسون

قد أساؤوا السيرة بسجلماسة ونصبوا حبالة الطمع في الناس حتى ملتهم القلوب، وزرعوا بغض الملكة السوسية في قلوب الخاصة والعامة، ومن عَسْفهم أنهم كانوا قد ضربوا الخراج بسجلماسة وأعمالها على كل شيء حتى على من يجدونه في الشمس زمن الشتاء! وفي الظل زمن الصيف! وضيقوا على الناس حتى ازدرتهم العيون وملتهم النفوس، فلما قام المولى محمد واجتمع عليه من ذكرناه آنفًا دعاهم إلى الإيقاع بأهل السوس فأجابوه، ووجد فيهم داعية لذلك، فاعصوصبوا عليه وصرفوا عزمهم إلى محو دعوة أبي حسون من بلادهم، فثاروا بعماله للحين وأخرجوهم عنها صاغرين بعد قتال شديد، ثم أجمع رأيهم على بيعة المولى محمد فبايعوه سنة خمسين وألف في حياة أبيه ووافق على بيعته أهل الحل والعقد بسجلماسة فاستتب أمره واستحكمت بيعته ووافقه المقدر، وساعده السعد، وافتتح من ملك المغرب بابه، وإذا أراد الله أمرًا هيأ أسبابه.

[٣٧٧] استيلاء المولى محمد بن الشريف على درعه وطرده أبا حسون السملالي عنها

لما تمت البيعة للمولى محمد بن الشريف وجمع الله سبحانه شمله بأبيه - كما مر - شمر لمضايقة أبي حسون السملالي وأهل السوس ببلاد درعه إذ كانت تحت ولايته، فنهض إليه في جمع كثيف، ووقعت بينهما حروب فظيعة يشيب لها الوليد، ثم انقشع سحاب تلك الفتنة عن انتصار المولى محمد وانهزام أبي حسون وفراره إلى مسقط رأسه من أرض السوس فاستولى المولى محمد على درعه وأعمالها، واتسعت إيالته وتوفرت جموعه وعظمت جبايته وطار في بلاد المغرب صيته.

[٣٧٨] وقعة القاعة بين المولى محمد بن الشريف وأهل زاوية الدلاء وما نشأ عنها

لما صفا للمولى محمد بن الشريف قطر سجلماسة ودرعه حدثته نفسه بالاستيلاء على المغرب؛ إذ هو يومئذ مقر الرياسة ومتبوأ الخلافة، فما دام لم يحصل عليه استيلاء فالملك عرضة للزوال، وصاحبه ناسج على غير منوال، وكان الرئيس أبو عبد الله محمد الحاج الدلائي يومئذ مستوليًا على فاس ومكناسة وأعمالهما

وامتدت ولايته بعد مهلك أبي عبد الله العياشي إلى سلا وأعمالها، فلما ظهر المولى محمد بالصحراء واستفحل أمره وقويت شوكته خاف محمد الحاج منه الوثوب على فاس فعاجله بالحرب وعبر إليه نهر ملوية وكان الدلائي أشد قوة من الشريف وأكثر جمعًا، فضايقه بإقليم الصحراء وقصد سجلماسة مرارًا، وكانت بينهما أثناء ذلك وقعة القاعة ضحى يوم السبت الثاني عشر من ربيع النبوي سنة ست وخمسين وألف، فكانت الهزيمة فيها على الشريف، وتقدم الدلائي إلى سجلماسة فافتتحها، واستولى عليها، وفعلت البربر فيها الأفاعيل العظيمة.

ثم انبرم الصلح بينهما على أن ما حازت الصحراء إلى جبل بني عياش فهو للمولى محمد، وما دون ذلك إلى ناحية الغرب فهو لأهل الدلاء، ثم استثنى أهل الدلاء خمسة مواضع أخر كانت في إيالة المولى محمد فجعلوها لهم.

وانبرم الصلح على ذلك ورجع أهل الدلاء في جموعهم فما كان غير بعيد حتى اطلع المولى محمد على ما أوجب الفتك ببعض من شرطوا عليه بقاءه ففتك بهم واصطلم نعمتهم، فبلغ ذلك أهل الدلاء فجمعوا جموعهم ونهضوا إلى سجلماسة عازمين على استئصال المولى محمد وشيعته، وأن لا يدعوا له قليلاً ولا كثيرًا، وكتبوا إليه كتابًا يتهددونه فيه، ورموه بالغدر، وأنه ناكث ومقسم حانث، وأغلظوا له في الكلام، وأفحشوا عليه في الملام.

استيلاء المولى
محمد بن الشريف على فاس ثم رجوعه عنها

كان محمد الحاج الدلائي مستوليًا على فاس بعد سيدي محمد العياشي - كما قلنا - وكان أهل فاس يمرضون في طاعته تارة ويستقيمون أخرى، فولى عليهم قائده أبا بكر الشاملي وأنزله بدار الإمارة من فاس الجديد، فاتفق أن وقعت بينه وبين أهل فاس القديم حرب فحاصرهم وقطع عنهم الماء، فكتب أهل فاس إلى المولى محمد بن الشريف يستصرخونه ويضمنون له الطاعة والنصرة بما شاء من عدد وعدة متى قدم عليهم واحتل بين أظهرهم، ووافقهم على ذلك عرب الغرب من الخلط وغيرهم، فاغتنمها المولى محمد منهم وأقبل مسرعًا حتى اقتحم دار الإمارة بفاس

الجديد منسلخ جمادى الثانية سنة ستين وألف، وقبض على أبي بكر التاملي فسجنه وبايعه أهل البلدين فاس القديم وفاس الجديد معًا، واتفقوا على نصرته والقيام بأمره، وكتبت له البيعة بفاس سابع رجب فأقام عندهم نحو أربعين يومًا.

واتصل الخبر بمحمد الحاج فجهز إليه جيشًا كثيفًا فبرز إليهم المولى محمد ودافعهم يومًا أو بعض يوم فضعف عنهم وانهزم بظهر الرمكة خارج فاس فأسلم فاسًا وانكفأ راجعًا إلى سجلماسة، ودخل أهل فاس الذين كانوا معه مدينتهم فأغلقوها عليهم.

وحاصرهم التاملي وأصحابه وقطع عنهم الماء وجرت خطوب هلك فيها جماعة من أعيان فاس وكان ذلك أواخر صفر سنة إحدى وستين وألف، ثم راجعوا طاعة أهل الدلاء فولى عليهم الحاج ولده أحمد.

[٣٧٩] استيلاء المولى محمد الشريف على وجدة وشنه الغارات على تلمسان وأعمالها وما نشأ عن ذلك

لما أيس المولى محمد بن الشريف من فاس والمغرب صرف عزمه لتمهيد عمائر الصحراء وبلاد الشرق، فسار إلى بني يزناسن، وكانوا يومئذ في ولاية الترك فأغار عليهم وانتهب أموالهم وامتلأت أيد العرب من مواشيهم، ثم انثنى إلى وجدة وكان أهلها يومئذ حزبين بعضهم قائم بدعوة الترك، وبعضهم خارج عنها، فانحاز الخارجون إلى المولى محمد فأغراهم بشيعة الترك فانتهبوهم وشردوهم عن البلد، وصفت وجدة له فاستولى عليها، وكان ذلك أعوام الستين وألف، ثم توجه إلى تلمسان فأغار على سرحها وسرح القرى المجاورة لها واكتسح بسائطها، فبرز إليه أهلها ومعهم عسكر الترك الذي كان بالقصبة فأوقع بهم وقتل منهم عددًا كثيرًا، ورجع عوده على بدئه إلى وجدة فشتى بها.

واضطربت أحوال المغرب الأوسط، واشرأبت رعاياه إلى الانتفاض على الترك، وأخذ باي معسكر يخندق على نفسه، وبعث إلى صاحب الجزائر المسمى عندهم بالدولة يخبره بما لحق الرعايا من عيث صاحب سجلماسة فأخرج صاحب الجزائر عساكره وهيأ مدافعه واستعد لحرب المولى محمد وقدم نائبه بالعساكر إلى

تلمسان فلما سمع به المولىٰ محمد قفل إلىٰ سجلماسة، ولما وصل عسكر الترك إلىٰ تلمسان وأخبروا برجوع المولىٰ محمد إلىٰ تافيلالت سقط في أيديهم، ووجدوا البلاد خالية وكل الرعايا قد أجفلت عن أوطانها، وتحصنوا بالجبال، ولم يأتهم أحد بمؤنة ولا خراج، وانحرف عنهم أهل تلمسان أيضًا، وكانوا قد ركنوا إلىٰ المولىٰ محمد وخاطبوه، فرأىٰ الترك أنهم قد شوركوا في بلادهم وزوحموا في سلطانهم، فرجعوا إلىٰ الجزائر.

[٣٨٠] مراسلة عثمان باشا صاحب الجزائر للمولى محمد بن الشريف وما دار بينهما في ذلك

لما رجع عسكر الترك إلىٰ الجزائر وأخبروا صاحبها عثمان باشا الدولة بحال الرعايا وما نالها من صاحب سجلماسة جمع أهل ديوانه وأرباب مشورته وتفاوضوا في أمر المولىٰ محمد وكيف التخلص من سطوته، فلم يروا أجدىٰ لهم من أن يبعثوا إليه برسالة مع اثنين من أعيان الجزائر وعلمائها، واثنين من كبار الترك ورؤسائها؛ لأنهم كانوا لا يتمكنون من حربه، لو أرادوا ذلك، لأنه يغير ويظفر وينتهب ثم يصحر فلا يمكنهم التعلق بأذياله، ولا قطع فراسخه وأمياله، فبعثوا إليه برسالة، ولما وصلت الرسل إلىٰ المولىٰ محمد وقرأ الكتاب اغتاظ مما تضمنه من العتاب، فأحضر الرسل وعاتبهم علىٰ قول مرسلهم وتحامله عليه فقالوا له: نحن أتيناك سفراء برسالة باشا الجزائر فاكتب لنا الجواب، ولا تقابلنا بعتاب، فقال: صدقتم، فكتب إليهم بكتاب ولم يجبهم إلىٰ ما أرادوا.

ولما رجعوا برسالته إلىٰ صاحب الجزائر قرأها بمحضر أرباب الديوان ثم ردهم في الحين دون كتاب، ولما قدموا علىٰ المولىٰ محمد ثانية قالوا له: إنه لم يكن لنا علم بما في الكتاب، ولو اكتفينا به ما رجعنا إليك، نحن جئناك لتعمل معنا شريعة جدك وتقف عند حدك، فما كان جدك يحارب المسلمين، ولا يأمر بنهب المستضعفين، فإن كان غرضك في الجهاد، فرابط علىٰ الكفار الذين هم معك في وسط البلاد، وإن كان غرضك في الاستيلاء علىٰ دولة آل عثمان فابرز إليها واستعن بالرحيم الرحمـٰن، فلا يكن عليك في ذلك ملام، فهـٰذا ما جئنا له والسلام، وأما إيقاد نار

الفتنة بين العباد فليس من شيم أهل البيت الأمجاد، ولا يخفى عليك أن ما تفعله حرام لا يجوز في مذهب من مذاهب المسلمين ولا قانون من قوانين الأعجام، وهٰذان فقيهان من علماء الجزائر قد جاءا إليك حتى يسمعا منك ما تقوله، ويحكم الله بيننا وبينك ورسوله، فقد تعطلت تجارتنا، وأجفلت عن وطننا رعيتنا، فما جوابك عند الله في هٰذا الذي تفعله في بلادنا، وأنت ابن رسول الله ﷺ مع أنه لم يعجزنا أن نفعله نحن في بلادكم ورعيتكم، على أننا محمولون على الظلم والجور عندكم، لكن تأبى ذلك همة سلطاننا.

فلما سمع المولى محمد كلامهم أثر فيه وعظهم وداخلته القشعريرة وعلاه سلطان الحق فأذعن له وقال: والله ما أوقعنا في هٰذا المحذور إلَّا شياطين العرب انتصروا بنا على أعدائهم وأوقعونا في معصية الله وأبلغناهم غرضهم فلا حول ولا قوة إلَّا بالله، وإني أعاهد الله - تعالى - لا أعرض بعد هٰذا اليوم لبلادكم ولا لرعيتكم بسوء، وإني أعطيكم ذمة الله وذمة رسوله لا قطعت وادي تافنا إلى ناحيتكم إلَّا فيما يرضي الله ورسوله، وكتب لهم بذلك عهداً إلى صاحب الجزائر وقنع بما فتح الله عليه من سجلماسة ودرعة وأعمالهما، ولم يعد يغزو الشرق ولا توجه إليه بعد ذلك.

وفاة المولى الشريف ابن علي رحمه الله

كان المولى الشريف بن علي بسجلماسة وأعمالها على ما وصفناه قبل من الوجاهة والرئاسة والسيادة، ممتثل الأمر، متبوع العقب منذ نشأ، ثم بايعه أهل سجلماسة سنة إحدى وأربعين وألف، ونازعه بنو الزبير أصحاب تابوعصامت، وبذلك استصرخ عليهم أبا حسون السملالي حتى ملك سجلماسة كما مر، ولما تخلص من نكبة السوس وعاد إلى سجلماسة وجد ابنه المولى محمداً قد قام بالأمر بعده فتخلى له عنه، وقطع بقية عمره فيما يرضي الله - تعالى - إلى أن أتاه اليقين ثالث عشر رمضان سنة تسع وستين وألف بسجلماسة مسقط رأسه ومقر عزه ومنبت أشباله، ومدرج ملوكه وأقياله، وجددت البيعة للمولى محمد ففارقه أخوه المولى الرشيد فخرج إلى الجبال فبقي متنقلاً في أحيائها.

قيام المولى الرشيد بن الشريف على أخيه المولى محمد ومقتل الأخ المذكور رحمه الله

قد قدمنا ما كان من فرار المولى الرشيد عن أخيه المولى محمد يوم وفاة أبيهما ـ رحمه الله ـ فذهب المولى الرشيد يومئذ إلى تدغة فأقام بها مدة، ثم سار إلى دمنات فأقام بها مدة أيضًا، ثم أتى زاوية أهل الدلاء فأقام عندهم ما شاء الله، فيقال: إن بعض أهل الزاوية أشار عليه بالخروج منها خوفا عليه من الفتك به، لأن الدلائيين كانوا يزعمون، فيما عندهم من العلم، أن خلاء زاويتهم يكون على يده، فقبل المولى الرشيد إشارته، ثم خرج إلى جبل آصرو فأقام به برهة من الدهر، ثم توجه إلى فاس، ومعه نفر قليل، فبات بظاهر فاس الجديد، فأكرم رئيسها أبو عبد الله الدريدي ضيافته، ومن الغد ارتحل عنها إلى تازا ثم إلى عرب الأحلاف إلى أن أدته خاتمة المطاف إلى قصبة اليهودي ابن مشعل، وكان لهذا اليهودي أموال طائلة وذخائر نفسية، وله على المسلمين صولة واستهانة بالدين وأهله، فلم يزل المولى الرشيد يفكر في كيفية اغتيال اليهودي المذكور إلى أن أمكنه الله منه في خبر طويل، فقتله واستولى على أمواله وذخائره وفرقها فيمن تبعه وانضاف إليه من عرب آنكاد وغيرهم فقوي عضده وكثر جمعه.

ثم إن المولى الرشيد دعا لنفسه أعراب الشرق وجمع كلمتهم ونزل وجدة واتصل ذلك كله بأخيه المولى محمد صاحب سجلماسة فتخوف منه لما يعلم من صرامته وشهامته، فنهض لقتاله والقبض عليه، فلما التقى الجمعان ببسيط آنكاد كانت أول رصاصة في نحر المولى محمد، فكان فيها حتفه، وذلك يوم الجمعة التاسع من المحرم سنة خمس وسبعين وألف، ودفن بدار ابن مشعل، فأسف المولى الرشيد لقتله وأظهر الحزن عليه، وتولى تجهيزه بنفسه فحمله إلى بني يزناسن ووراه هنالك في رمسه رحمه الله وغفر له.

وكان المولى محمد شجاعًا مقدامًا لا يبالي بالعظائم، ولا يخطر بباله خوف الرجال، ولا يدري ما هي النكبات والأوجال.

وكان مع ذلك قويا في بدنه أيدا في أعضائه وجسمه لا يقاوم في الصراع ولا

يزاول في الدفاع.

حكي أنه في بعض أيام حصاره لتابوعصامت جعل يده في بعض ثقب الحصن وصعد عليها ما لا يحصى من الناس حتى كأنها خشبة منصوبة ولبنة مضروبة، وكان سخيًا جدًا حتى أنه أعطى الأديب الشهير المتقدم في صناعة الشعر المعرب والملحون أبا عثمان سعيدًا التلمساني صاحب القصيدة العقيقية وغيرها نحوًا من خمسة وعشرين رطلاً من خالص الذهب جائزة له على بعض أمداحه فيه وحكاياته في هذا المعنى شهيرة. ولما قتل ـ رحمه الله ـ قام بسجلماسة ولده المولى محمد الصغير مقامه لكن لم يتم له أمر.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين
المولى الرشيد بن الشريف رحمه الله

لما قتل المولى محمد بن الشريف رحمه الله في التاريخ المتقدم وانحشرت جموعه كلها إلى أخيه المولى الرشيد، فبايعوه البيعة العامة، ودخل في طاعته الأحلاف وبنو يزناسن وغيرهم، وبعث إلى أهل تلك النواحي كلها من العرب والبربر يدعوهم إلى الطاعة واجتماع الكلمة، فقدمت عليه وفودهم بالهدايا، وكتب من كان مع اخيه في ديوان جيشه وكساهم وأعطاهم الخيل والسلاح وعظم أمره وعلا كعبه، ثم احتاج إلى المال، وكان قد أخذ ولد اليهودي ابن مشعل يوم قتل أباه، فجاءت أمه تطلب فداءه فتفرس فيها وماطلها به، ثم قال: لا أسرحه حتى تدليني على مال زوجك أو أقتله، فأنعمت له بذلك، وركب معها إلى القصبة فدلته على خزانة في بيت فنقب عنها فلقي فيها خوابي [1] مملوءة ذهبًا وفضة فاستخرجها، وارتاش بتلك الأموال، وفرق منها على من معه من العرب والبربر وسائر الأجناد، فحسنت حاله وحالهم وعُدّ ذلك من سعادته.

حصار مدينة فاس ثم فتحها والإيقاع بثوارها

قال في «النزهة»: «افتتح أمير المؤمنين المولى الرشيد فاسًا القديمة فحكم السيف في رؤسائها وأفناهم قتلاً فتمهدت البلاد واجتمعت الكلمة، وكان دخوله حضرة

(١) قلت: هي الأوعية مثل الجرار.

فاس القديمة صبيحة يوم الاثنين أوائل ذي الحجة سنة ست وسبعين وألف، وبويع بها يومه ذلك، ولما تمت له البيعة أفاض المال على علمائها وغمرهم بجزيل العطاء وبسط على أهلها جناح الشفقة والرحمة، وأظهر إحياء السنة ونصر الشريعة، فحل من قلوبهم بالمكان الأرفع وتمكنت محبته من قلوب الخاصة والعامة» اهـ.

فتح مراكش ومقتل الأمير أبي بكر الشباني وشيعته

توجه إلى مراكش في الثاني والعشرين من صفر من السنة أعني سنة تسع وسبعين وألف فاستولى عليها وقتل رئيسها أبا بكر بن عبد الكريم الشباني وجماعة من أهل بيته.

وفي هذه السنة أيضًا حاز طاغية الإصبنيول مدينة سبتة من يد البرتغال في سبيل مشارطة وقعت بينهم في مدينة أشبونة، واستمرت في يد الإصبنيول إلى الآن.

[٣٨١] فتح تارودانت وإيليغ وسائر السوس

قد قدمنا أن أبا حسون السملالي كان مستوليًا على بلاد السوس فاستمر حاله على ذلك إلى أن توفي سنة سبعين وألف، وكان ـ رحمه الله ـ لين الجانب، محمود السيرة، موصوفًا بالعفة، متوقفًا في الدماء، ولما هلك خلفه ولده أبو عبد الله محمد ابن أبي حسون، فلما كانت سنة إحدى وثمانين وألف غزا المولى الرشيد ـ رحمه الله ـ بلاد السوس، فاستولى على تارودانت رابع صفر من السنة، وأوقع بهستوكة، فقتل منهم أكثر من ألف وخمسمائة، وأوقع بأهل الساحل فقتل منهم أكثر من أربعة آلاف، وأوقع بأهل قلعة إيليغ دار ملك أبي حسون، فاستولى عليها في مهل ربيع الأول من السنة، وقتل منهم بسفح الجبل أكثر من ألفين، وصفا أمر السوس للمولى الرشيد.

وفاة أمير المؤمنين المولى الرشيد رحمه الله

كان أمير المؤمنين المولى الرشيد ـ رحمه الله ـ في هذه المدة مقيمًا بمراكش إلى أن كان عيد الأضحى من سنة اثنتين وثمانين وألف، فلما كان ثاني يوم النحر وهو يوم الخميس ركب فرسًا له وأجراه فجمح به في بستان المسرة ولم يملك عنانه فأصابه فرع

شجرة نارنج فهشم رأسه، وقيل دخل في أذنه وكانت فيه منيته رحمه الله.

وكان رحمه الله محبًا في جانب العلماء، مؤثرًا لأغراضهم، مولعًا بمجالستهم، محسنًا إليهم حيث ما كانوا.

[٣٨٢]ومن تواضع المولى الرشيد ـ رحمه الله ـ مع أهل العلم ما حكاه صاحب الجيش من أنه بعث إلى بعض علماء عصره ليقرأ معه بعض الكتب فامتنع ذلك العالم وقال كما قال الإمام مالك ﷺ : العلم يؤتى ولا يأتي، قال فكان المولى الرشيد ـ رحمه الله ـ يتردد لمنزل ذلك العالم للقراءة عليه، وقد ذكر صاحب «نشر المثاني» : أنه كان يحضر مجلس الشيخ اليوسي بالقرويين، اهـ، وهذه لعمري منقبة فخيمة، ومأثرة جسيمة، فرحم الله تلك الهمم التي كانت تعرف للعلم حقه وتقدر قدره.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين المظفر بالله أبي النصر المولى إسماعيل بن الشريف رحمه الله

لما توفي المولى الرشيد ـ رحمه الله ـ في التاريخ المقدم وكان أخوه المولى إسماعيل بمكناسة الزيتون خليفة على بلاد الغرب فبلغه خبر موته فاجتمع الناس عليه وبايعوه واتفقت كلمتهم عليه، ثم قدم عليه أعيان فاس وأعلامها وأشرافها ببيعتهم، وقدم عليه أهل بلاد الغرب من الحواضر والبوادي كذلك بهداياهم وبيعاتهم إلّا مراكش وأعمالها فإنه لم يأت منها أحد، فجلس ـ رحمه الله ـ للوفود إلى أن فرغ من شأنهم ورتب أموره بمكناسة وعزم على السكنى بها إذ كان لا يبغي بها بدلاً حيث أعجبه ماؤها وهواؤها.

وكان سنه يوم بويع ستًا وعشرين سنة.

[٣٨٣] تأليف جيش عبيد البخاري وذكر أوليتهم وشرح تسميتهم

لما استولى السلطان المولى إسماعيل بن الشريف على مراكش ودخلها أول مرة كان يكتب عسكره من القبائل الأحرار، حتى أتاه الكاتب أبو حفص عمر بن قاسم المراكشي المدعو عليليش، وبيتهم بيت رياسة من قديم، وكان والده كاتبًا مع المنصور السعدي ومع أولاده من بعده، فتعلق أبو حفص هذا بخدمة السلطان المولى

إسماعيل وأطلعه على دفتر فيه أسماء العبيد الذين كانوا في عسكر المنصور، فسأله السلطان رحمه الله: هل بقي منهم أحد؟ قال: نعم، كثير منهم ومن أولادهم وهم متفرقون بمراكش وأحوازها وبقبائل الدير، ولو أمرني مولانا بجمعهم لجمعتهم، فولاه أمرهم وكتب له إلى قواد القبائل يأمرهم بشد عضده وإعانته على ما هو بصدده فأخذ عليليش يبحث عنهم وينقر عن أنسابهم فكان عدد ما جُمع من العسكر البخاري أربعة عشر ألفا.

وأما سبب تسمية هذا الجيش بعبيد البخاري: فإن المولى إسماعيل - رحمه الله - لما جمعهم وظفر بمراده بعصبيتهم واستغنى بهم عن الانتصار بالقبائل بعضهم على بعض حمد الله - تعالى - وأثنى عليه، وجمع أعيانهم وأحضر نسخة من صحيح البخاري وقال لهم: أنا وأنتم عبيد لسنة رسول الله ﷺ وشرعه المجموع في هذا الكتاب، فكل ما أمر به نفعله وكلما نهى عنه نتركه وعليه نقاتل، فعاهدوه على ذلك، وأمر بالاحتفاظ بتلك النسخة وأمرهم أن يحملوها حال ركوبهم ويقدموها أمام حروبهم كتابوت بني إسرائيل، وما زال الأمر على ذلك إلى هذا العهد فلهذا قيل لهم عبيد البخاري.

قال في «البستان»: «كان مآل هذا العسكر البخاري مع أولاد أمير المؤمنين المولى إسماعيل - رحمه الله - مثل مآل الترك مع أولاد المعتصم بن الرشيد العباسي في كونهم استبدوا عليهم وصاروا يولون ويعزلون ويقتلون ويستحيون إلى أن تم أمر الله فيهم وتلاشى جمعهم وتفرقوا في البلاد شذر مذر، وما أحياهم إلَّا السلطان المرحوم المولى محمد بن عبد الله، ولما عفوا وكثروا خرجوا عليه بابنه المولى يزيد وفعلوا فعلتهم التي فعلوها من قبل حسبما تسمعه بعد إن شاء الله».

[٣٨٤] غزو أمير المؤمنين المولى إسماعيل بلاد الشرق وانعقاد الصلح بينه وبين دولة الترك أهل الجزائر

ثم غزا أمير المؤمنين المولى إسماعيل - رحمه الله - بلاد الشرق فترك تلمسان عن يساره، وأصحر في ناحية القبلة فقدمت عليه هنالك وفود العرب، فسار بهم إلى أن نزل على رأس وادي شلف المسمى اليوم بوادي صا، فخرج جيش الترك مع ثغر

الجزائر بقضهم وقضيضهم ومدافعهم ومهاريسهم، ونزلوا على وادي شلف قبالة السلطان - رحمه الله - ولما كان وقت العشاء أرعدوا مدافعهم ليدهشوا العرب الذين مع السلطان فكان الأمر كذلك، فإنه لما انتصف اليل انسل بنو عامر من محلة السلطان، وأصبحت الأرض منهم بلاقع، ولما أصبح بقية العرب وعلموا بفرار بني عامر انهزموا دون قتال، ولم يبق مع السلطان إلَّا عسكره الذي جاء به من المغرب، فكان ذلك سبب تأخره عن حرب الترك وقفوله إلى حضرته، وكاتبه الترك في أن يتخلى لهم عن بلادهم ويقف عند حد أسلافه، ومن كان قبلهم من ملوك الدولة السعدية فإنهم ما زاحموهم قط في بلادهم، وبعثوا إليه بكتاب أخيه المولى محمد بن الشريف الذي كان بعث به إليهم مع رسلهم حسبما تقدم، وبكتاب أخيه المولى الرشيد الذي فيه الحد بينه وبينهم، فوقع الصلح على ذلك الحد الذي هو وادي تافنا، وكان ذلك كله سنة تسع وثمانين وألف.

[٣٨٥] فتح المهدية ومحاربة ابن محرز بالسوس

قد تقدم لنا ما كان من استيلاء جنس الإصبنيول على المعمورة المسماة بالمهدية في حدود العشرين بعد الألف، وما كان بينهم وبين أبي عبد الله العياشي وأهل سلا من الحروب، واستمروا بها إلى أن كانت سنة اثنتين وتسعين وألف، فافتتحها جيش السلطان المولى إسماعيل رحمه الله.

قال في «النزهة»: ومن محاسن الدولة الإسماعيلية تنقية المغرب من نجاسة الكفر ورد كيد العدو عنه، قال وقد فتح السلطان المولى إسماعيل عدة مدن من يد النصارى كانت من مفاسد المغرب، ولم يهنأ للمسلمين معهم قرار، من ذلك المعمورة فإنه - رحمه الله - قد افتتحها عنوة بعد أن حاصرها مدة، وكان فتحها يوم الخميس رابع عشر ربيع الثاني سنة اثنتين وتسعين وألف وأسر بها نحو الثلاثمائة من الكفار، اهـ.

[٣٨٦] دخلت سنة أربع وتسعين وألف فسار إلى مراكش ثم نهض منها إلى السوس فالتقى بابن أخيه المولى أحمد بن محرز في أواخر ربيع الثاني من السنة، وقامت الحرب بينهما على ساق، واستمر القتال نحواً من خمسة وعشرين يوماً، هلك فيها من الفريقين ما لا يحصى، ودخل ابن محرز تارودانت فتحصن بها.

ثم كان بينهما حرب أخرىٰ هلك فيها خلق كثير نحو ألفين وجرح السلطان، وجرح ابن محرز أيضًا، وذلك في أواسط جمادىٰ الآخرة من السنة، واستمر الحال علىٰ ذلك إلىٰ رمضان من السنة (١).

[٣٨٧]قال أبو عبد الله أكنسوس حدثني بعض الثقات أن السلطان المولىٰ إسماعيل ـ رحمه الله ـ لما أعياه أمر ابن أخيه المذكور أصبح ذات يوم كئيبًا فقال لوزيره الفقيه أبي العباس اليحمدي: إني رأيت في هـٰذه الليلة رؤيا أحزنتني إلىٰ الغاية.

فقال: وما هي يا مولانا؟ وعسىٰ أن تكون خيراً.

قال: رأيت كأن هـٰذه الجنود التي معنا ما بقي منها أحد ولم يبق إلَّا أنا وأنت مختفيين في غار مظلم. فسجد الوزير اليحمدي شكراً لله ـ تعالىٰ ـ وأطال السجود ثم رفع رأسه وقال: أبشر يا مولانا فقد نصرنا الله علىٰ هـٰذا الرجل.

فقال له السلطان: ومن أين لك ذلك؟

فقال له: من قوله تعالىٰ: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]قال ﷺ: «فما ظنك باثنين الله ثالثهما»، فسر السلطان بذلك غاية السرور، وانسرىٰ عنه ما كان يجده من الغم، وعلم أن رؤياه بشارة من الله ـ تعالىٰ ـ له، وعلىٰ أثر ذلك وقع الصلح بينهما في رمضان، ورجع السلطان إلىٰ حضرته فدخلها في أواخر ذي القعدة من السنة المذكورة.

[٣٨٨] فتح طنجة

قد تقدم لنا أن طنجة صارت إلىٰ جنس الإنجليز من يد البرتغال، واستمرت بيده إلىٰ سنة خمس وتسعين وألف، فعقد السلطان المولىٰ إسماعيل ـ رحمه الله ـ للقائد أبي الحسن علي بن عبد الله الريفي علىٰ جيش المجاهدين ووجهه لحصار طنجة، فضيقوا علىٰ من بها من النصارىٰ، وطاولوهم إلىٰ أن ركبوا سفنهم وهربوا في البحر، وتركوها خاوية علىٰ عروشها، وذلك في ربيع الأول سنة خمس وتسعين وألف.

---

(١)قلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، فكم حصل اقتتال في المغرب بين السلاطين وأقربائهم، وفني بسببه أناس كثيرون.

[٣٨٩] مقتل المولى
أحمد بن محرز وفتح تارودانت وما يتصل بذلك

وفي هـٰذه السنة - أعني سنة ست وتسعين وألف - بلغ السلطان المولى إسماعيل، رحمه الله، وهو بمكناسة أن أخاه المولى الحران، وابن أخيه المولى أحمد بن محرز قد دخلا قصبة تارودانت واستحوذا على تلك الجهات، فنهض إليهما ووالى السير حتى أناخ على تارودانت وحاصرهما بها أيامًا، فاتفق أن ابن محرز خرج ذات يوم في جماعة من عبيده لزيارة بعض الأولياء فلقيه جماعة من زرارة أصحاب السلطان فلم يعرفوه، وظنوا أنه بعض قواد ابن محرز فشدوا عليه ثم قتلوه فإذا هو ابن محرز.

وكان مقتل المولى أحمد - رحمه الله - في أواسط ذي القعدة سنة ست وتسعين وألف بعد تشغيبه على السلطان أربع عشرة سنة.

واستمر المولى الحران محصوراً بتارودانت والحرب قائمة على ساق إلى أن دخلت سنة سبع وتسعين وألف، فكانت حرب هلك فيها نحو الستمائة نفس من الجند، ثم كانت حرب أخرى أعظم من الأولى، ثم ثالثة كذلك، واستمر الحال بها إلى جمادى الأولى من سنة ثمان وتسعين وألف فاقتحم السلطان تارودانت عنوة بالسيف واستباحها، واستولى عليها، وفر المولى الحران إلى حيث أمن على نفسه.

[٣٩٠] فتح العرائش

وفي هـٰذه السنة - أعني سنة مائة وألف، في آخر شوال منها - سار القائد أبو العباس أحمد بن حدو البطوئي في جماعة من المجاهدين لحصار العرائش، وكان الإصبنيول - خذله الله - قد استولى عليها على يد الشيخ بن المنصور السعدي كما مر، فنزل القائد أبو العباس المذكور عليها وضيق على الكفار الذين بها وحاصرهم نحواً من ثلاثة أشهر ونصف، ثم بعد ذلك كان الفتح، قال في «النزهة»:

فتحها المسلمون بعد معاناة شديدة وذلك أنهم حفروا تحت خندق سورها الموالي للمرسى وملؤوها باروداً ثم أوقدوها بالنار فنفطت وسقط جانب من السور فاقتحم المسلمون منه، وتسلقوا إلى ما كان من النصارى على الأسوار، فوقعت ملحمة عظيمة، وفر باقيهم إلى حصن القبيبات الذي بناه المنصور السعدي واعتصموا به

يومًا وليلة، فخامر قلوبهم الجزع وطلبوا الأمان، فأمنهم القائد أبو العباس المذكور على حكم السلطان، فنزلوا عليه، فأُخذوا أسارىٰ بأجمعهم ولم يطلق منهم إلا أميرهم وحده، وتم الفتح وذلك يوم الأربعاء الثامن عشر من المحرم سنة إحدىٰ ومائة وألف.

وكان عدد نصارىٰ العرائش قبل الاستيلاء عليهم ثلاثة آلاف ومائتين، ولما ظفر بهم المسلمون أسروا منهم نحو ألفين، وقتلوا منهم اثنتي عشرة مائة، ووجد بها من البارود والعدة ما لا يحصىٰ كثرة، فمن المدافع نحو مائة وثمانين، منها اثنان وعشرون من النحاس والباقي من الحديد، ومنها مدفع يسمىٰ: الغصاب طوله خمسة وثلاثون قدمًا بالحساب، ووزن كرته خمسة وثلاثون رطلاً بحيث حلق عليه بقرب خزانته أربعة رجال، كذا سمع من المشاهدين لذلك بعد السؤال.

قال منويل في كتابه: إن النصارىٰ ما أسلموا أنفسهم حتىٰ شرطوا شروطًا معتبرة لكن السلطان نكث اهـ.

قلت: قد حكىٰ القاضي أبو القاسم العميري في فهرسته ما حاصله: إن نصارىٰ العرائش ادعوا أن الفتح المذكور إنما كان صلحًا وتأمينًا لا عنوة، ثم لما طال النزاع في ذلك أمر السلطان قاضي حضرته المكناسية أبا عبد الله محمد المعروف بأبي مدين ببيان الحكم في ذلك فأجاب جوابًا طويلاً حرر فيه حكم الشريعة المحمدية بما لا غاية فوقه، وحكم علىٰ أولئك النصارىٰ بالأسر، وقد ذكر ذلك بتمامه في الفهرسة المذكورة فلينظر هنالك، وأمر السلطان ـ رحمه الله ـ بإشخاص أولئك النصارىٰ إلىٰ مكناسة الزيتون، فكان يستخدمهم مع غيرهم من المساجين والأسرىٰ في بناء قصوره، وأسكن السلطان رحمه الله أهل الريف العرائش، وأمر قائدهم أن يبني بها مسجدين وحماما ويبني داره بقلعتها.

[٣٩١] فتح آصيلا

ولما فرغ المجاهدون من أمر العرائش عمدوا إلىٰ مدينة آصيلا فنزلوا عليها وحاصروا النصارىٰ الذين بها سنة كاملة، وأظنهم الإصبنيول، إلىٰ أن بلغ بهم الحصار كل مبلغ، فطلبوا الأمان فأمنوهم علىٰ حكم السلطان ولما لم يطمئنوا لذلك ركبوا من الليل سفنهم ونجوا إلىٰ بلادهم، ودخل المسلمون المدينة فملكوها، وذلك

سنة اثنتين ومائة وألف، وعمرها أهل الريف أيضًا، وبنىٰ بها قائدهم مسجدين ومدرسة وحمامًا، وبنىٰ داره بقلعتها، والله أعلم.

[٣٩٢] حصار سبتة

ثم سار المجاهدون بعد الفراغ من آصيلا إلىٰ سبتة فنزلوا عليها وحاصروها واستأنفوا الجد في مقاتلتها، وامدهم السلطان بعسكر من عبيده، وأمر قبائل الجبل أن تعين كل قبيلة حصتها للمرابطة علىٰ سبتة، وكذلك أمر أهل فاس أن يبعثوا بحصتهم إليها، فكان عدد المرابطين عليها خمسة وعشرين ألفًا، وتقدم السلطان إليهم في الجد والاجتهاد فكان القتال لا ينقطع عنها صباحًا ومساء، وطال الأمد حتىٰ أن السلطان - رحمه الله - اتهم القواد الذين كانوا علىٰ حصارها بعدم النصح في افتتاحها لئلا يبعث بهم بعدها إلىٰ حصار البريجة فيبعدوا عن بلادهم، مع أنهم قد سئموا كثرة الأسفار ومشقات الحروب، واستمر الحال إلىٰ أن مات القائد أبو الحسن علي بن عبد الله الريفي، وولىٰ بعده ابنه القائد أبو العباس أحمد بن علي، والقتال لا زال، وفي كل سنة يتعاقب الغزاة عليها، والسلطان مشتغل بتمهيد المغرب ومقاتلة برابرة جبل فازاز وغيرهم، ولم يهيئ الله فتحها علىٰ يديه.

[٣٩٣] غزو السلطان المولى إسماعيل برابرة فازاز وإيقاعه بهم

كان السلطان المولىٰ إسماعيل - رحمه الله - في هـٰذه المدة مشتغلاً بتمهيد المغرب، إلىٰ أن فتح أقطاره كلها وبنىٰ قلاعها ورتب حاميتها، ولم يبق له بالمغرب كله إلَّا جبل فازاز، فعزم علىٰ النهوض إليه.

ثم دخلت سنة أربع ومائة وألف وفيها تهيأ السلطان للنهوض إلىٰ البربر أهل فازاز، فاستنفر القبائل وحشد الجيوش واستعد الاستعداد التام بالمدافع والمهاريس والمجانيق وسائر آلات الحصار، وضرب السلطان لأمراء الجنود لانشاب الحرب موعدًا معلومًا، وقال لهم: إذا كان وقت العشاء من ليلة كذا فليأخذ الطبجية في إخراج المدافع والمهاريس بالكور والبنب طول ليلتهم ليحصل للبربر الدهش فإذا أصبحتم فليقدم كل قائد من ناحيته، ولينشب الحرب ليكون القتال في ساعة واحدة

من جميع الجهات، ففعلوا ما أشار به عليهم.

ولما كانت الليلة المعينة لم يرع البربر إلَّا رعود المدافع والمهاريس تصعق في الجو ونيرانها تتقدح في ظلمات الليل، وأصداء الجبال تتجاوب من كل ناحية، فقامت عليهم القيامة وظنوا أن الأرض قد زالت بهم، فقوضوا أبنيتهم وحملوا عيالاتهم للفرار، وصاروا لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، ولما أصبحوا زحف إليهم السلطان من ناحيته، وزحفت إليهم العساكر من باقي الجهات، واشتد القتال فانهزموا وتفرقوا في الشعاب والأودية شذر مدر، وصار كل من قصد منهم ثنية أو منفذا وجد العساكر مقبلة منها، والمدافع مصوبة نحوها فحل بهم القضاء، وتصرف فيهم البلاء كيف شاء فقتلت رجالهم وسبيت نساؤهم وأولادهم ونهب أثاثهم وحيزت مواشيهم وأنعامهم، واستلبت خيلهم وسلاحهم، واستحر القتل والنهب فيهم ثلاثة أيام والعساكر تلتقطهم من الأودية والشعاب، وتستخرجهم من الكهوف والغيران وأمر السلطان قواده بجمع رؤوس القتلى وجمع الخيل والسلاح، فجمعوا ما عثروا عليه من ذلك فكان عدد الرؤوس ينيف على اثني عشر ألفًا، وعدد الخيل الفحول ينيف على عشرة آلاف، وعدد المكاحل ينيف على ثلاثين ألفًا، وبالاستيلاء على هؤلاء البربر كمل للسلطان المولى إسماعيل رحمه الله فتح المغرب، واستولى عليه كله ولم يبق به عرق ينبض، ولم يترك لقبيلة من قبائل المغرب خيلاً ولا سلاحًا.

قال أبو عبد الله أكنسوس، رحمه الله: وكان المولى إسماعيل رحمه الله ارتكب أخف الضررين وأدنى المفسدتين في إضعاف قبائل المسلمين بسلب الخيل والسلاح مع أن المطلوب هو تقويتهم بذلك لمقابلة العدو الكافر، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ...﴾ [الأنفال: ٦٠] الآية، ورأى المولى إسماعيل: أنه لما أعد ذلك العسكر القوي الشديد قام عن المسلمين بواجب وكفاهم كل مؤنة، وأراحهم من كلفة القيام بالخيل والسلاح، مع أن الفساد الذي يظهر منهم عند ملك الخيل والسلاح أعظم وذلك بقطع الطرقات ونهب الأموال وخلع اليد من الطاعة، قال: وهذا القدر الذي اعتذرنا به عن السلطان ظاهر غاية الظهور ولعله خفي على الشيخ اليوسي حتى كتب إليه برسالته المشهورة. اهـ.

قلت: ما فعله السلطان المولى إسماعيل - رحمه الله - من ذلك ظاهر المصلحة لا يخفى على أحد وجه استحسانه، ولا يتوهم عاقل أن أهل فازاز ومَن في معناهم يتخذون الخيل والسلاح للجهاد يومًا ما، فلا يحتاج السلطان - رحمه الله - في مثل ذلك إلى الاعتذار، وقوله إن ذلك الاعتذار خفي على اليوسي ليس على ما ينبغي؛ لأن الشيخ اليوسي - رحمه الله - ما تكلم مع السلطان في أمر أولئك القبائل ومن في معناهم، وإنما كلامه معه في أمور ثلاثة:

الأول: في جباية المال من وجهه وصرفه في وجهه.

الثاني: في إقامة رسم الجهاد وشحن الثغور كلها بالمقاتلة والسلاح.

الثالث: في الانتصاف من الظالم للمظلوم وكف اليد العادية عن الرعية.

[٣٩٤] ونص هذه الرسالة:

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، قطب المجد ومركزه ومحاز الفخر ومأرزه، وأساس الشرف الباذخ ومنبعه، ومناط الفضل الشامخ ومجمعه، السلطان الأعظم الأجل الأفخم، مولانا إسماعيل ابن مولانا الشريف لا زالت أعلامه منصورة، وأيامه على العز واليمن مقصورة، سلام على سيدنا ورحمة الله وبركاته، هذا ولا زائد عندنا سوى المحبة لسيدنا وغاية التعظيم والإجلال، والدعاء لسيدنا بصالح الأحوال، وذلك بعض ما أوجبته يده المبسوطة علينا بالبر والإحسان، والفضل والامتنان، والتوقير والاحترام، والإنعام والإكرام، مع ما له علينا وعلى غيرنا من الحقوق التي أوجبتها منزلته السلطانية، فكتبنا هذه البطاقة، وهي في الوقت منتهى الطاقة، وكنا كثيراً ما نرى من سيدنا التشوق إلى الموعظة والنصح، فأردنا أن نرسل إلى سيدنا ما إن وفق إلى النهوض إليه رجونا له ربح الدنيا والآخرة، والارتقاء إلى الدرجات الفاخرة، ورجونا وإن لم نكن أهلاً لأن نعظ أن يكون سيدنا أهلاً لأن يتعظ، وأن يحتمي من جميع المذام ويحتفظ:

فليعلم سيدنا أن الأرض وما فيها ملك لله - تعالى - لا شريك له، والناس عبيد الله سبحانه وإماء له، وسيدنا واحد من العبيد، وقد ملكه الله عبيده ابتلاء وامتحانًا، فإن قام عليهم بالعدل والرحمة والإنصاف والإصلاح فهو خليفة الله في أرضه، وظل الله على عبيده، وله الدرجة العالية عند الله تعالى، وإن قام بالجور والعنف والكبرياء

والطغيان والإفساد فهو متجاسر على مولاه في مملكته، ومتسلط ومتكبر في الأرض بغير الحق، ومتعرض لعقوبة مولاه الشديدة وسخطه، ولا يخفى على سيدنا حال من تسلط على رعيته يروم تملكهم بغير إذنه كيف يفعل به يوم يتمكن منه.

ثم نقول: إن على السلطان حقوقًا كثيرة لا تفي بها البطاقة، ولنقتصر منها على ثلاثة هي أمهاتها:

الأول: جمع المال من حق وتفريقه في حق.

الثاني: إقامة الجهاد لإعلاء كلمة الله وفي معناه تعمير الثغور بما تحتاج إليه من عدد وعدة.

الثالث: الانتصاف من الظالم للمظلوم، وفي معناه كف اليد العادية عليهم منهم ومن غيرهم.

وهذه الثلاثة كلها قد اختلت في دولة سيدنا فوجب علينا تنبيهه لئلا يعتذر بعدم الاطلاع والغفلة فإن تنبه وفعل فقد فاز، وذلك صلاح الوقت وصلاح أهله وسبوغ النعمة وشمول الرحمة، وإلا فقد أدينا الذي علينا.

أما الأمر الأول: فليعلم سيدنا أن المال الذي يُجبى من الرعية قد أعد للمصالح التي ينتظم بها الدين وتصلح الدنيا من أهل البيت والعلماء والقضاة والأئمة والمجاهدين والأجناد والمساجد والقناطر وغير ذلك من المصالح، ومثال هؤلاء كأيتام لهم ديون قد عجزوا عن قبضها إلّا بوكيل، ومثال الرعية مثل المديان والسلطان هو الوكيل، فإن استوفى الوكيل الدين بلا زيادة ولا نقصان وأداه إلى اليتامى يحسب ما يجب لكلٍ فقد برئ من اللوم ولم تبق عليه تباعة للمديان ولا لليتيم، وحصل له أجران: أجر القبض وأجر الدفع، وإن هو زاد على الدين الواجب بغير رضى المديان فهو ظالم له، أو نقص اليتيم من حقه الواجب له فهو ظالم له، وكذا إن استوفى الديون وأمسكها ولم يدفعها لأربابها فهو ظالم، فلينظر سيدنا فإن جباة مملكته قد جروا ذيول الظلم على الرعية فأكلوا اللحم وشربوا الدم وامتشوا العظم وامتصوا المخ ولم يتركوا للناس دينًا ولا دنيا، أما الدنيا فقد أخذوها، وأما الدين فقد فتنوهم عنه وهذا شيء شهدناه لاشيء ظنناه، ثم إن أرباب الحقوق قد ضاعوا ولم تصل إليهم حقوقهم، فعلى السلطان أن يتفقد الجباة ويكف أيديهم

عن الظلم ولا يغتر بكل من يزين له الوقت فإن كثيراً من الدائرين به طلاب الدنيا لا يتقون الله ـ تعالىٰ ـ ولا يتحفظون من المداهنة والنفاق والكذب، وفي أفضل منهم قال جده أمير المؤمنين مولانا علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه: المغرور من غررتموه. اهـ، وأن يتفقد المصالح ويبسط يد الفضل علىٰ خواص الناس من أهل الفضل والدين والخير ليكتسب محبتهم وثناءهم ونصرهم كما قيل:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة   يدي ولساني والضمير المحجبا

وقد جبلت القلوب علىٰ حب من أحسن إليها، ولا يهملهم فيتمنوا غيره ويتطلبوا دولة أخرىٰ كما قيل:

إذا لم يكن للمرء في دولة امرئ   نصيب ولا حظ تمنى زوالها

وما ذاك من بغض لها غير أنه   يريد سواها فهو يهوى انتقالها

وليعلم سيدنا أن السلطان إذا أخذ أموال العامة ونثرها في الخاصة وشيد بها المصالح فالعامة يذعنون، ويعلمون أنه سلطان وتطيب قلوبهم بما يرون من إنفاق أموالهم في مصالحهم وإلا فالعكس، وأيضًا السلطان متعرض للسهام الراشقة من دعوة المظلومين من الرعية، فإذا أحسن إلىٰ الخاصة دعوا له بالخير والسلامة والبقاء، فيقابل دعاء بدعاء، والله الموفق.

وأما الأمر الثاني: فقد ضاع أيضًا وذلك أنه لم يتأت في الوقت إلّا عمارة الثغور، وسيدنا قد غفل عنها فقد ضعفت اليوم غاية، وقد حضرت بمدينة تطاوين أيام مولانا الرشيد ـ رحمه الله ـ فكانوا إذا سمعوا الصريخ تهتز الأرض خيلاً ورماة، وقد بلغني اليوم أنهم سمعوا صريخًا من جانب البحر ذات يوم فخرجوا يسعون علىٰ أرجلهم بأيديهم العصي والمقاليع، وهٰذا وهن في الدين، وغرر علىٰ المسلمين، وإنما جاءهم الضعف من المغارم الثقيلة، وتكليفهم الحركات وإعطاء العدة كسائر الناس، فعلىٰ سيدنا أن يتفقد السواحل كلها، ويحرضهم علىٰ الجهاد والحراسة، بعد أن يحسن إليهم ويعفيهم مما يكلف به غيرهم، ويترك لهم خيلهم وعدتهم ويزيدهم ما يحتاجون إليه، فهم حماة بيضة الإسلام، ويتحرىٰ فيمن يوليه تلك النواحي أن يكون أشد الناس رغبة في الجهاد، ونجدة في المضايق وغيرة علىٰ الإسلام، ولا يولي فيها من همته ملء بطنه والاتكاء علىٰ أريكته، والله الموفق.

وأما الأمر الثالث: فقد اختل أيضاً، لأن المشعبين للانتصاف بين الناس في البلدان - وهم العمال وخدامهم - هم المشتغلون بظلم الناس، فكيف يزيل الظلم من يفعله، ومن ذهب يشتكي سبقوه إلى الباب فزادوا عليه فلا يقدر أحد أن يشتكي فليتق الله سيدنا، وليتق دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب، وليجهد في العدل فإنه قوام الملك وصلاح الدين والدنيا، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ...﴾ [النحل: ٩٠] الآية.

وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

ثم ذكر تعالى المنصورين وشروط النصر فقال: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤١] فضمن تعالى للملوك النصر وشرط عليهم هذه الأمور الأربعة، فمتى اختل عليهم أمر الرعية وتسلط عليهم من يفسد عليهم الدولة فليعلموا أن ذلك من إخلالهم بهذه الأمور، فكان عليهم الرجوع إلى الله تعالى وتفقد ما أمرهم به ورعاية ما استرعاهم إياه، وقد اتفقت حكماء العرب والعجم على أن الجور لا يثبت معه الملك ولا يستقيم، وأن العدل يستقيم معه الملك ولو مع الكفر، وقد عاش الملوك من الكفرة المئين من السنين في الملك المنتظم والكلمة المسموعة والراحة من كل منغص لِما كانوا عليه من العدل في الرعية، استصلاحاً لدنياهم فكيف بمن يرجو صلاح الدنيا والدين، قال بعض الحكماء: الملك بناء والجند أساسه، وإذا ضعف الأساس سقط البناء فلا سلطان إلَّا بجند، ولا جند إلَّا بمال، ولا مال إلَّا بجباية، ولا جباية إلَّا بعمارة، ولا عمارة إلَّا بالعدل، فالعدل أساس الجميع.

وقال ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».

وقال ﷺ: «إن رجالاً يخوضون في مال الله بغير حق لهم النار يوم القيامة» أو كما قال (١).

وعن مولانا علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: رأيت عمر على قتب يعدو به بعيره بالأبطح فقلت يا أمير المؤمنين أين تسير؟ فقال: بعير من إبل الصدقة شرد أطلبه، فقلت: أذللت الخلفاء من بعدك، فقال: لا تلمني، فوالذي بعث محمداً ﷺ بالحق

---

(١) قلت: حديث صحيح.

لو أن عَناقًا ضلت بشاطئ الفرات لأُخذ بها عمر يوم القيامة، إنه لا حرمة لوال ضيع المسلمين ولا لفاسق روع المؤمنين.

وقد رأى ﷺ شيخًا يهوديًا يسأل على الأبواب فقال: «ما أنصفناك: أخذنا منك الجزية ما دمت شابًا ثم ضيعناك اليوم» وأمر أن يجري عليه قوته من بيت المال.

وليعلم سيدنا أن أول العدل أن يعدل في نفسه فلا يأخذ لنفسه من المال إلّا بحق، وليسأل العلماء عما يأخذ وما يعطي، وما يأتي وما يذر، وقد كان بنو إسرائيل يكون فيهم الأمير على يد نبي، فالنبي يأمر والأمير ينفذ لا غير، ولما كانت هٰذه الأمة المرحومة انقطعت منها النبوة بنبيها خاتم النبيين ﷺ فلم يبق إلّا العلماء يُقتدى بهم قال ﷺ: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل» فكان حقًا على هٰذه الأمة أن يتبعوا العلماء ويتصرفوا على أيديهم أخذًا وعطاء، وقد توفي ﷺ واستخلف أبو بكر ﷺ وكان قبل ذلك يبيع ويشتري في السوق على عياله، فلما بويع أخذ ماله الذي للتجارة وذهب للسوق على عادته حتى رده علماء الصحابة، وقالوا: إنك في شغل بأمر الخلافة عن السوق، وفرضوا له ما يكفيه مع عياله، وجعلوا المال على يد أمين فكان هو وغيره فيه سواء يأخذ منه بما اقتضته الشريعة لنفسه ولغيره، وهكذا سيرة الخلفاء الراشدين من بعده، فعلى سيدنا أن يقتدي بهٰؤلاء الفضلاء ولا يقتدي بأهل الأهواء، وليسأل من معه من الفقهاء الثقات، من العلماء العاملين الذين يتقون الله ولا يخافون في الله لومة لائم فما أمروه به مما ذكرناه ومما لم نذكره فعله، وما نهوه عنه انتهى، هٰذه طريقة النجاة إن شاء الله تعالى، نسأل الله تعالى أن يرزق سيدنا توفيقًا وتسديدًا، وإرشادًا وتأييدًا، وأن يصلح بوجوده البلاد والعباد، وأن يحسم بسيفه أهل الزيغ والعناد، آمين والحمد لله رب العالمين (١).

[٣٩٥] ثم دخلت سنة ثمان ومائة وألف ففي يوم عرفة منها قدم عشرة رجال من اصطنبول ومعهم كتاب من السلطان مصطفى بن محمد العثماني صاحب القسطنطينية العظمى إلى السلطان المولى إسماعيل يندبه إلى الصلح مع أهل الجزائر فانتدب رحمه الله وامتثل.

---

(١) قلت: رسالة رائعة اجتمع فيها الوعظ الحسن الرفيق والتخويف والتهديد والوعيد على وجه جليل، وهي دالة على جلالة العلماء آنذاك وقوتهم.

وفي سنة سبع عشرة ومائة وألف انتزع الإنجليز جبل طارق من يد الإصبنيول حاصره ثلاثة أيام براً وبحراً في جند يسير فملكه لاشتغال الإصبنيول يومئذ عنه بأمر الفتنة التي حدثت في ملكه، ولما ملكه الإنجليز عظم ذلك على أجناس الفرنج خصوصاً الإصبنيول والفرنسيس، ورأوا أن الإنجليز قد ملك عليهم باب أوروبا ولذا حاصروه مراراً فلم يحصلوا منه على طائل واستمر في يده إلى الآن.

[٣٩٦] ثم دخلت سنة عشرين ومائة وألف فيها افتتح الترك مدينة وهران وكانت بيد الإصبنيول مدة فردها الله على المسلمين يومئذ.

[٣٩٧] وفي سنة ثلاثين ومائة وألف عزل السلطان أولاده عن الأعمال كلها ولم يترك إلّا ولي العهد المولى أحمد بتادلا، ثم بعث ولده المولى عبد الملك إلى مراكش وولاه قطر السوس، واستقامت الأمور وسكنت الرعية وهدأت البلاد، واشتغل السلطان ببناء قصوره وغرس بساتينه والبلاد في أمن وعافية، تخرج المرأة والذمي من وجدة إلى وادي نول فلا يجدان من يسألهما من أين ولا إلى أين، مع الرخاء المفرط فلا قيمة للقمح ولا للماشية، والعمال تجبي الأموال والرعايا تدفع بلا كلفة، وصار أهل المغرب كفلاحي مصر يعملون ويدفعون في كل جمعة أو شهر أو سنة، ولم يبقَ في هذه المدة بأرض المغرب سارق ولا قاطع طريق ومن ظهر عليه شيء من ذلك وفر في القبائل، قُبض عليه بكل قبيلة مرّ عليها أو قرية ظهر بها، فلا تُقلّه أرض حتى يؤتى به أينما كان، وكلما بات مجهول حال بمحلة أو قرية ثُقِف بها (١) إلى أن يُعرف حاله، ومن تركه ولم يحتط في أمره أُخذ بما اجترحه وأدى ما سرقه أو اقترفه من قتل أو غيره.

وكانت أيامه - رحمه الله - غزيرة الأمطار، كثيرة البركة في الحراثة والتجارة وغيرهما من أنواع المعاش، مع الأمن والخصب والرخاء.

[٣٩٨] وفاة أمير المؤمنين المولى إسماعيل رحمه الله

كانت أيام أمير المؤمنين المولى إسماعيل - رحمه الله - على ما ذكرنا من الأمن والعافية وتمام الضبط حتى لم يبق لأهل الذعارة والفساد محل يأوون إليه ويعتصمون

---

(١) قلت: أي أمسك.

به، ولم تقلهم أرض ولا أظلتهم سماء سائر أيامه، فقد كان خليفة ونائبًا عن أخيه المولى الرشيد سبع سنين، وسلطانًا وملكًا مستقلا سبعًا وخمسين سنة، حتى كان جهلة الأعراب يعتقدون أنه لا يموت، ويقال: إن البعض من أولاده كانوا يستبطئون موته ويعبرون عنه بالحي الدائم، وهذه المدة التي استوفاها المولى إسماعيل في الملك والسلطان لم يستوفها أحد من خلفاء الإسلام وملوكه سوى المستنصر العبيدي صاحب مصر، فإنه أقام في الخلافة ستين سنة، لكن لا سواء، فإن المولى إسماعيل - رحمه الله - استوفى مدة الخلافة بثمرتها، وتملاها بكمال لذتها؛ لأنه وليها في إبان اقتداره عليها واضطلاعه بها بعد سن العشرين كما مر، لا في مدة النيابة ولا في مدة الاستقلال، ولم يكن عليه استبداد لأحد، ولا نغص عليه دولته منغص سوى ما كان من ثورة ابن محرز وابنه المولى محمد العالم، ومن سلك سننهم من القرابة، وكلهم كان يشغب في الأطراف، لم يحصل منهم كبير ضرر للدولة، بخلاف المستنصر العبيدي فإنه ولي وهو ابن سبع سنين فكان في صدر دولته تحت الاستبداد[1] وحدث في أيامه الغلاء العظيم.

[٣٩٩] قال ابن خلكان: وهو غلاء لم يعهد مثله بمصر منذ زمان يوسف - عليه الصلاة والسلام - واستمر سبع سنين أكل الناس فيها بعضهم بعضًا، وبيع رغيف واحد بخمسين دينارًا، وكان المستنصر في هذه الشدة يركب وحده وكل من معه من الخواص مترجلون ليس لهم دواب يركبونها، وكانوا إذا مشوا يتساقطون في الطرقات من الجوع، إلى غير ذلك فلذا قلنا لا يستوي حال ملك المولى إسماعيل وملك المستنصر.

ولما كانت سنة تسع وثلاثين ومائة وألف مرض أمير المؤمنين المولى إسماعيل مرض موته وأقام ثلاثًا ثم اخترمته المنية - رحمه الله - يوم السبت الثامن والعشرين من رجب سنة تسع وثلاثين ومائة وألف.

بقية أخبار المولى إسماعيل رحمه الله ومآثره وسيرته

قال اليفرني في «النزهة»: «لم يزل أمير المؤمنين إسماعيل - رحمه الله - في مقارعة أعدائه إلى أن دوخ بلاد المغرب كلها واستولى على سهلها ووعرها، واستولى على

(١) قلت: يعني تحت الوصاية لصغر سنه.

تخوم السودان وانتهى منها إلى ما وراء النيل، وانتشرت دولته في عمائرها وبلغ من ذلك ما لم يبلغه المنصور السعدي، وامتدت مملكته في جهة الشرق إلى بسكرة من بلاد الجريد ونواحي تلمسان، والله أعلم حيث يجعل رسالاته» اهـ.

[٤٠٠] **وقال في «البستان»:** كان للمولى إسماعيل من الولد على ما تواتر به الخبر خمسمائة ولد ذكر ومن البنات مثل ذلك أو قريب منه، قال: والذي عقب من أولاده على ما رأيناه عيانًا في دفتر السلطان المولى محمد بن عبد الله إذ كان يصلهم في كل سنة، وكان يبعثني لتفرقة الصلة عليهم بسجلماسة مائة دار وخمس دور كلها لأولاده لصلبه، وأما الذين لم يعقبوا أو عقبوا وانقطع نسلهم فليسوا في الدفتر، وأما الحفدة والأسباط فكان عددهم في أيام السلطان المولى محمد بن عبد الله ألفًا وخمسمائة وستين، وقد زادوا اليوم في دولة السلطان المولى سليمان بن محمد، ولم يزل يصلهم إلى الآن على ما في دفتر والده ومن زاد يزاد له.

قال: وأما ما أدركناه من أولاد المولى إسماعيل لصلبه في دولة السلطان المولى محمد فثمانية وعشرون رجلاً نعرفهم بالاسم والعين، ومن بناته لصلبه مثل ذلك قد أنزلهن السلطان بقصر حمو بن بكة ورتب لهن المؤنة والكسوة والصلة في كل سنة.

وكان في سجونه من الأسارى خمسة وعشرون ألفًا ونيفًا، كانوا يعملون في بناء قصوره منهم الرخامون والنقاشون والنجارون والحدادون والمنجمون والمهندسون والأطباء، ولم تسمح نفسه قط بفداء أسير.

وكان في سجونه من أهل الجرائم كالقاتل والمحارب والسارق نحو الثلاثين ألفًا تظل في العمل مع أسرى الكفار، ويبيتون في السجون تحت الأرض، ومن مات منهم دفن في البناء حتى لم يبق بالمغرب من أهل الفساد عرق ينبض.

[٤٠١] وفي حدود التسعين وألف كان انحباس المطر والغلاء، **قال الشريف أبو عبد الله محمد بن الطيب القادري في «الأزهار الندية»:** أن القمح قد بلغ في هذه المدة إلى أربعين أوقية للمد بسبب تأخر المطر والمد صاع ونصف، وصلى الناس صلاة الاستسقاء فأول إمام خطب فيها القاضي أبو عبد الله محمد العربي بردلة وكررها ثلاث مرات فنزل مطر يسير لم يكف، ثم أعيدت الصلاة رابعة فكان الخطيب فيها الفقيه أبو عبد الله محمد البوعناني، ثم أعيدت خامسة والخطيب القاضي بردلة، ثم

أعيدت سادسة والخطيب أبو عبد الله محمد المرابط الدلائي وفيها بلغ القمح ستين أوقية وهو غلاء لم يسمع بمثله، ثم أعيدت الصلاة سابعة والخطيب أبو عبد الله البوعناني، ثم أعيدت ثامنة والخطيب الشيخ الولي الزاهد أبو عبد الله محمد العربي الفشتالي، وفي عشية غده نزل المطر مع رعد وبرق ففرح المسلمون وأكثروا من حمد الله تعالىٰ، ثم أعيدت الصلاة تاسعة والخطيب القاضي بردلة، وخرج يومئذ في جملة الناس شيخ الإسلام وبركة الأمة الإمام أبو محمد سيدي عبد القادر الفاسي راكبًا علىٰ حمار جاعلاً الأشراف من أهل البيت الطاهر أمامه مستشفعًا بهم إلىٰ الله تعالىٰ، فنزل عند الرجوع مطر قليل، ومن الغد نزل المطر الغزير الكافي النافع فانحطت الأسعار ونزل القمح إلىٰ خمس وثلاثين أوقية بعدما كررت الصلاة تسع مرات، وكانت الصلاة التاسعة يوم الاثنين خامس المحرم فاتح سنة إحدىٰ وتسعين وألف.

الخبر عن الدولة الأولى لأمير المؤمنين المولى أبي العباس أحمد بن إسماعيل المعروف بالذهبي رحمه الله

لما توفي أمير المؤمنين المولىٰ إسماعيل - رحمه الله - في التاريخ المتقدم اجتمع قواد العسكر وأعيان الدولة وكتابها وقضاتها وبايعوا المولىٰ أبا العباس أحمد بن إسماعيل المعروف بالذهبي لبسط يده بالعطاء، قال أكنسوس بايعوه بإشارة العبيد الشبيهة بالجبر ولم يكن ذلك عن عهد من أبيه وكتبوا ببيعته إلىٰ الآفاق.

ثم قدم عليه قواد القبائل والأمصار وأعيانها من أهل الحواضر والبوادي مبايعين ومؤدين الطاعة فجلس للوفود وأجاز كلاً علىٰ قدر مرتبته، وردهم إلىٰ بلادهم، وتفرغ لشأنه فافتتح عمله بقتل عمال أبيه وأركان دولته.

[٤٠٢]واعلم أن المولىٰ أحمد - رحمه الله - كان مستبداً عليه في كثير من الأحوال يشير العبيد عليه فيفعل، وما قتل مَن قتل من رؤساء الدولة إلَّا بإشارتهم، وقتل جماعة من القواد والكتاب سوىٰ من تقدم، وطاف علىٰ بيوت الأموال ومخازن السلاح والكُسىٰ، فأمر بإخراج ذلك وتفرقته علىٰ العبيد وقواد الجيش

وأعطى من ذلك فوق الكفاية وعم العلماء والأشراف والطلبة بالنوال، وخص أفرادًا من العسكر بألوف، فاغتبط الناس به وحمدوه، رحمه الله.

[٤٠٣] إغارة القائد أبي العباس أحمد بن علي الريفي على تطاوين وما دار بينه وبين الفقيه أبي حفص عمر الوقاش

كان القائد المجاهد أبو العباس أحمد بن علي الريفي يلي رئاسة المجاهدين هو وأبوه من قبله بالثغور الهبطية أيام السلطان المولى إسماعيل - رحمه الله - وكانت له ولأبيه اليد البيضاء في فتح طنجة والعرائش وغيرهما حسبما سلف بعضه، فكانت له بذلك وجاهة كبيرة في الدولة خصوصًا ببلاد الهبط، وكان بتطاوين يومئذ الفقيه الأديب أبو حفص عمر الوقاش من بيوتاتها وأهل الرياسة بها، كان أولاً كاتبًا مع السلطان المولى إسماعيل - رحمه الله - وكانت له المنزلة العالية عنده، ثم لما ضعف عن الخدمة السلطانية بكبر سنه ولاه على تطاوين وأعمالها، فحدثت بينه وبين القائد أبي العباس الريفي منافسة أوجبتها المجاورة والمعاصرة، واستمر الحال على ذلك إلى أن توفي السلطان المولى إسماعيل - رحمه الله - وأفضى الأمر إلى ابنه المولى أحمد، فضيع الحزم وأهمل أمر الجند حتى سقطت هيبة السلطان من قلوب الولاة في النواحي، فانتهز أبو العباس الريفي الفرصة في أهل تطاوين وزحف إليها في جيش كثيف، ودخلها على حين غفلة من أهلها وحاول الفتك فيهم، فبرز إليه الفقيه أبو حفص الوقاش في أهل تطاوين وحاربه فانتصر عليه، وأوقع به وقعة أعظم مما كان أضمر له وقتل من إخوانه عددًا كثيرًا.

[٤٠٤] ولما اتصل خبر هذه الوقعة بأمير المؤمنين المولى أحمد - رحمه الله - أغضى عن الفريقين ودخل داره وعكف على ملذاته وترك الناس وشأنهم، وثار ببلاد الغرب والقصر وأعماله فساد كبير بين القبائل وأصحاب المخزن، وهلك في ذلك بشر كثير وسقطت هيبة الخلافة، وانحل نظام الدولة بالمرة لا سيما مع ما دهاها من قتل رجالها القائمين بأمورها، وكان ذلك منتهى مراد العبيد، وامتدت أيدي النهب في الطرقات، وكثرت الشكايات بباب السلطان فما وجدت الناس من يشكيهم، فبعث أهل فاس جماعة من أشرافهم إلى السلطان بمكناسة يشكون إليه ما

نالهم من جور فلما وصلوا إليها، منعوا من الدخول على السلطان ورجعوا إلى فاس مخفقين، واستمر الأمر على حاله إلى أن كاتبهم عبيد الديوان يطلبون منهم موافقتهم على عزل السلطان المولى أحمد وتولية أخيه المولى عبد الملك صاحب السوس فأجابوهم إلى ذلك وطاروا به كل مطير وأكرموا وفدهم وحالفوهم على الوفاء ورجع العبيد إلى مكناسة شاكرين، ففاوضوا من بها من قواد الجند وتذاكروا فيما وقع فيه الناس من الفساد وانقطاع السبل وتعذر الأسباب، وتحققوا بما أتوه من سوء التدبير في تقديم المولى أحمد لكونه كان ضعيف المُنّة [1]، غير مطلع بأعباء الخلافة، فأجمعوا على عزله واستبدال غيره به، ولما تم أمرهم على ذلك بعثوا إلى أخيه المولى عبد الملك وكتبوا إليه كتابًا يستحثونه للقدوم وأعلموه بما أجمع عليه رأيهم فأجاب وأقبل مسرعًا نحو مكناسة، ولما انتهى إلى وادي بهت واتصل خبره بالعبيد دخلوا على السلطان المولى أحمد وقبضوا عليه وأخرجوه من دار الملك مخلوعًا، وسجنوه بداره التي كان يسكن بها قبل البيعة خارج القصبة، وكان ذلك في شعبان سنة أربعين ومائة وألف.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين

المولى أبي مروان عبد الملك ابن إسماعيل رحمه الله

لما خلع السلطان المولى أحمد - رحمه الله - وسجن خارج القصبة - كما مر - اجتمع من الغد الجيش كله وركبوا لملاقاة المولى أبي مروان عبد الملك بن إسماعيل فاجتمعوا به خارج مكناسة وأدوا واجب الطاعة والتفوا عليه ودخلوا به الحضرة في زي الملك وأهبة السلطان، ثم حضر أعيان الدولة وأمراؤها وقضاتها وعلماؤها وأشرافها فبايعوه، وكتب بيعته إلى الآفاق، ومن الغد قدم عليه أعيان فاس من العلماء والأشراف وغيرهم ببيعتهم فدخلوا عليه وبايعوه، ثم قدمت عليه الوفود للتهنئة من حواضر المغرب وبواديه فجلس لملاقاتهم وقابلهم بما يجب من البشر إلى أن فرغ من شأنهم وتفقد أخاه المولى أحمد المخلوع فأمر به إلى فاس كي يسجن بها ثم بدا له فأمر بتوجيهه إلى سجلماسة.

---

(١) قلت: أي القوة.

نالهم من جور فلما وصلوا إليها، منعوا من الدخول على السلطان ورجعوا إلى فاس مخفقين، واستمر الأمر على حاله إلى أن كاتبهم عبيد الديوان يطلبون منهم موافقتهم على عزل السلطان المولى أحمد وتولية أخيه المولى عبد الملك صاحب السوس فأجابوهم إلى ذلك وطاروا به كل مطير وأكرموا وفدهم وحالفوهم على الوفاء ورجع العبيد إلى مكناسة شاكرين، ففاوضوا من بها من قواد الجند وتذاكروا فيما وقع فيه الناس من الفساد وانقطاع السبل وتعذر الأسباب، وتحققوا بما أتوه من سوء التدبير في تقديم المولى أحمد لكونه كان ضعيف المُنّة [1]، غير مطلع بأعباء الخلافة، فأجمعوا على عزله واستبدال غيره به، ولما تم أمرهم على ذلك بعثوا إلى أخيه المولى عبد الملك وكتبوا إليه كتابًا يستحثونه للقدوم وأعلموه بما أجمع عليه رأيهم فأجاب وأقبل مسرعًا نحو مكناسة، ولما انتهى إلى وادي بهت واتصل خبره بالعبيد دخلوا على السلطان المولى أحمد وقبضوا عليه وأخرجوه من دار الملك مخلوعًا، وسجنوه بداره التي كان يسكن بها قبل البيعة خارج القصبة، وكان ذلك في شعبان سنة أربعين ومائة وألف.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين

المولى أبي مروان عبد الملك ابن إسماعيل رحمه الله

لما خلع السلطان المولى أحمد ـ رحمه الله ـ وسجن خارج القصبة ـ كما مر ـ اجتمع من الغد الجيش كله وركبوا لملاقاة المولى أبي مروان عبد الملك بن إسماعيل فاجتمعوا به خارج مكناسة وأدوا واجب الطاعة والتفوا عليه ودخلوا به الحضرة في زي الملك وأهبة السلطان، ثم حضر أعيان الدولة وأمراؤها وقضاتها وعلماؤها وأشرافها فبايعوه، وكتب بيعته إلى الآفاق، ومن الغد قدم عليه أعيان فاس من العلماء والأشراف وغيرهم ببيعتهم فدخلوا عليه وبايعوه، ثم قدمت عليه الوفود للتهنئة من حواضر المغرب وبواديه فجلس لملاقاتهم وقابلهم بما يجب من البشر إلى أن فرغ من شأنهم وتفقد أخاه المولى أحمد المخلوع فأمر به إلى فاس كي يسجن بها ثم بدا له فأمر بتوجيهه إلى سجلماسة.

---

(١) قلت: أي القوة.

قال في «الأزهار الندية»: لما بعث السلطان المولى أبو مروان بأخيه المولى أحمد المخلوع إلى تافيلالت كتب إلى عامله بها أن يسمل عينيه بفور بلوغه فنما ذلك إلى المولى أحمد ففر إلى زاوية الشيخ أبي عثمان سيدي سعيد آحنصال، وكان مقدم الزاوية يومئذ السيد يوسف ابن الشيخ سعيد المذكور،

فقال للمولى أحمد: إنك سترجع إلى الملك، فكان كما قال، ورجا الناس أن يكون السلطان المولى أبو مروان كأبيه، وأن يسير فيهم بسيرته ويسد مسده، فخاب الظن وأخفق المسعى.

وابن اللبون إذا ما لز في قرن لم يستطع صولة البزل القناعيس

[٤٠٥] وأمسك الله يده عن العطاء فلم يسمح للعسكر ولا للوفود بدرهم، فكان ذلك من أكبر الأسباب في اختلاف أمره وتفسخ دولته، فطلب العسكر منه جائزة البيعة على العادة فبعث اليهم بأربعة آلاف مثقال، وكان راتبهم على عهد السلطان المولى إسماعيل - رحمه الله - مائة ألف مثقال، ولما بويع السلطان المولى أحمد زادهم في الراتب خمسين ألفا، فلما وصلت إليهم جائزة المولى أبي مروان سُقط في أيديهم وعلموا أنهم لم يصنعوا شيئًا في بيعته، وتناجوا بعزله وأضمروا ذلك وتحينوا وقت الفرصة فيه، فنما إليه ذلك عنهم فأخذ حذره وصار يكاتب قبائل العرب ويعدهم ويمنيهم ويحضهم على اجتماع كلمتهم كي ينفعوه يومًا ما، ظنًا منه أنهم يقاومون العبيد، ثم كتب إلى البربر أيضًا يغريهم بالعبيد وأغرى العبيد بالبربر، واطلع العبيد على خبيئته فحاصوا عنه حيصة حمر الوحش، وأصفقوا على عزله ورد أخيه المولى أحمد لملكه لسخائه وبسط يده، وكذبوا، فإن المولى أبا مروان - رحمه الله - كان أنسب حالاً بالخلافة من أخيه المولى أحمد لنجدته وحزمه، وكان قد عزم على تطهير الحضرة وبساط الدولة من افتيات العبيد وتحكمهم إلَّا أنه لم يُحكم التدبير في ذلك فعاجلوه قبل أن يعاجلهم.

[٤٠٦] ولما تحقق المولى أبو مروان بما عزم عليه العبيد من خلعه بعث إليهم الشيخ البركة مولاي الطيب بن محمد الوزاني واعظًا ومذكرًا فأتاهم ووعظهم ووعدهم الخير إن أقلعوا، ونهاهم عن الخروج على السلطان واتباع سبيل السلطان، وخوفهم في ذلك من سخط الله فما زادهم إلَّا نفوراً، ثم بعثوا بجريدة من الخيل إلى

سجلماسة ليأتوا بالمولى أحمد، وفي أثناء ذلك ركب العبيد من الديوان وأغاروا على مكناسة، ثم دخلوا دار الملك للقبض على السلطان المولى أبي مروان فلم يجدوه؛ لأنه لما سمع بما فعله العبيد بمكناسة، ركب في جماعة من أصحابه وفر إلى فاس.

الخبر عن الدولة الثانية لأمير المؤمنين المولى أبي العباس أحمد الذهبي رحمه الله

لما راسل العبيد المولى أحمد بن إسماعيل بسجلماسة وأعلموه بما عزموا عليه من عزل أخيه ورد الملك إليه بادر بالقدوم إلى مكناسة فدخلها في التاريخ المتقدم، وحضر أعيان الدولة من القواد والقضاة والكتاب، وبايعوه البيعة الثانية وكتبوا بذلك إلى الآفاق، ثم دخل دار الملك وفرق الأموال والكُسى في العسكر والعلماء الأشراف وبالغ في ذلك تفصيًا مما نقمه العبيد على أخيه، وكان فعل أخيه أقرب إلى الصواب لو سلك الوسط، وأحكم أمره ورتبه ترتيب ذوي الحزم، ولكن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

حصار أمير المؤمنين المولى أحمد لفاس والسبب في ذلك

لما بويع المولى أحمد البيعة الثانية قدم عليه الوفود من القبائل والأمصار فأكرم وفادتهم، وتخلف عنه أهل فاس فلم يقدم عليه أحد منهم، ثم ورد عليهم كتاب السلطان المولى أحمد يأمرهم أن يسلموا إليه أخاه ويدخلوا فيما دخل فيه الناس أو يأذنوا بحربه، فجهروا بالخلاف وأغلقوا الأبواب ووطنوا أنفسهم على الحصار، ثم نهض السلطان المولى أحمد فاتح محرم من سنة إحدى وأربعين ومائة وألف في عسكر العبيد، فزحف إلى فاس ونزل عليها ثاني يومه ونصب عليها المدافع والمهاريس وآلات الحصار، وأمر الطبجية بموالاة الكور والبنب [1] والحجارة عليها ليلاً ونهارًا ففعلوا، ودام ذلك إلى أن عمها الخراب وتهدم الكثير من دورها وهلك عدد وافر من رجالها، بعضهم في القتال وبعضهم بالهدم والحجارة، واستمر

---

(١) قلت: أي القنابل.

الحصار نحو خمسة أشهر فضاق بهم الحال وضعفوا عن القتال، وقلّت الأقوات وارتفعت الأسعار، فأذعنوا للطاعة وصالحوا المولى أحمد على إسلام أخيه المولى عبد الملك إليه وتمكينه منه على الأمان، فبعث السلطان المولى أحمد إلى أخيه المولى عبد الملك يخيره بين التغريب إلى سجلماسة والمقام بالحرم الإدريسي، فاختار المقام بالحرم.

ثم إن السلطان تقدم إلى أهل فاس في أن لا يجتمع أحد منهم بأخيه ولا يجالسه ولا يكلمه ولا يبيع من أحد من أصحابه شيئًا ولا يشتري منه، ومن فعل شيئًا من ذلك فإنه يعاقب، فلما رأى المولى عبد الملك ما عامله به أخوه من التضييق بعث ولده إلى العبيد يطلب منهم أن يؤمنوه ويخرج معهم إلى حيث شاؤوا، فقدم عليه الباشا سالم الدكالي في خمسين من القواد وعاهدوه بالحرم الإدريسي أن لا يصيبه مكروه، فخرجوا به حتى قدموا به على أخيه، فلما مثل بين يديه أمر به أن يحمل إلى مكناسة مقبوضًا عليه، فوصل إلى مكناسة وسجن بدار الباشا مساهل، ثم رحل السلطان المولى أحمد عن فاس قافلاً إلى مكناسة وعند حلوله بها مرض مرض موته، ولما أحس من نفسه بالموت أمر بخنق أخيه المولى عبد الملك فخنق ليلة الثلاثاء أول يوم من شعبان، ثم توفي السلطان المولى أحمد يوم السبت رابع شعبان المذكور سنة إحدى وأربعين ومائة وألف فكان بين وفاتهما ثلاثة أيام رحمهما الله.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين
المولى عبد الله بن إسماعيل رحمه الله

كان المولى عبد الله بن إسماعيل، أيام خلافة أخيه المولى أحمد منحاشًا إلى أخيه المولى عبد الملك ومقيمًا معه ببلاد السوس، فلما خُلع المولى أحمد وبويع المولى عبد الملك وقدم مكناسة قدم المولى عبد الله في ركابه، واستمر مقيمًا بها إلى أن ثار العبيد بالمولى عبد الملك وفر إلى الحرم الإدريسي، فخرج المولى عبد الله من مكناسة إلى سجلماسة، وأقام بداره بها إلى أن توفي السلطان المولى أحمد في التاريخ المتقدم، فاجتمع أعيان الدولة من العبيد وسائر القواد والرؤساء واتفقوا على بيعة المولى عبدالله بن إسماعيل وهو يومئذ بسجلماسة، فنادوا باسمه وأعلنوا بنصره في المحلة

ومكناسة، وبعثوا جريدة من الخيل لتأتي به، وكتبوا مع ذلك إلىٰ أهل فاس يعزونهم عمن هلك من إخوانهم أيام الحصار، ويحضونهم علىٰ الموافقة علىٰ بيعة المولىٰ عبدالله بن إسماعيل.

ولما وصل الكتاب إلىٰ فاس قُرِئ علىٰ منبر جامع القرويين فأجابوا بالموافقة إن حضر، ولما وصلت الخيل إلىٰ المولىٰ عبد الله وأعلموه بما اتفق عليه الناس في شأنه أقبل مسرعًا حتىٰ نزل بظاهر فاس بالموضع المسمىٰ بالمهراس، فخرج أعيان فاس من العلماء والأشراف وغيرهم لملاقاته فسلموا عليه واستبشروا بقدومه فسر بهم وألان لهم القول، ثم إن السلطان أمر أهل فاس ببعث طائفة منهم تكون معه علىٰ العادة، فعينوا الخمسمائة التي كانت تغزو مع الملوك قبله، فذهبت معه إلىٰ مكناسة.

[٤٠٧] ولما استقر بالحضرة قدم عليه أعيان الديوان وعمال القبائل ووفود الحواضر والبوادي، ففرق المال ولم يحرم أحدًا سوىٰ أهل فاس، فإنه لم يعطهم شيئًا، ثم حضر عيد الفطر فقدمت وفود الأمصار ليشهدوا العيد مع السلطان علىٰ العادة، وقدم وفد فاس لهٰذا الغرض وحضروا صلاة العيد مع السلطان بالمصلىٰ، ولما قدم الناس هداياهم بعد رجوع السلطان إلىٰ منزله قدم أهل فاس هديتهم علىٰ العادة فأعطىٰ الناس وحرمهم ثانيًا.

قلت: ولست أشك في أن شيطانا من شياطين الإنس كان موكلاً بهٰذا السلطان يغريه بأهل فاس، ويوغر صدره عليهم ويفسد ما بينه وبينهم، وإلا فكيف تقتضي السياسة أن يعمد ملك كبير إلىٰ أخص رعيته ولبها وصميمها فيفسد ضمائرها عليه ويزرع بغضه في قلوبها، وهب أنهم أساؤوا الأدب أليس التغافل مطلوبًا في مثل هٰذا ما أمكن؟ لا سيما في حق السلطان، وقد كان المنافقون يؤذون رسول الله ﷺ وأصحابه فيحلم عنهم، وقال له بعض أصحابه: ألا نقتلهم؟ فقال له ﷺ: «**كيف يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه**»، ومن الحكم المأثورة قولهم: التعامي يدفع شرًا كثيرًا، وقال الشاعر:

ليس الغبي بسيد في قومه لكن سيد قومه المتغابي

ومن الغد، أمر السلطان بإحضار أهل فاس ثم خرج عليهم فقاموا إليه وأدوا واجب التحية، فقال لهم: يا أهل فاس، كاتبوا إخوانكم يسلموا إلينا البساتين

والقصبات فإنها للمخزن ومن وظائفه فإن أبوا فإني آتيهم وأهدم عليهم تلك القرية، فأجابوا بالسمع والطاعة وعادوا إلىٰ رحالهم.

ولما كان المساء اتخذوا الليل جملاً وأسروا ليلتهم كلها ولم يصبحوا إلَّا بباب فاس، فاجتمعوا بإخوانهم وقرروا لهم مقالة السلطان وما عزم عليه في حقهم، فاجتمع أعيانهم وتفاوضوا في شأنهم وشأن السلطان وأحضروا نسخة البيعة وتصفحوا شروطها وقالوا: إنا لم نبايعه على هٰذا الذي يعاملنا به، ثم أعلنوا بخلعه والأمر لله وحده.

حصار المولى عبد الله مدينة فاس

لما أعلن أهل فاس بخلع السلطان المولىٰ عبد الله عزموا علىٰ الحرب ووطنوا انفسهم علىٰ الحصار، ونادوا في المدينة من أراد الخروج إلىٰ بلده ومأمنه من غير أهل البلد فليتهيأ في ثلاث، ثم أغلقوا أبواب المدينة واستعدوا للقتال.

ولما سمع السلطان بخبرهم تهيأ لغزوهم فأخذ أهبته وخرج من مكناسة في الخامس والعشرين من شوال سنة إحدىٰ وأربعين ومائة وألف، فنزل علىٰ فاس ووزع الجنود عليها من كل ناحية، وأطلق يد الجيش بالعيث في أطرافها من تخريب المصانع وقطع الأشجار وإفساد المزارع، وأمر بطم الوادي فانحبس عنهم ماؤه، وزحفت العساكر فكان القتال علىٰ كل باب سائر النهار فإذا كان المساء أمر الطبجية والأعلاج بإرسال الكور والبنب وحجارة المنجنيق، فكان الناس لا يستريحون بالنهار ولا ينامون بالليل، واشتد الكرب، واستمر الحال إلىٰ أن دخلت سنة اثنتين وأربعين ومائة وألف فازداد الأمر شدة، وارتفعت الأسعار وانعدمت الأقوات، وكثر الهرج، فبعثوا إلىٰ السلطان في الصلح، فقال: علىٰ تسليم البساتين والقصاب، فأبوا وتجلدوا، ثم بعد ذلك وقع الصلح علىٰ يد القائد أبي عبد الله محمد السلاوي بضريح المولىٰ إدريس ﷺ، واستصحب معه جماعة من أشراف فاس وعلمائها إلىٰ السلطان وهو بفاس الجديد، فأكرم مقدمهم ووصلهم بألف دينار وكساهم.

[٤٠٨] ثورة العبيد على السلطان المولى عبد الله وفراره إلى وادي نول وما نشأ عن ذلك

لما كانت سنة سبع وأربعين ومائة وألف فسد ما بين السلطان المولى عبد الله ـ رحمه الله ـ وبين العبيد لإسرافه في قتلهم حتى كاد يأتي على عظمائهم، وكان ذلك منه جزاءً لهم على قتلهم لأخيه المولى عبد الملك، حسبما سبق إذ كان ما بينه وبينه صالحًا كما مر، فقتل منهم كل من سعى في قتله أو شارك فيه أو وافق عليه، حتى بلغ عدد من قتل منهم أزيد من عشرة آلاف، فأجمعوا على خلعه وقتله ودس إليه بعضهم بما عزموا عليه في شأنه، ففر ليلاً من مكناسة ومضى إلى مراكش ومنها ذهب إلى السوس فنزل بوادي نول على أخواله المغافرة، وأقام عند المغافرة نحو ثلاث سنين.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن إسماعيل المعروف بالأعرج رحمه الله

لما فر أمير المؤمنين المولى عبد الله بن إسماعيل من مكناسة إلى وادي نول اجتمع عبيد الديوان واتفقوا على بيعة المولى أبي الحسن علي بن إسماعيل المعروف بالأعرج، وكان يومئذ بسجلماسة، فكتبوا إليه بذلك وبعثوا بالكتاب مع جريدة من الخيل لتأتي به فأقبل مسرعًا، ولما وصل إلى مدينة صفرو لقيه بها أعيان فاس وأشرافها وعلماؤها فبايعوه ففرح بهم وأكرمهم، وعادوا في صحبته إلى فاس الجديد فولى عليهم مسعودًا الروسي وذلك في ربيع الثاني سنة سبع وأربعين ومائة وألف، وأمره أن لا يقبض منهم إلّا الزكوات والأعشار الشرعية وما جرت به العادة من الهدايا الخفيفة.

وكان ـ رحمه الله ـ موصوفًا بالحلم والعقل، متوقفًا في الدماء، فستره الله في آخر أمره وأجمل خلاصه ثم نهض إلى مكناسة ولما قدمها بايعه الجيش بها البيعة العامة.

تحرك السلطان المولى عبد الله
من السوس وفرار السلطان أبي الحسن

لما كان شهر ذي الحجة من سنة تسع وأربعين ومائة وألف ورد الخبر بأن السلطان المولى عبد الله قد أقبل من وادي نول ووصل إلى تادلا فاهتز العبيد له، وتحدثت فرقة منهم برده إلى الملك.

ثم إن شيعة المولى عبد الله قويت وأعلنوا بيعته.

ولما سمع بذلك السلطان المولى أبو الحسن، فرَّ إلى عرب الأحلاف فأناخ بديارهم ففرحوا به وأكرموه وصاهروه، وأقام بين أظهرهم عدة سنين معرضًا عن الملك وأسبابه.

الخبر عن الدولة الثانية
لأمير المؤمنين المولى عبد الله بن إسماعيل رحمه الله

لما فر السلطان المولى أبو الحسن من مكناسة إلى الأحلاف اجتمعت كلمة العبيد على بيعة السلطان المولى عبد الله فبايعوه وهو بتادلا، وتبعهم على ذلك أهل فاس وسائر القبائل.

[٤٠٩] ولما أقبل السلطان المولى عبد الله من تادلا خرج للقائه أهل فاس وفيهم الأشراف والعلماء، وكذلك أهل مكناسة، ولما مثلوا بين يديه عاتبهم وعدد ما سلف منهم ثم أمر بأعيانهم فقتلوا، وفعل مثل ذلك بأعيان مكناسة واستباحهم، ورجع أشراف فاس وعلماؤها مذعورين مما نابهم.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين المولى محمد بن إسماعيل
المعروف بابن عريبة والسبب فيها

لما رأى أهل فاس ما نزل بهم اجتمعوا وتحالفوا على خلع السلطان المولى عبد الله وبيعة أخيه المولى محمد بن عريبة وأخذوا عليه العهود ثم بايعوه في عاشر جمادى الأولى سنة خمسين ومائة وألف، وهيَّؤوا له كل ما يحتاج إليه من خيل وسلاح وآلة

حرب وتباروا في طاعته وخدمته، وكتبت بيعته في خامس عشر الشهر المذكور، وكتب عليها الفقهاء خطوطهم وامتنع بعضهم من ذلك، وقالوا: بيعة السلطان المولى عبد الله في أعناقنا فلا نخلعها، فعزلوا عن الخطط وامتحنوا، ثم كتب أهل فاس إلى عبيد الديوان يعرفونهم ما صنعوا ويطلبون منهم موافقتهم فأجابوهم إلى ذلك وبايعوا السلطان المولى محمد بن عريبة وتم أمره.

ولما رأى السلطان المولى عبد الله أن أمر أخيه قد تم فر إلى جبال البربر وأقام هنالك، ثم فتحت أبواب فاس وانتقل السلطان المولى محمد إلى فاس الجديد، ومن الغد نهض إلى مكناسة فاحتل بها وبايعه العبيد البيعة العامة، وقدمت عليه الوفود من سائر الأقطار بهداياهم فأجازهم، وفرق ما كان عنده من المال على العبيد.

[٤١٠] بدء اختلال أمر السلطان المولى محمد بن عريبة وما تسبب عن ذلك

لما فرق السلطان المولى محمد بن عريبة على العبيد ما عنده من المال لم يقنعهم ذلك، واستزادوه فأطلق -عفا الله عنه- أيدي النهب في أموال المسلمين، وأخذ هو في استخراج الحبوب والأقوات من دور أهل مكناسة غصبًا، وبحث عنها وكل من ذكر له أن عنده قمحًا أو شعيرًا قبض عليه، وصادره إلى أن يظهر ما عنده، وكل من جلب من أهل البادية حبا أخذ منه كرهًا، فكثر الهرج وعمت الفتنة وفر الناس من مدينتهم وعم النهب خارجها وانقطعت السبل ووقع الناس في حيص بيص، والأمر لله وحده.

[٤١١] بقية أخبار السلطان المولى محمد بن عريبة وما تخللها من الهرج والشدة

كانت أيام المولى محمد بن عريبة هذا أيام نحس ووبال على المسلمين، وكذا أيام أخيه المولى المستضيء الذي إليه يساق الحديث، وكل ذلك -والله تعالى أعلم- من استيلاء العبيد على الدولة وشؤم افتياتهم عليها طوع أهوائهم وحسب

أغراضهم، إذ معلوم أنه لا ينشأ عن كثرة الخلع والتولية إلَّا هٰذا وشبهه، نسأل الله تعالىٰ اللطف والحفظ في الأهل والدين والمال في الحال والمآل.

وقد تكلم صاحب «نشر المثاني» على هذه السنة ـ أعني سنة خمسين ومائة وألف ـ فقال: وفي هٰذه السنة هزم جيش الثائرين علىٰ مولاي عبد الله يعني العبيد هزيمة عظيمة بعد أن صدر منهم فساد كبير وذلك علىٰ يد البربر، وارتفعت الأسعار جداً وجعل اللصوص يهجمون علىٰ الناس في دورهم ليلاً ويقتلونهم وهم يستغيثون فلا يغاثون، وبلغ الخوف إلىٰ أبواب الدور المتطرفة بفاس نهاراً، وكثر الهدم في الدور لأخذ خشبها وكثر الخراب وخلت الحارات فتجد الدرب مشتملاً علىٰ عشرين داراً وأكثر وكلها خالية.

[٤١٢]وكل من قدر علىٰ الفرار فر من فاس، وقل من سلم منهم بعد خروجه عن البلد، وخرج جماعة وافرة من أهل فاس إلىٰ تطاوين وما والاها لجلب الميرة إذ كان الله ـ تعالىٰ ـ قد سخر العدو الكافر بحمل الطعام إلىٰ بلاد المسلمين، فاشترىٰ أهل فاس منه شيئًا كثيرًا لكن امتنع الجمالون من حمله لهم وماطلوهم، فشكوهم لوالي تلك البلاد ورئيسها حينئذ أحمد بن علي الريفي فأظهر لهم النصح وأبطن الغش لانحرافه عن السلطان ومن يتعلق به، فثبط الجمالين وهم قبيلة بداوة فازدادوا امتناعًا وتعاصيًا حتىٰ بقي أهل فاس معطلين بميرتهم نحو ستة أشهر، فهلك بسبب ذلك خلائق لا يحصون جوعًا، وكلهم في عهدة أحمد بن علي الريفي وما أغنىٰ مال ولا متاع في طلب القوت، ولولا أن الله سخر العدو الكافر بجلب الميرة للمغرب لهلك أهله جميعًا فيما أظن، وذلك كله من شؤم الفتن والخروج علىٰ الملوك.

وأما الأصول والسلع، فلم يكن شيء منها يبلغ عشر ثمنه المعتاد، ولم يقيض الله لهٰذا المغرب راحة حتىٰ منّ برجوع السلطان مولاي عبد الله.

[٤١٣]ثم دخلت سنة إحدىٰ وخمسين ومائة وألف، والناس في شدة، وفي الرابع والعشرين من صفر منها ثار العبيد علىٰ السلطان المولىٰ محمد بن عربية فقبضوا عليه، وعلىٰ قائده علىٰ فاس الشريف أبي محمد عبد المجيد المشامري ووضعوا في رجلي كل واحد منهما قيداً، وأخرجوا ابن عربية وعياله من دار الملك ووكلوا به جماعة من العبيد يحرسونه، وكتبوا إلىٰ أخيه المولىٰ المستضيء بن

إسماعيل بتافيلالت يستدعونه للقدوم عليهم ليملكوه.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين
المولى المستضيء بن إسماعيل رحمه الله

لما قبض العبيد على السلطان المولى محمد بن عريبة أعلنوا بيعة أخيه المولى المستضيء بن إسماعيل، وكتبوا بذلك إلى الآفاق، فساعدهم الناس عليها، وبعثوا جريدة من الخيل على عادتهم لتأتي به، فأقبل مسرعًا، ولما انتهى إلى مدينة صفرو لقيه أهل فاس بها في أشرافهم وعلمائهم وأدوا بيعتهم ورجعوا معه إلى فاس الجديد، فأراح به، وولى عليهم القائد أبا العباس أحمد الكعيدي فاستناب الكعيدي عليهم من قبله شعشوع اليازغي والحال ما حال والظلم ما زال، ثم ارتحل السلطان المولى المستضيء إلى مكناسة فاحتل بها وبايعه العبيد البيعة العامة، وقدمت عليه الوفود والقبائل والأمصار بهداياهم فقابلهم بما يجب واستتب أمره.

[٤١٤] ذكر ما صدر من السلطان
المولى المستضيء من العسف والاضطراب

لما استقر السلطان المولى المستضيء بمكناسة كان أول ما بدأ به أن بعث بأخيه المولى محمد بن عريبة مقيداً إلى فاس، ومنها إلى سجلماسة فسجن بها، ثم بعث السلطان كتابه إلى أهل فاس ولكن رسم أن يقرأ بفاس الجديد ويحضر أعيان أهل فاس لاستماعه فارتابوا وتغيبوا ولم يحضر منهم إلَّا نحو العشرين فقبض عليهم وسجنوا هنالك، ثم وُظف عليهم مال ثقيل لم يقوموا به.

وافتقرت الدولة في أيام هذا السلطان واحتاج إلى المال ليقطع عنه لسان العبيد، فأخذ في البحث عما في المخازن الإسماعيلية التي لم يلتفت إليها الملوك قبله، فوقع على خزين من الحديد فاستخرجه وباعه، ووقع على الخزين الكبير، وفيه آلاف من قناطير الكبريت، فباعها أيضًا، ووجد شيئًا كثيراً من ملح البارود وغير ذلك مما كان يجلب إلى الحضرة من غنائم أجناس الفرنج فباع ذلك كله.

وقتل في هذه المدة نيفًا وثمانين رجلاً من عرب بني حسن، وسلط العذاب

على مساجين أهل فاس ليغرموا المال فغرموا ما قدروا عليه، ثم أمر بالقبض على تجار أهل فاس ليشتروا أصول مساجينهم فعذبوا إلى أن أدوا بعض المال، وعجزوا، وأفتى العلماء أن هذا البيع الواقع في هذه الأصول صحيح تقديمًا لخلاص الأنفس على الأموال، ثم أمر بمساجين أهل فاس فحملوا إليه في السلاسل والأغلال ثم قتلوا بباب القصبة عن آخرهم، وأسرف المولى المستضيء في القتل والعسف وأراد أن يتشبه بأخيه المولى عبد الله الذي جرد السيف وبسط الكف فغطى سخاؤه عيبه، وهيهات، فقد كان المولى المستضيء مِسِّيكًا (١) مهزوم الراية، على ما قيل - تغمدنا الله وإياه والمسلمين بالرحمة والعفو والغفران - .

[٤١٥] شغب العبيد على السلطان المولى المستضيء وفراره إلى مراكش

لما كان منتصف ذي القعدة من سنة اثنتين وخمسين ومائة وألف شغب العبيد بمكناسة على السلطان المولى المستضيء وتآمروا في عزله ومراجعة طاعة أخيه المولى عبد الله، ولما أحس المولى المستضيء بما أجمعوا عليه خرج من مكناسة في شيعته وأنصاره قاصدًا ضريح الشيخ أبي محمد عبد السلام بن مشيش ﷺ، فتبعه المولى عبد الله في جمع من العبيد فأدركوه ببعض الطريق فكر عليهم وقاتلهم حتى رجعوا عنه، ومضى لوجهه إلى أن وصل إلى طنجة ومنها توجه إلى مراكش فإنهم كانوا قد بايعوه.

[٤١٦] مراجعة العبيد طاعة السلطان المولى عبد الله ودخولهم في دعوته

قد قدمنا أن السلطان المولى عبد الله كان مقيمًا في هذه المدة عند البربر، وأنه تبع المولى المستضيء عند خروجه من مكناسة ثم رجع عنه، ولما بلغه خبر مسيره إلى مراكش سار في اعتراضه إلى أن بلغ قصبة وادي آلزم فلم يقف له على خبر فأقام يتجسس أخباره إلى أن اتفق العبيد على بيعته وهو بآلزم، فبايعوه أوائل سنة ثلاث وخمسين ومائة وألف، وكتبوا بيعتهم وبعثوا بها إليه مع بعض خاصتهم، وكتبوا مع

---

(١) قلت: أي بخيلاً.

ذلك إلى أهل فاس في الموافقة، فوافقوهم وبايعوا السلطان المولى عبد الله وخطبوا به على منابرهم وزينت فاس، وبعث أهل فاس جماعة من أشرافهم وعلمائهم ببيعتهم إلى السلطان المولى عبد الله ومعهم جماعة من التجار وحجاج الركب الحجازي بهداياهم، هـٰذا كله والسلطان لا زال مقيمًا بقصبة آلزم، وتولى العبيد بمكناسة النقض والإبرام لتأخر مجيء السلطان، وظهر منهم الإدلال والاستبداد على الدولة.

[٤١٧] مجيء السلطان المولى عبد الله إلى مكناسة وما ارتكبه من أهلها

وفي خامس عشر رجب سنة ثلاث وخمسين ومائة وألف تحرك السلطان المولى عبد الله من آلزم وقدم مكناسة فقبض على قاضيها الفقيه أبي القاسم العميري، والسيد أبي العباس أحمد الشدادي، والعباس بن رحال، والفقيه المليتي وأزال عمائمهم وفضحهم وقال لهم: كيف تزوجون حرمي من أخي وأنا حي، ونكل بهم النكال الشديد، ثم أمر بسحبهم إلى السجن، وأعطى دار القاضي العميري أحد العبيد، وقال لهم: من أراد منكم داراً بمكناسة فليأخذها، فامتدت أيدي العبيد في الناس حتى صاروا يقفون بالأبواب ويقول العبد لصاحب الدار: إن سيدي قد أعطاني دارك أو أعطاني ابنتك، فيفتدي منه بالمال، ولحقهم من العبيد فوق ما يوصف، ومن شكى منهم عوقب وسجن.

ثم إن السلطان أمر المسخرين الذين معه بنهب زروع أهل مكناسة فوقع من ذلك شر عظيم، وذلك أوائل سنة أربع وخمسين ومائة وألف، ثم وظف عليهم وظائف كثيرة من دفع المؤنة له ولأصحابه وإعطاء العَمَلَة للبناء وغير ذلك فتشفعوا إليه مراراً فلم يقبل.

[٤١٨] شغب العبيد على السلطان المولى عبد الله وفراره ثانية إلى البربر

لما كان شهر ربيع الأول من سنة أربع وخمسين ومائة وألف شغب العبيد على

السلطان المولى عبد الله وهموا بخلعه والإيقاع به، فنذرت بذلك أمه الحرة خناثي بنت بكار، ففرت من مكناسة إلى فاس الجديد، ومن الغد تبعها ابنها السلطان المولى عبد الله ونزل برأس الماء، فخرج إليه أهل فاس وأجلوا مقدمه واهتزوا له، فاستعطفهم السلطان وقال لهم: أنتم جيشي وعدتي ويميني وشمالي وأريد منكم أن تكونوا معي على كلمة واحدة، وعاهدهم وعاهدوه ورجعوا وفي أثناء ذلك بلغه أن أحمد بن علي الريفي قد كاتب عبيد مشرع الرملة وكاتبوه واتفق معهم على خلع السلطان المولى عبد الله وبيعة أخيه المولى زين العابدين، وكان يومئذ عنده بطنجة وأنهم وافقوه، فوجم لها السلطان المولى عبد الله، ثم استعجل أمر المولى زين العابدين ففر المولى عبد الله إلى بلاد البربر.

[٤١٩] الخبر عن دولة أمير المؤمنين زين العابدين بن إسماعيل رحمه الله

كان ابتداء أمر السلطان المولى زين العابدين أنه قدم مكناسة في أيام أخيه المولى المستضيء، فلما سمع به أمر بسجنه قبل أن يجتمع به فسجن مدة ثم أمر يومًا بإخراجه وضربه فضرب - وهو في قيده - ضربًا وجيعًا أشرف منه على الموت، ومع ذلك فلم ينطق بكلمة، ثم رده إلى السجن، ثم أمر ببعثه مقيدًا إلى سجلماسة كي يسجن بها مع بعض الأشراف المسجونين هنالك، فلما سمع بذلك قواد رؤوسهم من العبيد بعثوا من رده من صفرو إلى فاس ومن هنالك بعثوا به إلى القائد أبي العباس أحمد الكعيدي ببني يازغة وأمروه أن يحتفظ به مكرمًا مبجلاً.

ثم لما فر المولى المستضيء عن مكناسة وراجع العبيد طاعة السلطان المولى عبدالله دخل المولى زين العابدين مدينة فاس فاطمأن بها، وسر بولاية المولى عبد الله وخلع المولى المستضيء، ثم ذهب إلى مكناسة وأقام بها مدة، ثم سار إلى طنجة فقدم على صاحبها الباشا أحمد بن علي الريفي فأكرم وفادته وأحسن مثواه، واستمر مقيمًا عنده إلى أن كاتب عبيد الديوان في شأنه ووافقوه في بيعته، فبايعه الباشا أحمد وبايعه أهل طنجة وتطاوين والفحص والجبال وخطبوا به على منابرهم، ثم هيأ له الباشا أحمد كتيبة من الخيل من عبيد الديوان وغيرهم، وبعثهم معه إلى مكناسة فدخلها في ربيع سنة أربع وخمسين ومائة وألف وبويع بها البيعة العامة وقدمت عليه

وفود القبائل والأمصار فقابلهم بما يجب، وتم أمره.

وفرَّ السلطان المولىٰ عبد الله من رأس الماء ودخل بلاد البربر، ولم يقدم علىٰ المولىٰ زين العابدين أحد من الودايا ولا من أهل فاس، وكان فيه أناة وحلم لم يظهر منه عسف ولا امتدت يده إلىٰ مال أحد إلَّا أنه لقلة ذات يده نقص العبيد من راتبهم فكان ذلك سبب انحرافهم عنه كما سيأتي.

[٤٢٠] بقية أخبار المولى زين العابدين وانقراض أمره

لما استقر السلطان المولىٰ زين العابدين بحضرة مكناسة وتم أمره أقام بها نحو الشهرين، ثم تهيأ لغزو أهل فاس الذين تخلفوا عن بيعته، فنهض إليهم في جيش العبيد منتصف جمادىٰ الأولىٰ سنة أربع وخمسين ومائة وألف، ولما بات جيشهم بسيدي عميرة بقصد حصار فاس اختلفت كلمة العبيد، ومن الغد قوضوا أبنيتهم وارتحلوا إلىٰ مكناسة وكفىٰ الله أهل فاس شرهم ولما وصلوا إلىٰ مكناسة نهبوا ثمار جناتها وأفسدوا ما قدروا عليه منها، والذين دخلوا مكناسة مع السلطان طالبوه في الراتب وشددوا في اقتضائه، فلم يكن عنده ما يرضيهم به فشغبوا عليه ومرضوا في طاعته.

هذا، والسلطان المولىٰ عبد الله مقيم بجبال البربر مطل علىٰ الحضرة ومتحفز للوثبة، فلما علم بما المولىٰ زين العابدين فيه من الاضطراب نزل من الجبل وتقدم حتىٰ دخل فاسًا الجديد وذلك في سادس عشر جمادىٰ الآخرة من السنة، فلقيه أهل فاس واهتزوا لمقدمه وطاروا به سرورًا.

ولما اتصل خبره بأخيه المولىٰ زين العابدين ضاق ذرعه وخشعت نفسه، وأصبح غاديًا من مكناسة إلىٰ حيث يأمن علىٰ نفسه معرضًا عن الملك وأسبابه، فكان ذلك آخر العهد به إلىٰ أن توفي، رحمه الله.

[٤٢١] الخبر عن الدولة الثالثة
لأمير المؤمنين المولى عبد الله بن إسماعيل رحمه الله

لما فرَّ السلطان المولىٰ زين العابدين عن مكناسة اجتمع العبيد واتفقوا علىٰ أن يراجعوا طاعة السلطان المولىٰ عبد الله، فبعثوا طائفة من قوادهم ووجهوها إليه

فقدموا عليه منتصف رمضان من السنة المذكورة، فحيوه، وأخبروه بأن إخوانهم قد خلعوا المولى زين العابدين وبايعوه، فسر المولى عبد الله بقدومهم وزينت مدينة فاس، وجددت البيعة العامة من أهل فاس وقبائل العرب والبربر، واستمر الحال على ذلك إلى آخر ذي القعدة من السنة.

[٤٢٢] مجيء المولى المستضيء من مراكش ومحاربته لأخيه المولى عبد الله وما يتبع ذلك

لما اجتمعت كلمة سائر أهل بلاد الغرب على طاعة السلطان المولى عبد الله، أقام ـ رحمه الله ـ بدار الدبيبغ، واستمر الحال على ذلك إلى آخر ذي القعدة من سنة أربع وخمسين ومائة وألف، فارتاب العبيد بمقامه هنالك ورفضه المقام بين أظهرهم بمكناسة التي هي دار الملك يومئذ، فقلبوا له ظهر المجن، على عادتهم واستدعوا المولى المستضيء من مراكش ليبايعوه.

واتصل خبرهم بالمولى عبد الله وأنهم قد بعثوا الخيل إلى المولى المستضيء لتأتي به، فأخذ السلطان من ذلك المقعد المقيم، وشمر عن ساعد الجد وأخذ في تأليف قبائل العرب والبربر، ووصل يد بعضهم ببعض، ثم ألف بينهم وبين أهل فاس وآخى بين الجميع فأعطوه صفقة أيمانهم بأنهم يموتون دونه فتم له منهم ما أراده.

ثم دخلت سنة خمس وخمسين ومائة وألف ففي المحرم منها زحف المولى المستضيء من مراكش إلى بلاد الغرب ودخل مكناسة في جيش العبيد وبني حسن وغيرهم.

وفي آخر المحرم المذكور ورد كتاب من عند القائد أبي العباس أحمد الريفي إلى أهل فاس يدعوهم إلى بيعة مخدومه المولى المستضيء والدخول في طاعته، فصموا عن ذلك ونبذوه.

وفي ربيع الأول من السنة المذكورة زحف المولى المستضيء في جيش العبيد إلى فاس وعسكر بظهر الزاوية خارجها ففر السلطان المولى عبد الله ومن الغد هاجت الحرب بين العبيد وبين أهل فاس والحياينة وشراقة وأولاد جامع، وهلك فيها من الفريقين عدد كثير، وفي رابع ربيع الثاني قدم السلطان المولى عبد الله يجر أم البربر

خلفه في عدد لا يحصيهم إلَّا خالقهم، وفي شارة من اللباس وشكة من السلاح تسر الصديق وتسوء العدو.

ولما عاين المولى المستضيء وعبيده تلك الجموع وعلموا أنهم لا طاقة لهم بحربهم، اتخذوا الليل جملاً وأسروا إلى مأمنهم ونجوا بأنفسهم، وأصبحت الديار منهم بلاقع، فسر الناس بذلك وشكروا الله على انفضاض تلك الجموع بلا قتال.

[٤٢٣] مشايعة الباشا أبي العباس الريفي للمولى المستضيء على المولى عبد الله وزحفه إلى فاس وما يتصل بذلك

لما دخلت سنة ست وخمسين ومائة وألف أقبل الباشا أبو العباس أحمد بن علي الريفي في جموع الفحص والجبل والريف قاصداً فاساً وأعمالها، وذلك في الثاني والعشرين من المحرم منها، وراود أهل فاس على الانحراف عن طاعة مولاي عبدالله فأبوا.

وأقبل المولى المستضيء في جموع العبيد، وعليهم القائد فاتح بن النويني، حتى نزل قريبًا منه في الثاني والعشرين من صفر، ولما زحف هذان الجيشان إلى فاس اضطربت نواحيها ودهش الناس من هول هذا الريفي لأنه جاء في استعداد لم يعهد مثله، وماجت الفتنة موج البحر، وارتفعت الأسعار، ولقي الناس كل شدة، وفي كل صباح ومساء ترعد المدافع وتقرع الطبول بمحلتي المولى المستضيء، والريفي، فاستعد الناس للحرب، وركب السلطان المولى عبد الله في نحو عشرة من الخيل، وأسرع إلى آيت أدراسن (١)، وهم بسهب عشار، فدخل حلة عبد الله بن يشي منهم وقلب سرجه وسط جموعهم فالتف عليه من حضر منهم، وقالوا: ما الذي ناب مولانا؟، فقال: جئتكم لتنصروني على هذا الجبلي الذي كان خديمنا وعبدنا وأطغاه ما جمع من المال في خدمتنا ثم أراد أن يفضحنا وجراه علينا أخونا المستضيء وأراد الاستيلاء على بلادنا وهي في الحقيقة بلادكم، وما قصد إلَّا إهانتكم وأنتم أحق من ينصر أهل البيت ولا يتحمل العار وعليكم السلام، ثم ركب فرسه ورجع عوده

(١) قلت: هي محلة من محال البربر.

علىٰ بدنه.

ثم من الغد ركب أحمد الريفي في رماته وتقدم، ثم عبر المولىٰ المستضيء في جموع العبيد وخلّفوا رماتهم ومدافعهم وأثقالهم بالمحلة، وكتّب المولىٰ المستضيء كتائبه وصف جنوده، وجاءت البربر بجموعها فأشرفوا عليهم، ولما وقعت عينهم علىٰ جموع المولىٰ المستضيء ووزيره الريفي صاحوا بهم وشدوا عليهم شدة رجل واحد فكانت الهزيمة، واستحر فيهم القتل والسلب، وازدحموا في القنطرة، وتساقطوا في الوادي فهلك الكثير منهم، والبربر في أثرهم يقتلون ويسلبون، وأما الريفي فإنه لما رأىٰ الهزيمة عليه لم يزد علىٰ أن ركب فرسه ونجا.

وكان أمر هـٰذه الوقعة فتحًا عظيمًا علىٰ أمير المؤمنين المولىٰ عبد الله وشيعته.

قال في «نشر المثاني»: «فراجع طائفة من العبيد طاعة مولاي عبد الله، وجاءته قبائل المغرب بالهدايا من كل ناحية فتألفهم والآن لهم القول، وأمر العبيد بالمسير إلىٰ طنجة لحرب الريفي فساروا ثم رجعوا ولم يلقوا كيداً».

معاودة أحمد الريفي غزو فاس وما كان من أمره مع السلطان المولى عبد الله إلى حين مقتله

لما وصل أحمد الريفي إلىٰ طنجة أخذ في إخلاف ما ضاع له ولقومه من خيل وسلاح وأخبية ونحوها، وجدد لجيش العبيد من ذلك ما جدده لأهل الريف، وأخذ في الاستعداد لمعاودة غزو فاس، وأقسم أن لا يأكل لحمًا ولا يشرب لبنًا حتىٰ يدخل فاسًا وينهبها كما انتهبوا محلته.

وبعث إلىٰ سلطانه المولىٰ المستضيء بمائتي فرس ومائتي خباء وألف مكحلة وخمسين ألف مثقال يفرقها علىٰ العبيد يتقوون بها، وضرب له موعداً يجتمعون فيه علىٰ حرب السلطان المولىٰ عبد الله وشيعته من أهل فاس فكان أمر الريفي فيما أنفقه كما قال تعالىٰ: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

ولما كان شهر جمادىٰ الأولىٰ من سنة ست وخمسين ومائة وألف خرج أحمد الريفي من طنجة قاصداً حضرة فاس في أحسن استعداد، ولما انتهىٰ خبره إلىٰ السلطان المولىٰ عبد الله لم يسعه التخلف عن لقائه.

ثم خرج السلطان من فاس أواخر جمادىٰ الأولىٰ.

وأما المولىٰ المستضيء في العبيد وبني حسن، فإنه لما بلغه نهوض السلطان المولىٰ عبد الله من فاس خالفه إلىٰ مكناسة دار الملك فدخلها علىٰ حين غفلة من أهلها وعاث وانتهب، وفعل فيها بنو حسن الأفاعيل من سبي النساء والذرية وغير ذلك، ثم تدارك أهل مكناسة أمرهم وتجمعوا لحرب عدوهم فقاتلوا بني حسن في وسط المدينة وردوهم علىٰ أعقابهم وقتلوا منهم ما لا يحصىٰ ورجعوا منهزمين، وأما أحمد الريفي فإنه زحف إلىٰ القصر في جموع لا تحصىٰ من أهل الريف والفحص والجبل وأهل العرائش والقصر والخلط وطليق وبداوة وغيرهم، وأقام ينتظر سلطانه المولىٰ المستضيء وجمعه.

ولما أبطأ عليه واتصل به خبر زحف السلطان المولىٰ عبد الله إليه ارتحل من القصر عامدًا نحوه فالتقىٰ الجمعان عشية ذلك اليوم في رابع جمادىٰ الآخرة سنة ست وخمسين ومائة وألف.

ولما تراءىٰ الجمعان هم جيش السلطان المولىٰ عبد الله بالنزول، فقال السلطان رحمه الله: لا نزول إلّا علىٰ الغنيمة أو الهزيمة، ثم عبر إليهم في جنوده وأعجلهم علىٰ النزول وصمد إليهم في كتيبة من أخواله وعبيده فخالط مقدمتهم ففضها، وتقوضت جموع الريفي من كل جانب وانهزموا للحين ومروا علىٰ وجوههم لا يلوي حميم علىٰ حميم، ومضىٰ جيش السلطان في أثرهم يقتلون ويسلبون إلىٰ الليل، وقتل الريفي في المعركة.

زحف السلطان المولىٰ عبد الله إلىٰ طنجة واستيلاؤه عليها

لما فرغ السلطان المولىٰ عبد الله ـ رحمه الله ـ من أمر الريفي أصبح غاديًا يؤم طنجة ولما شارفها خرج إليه رجالها يحملون المصاحف علىٰ رؤوسهم والصبيان يحملون الألواح بين أيديهم مستشفعين تائبين فعفا عنهم إلّا من كان من بطانة أحمد الريفي.

وكان هٰذا الريفي قد رسخ مجده بطنجة وأعمالها، وعظمت ثروته لامتداد الدولة له ولأبيه بها منذ الفتح، فكان ظفر السلطان المولىٰ عبد الله بخزائنه من باب

الظفر بالكنوز القارونية، وقدمت عليه في أثناء ذلك وفود القبائل التي هنالك فعفا عنهم وأمنهم، وأقام ـ رحمه الله ـ بطنجة أربعين يومًا وانقلب راجعًا إلى فاس مؤيداً منصوراً، وبالله التوفيق.

قفل السلطان المولى عبد الله إلى فاس الجديد وأسهم لأهل فاس، وأقام بدار الدبيبغ إلى أن دخلت سنة سبع وخمسين ومائة وألف، ونهض من فاس، ولما انتهى إلى مكناسة وافاه وأهل الحل والعقد منهم فجددوا التوبة واستأنفوا البيعة بمحضر القضاة والعلماء وأعطوا صفقة الطاعة من عند آخرهم، والله غالب على أمره.

[٤٢٤] في شهر ربيع الثاني سنة ثمان وخمسين ومائة وألف، قدم عليه بها جماعة من المجاهدين أهل الريف من طنجة فوق المائة ومعهم زوجة الباشا أحمد الريفي وولداها منه، فقدمت هدية عظيمة، فقبض السلطان الهدية وقتل الولدين ومن معها من أهل الريف، ثم قتل معهم ثلاثمائة من بني حسن كانوا قدموا عليه للتهنئة، فكان ذلك سبب نفرة الناس عنه، فساءت عنه الأحدوثة وكثرت القالة من الجيش والرعايا حتى في الأسواق، وانقبض الناس عنه حتى أهل فاس فضلاً عن غيرهم.

[٤٢٥] مكر السلطان المولى عبد الله بأعيان البربر وإخفار ذمة محمد واعزيز فيهم ثم إطلاقهم بعد ذلك

لما صدر من السلطان المولى عبد الله ما صدر من قتل أهل الريف وبني حسن وانقباض الناس عنه، انقبض في جملتهم البربر فلم يأته منهم أحد، وكانوا قد حرثوا بأحواز مكناسة، فلما أدرك زرعهم أمر السلطان العبيد بانتهابه، فعمدوا إليه وحصدوه ودرسوه وأكلوه، فازدادت نية البربر فيه فساداً.

ولما رأى انقباضهم عنه كاتب كبيرهم محمداً واعزيز وكانت بينهما خلة ومصافاة حتى كان يقول له: أنت أبي، إذ كان محمد واعزيز هذا هو الذي حشد له جموع البربر وشايعه على عدوه أحمد الريفي حتى قتله، فكتب إليه يلومه على انقباضه عنه، وتخلف قبيله عن الحضور ببابه مع أنهم شيعته ومواليه، فلما ورد عليه

كتاب السلطان لم يسعه التخلف عن إجابته، واستشار في ذلك قومه فلم يوافقوه فراجعهم، فقالوا: ألا ترىٰ إلىٰ ما وقع بمن وفد عليه من غيرنا، فقال: لا ترون إلَّا الخير، ولم يزل بهم حتىٰ غلبهم علىٰ رأيهم، وتفرقوا عنه لجمع الهدية وتعيين الوفد فجمعوا من ذلك ما قدروا عليه ثم أتوه فأعادوا عليه القول وحذروه الغدر، فقال: هٰذا لا يكون ولستم مثل أولئك، فما وسعهم إلَّا إجابته، وأقبلوا معه حتىٰ انتهوا إلىٰ قصبة أبي فكران حيث هو السلطان، فاجتمعوا بالحاجب أبي محمد عبد الوهاب اليموري فلما رآهم بهت، وتحركت منه الرحم البربرية لكنه لم يمكنه ردهم بعد بلوغهم إلىٰ ذلك المحل، وكانوا نحو المائة، كلهم أعيان فترجلوا عن خيولهم ووضعوا أسلحتهم، ثم دخلوا علىٰ السلطان المولىٰ عبد الله فوجدوه جالسا علىٰ كرسيه بوسط القلعة، فأدوا واجب التحية فأجابهم وأمرهم بالجلوس فجلسوا بين يديه، ثم دخل الحرس والزبانية فوقفوا علىٰ رؤوسهم وأحاطوا بهم، وأخذ السلطان في معاتبتهم علىٰ ما يرتكبونه في الطرقات، والغارات علىٰ المستضعفين من الأعراب وغيرهم، وانتهاب بضائع التجار، وما كانوا يعاملون به عساكر الملوك من النهب والسلب، وعدد عليهم الحسائف القديمة والأفعال الذميمة، ثم أمر الحرس بالقبض عليهم فانقضوا عليهم انقضاض العقبان، ولم يكن بأسرع من أن أُلقوا بين يديه مقرنين في الحبال، ولم يقبض علىٰ محمد واعزيز من بينهم، فقال له: يا مولانا أغدراً بعد أمان ولست من أهله؟

فقال له: إن هٰؤلاء القوم قد حادوا عن الدين وحَلّ مالهم ودمهم لخروجهم عن الطاعة وشقهم عصا الجماعة، وقد أعياني أمرهم وما عدت إلىٰ هٰذا الأمر بعد خروجي منه إلَّا من أجلهم، أردت أن أقابل هٰذا التيس الأسود - يعني العبيد - بهٰذا الكبش الأبيض - يعني البربر - وأستريح من غصة من هلك منها وأتمسك بالآخر، ولولا أنك بمنزلة والدي ما أطلعتك علىٰ ما في ضميري فقم في حفظ الله ولا بأس عليك.

فقال محمد واعزيز: والله لا أقوم ولا أكون إلَّا مع إخواني حيثما كانوا فإن هلكوا هلكت معهم ويكون لك غدرك، وإن سلموا سلمت معهم ولا يتحدث الناس أني سقتهم إلىٰ الذبح ورجعت أنا سالمًا، فبأي وجه أسير إلىٰ أولادهم؟ وأي أرض

تحميني من عشيرتهم؟ وإلىٰ أين أقصد؟ فإن كان لا بد من القتل فقتلك لي معهم أجمل بي، ولا إثم عليك في ذلك ولا عار، لأني أنا الذي سقتهم إليك وأرحتهم عليك بعد أن عرضوا علي هـٰذا كله فلم أقبل منهم.

فلما سمع السلطان هـٰذا الكلام العالي وتمكنت منه صولته الحقة جعل يتدبره ثم التفت إلىٰ الحاجب عبد الوهاب وقال: يا عبد الوهاب لا خير في الرجل يقول للرجل أبة ثم لا يشفعه في جماعة من قبيلتة خلوا عنهم، فسرحوهم وخرجوا كأنما نشروا من القبور فركبوا خيلهم وساروا إلىٰ حلتهم ولسان حالهم ينشد ما قاله الأعرابي الذي بال بواسط فضربه الحجاج وسجنه ثم أطلقه:

إذا نحن جاوزنا مدينة واسط   خرئنا وبلنا لا نخاف عقابا

زحف البربر إلى السلطان المولى عبد الله بأبي فكران وفراره إلى مكناسة

لما خلص جماعة البربر إلىٰ حلتهم أقبلوا علىٰ محمد واعزيز وعاتبوه علىٰ ما حملهم عليه من الوفادة علىٰ السلطان والقرب منه حتىٰ جرىٰ عليهم ما جرىٰ، مع أنهم كانوا في غنىٰ عن ذلك كله، وقالوا له: نحن متنا وبعثنا ولا بد لنا من الأخذ بالثأر، فقال: شأنكم وما تريدون، فخلصوا نجيًا، وتفاوضوا في شأنهم إلىٰ أن أجمع رأيهم علىٰ غزو السلطان لمضي ثلاث ومن تخلف عنها أحرقت خيمته.

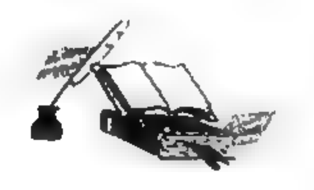
فقال لهم محمد واعزيز: إياكم والطرقات ثم افعلوا ما بدا لكم، فتفرقوا واستعدوا للحرب، وأقبلوا في اليوم الرابع فلم يرع السلطان، وهو بأبي فكران إلَّا الرايات قد أطلت عليه من الحاجب، والخيل تسيل بها الأودية والشعاب، فلم يسعه إلَّا أن حمل أثقاله وأركب عياله وجعلهم أمامه، وانحدر في بطن الوادي، وتفرق الجند عن يمين الوادي ويساره وسار السلطان علىٰ هـٰذه التعبية، وكلما دفعت خيل البربر علىٰ المسخرين من الجند أطلقوا عليهم شؤبوبًا من الرصاص فيسقط منهم الأربعون والخمسون، وهكذا إلىٰ أن دخل باب القزدير فاحتل بمكناسة، وهلك من العبيد في هـٰذه الوقعة نحو الثلاثمائة، ومن البربر علىٰ ما قيل نحو الخمسمائة.

وفاة أمير المؤمنين المولى
عبد الله بن إسماعيل رحمه الله

كانت وفاة أمير المؤمنين المولىٰ عبد الله بن إسماعيل - رحمه الله - يوم الخميس في السابع والعشرين من صفر الخير سنة إحدىٰ وسبعين ومائة وألف.

[٤٢٦] قال صاحب «البستان»: «كان أمير المؤمنين المولىٰ عبد الله فيه شدة وبطش وبسببهما نفرت قلوب الجند والرعية عنه، وبقي مهملاً بدار الدبيبغ سنين لا يأتيه أحد وبيعته في أعناق الناس وهم فارون منه لكثرة ما سفك من الدماء بغير سبب ظاهر، واستمرت حالته علىٰ ذلك مدة اثنتي عشرة سنة من سنة تسع وخمسين إلىٰ سنة إحدىٰ وسبعين ومائة وألف، رحمه الله وغفر لنا وله ولسائر المسلمين» (١)





(١) قلت: إن الناظر لأحوال المغرب في تلك السنين - وقس علىٰ أحواله أحوال بلاد الإسلام كلها تقريباً آنذاك؛ ليعلم علم اليقين لماذا ضعف المسلمون وسهل علىٰ أعدائهم احتلال بلادهم.



الجزء الثامن

الدولة العلوية

«القسم الثاني»

الدولة العلوية
القسم الثاني

الخبر عن دولة أمير المؤمنين
سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله

لما توفي أمير المؤمنين المولى عبد الله بن إسماعيل في السابع والعشرين من صفر الخير سنة إحدى وسبعين ومائة وألف، كان الناس قد سئموا الهرج والفتن، وأعياهم التفاقم والاضطراب، وملوا الحرب وملتهم، إذ كانت أيامه لاسيما أخرياتها كأيام الفترة التي ليس فيها سلطان، وكانت حال الرعية معه مثل الفوضى الذين لا وازع لهم، فكان ذلك من أقوى الأسباب التي صرفت وجوه أهل المغرب كله إلى بيعة السلطان سيدي محمد ـ رحمه الله ـ وجمعت كلمتهم عليه، لاسيما مع ما كان قد ظهر منه أيام خلافته [1] من حسن السياسة، وكمال النجدة، وجودة الرأي، وتمام المعرفة بإدارة الأمور على وجهها، وإجرائها على مقتضى صوابها، حتى أحبته القلوب وعلقت به الآمال، وعرفت له من بين بني أبيه تلك الشِنشنة [2]، وتضافرت على ولائه ونصره القلوب والألسنة، فلما قضى الله بوفاة والده بادر أهل فاس إلى عقد البيعة له من غير توقف ولا تريث.

ووصل الخبر بموت السلطان المولى عبد الله إلى ابنه سيدي محمد وهو بمراكش، فأقام مأتمه وازدحم على بيعته أهل مراكش، وقدمت عليه العبيد وأهل فاس من العلماء والأشراف وسائر الأعيان، وقبائل العرب والبربر والجبال وأهل الثغور كل ببيعته وهديته، لم يتخلف عنه أحد من أهل المغرب، فجلس للوفود إلى أن فرغ من شأنهم وأجازهم، وزاد العبيد بأن أعطاهم خيلاً كثيرة وسلاحاً كثيراً عرفوا بها محلهم من الدولة وانقلبوا مسرورين مغتبطين.

---

(١) قلت: أي نيابته عن أبيه في مراكش.

(٢) قلت: المقصود هنا السمعة.

[٤٢٧] مجيء السلطان سيدي محمد بن عبد الله عقب البيعة من مراكش إلى فاس وما اتفق له في ذلك

لما فرغ أمير المؤمنين المولى محمد ـ رحمه الله ـ من أمر الوفود أخذ في الاستعداد للنهوض إلى الغرب، فخرج من مراكش، حتى انتهى إلى مكناسة، فدخل دار الملك بها وفرق على العبيد الخيل والسلاح والمال، وكانوا على غاية من سوء الحال والاستكانة لغلبة البربر، إذ كانوا يتخطفون أولادهم، ويبيعونهم في قبائلهم، فجبر الله صدعهم بولاية هذا السلطان الجليل.

ثم لما قضى إربه من مكناسة ارتحل إلى فاس، ولما نزل في عساكره خرج لملاقاته أهل فاس، فهش للناس وألان جانبه لهم، واختلط بهم، فكانوا يطوفون به ويقبلون أطرافه، ولا يمنعهم أحد، وفرق المال والكسوة والسلاح، وأعطى الفقهاء والأشراف وطلبة العلم وأهل المدارس والمكتبيين والأئمة والمؤذنين والفقراء والمساكين، وأزاح علل الجميع، ولم يحرم أحداً، ولما حضرت الجمعة جاء من المحلة في ترتيب حسن، وزي عجيب، فخرج أهل البلدين [١] لرؤيته وامتلأت الأرض من العساكر والنظارة، ودخل فاساً الجديد فصلى به الجمعة، ثم جلس لفقهاء الوقت وسأل عنهم واحداً واحداً حتى عرفهم، ثم خرج إلى تربة والده فزارها، وأمر بتفريق الصدقات عندها، وترتيب القراء بها، ثم دخل إلى دار الحرم فوقف على من بها من أخواته، وعزاهن في مصاب والدهن، وطيب نفوسهن، وعامل أصحاب أبيه بالجميل وخفض لهم الجناح، وألان لهم القول، ووصلهم بمال اقتسموه فيما بينهم، ثم بعد ذلك حاز منهم ما كان بأيديهم من مال والده، فكان أكثره ذهباً.

[٤٢٨] إحداث المكس[٢] بفاس وبسائر أمصار المغرب وما قيل في ذلك

لما بويع السلطان سيدي محمد بن عبد الله ـ رحمه الله ـ وقدم حضرة فاس رفع

---

(١) قلت: أي فاس الجديد والقديم.

(٢) قلت: أي الضرائب.

إليه أهلها ما كانوا يؤدونه إلى والده المولى عبد الله مما كان موظفًا على الموازين، كميزان سيدي فرج، وميزان قاعة السمن، وميزان قاعة الزيت، وغير ذلك، وقدره ثلاثمائة مثقال في كل شهر، يجب فيها لكل سنة ثلاثة آلاف مثقال وستمائة مثقال.

فلما حضر فقهاء فاس عند السلطان سيدي محمد كلمهم في شأنها حتى يكون الأمر فيها مسندًا إلى فتوى الفقهاء، فقالوا: إذا لم يكن للسلطان مال جاز له أن يقبض من الرعية ما يستخدم به الجند، فأمرهم أن يكتبوا له في ذلك، فكتبوا له تأليفًا اعتمده السلطان ووظف على الأبواب والغلات والسلع، وكان ممن كتب له في ذلك العلامة الشيخ التاودي ابن سودة، والعلامة الشيخ أبو عبد الله محمد بن قاسم جسوس، والإمام أبو حفص عمر الفاسي، والفقيه الشريف أبو زيد عبد الرحمٰن المنجرة، وغيرهم، فاعتمد السلطان على فتواهم ووظف ما ذكرناه آنفًا.

واعلم أن أمر المكس مما عمت به البلوى في سائر الأقطار والدول منذ الأعصار المتطاولة، والسنين الأول، فلا بأس أن نذكر ما حرره العلماء في ذلك فنقول: قد تكلم على ذلك الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي ﷺ في كتابه «شفاء الغليل» بما نصه: **فإن قال قائل**: توظيف الخراج على الأرض، ووجوب الارتفاقات مصلحة ظاهرة لا تنتظم أمور الولاة في رعاية الجند والاستظهار بكثرتهم وتحصيل شوكة الإسلام إلَّا به، ولذلك لم يُلفَ عصرٌ خاليًا عنه، والملوك ـ على تفاوت سيرهم، واختلاف أخلاقهم ـ تطابقوا عليه ولم يستغنوا عنه، فلا تنتظم مصلحة الدين والدنيا إلَّا بإمام مطاع، ووالٍ متبع يجمع شتات الإيمان، ويحمي حوزة الدين وبيضة الإسلام، ويرعى مصلحة المسلمين وغبطة الأنام، ولا يستتب ذلك إلَّا بنجدته وشوكته وجنوده وعدته، فبهم مجاهدة الكفار، وحماية الثغور، وكف أيدي الطغاة المارقين، ومنعهم من مد الأيدي إلى الأموال والحرم والأزواج، فهم الحراس للدين عن أن تنحل دعائمه، وتتخاذل قواه بتوغل الكفار في بلاد المسلمين، وهم الحماة للدنيا عن أن يختل نظامها بالتغالب والتسالب والتواثب من طغام الناس، بفضل العرامة والبأس، ولا يخفى عليكم كثرة مؤنهم واستيعاب حاجاتهم في نفوسهم وعيالهم، والمرصد لهم خمس الخمس من الغنائم والفيء، وذلك مما يضيق في غالب الأمر عن الوفاء بخراجاتهم والكفاية لحاجاتهم، وليس يعم ذلك إلَّا بتوظيف

الخراج على الأغنياء، فإن كنتم تتبعون المصالح فلا بد من الترخيص في ذلك مع ظهور المصلحة.

قلنا: الذي نراه جواز ذلك عند ظهور المصلحة، وإنما النظر في بيان وجه المصلحة فنقول:

أولا: التوظيف [١] في عصرنا هذا مزاجه ومنهاجه ظلم محض لا رخصة فيه، فإن آحاد الجند لو استوفيت جراياتهم، ووزعت على الكافة لكفتهم برهة من الدهر، وقدراً صالحًا من الوقت، وقد شمخوا بتنعمهم وترفههم في العيش وإسرافهم في إفاضة الأموال على العيّارة [٢] ووجوه التجمل على سائر الأكاسرة، فكيف يقدر احتياجهم إلى توظيف خراج لإمدادهم وإرفاقهم، وكافة أغنياء الدهر فقراء بالإضافة إليهم، فأما لو قَدّرنا إمامًا مطاعًا مفتقراً إلى تكثير الجند لسد الثغور، وحماية الملك بعد اتساع رقعته، وانبساط خطته، وقد خلا بيت المال عن المال، وأرهقت حاجة الجند إلى ما يكفيهم وخلت عن مقدار كفايتهم أيديهم، فللإمام أن يوظف على الأغنياء ما يراه كافيًا لهم في الحال إلى أن يظهر مال في بيت المال، ثم إليه النظر في توظيف ذلك على وجوه الغلات والارتفاقات، بحيث لا يؤدي تخصيص بعض الناس به إلى إيغار الصدور، وإيحاش القلوب، ويقع ذلك قليلاً من كثير، ولا يجحف بهم، ويحصل به الغرض، ثم استدل الشيخ أبو حامد ﷺ لذلك من النقل والعقل بما يطول جلبه.

[٤٢٩] خروج السلطان
سيدي محمد بن عبد الله إلى الثغور وتفقده أحوالها

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف فيها خرج أمير المؤمنين المولى محمد بن عبد الله من مراكش، فقدم مكناسة وفرق الراتب على العبيد بها، فخرج من مكناسة حتى أتى مدينة تطاوين فنزل بها، وأمر ببناء برج مرتيل الذي بها، وفرق المال على العبيد، ثم رحل السلطان من تطاوين إلى طنجة، وجعل طريقه على

---

(١) قلت: أي فرض الضرائب.

(٢) قلت: هم اللصوص والمفسدون.

سبتة، فمر بها ووقف عليها ونظر إلىٰ حصانتها ومناعتها، وتحقق أن لا مطمع فيها إلّا بالجد، وأمر العسكر الذين حوله بإخراج دفعة من البارود، وأجابهم النصارىٰ بمثل ذلك بالمدافع حتىٰ تزلزلت الجبال، فعجب السلطان من ذلك، وما كان قصده بهٰذه السفرة إلّا الوقوف علىٰ سبتة واختبار حالها، فلما تبين له حالها أرجأ أمرها إلىٰ يوم ما.

[٤٣٠] هجوم الفرنسيس علىٰ ثغر سلا والعرائش ورجوعه عنهما بالخيبة

قد قدمنا ما كان للسلطان سيدي محمد بن عبد الله ـ رحمه الله ـ من الولوع بأمر البحر والجهاد فيه، فلم تزل قراصينه تتردد في أكناف البحر وتجوس خلال ثغور الكفر فتقتل وتأسر وتغنم وتسبي إلىٰ أن ضاق بهم رحب الفضاء، وكاد يستأصل جمهورهم حكم القضاء، فمنهم من فزع إلىٰ طلب المهادنة وحسن الجوار، ومنهم من كذبته نفسه فتطاول إلىٰ الأخذ بالثأر.

ومن هٰذا القسم الثاني: جنس الفرنسيس، فإن قراصين السلطان ـ رحمه الله ـ كانت قد غنمت منه مركبًا ساقته إلىٰ مرسىٰ العرائش وغنمت منه غير ذلك في مرات متعددة فدعاه ذلك إلىٰ أن هجم علىٰ ثغر سلا أواخر سنة ثمان وسبعين ومائة وألف، ورأيت بخط الفقيه العلامة أبي العباس أحمد بن المكي السدراتي السلاوي ـ رحمه الله ـ ما صورته:

هجم الفرنسيس علىٰ مدينة سلا يوم الجمعة الحادي عشر من ذي الحجة متم سنة ثمان وسبعين ومائة وألف فأقاموا يوم الجمعة ويوم السبت بظاهر البحر لم يفعلوا شيئًا، وفي يوم الأحد تقدمت سفنهم فرموا من البنب مائة وسبعًا وسبعين وهدمت الدور وفر النساء والصبيان خارج البلد ولم يبقَ بها إلّا القليل، وكان يومًا مشهودًا، وفي صبيحة يوم الاثنين أرسل الله عليهم الريح ففرقت مراكبهم ونفس الله عن المسلمين، وفي يوم السبت الآتي بعده رجعوا فرموا مائة وعشرين، وفي يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من الشهر المذكور رموا مائة ونيفًا وثلاثين ولم يستشهد من المسلمين في تلك المدة سوىٰ رجل واحد. اهـ.

قال الغزال: ثم «إن الفرنسيس عالج ما انصدع من أجفانه [١] في حرب سلا ثم هجم على ثغر العرائش».

قال السدراتي: فرمى عليها ـ فيما ذكروا ـ أربعة آلاف نفض ونيفًا وثلاثين نفضًا، وخربوها وهدموا دورها ومسجدها، قال: وذلك مفتتح سنة تسع وسبعين ومائة وألف.

وفي يوم الخميس الثاني من المحرم وقيل التاسع منه ليلة عاشوراء اقتحموا المرسى في خمسة عشر قاربًا مشحونة من العسكر بنحو الألف.

ولما انقلبوا راجعين إلى مراكبهم وجدوا عرب الغرب مع قائدهم حبيب المالكي قد أخذوا بمخنقهم على فم المرسى وانبثوا لهم على الحجر الذي هنالك، وبعث الله ريحًا من جهة البحر عظمت بها أمواجه ومنعتهم من الخروج، فكانوا إذا توسطوا الوادي ليخرجوا ردتهم الريح، وإذا انحازوا إلى أحد الشطين رماهم المسلمون بالرصاص حتى استأصلوا جمهورهم، ثم سبحوا إليهم حتى خالطوهم في قواربهم فاستاقوا أحد عشر قاربًا، ونجا أربعة، وتقسمهم المسلمون بين قتيل وأسير، وتفرقوا في الأعراب والبادية أيدي سبا، ثم أمر السلطان بجمعهم وأعطى كل من أتى بأسير منهم مالاً وكسوة، فاجتمع منهم نحو الخمسين فبقوا في الأسر إلى أن توسط في فدائهم طاغية الإصبنيول ففدوا بمال له بال.

وأما رؤوس القتلى فقد أمر السلطان ـ رحمه الله ـ بتوجيه نحو الثمانين منها إلى سلا فعلقت بالصقالة القريبة من ضريح الشيخ ابن عاشر ﷺ، وبعد هذا وقع الصلح مع جنس الفرنسيس وانعقدت الشروط معه.

[٤٣١] مراسلة السلطان سيدي محمد بن عبد الله ـ رحمه الله ـ لطاغية الإصبنيول وما اتفق في ذلك

كان السبب الذي أوجب مراسلة السلطان سيدي محمد بن عبد الله لطاغية الإصبنيول أن جماعة من أسرى المسلمين الذين كانوا بأصبانيا كتبوا مكاتيب عديدة

---

(١) قلت: أي سفينة حربية.

إلى السلطان ـ رحمه الله ـ يعلمونه بما هم فيه من ضيق الأسر وثقل الإصر، وما نالهم من الكفار من الامتهان والصغار، وكان فيهم من ينتمي للعلم ومن يقرأ القرآن وغير ذلك، فلما وصلت كتبهم إلى السلطان وقرئت عليه تأثر لذلك ووقعت منه موقعًا كبيرًا، وأمر في الحين بالكتب إلى طاغية الإصبنيول يقول له: إنه لا يسعنا في ديننا إهمال الأسارى وتركهم في قيد الأسر، ولا حجة في التغافل عنهم لمن ولاه الله الأمر، وفيما نظن أنه لا يسعكم ذلك في دينكم أيضًا، وأوصاه أن يعتني بخواص المسلمين الذين هنالك من أهل العلم وحملة القرآن، وأن لا يسلك بهم مسلك غيرهم من عامة الأسارى، قال: مثل ما نفعل نحن بأساراكم من الفرايلية فإنا لا نكلفهم بخدمة ولا نخفر لهم ذمة.

فلما وصل هذا الكتاب إلى الطاغية أعظمه وكاد يطير سرورًا به، وللحين أمر بإطلاق الأسارى الذين بحضرته، وبعث بهم إلى السلطان ووعده أن يلحق بهم غيرهم من الذين بقوا بسائر إيالته، فوقع ذلك من السلطان ـ رحمه الله ـ الموقع وعظم في عينيه، وكان كريم الطبع يحب الفخر ويعنى به، فأطلق لطاغية الإصبنيول جميع من كان تحت يده من أسارى جنسه وعززهم بأسرى غير جنسه أيضا لتكون للطاغية بذلك مزية على سائر الأجناس، وبعث معهم بهدية فيها عدد من الأسود على يد قائد سبتة، فاتصل ذلك كله بالطاغية فطارت نفسه شعاعًا من شدة الفرح، وشمر عن ساعد الجد وهيأ هدية استوفى فيها غاية مقدوره، وبعثها مع كبراء القسيسين، وأصحبهم كتابًا أفصح به عما بين جنبيه للسلطان من المحبة والاعتراف بالفضل والمنة، وطلب منه مع ذلك أن يتفضل عليه ببعث أحد أرباب دولته وكبرائها لتتشرف أرضه بمقدمه، وتشتهر هذه المواصلة والملاطفة عند أجناس الفرنج فيعظم بذلك قدره ويكمل فخره، فأسعفه السلطان ـ رحمه الله تعالى ـ بذلك، وبعث إليه.

[٤٣٢] وفي هذه السنة بعث أيضًا السلطان الفقيهين: السيد الطاهر بن عبدالسلام السلاوي، والسيد الطاهر بناني الرباطي، إلى صاحب الاسطنبول السلطان مصطفى العثماني وأصحبهما هدية نفيسة فيها خيل عتاق بسروج مثقلة بالذهب مرصعة بالجوهر والياقوت ونفيس الأحجار، وفيها أسياف محلاة بالذهب ومرصعة بالياقوت المختلف الألوان، وفيها حلى من عمل المغرب فقبل ذلك

السلطان العثماني وابتهج به ثم كافأ عليه بمركب موسوق من آلة الحرب مدافع ومهاريس وبارود.

[٤٣٣] انعقاد الصهر بين السلطان سيدي محمد ابن عبد الله وبين سلطان مكة الشريف سرور رحمه الله

كان السلطان سيدي محمد بن عبد الله يحب الفخر، ويُعنى به، وله رغبة في الخير وأهله، ولما كان سلطان مكة الشريف سرور - رحمه الله - بالمحل الذي أكرمه الله به بلداً ومَحْتِداً [١]، رغب السلطان سيدي محمد - رحمه الله - في مصاهرته، وسمحت نفسه الشريفة ببذل كريمته.

فما دخلت سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف، وعزم ركب الحاج المغربي على السفر إلى الحجاز بعث معهم السلطان المذكور ابنته وزفها على بعلها المذكور، وبعث ولده الأكبر وخليفته الأشهر المولى علي بن محمد لإقامة فريضة الحج، ومعه شقيقه المولى عبد السلام صغيراً دون بلوغ ليكون مع أخته وكلاهما في صحبة الركب المغربي كما قلنا، وأصحبهما هدية لأمير طرابلس وهدية لأمير مصر والشام، وهدية عظيمة لأهل الحرمين الشريفين، ومالاً كثيراً يفرق على أشراف الحجاز واليمن، وجوائز سنية للعلماء والنقباء وأرباب الوظائف بمكة والمدينة، وبعث معهما من وجوه أهل المغرب وأولاد أمراء القبائل وأشياخهم، ومن أكابر خدامه وأصحاب أشغاله بالخيول المسومة والسلاح الشاكي، والشارة الحسنة، وما تحدث به أهل المشرق دهراً، وكان في جهاز ابنة السلطان ما يزيد على مائة ألف دينار من الحلي والياقوت والجوهر، وكان يوم دخولها إلى مكة يوماً مشهوداً، حضره عامة أهل الموسم الأعظم من الآفاق، وتناقلت حديثه الركبان والرفاق.

[٤٣٤] فتح الجديدة

قد ذكر لويز مارية خبر هذا الفتح ونحن نلخص ما ذكره من ذلك قال:

لما ولي السلطان سيد محمد بن عبد الله سلطنة المغرب، كان لا يقر له قرار من أجل مشاركة البرتغال له في قطعة من أرضه، وكان شهماً ذا أنفة وإباية، فاستشار

---

(١) قلت: اي أصلاً شريفاً.

أهل الرأي من دولته في غزو الجديدة وفتحها، فقالوا له: لا يظن سيدنا أن أخذها يكون بأن تحمل المسلمون عليها دفعة واحدة حتى يقتحموها مثلاً، فإن ذلك لا يجدي شيئًا، ولا يحصلون إلّا على القتل، كما وقع في أيام السلطان الغالب بالله السعدي، وإنما يتوصل إلى فتحها بالحصار والمطاولة براً وبحراً، فعمل على ذلك بعد أن كرهه أولاً، ولما عزم على النهوض إليها جمع جيشا كثيفًا من قبائل مراكش والسوس وغير ذلك.

زعم لويز أنه اجتمع له من المقاتلة نحو سبعين ألفًا، ويُظن أن هذا من مبالغته على عادته في ذلك، وكان نزوله على الجديدة في رابع مارس العجمي، سنة ثمان وستين وسبعمائة وألف مسيحية، وفي تواريخ الإسلام أن نزوله عليها كان في فاتح رمضان من سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف عربية، ولما نزل عليها، نصب عليها خمسة وثلاثين مدفعًا بين كبير وصغير، ورمى عليها كوراً وبُنبًا كثيراً في أيام متعددة سقط منه داخلها أكثر من ألفين، وهدمت كثيراً من أبنيتها، وقتلت عدداً وافراً من أهلها.

ولما طال الحصار على أهل الجديدة كتبوا إلى طاغيتهم فأشار عليهم بالخروج إن عجزوا عن المدافعة، وكانت هذه المكاتبة من غير علم من العامة، وبينما هم كذلك إذ ورد عليهم مركب من أشبونة ظنوه مدداً لهم، فإذا به قد أتى بكتاب الطاغية يأمرهم بالخروج، ويتحملوا بأولادهم وعيالهم في مراكبه ويدفعوا البلد للمسلمين، ولما علم العامة بذلك امتنعوا وحاصوا حيصة حمر الوحش، وسبوا الكتاب ومن أرسله وقالوا: لا نخرج منها حتى نهلك عن آخرنا؛ إذ هي مأثرة أجدادنا عجنت طينتها بدمائهم، وفنيت عليها نفوس أكابرهم وأشرافهم، ثم توسط بين عامتهم وكبيرهم القسيسون وسهلوا عليهم الأمر حتى انقادوا، وبعث كبيرهم إلى السلطان سيدي محمد بن عبد الله يطلب منه أن يكف عن القتال ويؤجله ثلاثة أيام ليدفع له البلد، فأجابه السلطان إلى ذلك، واشترط عليه أن لا يخرجوا إلّا في ثيابهم التي على ظهورهم، ولا يحملوا معهم شيئًا غيرها فامتثلوا.

قال لويز: حتى أن عسكريًا منهم حمل معه كسوة أخرى لم تسمح بها نفسه فرآها كبيرهم وهو يريد أن يصعد إلى المركب فانتزعها منه وألقاها في البحر، ولما أيسوا من

حمل شيء معهم أحرقوا الأثاث والفراش، وعرقبوا الخيل، وقتلوا الماشية، وكسروا الأواني والعدة، وفلسوا أكثر من مائة مدفع وآخر الأمر أنهم دفنوا مينات البارود في حوماتها كل مينا فيها أكثر من أربعين برميلاً، وتركوا رجلاً حداداً اسمه بطروس، فيقال إنه الذي أوقد المينا عند دخول المسلمين إليها، فهلك فيها نحو خمسة آلاف، وتهدم السور الجنوبي منها.

ولما وصلوا إلى أشبونة أسكنهم طاغيتهم ببلدة يقال لها: بلين فأصابهم الوخم وهلك منهم أكثر من ثلاثمائة نفس، ثم انتقلوا إلى بلاد البرازيل، فبنوا هنالك مدينة سموها مازكان الثانية باسم الجديدة، هذا ملخص ما ذكره لويز.

ومن خط الفقيه العلامة أبي العباس أحمد السدراتي أن فتح الجديدة كان صبيحة يوم السبت الثاني من ذي القعدة سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف، ووافق ذلك اليوم الثامن والعشرين من فبراير العجمي وهو ثالث أيام الحسوم اهـ، وكان ممن شهد هذا الفتح المعلم الحاج سليمان التركي المجيد في صناعة الرمي بالمهراس فأبدأ وأعاد، وعمرها السلطان بأهل دكالة إذ هي في وسط أرضهم، وأضاف إليهم حصة من عسكر اليكشارية وأعقابهم بها لهذا العهد، والله أعلم.

[٤٣٥] سعي السلطان سيدي محمدَ بن عبد الله في فكاك أسرى المسلمين وما يسر الله على يديه من ذلك

لما كانت هذه السنة - التي هي سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف - كتب طاغية الإصبنيول إلى السلطان يقول: إنه لم يبق ببلادي أحد من أسرى إيالتكم، ولم يبق عندي إلَّا أسرى أهل الجزائر الذين عندهم أسرانا، وطلب منه مع ذلك أن يتوسط له عند صاحب الجزائر في المفاداة بينه وبينه، وكانت أسرى الإصبنيول تزيد على أسرى الجزائر بكثير، وطلب أن تكون هذه المفاداة على يديه - أعني على يد السلطان، رحمه الله - الرئيس بالرئيس، والبحري بالبحري، والجندي بالجندي، ومن فضلت عنده فضلة فالبحيري بخمسمائة ريال، والرئيس بألف، فأسعفه السلطان في طلبه، وانتدب للسعي في إنقاذ المسلمين من أيدي الكفار ابتغاء مرضاة الله ورجاء ثوابه،

وكان السلطان قد كتب إليه مع الغزال وصاحبيه فيمن تحت أيديهم من سائر أسرىٰ المسلمين، فبعثوا إليه بأهل المغرب فقط، واعتذروا بأنهم حبسوا أسرىٰ الجزائر ليفكوا بهم أسراهم.

ولما كاتب السلطان أهل الجزائر وعرض عليهم ما طلبه طاغية الإصبنيول امتنعوا من الفداء، فكتب السلطان إلىٰ باي الجزائر ثانيًا فامتنع، ثم أعاد إليهم الكتابة ثالثًا وحضهم علىٰ فكاك أسرىٰ المسلمين ووعظهم وخوفهم عقاب الله ورغبهم في ثوابه، فأذعنوا وامتثلوا، وطلبوا منه أن يبعث إليهم رجلاً من خاصته يقف علىٰ المفاداة بنفسه، ويدفعون إليه أسراهم في يده، ويتسلم مثل عددهم من إخوانهم، فلما ورد علىٰ السلطان كتاب أهل الجزائر بالامتثال كتب إلىٰ الطاغية يأمره أن يبعث بما عنده من أسرىٰ المسلمين في مركب إلىٰ الجزائر وينتظر هنالك الباشدور الذي يوجهه من قبله حتىٰ تكون المفاداة علىٰ يده، وبعث السلطان لهـٰذا الغرض كاتبه أبا العباس الغزال وصاحبيه، وعند وصولهم إلىٰ الجزائر أرسىٰ مركب الإصبنيول بظاهر مرساها وأنزل من أسرىٰ المسلمين ألفا وستمائة ونيفًا، فأخرج أهل الجزائر من أسرىٰ النصارىٰ مثلهم ألفا وستمائة ونيفا أيضًا، وبقيت عندهم من أسرىٰ النصارىٰ فضلة ففداها الإصبنيول بالمال وانفصلوا، ورجع الباشدور ومن معه إلىٰ حضرة السلطان وكتب الله أجر ذلك في صحيفته.

[٤٣٦] حصار السلطان سيدي محمد بن عبد الله مدينة مليلية من ثغور الإصبنيول

لما كانت أواخر سنة أربع وثمانين ومائة وألف، غزا السلطان سيدي محمد بن عبد الله مدينة مليلية وفيها نصارىٰ الإصبنيول، فأحاطت عساكره بها ونصب عليها المدافع والمهاريس، وشرع في رميها أول يوم من المحرم سنة خمس وثمانين ومائة وألف، واستمر علىٰ ذلك أيامًا فكتب إليه طاغية الإصبنيول يعاتبه علىٰ حصارها ويذكره المهادنة والصلح الذي انعقد بينه وبينه ويقول له: هـٰذا خط كاتبك الغزال الذي كان واسطة بيني وبينك في عقد الصلح لا زال تحت يدي، فأجابه السلطان - رحمه الله - بأن قال: إنما عقدت معك المهادنة في البحر، فأما المدن التي في إيالتنا فلا مهادنة فيها ولو كانت فيها مهادنة لخرجتم إلينا ودخلنا إليكم، فكيف ادعاء

المهادنة مع هـٰذه المداهنة، فبعث إليه الطاغية عقد الصلح بعينه فإذا هو عام في البر والبحر، فكف عن حربها وأفرج عنها وترك هنالك جميع آلات الحرب من مدافع ومهاريس وكراريص وبنب وكور وبارود، وشرط على الطاغية حملها في البحر وردها إلى الثغور التي جلبت منها لما في جرها في البر من المشقة على المسلمين، فأنعم بذلك وبعث مراكبه فحملت بعضها إلى تطاوين، وبعضها إلى الصويرة، وذلك محلها الذي سيقت منه، وكان ذلك سبب تأخيره الغزال عن كتابته، وبقي عاطلاً إلى أن كف بصره ومات، رحمه الله.

وسمعت من بعض فقهاء العصر وقد جرت المذاكرة في كيفية هـٰذا الصلح فقال: إن الغزال ـ رحمه الله ـ لما أعطى خط يده بالصلح والمهادنة، كتب في الصك ما صورته: وإن المهادنة بيننا وبينكم بحراً لا براً، فلما حاز النصارى خط يده كشطوا لام الألف وجعلوا مكانها واواً فصار الكلام هكذا بحراً وبراً، وإن السلطان، رحمه الله، إنما أخره لاختصاره الكلام وإجحافه به حتى سهل على النصارى تحريفه، وكان من حقه أن يأتي بعبارة مطولة مفصلة حتى لا يمكن تحريفها، فيقول مثلا: والمهادنة بيننا وبينكم إنما هي في البحر، وأما البر فلا مهادنة بيننا وبينكم فيه، أو نحو هـٰذا من الكلام فيصعب تحريفه، وقد نص أهل علم التوثيق على هـٰذا، وأن الموثق يجب عليه أن يبسط الكلام ما استطاع ويجتنب الاختصار المجحف وما يؤدي إليه بوجه من الوجوه، والله أعلم.

[٤٣٧] خروج العبيد على السلطان سيدي محمد بن عبد الله ومبايعتهم لابنه المولى يزيد وما نشأ عن ذلك

ثم دخلت سنة تسع وثمانين ومائة وألف فيها كانت الفتنة العظمى التي هي خروج العبيد على السلطان سيدي محمد بن عبد الله وبيعتهم لابنه المولى يزيد، وكان السبب في ذلك أن السلطان كتب إليهم وهو بمراكش يأمرهم أن يعينوا منهم ألف كانون ينتقلون بأولادهم إلى طنجة يكونون بها، وبعث إليهم بالكتاب مع القائد الشاهد رأس الفتنة، وولاه على ذلك الألف، فلما أتاهم بكتاب السلطان، قال لهم: لا يذهب معي إلَّا الأعيان ومن له دار وأرض وضيعة، ولا يذهب معي إلَّا

أمثالي، فلما سمع اقتراحه أولئك الأجلاف ركبوا رأسهم في سبيل الخلاف، واستفزهم الشيطان حتى صرحوا بخلع السلطان جريًا في ذلك على مذهبهم القديم، والتفاتًا إلى فعل سلفهم الذميم، فلما أُنهى خبرهم إلى السلطان بعث إليهم ابنه المولى يزيد وكان عنده بمراكش كي يستصلحهم به، فازداد فسادهم وعظم عنادهم.

قال صاحب «البستان»: «وكنت يومئذ برباط الفتح، فلما ذهبت إلى مراكش لقيت المولى يزيد بالسانية ـ موضع على نحو نصف يوم منها ـ قال: فسألني عن خبر العبيد فقصصته عليه، فسره ذلك وجد في السير، ففهمت قصده وعرفت ما يؤول إليه أمره فيهم، وزعم أنه لما قدم على السلطان لامه في بعثه المولى يزيد، فاعترف بالخطأ في ذلك، ولما وصل المولى يزيد إلى مكناسة واجتمع بالعبيد لم يقدموا شيئًا على بيعته والخطبة به، ففتح بيوت الأموال وأعطاهم حتى رضوا، ثم فتح مخازن السلاح والبارود ففرقه فيهم، ثم دخل في بيعته من كان قريبًا من قبائل العرب والبربر».

قال صاحب «البستان»: «وبعد ثلاث بعثني السلطان إلى الودايا وأحلافهم بمكاتيب، فقدمت عليهم بها وأقمت عندهم إلى أن زحف إليهم المولى يزيد في جيش العبيد، وكان آيت أدراسن وجروان قد دخلوا مع الودايا وظاهروهم على العبيد، فوقعت الحرب بالمشتهى داخل القصبة فانهزم العبيد وسلطانهم، وقُتل منهم نحو الخمسمائة، وأما الجرحى فبلا عدد وانقلبوا مفلولين.

واتصل الخبر بالسلطان فخرج من مراكش في الجند يريد مكناسة، ولما وصل إلّا سلا وسمع المولى يزيد بقدومه فر إلى ضريح الشيخ أبي الحسن علي بن حمدوش، ثم إلى ضريح المولى إدريس الأكبر ﷺ بزرهون، فتقدم السلطان إلى زرهون، ولما دخل الضريح الشريف أتاه أشراف زرهون بابنه المولى يزيد فعفا عنه وسامحه، واستصحبه معه إلى مكناسة، ولما وجه إليها خرج إليه نحو المائة من العبيد من ذوي أسنانهم ومعهم الأشراف والمرابطون والنساء والصبيان فعفا عنهم وسامحهم على شرط الخروج من مكناسة فأذعنوا، وأقام السلطان بمكناسة يدبر أمرهم إلى أن فرقهم على الثغور، وقصد بتفرقتهم دفع غائلتهم وتوهين عصبيتهم، ثم عمد إلى الذين كانوا برباط الفتح ففرقهم أيضًا، واستراحت الدولة من شرهم استراحة ما.

ثم إن العبيد الذين بطنجة وثبوا على قائدهم القائد الشيخ وعلى قائد أهل الريف محمد بن عبد الملك، وأرادوا قتلهما فهربا لآصيلا، والسلطان يومئذ لا زال بمكناسة، ولما أُنهي إليه خبرهم كتب إلى أعيانهم يتوعدهم فقبضوا على أصحاب الفعلة وبعثوا بهم إليه وتبرؤوا منهم، فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، فاستكانوا بعض الشيء».

[٤٣٨] ذكر ما سلكه السلطان سيدي محمد بن عبد الله في حق العبيد من التأديب الغريب

ثم إن العبيد الذين بالثغور عاثوا بها وأضروا بأهلها في جناتهم وأموالهم وأعراضهم، فأُنهي خبرهم إلى السلطان أيضًا، ولما أعياه أمرهم ورأى أن تأديبهم بالتفرقة لم يفد فيهم، انتقل - رحمه الله - معهم إلى مرتبة أخرى من التأديب لم يسبق إليها، كانت ترياقًا لقطع دائهم، ونارًا لحسم عرق بلائهم، وذلك أنه لما بلغه ما هم عليه من الجور والطغيان نهض من مراكش عازمًا على الإيقاع بهم، فلما وصل إلى رباط الفتح كتب إلى أهل طنجة والعرائش منهم يقول: إني قد رضيت عنكم وبررت قسمي في نقلكم من مكناسة إلى الثغور، والآن إذا وصلتكم الإبل والبغال التي أبعثها إليكم فلتحمل أهل طنجة بأولادهم ومتاعهم وليقدموا إلى دار عربي من بلاد سفيان فلينزلوا بها، ثم يبعثوا الإبل والبغال إلى أهل العرائش ليتحملوا بأولادهم ومتاعهم إلى دار عربي كذلك، فإذا اجتمعتم أنتم وهم بها فإني أبعث إليكم بغالي تتحملون عليها إلى مكناسة كلكم، فلما وصل إليهم كتاب السلطان بذلك طاروا فرحًا وأحبوا الرجوع إلى مكناسة.

ولما وردت عليهم الإبل والبغال ارتحلوا من طنجة، وفي أثناء ذلك بعث إليهم السلطان قائدهم سعيد بن العياشي الذي خلعوه أيام الفتنة، وأوصاه أن يقيم بدار عربي حتى يقدم عليه عبيد طنجة والعرائش، فانتهى إليها ووافاه بها عبيد طنجة فنزلوا عليه بقضهم وقضيضهم، ووصلت الإبل والبغال إلى أهل العرائش فجاؤوا حتى نزلوا مع إخوانهم كما رسم السلطان.

ثم إن السلطان - رحمه الله - نهض من رباط الفتح حتى وافى مشرع مسيعيدة من

وادي سبو، ثم انتقل منه إلىٰ سوق الأربعاء من بلاد سفيان ثم تقدم إلىٰ قبائل الغرب وبني حسن أن يسيروا إلىٰ العبيد ويعسكروا عليهم من جميع الجهات فامتثلوا، ولما استداروا حولهم وأحاطوا بهم إحاطة بياض العين بسوادها، قدم السلطان ودعا رؤساء القبائل فحضروا عنده، فقال لهم: إني قد أعطيتكم هٰؤلاء العبيد بأولادهم وخيلهم وسلاحهم، وكل مالهم فاقتسموهم الآن وكل واحد منكم يأخذ عبداً وأمة وأولادهما، فالعبد يحرث والأمة تطحن، والولد يرعىٰ الماشية، فخذوهم وتقلدوا سلاحهم واركبوا خيولهم، والبسوا كُساهم بارك الله لكم فيهم، فأنتم عسكري وجندي دونهم، فلما سمعت قبائل الغرب وبني حسن هٰذا الكلام من السلطان وثبوا علىٰ العبيد من غير أن تكون منهم وقفة، واقتسموهم في أسرع من لحس الكلب أنفه، وتوزعوهم شذر مذر، وصيروهم عبرة لمن اعتبر.

وقفل السلطان راجعًا إلىٰ رباط الفتح، ولما دخله نفىٰ العبيد الذين بها إلىٰ مراكش، فأنزلهم بها بعد أن عزل عنهم قوادهم، وولىٰ مكانهم غيرهم، واستمر عبيد طنجة والعرائش موزعين في القبائل أربع سنين، ثم عفا عنهم واستردهم من القبائل إلىٰ الجندية، وأركبهم وكساهم وسلحهم، إلىٰ أن عادوا أحسن مما كانوا حالاً.

وكان قيام هٰؤلاء العبيد سببًا لافتراق الكلمة وانحلال نظام الملك بالمغرب، وسرىٰ فسادهم في القبائل كلها عربًا وبربراً، وكثر الهرج وانحبس المطر ووقع القحط وعظمت المجاعة، واستمر الحال علىٰ ذلك نحواً من سبع سنين، من سنة تسعين إلىٰ سنة ست وتسعين ومائة وألف، فكانت هٰذه المدة كلها مجاعة، أكل الناس فيها الميتة والخنزير والآدمي، وفنىٰ أكثرهم جوعًا، والسلطان في ذلك كله يكابد المشاق العظام، إلىٰ أن خلصوا من المجاعة وصلحت أحوال الجماعة، وكان ـ رحمه الله ـ قد رتب الخبز في كل مصر، يفرق علىٰ ضعفائه في كل حومة، وأسلف القبائل الأموال الطائلة يقتسمونها علىٰ ضعفائهم إلىٰ أن يؤدوها زمان الخصب والرخاء.

ولما عاش الناس وهموا بأدائها سامحهم بها وقال: ما أعطيتها بنية الاسترجاع وإنما ذكرت السلف لئلا يستبد بها الأشياخ والأعيان إذا سمعوا أنها هبة، فرحم الله تلك الهمة الشريفة، ما كان أعلاها وأعظمها وأرأفها وأرحمها، وأسقط ـ رحمه الله ـ

في تلك المدة جميع الوظائف والمغارم عن قبائل المغرب إلىٰ أن عاشوا وتمولوا، وكان يعطي التجار الأموال ليجلبوا بها الأقوات من بر النصارىٰ، فإذا وصلت أمرهم أن يبيعوها بثمنها الذي اشتريت به رفقًا بالمسلمين، وشفقة علىٰ الضعفاء والمساكين.

ولما دخلت سنة سبع وتسعين ومائة وألف مطر الغرب وعاش الناس، وحرثوا وأدرك الزرع، ورخصت الأسعار، وازدهت الدنيا، ودرت الجبايات، وأخذ أمير المؤمنين ـ رحمه الله ـ في تمهيد المغرب ثانية واستئناف العمل والجد، والله غالب علىٰ أمره.

[٤٣٩] ثم دخلت سنة تسع وتسعين ومائة وألف فيها أسر أهل الجزائر نصرانية من قرابة طاغية الإصبنيول كانت متوجهة في مركبها من أصبانيا إلىٰ نابل لزيارة ابن عمها الذي هو صاحب نابل، فلما عرف أهل الجزائر محلها من قومها امتنعوا من فدائها بكل وجه، فكتب طاغية الإصبنيول إلىٰ السلطان ـ رحمه الله ـ يسأله أن يشفع له في فدائها بكل ما يطلبون، فأسعفه وكتب لصاحب الجزائر في شأنها فاعتذر إليه بأن النصرانية في سهم العسكر ولا يمكنه إكراههم علىٰ فدائها، فلما رد صاحب الجزائر شفاعة السلطان كتب إلىٰ السلطان عبد الحميد بذلك: فكتب عبد الحميد [(١)] ـ رحمه الله ـ إلىٰ أهل الجزائر يوبخهم علىٰ رد شفاعة السلطان ويقول لهم: إن الواجب أن تسرحوها له بدون مال، وما عسىٰ أن يبلغ ثمن هٰذه النصرانية، ولو طلب مني سلطان المغرب ألف نصرانية لبعثتها إليه، وحتىٰ الآن نأمركم أن تبعثوا إليه بهٰذه النصرانية ولو كانت هي الملكة، ولا تقبضوا فيها فداء، أوَما رأيتم ما افتكه ملك المغرب من أسرىٰ الترك من كل جنس حتىٰ لم يبق في أسر الكفار مسلم؟! وأنتم تردون شفاعته في نصرانية لا بال لها، فلا تعودوا لمثل هٰذا فيكون سببًا لتغير باطننا عليكم، والسلام.

ولما ورد عليهم فرمان السلطان عبد الحميد لم يسعهم إلَّا إرسال النصرانية إلىٰ حضرة السلطان ـ رحمه الله ـ وكتبوا إليه بالاعتذار وقالوا: إنما امتنعنا من فدائها خوف بلوغ خبرها إلىٰ ملكنا فلم نر أن نفتئت عليه [(٢)]، وذلك هو الواجب علينا من طريق

---

(١) قلت: هو عبدالحميد الأول.

(٢) قلت: أي نتقدم عليه بفعل هو من حقه.

الخدمة والطاعة، فنحب من سيدنا أن يقبل عذرنا ولا يظن بنا خلاف هذا، والسلام.

[٤٤٠] ثم دخلت سنة مائتين وألف فيها بعث السلطان سيدي محمد ـ رحمه الله ـ كاتبه أبا القاسم الصياني إلى السلطان عبد الحميد العثماني بهدية عظيمة، من جملتها أحمال من سبائك الذهب الخالص مثل بارات الحديد، وكان السلطان ـ رحمه الله ـ يقصد بمثل ذلك الفخر على الملوك وإظهار الغنى وكمال الثروة، وذلك من غريب السياسة لمن أقدره الله عليها.

وفاة أمير المؤمنين
سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله

يوم الأحد الرابع والعشرون من رجب سنة أربع ومائتين وألف، ومن الغد اجتمع الناس لجنازته وانحشروا من كل وجه، فجهز ودفن بقبة من قباب داره، وتأسف الناس لفقده خاصة وعامة، رحمه الله ورضي عنه.

[٤٤١] بقية أخبار السلطان
سيدي محمد بن عبد الله ومآثره وسيرته

كان السلطان سيدي محمد بن عبد الله ـ رحمه الله ـ محبًا للعلماء وأهل الخير، مقربًا لهم لا يغيبون عن مجلسه في أكثر الأوقات، وكان يحضر عنده جماعة من أعلام الوقت وأئمته يسردون له كتب الحديث، ويخوضون في معانيها، ويؤلفون له ما يستخرجه منها على مقتضى إشارته، وكانت له عناية كبيرة بذلك، وجلب من بلاد المشرق كتبًا نفيسة من كتب الحديث لم تكن بالمغرب، مثل مسند الإمام أحمد، ومسند أبي حنيفة وغيرهما، وألف ـ رحمه الله ـ في الحديث تآليف بإعانة الفقهاء الذين ذكرناهم آنفًا، منها كتاب مساند الأئمة الأربعة، وهو كتاب نفيس في مجلد ضخم التزم فيه أن يخرج من الأحاديث ما اتفق على روايته الأئمة الأربعة أو ثلاثة منهم، أو اثنان، فإذا انفرد بالحديث إمام واحد أو رواه غيرهم لم يخرجه، وهذا المنوال لم يُسبق إليه، رحمه الله.

وكان كثيرًا ما يجلس بعد صلاة الجمعة في مقصورة الجامع بمراكش مع فقهائها

ومن يحضره من علماء فاس وغيرهما للمذاكرة في الحديث الشريف، وتفهمه، ويحصل له بذلك النشاط التام، وكان كثيرا ما يتأسف أثناء ذلك ويقول: والله لقد ضيعنا عمرنا في البطالة، ويتحسر علىٰ ما فاته من قراءة العلم أيام الشباب، ولما فاته الاشتغال بفنون العلم في حال الصغر، اعتكف أولاً علىٰ سرد كتب التاريخ وأخبار الناس وأيام العرب ووقائعها إلىٰ أن تملىٰ من ذلك وبلغ فيه الغاية القصوىٰ، وكاد يحفظ ما في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني من كلام العرب وشعراء الجاهلية والإسلام، ولما ولاه الله أمر المسلمين بعد وفاة والده زهد في التاريخ والأدب بعد التضلع منهما وأقبل علىٰ سرد كتب الحديث والبحث عن غريبها وجلبها من أماكنها، ومجالسة العلماء والمذاكرة معهم فيها، ورتب -رحمه الله- لذلك أوقاتًا مضبوطة لا تنخرم.

[٤٤٢] ومن عجيب سيرته -رحمه الله- أنه كان يرىٰ اشتغال طلبة العلم بقراءة المختصرات في فن الفقه وغيره وإعراضهم عن الأمهات المبسوطة الواضحة تضييع للأعمار في غير طائل، وكان ينهىٰ عن ذلك غاية ولا يترك من يقرأ مختصر خليل ومختصر ابن عرفة وأمثالهما، ويبالغ في التشنيع علىٰ من اشتغل بشيء من ذلك حتىٰ كاد الناس يتركون قراءة مختصر خليل، وإنما كان يحض علىٰ كتاب الرسالة والتهذيب وأمثالهما، حتىٰ وضع في ذلك كتابًا مبسوطًا أعانه عليه أبو عبد الله الغربي، وأبو عبد الله المير وغيرهما من أهل مجلسه.

[٤٤٣] ولما أفضىٰ الأمر إلىٰ السلطان العادل المولىٰ سليمان رحمه الله صار يحض الناس علىٰ التمسك بالمختصر، ويبذل علىٰ حفظه وتعاطيه الأموال الطائلة، والكل مأجور علىٰ نيته وقصده غير أنا نقول: الرأي ما رأىٰ السلطان سيدي محمد -رحمه الله- وقد نص جماعة من أكابر الأعلام النقاد مثل الإمام الحافظ أبي بكر بن العربي، والشيخ النظار أبي إسحاق الشاطبي، والعلامة الواعية أبي زيد عبدالرحمن بن خلدون وغيرهم، أن سبب نضوب ماء العلم في الإسلام ونقصان ملكة أهله فيه إكباب الناس علىٰ تعاطي المختصرات الصعبة الفهم وإعراضهم عن كتب الأقدمين المبسوطة المعاني، الواضحة الأدلة، التي تحصل لمطالعها الملكة في أقرب مدة، ولعمري لا يعلم هذا يقينًا إلَّا من جربه وذاقه، وقد تقدم لنا في صدر

هـٰذا الكتاب أن ملوك بني عبد المؤمن كانوا يحملون الناس على الرجوع في الأحكام إلى الكتاب والسنة، كل ذلك اعتناء بالعلم القديم ومحافظة على أصوله، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

[٤٤٤] وكان السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله ينهى عن قراءة كتب التوحيد المؤسسة على القواعد الكلامية المحررة على مذهب الأشعرية ﷺ وكان يحض الناس على مذهب السلف من الاكتفاء بالاعتقاد المأخوذ من ظاهر الكتاب والسنة بلا تأويل، وكان يقول عن نفسه حسبما صرح به في آخر كتابه الموضوع في الأحاديث المخرجة من الأئمة الأربعة: أنه مالكي مذهبًا حنبلي اعتقادًا، يعني أنه لا يرى الخوض في علم الكلام على طريقة المتأخرين، وله في ذلك أخبار ومجريات.

قلت: وهو مصيب أيضًا في هـٰذا: فقد ذكر الإمام أبو حامد الغزالي ؓ في كتاب «الإحياء» أن علم الكلام إنما هو بمنزلة الدواء لا يحتاج إليه إلَّا عند حدوث المرض، فكذلك علم الكلام لا يحتاج إليه إلَّا عند حدوث البدعة في قطر، وقد حرر الناس القدر المحتاج إليه في حق العامة وغيرهم، والمبتدئين والمنتهين، والأغبياء والأذكياء، بما ليس هـٰذا محل بسطه.

وكان السلطان سيدي محمد ـ رحمه الله ـ عالي الهمة يحب الفخر ويركب سنامه، ويخاطب ملوك الترك مخاطبة الأكفاء، ويخاطبونه مخاطبة السادة، ويمدهم بالأموال والهدايا حتى علا صيته عندهم وحسبوه أكثر منهم مالاً ورجالاً.

وكان يعطي عطاء من لا يخاف الفقر، ويضع الأشياء مواضعها، ويعرف مقادير الرجال، ويؤدي حقوقهم ويتجاوز عن هفواتهم، ويراعي لأهل السوابق سوابقهم، ويتفقد أحوال خدامه في الصحة والمرض، ولا يغفل عمن كان يعرفه قبل الملك.

وكان من الشجعان المذكورين في وقته، يباشر الحروب بنفسه، ويهزم الجيوش بهيبته، وكان يقتني الرجال ويصطنعهم ويعدهم لأيام الكريهة، وينادي كل واحد باسمه وقت اللقاء والحضور عنده، ويوجه كل بطل منهم مع قبيلة أو كتيبة من كتائب الجند، ويعمل بقواعد السياسة في الحروب، وكان إذا وجه أحدًا ممن يعرف نجدته وكفايته ينشد قول ابن دريد:

والناس ألف منهم كواحد ... وواحد كالألف إن أمرٌ عنا

وبالجملة، فقد كان ـ رحمه الله ـ من عظماء الملوك، وخلد آثارًا كثيرة بالمغرب، بعضها أنشأها وبعضها أصلحه وجدده.

ورتب للأشراف بتافيلالت في كل سنة مائة ألف مثقال سوىٰ ما ينعم به عليهم في أيام السنة متفرقًا.

ورتب لأهل الحرمين الشريفين وشرفاء الحجاز واليمن مائة ألف مثقال أيضًا في السنة، ولشرفاء المغرب مائة ألف مثقال كذلك.

وأما الطلبة والمؤذنون والقراء وأئمة المساجد، كانت تأتيهم صِلاتهم في كل عيد.

[٤٤٥] وأما ما كان ينفقه في الجهاد علىٰ رؤساء البحر وطبجيته، وما يصيره علىٰ المراكب الجهادية والآلات الحربية التي ملأ بها بلاد المغرب فشيء لا يحصيه الحصر.

[٤٤٦] وأما ما أنفقه من الأموال في فكاك أسرىٰ المسلمين فأكثر من ذلك كله حتىٰ لم يبق ببلاد الكفر أسير لا من المغرب ولا من المشرق، ولقد بلغ عددهم في سنة مائتين وألف ثمانية وأربعين ألف أسير وزيادة.

وأوقافه بالحرمين الشريفين وكتبه العلمية المحبسة بهما لا زالت قائمة العين والأثر إلىٰ الآن.

[٤٤٧] وكانت له هيبة عظيمة في مشوره وموكبه يتحدث الناس بها، وهابته ملوك الفرنج وطواغيتهم، ووفدت عليه رسلهم بالهدايا والتحف، يطلبون مسالمته في البحر، بلغ ذلك ـ رحمه الله ـ بسياسته وعلو همته حتىٰ عمت مسالمته أجناس النصارىٰ كلهم إلَّا المسكوب [١] فإنه لم يسالمه لمحاربته للسلطان العثماني، ولقد وجه رسله وهديته إلىٰ طنجة فردها السلطان ـ رحمه الله ـ وأبىٰ من مسالمته.

ومهما كتب إلىٰ طاغية في أمر سارع إليه ولو كان محرمًا في دينه، ويحتال في قضاء الأغراض منهم بكل وجه أحبوا أم كرهوا، وكان أعظم طواغيتهم طاغية

---

(١) قلت: هم الروس.

الإنجليز وطاغية الفرنسيس، فكانوا يأنفون من أداء الضريبة علانية مثل غيرهم من الأجناس، فكان ـ رحمه الله ـ يستخرجها منهم وأكثر منها بوجه لطيف.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين

المولى يزيد بن محمد وأوليته ونشأته رحمه الله

[٤٤٨]كان المولى يزيد هذا عند والده رحمه الله بعين العناية ملحوظًا، ومن النقائص محروسًا ومحفوظًا، وكانت عامة أهل المغرب وخاصتهم من الجند والرعية متشوفين له ومغتبطين به يهتفون باسمه ويلهجون بذكره؛ لما كان عليه من الكرم والشجاعة والتمسك بمذاهب الفتوة والدين، والاعتناء بجوائز أهل البيت، ومحبة أهل الخير وإكرامهم، وإقامة الصلوات لأوقاتها حضرًا وسفرًا لا يشغله عن ذلك شاغل، فأصابته عين الكمال وصار ينتقل من حال إلى حال، حتى خالطته جماعة من الأغمار كانوا في خدمته فلزموه وحسنوا له الاستبداد على والده والخروج عليه، وأتوه من بين يديه ومن خلفه، حتى وقر ذلك في صدره وارتسم فيه، وكان ذلك على حين أوان الشبيبة وأخذها منه مأخذها، وكانت همته طماحة لا تقف به عند غاية، فاستعجل الأمر قبل أوانه وخرج على والده بجيش العبيد.

فسقطت منزلته عند أبيه بعد أن بلغ من الحظوة لديه ما بلغ، وكان يرشحه للخلافة ويقدمه على كبار إخوته؛ لما ظهر له من نجدته واقتداره، وجوده في محل الجود، ورغبته في الجهاد، فأسند إليه أمر الطبجية والبحرية، وصار يوجهه مع الرؤساء والطبجية إلى الثغور كل سنة ليقف على الملازمين لصقائلها وأبراجها، ويعلمهم ما يحتاجون إلى تعلمه، ولما رآه والده مغتبطًا بذلك وتوسم فيه النجابة أقبل عليه بالعطاء، ثم ولاه الكلام مع قناصل الأجناس الذين بالمراسي واستنابه في ذلك.

بيعة أمير المؤمنين المولى يزيد بن محمد، رحمه الله

لما توفي السلطان سيدي محمد ـ رحمه الله ـ في التاريخ المتقدم وبلغ خبر موته المولى يزيد، بايعه الأشراف، ثم وفد عليه أهل طنجة والعرائش وآصيلا فقابلهم بما يجب، ثم توجه إلى طنجة فخرج عسكرها للقائه ففرح بهم وأحسن إليهم، وبها

قدم عليه وفد أهل فاس من أشرافها وعلمائها وأعيانها فأكرمهم، ولما دخل مكناسة قدمت عليه قبائل الغرب كلها عربها وبربرها، ثم قدمت عليه قبائل الحوز كله من عرب وبربر لم يتخلف عن بيعته أحد، وقدم عليه أهل مراكش وأعمالها ببيعتهم.

[٤٤٩] نقض الصلح مع جيش الإصبنيول وحصاره سبته

قال منويل القشتيلي في كتابه الموضوع في أخبار المغرب: لما ولي المولى يزيد بن محمد ـ رحمه الله ـ أظهر معاداة الإصبنيول، وصمم على حربهم، فتفادى طاغيتهم من حربه بكل وجه، وبعث إليه بطنجة يهنئه بالملك ويتملق له فأعرض عن ذلك ولم يحفل به ولا بهديته، بل عمد إلى من كان بمراسيه من نصارى الإصبنيول تجاراً وغيرهم وقبض عليهم وسلكهم في السلاسل، وساقهم إلى طنجة فحبسهم بها، قال: وكانت قراصين المسلمين الحربية يومئذ ستة عشر قرصانًا وفيها من المدافع ثلاثمائة مدفع وستة مدافع.

قلت: القراصين أكثر من ذلك بكثير.

ثم إن السلطان المولى يزيد ـ رحمه الله ـ زحف إلى سبتة واستنفر الناس لجهادها والمرابطة عليها، واستصحب معه آلة الحرب، وأهرعت إليه المتطوعة من حاضر وباد، ونسلوا إليه من كل حدب وواد، وأقام على حصارها مدة ثم أفرج عنها وسار إلى ناحية مراكش لأمر اقتضى ذلك، فلما وصل إلى مدينة آنفا بدا له من الرجوع فرجع ونزل عليها واستأنف الجد، وأرهف الحد، وأرسل إلى قبائل الحوز يستنفرهم للجهاد والمرابطة فتقاعدوا عنه بعد أن أشرف على فتحها.

[٤٥٠] انتقاض أهل الحوز على السلطان المولى يزيد بن محمد وبيعتهم لأخيه المولى هشام رحمهما الله

لما قدمت قبائل الحوز على السلطان المولى يزيد بمكناسة ظهر لهم منه بعض التجافي عنهم وأنزلهم في العطاء دون البربر وغيرهم، فساءت ظنونهم به وانفسدت قلوبهم عليه، ولما رجعوا إلى بلادهم تمشت رجالاتهم بعضها إلى بعض، واتفقت كلمتهم مع أهل مراكش وسائر قبائل الحوز فقدموا المولى هشام بن محمد للقيام بأمرهم وآتوه بيعتهم وطاعتهم، ولما اتصل خبر ذلك بالمولى يزيد وهو محاصر لسبتة

أقلع عنها وسار إلىٰ الحوز فشرد قبائله، ووصل إلىٰ مراكش فدخلها عنوة، فاستباحها وقتل وسمل، وكان الحادث بها عظيمًا، ثم استجاش عليه المولىٰ هشام قبائل دكالة وعبدة وقصده بمراكش فبرز إليه المولىٰ يزيد ولما التقىٰ الجمعان انهزم جمع المولىٰ هشام وتبعهم المولىٰ يزيد فأصيب برصاصة في خده، فرجع إلىٰ مراكش يعالج جرحه، فكان في ذلك حتفه - رحمه الله - وذلك أواخر جمادىٰ الثانية سنة ست ومائتين وألف.

ولقد كان - رحمه الله - من فتيان آل علي وسمحائهم وأبطالهم له في النجدة والكفاية المحل الذي لا يجهل، والسبق الذي لا يلحق، والغبار الذي لا يشق، ولا يضره تنقيص من نقصه من الحسدة - عفا الله عنا وعنهم - فإن مكان الرجل غير مكانهم، وهمته العالية فوق تزويراتهم، تغمد الله الجميع بعفوه وغفرانه آمين.

حدوث الفتنة بالمغرب وظهور الملوك الثلاثة من أولاد سيدي محمد بن عبد الله وما نشأ عن ذلك

لما قتل المولىٰ يزيد - رحمه الله - بمراكش افترقت الكلمة بالمغرب، فأقام أهل الحوز وأهل مراكش علىٰ التمسك بدعوة المولىٰ هشام، وكان المولىٰ مسلمة بن محمد شقيق المولىٰ يزيد خليفة عنه ببلاد الهبط والجبل يدبر الأمر بثغورها وينظر في أمورها، فلما اتصل به خبر وفاة أخيه دعا إلىٰ نفسه أهل تلك البلاد فبايعوه واتفقت كلمتهم عليه، ووصل خبر موت المولىٰ يزيد إلىٰ فاس وأعمالها فبايعوا المولىٰ سليمان بن محمد رحمه الله.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين أبي الربيع المولى سليمان بن محمد رحمه الله

كان المولىٰ سليمان بن محمد - رحمه الله - أعلق بقلب أبيه من سائر إخوته - علىٰ ما قيل - لسعيه فيما يرضي الله ورسوله ويرضي والده، واشتغاله بالعلم والعكوف عليه بسجلماسة وغيرها، ولم يلتفت قط إلىٰ شيء مما كان يتعاطاه إخوته الكبار والصغار من أمور اللهو كالصيد والسماع ومعاقرة الندمان وما يُزري بالمروءة، ولم يأت فاحشة قط من صغره إلىٰ كبره، وكان - رحمه الله - يرىٰ له ذلك ويثيبه عليه

بالعطايا العظيمة والذخائر النفيسة، وينوه بذكره في المحافل ويبعث إليه بأعيان الفقهاء والأدباء إلى سجلماسة ليقرأ عليهم ويأخذ عنهم، ويدعو له في كل موقف على رؤوس الأشهاد ويقول: إن ولدي سليمان ﷺ لم يبلغني عنه قط ما يكدر باطني عليه فأشهدكم أني عنه راض، ونشأ - رحمه الله - نشأة حسنة طيبة، وكانت شمائل الملك لائحة عليه إلى أن أظفره الله به.

قدم على أخيه المولى يزيد بقبائل الصحراء فأجلّ مقدمه وأكرم وفادته، فأقام المولى سليمان - رحمه الله - بفاس إلى أن كانت وفاة المولى يزيد في التاريخ المتقدم، فاتصل خبر موته بأهل فاس ومكناسة فقاموا على ساق واتفق العبيد والبربر وأهل فاس على بيعته، لما كان عليه من العلم والدين والفضل وسائر الأوصاف الحميدة، التي تفرد بها عن غيره، ولما قدم العبيد والبربر من مكناسة إلى فاس اجتمعوا بأعيان أهل فاس، ودخلوا ضريح المولى إدريس ﷺ وبايعوا أمير المؤمنين المولى سليمان يوم الاثنين سابع عشر رجب سنة ست ومائتين وألف، ولما تمت بيعته انتقل إلى فاس الجديد فاستقر بدار الملك منها وقدمت عليه وفود القبائل من العرب والبربر بهداياهم، ثم قدم عليه بعدهم قبائل بني حسن وأهل الغرب ثم أهل العدوتين سلا ورباط الفتح، وانحرف بعض أهل رباط الفتح عن بيعته، ثم قدم عليه أهل الثغور الهبطية بعد أن توقفوا عن بيعته مدة يسيرة لأنهم كانوا قد بايعوا المولى مسلمة كما مرّ.

حرب السلطان المولى سليمان لأخيه المولى مسلمة وطرده إلى بلاد المشرق

لما تمت بيعة السلطان المولى سليمان بن محمد - رحمه الله - بفاس باتفاق أهل الحل والعقد من الجند والعلماء والأشراف وسائر الأعيان، تداعى أمر المولى مسلمة إلى الاختلال، وكان أول ما ابتدأ به عمله بعد تلك البيعة المستعجلة أن بعث جريدة من الخيل إلى نظر القائد أبي عبد الله محمد الزعري إلى رباط الفتح، وذلك باستدعاء محتسبها أبي الفضل العباس مرينو، وأبي عبد الله محمد المكي بن العربي فرج من أهلها، المنحرفين عن المولى سليمان إلى التمسك بدعوة المولى مسلمة، وكان أهل رباط الفتح يومئذ على فرقتين: فرقة دخلت في طاعة المولى سليمان،

وفرقة أقامت بالتمسك ببيعة المولى مسلمة.

ولما اتصل بالمولى سليمان خبر مسير الزعري إلى رباط الفتح عقد لأخيه المولى الطيب على بني حسن، وبعثه في اعتراضه، فتوافى الجيشان معًا برباط الفتح، ووقعت الحرب فانهزم الزعري وشيعته، وقتل العباس مرينو، واجتمعت كلمة أهل العدوتين على طاعته، وتفرق عن المولى مسلمة كل من كان معه، ولم يبق معه إلّا خاصته وأولاده وابن أخيه المولى حسن بن يزيد فتوجه إلى المشرق فبقي يتردد به إلى أن وافته منيته واستراح من تعب الدنيا، رحمه الله.

أخبار المولى هشام بن محمد بمراكش والحوز وما يتصل بذلك

قد قدمنا أن أهل مراكش وقبائل الحوز كانوا قد خرجوا على السلطان المولى يزيد وبايعوا أخاه المولى هشام بن محمد، ولما قتل المولى يزيد بمراكش، استقرت قدم المولى هشام بها، وأطاعته قبائل الحوز كلها، واستمر الحال على ذلك برهة من الدهر إلى أن خلعت الرحامنة طاعة المولى هشام وبايعت أخاه المولى حسين بن محمد، وزحفوا به إلى مراكش، فلم يرع المولى هشامًا إلّا طبولهم تقرع حول القصبة وأرهفوه وأعجلوه عن ركوب فرسه، فخرج يسعى على قدميه إلى أن أتى ضريح الشيخ أبي العباس السبتي، وبعد أيام تسلل وسار في جماعة من حاشيته إلى آسفي.

فبعث إليه السلطان من أمنه وجاء به إليه فلقاه مبرة وتكرمة وقدّم إليه المراكب والكُسَى، وأنزله بدار أخيه المولى المأمون ريثما استراح ثم بعثه إلى رباط الفتح فاستوطنها، ورتب له من الجراية ما يكفيه.

[٤٥١] وحكى صاحب الجيش: أن المولى هشامًا لما قدم على السلطان بمراكش ونزل بدار أخيه المولى المأمون أتاه السلطان بعد ثلاث إلى منزله راجلاً لقرب المسافة، ولما التقيا تعانقا وتراحما، ونصب له السلطان كرسيًا جلس عليه وجلس هو أمامه إعظامًا له لكونه أسن منه، ثم صار يستدعيه صباحا ومساء فيجلسان ويتحدثان، ثم يفترقان، وكان لا يتغدى ولا يتعشى إلّا وهو معه، وكلما دخل عليه رفع مجلسه وأجله، وإذا ذكره لا يذكره إلّا بلفظ الأخوة بأن يقول: أخي مولاي هشام دون سائر

بني أبيه، ولما طلب المولى هشام منه السكنى برباط الفتح أجابه إليها وقضى مآربه وأزاح علله، ثم عاد إلى مراكش فكانت منيته بها.

[٤٥٢] استرجاع السلطان المولى سليمان مدينة وجدة وأعمالها من يد الترك

وفي هـٰذه السنة أعني سنة إحدى عشرة ومائتين وألف بعث السلطان المولى سليمان بالعساكر من فاس إلى وجدة، وأمرهم أن يقاتلوا الترك الذين استحوذوا عليها ومانعوا دونها، وكتب مع ذلك إلى الباي محمد باشا [(١)] في أن يتخلى عنها وعن قبائلها، أو يأذن بالحرب فامتثل الباي محمد ذلك ولم يمانع، بل كتب إلى نائبه بها أن يتركها لأربابها فامتثل، ودخل جيش السلطان لوجدة وجبى عامله زكواتها وأعشارها، واستخلف نائبه بها، وقفل بالعساكر على السلطان وهو بفاس، والحمد لله.

[٤٥٣] ذكر ما اتفق للسلطان المولى سليمان ـ رحمه الله ـ في وسط دولته من الخصب والأمن والسعادة واليمن

كان هـٰذا السلطان ـ رحمه الله ـ موصوفًا بالعدل، معروفًا بالخير، مرفوع الذكر عند الخاصة والعامة، قد ألقى الله عليه منه المحبة، فأحبته القلوب، ولهجت به الألسنة لحسن سيرته وطيب سريرته، واتفق له في أواسط دولته من السعادة والأمن والعافية ورخاء الأسعار، وابتهاج الزمان، وتبلج أنوار السعد والإقبال، ما جعله الناس تاريخًا وتحدثوا به دهرًا طويلاً، حتى صارت أيام السلطان المولى سليمان مثلاً في ألسنة العامة، ولقد أدركنا الجم الغفير ممن أدرك أواسط دولته فكلهم يثني عليها بملء فيه، ويذهب في إطرائها كل مذهب لولا ما كدر آخرها من فتنة البربر التي جرّت معها فتنًا أُخَر.

فمما هيأ الله له من أسباب الخير والسعادة أنه بويع مطلوبًا لا طالبًا، ومرغوبًا لا

---

(١) قلت: هو والي الجزائر من قِبل الدولة العثمانية.

راغبًا، ثم لما بويع كان ثلاثة من إخوته كلهم يزاحمه في المنصب ثم لم يزل أمرهم يضعف وأمره يقوى إلى أن كفى الجميع من غير ضرب ولا طعن، ولا بارز أحداً منهم قط ولا واجهه بسوء.

[٤٥٤] ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف فيها، حدثت الحرب بين السلطان مصطفى بن عبد الحميد العثماني وبين الموسكوب (١) فكتب العثماني إلى السلطان يطلب منه أن يشد عضده بأن يقيم قراصينه بباب البوغاز من مرسى طنجة لئلا تدخل قراصين الموسكوب منه وتعيث في الجزر التي هي في ملكة العثماني كما فعلت في دولة عمه السلطان مصطفى بن أحمد فأمر السلطان رحمه الله رؤساء قراصينه بالتهيىء والمقام هنالك ففعلوا ولم يظهر شيء.

وفي هٰذه السنين كلها، كانت الرعية في غاية الطمأنينة والعافية والأمن والخصب والرخاء وكمال السرور والهناء، حتى كانت هٰذه المدة غرة في جبهة ذلك العصر ودمية في محراب ذلك القصر، ثم انعكست الأحوال وتراكمت الأهوال، وعظمت الأوجال، واتسع في الفتنة المجال، وتم على هٰذا السلطان الجليل العالم النبيل في آخر عمره ما لم يتم على أحد من ملوك بني أبيه، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

[٤٥٥] حج المولى أبي اسحاق إبراهيم ابن السلطان المولى سليمان رحمه الله

وفي هٰذه السنة ـ أعني سنة ست وعشرين ومائتين وألف ـ وجه السلطان المولى سليمان ـ رحمه الله ـ ولده الأستاذ الأفضل المولى أبا اسحاق إبراهيم بن سليمان إلى الحجاز لأداء فريضة الحج مع الركب النبوي الذي جرت العادة بخروجه من فاس على هيئة بديعة من الاحتفال، وإبراز الأخبية لظاهر البلد، وقرع الطبول وإظهار الزينة، وكانت الملوك تعتني بذلك وتختار له أصناف الناس من العلماء والأعيان والتجار والقاضي وشيخ الركب وغير ذلك، مما يضاهي ركب مصر والشام وغيرهما، فوجه السلطان ولده المذكور في جماعة من علماء المغرب وأعيانه،

---

(١) قلت: هم الروس.

فوصلوا إلىٰ الحجاز وقضوا المناسك وزاروا الروضة المشرفة علىٰ حين تعذر ذلك وعدم استيفائه علىٰ ما ينبغي لاشتداد شوكة الوهابيين بالحجاز يومئذ ومضايقتهم لحجاج الآفاق في أمور حجهم وزياراتهم إلَّا علىٰ مقتضىٰ مذهبهم[1].

حكى صاحب الجيش: «أن المولىٰ إبراهيم ذهب إلىٰ الحج واستصحب معه جواب السلطان، فكان سببًا لتسهيل الأمر عليهم وعلىٰ كل من تعلق بهم من الحجاج شرقًا وغربًا، حتىٰ قضوا مناسكهم وزيارتهم علىٰ الأمن والأمان، والبر والإحسان، قال: حدثنا جماعة وافرة ممن حج مع المولىٰ إبراهيم في تلك السنة، أنهم ما رأوا من ذلك السلطان -يعني ابن سعود- ما يخالف ما عرفوه من ظاهر الشريعة، وإنما شاهدوا منه ومن أتباعه غاية الاستقامة والقيام بشعائر الإسلام، من صلاة وطهارة وصيام، ونهي عن المنكر الحرام، وتنقية الحرمين الشريفين من القاذورات والآثام التي كانت تفعل بهما جهاراً من غير نكير، وذكروا أن حاله كحال آحاد الناس لا يتميز عن غيره بزي ولا مركوب ولا لباس، وأنه لما اجتمع بالشريف المولىٰ إبراهيم أظهر له التعظيم الواجب لأهل البيت الكريم، وجلس معه كجلوس أحد أصحابه وحاشيته، وكان الذي تولىٰ الكلام معه هو الفقيه القاضي أبو إسحاق إبراهيم الزداغي، فكان من جملة ما قال ابن سعود لهم:

إن الناس يزعمون أننا مخالفون للسنة المحمدية، فأي شيء رأيتمونا خالفنا من السنة، وأي شيء سمعتموه عنا قبل اجتماعكم بنا؟

فقال له القاضي: بلغنا أنكم تقولون بالاستواء الذاتي المستلزم لجسمية المستوىٰ.

فقال لهم: معاذ الله إنما نقول كما قال مالك: الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة، فهل في هذا من مخالفة؟

قالوا: لا، وبمثل هذا نقول نحن أيضًا.

ثم قال له القاضي: وبلغنا عنكم أنكم تقولون بعدم حياة النبي ﷺ وحياة إخوانه من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- في قبورهم فلما سمع ذكر النبي ﷺ ارتعد ورفع صوته بالصلاة عليه، وقال: معاذ الله، إنما نقول إنه ﷺ حي في قبره، وكذا غيره من

---

(١) قلت: سيأتي ما ينقض هذا.

الأنبياء، حياة فوق حياة الشهداء.

ثم قال له القاضي: «وبلغنا أنكم تمنعون من زيارته ﷺ وزيارة سائر الأموات مع ثبوتها في الصحاح التي لا يمكن إنكارها.

فقال: معاذ الله أن ننكر ما ثبت في شرعنا، وهل منعناكم أنتم لما عرفنا أنكم تعرفون كيفيتها وآدابها، وإنما نمنع منها العامة الذين يشركون العبودية بالألوهية، ويطلبون من الأموات أن تقضى لهم أغراضهم التي لا تقضيها إلَّا الربوبية، وإنما سبيل الزيارة الاعتبار بحال الموتى، وتذكر مصير الزائر إلى ما صار إليه المزور، ثم يدعو له بالمغفرة ويستشفع به إلى الله تعالى ويسأل الله تعالى المنفرد بالإعطاء والمنع بجاه ذلك الميت إن كان ممن يليق أن يتشفع به، هذا قول إمامنا أحمد بن حنبل، ﷺ، ولما كان العوام في غاية البعد عن إدراك هذا المعنى منعناهم سداً للذريعة، فأي مخالفة للسنة في هذا القدر» اهـ.

ثم قال صاحب الجيش: «هذا ما حدث به أولئك المذكورون، سمعنا ذلك من بعضهم جماعة، ثم سألنا الباقي أفراداً فاتفق خبرهم على ذلك» اهـ.

قلت: مسألة زيارة قبور الأنبياء والأولياء مشهورة في كتب الأئمة، وهي من القُرَب المرغوب فيها عند الجمهور، ومنعها قوم من الحنابلة، وشدد تقي الدين ابن تيمية منهم فيها محتجًا بقوله عليه الصلاة والسلام: «**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى**»، وهو عند الجمهور مؤول بأن المعنى لا تشد الرحال لصلاة في مسجد إلَّا إلى ثلاثة مساجد اهـ، وقد بسط القول في هذا صاحب «المواهب اللدنية» (١).

وأما الأولياء: فالقول بمنع زيارتهم سداً للذريعة مع بيان العلة وإشهارها بين الناس، حتى لا يلتبس عليهم المقصود، قول وجيه لا تأباه قواعد الشريعة بل تقتضيه، والله أعلم.

[٤٥٦] وأقول: إن السلطان المولى سليمان ـ رحمه الله ـ كان يرى شيئًا من ذلك ولأجله كتب رسالته المشهورة التي تكلم فيها على حال متفقرة الوقت (٢) وحذر فيها

---

(١) قلت: هو شهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني المصري المتوفى سنة ٩٢٣ رحمه الله تعالى.

(٢) قلت: أي الصوفية.

ﷺ من الخروج عن السنة والتغالي في البدعة، وبين فيها بعض آداب زيارة الأولياء، وحذر من تغالي العوام في ذلك، وأغلظ فيها مبالغة في النصح للمسلمين جزاه الله خيراً، ومن كلامه فيها ما نصه:

■ تنبيه: من الغلو البعيد ابتهال أهل مراكش بهٰذه الكلمة «سبعة رجال»، فهل كان لسبعة رجال شيعة يطوفون عليهم؟ إلىٰ أن قال: فعلينا أن نقتدي بسبعة رجال ولا نتخذهم آلهة؛ لئلَّا يؤول الحال فيهم إلىٰ ما آل إليه في يغوث ويعوق ونسراً، إلىٰ آخر كلامه، وصدق ـ رحمه الله ـ فكم من ضلالة وكفر أصلها الغلو في التعظيم! وما ضلت النصارىٰ إلَّا من غلوهم في عيسىٰ وأمه ـ عليهما السلام، قال الله تعالىٰ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١] الآية، ومن ذلك قصة يغوث ويعوق ونسراً المشار إليها، وهي مذكورة في الصحيح وفي كتب التفسير.

وقد تكلم الشاطبي وغيره من العلماء فيما يقرب من هٰذا، وذكروا أن الغلو في التعظيم أصل من أصول الضلال، ولو لم يكن في ذلك إلَّا قضية الشيعة لكان كافيًا، فالحاصل أن خير الأمور الوسط، ومن هنا أيضًا كان السلطان المولىٰ سليمان ـ رحمه الله ـ قد أبطل بدعة المواسم بالمغرب، وهي لعمري جديرة بالإبطال، فسقىٰ الله ثراه، وجعل في عليين مثواه.

[٤٥٧] وفاة أمير المؤمنين المولى سليمان بن محمد رحمه الله

كان أمير المؤمنين المولىٰ سليمان ـ رحمه الله ـ في هٰذه المدة قد سئم الحياة ومل العيش، وأراد أن يترك أمر الناس لابن أخيه المولىٰ عبد الرحمٰن بن هشام، ويتخلىٰ هو لعبادة ربه إلىٰ أن يأتيه اليقين، قال ذلك غير مرة، وتعددت فيه رسائله ومكاتيبه، فمما كتبه في ذلك هٰذه الوصية التي يقول فيها: الحمد لله: لما رأيت ما وقع من الإلحاد في الدين، واستيلاء الفسقة والجهلة علىٰ أمر المسلمين، فأقول جعله الله خالصا لوجهه الكريم: ما أظن في أولاد مولانا الجد عبد الله، ولا في أولاد سيدي محمد والدي ـ رحمه الله ـ ولا أولاد أولاده، أفضل من مولاي عبد الرحمٰن بن

هشام، ولا أصلح لهـٰذا الأمر منه؛ لأنه - إن شاء الله، حفظه الله - لا يشرب الخمر ولا يزني ولا يكذب ولا يخون، ولا يقدم على الدماء والأموال بلا موجب ولو ملك ملك المشرقين، ويصوم الفرض والنفل، ويصلي الفرض والنفل، وإنما أتيت به من الصويرة ليراه الناس ويعرفوه، وأخرجته من تافيلالت لأظهره لهم لأن الدين النصيحة، فإن اتبعه أهل الحق صلح أمرهم كما صلح سيدي محمد جده وأبوه حي، ولا يحتاجون إلي أبداً، ويغبطه أهل المغرب ويتبعونه إن شاء الله، وكان من اتبعه اتبع الهدىٰ والنور، ومن اتبع غيره اتبع الفتنة والضلال، وأما أنا فقد خفت قواي، ووهن العظم مني واشتعل الرأس شيبًا، حفظني الله في أولادي والمسلمين آمين، نصيحة وصية سليمان بن محمد لطف الله به. اهـ.

ولما أثقله المرض أعاد العهد للمولىٰ عبد الرحمـٰن بن هشام وبعث به إلىٰ فاس إذ كان خليفة بها كما مر عام ثمانية وثلاثين ومائتين وألف.

ثم تمادىٰ بالسلطان - رحمه الله - مرضه إلىٰ أن توفي ثالث عشر ربيع الأول من السنة المذكورة.

[٤٥٨] بقية أخبار السلطان

المولى سليمان - رحمه الله - ومآثره وسيرته

لما بويع أمير المؤمنين المولىٰ سليمان رحمه الله رد الفروع إلىٰ أصولها، وأجرىٰ الخلافة علىٰ قوانينها بإقامة العدل والرفق بالرعية والضعفاء والمساكين، ومن وفور عقله وعدله إسقاط المكوس التي كانت موظفة علىٰ حواضر المغرب في الأبواب والأسواق، وعلىٰ السلع والغلال فعوضه الله أكثر منه من الحلال المحض الذي هو الزكوات والأعشار من القبائل، وزكوات أموال التجار والعشر المأخوذ من تجار النصارىٰ وأهل الذمة بالمراسي، وأما المسلمون فقد منعهم من التجارة بأرض العدو لئلا يؤدي ذلك إلىٰ تعشير ما بأيديهم أو المشاجرة مع الأجناس، هكذا بلغنا والله أعلم.

وكانت القبائل في دولته قد تمولت ونمت مواشيها وكثرت الخيرات لديها من عدله وحسن سيرته، فصارت القبيلة التي كانت تعطي عشرة آلاف مثقال مضاربة

أيام والده يستخرج منها على النصاب الشرعي عشرون وثلاثون ألف مثقال، وذلك من توفيق الله له وتمسكه بالعدل والحلم والجود والحياء وجميل الصبر وحسن السياسة والتأني في الأمور واجتنابه لما هو بضد ذلك.

فأما الحلم، فهو دأبه وطبعه، وقد اتفق أهل عصره على أنه كان أحلم الناس في زمانه، وأملك لنفسه عند الغضب من أن يقع في الخطأ، ومذهبه درء الحدود بالشبهات، والتماس التأويل وقبول العذر، حتى لقد حكي عنه أنه ما اعتمد البطش بأحد وتصدى لنكبته لغرض نفساني أو لحظ دنيوي، وحسبك من حلمه ما قابل به الخارجين عليه.

وأما الدين والتقوى، فذلك شعاره الذي يمتاز به ومذهبه الذي يدين الله به، من أداء الفريضة لوقتها المختار حضراً وسفراً، وقيام رمضان وإحياء لياليه بالأشفاع، ينتقي لذلك الأساتيذ ومشايخ القراء ويجمع أعيان العلماء لسرد الحديث الشريف وتفهمه والمذاكرة فيه على مر الليالي والأيام، ويتأكد ذلك عنده في رمضان، ويشاركهم بغزارة علمه وحسن ملكته، ويتناول راية السبق في فهم المسائل التي يعجز عنها غيره فيصيب المفصل، ويواظب على صيام الأيام المستحبة من كل شهر، ويعظم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، ويرفع مناصبهم على سائر رجال دولته، ويجري عليهم الأرزاق ويعطيهم الدور المعتبرة، والضياع المغلة، ويحسن مع ذلك إلى من دونهم في المرتبة من المدرسين وطلبة العلم، ويؤثر المعتنين منهم وذوي الفهم بمزيد البر وتضعيف الجراية، حتى لقد تنافس الناس في أيامه في اقتناء العلوم، وانتحال صناعتها لاعتزاز العلم وأهله في دولته وسعة أرزاقهم.

وأما صبره عند الشدائد واحتمال العظائم، وتجلده عند حلول الخطب ونزول المقدور، فحدث عن البحر ولا حرج، وعن الجبل سكونًا ورسوخ قدم.

قال صاحب البستان: «ولو حدثنا بما شاهدناه منه لكان عجبًا».

وأما العدل، فإنه ما رُئي في ملوك عصره أعدل منه، ومن عجيب سيرته أنه كان يلزم العمال رد ما يقبضونه من الرعايا على وجه الظلم من غير إقامة بينة عليهم على ما جرى به عمل الفقهاء من قلب الحكم في الدعوى على الظلمة وأهل الجور حسبما ذكره الوانشريسي وغيره.

وأما سياسته الخاصة في جبر القلوب، واستئلاف الشارد، وتسكين المرتاب، وإرضاء الولي، والدفاع بالتي هي أحسن عند اشتباه الأمور، ومعاناة الرجال بوجوده المكائد والحيل في الأمور التي لا ينفع فيها حرب ولا قوة فشيء لا يُبلغ فيه شأوه ولا يُشق غباره.

وأما عادته في الحرب فقد أخذ فيها بسيرة العجم بحيث لا يباشر الحروب بنفسه، ويعمل بعمل أهل الصدر الأول فيقف في قلب الجيش كالجبل الراسي، وأمراؤه يباشرون الحروب بأنفسهم في الميمنة والميسرة، وهو ردء لهم كلما رأىٰ فرجة سدها أو خللاً أصلحه، وهو كالصقر مطل علىٰ حومة الوغا، فإذا أمكنته فرصة انتهزها، ومن شدة ثباته وعدم تزحزحه أنه كان لا يركب وقت الحرب إلّا البغلة، فكان حماته يفرون عنه بلا حياء ويبقىٰ هو ثابتًا، رحمه الله.

وأما جمعه لأشتات العلوم، فلقد كان وارثًا من ورثة الأنبياء، حاملاً للواء الشريعة جامعًا مانعًا.

قال «صاحب البستان»: ولا يعرف مقدار هـٰذا السلطان إلّا من تغرب عن الأوطان، وحمل عصا التسيار، ورمت به في الأقطار الأسفار، وشاهد سيرة الملوك في العباد، وما عمت به البلوىٰ في سائر البلاد، ولا يتحقق أهل المغرب بعدله إلّا بعد مغيبه وفقده:

المرء ما دام حيا يستهان به ... ويعظم الرزء فيه حين يُفتقد

[٤٥٩] ثم ختم ـ رحمه الله ـ ديوانه بالحسنة العظيمة، والمنقبة الفخيمة، وهي عهده بالخلافة لابن أخيه المولىٰ عبد الرحمـٰن بن هشام علىٰ كثرة أولاده ووجود بعض إخوته، ولعمري إن هـٰذا العهد لمنقبة جليلة للعاهد والمعهود إليه، أما العاهد فإنا لم نسمع بعد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ بأحد من خلفاء الإسلام وملوكه عدل بولاية العهد عن ولده المستحق لها إلىٰ غيره حتىٰ كان هـٰذا الإمام الجليل، الذي أحيا سيرة العمرين، نعم قد عهد سليمان بن عبد الملك لابن عمه عمر بن عبدالعزيز رحمهما الله، لكن حكىٰ ابن الأثير أن سليمان لما حضرته الوفاة عزم أن يعهد لابن له صغير فوعظه رجاء بن حيوة فرجع عن ذلك وشاوره في ابنه داود وكان غازيًا بالقسطنطينية، فقال له رجاء: لا تدري أحي هو أم ميت، فحينئذ رجع إلىٰ

عمر بن عبد العزيز ﷺ وأما المعهود إليه فإن في العهد إليه دون الأبناء والإخوة شاهداً عدلاً على كمال فضله وإحرازه لخلال الخير وتبريزه فيها على من عداه من بني أبيه وعشيرته، ولعمري إن ذلك لكذلك؛ فإن المولى عبد الرحمن بن هشام ـ رحمه الله ـ قد اشتهرت ديانته وأمانته عند القاصي والدان، حتى صار لا يختلف في عدالته اثنان.







الجزء التاسع

الدولة العلوية

«القسم الثالث»

الدولة العلوية

القسم الثالث

الخبر عن دولة أمير المؤمنين

المولى عبد الرحمن بن هشام وأوليته ونشأته

كان المولى عبد الرحمن بن هشام ـ رحمه الله ـ منذ نشأ وهو متمسك بالتقوى والعفاف، متصف بالصيانة وجميل الأوصاف؛ من الانقباض عن الخلق وملازمة العبادة والصوم وقيام الليل وترك ما لا يعني والجد في الأمور كلها، ولما نشأ هذه النشأة الطيبة أقبل عليه عمه السلطان المولى سليمان ـ رحمه الله ـ وضمه إليه، واعتنى بشأنه ورفع منزلته حتى علا أولاده، ولما بعث أولاده إلى الحرمين الشريفين بقصد أداء فريضة الحج بعثه في جملتهم فظهر له في تلك السفرة من الورع والدين والتمسك بأسباب اليقين ما رفع قدره وأشاع بالصلاح ذكره، وكان السلطان ـ رحمه الله ـ قد أعطاه بضاعة ينفقها في سفرته تلك ويستعين بها على حجه فلما آب من سفره أتى بالبضاعة إلى عمه وقال له:

يا سيدي: هذه البضاعة التي أعطيتني إنما أخذتها لأنفق منها إذا نفد ما عندي، وكانت معي بضاعة جمعتها بقصد إنفاقها في هذه الوجهة، ولم أرد أن أخلطها بغيرها، وقد حصلت الكفاية بها والحمد لله، فعجب عمه من شأنه وازداد محبة وغبطة فيه ورد له البضاعة وطيبها له ودعا له بخير.

وكان في أول أمره مقيمًا بتافيلالت، ثم استقدمه السلطان المولى سليمان في آخر عمره وولاه بثغر الصويرة وأعمالها فقام بذلك أحسن قيام، ثم استقدمه منها في فتنة ابني يزيد واستخلفه على حاضرة المغرب وأم أمصاره مدينة فاس، فقرت بولايته العيون وطابت الأنفاس، كل ذلك فعله به ترشيحًا للأمر وتقديمًا له فيه على زيد وعمرو.

بيعة أمير المؤمنين المولى عبد الرحمن بن هشام رحمه الله

قد تقدم لنا أن السلطان المولى سليمان لما حضرته الوفاة جدد العهد لابن أخيه المولى عبد الرحمـٰن بن هشام وبعث به إلى فاس، ثم كانت وفاة السلطان عقب ذلك، فوصل خبر وفاته إلى فاس في السادس والعشرين من ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين ومائتين وألف فحضر القاضي والمفتي وسائر أعيان فاس من العلماء والأشراف وغيرهم ولما قرئ العهد ترحموا على السلطان المولى سليمان وبايعوا للسلطان المولى عبد الرحمـٰن وسلموا عليه بالخلافة وتم أمره وسر الناس بذلك خاصة وعامة، ثم ترادفت على حضرته بيعة أهل الديوان وسائر الجنود وكتبت البشائر بذلك إلى البلدان فوفدت بيعات أهل الأمصار وهداياهم، ولم يتوقف عن هـٰذه البيعة الشرعية أحد منهم، واستبشر أهل المغرب بولايته، وبان لهم مصداق يمنه وسعادته بتوالي الأمطار، ورخص الأسعار، والعافية آناء الليل وأطراف النهار.

[٤٦١] استيلاء الفرنسيس على ثغر الجزائر وما ترتب على ذلك من دخول أهل تلمسان في بيعة السلطان المولى عبد الرحمن رحمه الله

كان استيلاء طاغية الفرنسيس على ثغر الجزائر في آخر المحرم فاتح سنة ست وأربعين ومائتين وألف، وكان السبب في ذلك أن أتراك الجزائر كانوا يومئذ مع الفرنسيس على طرفي نقيض قد تعددت بينهم الوقعات براً وبحراً، وكثرت بينهم الذحول والترات [١]، وكان الترك يؤذونهم أشد الإذاية، وأمير الجزائر يومئذ واسمه أحمد باشا قد أَمِرَ أمر [٢] وأراد الاستبداد على الدولة العثمانية، وربما شكا طاغية الفرنسيس إلى السلطان محمود العثماني فقال له: شأنك وإياه [٣]، فهجم الفرنسيس في العدد والعُدد على ثغر الجزائر فاستولى عليه بعد مقاتلات ومجاولات

---

(١) أي الثارات.

(٢) قلت: أي عظم أمره.

(٣) قلت: هـٰذا غير صحيح، وليس عليه دليل، ولا يصدر من سلطان مسلم.

في التاريخ المتقدم.

[٤٦١] وكان السلطان المولىٰ عبد الرحمـٰن يومئذ بمراكش فاتصل به خبر الجزائر في أوائل صفر فنهض إلىٰ مكناسة في التاريخ المذكور، ولما وقع بأهل الجزائر ما وقع اجتمع أهل تلمسان وتفاوضوا في شأنهم، واتفقوا علىٰ أن يدخلوا في بيعة السلطان المولىٰ عبد الرحمـٰن ـ رحمه الله ـ فجاؤوا إلىٰ عامله بوجدة القائد أبي العلاء إدريس بن حمان الجواري وعرضوا عليه أن يتوسط لهم عند السلطان في قبول بيعتهم والنظر لهم بما يصلح شأنهم ويحفظ من العدو جانبهم، ثم عينوا جماعة منهم للوفادة علىٰ السلطان تأكيداً للطلب واستعجالاً لحصول هـٰذا الأرب، فقدموا علىٰ السلطان بمكناسة غرة ربيع الأول من السنة المذكورة فأكرم السلطان وفادتهم وأَجَلّ مقدمهم، ولما صرحوا له عن مرادهم توقف في ذلك ـ رحمه الله ـ وكان هواه إلىٰ قبولهم أميل إلَّا أنه أراد أن يبني ذلك علىٰ صريح الشرع كما هي عادته فاستفتىٰ علماء فاس فأفتىٰ جلهم بنقيض المقصود ورخص له بعضهم في ذلك، فأخذ السلطان ـ رحمه الله ـ بقول المرخص مع أن أهل تلمسان لما بلغهم فتوىٰ أهل فاس كتبوا إلىٰ السلطان في الرد عليهم ما نصه:

ليعلم سيدنا قطب المجد ومركزه، ومحل الفخر ومحرزه، أساس الشرف الباذخ ومنبعه، وبساط الفضل الشامخ ومجمعه، السلطان الأعظم الأمجد الأفخم، نجل الملوك العظام: سيدنا ومولانا عبد الرحمـٰن بن هشام، أن فتوىٰ ساداتنا علماء فاس مبنية علىٰ غير أساس؛ لأنهم اعتقدوا أن في عنقنا للإمام العثماني بيعة، وهـٰذا لو صح لكان علينا حجة، وليس الأمر كذلك؛ وإنما له مجرد الاسم هنالك، وعامل الجزائر إنما كان متغلبًا، وبالدين متلاعبًا، فأهلكه الله بظلمه وتطاوله علىٰ عباد الله وجوره وفسقه، إن الله يمهل علىٰ الظالم حتىٰ يأخذه فإذا أخذه لم يفلته، ويدل علىٰ تغلبه واستقلاله عدم وقوفه عند أمر العثماني وامتثاله، بل لا يكترث به أصلاً، ولا يتبع له قولاً ولا فعلاً، كيف وقد أمره أن يعقد مع النصارىٰ صلحًا فلم يقبل له قولا ولا نصحًا، وطلب منه بعض الأموال ليستعين بها علىٰ ما حل به مع النصارىٰ من الأهوال فامتنع غاية الامتناع، ولم يمكنه من شبر منها فضلاً عن الباع، حتىٰ أخذها العدو الكافر، وهـٰذا جزاء كل فاسق فاجر، مال جمع من

حرام، سلَّط الله عليه الأعداء اللئام، وهـٰذا كله من هـٰذا المتغلب متواتر مشاهد بالعيان، مستغن عن إقامة الدليل والبرهان، الناس كلهم عبيد الله وإماؤه والسلطان واحد منهم ملكه الله أمرهم ابتلاء وامتحانًا، فإن قام فيهم بالعدل والرحمة والإنصاف والصلاح - مثل سيدنا نصره الله - فهو خليفة الله في أرضه، وظل الله على عبيده، وله الدرجة عند الله تعالى، وإن قام فيهم بالجور والعسف والطغيان والفساد - مثل هـٰذا المتغلب - فهو متجاسر على الله في مملكته، ومتسلط ومتكبر في الأرض بغير الحق، ومتعرض لعقوبة الله الشديدة وسخطه، هـٰذا وعلى فرض تسليم أن للعثماني في عنقنا بيعة فلا تكون علينا حجة؛ لأنه تباعد علينا قطره، فلم يغن عنا شيئًا ملكه، لما بيننا وبينه من المفاوز والقفار والبحار، والقرى والمدن والأمصار، وربما قرب محله من جهة البحر لكن منعه الآن من ركوبه الكفار، على أنه ثبت بتواتر الأخبار البالغة حد الكثرة والانتشار أنه مشتغل لنفسه ومقره، عاجز عن الدفع عن إيالته القريبة من محله، حتى أنه هادن النصارى خمس سنين على عدد كثير من المئين، وأعطى فيه منهم ضامنًا، ليكون في المدة المذكورة على نفسه وحشمه آمنًا، فكيف يمكنه مع هـٰذا الدفاع عن قطرنا وناحيتنا وبلدنا، وأدل دليل على بعده عن هـٰذا المرام خبر مصر ونواحي الشام، فقد استولى عليها أعداء الدين، مدة تزيد على الخمس سنين فلم يجد لهم نفعًا ولا ملك عنهم دفعًا حتى استعان بالعدو الكافر[1] والله - تعالى - قد يؤيد هـٰذا الدين بالرجل الفاجر، هـٰذا ونص الأُبّي في شرح مسلم مفصح عن مثل قضيتنا ومعلم، على أن الإمام إذا لم ينفذ في ناحية أمره جاز إقامة غيره فيها ونصره، فانتظار نصرته يؤدي إلى الهلاك، كيف وقد تطاولت إليها الأعناق، وتشوفت إليها من كل جانب العيون والأحداق، فأعرضنا عن الكل صفحًا، وطوينا عنه الجوانب كشحًا، مقبلين إلى عتبة باب سيدنا - نصره الله - داخلين تحت طاعته، ملتزمين لخدمته، متوافقين مع القبائل والأمصار وأهل الرأي والاستبصار، لعلمنا أن سيدنا - نصره الله - المتأهل في هـٰذا الأمر العريق، الجدير بالإمامة الحقيق، كيف وقد ورثها كابرًا عن كابر، وإليهم انتهت المآثر والمفاخر، فنطلب من سيدنا - نصره الله - أن يلتزم لنا بفضله من هـٰذه البيعة القبول، مستشفعين

---

(١) قلت: أي الإنجليز.

بجاه جده الرسول، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين، وصحابته المنتخبين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. اهـ.

ولما وقف السلطان ـ رحمه الله ـ على هذا الكلام قبل بيعتهم والتزمها، وعقد عليهم لابن عمه المولى علي بن سليمان وأضاف إليه كتيبة من الجند.

والحاصل: أن السلطان ـ رحمه الله ـ كان قد اعتنى بأمر هذه الناحية غاية الاعتناء وبذل المجهود في إمدادها بالعدد والعُدد والمال مرة بعد أخرى، لكن لم يكن إلّا ما أراده الله ـ تعالى ـ فافترقت كلمة العرب الذين هنالك لضعف إيمانهم، وقلة همتهم، فجُلّهم مال إلى الدخول في حزب النصارى عندما استولوا على مدينة وهران في هذه الأيام، ثم سرى ذلك الاختلاف في قواد جيش السلطان فتنافسوا وتحاسدوا، وكثر القيل والقال منهم على السلطان، وفسد العمل، وخاب الأمل، فحينئذ رأى السلطان ـ رحمه الله ـ استرجاع تلك الجيوش التي لم يبق طمع في صلاحها.

[٤٦٢] ظهور الحاج عبد القادر بن محيي الدين (١) المختار بالمغرب الأوسط وبعض أخباره

لما رجع جيش السلطان من تلمسان بقي أهل تلمسان فوضى، ورجعت الحرب بين الحضر من أهلها والكرغلية (٢) جذعة، وهاجت الفتن بين قبائل العرب الذين هنالك واختلط الحابل بالنابل، وكان الفقيه المرابط محيي الدين عبد القادر المختاري متظاهراً بالخير وتدريس العلم، واتخذ زاوية لطلاب العلم وقراء القرآن، فاشتهر عند تلك القبائل واعتقدوه، فلما دهم العدو أهل تلك البلاد وجاشت فيما بينهم الفتن اجتمع الحشم وبعض بني عامر وتفاوضوا فيما نزل بهم، فأجمع رأيهم على بيعة الشيخ محيي الدين المذكور فذهبوا إليه وعرضوا عليه ما في أنفسهم فتجافا عن منصب الرياسة وأظهر الورع واعتذر بأنه قد شاخ، فأشار عليهم بولده الحاج عبد القادر بن محيي الدين، وكان له يومئذ عدة أولاد ليس الحاج عبد القادر أكبرهم ولا أعلمهم ولَا أصلحهم وإنما كان فيه مضاء وإقدام، فأسعفوه بشرط أن يكون نظره

(١) قلت: هو الأمير عبدالقادر الجزائري المشهور.
(٢) قلت: الكرغلية هم اللذين من أب تركي وأم جزائرية.

منسحبًا عليه، ومشيراً بما تدعو الضرورة إليه، ولما تم أمر الحاج عبد القادر جمع كتيبة من بني عامر والحشم وزحف إلىٰ وهران وكانت يومئذ في ملكة النصارىٰ قد استولوا عليها منذ ستة أشهر أو سبعة فأوقع بهم وقعة شنعاء، قتل فيها وأسر وأبلغ في النكاية ورجع مظفراً منصوراً، فتيمنوا به وأحبوه وتمكن منهم ناموسه، واتخذ عسكراً من الحشم وبني عامر لا بأس به، ولما سمع به أهل تلمسان وهم أحوج ما كانوا إلىٰ من يقوم بأمرهم وفدوا عليه وأخبروه بما كان منهم من مبايعة السلطان المولىٰ عبدالرحمـٰن صاحب مراكش وفاس وإنهم يبايعونه علىٰ بيعته والإعلان بدعوته، فأجابهم الحاج عبد القادر إلىٰ ذلك وأخذ عليهم البيعة، وأظهر الطاعة والانقياد للسلطان المولىٰ عبد الرحمـٰن وخطب به علىٰ منابر تلمسان وغيرها، وكتب إلىٰ السلطان يعلمه بأنه بعض خدمه وقائد من قواد جنده، واستقام أمر الحاج عبد القادر وثبتت قدمه في تلك الإيالة التلمسانية.

[٤٦٣] ثم إن قبيلتي الزمالة والدوائر انحرفوا عن الحاج عبد القادر لأسباب، منها أنهم كانوا معادين للحشم، ولما قَرّب الحاج عبد القادر الحشم وجعلهم جنده ازدادت عداوتهم ونفرتهم عن الحاج عبد القادر، وساروا إلىٰ وهران وأعلنوا بدعوة الفرنسيس فقبلهم وحماهم، وحدثت بينه وبين الحاج عبد القادر بسببهم حروب صعبة(١).

[٤٦٤] حدثني الأمين السيد الحاج عبدالكريم ابن الحاج أحمد الرزيني التطاوني قال:

ذهبت سنة سبع وأربعين ومائتين وألف إلىٰ مدينة وهران بقصد التجارة بها وذلك عقب استيلاء الفرنسيس عليها قال: وكنت يومئذ في سن الشباب وكان الحاج عبد القادر بن محيي الدين إذ ذاك مهادنًا لكبير الفرنسيس بوهران والجزائر قد أنزل كل واحد منهما ببلد الآخر قنصله وتجاره علىٰ العادة في ذلك أيام الهدنة، فلما كان ذات يوم ورد الخبر بأن قبيلتي الزمالة والدوائر من إيالة الحاج عبد القادر وهم نحو الألفين كانوا قد فروا منه ونزلوا حول مدينة وهران مستجيرين بالفرنسيس وقد رفعوا

(١) قلت: هـٰذا تمزيق لعقيدة الولاء والبراء، وإنا لله وإنا إليه راجعون، وهـٰذا كان شائعًا عند تلك القبائل الجاهلة.

سنجقه [1] وأعلنوا بأنهم تحت حكمه ومن جملة رعيته، فبعث إليهم الفرنسيس يعلمهم بأنه قد قبلهم ولا يصيبهم مكروه، فلما كان من الغد بعث الحاج عبد القادر كتاباً إلى الفرنسيس يقول فيه: إنك قد علمت أن هؤلاء القوم الذين فروا إليك هم رعيتي ومن إيالتي، وعليه فلا بد أن تردهم علي وإلا فالحرب بيني وبينك، فامتنع الفرنسيس من ردهم وأجاب إلى الحرب، واتفقوا أن يُخرج كل منهما إلى الآخر تجاره الذين في أرضه، وأن من بقي منهم بعد ثلاث فهو هدر، واتفقوا أيضاً على أن يكون القنصلان آخر من يخرج وأن يكون خروجهما في ساعة معلومة من الليل بحيث يلتقيان على المحدة [2] التي بين أرض المسلمين وأرض النصارى ففعلوا وخلص كل إلى مأمنه.

ولما انقضى الأجل تزاحفوا للقتال في يوم معلوم فكانت بينهم حرب يشيب لها الوليد، وإذا بالحاج عبد القادر هزم الكفار هزيمة شنعاء حتى ألجأهم إلى سور البلد وازدحموا على أبوابه وركب بعضهم بعضاً وجاءت خيالتهم من خلفهم فركبوهم أيضاً ومشوا عليهم ورفسوهم بخيلهم، فهلك بهذا الازدحام من الفرنسيس نحو أربعة آلاف دون الذين هلكوا خارج البلد، واستولى المسلمون على معسكر النصارى بما فيه من مدافع وعجلات وفساطيط وأخبية وأثاث، وكانت فتكة بكراً.

انتهى كلام هذا المخبر.

[٤٦٥] ثم إن الزمالة والدوائر لَجُّوا في موالاة الفرنسيس وأحكموا أمرهم معه، وولوا عليهم رجلاً منهم يقال له المصطفى بن إسماعيل كان هو السبب الأكبر في تملك الفرنسيس بلاد المغرب الأوسط، وجل الحروب التي كانت تكون بين المسلمين والنصارى في تلك المدة على يده إلى أن قتل منتصف سنة تسع وخمسين ومائتين وألف ضاعف الله عليه غضبه ونقمته.

[٤٦٦] ولما اتصل بالسلطان المولى عبد الرحمن ـ رحمه الله ـ ما عليه الحاج عبد القادر من جهاد عدو الدين، وحماية بيضة المسلمين، أعجبه حاله وحسنت منزلته عنده لأنه رأى أنه قد قام بنصرة الإسلام على حين لا ناصر له، فصار السلطان ـ

---

(١) قلت: أي علمه.

(٢) قلت: أي على الحدود.

رحمه الله ـ يمده بالخيل والسلاح والمال المرة بعد المرة، وطالت الحرب بينه وبين الفرنسيس، واستولى الفرنسيس في بعض الكرّات على تلمسان وضايقه الحاج عبد القادر فيها حتى أخرجه منها، ثم استردها الفرنسيس بعد معارك شديدة ومواقف صعبة إلّا أن ضرر الحاج عبد القادر للفرنسيس كان مقصوراً على قتل النفوس واستلاب الأموال، وأما الفرنسيس فكان ضرره بالمسلمين عائداً على تملك بلادهم وتنقصها من أطرافها، ودام ذلك مدة من ست عشرة سنة.

وبالجملة، فلقد كان الحاج عبد القادر هذا في أول أمره على ما ينبغي من المثابرة على الجهاد والدرء في نحر العدو، ولولا أنه انعكس حاله في آخر الأمر وخلصت الأرض للفرنسيس، والله غالب على أمره.

وفي سنة خمسين ومائتين وألف ولد مؤلف هذا الكتاب أحمد بن خالد الناصري السلاوي.

[٤٦٧] وفي سنة اثنتين وخمسين ومائتين وألف ورد سؤال من عند الحاج عبدالقادر بن محيي الدين إلى علماء فاس يقول فيه ما نصه:

الحمد لله سادتنا الأعلام أئمة الهدى ومصابيح الظلام فقهاء الحضرة الإدريسية، أطباء أدواء الدين، ومحقين حقه، ومبطلين باطله، جوابكم أبقاكم الله فيما عظم به الخطب، واشتد به الكرب، بوطن الجزائر الذي صار لغربال الكفر جزائر؛ وذلك أن العدو الكافر يحاول ملك المسلمين مع استرقاقهم بالسيف وتارة بحيل سياسته، ومن المسلمين مَن يداخلهم ويبايعهم ويجلب الخيل إليهم ولا يخلو من دلالتهم على عورات المسلمين ويطالعهم، ومن أحياء العرب المجاورين لهم من يفعل ذلك ويتمالأون على الجحود والإنكار، فما حكم الله في الفريقين في أنفسهم وأموالهم؟ فهل لهم من عقاب أم يتركون على حالهم؟

وما الحكم فيمن يتخلف عن المدافعة عن الحريم والأولاد إذا استنفره نائب الإمام للدفاع والجلاد؟ فهل يعاقبون وكيف عقابهم ولا يتأتى بغير قتالهم؟ وهل تؤخذ أموالهم وأسلابهم؟

وكيف العمل فيمن يمنع الزكاة أو يمنع بعضها من التحقق بعمارة ذمته في الحال؟ فهل يصدق مع قلة الدين في هذا الزمان أم يكون للاجتهاد فيه مجال؟ ومن أين

يرزق الجيش المدافع عن المسلمين الساد ثغورهم عن المغيرين ولا بيت مال، وما يجمع من الزكاة لا يفي بشبعهم فضلاً عن كسوتهم وسلاحهم وخيلهم ومؤنتهم وزيهم؟ فهل تترك فيستبيح الكافر الوطن أم يكون ما يلزمهم على جماعة المسلمين؟ وإذا كان فهل على العموم أم على الأغنياء فقط ولا يمكن اختصاص الأغنياء لجفوة الأعراب وجهلهم؟

وهل يعد مانع المعونة باغيًا أم لا؟ وما حكم أموال البغاة؟ وهل القول بعدم ردها يجوز العمل به أم لا؟

أجيبوا عما ذكرنا وعما يناسب المقام والحال مما لم يحضرنا، داووا عللنا - أبقاكم الله - فقد ضاق من هـٰذه الأمور الذرع، وكاد القائم بأمر المسلمين لضيق الأسباب أن يتخلى عن الأمر ويطرح ثوب الإمارة والدرع، مأجورين والسلام.

وقد أجاب عن هـٰذا السؤال بإشارة السلطان الفقيه العلامة أبو الحسن علي بن عبد السلام مديدش التسولي بجواب طويل يشتمل على خمس كراريس وزيادة، وهو موجود بأيدي الناس، ولأجل ما كان يصل من هـٰذه الأمور من جانب الحاج عبد القادر كان السلطان - رحمه الله - يبذل مجهوده في إمداده بالخيل والسلاح والمال وغير ذلك، ثم لم يكن إلّا ما أراده الله.

[٤٦٨] انتقاض الهدنة مع الفرنسيس وتمحيص المسلمين بإيسلي قرب وجدة والسبب في ذلك

لما كانت سنة تسع وخمسين ومائتين وألف تم استيلاء الفرنسيس على جميع بلاد المغرب الأوسط، وصار الحاج عبد القادر يتنقل في أطرافها، فتارة بالصحراء وتارة ببني يزناسن، وتارة بوجدة والريف وغير ذلك وربما استكثر في هـٰذه التنقلات بمن هو من رعية السلطان أو جنده، فمد الفرنسيس يده إلى إيالة السلطان - رحمه الله - فشن الغارة على بني يزناسن وعلى وجدة وأعمالها المرة بعد المرة، ثم اقتحم وجدة على حين غفلة من أهلها وانتهبها وكثر عيثه في الحدود، فكُلم من جانب السلطان - رحمه الله - فيما ارتكبه من إيالته فتعلل بأن الهدنة قد انتقضت بإمداد الحاج عبدالقادر بالخيل والسلاح والمال المرة بعد المرة، وبمحاربة جيش السلطان المرابط على

الحدود له وبمحاربة بني يزناسن له مع الحاج عبد القادر وغير ذلك مما اعتد به، وتفاقم الأمر، فعمد السلطان ـ رحمه الله ـ على حرب الفرنسيس، وتقدم إلى أهل الثغور بالاستعداد والحراسة، ثم عقد لابن عمه المولى المأمون بن الشريف على كتيبة من الجند ووجهها إلى ناحية وجدة فكانت لهم مناوشة مع رابطة الفرنسيس التي هنالك، ثم أخذ السلطان ـ رحمه الله ـ في أسباب الغزو والاستعداد التام وحشد الجنود واتخاذ الرايات والبنود واستنفار القبائل، فاجتمع للسلطان ـ رحمه الله ـ في هذا الاستنفار ثلاثون ألف فارس تزيد قليلاً أو تنقص قليلاً فيها الجند وحصص القبائل، ثم عقد رحمه الله على هذه الجنود لولده وخليفته سيدي محمد بن عبد الرحمن وسار حتى نزل بوادي إيسلي من أعمال وجدة، وكان الحاج عبد القادر لا زال جائلاً في تلك الناحية ومعه نحو خمسمائة فارس ممن كان قد بقي معه من أهل المغرب الأوسط؛ لأن حاله كان قد أخذ في التراجع والانحطاط، ولم تبق له هنالك كبير فائدة.

[٤٦٩] ولما احتل الخليفة سيدي محمد بإيسلي وعسكر به جاءه الحاج عبد القادر يستأذن عليه في الاجتماع به فأذن له واجتمع به وهو على فرسه فدار بينهما كلام كان من جملته أن قال الحاج عبد القادر: إن هذه الفرش والأثاث والشارة التي جئتم بها حتى وضعتموها بباب جيش العدو ليس من الرأي في شيء، ومهما نسيتم فلا تنسوا أن لا تلاقوا العدو إلَّا وأنتم متحملون منكمشون بحيث لا يبقى لكم خباء مضروب على الأرض وإلا فإن العدو متى رأى الأخبية مضروبة لم ينته دون الوصول إليها ولو أفنى عليها عساكره، وبين كيف كان هو يقاتله، وكان هذا الكلام منه صوابًا إلَّا أنه لم ينجع في القوم لانفساد البواطن ولَا حول ولَا قوَّة إلَّا بالله، وربما انتهره بعض حاشية الخليفة على التفصح بمحضره والإشارة عليه قبل استيشاره، فرجع الحاج عبد القادر عوده على بدئه وانتبذ ناحية في جيشه ولسان حاله يقول: لم آمر بها ولم تسؤني.

[٤٧٠] ولما كانت الليلة التي وقعت الحرب صبيحتها جاء رجلان من أعراب تلك الناحية وطلبوا الدخول على الحاجب وهو الفقيه السيد الطيب ابن اليماني المدعو بأبي عشرين فدخلا عليه وقالا: إن العدو عازم على أن يصبحكم غداً إن شاء

الله فاستعدوا له وأعلموا الأمير فيقال: إن الحاجب قال: إن الأمير الآن نائم ولست بالذي أوقظه، ثم جاء عقب ذلك أربعة أناس آخرون يعلمون بأمر العدو فكان سبيلهم سبيل الأولين، ولما طلع الفجر وصلى الخليفة الصبح جاء عشرة من الخيل فأعلموا بمجيء العدو وأنهم تركوه قد أخذ في الرحيل، فأمر الخليفة ـ رحمه الله ـ الناس بالركوب والاستعداد وأن لا يبقى بالمحلة إلّا الرماة وكانوا دون الألف، وبعث إلى بني يزناسن بالركوب فركبوا في ألوف كادت تساوي جيش الخليفة، وصارت الخيل نحو العدو مصطفة مد البصر، وراياتها تخفق على هيئة عجيبة وترتيب بديع، وكان الخليفة سائرًا في وسطهم ناشرًا المظلة على رأسه راكبًا على فرس أبيض وعليه طيلسان أرجواني قد تميز بزيه وشارته، ولما تقارب الجيشان جعلت الفرسان تبرز من الصفوف كأنما تتعجل القتال فأمر الخليفة ـ رحمه الله ـ بالسكينة والوقار والسير بسير الناس.

[٤٧١] ثم لما التقى الجمعان وانتشبت الحرب رصد العدو الخليفة وقصده بالرمي مرات عديدة حتى جمح فرسه به وكاد يسقط، ولما رأى الخليفة ذلك غير زيه بأن أسقط المظلة ودعا بفرس كميت فركبه ولبس طيلسانًا آخر فاختفى حينئذ، وكان المسلمون قد أحسنوا دفاع العدو وصدموه صدمة قوية برقت لهم بها بارقة، وكانت خيلهم تنفر من صوت المدافع ولكنهم كانوا يقحمونها إقحامًا، وثبتوا في نحر العدو مقدار ساعة ولما التفتوا إلى جهة الخليفة ولم يروه بسبب تغير زيه خشعت نفوسهم وقال المرجفون: إن الخليفة قد هلك، فماج الناس بعضهم في بعض وتسابق الشراردة إلى المحلة فعمدوا إلى الخباء الذي فيه المال فانتهبوه وتقاتلوا عليه، وتبعهم غيرهم ممن كان الرعب قد ملك قلبه، وجعل الناس يتسللون حتى ظهر الفشل في الجيش من كل جهة، فتقدم بعض الحاشية إلى الخليفة وقال له: يا مولانا إن الناس قد انهزموا وهم الآن بالمحلة يقتل بعضهم بعضًا ويسلب بعضهم بعضًا، فقال: يا سبحان الله! والتفت فرأى ما هاله من أمر الناس فرجع عوده على بدئه، وانهزم من كان قد بقي معه عن آخرهم وتبعهم العدو من غير فترة، ونفذ أمر الله، ولم يهزم المسلمين إلّا المسلمون ـ كما رأيت ـ ولما استولى العدو على المحلة فر النُّهّاب الذين كانوا بها وبقيت في يده بما فيها، وكانت مصيبة عظيمة وفجيعة كبيرة لم تفجع الدولة الشريفة بمثلها، وكان هذا الحادث العظيم في الساعة العاشرة من النهار منتصف

شعبان سنة ستين ومائتين وألف، ولما رجع المنهزمة تفرقوا شذر مذر وأهلك الناس العطش والجوع والتعب حتى كان نساء عرب آنكاد يستلبنهم كيف شئن، وانتهى الخليفة إلى تازا فأقام بها أربعة أيام ريثما اجتمع إليه الرماة وضعاف الجيش ثم قدم فاسا، وكان السلطان - رحمه الله - قادمًا من مراكش إلى فاس فاتصل به خبر الوقعة وهو برباط الفتح فنهض إلى فاس مُجِدًا.

[٤٧٢] واتصل به في أثناء طريقه خبر وقعتين اثنتين أخريين وهما هجوم الفرنسيس على طنجة والصويرة، ووقع بالصويرة حادث عظيم بسبب الغوغاء الذين بالبلد فإنهم لما رأوا العدو دخل الجزيرة ظنوا أنه سيدخل البلد فمدوا أيديهم للنهب، وكان ذلك أولاً في اليهود ثم عم غيرهم.

[٤٧٣] وكان ما كان مما لست أذكره، فكان هذا مما زاد غيظ السلطان وكمده فعمد إلى جماعة من قواد الجيش وحلق لحاهم تأديبًا لهم.

ثم إن السلطان - رحمه الله - هادن الفرنسيس على شروط ثمانية من جملتها نفي الحاج عبد القادر من تلك البلاد لما في بقائه هنالك من إثارة الفتنة بين الدولتين بلا فائدة.

[٤٧٤] بقية أخبار الحاج عبد القادر وانقراض أمره وما آل إليه حاله

وأما الحاج عبد القادر فإنه فر إلى الفرنسيس فبقي عنده مدة.

قال صاحب «قطف الزهور ما صورته»: لما فرَّ الحاج عبد القادر إلى الفرنسيس بقي عندهم ست سنين، ثم أعتقه نابليون الثالث وعين له مرتبًا سنويًا يدفع إليه من بيت مال الدولة، فسكن دمشق الشام ولم يزل قاطنًا بها إلى هذا اليوم اهـ.

قلت: وهو الآن في قيد الحياة حسبما يبلغنا - والله تعالى - يتولى أمر المسلمين، ويتداركهم بلطفه وفضله آمين.

[٤٧٥] وفي سنة ثمان وستين ومائتين وألف هجم الفرنسيس على ثغر سلا وذلك بسبب مركبين وردا إلى مرسى العدوتين مملوءين قمحًا، وكانت السنة سنة مسغبة فنشب المركبان بساحل سلا فتسارعت العامة إليهما وانتهبوهما، ثم تجاوزوا

ذلك إلى ألواح المركبين وآلتهما فتوزعوها، وكان المركبان لتجار الفرنسيس فتكلموا في شأنهما مع السلطان ـ رحمه الله ـ فكتب إلى عامل سلا أبي عبد الله محمد بن عبد الهادي زنيبر يستكشفه عن الخبر فجحد ذلك ظنًا منه أنه يدفع بذلك عن البلد، ولما لم يحصل الفرنسيس بالكلام مع السلطان على طائل هجم على سلا يوم الثلاثاء مهل صفر من السنة المذكورة وشرع في رمي الكور والبنب على صورة فظيعة مثل الرعد القاصف تكاد تنهد له الجبال، وكان في أول النهار لا يفتر وبعد الزوال صار تتخلله فترات يسيرة، واستمر الحال على ذلك إلى أن غربت الشمس ومضى نحو نصف ساعة وكانت مدة الرمي ثماني ساعات ونصفًا، وبذل الناس مجهودهم في مقابلتهم بالرمي وفي آخر النهار عجز الناس وبقي يرمي وحده، واستشهد من المسلمين نحو سبعة أنفس.

وقد ساق منويل خبر هذه القصة وقال: إنه لما انقضى للفرنسيس الزاد ـ يعني الكور والبارود ـ أقلع ليلاً لأنه خاف إن لم يذهب طوعًا ذهب كرهًا.

وفاة أمير المؤمنين المولى عبد الرحمن بن هشام رحمه الله

توفي يوم الاثنين التاسع والعشرين من محرم فاتح سنة ست وسبعين ومائتين وألف.

بقية أخبار أمير المؤمنين المولى عبد الرحمن وسيرته ومآثره

يكفيك أيها الواقف على أخبار هذا الإمام الجليل السَرِيّ النبيل من مناقبه خصلتان: إحداهما شهادة عمه السلطان المولى سليمان له بالتقوى والعدالة والمحافظة على خصال الخير ونوافله حتى قدمه على بنيه، والثانية إقامته صلب هذه الدولة الشريفة بعد إشرافها على الاختلال وردها إلى شبابها بعد أن حان منها الزوال والارتحال، فعلى التحقيق أن المولى عبد الرحمن ـ رحمه الله ـ هو المولى إسماعيل الثاني، وأما حزمه وضبطه، وكمال عقله وتأنيه في الأمور ووضعه الأشياء مواضعها وتبصره في مبادئها وعواقبها، وإجراؤها على قوانينها فما أظنك تجهل منه شيئًا بعد

أن قصصنا عليك ما مضىٰ من أخباره - رحمه الله - وقد رأيت كيف نزلت به النوازل من غير معين يذكر أو وزير يعتبر إلَّا في القليل النادر، فقام - رحمه الله - بأعباء ذلك كله وعالج حلوه ومره حتىٰ رد النصاب الملكي إلىٰ أصله وأحل عزه في محله، وأما ورعه وصبره وحياؤه وتوقفه في الدماء توقفًا تامًا إلَّا إذا حصحص الحق وصرح الشرع فكل ذلك أمر معلوم يعلمه الخصوص والعموم، وأما آثاره بالمغرب فشيء كثير.

الخبر عن دولة أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الرحمن رحمه الله

كان سيدي محمد بن عبد الرحمـٰن بن هشام - رحمه الله - بعين الرضىٰ من والده منذ نشأ وشب، وكان متميزاً عن سائر إخوته بشدة البرور بأبيه، ومتصفًا بالسكينة والوقار والصلاح والتقوىٰ وسائر خصال الخير، واستخلفه أبوه صغيراً فجرىٰ علىٰ السنن الأقوم وحمدت سيرته، ولما رأىٰ منه السلطان - رحمه الله - مخايل النجابة والصلاح فوض إليه، وألقىٰ بزمام مملكته بيديه، ولم يدخر عنه شيئًا من أمور الملك ووظائفه، فاستلحق في أيام أبيه واستركب، واتخذ العساكر وجند الأجناد، وقدم وأخر، وخفض ورفع، وأعطىٰ ومنع حتىٰ كأنه ملك مستقل، وكانت العادة أنه إذا كان السلطان بمراكش كان سيدي محمد هـٰذا بفاس أو بمكناسة وبالعكس، فلما مرض السلطان - رحمه الله - مرض موته بمكناسة كان سيدي محمد بمراكش فلم يرعه إلَّا ورود الكتب عليه من أخيه المولىٰ العباس ومن الوزير أبي عبد الله الصفار أن السلطان قد أشرف ووقع اليأس منه، فنهض سيدي محمد من مراكش منزعجًا، وجد السير لعله يدرك حياة أبيه فلما كان ببلاد السراغنة علىٰ مرحلتين من مراكش اتصل به الخبر بوفاة السلطان - رحمه الله - ثم قدمت عليه بيعة أهل الحضرتين فاس ومكناسة وجميع الجيش وسائر أهل الحل والعقد من أعيان القبائل والبربر.

[٤٧٦] انتقاض الصلح مع الإصبنيول واستيلاؤه على تطاوين ورجوعه عنها والسبب في ذلك

كان السبب في انتقاض الصلح مع جنس الإصبنيول أن العادة كانت جارية مع

أهل سبتة من النصارىٰ وأهل اللانجرة من المسلمين أن يتخذ كل من الفريقين محلاً للحراسة علىٰ المحدة التي بينهما [١] وكان النصارىٰ يتخذون هنالك بيوتًا صغاراً من اللوح، والمسلمون يتخذون أخصاصًا من البردىٰ ونحوه، فلما كان آخر دولة السلطان المولىٰ عبد الرحمـٰن ـ رحمه الله ـ بنىٰ نصارىٰ سبتة علىٰ المحدة بيتًا من حجر وطين وجعلوا فيه علامة طاغيتهم المسماة عندهم بالكرونة فتقدم إليهم أهل اللانجرة وقالوا لهم: لا بد أن تهدموا هـٰذا البيت الذي لم تجر العادة ببنائه وترجعوا إلىٰ حالتكم الأولىٰ من اتخاذ بيوت الخشب، فامتنع النصارىٰ من ذلك، فعمد أهل اللانجرة إلىٰ ذلك البيت فهدموه وإلىٰ تلك الكرونة فنجسوها بالعذرة، وقتلوا منهم أناسًا، وضيقوا علىٰ أهل سبتة بالغارات حتىٰ كانوا يصلون إلىٰ السور، فرفع أهل سبتة أمرهم إلىٰ كبيرهم بطنجة فكلم كبيرهم نائب السلطان بها وهو يومئذ أبو عبدالله محمد ابن الحاج عبد الله الخطيب التطاوني وشكا إليه ما نال أهل سبتة من عيث اللانجرة فدافعه الخطيب فلم يندفع وقال: لا بد من حضور اثني عشر رجلاً منهم بطنجة وسماهم بأسمائهم ولا بد من قتلهم جزاء علىٰ فعلهم، فعظم الأمر علىٰ الخطيب وربما كلم في ذلك باشدور الإنجليز فقال له: أحضر هـٰؤلاء المطلوبين علىٰ عين الأجناس وإذا حضروا وظهر حق الإصبنيول فأنا ضامن أن لا يصيبهم شيء، فأعجب الخطيب ذلك وعزم عليه فاتصل الخبر بأهل اللانجرة وأن الخطيب عازم علىٰ أن يكتب إلىٰ السلطان في شأن اثني عشر رجلاً منهم بأعيانهم، فمشوا إلىٰ الشريف سيدي الحاج عبد السلام بن العربي الوزاني وقالوا له: إن الخطيب لا ينصح السلطان ولا المسلمين، وإن كل ما قاله النصارىٰ يساعدهم عليه حتىٰ جَسَّرهم علينا، ونحن جئناك لتعلم السلطان بأمرنا وتسأله أن يمدنا بالقبائل المجاورة لنا ونحن نكفيه هـٰذا المهم، وفي أثناء هـٰذه المدة توفي السلطان المولىٰ عبد الرحمـٰن ـ رحمه الله ـ وولي ابنه سيدي محمد وقدم مكناسة واجتمعت كلمة أهل المغرب عليه، فكتب له الشريف سيدي الحاج عبد السلام بأمر أهل اللانجرة وقرر له مطلبهم فشاور السلطان في ذلك بعض حاشيته فمال إلىٰ الحرب وذلك كان الراجح عند السلطان؛ لأنه عظم عليه أن يمكّن العدو من اثني عشر رجلاً من المسلمين وفق اقتراحه واختياره يقتلهم بمحضر

---

(١) قلت: أي الحدود.

الملأ من نواب الأجناس، ورأىٰ ـ رحمه الله ـ أن لا يمكنه من مطلبه حتىٰ يعذر فيه فاستخار الله ـ تعالىٰ ـ وبعث خديمه الحاج محمد بن الحاج الطاهر الزبدي الرباطي إلىٰ الخطيب بطنجة وأمره أن ينظر في القضية ويستكشف الحال وأن لا يجنح إلىٰ الصلح إلَّا إذا لم يجد عنه محيصاً، وكثر المتنصحون لدىٰ السلطان وهونوا عليه أمر العدو جداً مع أنه ليس من السياسة تهوين أمر العدو وتحقيره ولو كان هيناً حقيراً، فوصل الزبدي إلىٰ طنجة واجتمع بالخطيب وفاوضه في القضية فوجد الخطيب جانحاً إلىٰ السلم فأبىٰ أن يساعده علىٰ ذلك، وأظهر كتاب السلطان بتفويض النظر إليه في النازلة، فتأخر الخطيب عنها وترك الخوض والكلام فيها، وآخر الأمر أن الزبدي انفصل مع نائب الإصبنيول علىٰ الحرب، وذهب إلىٰ حال سبيله وأزال الإصبنيول سنجقه من طنجة وركب إلىٰ بلاده في الحين، وكتب الزبدي إلىٰ السلطان بالخبر، فكتب السلطان إلىٰ الثغور يخبرهم بما عقده مع الإصبنيول من الحرب وأمرهم أن يكونوا علىٰ حذر وأن يأخذوا أهبتهم للجهاد، وفتح السلطان بيت المال وأبدأ وأعاد في تفريق المال والسلاح والكُسىٰ، ثم برز جيش الإصبنيول من سبتة في نحو عشرين ألفاً من العسكر في غاية الاستعداد وكمال الشوكة ونزل علىٰ طرف المحدة داخل أرضه، وكان خروجه يوم السبت أواسط ربيع الأول سنة ست وسبعين ومائتين وألف، فنهض إليه أهل اللانجرة ومن جاورهم من قبائل الجبل وتسامع الناس بذلك فقدموا من كل جهة حتىٰ اجتمع منهم نحو الخمسة آلاف وزحفوا إلىٰ العدو وقاتلوه نحو نصف شهر، وكل يوم يقتل منه ضعف ما يقتل من المسلمين، لأن حربه كان زحفاً بالصف وحربهم كان مطاردة بالكر والفر فلا بد أن يهلك منه أكثر مما يهلك من المسلمين، غير أنهم لم يتمكنوا من مخالطته في معسكره ولا من هزيمته لأنه كان يحصن علىٰ نفسه غاية التحصين.

واستمر القتال بين المسلمين والنصارىٰ علىٰ نحو ما سبق نحو العشرة أيام، ثم انتقل المسلمون إلىٰ موضع آخر يعرف بأبي كدان خوفا من كرة العدو ودهمه إياهم فكان ذلك مما جرأ العدو عليهم وأظهر الفشل فيهم وقاتلوا هنالك نحو الخمسة عشر يوماً، ثم إن العدو اجتمع يوماً وتحمل بخيله ورجله وزحف إلىٰ المسلمين فصدمهم بجميع قوته وشوكته فصبروا له وصدقوه اللقاء فردوه علىٰ عقبه، ولما لم يستقم له ذلك جمع نفسه ذات ليلة من غير شعور من المسلمين وركب البحر ونزل بمحل

يعرف بالفنيدق؛ لأنه كان هنالك فندق قديم، وكان العدو في تنقلاته هـٰذه لا يفارق الساحل ليحمي ظهره بمراكبه البحرية، وكان بين الفندق ومحلة المسلمين نحو ساعة ونصف فأشار أهل الرأي على المولىٰ العباس بأن يتأخر قليلاً لكون العدو قد ضايقه فتأخر المولىٰ العباس بالجيش إلىٰ موضع يعرف بمجاز الحصا فازداد طمع العدو في المسلمين وظهر له ضعف رأيهم في مكائد الحرب وعدم ثباتهم لدىٰ الطعن والضرب، ثم عاد المسلمون إلىٰ مطاردة العدو ومقاتلته علىٰ نحو ما أسلفنا فكانوا يذهبون إليه وهو بالفنيدق فيقاتلونه من الصباح إلىٰ المساء فكانوا ينالون منه وينال منهم، وفي أثناء هـٰذه المدة وفد جماعة من أهل تطاوين علىٰ السلطان ـ رحمه الله ـ بمكناسة فأعظموا أمر العدو وتخوفوا معرته في مالهم وأولادهم؛ لأنهم كانوا قد أحسوا بشدة شوكته، فوعدهم السلطان ـ رحمه الله ـ بأن يمدهم ويحامي عنهم ولا يدخر عنهم شيئًا من العدد والعُدد حتىٰ يعذر فيهم وفي غيرهم.

ثم إن العدو ارتحل من الفنيدق بعد نحو عشرة أيام وتقدم نحو تطاوين وكان الناس قبل هـٰذا لا يدرون أين هو قاصد، ولما ارتحل من الفنيدق عرفوا أنه قاصد تطاوين فنزل بموضع يقال له: النيكرو فأقام هنالك نحو ثمانية أيام والقتال علىٰ حاله المتقدم، غير أن العدو كان في مادة قوية من البر والبحر يصل إليه من سبتة وغيرها كل ما يحتاج إليه من طعام وعلف وأرز وشعير وبقسماط وغير ذلك حتىٰ أنه كان إذا ارتحل ترك من ذلك فضلة كثيرة يتعيش فيها ضعفاء أهل تلك الناحية، وكان ذلك مكيدة مقصودة عنده يظهر بها القوة والرفاهية.

[٤٧٧] وكان شذاذ المتطوعة من أهل البادية يهجمون علىٰ معسكره بالليل ويجلبون منه البغال والثيران ويصبحون بها في تطاوين وغيرها، وكان ضعفاء العقول من العامة يستحسنون ذلك وينشطون له ويرون أنهم قد صنعوا شيئًا مع أن ذلك لا عبرة به في جنب ما كان يستولي عليه العدو من الأرض ويتقدم به في نحر المسلمين وهم يتأخرون، والحاصل أن المسلمين لم يكونوا يقاتلونه علىٰ ترتيب مخصوص وهيئة منضبطة إنما كانوا يقاتلونه وهم متفرقون أيدي سبا فإذا حان المساء تفرقوا إلىٰ محالهم في غير وقت معلوم وعلىٰ غير تعبية، فكان قتالهم علىٰ هـٰذا الوجه لا يجدي شيئًا، وكان العدو يقاتل بالصف وعلىٰ ترتيب محكم، وكانت

عنايته بما يستولي عليه من الأرض ويرى تقدمه إلى أمام وتأخر المسلمين بين يديه إلى خلف هزيمة عليهم.

وقد ذكر ابن خلدون في فصل الحروب قتال أهل المغرب الذي هو المطاردة بالكر والفر وعابه فقال: وصفة الحروب الواقعة بين منذ أول وجودهم على نوعين: نوع بالزحف صفوفًا، ونوع بالكر والفر، أما الذي بالزحف فهو قتال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم، وأما الذي بالكر والفر فهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب، وقتال الزحف أوثق وأشد من قتال الكر والفر؛ وذلك لأن قتال الزحف ترتب فيه الصفوف وتسوى كما تسوى القداح أو صفوف الصلاة ويمشون بصفوفهم إلى العدو قدمًا فلذلك تكون أثبت عند المصارع وأصدق في القتال وأرهب للعدو لأنه كالحائط الممتد والقصر المشيد لا يُطمع في إزالته، وفي التنزيل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤] اهـ.

ولازال العدو هكذا يتنقل شيئًا فشيئًا حتى وصل إلى وادي يعرف بوادي آسمير، وكان يتحرى في تنقلاته يوم السبت معتمداً في ذلك حكمًا نجوميًا على ما قيل، فلما احتل بآسمير صادف ريحًا شرقية هاج من أجلها البحر حتى لم تقدر مراكبه أن تحاذيه قرب الساحل فانقطعت عنه مادة البحر وطلع ماء البحر في وادي النيكرو من خلفه وقطع عنه المادة من سبتة، كما طلع أيضًا في وادي آسمير من أمامه فحبسه عن العبور، وصار العدو متوسطًا بين الوادين والبحر عن يساره، وانقطعت عنه المواد حتى حكى بعض عسكره بعد ذلك اليوم أن الكليطة وهي خبزة صغيرة تشبه البقسماط كانت أول النهار تباع ببسيطة(١) وفي آخره بيعت بريال ولا وجود لها، وأيقنوا بالهلاك لو وجدوا من ينتهز الفرصة فيهم ولكن أين اليد الباطشة، وبقوا على تلك الحال يومين أو ثلاثة، ثم سكن البحر وانفش الواديان وجاءه المدد، ولما رأى المسلمون أن العدو وصل إلى ذلك المحل تقهقروا ونزلوا بمدشر القلالين بينه وبين تطاوين نحو نصف ساعة، ثم إن العدو عبر الوادي من آخر الليل وأصبح بموضع يقال له: المضيق.

وكان متطوعة الأعراب في هذه المدة على قسمين: الحازمون وأهل الغيرة منهم

---

(١) قلت: هي البيزيتا، وهي عملة إسبانية.

يقولون: لولا أنه بين الجبال ومتحصن بالمتارزات لفعلنا وفعلنا، والآخرون يقول أحدهم: ما لي وللتقدم إلى هـٰذه الشرشمة وإنما أهل تطاوين يقاتلون عن تطاونهم وأما أنا فحتى يصل إلي بخيمتي في عبدة أو دكالة أو كلاماً هـٰذا معناه كأنه يعتقد أنه لا تجب عليه نصرة المسلمين.

[٤٧٨]نعم، الذين قاتلوا قتالاً شديداً وأحسنوا الدفاع وقاموا بالنصرة بنية خالصة وهمة صادقة هم: طائفة من شبان أهل فاس، وطائفة من أهل زرهون، والبعض من آيت يمور وخصوصا الحسين المعروف بأبي ريالة منهم فإنه أبدأ وأعاد وأتى بما لم يسمع إلَّا في زمان الصحابة رضي الله عنهم.

حكى من حضر وتواتر عنه أنه كان معلما براية صفراء وكان يضمها إلى صدره ويسددها نحو العدو ثم يحمل على صفهم فيخرقه حتى يأتي من خلفه ويفتك فيهم أشد الفتك ثم يعود ويستلب خيل العدو ويقودها بأرسانها ويأتي بها حتى يدفعها لمن بإزائه، وكان إذا تقدم نحو العدو يقول لمن حوله: تقدموا فأنا دَرَقتكم [(١)] وأنا سوركم تكرر ذلك منه المرة بعد المرة.

ولما أصبح العدو بالمضيق فارق البحر وصمد إلى تطاوين فدخل بين جبلين وكان في انتهاء ذلك المضيق الذي بين الجبلين من جهة تطاوين ويسمى فم العليق بعض أخبية أهل فاس وغيرهم فصمد العدو نحوهم وبغتهم وهو يقرع طبوله حتى أعجل البعض منهم عن حمل أثقاله، ولما وصل إلى هـٰذا الموضع حصل بتطاوين انزعاج كبير واستأنف الناس الجد والاجتهاد والقتال وتذامر جيش المسلمين وكان اليوم شديد المطر وقاتلوا قتالاً شديداً، وأبدأ أبو ريالة وأعاد في هـٰذا اليوم هلك تحته فرسان وأرسل له المولى العباس فرسه، وكان يعتني به وينوه بقدره ويبعث الطبل يقرع على خبائه، وأصابته في هـٰذا اليوم جراحة خفيفة وهلك من المسلمين والنصارى عدد كثير، قيل هلك من أهل تطاوين فقط نحو الخمسمائة، وكان الظهور في ذلك اليوم للعدو، ومن الغد ارتحل من فم العليق وعدل يساراً إلى المرسى فنزل بها ليتمكن من مدد البحر واستولى على برج مرتيل وما والاه كدار مرتيل التي هي الديوانة، وبمجرد وصوله إليها حصنها بأشبارات الرمل والمدافع وغير ذلك واتخذ

---

(١)قلت: اي حصنكم ودرعكم.

بها دوراً من اللوح وحوانيت منه وأقام مطمئنًا وصارت المراكب تتردد له في البحر بالأقوات والعدة والعسكر وجميع ما يحتاج إليه حتى استراح ثلاثة عشر يومًا ولم يكن في هـٰذه المدة قتال ولا أنشبه العدو، وفي هـٰذه الأيام ورد المولى أحمد بن عبدالرحمـٰن في جيش بعث به السلطان من مكناسة.

ثم إن العدو عزم على مصادمة المسلمين والهجوم على تطاوين فارتحل يوم السبت الحادي عشر من رجب سنة ست وسبعين ومائتين وألف وانكمش واجتمع وتقدم للقتال وأرسل جناحًا من الخيل طالعًا مع الوادي إلى جهة المدينة وجناحًا من العسكر الرجالة طالعًا من الغابة إلى جهتها أيضًا، وزحف بعسكره شيئًا فشيئًا، ولما قربا منها وكاد ينطبقان عليها فر من كان بها وتركوا الأخبية والأثاث بيد العدو فاستولى عليها ونزل هنالك بعسكره وحصن عليه.

[٤٧٩] وتقهقر المولى العباس بجيشه حتى نزل خلف تطاوين وبقيت بينه وبين العدو، وكان في تقهقره هـٰذا قد دخل المدينة ومر في وسطها واضعًا منديلاً على عينيه وهو يبكي أسفًا على الدين وقلة ناصره، ولما استقر بالمحلة مع العشي خرج إليه أهل تطاوين وشكوا إليه ما نزل بهم من أمر العدو واستأذنوا في تحويل أثاثهم وأمتعتهم وحريمهم إلى مداشر الجبل وحيث يأمنون على أنفسهم قبل حلول معرة العدو بهم فأذن لهم وعذرهم، وكان قبل ذلك قد منع الناس من نقل أمتعتهم وحريمهم لئلا يفتنوا المسلمين ويجروا عليهم الهزيمة ولكي يقاتلوا عليها بالقلب والقالب، فلما كان هـٰذا اليوم وشكوا إليه أمر العدو الذي قد أطل عليهم ولم يبق إلّا أن يثب وثبة أخرى فيصير بها في وسط البلد عذرهم.

وكان العدو حين نزل بفم الجزيرة عشية ذلك اليوم قد أرسل أربع كورات على تطاوين فوقعت في وسط المدينة كأنه يعلمهم بأنه قد أشرف عليهم ولم يبق دون أخذهم قليل ولا كثير.

[٤٨٠] ولما سمع الناس كلام المولى العباس انطلقوا مسرعين إلى نقل أمتعتهم وقام الضجيج في المدينة واختلط المرعى بالهمل وامتدت أيدي الغوغاء إلى النهب، وخلع الناس جلباب الحياء، وانهار من كان هنالك من أهل الجبل والأعراب والأوباش ينقبون ويكسرون أبواب الدور والحوانيت والداخل للمدينة أكثر من

الخارج، وباتوا ليلتهم كذلك إلى الصباح، ولما طلع النهار وتراءت الوجوه انتقلوا من نهب الأمتعة إلى المقاتلة عليها فهلك داخل المدينة نحو العشرين نفساً، وعظمت الفتنة، وتخوف من بقي بتطاوين عاجزاً عن الفرار، فاجتمع جماعة منهم على الحاج أحمد بن علي آبعير أصله من طنجة وسكن تطاوين وتشاوروا فيما نزل بهم فأجمع رأيهم على أن يكتبوا كتابا إلى كبير محلة العدو أردنيل يطلبون منه أن يقدم عليهم لتحسم مادة الفتنة التي هم فيها، فكتبوا الكتاب ووجهوه مع جماعة منهم فما انفصلوا عن المدينة غير بعيد حتى عثروا على طلائع العدو يطوفون حول المدينة ويحرسون محلتهم فتسابقوا إليهم وهشوا وبشوا وسألوهم ما الذي أقدمكم فقالوا: جئنا بكتاب إلى أردنيل فأبلغوهم إليه، فأظهر أيضا البشر والفرح وقدَّم إليهم طعاماً من الحلواء، وقال لهم في جملة كلامه:

[٤٨١]إني أفعل معكم ما لم يفعله الفرنسيس مع أهل الجزائر وتلمسان يعني من الإحسان، وكذب - خذله الله - فإن ذلك من حيله التي يستهوي بها الأغمار ويفسد بها الدين، وإلا فأي إحسان فعله الفرنسيس مع أهل الجزائر وتلمسان، ألسنا نرى دينهم قد ذهب، وأن الفساد قد عم فيهم وغلب، وأن ذراريهم قد نشؤوا على الزندقة والكفر إلَّا قليلاً، وعما قريب يلحق التالي بالمقدم، والله تعالى يحوط ملة الإسلام، ويكسر بقوته شوكة الزنادقة وعبدة الأصنام.

ولما عرضوا على العدو الدخول إلى بلدهم قال لهم: أما اليوم فيوم الأحد وهو عيد النصارى ولا يحل لي التحرك والانتقال، وأما غداً فانظروني في الساعة العاشرة من النهار، فرجعوا إلى أهلهم وأصحابهم وأعلموهم بمقالة العدو والحال ما حال والقتال لا زال، وأبواب الحوانيت تكسر والدور تخرب والقوي يأكل الضعيف، وباتوا ليلة الاثنين كذلك وأصبحوا من الغد كذلك، ثم إن العدو استعد وأخذ أهبته وتقدم إلى تطاوين بعد أن فرق عسكره على جهتين: فرقة مرت مع أردنيل [1] على الجبانة قاصدة الباب الذي يفضي إليها، وفرقة ذهبت مستعلية إلى جهة القصبة والبرج ولما وصل أردنيل إلى الباب وصل الآخرون إلى القصبة، فأما

(١) قلت: هو قائدهم.

أردنيل فوجد الباب مغلقًا وكلمه المسلمون من داخل المدينة فأمرهم بالفتح فقالوا: إن المفاتيح قد ذهبت في الفتنة، فقال: اكسروا الأقفال فكسروها ودخل، ودخل معه كبراء عسكره فتوجه هو إلىٰ دار المخزن[١] فنزل بها، وافترق كبراء العسكر في المدينة بأيديهم ورقات مكتوب فيها أسماء الدور التي ينزلون بها كل واحد بداره مكتوبة في ورقته، فكان أحدهم يسأل عن دار الرزيني، وآخر يسأل عن دار اللبادي، وآخر يسأل عن دار ابن المفتي وهكذا بحيث دخلوا علىٰ بصيرة بأمر البلد ودور كبارها فاستقر كل واحد منهم في داره التي عينت له.

وأما الذين ذهبوا نحو القصبة فإنهم لما وصلوا إلىٰ السور أنشبوا فيه سلاليم وتسلقوا فيها بسرعة، ولما صاروا في أعلىٰ البرج رفعوا سنجقهم في أعلىٰ الصاري وأخرجوا عليها مدفعًا.

[٤٨٢] ولما سمع المشتغلون بالنهب والقتل حس المدفع رفعوا رؤوسهم إلىٰ البرج وبمجرد ما وقع بصرهم علىٰ بنديرة العدو تلوح خرجوا علىٰ وجوههم فارين كالنَعم الشارد فالأمر لله ولا حول ولا قوة إلَّا بالله، واأسفىٰ علىٰ الدين وأهله.

ولما استقر العدو بالبلد رتب حكامها وكف اليد العادية عنها وولىٰ علىٰ المسلمين الحاج أحمد أبعير المذكور آنفًا، وكان دخوله إلىٰ تطاوين واستيلاؤه عليها ضحوة يوم الاثنين الثالث عشر من رجب سنة ست وسبعين ومائتين وألف.

ثم إن أردنيل بعد أن رتب الحكام بتطاوين عاد إلىٰ محلته وقسم عسكره قسمين وأنزله مكتنفًا للبلد شرقًا وغربًا، واختار منه عشرة آلاف فأدخلها المدينة وبقي هو خارجًا بإحدىٰ المحلتين يقال: إن جيشه كان يوم دخل تطاوين سبعين ألفًا كلها مقاتلة في غاية الاستعداد وكمال الشوكة، ثم عمد إلىٰ ضريح سيدي عبد الله البقال فجعله كنيسة، وجعل مسجد الباشا مختزنًا للأرز والشعير، ومسجد القصبة مختزنًا للكليط[٢] ثم سار في المسلمين بالتوقير والاحترام ولم يسمهم خسفًا، ولا كلفهم شغلاً، ولا اقتضىٰ منهم مغرمًا، كان يتألفهم بذلك ومن باع منهم شيئًا أضعف له في الثمن وأربحه، وكذا فعل مع أهل المداشر الذين حول البلد حتىٰ اتخذ الناس سوقًا

(١) قلت: هي دار الحكومة.

(٢) قلت: هو نوع من الخبز.

بموضع يعرف بكدية المدفع خارج تطاوين وشاع خبره في قبائل الجبل فانهاروا عليه من كل جانب وربحت الناس فيه، ثم كتب أردنيل كتبًا وبعث بها إلىٰ قبائل الجبل يعدهم ويمنيهم إن هم قدموا عليه وخالطوه بالبيع والشراء ويتوعدهم إن لم يفعلوا، فقدموا من كل أوب وارتفعت الأسعار فزادت ضعف ما كانت عليه وأكثر، واستمرت كذلك فلم ترجع بعد، ثم أخذ في ترتيب بناء المدينة وتبديل شكلها حسبما جرت به عادة النصارىٰ في مدنهم، فهدم ما لم يوافق نظره وفرز الدور من سور البلد، وكل دار كانت ملتصقة بالسور فصلها عنه، واستمر علىٰ هٰذا الحال نحو العشرين يومًا.

ثم دار الكلام بينه وبين المولىٰ العباس في الصلح وتسامع الناس به ففرح المسلمون والنصارىٰ معًا، أما المسلمون فوجه فرحهم ظاهر، وأما النصارىٰ فإنهم وإن كان لهم الظهور فهم لا يدركونه سهلاً بل مع القتل العظيم والجرح الكثير والمشقة الفادحة، قال تعالىٰ: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤] هٰذا إلىٰ مفارقة بلادهم التي ألفوها وعوائدهم التي رُبوا عليها لا سيما عامة جيشهم الذين الغلبة في ضمن هلاكهم، فدماؤهم هي ثمنها.

حكىٰ من حضر أن عسكر النصارىٰ لما سمعوا بتناول الصلح حصل لهم من الفرح أضعاف ما حصل للمسلمين، وصاروا يترددون إليهم ويبحثونهم عما تجدد من الأخبار، وكلما سمعوا بشيء من أمر الصلح طاروا فرحًا.

[٤٨٣] وذلك لأن قتال النصارىٰ كله علىٰ الإكراه؛ إذ لا يُمَكَّن عسكريًا منهم أن يفر من الزحف حال القتال لأن الخيالة والسيافة من ورائهم يذمرونهم إلىٰ الأمام ومهما رجع أحد منهم إلىٰ خلف وترك في الصف فرجة ضربت عنقه في الحين، فالموت عندهم في الفرار محقق وفي التقدم مظنون، فيختارون المظنون علىٰ المحقق، اللهم إلَّا إذا اشتدت الحرب وحمي الوطيس واختلط الرجال بالرجال أمكن الفرار حينئذ لاشتغال الرئيس والمرؤوس كل بنفسه، وبهٰذا الضبط لم تتفق لهم هزيمة منذ خرجوا من سبتة، ومن عادة العدو في الحرب أنه إذا نهض للقتال ارتحل

بجميع ما في عسكره كأنه مسافر، فترى العسكري منهم إذا تقدم للقتال حاملاً معه جميع ما يحتاج إليه من ماء وطعام وبارود ورصاص حتى الموسى والمقص والمرآة والصابون وغير ذلك، قد اتخذ لجميع ذلك أوعية لطافًا وعلقها عليه فلا يؤذه حملها لأنه اقتصر من كل على قدر الحاجة.

وأما الأخبية: فيحمل كل ثلاثة رجال خباء ولا تلحقهم كلفة في حمله؛ لأن أخبيتهم في غاية اللَّطافة والصفافة، وأعمدتها لطاف صلبة فهي مع كفايتها على الوجه الأتم في غاية الخفة بحيث إذا لف الخباء بما فيه كان كلاشيء، ولو أراد أن يحمله واحد لفعل لكنه يقسمه ثلاثة أشخاص زيادة في الرفق ولئلا يحصل الضجر إذا طال السفر.

وأما المدافع: فقد اتخذوا لها عجلات أفرغت إفراغًا وركبت عليها على وجه محكم واتخذوا للعجلات بغالاً خصية تجرها في غاية الفراهة والارتياض، ويجعلون فوق تلك العجلات صناديق الإقامة من بارود ورصاص وغير ذلك، وتجلس الطبجية على تلك الصناديق ويقوم آخرون حولهم قد أخذوا أهبتهم للقتال بكل ما يمكن، ثم تندفع العساكر على هـذا الترتيب صفوفًا صفوفًا وتتقدم شيئًا فشيئًا يخلف بعضها بعضا كأنها أمواج البحر، وإذا أدركه المساء أو وقعت محاجزة أثناء النهار وكان قصده الثبات ثبت بمحله ذلك ولا يتزحزح عنه بحال إلَّا إذا فني كل عسكره أو جله، فبمثل هـذا الضبط كان له الاستيلاء والظهور.

[٤٨٤] وأما مقاتلة المسلمين له فكانت غير منضبطة، وإنما قاتله من قاتله منهم باختياره ومن قِبَل نفسه، وإن كان هنالك ضبط من أمير الجيش فكلا ضبط، ومتى ظهر له أن يذهب ذهب مع أن الله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ [النور: ٦٢] لكن المقاتل من المسلمين يأتي القتال وليس معه ما يأكل ولا ما يشرب فبالضرورة إذا جاع أو عطش ذهب يبحث عما يقيم به صلبه، ثم هم يقاتلون على غير صف ولا تعبية، بل يتفرقون في الشعاب ومخارم الأودية وحول الأشجار فيقاتلون من ورائها، وإذا دفعوا في نحر العدو دفعوا زرافات ووحدانًا، ثم إذا أدركهم المساء ووقعت المحاجزة ذهب كل إلى خبائه الذي تركه وراءه بمسافة بعيدة، وهم في هـذا كله ليس لهم وازع يحملهم على ما يراد منهم.

فالحاصل: أن جيش مغربنا إذا حضروا القتال وكانوا على ظهور خيولهم فهم في تلك الحال مساوون في الاستبداد لأمير الجيش لا يملك من أمرهم شيئًا، وإنما يقاتلون هداية من الله لهم وحياء من الأمير وقليل ما هم، وقد جربنا ذلك فصح، ففروا عن السلطان المولى سليمان، وكان السلطان المولى عبد الرحمن أهيب في نفوسهم منه فكانوا يلزمون غرزه لكنه لما بعثهم إلى تلمسان فعلوا فعلتهم وسلكوا عادتهم، ولما شهدوا مع الخليفة سيدي محمد بن عبد الرحمن وقعة إيسلي جاؤوا بها شنعاء غريبة في القبح ولولا أنه قام بنفسه ليلة الحاج عبد القادر ومنع الناس من الركوب لربما عادوا إلى فعلهم، وأحسن ما كانت حالهم في هذا الحرب؛ فإنهم قاوموا العدو وفرقوا صفوفه غير مرة لكنهم أُتوا من عدم الضبط الذي هو كضبطه فعدم ملاقاتهم للعدو في الكيفية القتالية هو الذي أضر بهم وأوجب لعدوهم الظهور عليهم؛ إذ الشيء - كما علمت - إنما يقاوم بمثله، والشر إنما يدفع بضده.

ولنرجع إلى الكلام على الصلح المتناول فنقول: لما دار الكلام بين المولى العباس، رحمه الله، وبين أردنيل في الصلح استعدوا للاجتماع في يوم معلوم بمكان سوي بين المحلتين فلما كان ذلك اليوم ضرب بالمحل المعين خباء وجاء المولى العباس ومعه جماعة من وجوه جيشه وفيهم أبو عبد الله الخطيب التطاوني، وخرج أردنيل ومعه جماعة من وجوه عسكره وخرج معه مقدم المسلمين بتطاوين الجاج أحمد آبعير رجاء أن يكون هو الترجمان بين الأميرين فيفوز بذكر ذلك الجمع وفخره فأخفق رجاؤه لأنه لما توافى الجمعان إلى الخباء بقي الناس كلهم قائمين على بعد منه ولم يدخله إلَّا المولى العباس وأردنيل والخطيب لا رابع لهم فيما قيل، وأبدى أردنيل من الأدب والخضوع للمولى العباس ما جاوز الحد، وتفاوضوا ساعة ثم انفض المجلس وتناقل الناس أن حاصل ما دار بينهما أن أردنيل رغب في الصلح وتأكيد الوصلة بينهم وبين المسلمين على شروط ذكرها، وأن المولى العباس توقف فيها وأحال ذلك على مشورة أخيه السلطان سيدي محمد وذهب كل إلى سبيله، وبقي الناس ينتظرون الجواب بأي شيء يأتي من عند السلطان، وبعد أيام ورد الخبر بأن السلطان لم يقبل ذلك الصلح، فاستمر الناس على حالتهم الأولى من كون محلة العدو بتطاوين وبعضها خارجها شرقًا وغربًا، ومحلة مولاي العباس على بعد من البلد مقدار

نصف يوم.

ثم إن المسلمين اجتمعوا ذات يوم وبيتوا محلة العدو النازلة خارج البلد في ليلة معلومة فتقدموا إليها وذلك في أواخر شعبان سنة ست وسبعين ومائتين وألف وهجموا عليها في ليلة مظلمة والنصارىٰ غارون وفتكوا فيهم فتكة بكراً باتوا يقتلونهم الليل كله، ومن الغد كذلك إلى المساء، وقاتل النصارىٰ ذلك اليوم أيضًا ولكن الظهور كان للمسلمين ولولا قوة نفوس العدو باستنادهم إلى البلد وتحصن كبيرهم بها لكانوا انكسروا كسرة شنيعة، وكان عدد القتلىٰ من النصارىٰ في هٰذه الوقعة نحو الخمسمائة والجرحىٰ أكثر من ألف، وأما المسلمون فكان القتل فيهم ضعيفًا.

ولما أصبح أردنيل ورأىٰ ما حل بعسكره ساءت أخلاقه وقلب لأهل تطاوين ظهر المجن، وأبدل تلك الشفقة التي كان يعاملهم بها بالغلظة، والبشاشة بالاكفهرار، وعمد إلىٰ مسجد الشيخ أبي الحسن علي بركة ـ رحمه الله ـ فاتخذه مارستانًا للجرحىٰ فظلت الجرحىٰ تنقل إليه، وفرض علىٰ أهل تطاوين اللحف والقطائف فجمع من ذلك شيئًا كثيراً فرشه بالمسجد المذكور لجرحاه، وصار عامة عسكر النصارىٰ بتطاوين كلما لقوا أحداً من المسلمين عيروه بالغدر وقبحوه، ثم إن أردنيل أقام بعد هٰذه الوقعة نحو عشرة أيام ريثما استجم جيشه وأبلت جرحاه وخرج في تمام الشوكة وكمال الاستعداد يريد أن يضرب في محلة المسلمين فجعل تطاوين خلفه وتقدم حتىٰ كان بوادي أبي صفيحة فلما شعر به الناس من أهل المداشر والمتطوعة تسابقوا إليه من كل جانب، ووافق ذلك اليوم قدوم عرب الحياينة جاؤوا في حنق شديد فقويت قلوب الناس بهم واشتد أزرهم وتقدموا إلىٰ العدو فأنشبوا معه الحرب بأبي صفيحة قبل أن يصل إلىٰ محلة المسلمين، وكثروه فأوقعوا به وقعة أنست ما قبلها فقتلوا منه ما خرج عن الحصر، وأما الجرحىٰ فقل ما شئت، وكست قتلاه الأرض، ولما أعياه الدفن جعل يجمع الجماعة من الثمانية إلىٰ العشرة ويهيل عليها التراب، ومع ذلك بقي منه عدد كبير بلا دفن حتىٰ أنتن موضع المعركة من شدة نتن الجيف، ونال المسلمون من عدوهم في هٰذا اليوم ما لم ينالوا قبله مثله ولا ما يقاربه، وكان الذكر فيه لعرب الحياينة ثم للمتطوعة غيرهم، وأما محلة المولىٰ العباس فكانت بعيدة

عن المعركة بمسافة كبيرة.

ولما بلغ المولىٰ العباس أن العدو قد برز من تطاوين وأن المسلمين يقاتلونه الآن في أبي صفيحة قَلّب رأيه واستأنف النظر في عاقبة أمره، ورأىٰ أن المسلمين وإن نالوا من العدو في هٰذه المرة وأبلغوا في نكايته لكن الثمرة ضعيفة من جهة أن نكايتنا له إنما هي في القتل والجرح، ونكايته في أخذ الأرض والاستيلاء عليها -كما قلنا غير مرة- فجنح رحمه الله إلىٰ الصلح واختاره علىٰ الحرب حتىٰ تدور للمسلمين سعود إن شاء الله.

وكان الصلح قد انعقد بين المسلمين والإصبنيول علىٰ شروط منها أن يدفع السلطان إليهم عشرين مليونًا من الريال ويخرجوا من تطاوين وما استولوا عليه من الأرض التي بينها وبين سبتة إلَّا شيئًا يسيرا يزاد لهم في المحدة علىٰ سبيل التوسعة، وكان انعقاد هٰذا الصلح في أواخر شعبان سنة ست وسبعين ومائتين وألف، وتراخىٰ السلطان -رحمه الله- في دفع هٰذا المال فاستمر العدو مقيمًا بتطاوين حتىٰ يستوفيه، وبعد سنة من يوم هٰذا الصلح استوفىٰ عشرة ملايين منه وبقيت عشرة وقع الاتفاق فيها علىٰ أن يقتضيها العدو من مستفاد مراسي المغرب، فأقام أمناءه بها لاقتضاء نصف داخل كل شهر منها، وهم الآن بهٰذا الحال، والله -تعالىٰ- يكفي المسلمين شرهم وشر كل شر، وبعد ما وقع هٰذا الاتفاق أسلم النصارىٰ تطاوين إلىٰ المسلمين، وكان خروجهم منها ضحوة يوم الجمعة الثاني من ذي القعدة سنة ثمان وسبعين ومائتين وألف بعد أن مكثوا فيها سنتين وثلاثة أشهر ونصفًا.

ووقعة تطاوين هٰذه هي التي أزالت حجاب الهيبة عن بلاد المغرب، واستطال النصارىٰ بها، وانكسر المسلمون انكسارًا لم يُعهد لهم مثله، ونشأ عن ذلك ضرر كبير نسأل الله -تعالىٰ- العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة.

[٤٨٥] ولما فرغ السلطان -رحمه الله- من أمر تطاوين جد في جمع العسكر المرتب علىٰ الترتيب المعهود اليوم، وكان هٰذا السلطان أول من أحدثه من ملوك المغرب، وكان إحداثه إياه في دولة أبيه -رحمه الله- بعد رجوعه من وقعة إيسلي مع الفرنسيس، ثم جد فيه في هٰذه الأيام فجمع منه ما تيسر جمعه.

[٤٨٦] وفي سنة ثمانين ومائتين وألف ورد يهودي من اللوندرة (١) على السلطان بمراكش يطلب منه الحرية ليهود المغرب، وذلك لأنه لما كانت وقعة تطاوين ودهم الناس ما دهمهم من أمر الحمايات وأكثر من تعلق بها اليهود لم يقتصروا على ذلك وراموا الحرية تشبهًا بيهود مصر ونحوها، فكتبوا إلى يهودي من كبار تجارهم باللوندرة اسمه روشابيل وكان هـٰذا اليهودي قارون زمانه وكانت له وجاهة كبيرة في دولة الإنجليز لأنها كانت تحتاج إليه فيسلفها الأموال الطائلة وله في ذلك أخبار مشهورة، فكتب يهود المغرب إليه أو بعضهم يشكون إليه ما هم فيه من الذلة والصغار، ويطلبون منه الوساطة لهم عند السلطان ـ رحمه الله ـ في الإنعام عليهم بالحرية فعين هـٰذا اليهودي صهراً له للوفادة على السلطان ـ رحمه الله ـ في هـٰذا الغرض وفي غيره وأصحبه هدايا نفيسة، وسأل من دولة الانجليز أن يشفعوا له عند السلطان ويكتبوا له في قضاء غرضه ففعلوا، وقدم على السلطان بمراكش وقدم هداياه وسأل تنفيذ مطلبه فتجافى السلطان ـ رحمه الله ـ عن رده مخفقًا وأعطاه ظهيراً فتمسك به اليهودي يتضمن صريح الشرع وما أوجب الله لهم من حفظ الذمة وعدم الظلم والعسف، ولم يعطهم فيه حرية كحرية النصارى، ونص الظهير المذكور بالطابع الكبير:

بسم الله الرحمـٰن الرحيم ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم، نأمر من يقف على كتابنا هـٰذا ـ أسماه الله وأعز أمره، وأطلع في سماء المعالي شمسه المنيرة وبدره ـ من سائر خدامنا وعمالنا والقائمين بوظائف أعمالنا أن يعاملوا اليهود الذين بسائر إيالتنا بما أوجبه الله ـ تعالى ـ من نصب ميزان الحق والتسوية بينهم وبين غيرهم في الأحكام حتى لا يلحق أحداً منهم مثقال ذرة من الظلم ولا يضام، ولا ينالهم مكروه ولا اهتضام، وأن لا يتعدوا هم ولا غيرهم على أحد منهم لا في أنفسهم ولا في أموالهم، وأن لا يستعملوا أهل الحرف منهم إلّا عن طيب أنفسهم وعلى شرط توفيتهم بما يستحقونه على عملهم؛ لأن الظلم ظلمات يوم القيامة، ونحن لا نوافق عليه لا في حقهم ولا في حق غيرهم، ولا نرضاه لأن الناس كلهم عندنا في الحق سواء، ومن ظلم أحداً منهم أو تعدى عليه فإنا نعاقبه بحول الله، وهـٰذا الأمر الذي

(١) قلت: أي من لندن.

قررناه وأوضحناه وبيناه كان مقرراً ومعروفًا محرراً لكن زدنا هـٰذا المسطور تقريراً وتأكيداً ووعيداً في حق من يريد ظلمهم، وتشديداً ليزيد اليهود أمنًا إلىٰ أمنهم، ومن يريد التعدي عليهم خوفًا إلىٰ خوفهم، صدر به أمرنا المعتز بالله في السادس والعشرين من شعبان المبارك عام ثمانين ومائتين وألف، ولما مكنهم السلطان من هـٰذا الظهير أخذوا منه نسخًا وفرقوها في جميع يهود المغرب، وظهر منهم تطاول وطيش، وأرادوا أن يختصوا في الأحكام فيما بينهم، لا سيما يهود المراسي فإنهم تحالفوا وتعاهدوا علىٰ ذلك، ثم أبطل الله كيدهم وخيب سعيهم علىٰ أن السلطان ـ رحمه الله ـ لما أحس بطيش اليهود عقّب ذلك الظهير بكتاب آخر بيّن فيه المراد وأن ذلك الإيصاء إنما هو في حق أهل المروءة والمساكين منهم المشتغلين بما يعنيهم، وأما صعاليكهم المعروفون بالفجور والتطاول علىٰ الناس والخوض فيما لا يعني فيعاملون بما يستحقونه من الأدب.

[٤٨٧] واعلم أن هـٰذه الحرية التي أحدثها الفرنج في هـٰذه السنين هي من وضع الزنادقة قطعًا، لأنها تستلزم إسقاط حقوق الله وحقوق الوالدين وحقوق الإنسانية رأسًا، أما إسقاطها لحقوق الله فإن الله ـ تعالىٰ ـ أوجب علىٰ تارك الصلاة والصوم وعلىٰ شارب الخمر وعلىٰ الزاني طائعًا حدوداً معلومة، والحرية تقتضي إسقاط ذلك كما لا يخفىٰ.

وأما إسقاطها لحقوق الوالدين فلأنهم ـ خذلهم الله ـ يقولون: إن الولد الحدث إذا وصل إلىٰ حد البلوغ والبنت البكر إذا بلغت سن العشرين مثلاً يفعلان بأنفسهما ما شاءا ولا كلام للوالدين فضلاً عن الأقارب فضلا عن الحاكم، ونحن نعلم أن الأب يسخطه ما يرىٰ من ولده أو بنته من الأمور التي تهتك المروءة وتزري بالعرض سيما إذا كان من ذوي البيوتات، فارتكاب ذلك علىٰ عينه مع منعه من الكلام فيه موجب للعقوق ومسقط لحقه من البرور.

وأما إسقاطها لحقوق الإنسانية فإن الله ـ تعالىٰ ـ لما خلق الإنسان كرمه وشرفه بالعقل الذي يعقله عن الوقوع في الرذائل ويبعثه علىٰ الاتصاف بالفضائل وبذلك تميز عما عداه من الحيوان، وضابط الحرية عندهم لا يوجب مراعاة هـٰذه الأمور بل يبيح للإنسان أن يتعاطىٰ ما ينفر عنه الطبع وتأباه الغريزة الإنسانية من التظاهر

بالفحش والزنا وغير ذلك إن شاء لأنه مالك أمر نفسه فلا يلزم أن يتقيد بقيد ولا فرق بينه وبين البهيمة المرسلة إلَّا في شيء واحد هو إعطاء الحق لإنسان آخر مثله فلا يجوز له أن يظلمه، وما عدا ذلك فلا سبيل لأحد على إلزامه إياه، وهـٰذا واضح البطلان؛ لأن الله ـ تعالىٰ ـ حكيم وما ميز الإنسان بالعقل إلَّا ليحمله هـٰذه التكاليف الشرعية من معرفة خالقه وبارئه والخضوع له لتكون له بها المنزلة عند الله في العقبىٰ ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأحزاب: ٧٢] الآية.

واعلم أن الحرية الشرعية هي التي ذكرها الله في كتابه، وبينها رسول الله ﷺ لأمته، وحررها الفقهاء ﷺ في باب الحجر من كتبهم فراجع ذلك وتفهمه ترشد وبالله التوفيق.

وفاة أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الرحمن رحمه الله

كانت وفاة أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الرحمـٰن ـ رحمه الله ـ في زوال يوم الخميس الثامن عشر من رجب الفرد الحرام سنة تسعين ومائتين وألف بداره بحضرة مراكش في البستان المسمىٰ بالنيل ولم يمرض إلَّا يومًا أو بعض يوم.

[٤٨٨] بقية أخبار السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن رحمه الله ومآثره وسيرته

كان السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمـٰن ـ رحمه الله ـ متقيًا لله ـ تعالىٰ ـ بانيًا أمره علىٰ الشرع، لا يشذ عنه طرفة عين، حتىٰ أنه لما عزم علىٰ بناء داره التي برباط الفتح قام جماعة من أهل البلد يطلبون منه النَّصَفَة في جناتهم التي هنالك فأذعن ـ رحمه الله ـ لأعمال الشرع معهم واستناب وكيلاً عنه واستنابوا هم وكيلهم أيضًا وتحاكموا لدىٰ قاضي سلا الفقيه أبي عبد الله محمد العربي ابن أحمد بن منصور، ثم انفصلت القضية عن ضرب من الصلح بأن أعطاهم أثمان جناتهم أو بعضها وذهبوا بسلام.

وكان ـ رحمه الله ـ حازمًا في أمره، عالي الهمة راميًا بها الغرض الأقصىٰ إلَّا أن الزمان لم يساعده كل المساعدة فكانت همته أجل من دهره، وكان ذا سياسة وسكينة

وتأنٍ في الأمور وتبصر بالعواقب، كثير الحياء، بعيد الغضب، سريع الرضىٰ، مشفقًا علىٰ الرعية متوقفًا في الدماء، لا يزايل خوف الله قلبه، رحمه الله.

الخبر عن دولة ملك الزمن أمير المؤمنين المولى حسن بن محمد بن عبد الرحمن خلد الله ملكه

لما توفي السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمـٰن ـ رحمه الله ـ اجتمع أهل الحل والعقد من كبار الدولة وقواد الجيش والقضاة والعلماء والأشراف وأعيان مراكش وأحوازها علىٰ بيعة نجله أمير المؤمنين المولىٰ أبي علي حسن بن محمد لما توفر فيه من شروط الإمامة، وتكامل فيه من النجدة والشهامة والزعامة، ولما اتصف به من الفضل والدين وسائر خصال الخير وأسباب اليقين، ولأن والده ـ رحمه الله ـ كان استخلفه في حياته وألقىٰ عليه بجميع مهماته، فنهض بأعبائها.

وفي سنة أربع وتسعين ومائتين وألف وفد علىٰ السلطان ـ أيده الله ـ عدة باشدورات [١] للأجناس مثل باشدور الفرنسيس، والإصبنيول، والبرتغال، وغيرهم، وتكلم الفرنسيس في شأن بابور البر [٢] والتلغراف وإجرائهما بالمغرب كما هما بسائر بلاد المعمور، وزعم أن في ذلك نفعًا كبيرًا للمسلمين والنصارىٰ، وهو ـ والله ـ عين الضرر، وإنما النصارىٰ أجربوا سائر البلاد فأرادوا أن يُجربوا هـٰذا القطر السعيد الذي طهره الله من دنسهم نسأله سبحانه أن يكبت كيدهم ويحفظ المسلمين من شرهم [٣].

وفي أواخر صفر سنة اثنتين وثلاثمائة وألف قام نواب الإصبنيول من مراسي المغرب الأقصىٰ بعد أن أقاموا بها نيفًا وعشرين سنة لاستيفاء ما وقع من الصلح عليه في حرب تطاوين، وكان جملة المال المصالح عليه عشرين مليونًا من الريال الكبير، وكان السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمـٰن ـ رحمه الله ـ قد دفع منه عشرة ملايين معجلة والعشرة الباقية هي التي استوفاها الإصبنيول في المدة المذكورة أقام أمناءه مع

---

(١) قلت: أي سفراء.

(٢) قلت: أي القطار.

(٣) قلت: لم يظهر لي وجه اعتراض المؤلف علىٰ ما ذكر إلّا أنه يخاف أن يتخذه النصارىٰ تُكأة لموطن قدم لهم في المغرب، والله أعلم.

أمناء السلطان بمراسي المغرب، فكان كل فريق يستوفي نصف الداخل حتىٰ تم العمل.

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثمائة وألف وفي أواسط ربيع الأول من السنة المذكورة ورد أمر السلطان ـ أيده الله ـ بتسريح ما كان موظفًا علىٰ أبواب المدن والقرىٰ مما كانت تؤديه العامة علىٰ أحمال السلع والتجارات من المكوس (١) ولما ورد هٰذا الكتاب فرح الناس به ودعوا للسلطان بالنصر والتأييد من خالص نياتهم، نطلب الله ـ تعالىٰ ـ أن يتمم نعمته علىٰ المسلمين بتسريح ما بقي موظفًا من مبيعات الأسواق ويريح الناس من شؤمه؛ فإنه لا شيء أشأم من هٰذه المكوس علىٰ الدول نسأل الله العافية.

[٤٨٩] وفي هٰذه السنة اشتد حرص أجناس الفرنج علىٰ تنقيص صاكة الأعشار وطلبوا من السلطان أيده الله أن يحط عنهم من صاكة السلع الموسوقة التي كانت مسرحة من قبل، وأن يسرح لهم ما كان مثقفًا قبل ذلك (٢) وابدؤوا في ذلك وأعادوا وقاموا فيه وقعدوا، فلما رأىٰ السلطان ـ أيده الله ـ شدة حرصهم وتكالبهم كتب كتابًا إلىٰ الرعية يستشيرهم فيه.

ولما قرئ هٰذا الكتاب علىٰ خاصة الناس وعامتهم أجابوا كلهم بأن الرأي ما رآه السلطان ـ وفقه الله ـ إلَّا ما كان من بعض العامة الأغمار الذين لم يجربوا الأمور ولا اهتدوا إلىٰ النظر في العواقب فإنهم قالوا: ما نعطيهم إلَّا السيف، لكن لم يُلتفت إليهم.

وقد كتبت في هذه المسألة جوابا مطولاً رأيت إثباته هنا خشية ضياعه ونصه:

اعلموا ـ حفظكم الله ـ أن النظر في هٰذه النازلة، يكون من وجوه:

أحدها: من جهة الفقه والحكم الشرعيّ.

ثانيها: من جهة الرأي والسياسة وهٰذا لا بد أن يجري علىٰ ضابط الفقه أيضًا.

ثالثها: من جهة الفهم عن الله ـ تعالىٰ ـ والنظر في تصرفاته سبحانه في هٰذا الوجود بعين الاعتبار.

---

(١) قلت: هي الضرائب.

(٢) قلت: يريدون ـ والله أعلم ـ تقليل الضريبة علىٰ السلع المصدرة إليهم، وأن يسمح السلطان بتصدير بعض السلع التي كانت ممنوعة من التصدير من قبل.

فأما الوجه الأول: فاعلم أن الفقهاء ـ رضوان الله عليهم ـ قد نصوا على أنه لا يجوز بيع آلة الحرب من السلاح والكراع والسروج والترسة ونحو ذلك من الكفار الحربيين لما يخشى من تقويهم بذلك على المسلمين، هذه علة المنع وهي تفيد أمرين:

أحدهما: أن كل ما هو في معنى السلاح مما يفيدهم تقوية حكمه حكم السلاح في المنع وهو منصوص عليه فلا نحتاج إلى التطويل بجلبه.

ثانيهما: أن ما لا يتقوون به يجوز بيعه منهم كيف ما كان، وعدم التقوي يكون بأحد وجهين: إما يكون ذلك المبيع ليس من شأنه التقوِّي به في الحرب كبعض المأكولات والملبوسات وغير ذلك مما هو مسرح لهم اليوم وقبله بزمان، وإما بكونه من شأنه أن يتقوى به فيها ولكنه عديم الفائدة بالنسبة إلى حالهم اليوم لما تقرر من أنهم صاروا من القوة والاستعداد والتفنن في أنواع الآلات الحربية إلى حيث صارت آلاتنا عندهم هي والحطب سواء، والدليل على ذلك أنهم يبيعوننا أنواعًا من الآلات الحربية تقضي العجب من جودتها وإتقانها، ومع ذلك فينقل لنا عنهم أنهم لا يبيعوننا منها إلَّا ما انعدمت فائدته عندهم، لكونهم ترقوا عنها إلى ما هو أجود منها واستنبطوا ما هو أتقن وأنفع إلَّا فيما قل، وعلى هذا فتنبغي اليوم الفتوى بجواز بيع سلاحنا منهم فضلاً عن غيره لجزمنا بأن ذلك لا يفيدهم في معنى التقوي شيئًا، وإن كانت هناك فائدة فهي كلا فائدة، هذا إذا لم نتوقع ضرراً منهم عند امتناعنا من البيع، فأما إذا كنا نتوقعه منهم ـ كما هو حالنا اليوم ـ فيرتقي الحكم عن الجواز إلى ما هو فوقه وللضرورة أحكام تخصها.

فإن قلت: فقد أقدمت بهذا الكلام على ما لم يقدم عليه أحد قبلك في استجازتك بيع السلاح من الحربيين:

قلت: إنما ذكرت السلاح توطئة لما الكلام فيه حتى يؤخذ حكمه بالأحرى، ثم إني ما أقدمت عليه إلَّا بالقاعدة الفقهية لا مجازفة؛ كما أقدم من قبلي على إجازة بناء الكنائس بأرض المسلمين لأجل الضرورة الداعية إلى ذلك؛ فقد أفتى علماء الأندلس في القرن الخامس بالإذن للنصارى في إحداث الكنائس بأرض العدوة وبما اختطه المسلمون من الأمصار، مع أن الموجود في كتب السلف هو المنع، وما ذلك إلَّا لان الأحكام المرتبة على الأعراف تختلف باختلاف تلك الأعراف.

قال القرافي في كتاب «الإحكام في الفرق بين الفتاوى والأحكام» في السؤال التاسع والثلاثين ما نصه: إن قلت: ما الصحيح في هٰذه الأحكام الواقعة في مذهب مالك والشافعي وغيرهما المرتبة على العادة والعرف اللذين كانا حاصلين حالة جزم العلماء بهٰذه الأحكام فهل إذا تغيرت تلك العوائد وصارت تدل على ضد ما كانت تدل عليه أولا فهل تبطل هٰذه الفتاوى المسطورة في الكتب ونفتي بما تقتضيه هٰذه العوائد المتجددة أو يقال: نحن مقلدون، وما لنا إحداث شرع لعدم أهليتنا للاجتهاد فنفتي بما في الكتب المنقولة عن المجتهدين؟

فالجواب: أن إجراء هٰذه الأحكام التي مدركها العوائد مع تغير تلك العوائد خلاف الإجماع وجهالة في الدين بل كل ما هو في الشريعة يتبع العوائد يتغير الحكم فيه عند تغير العادة إلى ما تقتضيه العادة المتجددة، وليس ذلك تجديداً للاجتهاد من المقلد حتى تشترط فيه أهلية الاجتهاد بل هٰذه قاعدة اجتهد فيها العلماء وأجمعوا عليها فنحن نتبعهم فيها من غير استئناف اجتهاد. اهـ، ونحوه له في كتاب «الفروق» ونقله عنه الأئمة واعتمدوه، فبان من هٰذا أنه لا معنى للإفتاء اليوم بمنع بيع شيء من الكفار أيا كان إلَّا المصحف والمسلم وما في معناهما لأنهم بلغوا اليوم من القوة إلى الحد الذي لم يكن لأحد في ظن ولا حساب إلَّا أن يريد الله كفايتنا إياهم بأمر من عنده فهو سبحانه ولي ذلك والقادر عليه، وذلك ظننا به تعالى.

فإن قلت: هٰهنا مضرة أخرى تمنع من بيع ما طلبوه وهي التضييق على المسلمين في معايشهم ومرافقهم لأنهم إذا أكبوا على شراء هٰذه الأشياء فلا بد أن تغلو وترتفع أثمانها، وفي ذلك من الإضرار بالمسلمين ما لا يخفى، ولذا أفتى الأئمة بمنع الحكرة في كل ما للناس به حاجة من طعام وأدام وعروض، فإن كان في الحال سعة ولم يضر الاحتكار بالناس جاز في الطعام وغيره.

قلت: والناس اليوم والحمد لله في سعة، وأما حصول التضييق عليهم في معايشهم ومرافقهم بسبب تسريح وسق هٰذه الأشياء للنصارى فمشكوك فيه قد يحصل وقد لا يحصل، والشك مطروح في نظر الشرع بخلاف المضرة المتوقعة منهم عند المنع والمحاربة فمقطوع بها نظراً للقرائن القوية والعادة.

فإن قلت: بل الغالب حصول التضييق لا أنه مشكوك فقط.

قلت: ليس بغالب؛ فقد رأيناهم منذ أزمان وهم مكبون على وسق أشياء كثيرة مثل القطاني وغيرها ومع ذلك لم يحصل فيها والحمد لله إلّا الرخاء، بل الحق إن هذا من علم الغيب لا ينبغي لأحد أن يحكم عليه بغلبة ولا قلة؛ لأن الحكم في ذلك بالتخمين من باب التخرص على الله ـ تعالى ـ في غيبه وهو حرام، على أن النصارى إذا اشتروا منا شيئًا من ذلك فإنما يشترونه بالثمن الذي له بال ويعشرونه بالصاكة التي لها بال فتحصل الأرباح للرعية وللسلطان وهذه منفعة مقطوع بها، وأما الغلاء فمشكوك كما قلنا.

والحاصل: أن الأبحاث والتفريعات في هذا الموضوع كثيرة، وفي هذه النبذة كفاية لمن استبصر والله الموفق.

[٤٩٠] وأما الوجه الثاني: وهو النظر من جهة الرأي والسياسة ولا بد فيه من الفقه أيضًا إذ كل سياسة لا تستضيء بنور الشرع فهي ضلال فنقول: لا يخفى أن النصارى اليوم على غاية من القوة والاستعداد، والمسلمون ـ لَمّ الله شعثهم، وجبر كسرهم ـ على غاية من الضعف والاختلال، وإذا كان كذلك فكيف يسوغ في الرأي والسياسة، بل وفي الشرع أيضًا أن ينابذ الضعيف القوي أو يحارب الأعزل الشاكي السلاح [(١)] وكيف يُستجاز في الطبع أن يصارع المقعد القائم على رجليه، أو يُعقل في النظر أن تناطح الشاة الجماء الشاة القرناء كما قال الشاعر:

أهم بأمر الحزم لو أستطيعه وقد حيل بين العير والنزوان

فالمحاربة على هذا الوجه مما لم تقل به سياسة ولا وردت به شريعة، فهذا رسول الله ﷺ ـ وهو خير الخلق عند ربه وأكرمهم لديه ـ قد صالح المشركين يوم الحديبية صلحًا قال فيه بعض كبار الصحابة رضوان الله عليهم: نحن المسلمون فكيف نعطي الدنية في ديننا، ورد أبا جندل ﷺ إلى المشركين وهو يرسف في قيوده ويصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين كيف أرد إلى المشركين يفتنونني في ديني؟ والقصة مشهورة لا حاجة إلى التطويل بها، وقد عزم رسول الله ﷺ يوم الأحزاب أن يعطي عيينة بن حصن والحارث بن عوف وهما قائدا غطفان ثلث تمر المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه حتى رده عن ذلك سعد بن معاذ وسعد بن عبادة

---

(١) قلت: الشاكي السلاح؛ أي: التّام السلاح.

ﷺ حين أحسوا من أنفسهم بمقاومة العدو، وأين نحن منهم دينًا ويقينًا وبصيرة وثباتًا في الحرب، وقد أفتى الفقهاء - رضوان الله عليهم - لأجل هـٰذا الوارد عن رسول الله ﷺ بجواز عقد الهدنة مع الكفار على إعطاء المال، انظر المختصر وغيره، فإذا كان إعطاء المال مجانًا جائزًا عند الضرورة فكيف لا يجوز إعطاء بعض المتمولات بأثمانها التي لها بال، وأيضًا فهـٰؤلاء الأجناس إنما دعونا في ظاهر الأمر إلى السلم لا إلى الحرب، وغاية مطلوبهم في هـٰذه النازلة الاستكثار من ضروب المتاجرة التي ينشأ عنها في الغالب كثرة الممازجة بيننا وبينهم، ولعمري إن في اختلاطهم بنا وممازجتهم لنا لمضرة وأي مضرة وما يعقلها إلَّا العالمون، ولكنها تُستصغر بالنسبة إلى مضرة المحاربة، وليس من الرأي والسياسة أن يدعوك خصمك إلى السلم فتدعوه إلى الحرب ما وجدت إلى السلم سبيلاً، وهـٰذا هو الذي فعله رسول الله ﷺ يوم الحديبية فإنه قال لأصحابه لما اغتاظوا من ذلك الصلح وقال بعضهم: والله ما هـٰذا بفتح لقد صُددنا عن البيت وصُد هدينا: بل هو أعظم الفتوح قد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ويسألوكم القضية ويرغبوا إليكم من الأمان، إلى آخر ما قاله ﷺ، وإلى هـٰذا ونحوه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١] ذكر تعالى ذلك عقب قوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠] إشارة إلى أن الصلح يجوز ولو كان بالمسلمين قوة واستعداد - كما نبه عليه بعض المفسرين - فكيف ولا قوة ولا استعداد إلَّا أن يتداركنا الله بلطف من عنده، واختلف المفسرون هل الآية منسوخة أم لا، والصحيح - كما في الكشاف وغيره - أن الأمر موقوف على ما يرى فيه الإمام مصلحة للإسلام وأهله من حرب أو سلم، وليس بحتم أن يقاتلوا أبدًا أو يجابوا إلى الهدنة أبدًا. اهـ.

وهـٰذا مذهبنا ومذهب غيرنا ولذلك جازت عندنا الهدنة وإن على مال - كما مر - فدلت الآية الكريمة على أن السلم أولى من الحرب وهـٰذا هو المعلوم المسلم شرعًا وطبعًا، أما الشرع فهـٰذه الآية وقصة الحديبية وقوله تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨]، وقوله: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]، وهاتان الآيتان وإن نزلتا في شيء خاص لكن يجوز الاستشهاد بهما فيما نحن فيه وفي غيره إذ هما من الكلام

الجامع الجاري مجرى المثل والحكمة، وعن علّي ﷺ : ما دعوت إلى المبارزة قط وما دعاني أحد إليها إلّا أجبته، فقيل له في ذلك فقال: الداعي إلى الحرب باغ والباغي مصروع، وأما الطبع فلا يحتاج إلى شاهد؛ لأن كل عاقل يعلم أن السلم خير من الحرب، وقد قال شريك لمعاوية في مقاولة جرت بينهما: إنك ابن حرب والسلم خير من الحرب، وقال الحصين بن نمير السكوني لابن الزبير ﷺ يوم مات يزيد: اذهب معي إلى الشام لأدعو الناس إلى بيعتك فلا يتخلف عنك أحد، فقال ابن الزبير: أما دون أن أقتل بكل واحد من أهل الحجاز عشرة من أهل الشام فلا، وجعل ابن الزبير يجهر بذلك فقال له الحصين: أكلمك سراً وتكلمني جهراً، وأدعوك إلى السلم والخلافة وتدعوني إلى الحرب والمناجزة، كذب من زعم أنك داهية العرب اهـ، فقد عاب عليه ذلك من جهة الرأي كما ترى، وأنشد صاحب الكشاف وغيره لدى قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١] قول العباس بن مرداس ﷺ :

السلم تأخذ منها ما رضيت به　　　والحرب يكفيك من أنفاسها جرع

وفي كتاب الفتن من صحيح البخاري ما نصه: كان السلف يستحبون أن يتمثلوا بهٰذه الأبيات عند الفتن:

الحرب أول ما تكون فتية　　　تسعى بزينتها لكل جهول

حتى إذا اشتعلت وشب ضرامها　　　ولت عجوزا غير ذات حليل

شمطاء ينكر لونها وتغيرت　　　مكروهة للشم والتقبيل

قال القسطلاني: المراد أنهم يتمثلون بهٰذه الأبيات ليستحضروا ما شاهدوه وسمعوه من حال الفتنة، فإنهم يتذكرون بإنشادها ذلك فيصدهم عن الدخول فيها حتى لا يغتروا بظاهر أمرها أولاً اهـ.

ولا شك أن هٰذه حالة العامة الأغمار الذين لم تضرسهم الحروب ولا حنكتهم التجارب تجدهم إذا ظهرت مخايل فتنة ـ نسأل الله العافية ـ استشرفوا إليها وتمنوا خوضها وربما تألى بعضهم وقال: والله لئن حضرتها لأفعلن وأفعلن، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «لا تتمنوا لقاء العدو»، وحال هٰذا الغمر المتالي هو الذي أفصح

عنه المتنبي بقوله :

وإذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزالا

فهٰذا القطر المغربي - تدارك الله رمقه - على ما ترىٰ من غاية الضعف وقلة الاستعداد فلا تنبغي لأهله المسارعة إلىٰ الحرب مع العدو الكافر مع ما هو عليه من غاية الشوكة والقوة، وقد تقرر في علم الحكمة أن المعاندة والمدافعة إنما تحصل بين المتضادين والمتماثلين ولا تحصل بين المتخالفين، وحالنا اليوم مع العدو ليس من باب التضاد ولا من باب التماثل وإنما هو من باب التخالف فافهم، بل لو فرضنا أن أهل المغرب اليوم مماثلون للعدو في القوة والاستعداد لما كان ينبغي لهم ذلك؛ لأنه ليست العدة وحدها كافية في الحرب ولا كثرة الرجال والمقاتلة وحدها بالذي يغني فيها شيئًا، بل لا بد مع ذلك من اجتماع الكلمة وكون الناس فيها علىٰ قلب رجل واحد ولا بد مع ذلك من ضابط بجمعهم وقانون يسوسهم حتىٰ تكون الجماعة كالبدن الواحد يقوم جميعًا ويقعد جميعًا، وهٰذا معنىٰ ما صح في الحديث من قوله ﷺ: المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، فإن لم يكن ضابط وقانون فلا بد من نفاذ البصيرة في الدين، وقوة اليقين، والألفة فيما بين المسلمين، والغيرة علىٰ الوطن والحريم، وجودة الرأي والتمرس بالحروب ومكايد المشركين، وأهل المغرب اليوم إلَّا القليل منسلخون من هٰذا كله أو جله، فقد توالت عليهم الأجيال في السلم والهدنة، وبعد عهد أسلافهم فضلاً عنهم بالحرب وشدائدها ومعاناة الأعداء ومكايدها وإنما همهم مأكولهم ومشروبهم وملبوسهم - كما لا يخفىٰ - حتىٰ لم يبق من هٰذه الحيثية فرق بينهم وبين نسائهم، وليس الخبر كالعيان، فكيف يحسن في الرأي المسارعة إلىٰ عقد الحرب مع أجناس الفرنج وما مثلنا ومثلهم إلَّا كمثل طائرين أحدهما ذو جناحين يطير بهما حيث شاء، والآخر مقصوصهما واقع علىٰ الأرض لا يستطيع طيرانًا ولا يهتدي إليه سبيلاً، فهل ترىٰ لهٰذا المقصوص الجناحين الذي هو لحم علىٰ وضم أن يحارب ذلك الذي يطير حيث شاء؟ وهل يكون في ذلك إن كان إلَّا هلاك هٰذا وسلامة ذاك بل وغنيمته فإن ذاك ينقر هٰذا متىٰ وجد فيه فرصة للنقر ويبعد عنه ويطير إذا لم يجدها وهكذا يستمر حاله معه حتىٰ يُثْبته أو يملكه بالكلية، وليس في طوق هٰذا إلَّا أن يدفعه عن نفسه في بعض الأحيان إذا تأتَّىٰ له ذلك،

ولكن إلىٰ متىٰ فهكذا حالنا مع عدونا فإنه بقراصينه الحربية ذو أجنحة كثيرة فهو علينا بالخيار يهجم علينا في ثغورنا إذا شاء ويبعد عنا فلا ندركه متىٰ شاء، وقصارانا معه الدفع عن أنفسنا إذا اتفقت كلمتنا ولم تشغلنا غوغاء الأعراب من خلفنا وهيهات فقد جرب ذلك مراراً فصح، والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ـ كما قال عليه السلام ـ والكلام في هـٰذا الفصل أيضاً طويل وفيما أشرنا إليه كفاية.

[٤٩٢] فإن قلت: أراك قد صيرت الجهاد الذي حث عليه الشرع ووعد عليه بالثواب العظيم محض فتنة، وقد زهّدت الناس فيه وقطعت آمالهم منه بهـٰذا الكلام.

قلت: أعلمت يا أخي ما هو الجهاد الذي حث عليه الشرع ووعد عليه بالثواب العظيم؟ اعلم أن الجهاد المذكور هو قتال أهل الشرك والطغيان علىٰ إعلاء كلمة الرحمـٰن لينساقوا بذلك إلىٰ الدخول في دين الله طوعاً أو كرهاً، ولتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الشيطان هي السفلىٰ مع نفاذ البصيرة وخلوص النية والغيرة علىٰ دين الله، وكل ذلك بشرط القوة المكافئة أو القريبة منها، ومهما اختل ركن أو شرط مما ذكرنا كان إلىٰ الفتنة أقرب منه إلىٰ الجهاد، بل نقول إن الجهاد الشرعي قد تعذر منذ أحقاب فكيف تطلبه اليوم، فإن كنت تسارع إلىٰ الحرب لتدركه جهلاً منك بحقيقة الأمر فاعلم أنك إنما تسارع إلىٰ إيقاد نار الفتنة وإيجاد العدو السبيل عليك وإمكانه من ثغرتك، وتسليطه علىٰ السبي لحريمك ومالك ودمك ـ نسأل الله العافية ـ اللَّهم إلَّا أن تكون ممن اختارهم الله وأهلهم لذلك وكتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه كما نسمع اليوم عن أمة الحبشة والنوبة الذين يقاتلون عساكر الانجليز علىٰ تخوم صعيد مصر وغيرها فقد تواتر النقل وصح الخبر أن دولة الانجليز قد بارت حيلها مع هـٰؤلاء القوم وأنها وجهت إليهم العساكر من الديار المصرية بكل قوة وشوكة مرة بعد أخرىٰ فمحقوهم محقاً مع أنهم لايقاتلونهم في الغالب إلَّا بالحراب علىٰ عادة السودان في ذلك والنصر بيد الله[1].

وأما الوجه الثالث: وهو الفهم عن الله ـ تعالىٰ ـ والنظر في تصرفاته سبحانه في

(١) قلت: يريد محمد أحمد المهدي السوداني وقتاله للانجليز وقتله الجنرال «اللواء» جوردون قائد الحملة البريطانية علىٰ السودان.

هٰذا الوجود بعين الاعتبار فهٰذا حق الكلام فيه أن يكون من أرباب البصائر المتنورة والقلوب المطهرة لا من أمثالنا الذين أصبحوا على أنفسهم مسرفين، وفي أودية الشهوات منهمكين - تداركنا الله بلطفه - لكنا نقول وإن كان القول من باب الفضول: إذا نظرنا ما عامل الله - تعالى - به عبده أمير المؤمنين مولانا الحسن - أيده الله - وجدناه والحمد لله مصنوعًا له مصحوبًا بالعناية الإلهية، مكلوء بعين الرعاية الربانية تصحبه السعادة أينما توجه ويختار له في جميع ما يحاوله، ولا تنجلي مهماته إلَّا عن ما يسر الصديق ويسوء العدو، فالحمد لله على ذلك حمدًا كثيرًا، وهو مع ذلك جميل الظن بربه، حسن العقيدة في توكله عليه، مفردًا وجهته إليه، حريصًا على استصلاح رعيته، ذا غيرة تامة على الدين والوطن بحيث فاق بذلك وغيره من خصال الخير كثيرًا من ملوك عشيرته الذين تقدموه، وإذا كان كذلك فمن الرأي الذي لا رأي فوقه أن نفوض إليه في ذلك ونثق بحسن رأيه ويمن نقيبته ونجاوبه في هٰذه النازلة بأن الأمر في ذلك إليه لا إلى غيره؛ إذ هو الذي طوقه الله أمرنا، وكلفه النظر لنا والنصح لدينا، وإن كان لا بد من المشورة فليست إلَّا مع أهل الحل والعقد، وقد قال العلماء: أهل الحل والعقد هم أهل العلم والدين والبصر بهٰذا الأمر الخاص؛ لأنه يشترط في كل من ولي النظر في أمر ما من الأمور العلم به فما اختاره أمير المؤمنين اخترناه، وما انشرح له صدره وأمضاه أمضيناه، وكيف لا وما عوده الله إلَّا خيرًا ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] الآية، وعسى أن يكون فيما طلبه هٰؤلاء الأجناس فساد أمرهم وصلاح أمرنا، وذلك الظن به تعالى وما هو عليه بعزيز، فيكون تدميرهم في تدبيرهم، وقد استروحنا والحمد لله نسيم الفرج مما كنا فيه قبل اليوم، تمم الله علينا نعمته آمين.

وأيضًا ففي التفويض في هٰذه النازلة ضرب من التبري من الحول والقوة فحيث ساقت الأقدار إلينا هٰذا الأمر فينبغي أن نتلقاه بالرضى والتسليم بخلاف ما إذا استعملنا فيه حيلتنا ورأينا فيكون من باب الدخول في التدبير وشتان ما بين التفويض والتدبير، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، قاله وكتبه أحمد بن خالد الناصري - كان الله له - في عاشر شعبان سنة ثلاث وثلاثمائة وألف. اهـ.

ثم إن الله تعالىٰ لطف في هـٰذه النازلة بمنه اللطيف الجميل، وكفىٰ مؤنتها من ذلك المطلوب بشيء قليل، وذلك أن السلطان ـ أيده الله ـ سرح لهم وسق القمح والشعير ثلاث سنين ووضع عنهم من صاكتهما نحو الربع لا غير ولم يحصل والحمد لله للرعية ضرر قط.

[٤٩٣]ثم دخلت سنة أربع وثلاثمائة وألف فيها كتب السلطان مولاي الحسن ـ أيده الله ـ إلىٰ علماء فاس كتابًا يستفتيهم في حكم التجارة في الأعشاب المُرقدة والمفسدة ويستشيرهم في تسريحها وإمساكها، ونص ذلك الكتاب بعد الافتتاح: أحباءنا فقهاء فاس الأجِلَّة المرضيين، وعلماءها المرشدين سلام عليكم ورحمة الله تعالىٰ وبركاته وبعد:

فطالما قدمنا رجلا وأخرنا أخرىٰ في تسريح الصاكة التي هي الأعشاب المرقدة والمفسدة ونحوها وكان تسريحها من أهم الأمور لدينا وآكد من تسريح غيرها لما نجده في نفسنا لها من الاستقباح ونستقذره من أمرها في الغدو والرواح، مع مزيد ثقلها علىٰ فؤادنا وكونها أحرج في رُوعنا، وكان أسلافنا ـ قدسهم الله ـ اجتهدوا في قطعها وحسم مادتها بكل ما أمكنهم وأفضىٰ بهم الحال إلىٰ إحراقها مرارًا، ولما رأوا تمالؤ الرعاع والسفهاء والمقلين والمعدمين عليها ارتكبوا فيها ما يحصل به التضييق علىٰ مستعمليها وتمنع منهم فلا يلحقها إلَّا من عنده ما يشريها به، وهم في أولئك الرعاع قليل مع النظر لما يحصل لبيت المال من النفع الكثير فحيزت لجانب المخزن لتحصيل المقصدين المذكورين، وحيث قذف الله في قلبنا تسريحها ورفض درن ما يحصل منها تعارض لدينا أمران: وهما إبقاؤها بيد المخزن وتسريحها، أما الأول فهو الذي فررنا منه وبينا علله، وأما الثاني وهو التسريح فمقتضاه إغراء الرعاع والسفهاء علىٰ استعمالها ولاسيما مع انحطاط ثمنها فيتناولها القوي والضعيف فيصير ذلك ذريعة إلىٰ إباحة ما كانوا ممنوعين منه فيتجاهرون به ولا يخشون رقيبًا، ويأتي منها من بر النصارىٰ ما لا حصر له فيعشر كسائر المعشرات المباحة وتنبني علىٰ ذلك مفاسد هي أعظم من كونها محوزة، وأشكل الأمر فلتبينوا المخلص من ذلك بما تقتضيه قواعد الشريعة المطهرة حتىٰ نخرج من عهدة ذلك فإن الخطب عظيم، والسلام في الثالث والعشرين من المحرم عام أربعة وثلاثمائة وألف انتهىٰ كتاب السلطان أيده الله.

وأجاب عنه علماء فاس - وقرهم الله - بجواب طويل مرجعه إلى حرمة استعمال تلك الأعشاب والتجارة فيها حسبما عليه الجمهور من الفقهاء والصوفية، رضوان الله عليهم، ولما كان المقصود الأهم للسلطان - أيده الله - هو الإشارة بكيفية التخلص من ورطة تسريحها والحصول على السلامة مما عسى أن ينشأ عنه من المفاسد المرموز إليها في الكتاب الشريف كتب إلى بعض الأحبة من فاس بقصد المذاكرة في النازلة فأجبته عنها بما نصه: اعلم حفظك الله أن ما أجاب به سادتنا فقهاء فاس من حرمتها ووجوب تخلي المخزن عن بيعها هو الحق الذي لا محيد عنه لما اشتملت عليه تلك الأعشاب من المفاسد العديدة التي كل واحدة منها كافية في الجزم بحرمتها، وقد بينا شيئًا من ذلك في كتاب الاستقصاء عند الكلام على حدوثها ودخولها لبلاد المغرب أيام المنصور السعدي فلينظره من أراده فإنه كاف في هذا الباب (١).

وأما ما أشار إليه الكتاب الشريف من أن مصلحة احتياز المخزن لها واستبداده ببيعها هي التضييق على مستعمليها حتى لا يتناولها منهم إلَّا المليء بثمنها دون الفقير الخ فهي مصلحة موهومة أو معدومة لجزمنا بأن الحامل لمتعاطيها على استعمالها إنما هو التبذل وقلة المروءة ورقة الديانة وخسة النفس وسقوط الهمة، كما أن الوازع لمن لم يتعاطاها إنما هو كمال المروءة ومتانة الديانة وشرف النفس وعلو الهمة لا فقدان ذلك الثمن التافه كيف لا وهي لا يتعاطاها في الغالب إلَّا الفقراء المقلون، فمصلحة التضييق عليهم في ثمنها مفقودة كما ترى، وإذا كان كذلك فالواجب شرعًا ومروءة هو تنزيه منصب الإمامة الإسلامية والخلافة النبوية التي هي أهم الخطط الدينية والمناصب الشرعية عن التجارة فيها، وتطهير تلك الساحة الكريمة من التلوث بأقذارها إذ لا يناسب ذلك حال مطلق المسلمين فكيف بجناب أمير المؤمنين، وأيضًا ففي تناول ذلك الجناب لها بالتجارة والاستبداد بالربح تهييج للعامة عليها، وإغراء لهم بتعاطيها - كما قرره علماء فاس حفظهم الله - ولو نهوا عنها لما انتهوا بل ربما احتجوا بأنها لو كانت حرامًا ما احتازها المخزن واستبد بربحها، ومن العادة المقررة أنه لا يمتثل إلَّا قول الممتثل، ولا يؤتمر إلَّا بأمر المؤتمر، ولما انبرم الصلح بين رسول الله ﷺ وبين قريش يوم الحديبية وأمر أصحابه أن ينحروا ويحلقوا أمسكوا ولم يفعلوا

---

(١) قلت: انظر إلى فقرتي: [٣١٢]، [٣١٣] من هذا الكتاب المختصر.

حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد قام ﷺ فدخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس فقالت أم سلمة ﵂: «**يا نبي الله اخرج ثم لا تكلم منهم أحداً كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج ﷺ ولم يكلم أحداً منهم حتى نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كادوا يقتتلون**» اهـ، فكذلك نقول هنا إن العامة مهما رأوا الأمير تعاطى شيئا تعاطوه، وإذا رأوه نبذ أمراً نبذوه؛ لأن العامة مولعون بالاقتداء بالأمير ومن في معناه من الكبراء حسبما قرره ابن خلدون في كتاب طبيعة العمران من تاريخه.

وأما التخوّف من الإتيان بها من بر النصارى واشتغالهم بالتجارة فيها بأسواق المسلمين ونصب الدكاكين لبيعها وما ينشأ عن ذلك من المفاسد فهو مأمون بمقتضى الشروط المنعقدة بيننا وبينهم حسبما تضمنه الشرط الثاني والخامس والسابع من شروط التجارة المنعقدة مع الانجليز خصوصاً وغيره عموماً سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف، فقد صرح في الشرط الثاني منها بأن هذه الأعشاب ونحوها من جملة الممنوعات دخولاً وخروجاً، ثم نبه على ذلك أيضاً في الخامس والسابع فلينظره من أراده، وإنما يكون لهم بعد تخلي السلطان عن بيعها أن يجلبوا منها ما يحتاجونه لأنفسهم فقط لا أكثر منه كالخمر، ألا ترى أنهم اليوم إنما يجلبون منها ما يشربونه ويتبايعونه فيما بينهم ولا سبيل لهم إلى التجارة بها في أسواق المسلمين ونصب الدكاكين لبيعها، فكذلك هذه الأعشاب حكمها حكم الخمر حذو النعل بالنعل، وإذا امتنع المخزن من التجارة فيها مع بقاء منع الرعية منها أيضاً فلا حجة للنصارى في ذلك، ولا متكلم لهم فيه إذ ليس في امتناع المخزن حينئذ إلّا تأكيد المنع الذي كان قبل، وإنما تكون لهم الحجة إذا بيعت لبعض الرعايا دون بعض، لأن حاصل شروط التجارة الخمسة عشر ومدارها على أن رعايا الأجناس يكون لها ما لرعية الإيالة المغربية من التحجير والإطلاق والتخصيص والتعميم بحيث لا يستبد أحد من الفريقين بنوع من أنواع التجارة دون الآخر إلّا ما للمخزن فيه غرض ومصلحة في تثقيفه من أشياء مخصوصة فإنه يثقفه بنظره إذا شاء ويسرحه كذلك متى شاء، وإن اقتضى نظره أن يستبد بأرباح شيء من ذلك دون رعايا الفريقين فله ذلك وإنما الممنوع أن يبيح لرعيته دون رعايا غيره أو يبيح لبعض الأجناس دون بعض هذا

هو الممنوع في الشروط، أما هو في خاصة نفسه ومصلحة ملكه فله أن يستبد من تلك الممنوعات بما شاء، هٰذا حاصل تلك الشروط وإن طالت وامتدت، إذا علمت هٰذا فكيف يتخوف عند امتناع السلطان من بيع تلك الأعشاب مع استمرار منع الرعية منها أيضًا الإتيان بها من بر النصارىٰ ومتاجرتهم بها في أسواق المسلمين ونصب الدكاكين لها إلخ، هٰذا لا يتوهم، نعم يتخوف من ذلك إذا امتنع السلطان من بيعها وأذن للناس فيه وأطلق لهم يد التصرف به، وليس هٰذا مراد السلطان ـ أيده الله ـ وإن أوهمه لفظ الكتاب الشريف حيث قال: طالما قدمنا رجلاً وأخرنا أخرىٰ في تسريح الصاكة إلخ، ولعل الكاتب أو المملي عليه لم يحرر مراد السلطان ـ أيده الله ـ فنسج الكتاب علىٰ ذلك المنوال وأوهم أن أمير المؤمنين ـ أعزه الله ـ يريد أن يمتنع من بيع تلك الأعشاب تقذرًا لها وتأففًا منها ويبيحها لرعيته من المسلمين وغيرهم، ومعاذ الله أن يكون هٰذا مراده كيف وهو ـ أيده الله ـ من أخشىٰ الملوك وأتقاهم لله وأحبهم لرعاياه وأحدبهم عليها وأحرصهم علىٰ جلب النفع لها ودفع الضر عنها وأعلمهم بقول جده عليه الصلاة والسلام: «لا يكون المؤمن مؤمنًا حتى يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه» فقد بان لك من هٰذا التقرير أن الواجب شرعًا ومروءة هو المبادرة إلىٰ رفض التجارة في تلك الأعشاب، وتطهير ساحة الإمامة الإسلامية من قذرها، قال الله تعالىٰ في وصف رسوله صلوات الله عليه: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وكما يجب علىٰ أمير المؤمنين ـ أيده الله ـ تطهير ساحة الخلافة منها يجب عليه السعي في تطهير ساحة المسلمين أيضًا منها لما أسلفناه آنفًا.

فإن قلت: أما ما ذكرته من المبادرة إلىٰ تطهير ساحة الخلافة منها فسهل متيسر إن شاء الله، وأما تطهير ساحة المسلمين منها فيظهر أنه في غاية الصعوبة؛ لأن العامة إذا حملوا علىٰ رفضها كرة وألجئوا إلىٰ ترك استعمالها بالمرة ضاق بهم المتسع وساءت أخلاقهم وحاصوا حيصة حمر الوحش، وربما صدر منهم ما لا ينبغي من الإعلان بالخلاف والمجاهرة بالعصيان.

ومن وصايا أرسطوطاليس الحكيم لتلميذه الإسكندر: يا إسكندر تغافل عن العامة ما أمكن ولا تلجئها أن تقول فيك إلَّا خيرًا، فإن العامة إذا قدرت أن تقول قدرت أن

تفعل، أو كلاما هـٰذا معناه، والحاصل أن فطم العامة عما اعتادوه من بعض الجهالات وصرفهم عما مرنوا عليه من بعض الضلالات في غاية الصعوبة ولا يتيسر ذلك إلّا لمن هيأه الله له من نبي مرسل أو ولي كامل أو إمام عادل، وإذا كان صرف العامة عن هـٰذه المفسدة التي اعتادوها ونشؤوا عليها جيلاً بعد جيل وقرنًا بعد قرن يؤدي إلىٰ الهرج والخلاف جزمًا أو ظنًا فالواجب هو تركهم علىٰ ما هم عليه؛ لأن تغيير المنكر له شروط منها أن لا يؤدي إلىٰ منكر أعظم كما هو مقرر في الأصول والفروع.

قلنا: كل ما قررته في هـٰذا السؤال حق لا محيد عنه، ولكن نحن لا نقول إن أمير المؤمنين - أيده الله - يحمل العامة علىٰ رفضها كرة ويلجئهم إلىٰ تركها بالمرة، بل يسلك معهم في ذلك سبيل التدريج كما سلكه رسول الله ﷺ في تحريم الخمر علىٰ العرب؛ فإن الله - تعالىٰ - بعث محمداً ﷺ والعرب من أعشق الأمم للخمر وأشدهم بها ولوعًا وأكثرهم لها حبًا حتىٰ كانت شقيقة روحهم ومغناطيس أنسهم قد اتخذوا لها المجالس الحفيلة واختاروا لها القينات الجميلة، وضربوا عليها بالمعازف والدفوف، وحكموا لها علىٰ غيرها من مألوفاتهم بغاية الشفوف، حتىٰ نسبوا بها في أشعارهم، وتوجوا بها بنات أفكارهم، وبالجملة فلا يؤثر عن أمة من محبة الخمر ومدحها ما أثر عن العرب، فلذلك لما انصرفت عناية الشرع الكريم إلىٰ تحريمها كان ذلك علىٰ سبيل التدريج - كما هو معلوم في الكتاب والسنة - حتىٰ تم مراد الله ورسوله من العرب فرفضوها بالكلية، وسماها الشارع أم الخبائث زيادة في التنفير منها، وما حرمت آلات اللهو إلّا من أجلها ومبالغة في تحريمها؛ إذ هي وسيلة إليها - كما حققه الغزالي رحمه الله في كتاب السماع من الإحياء - وفي تفسير الخازن بعد سرده كيفية التحريم ما نصه: والحكمة في وقوع التحريم علىٰ هـٰذا الترتيب أن الله تعالىٰ علم أن القوم كانوا قد ألفوا شرب الخمر وكان انتفاعهم بذلك كثيراً فعلم أنه لو منعهم من الخمر دفعة واحدة لشق عليهم فلا جرم استعمل هـٰذا التدريج وهـٰذا الرفق، قال أنس رضي الله عنه: **«حرمت الخمر ولم يكن للعرب يومئذ عيش أعجب منها، وما حرم عليهم شيء أشد عليهم من الخمر»** اهـ.

إذا علمت هـٰذا، فنقول كذلك ينبغي لأمير المؤمنين - أيَّده الله - أن يسعىٰ في

تطهير رعيته من خبث هٰذه الأعشاب التي لا شيء أخبث منها ـ كما أوضحته في كتاب الاستقصاء ـ ويسلك معهم فيها سبيل التدريج صارفًا همته إليه ومستعينًا بالله ومتوكلاً في ذلك عليه، فإنه لا يصعب ذلك عليه إن شاء الله.

إذا كان عون الله للمرء ناصرا ... تهيأ له من كل صعب مراده

وكيفية التدريج في ذلك أن يأمر ـ أيده الله ـ علماء المجالس وخطباء المنابر ووعاظ الكراسي بالتواطىء علىٰ ذم تلك الأعشاب وتقبيحها في نفوس العامة، وإبداء معايبها لهم، وشرح مفاسدها لديهم، والتغليظ في ذلك بأبلغ ما يمكن، ومن قدر علىٰ تأليف ألفه أو شعر نظمه أو رسالة أنشأها، ويستمرون علىٰ ذلك ثلاثة أشهر أو أربعة أو أكثر من ذلك، فإن ذلك لا بد أن يؤثر في نفوس العامة بعض التأثير؛ فإن الهمم إذا تواطأت علىٰ شيء أثرت فيه بعون الله لا سيما همم أهل الخير، وفي الحديث: «يد الله مع الجماعة» ثم بعد مضي هٰذه المدة وتقرر قبحها في نفوس العامة يكتب أمير المؤمنين ـ أيده الله ـ إلىٰ قضاته ويأمرهم بتفقد الشهود وأئمة المساجد فمن عثروا عليه أنه يستعمل شيئًا من تلك الخبائث أسقطوا شهادته وحظروا إمامته، ويوالي الكتابة والاعتناء بذلك مدة مثل الأولىٰ أو أكثر، فيزداد قبحها في نفوس العامة وتعزف نفوس كثير منهم عنها، ثم بعد هٰذا كله يكتب لولاة الأمصار وعمال البوادي أن يتقدموا إلىٰ رعاياهم بمنع ازدراعها وادخار شيء منها أو التجارة فيه بوجه من الوجوه، فإذا تم هٰذا الغرض علىٰ هٰذا الوجه تخلىٰ هو حينئذ عن بيعها وأمر بإحراق باقيها وسد حاناتها المسماة في عرفنا بالقهاوي، ويمنع الناس من استعمالها في المجامع العامة كالأسواق ونحوها، ويشدد في ذلك ويعلن بالنداء في جميع الإيالة المغربية بأن حكم هٰذه الأعشاب حكم الخمر فكما لا يتجاهر بالخمر في الأسواق ونحوها كذلك لا يتجاهر باستعمال هٰذه الأعشاب فيها، ومن فعل ذلك أُدب أدبًا يليق به ويرتدع به غيره، فهٰذا أقصىٰ ما يفعله السلطان والتوفيق بعد ذلك بيد الله، وإذا تم هٰذا العمل في نحو ثلاث سنين فهو قريب، وإذا يسر الله ذلك كان فيه بشرىٰ للمسلمين وعنوانًا لهم علىٰ تجديد دينهم، ولعمري ما كان أمر الخمر في العرب إلّا أرسخ من أمر هٰذه الأعشاب في الناس اليوم بكثير، وأن الشبهة كانت فيها أقوىٰ منها في هٰذه، وذلك مظنة سهولة زوالها وتطهير البلاد والعباد منها، وما

ذلك على الله بعزيز.

قاله وكتبه أحمد بن خالد الناصري، لطف الله به في خامس عشر ربيع الثاني سنة أربع وثلاثمائة وألف.

ثم إن السلطان - أيده الله - رفض التجارة فيها وأحرق ما كان محوزًا لجانب المخزن منها، ومنع تجار الأجناس من جلبها إلى قطر المغرب إلّا القدر الذي يستعملونه في خاصة أنفسهم منها بشرط تعشيره وقصر نزوله على مرسى طنجة دون سائر المراسي المغربية، والحال على ذلك لهذا العهد.

ثم دخلت سنة ست وثلاثمائة وألف فيها غزا السلطان جبال غمارة فخرج من حضرة فاس عاشر شوال من السنة المذكورة فسلك تلك الجبال ودوخها، ثم تقدم إلى مدينة تطاوين فدخلها يوم الأربعاء ثامن المحرم من السنة التي تليها أعني سنة سبع وثلاثمائة وألف فأقام بها نحو الخمسة عشر يومًا، وزار صلحاءها وتطوف في معالمها، وتبارى وجوه أهل تطاوين وكبراؤهم في الإهداء إليه وبذل المجهود في الاعتناء بحاشيته وجيشه، وأعجب ذلك السلطان وحاشيته ورأوا منهم ما تقر به أعينهم وأنعم عليهم السلطان بعشرة آلاف ريال لبناء قنطرة يرتفقون بها في واديهم المحيط بمدينتهم لكن لم يحصل مقصود من ذلك لعدم إتقان بنائها فتهدمت في الحال وضاع ذلك المال، ثم سار السلطان من تطاوين إلى طنجة، ثم منها إلى العرائش، ثم عاد إلى فاس فأقام بها إلى أواسط شوال من السنة المذكورة، ثم سار إلى مراكش فأعرس لجماعة من بنيه وبناته، ووفدت عليه الوفود من أقطار المغرب بالتهنئة، وتباروا في الهدايا والتحف على ما ينبغي، وبالغ السلطان في إكرامهم وإفاضة الإنعام عليهم واستمر - أيده الله - على كرسي ملكه وأريكة عزه وسلطانه والأيام سلم له والدنيا مهنئة بعزه ونصره، والرعية طوع نهيه وأمره إلّا ما كان من نواب أجناس الدول فإنهم أكثروا التردد إليه، والاقتراحات عليه، والتلونات لديه، فمرة بالنصائح الفارغة، ومرة بالتظلمات الباطلة والحجج الواهية، وأخرى بطلب التخفيف من الأعشار والتنقيص من الصاكات إلى غير ذلك مما لا تكاد تقوم له الجبال الراسية، وهو يدافعهم ويراوغهم وحيدًا لا ناصر له ولا معين إلّا الله الذي أيد به الدين، وعصم به الإسلام والمسلمين.

ولما كانت سنة عشر وثلاثمائة وألف خرج السلطان مولاي الحسن أيده الله غازيًا صحراء تافيلالت وقبائلها فخرج إليها من فاس عقب عيد الأضحىٰ من السنة المذكورة فقضىٰ الأوطار من تمهيد تلك الأقطار علىٰ ما ينبغي، ثم كتب كتابًا إلىٰ ولاة المغرب يصف فيه الحال وما قاساه في تلك السفرة من الحل والارتحال. وكان رجوعه إلىٰ مراكش علىٰ طريق الفائجة، ولما انتهىٰ إلىٰ ثنية الكلاوي أصاب الناس ثلج كثير وبرد شديد تألموا منه حتىٰ السلطان، ثم خلصوا منه بعد عصب الريق.

[٤٩٤] وفي مدة غيبة السلطان هـٰذه حدثت حرب شديدة بين زناتة الريف وبين نصارىٰ الإصبنيول من أهل مليلية وما والاها فمحقتهم زناتة محقًا وشردوا بهم من خلفهم استئصالاً وقتلاً، وكان السبب في ذلك أنهم اقترحوا علىٰ السلطان أن يزيدهم في مساحة أرض مليلية علىٰ عادتهم في كثرة الاقتراحات والتلونات فأسعفهم وزادهم من أرض زناتة نحو الغلوة وصار الحد المشترك بين الفريقين قريبًا من تربة ولي الله سيدي وارياش وهو عند أهل تلك البلاد عظيم القدر شهير الذكر يتناوبونه للزيارة ويتبركون به ويدفنون عنده موتاهم [1]، فلم يحل لنصارىٰ مليلية بناء إلَّا بمحل يشرف علىٰ تربة الولي المذكور ويكشف عنها، فراودهم أهل الريف عن التخلي عن ذلك الموضع والبناء بغيره فأبوا وأصروا علىٰ الامتناع.

[٤٩٥] وربما لسعوهم بما أحفظهم [2] من الكلام المؤلم علىٰ عادتهم في ذلك؛ فإن هـٰذا الإصبنيول منذ كانت له الغلبة في حرب تطاوين وأهل المغرب معه في عناء شديد من كثرة ما يتعنت ويتجنىٰ عليهم، ويسمعهم من محفظات الكلام وصريح الملام لا سيما أوباشهم ورعاعهم، وتالله لقد سمعت أذناي من ذلك ما يضيق له الصدر ولا ينطلق به اللسان، وإذا رفعت الشكاية بهم إلىٰ أكابرهم غمصوا الحق وجادلوا بالباطل، هـٰذا دأبهم وديدنهم وإلىٰ الله وحده المشتكىٰ وله سبحانه العتبىٰ حتىٰ يرضىٰ ولا حول ولا قوة إلَّا به، فلما سلكوا هـٰذا المسلك ونحوه مع أهل الريف أذاقوهم من بأسهم شديد العقاب وأليم العذاب كما هو معلوم.

[٤٩٦] فلما احتل السلطان - أيده الله - بحضرة مراكش من هـٰذه السفرة قدم

---

(١) قلت: إنا لله وإنا إليه راجعون.

(٢) قلت: اي أغضبهم.

عليه وفد الإصبنيول يطلبون الإنصاف من أهل الريف في هـٰذه النازلة واستصحبوا معهم سربًا من الحمام الطيار بالمكاتيب والأخبار، ودار الكلام بينهم وبين السلطان في النازلة وحكم فيها من لم يكن ذا بصيرة بمعضلات النوازل من غافل أو متغافل، فوقع الفصل على أن يدفع السلطان عن دماء قتلاهم أربعة ملايين من الريال، وتم الصلح على ذلك، وكانوا في تلك المدة كلما دار بينهم وبين السلطان كلام في القضية أطاروا به الحمام إلى أرباب دولتهم بمادريد، والله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

وفاة السلطان الحسن بن محمد

وفي آخر هـٰذه السنة كانت وفاة السلطان مولاي الحسن بن محمد، رحمة الله عليه ورضوانه.

وكانت مدة خلافته إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر، وكان ـ رحمه الله ـ من خيار الملوك العلوية وأفاضلهم بما نشر من العدل وأصلح من الرعايا وأبقى من الآثار بالمغرب وثغوره، فالله تعالى يجبر كسر المسلمين فيه ويعوضهم أجراً عن مصابه آمين.

بيعة عبد العزيز بن الحسن بن محمد

وبايع أهل العقد والحل نجله الأرضى الأبر المرتضى مولانا عبد العزيز ابن مولانا الحسن نصره الله نصراً عزيزاً وفتح له فتحًا مبينًا آمين، وهو الآن على كرسي ملكه بفاس المحروسة كما ينبغي وعلى ما ينبغي.

[٤٩٧]وقد تسرب إليه جماعة من نواب الأجناس كعادتهم مع والده من قبله فقدموا عليه حضرة فاس مظهرين أنهم إنما قدموا للتهنئة ومرادهم خلاف ذلك ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]وما ظنك بمن يزعم أنه قدم للتهنئة وهو مقيم بالحضرة هـٰذه مدة من أربعة أشهر يتجسس الأخبار ويتطلع العورات ويترصد الغفلات، ويحصي الأنفاس لعله تظهر له خلة أو تمكنه فرصة، نسأل الله ـ تعالى ـ أن يرد كيده في نحره، ولعمري ما الحامل على هـٰذا ونحوه إلَّا قلة الحياء من الله ومن الناس، وإلا فما معنى الإقامة في سبيل التهنئة أربعة أشهر، ثم

انظر ما يزاد منها بعد ذلك، وكان مما يؤثر من كلام النبوة الأولى: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت»، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

[٤٩٨]واعلم أن أحوال هـٰذا الجيل الذي نحن فيه قد باينت أحوال الجيل الذي قبله غاية التباين، وانعكست عوائد الناس فيه غاية الانعكاس، وانقلبت أطوار أهل التجارة وغيرها من الحرف في جميع متصرفاتهم لا في سككهم ولا في أسعارهم ولا في سائر نفقاتهم بحيث ضاقت وجوه الأسباب على الناس، وصعبت عليهم سبل جلب الرزق والمعاش حتى لو نظرنا في حال الجيل الذي قبلنا وحال جيلنا الذي نحن فيه وقايسنا بينهما لوجدناهما كالمتضادين، والسبب الأعظم في ذلك: ملابسة الفرنج وغيرهم من أهل الأوربا للناس وكثرة مخالطتهم لهم وانتشارهم في الآفاق الإسلامية، فغلبت أحوالهم وعوائدهم على عوائد الجيل وجذبته إليها جذبة قوية.

[٤٩٩]و أهل المغرب أقل الأمم اختلاطًا بهم فهم أرخص الناس أسعارًا، وأرفقهم معاشًا، وأبعدهم زيًا وعادة من هـٰؤلاء الفرنج، وفي ذلك من سلامة دينهم ما لا يخفى، بخلاف مصر والشام وغيرهما من الأمصار فإنه يبلغنا عنهم ما تصم عنه الآذان، فليتأمَّل هـٰذا الذي ذكرناه وليعرف منه سرّ الله في خلقه.

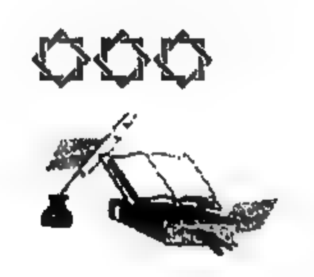
[٥٠٠]واعلم أيضًا أن أمر هـٰؤلاء الفرنج في هـٰذه السنين قد علا علوًا منكرًا وظهر ظهورًا لا كفاء له، وأسرعت أحواله في التقدم والزيادة إسراعًا متضاعفًا، وعلم عاقبة ذلك وغايته إلى الله ـ تعالى ـ المنفرد بالغيب.

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ... ولكنني عن علم ما في غد عَمِ

وهـٰذا ما قصدنا جمعه من هـٰذا الكتاب، والله الملهم للصواب، ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



فهرس الفوائد

قد درجت في كل الكتب التاريخية التي اختصرتها على عمل فهرست للفوائد يقربها للقراء، ويدنيها للباحثين؛ إذ كم من درر اختبأت في الكتب فلم تظهر بسبب الكشف عنها، وعدم عمل فهرست لها، ولقد رأيت فائدة تلك الفهارس منذ عملي في أول كتاب ألا وهو: «نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء».

ثم أتبعته بكتاب: «المختار المصون من أعلام القرون».

ثم مختصر كتاب: «الروضتين في أخبار الدولتين» لأبي شامة المقدسي.

ثم مختصر كتاب: «مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس» للجبرتي.

ثم مختصر كتاب: «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي الابن.

ثم مختصر كتاب: «الوافي بالوفيات» للصفدي.

ثم مختصر كتاب: «رضى القدوس تهذيب رياض النفوس» لأبي بكر المالكي.

ثم هذا الكتاب الجليل: «الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى».

وفي هذا الفهرست رقمت الفوائد من رقم[١] إلى رقم[٥٠٠] في صلب الكتاب المختصر، واجتهدت بألا أدع فائدة إلا وأجعل لها رقمًا، ثم عملت الفهرست على طريقة معقولة تتيح لمن أراد فائدة أن يقع عليها، فبدأت بالعبادات لأنها الأصل، ثم أتبعتها بفهرست العقيدة، ثم بفهرست الصفات الحسنة والصفات السيئة، ثم بفهرست العلم والعلماء، ثم بفهرست الجهاد الذي هو ثمرة العلم، ثم بفهرست الدول والملوك والسلاطين والوزراء والحاشية، ثم فهرست المنوعات التي لا تندرج تحت قسم معين.

والله أرجو أن ينتفع بهذا الفهرست وبإخوته من قبله، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم.





العبادات

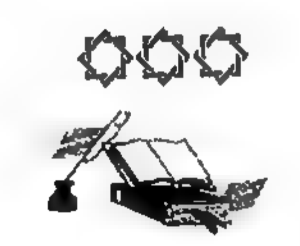
العقيدة

العلم والعلماء

الجهاد

الدول والملوك والسلاطين والولاة والوزراء والحاشية

منوعات



فِهْرِسُ الْمَوْضُوعَاتِ

الْمَوْضُوع	الصَّفْحَة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

المَوْضُوع — الصَفْحَة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الْمَوْضُوع الصَّفْحَة

المَوْضُوع | الصَّفْحَة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الْمَوْضُوع | الصَّفْحَة

المَوْضُوع **الصَّفْحَة**

تم بحمد الله تعالى

